

البرج الحلي

إلى مصر والسودان والحبشة

تصنيف الرحالة العثماني

أوليا جلبي

إشراف وتقديم

الدكتور محمد حرب

راجعها وأكمل مواقيها

الدكتورة ماجدة مخلوف

نقلها إلى العربية

الدكتور حسين مجيب المصري وآخرون

المجلد الثاني



منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

الرجل

إلى مصر والسودان والحبشة

تصنيف الرحالة العثماني
أوليا جلبي

إشراف وتقديم
الدكتور محمد عرب

راجعها وأكمل مواقفها
الدكتورة ماجدة مخلوف

نقلها إلى العربية
الدكتور حسين مجيب المصري وآخرون

المجلد الثاني



جميع الحقوق محفوظة للناتشر



دار الآفاق العربية

نشر - توزيع - طباعة

٥٥ ش محمود طلعت من ش الطيران

مدينة نصر - القاهرة

تليفون : ٢٦١٧٣٣٩

تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤

EMAIL: Daralafk@yahoo.com

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٥٨٤١

الترقيم الدولي : 1 - 126 - 344 - 944

الطبعة الأولى

٢٠٠٦ م

المركز الدولي للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

٨٣٣٨٢٤٤ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٠

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الإهداء

إلى الصديق البحريني
الدكتور سمير فخرو
أحد الأعمدة الأساس
في النهضة العربية المعاصرة

محمد حرب

الفصل الثالث والخمسين

فى بيان مواكب مشايخ منبع الأسرار

وقطب الأبرار القطب العلوى السيد أحمد البدوى

لأننا كنا فى بداية السنة القبطية وبقي على قطع النيل ستون يوم، وفى اليوم الذى تسقط فيه أول نقطة فى النيل يكون هذا متوافقاً مع ميلاد عالم الفقراء السيد أحمد البدوى، ويقوم أتباعه من الفقراء بالتجول فى الأسواق يعلنون عن قدوم مولد السيد البدوى (بالدفوف والطبول) ويقرأون القصائد ويوحدون وبعد ذلك يتبقى على قطع النيل خمسة وخمسين يوماً، ويتم إخبار كافة مشايخ ودراويش مصر فى ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ بميلاد مشهور الآفاق القطب على الإطلاق السيد أحمد البدوى، ويتجول فى بداية الشهر المذكور ما يقرب من خمسة عشر ألف أو عشرين ألف من فقراء ومشايخ مصر بآلاف الرايات والسناجق فى الأسواق وهم يطبلون على الدفوف والنقارات والطبول وينفخون فى الصور وحينئذ ينشغل سبعمائة شيخ بالتوحيد، حيث يسير موكب عظيم من الفقراء والمشايخ فى جماعات وصفوف إلى قصر الباشا الوالى وهم يرددون «يا رزاق» وعندما يصلوا إلى قصر الباشا يقوموا بالتهليل، ويظل المنكرون لذلك فى حيرة وتعجب من هذا المشهد.

بعد ذلك يخرج كافة المشايخ لمقابلة جان بولاد زاده حسين باشا أمين الديوان العالى، يرجونه استصدار فرمان بيده مولد أحمد البدوى، وبعد الدعاء والثناء، يصدر فرمان لخليفة البدوى بأن يقوم هو وكافة المشايخ بالتوجه بالسفن مع كافة الفقراء من بولاق فى موكب عظيم، حيث يتجهون إلى الغربية ويخطر حاكم الغربية حسن بك وحاكم المنوفية ميرزا كاشف بأن يقوم الجنود بحراسة كافة المشايخ والفقراء الحاضرين فى الموكب لمولد السيد أحمد البدوى وبنيه عليهم بأن تكون جنودهم فى حراسة خيام هؤلاء القادمين للمولد، وإذا ما صادف أحد الجنود أى مشقة من أشقياء العربان يحمل نبوت أو عصا أو سلاح فيقوم الجنود على الفور بقتله، ويحرر الأمر الشريف ويعطى للمشايخ ويقوم كبار المشايخ بالدعاء بالخير للباشا الوالى، ويقوم الباشا الوالى بإعطائهم خمسين سفينة

يركبها الفقراء الذاهبين لحضور مولد السيد أحمد البدوي، ويأخذون من المحتسب خمسين قنطاراً من البقسماط والبصل والجبن الحلوم، ويقوم الباشا الوالي بالإحسان على قبر أحمد البدوي بقطعتين من القماش الأخضر وكيلتين من العود وسجادة من الإبريشم، وشمعتان من شمع العسل تزن الواحدة خمسين أوقية، وخمسون عملة ذهبية لحتم القرآن الكريم خمسين مرة.

وبناءً على قانون التشريفات يقوم الوالي بتوديع كافة المشايخ وينزل إلى ميدان القصر ويقوم شيخ الجلادين بقراءة المولد أمام جميع أهل الديوان في ميدان القصر، ثم بعد ذلك يذهب كافة العاشقين الصادقين مع جملة الفقراء المجازيب من المدينة وهم يقولون «حي» «هو»، ثم يسير الخليفة (خليفة البدوي) فوق الجواد محيياً عن يمينه وشماله، ويكون شيخ المشايخ الشيخ مصطفى الروملي خليفة حضرة الشيخ مرزوق الكفافي قائداً لكافة المشايخ، ويعبر الموكب حيث ينادى الدلالون أن مولد البدوي يوم كذا القادم، وينزل موكب الشيخ الخليفة عند تكية الشيخ مرزوق الكفافي، وهنا يذهب كل العاشقين إلى ديارهم، وبهذا تُعلن بداية مولد الشيخ البدوي، وبعد ذلك بعشرين يوم.

أوصاف موكب مولد الشيخ إبراهيم الدسوقي

هذا أيضاً موكب عظيم، حيث يسير عدة آلاف من الفقراء والمشايخ على دقات الطبول، ويرفعون الرايات، حفاة الأقدام عراة الرأس يقولون: «يا رزاق» ويعبر موكبهم بالذكر والتهليل وهم في خشوع وخضوع متأدبين بأداب رسول الله ﷺ، ولا يوجد فيهم ملاميون أو مجاذيب، حيث أن تلك الطريقة هي الطريقة البرهانية الطريقة السلطانية، ويكون هذا الموكب على نفس نسق الموكب السابق، حيث يذهبون إلى قصر الباشا الوالي ويستأذنون منه، ويعبر موكبهم وهم يوحدون، وليس لهذا الموكب عطايا مثل الموكب السابق ولكن وزير مصر يقوم على سبيل الرحمة بتقديم قطعتين من القماش الأخضر وأوقية من عود البخور، هبة من وزير مصر حيث أن قانون التشريفات في مصر ليس به منح أو عطايا لهذا الموكب، وشيخ هذا الموكب هو الشيخ شرف الدين ويسير بموكب عظيم، ثم يسير المشايخ إلى منازلهم ويذهب كل شخص إلى داره، وبعد

تلك المواكب الخاصة بالموالد تكون كل ليلة فى مصر مولدًا للنبي وبذلك يكون ثلاثمائة وخمسة وستون مولد نبي، ومن تلك الليالى ليلة الإسراء وليلة القدر وليلة العيد الأكبر، وتكون كل تلك الموالد بفرمانات من الوزير، حيث يصل عدد تلك الفرمانات إلى اثني عشر، ويسنادى الدلالون بها. من تلك الليالى ليلة مولد أحمد البدوى وليلة مولد إبراهيم الدسوقي وليلة موكب أمير الحج وليلة السابع من شهر صفر وليلة مولد الجانبولاديه عند باب النصر، وقد تحرر هذا فى مواكب الحج، وهذا أيضًا يكون بفرمان من الوزير، ورابع تلك الموالد.

أوصاف مولد حضرة الشيخ البكرى

فى ليلة الإثنين الموافق الثانى عشر من شهر ربيع الأول تُزين مآذن مصر بمائة ألف قنديل لعدة مرات، حتى أن المدينة تصبح مضيئة تمامًا، ويقام فى تلك الليلة على جانب بركة الأربكية مولد الشيخ البكرى، حيث تُقام الموالد قبلها بآثنى عشر يومًا وليلة لحملة أعيان مصر، وتكون تلك الموالد لكل طبقة من الأعيان على حدة، فليلة للأئمة والخطباء وليلة للعلماء والصلحاء، وليلة للمشايخ الشرفاء وليلة لأعيان الأشراف، وليلة لتقيب الأشراف وليلة مشايخ المذاهب الأربعة وليلة للمدرسين وليلة للقضاة وليلة لقاضى مصر، وليلة لوزير مصر، وفى حالة ما إذا كان لا يقوى على السير يأتون هم إليه محبة منهم، لا سيما وأنها تكية عظيمة، وليلة لكافة الأمراء المحمدين، وينسحب الشيخ أبا بكر ويأتى بالإحسان والهدايا الكثيرة الوافرة ويأخذ منها الخاص والعام، ولا تبقى مياه فى بركة الأربكية، حيث يمكث كافة المشايخ والأعيان فى الخيام فى مساحة ألف فدان فى الصحراء الشاسعة، ويجتمع فقراء مائة وأربعين طريقة وينشغلوا بالذكر والتوحيد كما يؤسس سوقًا فى جهة منها، وتباع الأطعمة والمشروبات، وتكون أسواقًا كثيرة.

ويقوم أصحاب المنازل الواقعة على الجوانب الأربعة لبركة الأربكية بإضاءة مائة ألف قنديل عدة مرات، وتُطلق الأعيرة والألعاب النارية والفشكنك وتقرع الطبول وتعزف الموسيقى، بما تعجز اللسان عن وصفه، كما تُزين التكايا بالقناديل وعمود كل النواحي بالبشر وكأنها البحر، ويأخذ بنى آدم الذوق والصفاء من هذا المشهد، وفى تلك الأثناء

يستعد الشيخ لقراءة المولد النبوي في حضور العلماء والصلحاء والمشايخ على ضفاف حوض القاضى الأعظم، ثم يقوم بتلاوة التواشيح الدينية بنغمة حزينة، ويقرأ كافة الحضور المولد النبوي، ويقوم سبعون أو ثمانون خادم يرتدون البناتيل الحمراء بإشعال أعواد العنبر الحام، وتتعطر رموس العاشقين من رائحة المسك والعنبر، ويُوزع عليهم سكر النبات والمشاريب ذات المسك والمعطرة في أواني مزينة، ويُقرأ المولد الشريف ثلاث مرات ويُحسن على الموشحين والقارئ بالهدايا في الصباح، ثم يتوجه كل شخص إلى وجهته، والحاصل أن اللسان يعجز عن وصفه، وفي تلك الليلة أيضاً يكون مولد:

مولد تكية الشيخ إبراهيم الكلشنى

يقام هذا المولد ليلة الثانى عشر من شهر ربيع الاول ومن الصوفية من يذهبون إلى مولد سيدى الشيخ البكرى ويمضى البعض الآخر إلى مولد سيدى إبراهيم الكلشنى وهناك من يذهب إلى مولد البكرى، ثم يأتى إلى مولد إبراهيم الكلشنى.

إلا أن مولد الكلشنى هذا ليس مولدا للفلاحين ولا العوام من الناس بل هو لخواص الخواص، ويحضره جميع الأتراك وطوائف الجند وأرباب المعرفة والمتصوفة والظرفاء والشعراء. ولا يحضره الغريباء ولا الجهال.

وبعد العشاء ييسطون السجاجيد الحريرية الخضراء النفيسة في الحرم المجلو والمصقول أمام الضريح المنير والمعطر لسيدى الشيخ العزيز، ويأتى الصوفية زرافات زرافات وبعد أن يؤدى جمع حاشد من الناس صلاة العشاء يشكل جميع المتصوفة حلقة طبق المراسم الكلشنية وتتلّى سورة «المُلْك»، ويتلو جميع الصوفية الأوراد والأذكار فى صوت واحد وبقلب واحد وبينما يشغل عشرون بالذكر فى جانب وعشرون آخرون فى جانب آخر يقع بعض الصوفية فى حال الوجد فينهضون ويبدأون فيما يعرف بالسماح، ويدور جميع المتصوفة حول أنفسهم، وتصدر عن الذاكرين أشعار وأنغام شتى مختلفة المقامات الموسيقية، وهى كثيرة يصعب حصرها، وتختلط اثنا عشرة حلقة من حلقات المتصوفة بعضها ببعض متصادمين وقد امتلأت قلوبهم بصفاء المحبة فيقعون فى حال الجذب كما

يقعون فى حال الوله وهم فى دورانهم، ويتغنون بالمنظومات الدينية فى صوت حزين والنثى تسمى الواحدة منها «إلهى» ويداوم الذاكرون على ترديد كلمة «اللهم» فى ارتفاع وانخفاض من سمعها وكان مكدوداً مهموماً كاسف البال - دب فيه ديبب الحيوية والتفاؤل، والله أعلم.

وجملة القول أنه على هذا النحو ينشد اثنى عشر فصلا من التوحيد السلطانى فى اثنى عشر مقاماً ليست لواحدة من الطرق الصوفية المائة وأربعين، وربما كانت للطريقة المطاوعة أو الطريقة البرهانية.

وبعد هذه الفصول يخرج «جلبى أفندى» من خلوته فيحيه جميع الصوفية ويتقدمون لتقبيل يده، فلا يأذن بذلك إلا لمن بايعه وتشرب تعاليمه، وأصبح موضع سره ومن أهل طريقته؛ ولذا يقبل كف يده اليمنى.

و«جلبى أفندى» هذا لا يغادر حجرته قط ولا يختلط بأحد من عوام الناس. إلا أنه يخرج مرة واحدة فى العام هى ليلة المولد. وهو يمتنع دوماً عن الكلام صوام النهار قوام الليل دائماً فى طاعة وعبادة منقطع لتلاوة القرآن الكريم.

ولكى يتعيش يشغل بالخطاطة فهو جميل الخط، إنه يخط بعض الرسائل يرسلها إلى بعض المتصوفة تبركاً على سبيل الهدية.

وسبب خروجه يوم المولد هو أن بعض المتصوفة يبيايعونه ويدخلون فى طريقته وبعضهم ممن لديه الاستعداد للإقامة فى التكية طيلة أربعين أو خمسين سنة يثلقون على يده كيف يصبحون أصحاب سجادة فى بلد آخر. كما أن بعض المتصوفة يشرفون بلباقته مرة فى العام ويظفرون منه بخير الدعاء.

يجلس المتصوفة على السجادة الموجودة على يمنة المحراب فى سكون وخشوع وبعد أن يفرغوا من التوحيد والذكر يصعد المنبر عالم فاضل لتلاوة الأوراد ويردد الموشحات فى صوت واحد، ثم يبدأ ذلك الشيخ الفاضل فى قراءة «مولد سليمان جلبى»^(١) فى صوت رخيم فى اثنى عشر مقاماً، ويحيون الليلة حتى مطلع الفجر وهم على تلك الحال.

وعندما تحمل لحظة ولادة النبي وتذكر مولد خير الأنام ينهض المتصوفة جميعاً إعظاماً وإجلالاً ويتشدون هذه الأبيات في صوت حزين:

الم يكشف جمالك الدُّجَى يا رسول الله

الم يبلغ كلام حبيبك ذروة العلى

ثم يبدأ خدام المتصوفة الكلشيين في توزيع أنواع الحلوى على الحضور من الأعيان والأشراف، وبعضهم يوزع لفائف الثقل والأشربة المعطرة، وفي أثر ذلك توزع فناجين القهوة والشاي واللبن والفالودج والسحلب هنا وهناك.

وبعد ذلك يثر الصوفية ماء الورد وما أشبه على الحضور، ويحرقون العنبر والعود في المباخر فيتشئى الصوفية من شذاها.

وبذلك نكون قد انتهينا من ذكر مولد آخر، ويذهب من يذهب ويبقى من يبقى، ويبدأ الصوفية في تلاوة التوحيد ثانية وبعد الفراغ من تلاوته يتلون العشر الشريف: «بسم الله الرحمن الرحيم» «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا» [الزمر: ٧٣].

وبعد الدعاء يتوجه بعض الصوفية لزيارة سيدى الشيخ العزيز فى داره ثم يذهبون إلى منازلهم.

وجملة القول أنها تكية طريقة طاهرة يعجز اللسان عن امتداحها والسلام.

وفى ليالى هذا الشهر يزين فاعلو الخير المنارات بالعمائم والمسانيد والأقمشة لقراءة المولد، ويعلم من ذلك أن ثمة مولد سوف يتلى تلك الليلة فى ذلك الجامع فيحتشد الناس جميعاً فيه. وفى تلك الليلة توصل الحبال من دار إلى دار فى الحارة وتعلق فيها القناديل، كما تزين المقاهى والخوانيت بالقناديل كذلك. وهذا ما لا وجود له إلا فى القاهرة.

(١) منظومة تركية هى الأشهر عند الترك فى مدح الرسول محمد ﷺ، تعرف بـ «وسيلة النجاة» وقد نقلها نظماً وشرحها وعلق عليها الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى، ونشرت بالقاهرة ١٩٨١.

ومن الحق قولنا أن مصر نادرة الزمان.

ومن الناس من يتلو الموالد فى المنارات وأياً كان عدد من يتلون المولد فإنهم يأخذون العمائم الحريرية الموجودة فى المنارات. وثمة منارات تتسع الواحدة منها لأكثر من أربعين رجلاً، لأن كلا منها بنى طبقة فوق طبقة كأنها البرج وكل طبقة منها تتسع لخمسین رجلاً.

ويرد أكثر من أربعين من البدو المولد حتى مطلع الفجر للحصول على صرة وتبلغ أصواتهم عنان السماء.

أوصاف مولد سيدى أحمد الرفاعى

إنه برهانى الطريقة، يقام هذا المولد فى ليلة الجمعة الأولى من شهر رجب، والتكية الرفاعية تكية عظيمة عند جامع السلطان حسن فى حارة «صانعى الرماح»، وقد سبق وصفها ضمن حديثنا عن التكايا فى القاهرة.

وهذا المولد ليس مزدحماً إلى حد ما، ويحضره حشد من أهل التقوى والصلاح من ذوى الكرامات. يا له من ملتقى لخواص الخواص.

أوصاف مولد سيدى عمر بن القارض

تكية عظيمة فى سفح جبل الجوشى الواقع جنوب القاهرة، يقام فيها المولد مرة فى العام يحضره مائتا ألف من الناس.

وتجتمع كلمة علماء مصر على أنه فى ذلك اليوم تحضر روح النبى (صلى الله عليه وسلم) لأنه وقت إقامة هذا المولد يعم الضياء، ويخطف البرق فى داخل الجامع، وهذا ما لا حدوث له فى جامع آخر.

وما أن يصل متكبر أو متجبر إلى هذا المولد حتى يتعلق قلبه بهذه التكية. ويتوافد على هذه التكية جميع المتصوفة والمساكين والغرباء. وفى ليلة المولد تلك تتجلى كرامات بعض المتصوفة.

كرامات الشيخ محمد اللبنانى

بينما كنت أجلس مع إمام الدفتر دار أحمد باشا داخل محفل المؤذن نهض الشيخ

محمد اللبناني وهو من أصحاب الكرامات واتجه بالخطاب إلى إمام الباشا وسط حشد من الناس قائلاً: «يا إمام الوزير إنزل بالعجل إلى مصر، روح إلى الروم بالسلامة» ثم انزوى هذا الدرويش أسفل العمود الذي اعتكف تحته منذ سبع وأربعين سنة وكل من سمع هذا من قوله قال: انزل يا إمام انزل. فمنهم من ظن أن الإمام سيموت، ومنهم من ظن أن المحفل الذي يجلس فيه سوف ينهار.

فخاف الإمام ونزل أما أنا فلم أحرك ساكناً قط ولبثت في مكاني رابط الجأش. وفي اليوم السابع خلع أحمد باشا الدفتردار وإمامه وعمت الثورة القاهرة. ولعل هذا كانت نبوءة الشيخ اللبناني.

أى أن تكية عمر بن الفارض تلك بها العديد من أصحاب الكرامات ممن لا سبيل إلى امتداحهم أو وصفهم. وهذه التكية راوية اعتكاف أهل الحال ممن يتحدثون بالتخاطر ويصلون إلى هذه المرتبة بالرياضات والمجاهدات. إنهم صوامون يفطرون مرة في الأسبوع وهم أناس أطهار أبرار.

وأثناء مقامي في القاهرة (في كل يوم جمعة عقب الصلاة رأيتهم يقيمون شعائرتهم) ويحتشد آلاف من الناس وكنت في ذلك اليوم بالذات ألقى بهذه الطائفة الخاصة وكم شاهدت لبعضهم من كرامات. وطيلة إقامتي في القاهرة لم أتخلف عنهم قط في يوم جمعة، لأنني كنت أكتسب من ذلك صفاء الروح وأقف على مختلف أسرار أحوالهم. وفي يوم الجمعة في تلك التكية تنشد القصيدة «التائية» لعمر بن الفارض، وعندئذ يغيب المتصوفة في نشوة الوجد ويضربون الأعمدة براءوسهم فلا يصيهم من ذلك أذى بإذن الله. ويتبارى العديد من أصحاب الصوت الرخيم في تلاوة العشر الشريف وقصائد مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم).

إنها تكية يستجاب فيها الدعاء والمولد المقام فيها مولد يحضره جميع المتصوفة.

مولد أبى السعود الجارحى

ثمة بلدة تقع بين مصر العتيقة ومصر الحديثة يقام فيها المولد فى يوم الأربعاء من كل أسبوع إلا أنه يزدان بمئات الآلاف من القناديل ، وتهتز السماء والأرض من دوى التوحيد طيلة ثلاثة أيام بلياليها حتى مطلع الفجر .

ولأن هذه البلدة تبعد عن جنوب القاهرة بثلاثة آلاف خطوة يمضى إليها مائتا ألف على ظهور الحمر ، فيمتلئ ذلك الوادى بالحمر ويتزاحم الناس فيه وكأنهم فى موسم الحج . ولأن سيدى الشيخ أبى السعود الجارحى قريب عهد بهم فهم يذكرون عنه الكرامات ويحتفون احتفاء لا مزيد عليه بمولده .

لقد عاش الشيخ أبو السعود فى عهد السلطان سليم وهو القائل : «تعال يا سليم اجلس على تخت مصر» .

مناقب الشيخ الفانى

وثمة من عمر وشرف بصحبة الشيخ أبى السعود الجارحى واتفق أن أتوا به إلى مجلس جان بولاد زاده حسين باشا وقبل الباشا يده الشريفة ، ونال منه خير الدعاء إنه الشيخ الفانى (بير فانى) ، وهو ليس من أهل القاهرة بل هو من المنوفية ، وبما أنها تمتاز بجو لطيف فقد عمر طويلاً ، ولقد ظفر بدعاء سيدى الشيخ أبى السعود فنبتت أسنانه اللبنة فى فمه وكف بصره ، وصارت عيناه وكأنها قديد ، وكان يبكى كالأطفال قائلاً : إننى جائع منذ ساعة .

ها هو من يعمر ببركة دعاء سيدى الشيخ أبى السعود له . ولله الحمد أنى شرفت بتقبيل يد هذا الشيخ الهرم الذى شرف برؤية صباحة وجه الشيخ أبى السعود الجارحى وبلغ السبعين بعد المائة من سنه ، وظفرت منه بخير الدعاء .

ولأن الشيخ أبى السعود أحد أقطاب الصوفية العظام يقام له مولد عظيم .

مولد الإمام الشافعى .رحمة الله عليه

يمضى آلاف الناس لزيارته كل ليلة سبت ويختمون القرآن الكريم مئآت المرات حتى مطلع الفجر شريطة أن يقوم بذلك شيوخ المذهب الشافعى . وهناك من لم ينقطعوا عن حضور هذا المولد منذ أكثر من أربعين سنة وهم كثرة .

وفى كل عام تقام سوق عظيمة ثلاثة أيام بلياليها فتصبح بليدة الإمام الشافعى بحرا زاخراً من البشر . وكم من أناس دفنوا تحت الضريح العالى ممن استشهدوا فى شدة الزحام ولا حاجة لنا للإسهاب فى هذا الباب .

وليعلم إخوان الصفا أنه ليلة إقامة المولد فى أيامنا تلك يختم القرآن الكريم أربعمئة وثلاث وعشرون مرة لأنه فى تلك الليالى يجتمع الآلاف من حفاظ القرآن الكريم ويقال إنه فى إحدى السنوات على عهد إبراهيم باشا ختم القرآن سبعمئة وأربعين مرة ، كما يقال إن أرواح جميع الأقطاب والأولياء تحضر فى تلك الليلة داخل الجامع لذا وقبل بدء المولد بخمسة أيام أو أكثر يستأجر أشرف القاهرة وأعيانها المنازل فى بليدة الإمام الشافعى بخمسة أو عشرة قروش ، ويأتون بأهلهم وعيالهم وأطعمتهم وأشربتهم ويمرحون وينعمون . ويأتى التجار بمئآت من خيامهم لبيع الأطعمة والأشربة وبذلك تقام سوق عظيمة . تزين مئآت الخيام من خيام الزوار بالقناديل كما تزين جميع المنارات وأسطح المنازل بمئآت الآلاف من القناديل فتبدو المدينة فى كامل زينتها . وبذلك ينتهى حديثنا عن مولد الإمام الشافعى .

وقبل أن ينفض جمع المجتمعين ينطلقون إلى مولد سيدى أبى الليث على مقربة من الإمام الشافعى .

مولد تكية سيدى الشيخ أبى الليث

وهو يشبه مولد الإمام الشافعى إلى حد بعيد ، يحضره المؤلفون والمصنفون ومعهم آثار عبقريتهم ويلتقى فيه شيوخ الإسلام على المذاهب الثلاثة وتعرض جميع المؤلفات والرسائل على أهل العلم والفضلاء لقراءتها ، وإذا رأوا مؤلفا قتما ختموه ووقعوا على صفحات الكتاب مجيزين بذلك تلاوته وتداوله .

ويضعون هذه المؤلفات ليلة أو أكثر فى الصندوق الذى يعلو ضريح سيدى «أبى الليث» واتفق أكثر من مرة أن أخرجت تلك المؤلفات من موضعها فى الصندوق ولوحظ أن بعض مواضع فيها قد شطب وبعض مواضعها الأخرى صُوِّب، كما وجدت رسالة فى العقائد لأحد المؤلفين محترقة داخل الصندوق ووجدت النسخة الأخرى منها فى الصباح - محترقة - وقد حدث ذلك فى عهد أبى النور محمد باشا. فأبو الليث إمام همام يحتشد فى تكيته العلماء والصلحاء والحفاظ يختمون القرآن الكريم آلاف المرات طيلة ثلاثة أيام بلياليها حتى مطلع الفجر. وهكذا تكون موالد أعظم العلماء. وهذا ما يعجز عنه الوصف.

بعد ذلك يمضى المتصوفة إلى الشيخ عقبة.

مولد سيدى الشيخ عقبة الجهينى - رحمة الله عليه -

لحق بهذه التكية الخراب على نحو ما أسلفنا ذكره، لذا تعذر إقامة مولده لفترة، وفى عام ١٠٦٣ رأى خاصكى محمد باشا المشهور بأبى النور محمد باشا الشيخ عقبة فى منامه؛ فجدد هذه التكية وبنى بها جامعاً شامخاً وسبيلاً وساقيتين ومطبخاً ومهبطاً للنور فوق ضريح الشيخ، وأنفق على بناء ذلك مائتى كيس مصرى، وجعل لها أوقافاً عظيمة، وأوقف على إقامة مولده ألف قرش فى كل عام، وعين لها ناظرًا من فرقة الإنكشارية.

وهذا المولد مولد سلطانى كغيره من الموالد السالف ذكرها يقام فتطيب به روح سيدى الشيخ عقبة الجهينى العامرى. ولكثرة ما لهذه التكية من أطعمة وأشربة ترد إليها من أوقافها توزع على العلماء والصلحاء والمتصوفة.

وفى سفح جبل الجوشى:

مولد الشيخ شاهين (قدس سره العزيز)

موضع نزه يستحق المشاهدة يقام فيه كذلك المولد يوما وليلة، ولأنها تكية واقعة على ربوة قائمة فهى ضيقة، لذا فهى ليست كثيرة الزحام إلا أن المولد الذى يقام فيها مولد عجب.

مولد الشيخ الجوشى

تكية عالية قائمة على قمة جبل المقطم، تبدو مدينة القاهرة من هذا الجبل تحت القدم، تضرب الخيام على قمة هذا الجبل يوما وليلة لإقامة مولد عظيم، وقد شيد هذا الجامع وأوقف عليه أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى وزير المستنصر بالله العباسى وسمى الجبل الجوشى نسبة إليه أما اسمه فهو «جبل المقطم».

مولد أثر قدم النبى

إنها تكية واسعة بها جامع كبير وقبة عالية أسفلها أثر قدم النبى، وكل هذه الأبنية من إنشاء إبراهيم باشا الدفتردار. وقد سبق لنا أن وصفناها. ويقام فيها كذلك مولد عظيم يدوم يوما وليلة وفيه تتعالى الأصوات بالدعاء لصاحب الخيرات - إبراهيم باشا الدفتردار.

مولد الشيخ السادات

يقام هذا المولد فى التكية التى دفن فيها أجداده العظام فى الموضع الذى يسمى (١) فى القرافة الكبرى وذلك فى منتصف شهر شعبان، وتقام الخيام والسراقات فيها ثلاثة أيام لبلايلها، ويتوافد عليها البكوات من مريديه، ويزينون منارة الجامع وجدران التكية وأبوابها، وجميع الخيام بمئات الآلاف من القناديل، ويأتى جمع غفير من الناس وتوزع الأطعمة على الغادى والرائح. إنه مولد عظيم وهو واحد كآلف، يحتشد فيه مئات الآلاف من الرجال والنساء والكبار والصغار، وذلك فى صحراء مترامية الأطراف، ويمضون هنا وهناك للزيارة، ذلك أن ثمة أضرحة لكثير من الصحابة الكرام والأولياء فى تلك النواحي.

كما دفن فى هذه الجهات من أبناء الأنبياء «بنيامين ابن سيدنا يعقوب عليه السلام» و«إفرايم» بن يوسف الصديق الذى ولد فى مدينة الفيوم. وغيرهم الكثير. وسوف توصف هذه المزارات فى حينه.

(١) يياض فى الأصل.

ذكر مناقب الشيخ السادات (أبو التخصيص)

وسيدى الشيخ السادات أبو التخصيص شيخ رفيع المنزلة، لذا لا يتخلف أحد من العلماء والصلحاء والأعيان والأشراف عن ريارته قط، فهم منجذبون إليه إلا أنهم عندما يحضر إلى تكية أجداده ليلة المولد يأتى وفى معيته ألف أو ألفين من المشايخ الكرام ويستوى الشيخ أبو التخصيص على سرير خلافة، وقد أصبح الضريح نورا على نور من مئات الآلاف من القناديل وشمع الكافور، وعندما يتلو ألفان من المشايخ أوراد السادات فى صوت واحد يغيب المرء فى نشوة الوجد، وينصرف عن الدنيا وما فيها، ويغمر النور وجهه وقلبه، وفى تلك اللحظة يسأل الشيخ عن اسم أو من قبل يديه فيكنيه بكنية ويلف عمامة الرضا - التى يبلغ طولها أكثر من ذراعين - حول عنقه وبذلك يمنحه الإجازة ويعتبره فى عداد المتصوفة.

وفى كل مولد يقام يلف الشيخ عمامة الرضا حول عنق أكثر من ثلاثة آلاف رجل ويخلع على كل واحد منهم لقباً. يا لها من حكمة عجيبة. وليس لأحد أن يتنازل عن كنيته التى منحها الشيخ له، وفى عهد خلافته لم يخلع لقباً واحداً على شخصين وهذا سر إلهى عجيب وكان يخلع هذه الألقاب على مريده بإلهام ربانى، وقد منحنى كنية هى «أبو الصفا» وببركة نفسه المبارك أنعم بالصفاء والطمأنينة، وقد لف حول عنقى شالا كشميريا ومنح بعض الأشراف كذلك الشال اللاهورى والشال الكيلانى ودعا لنا بكل خير.

وكان الشيخ إذا ما رأى شخصا كناه بكنية منذ عشرة أعوام ناداه بكنيته قائلاً:
يا أبا الوفا أو يا أبا العال. فما أقوى حافظته التى لها مرتبة القداسة، وكان إذا خلع عمامة الرضا على شخص وجاء إليه هذا الشخص ثانية خلع عليه أخرى وهذا بذل عظيم للمال كذلك.

وجملة القول أنه لا يمكن الوقوف على حقيقة أمر هذا الشيخ بأى حال من الأحوال. وفى كل عام يمضى كل من هؤلاء السادات بثلاثمائة من الجمال وأكثر من خمسمائة خادم إلى الكعبة الشريفة ويتصدقون بجزيل الأموال ويعودون بسلام.

إنها طائفة مؤدبة وعظيمة الثراء وليس فى طبعها التباهى، إلا أنهم يقيمون مولدا عظيما مرة فى العام يشرف بحضوره كثير من المريدين والأحباب.

مولد الشيخ البكرى

فى يوم الخميس من شهر يوليو يقام مولد عظيم فى تكية أجداد الشيخ البكرى الواقعة أسفل ضريح الإمام الشافعى. ويواكب هذا المولد مولد الشيخ السادات وتورع فيه الصدقات ويغنى جميع أهل القاهرة عن السؤال وتضرب فيها كذلك الخيام والسرادقات وتقام الأسواق ويضاء الجامع ومناثره وقاعاته بمئات الآلاف من القناديل مما يجعل الليل نهارا، ويحيون المولد حتى مطلع الفجر ويتلى مرات ثلاثا. إنه مولد عظيم.

مولد أم القياس

سبق أن أشرنا أثناء الحديث عن أوصاف أم القياس إلى أنه عندما تقوم كتيبة من الإنكشارية بتطهير حوض أم القياس تعم البهجة سبعة أيام وسبع ليال، وفى الليلة الثامنة يمضى العسكر وفى ليلة الجمعة يقام مولد عظيم وفى الصباح ينتهى رئيس الجاوشية من إقامة المآذب.

المولد الثانى لأم القياس

بعد ذلك فى ليلة سقوط النقطة إلى النيل (ليلة وفاء النيل) يقام المولد الثانى لأم القياس، ويحضره جميع أشراف وعلماء وصلحاء القاهرة وقيوم وكيل مصروفات الباشا السماط ثلاث مرات من صلب مال الباشا احتفالا بالمولد الشريف، وينتظر جميع العلماء زيادة ماء النيل. وتعهد مهمة إقامة هذا المولد إلى رئيس التراجمة إلا أن نفقاته من صلب مال الباشا.

مولد المحمودية

يقام هذا المولد فى جامع المحمودية وهو على مقربة من السلطان حسن. وبالقرب منه:

مولد أمير أخورية

يقام فى جامع أمير أخورية.

مولد السادات

ثمة مولد آخر لشيوخ السادات ويقام هذا المولد داخل الأزهر.

مولد السلطان قايتباي

يقام هذا المولد خارج القاهرة وهو كذلك مولد عظيم وتوزع من مبرته الاطعمة على الفقراء والمحتاجين والمقتدرين كذلك، ويقام هذا المولد مرة في العام ويحتشد فيه خلق كثير.

مولد إبراهيم الكلشنى

يقام فى تكية الكلشنية فى بولاق وسوف نذكرها فى حينها.

مولد الشيخ الطشطوشى

وهو مولد آخر لاتباع الطريقة البكرية، وهو كذلك مولد عظيم بالقرب من السلطان الشعراوى.

مولد الشيخ الشعراوى

إنه كذلك مولد عظيم لجميع العلماء الكبار. وجامعه ضيق، لذا لا يتسع لخلق كثير إلا أنه فى هذا المولد تغمر الجامع روحانية عجيبة.

مولد الشيخ الحنفى

وفيه كذلك يحتشد خلق كثير

مولد الشيخ الخلوتى

بالقرب من قنطرة السنقور، إنه كذلك مولد المشايخ إلا أنه ليس عظيم الزحام كغيره من الموالد.

مولد النبى المقام فى تكية سيدنا الحسين

قبل سبعين عاما عطلت إقامة هذا المولد بإيعاز وإغواء من المنكرين، بعد ذلك فى عام ١٠٨٩ ذهب جميع الأشراف إلى مجلس عبد الرحمن باشا وبسطوا إليه الرجاء بإقامة المولد الشريف فى المشهد الحسينى فى هذه السنة المباركة. فوقع ذلك موقع القبول لديه وأصدر أوامره إلى الصوباشى والمحتسب وقاضى العسكر فى صورة مرسوم وجاء فيه:

(لِتَضَاءُ القناديل في جميع المآثر ليلة عاشوراء (أى الليلة الثانية عشرة من شهر المحرم ولتزين جميع الأسواق والحوانيت ليل نهار بالقناديل كذلك) وأمر الدلالين أن ينادوا بذلك ولإقامة المولد داخل المشهد الحسينى قدم عبد الرحمن باشا ستة آلاف پاره وعمامة خضراء وأوقية من العود وقنطارا من شمع الكافور .
والى الآن يقام هذا المولد من أوقاف عبد الرحمن باشا وجميع الأشراف وأهل القاهرة يدعون له بالخير .

قاعدة حسنيات القاهرة

بحلول اليوم الحادى عشر من شهر محرم ليلة مولد الإمام الحسين يجتمع عدة آلاف من يهود القاهرة، كل ثلاثة فى مكان وفى أيديهم زنايل، وأثناء بيعهم ما فيها من عطور وبخور يصيح الثلاثة فى صوت واحد وتبلغ صيحاتهم عنان السماء وتتردد داخل الأسواق والحوانيت . وهذه عادة قديمة، ويعطر بخورهم وعطورهم القاهرة حتى الثانى عشر من شهر محرم . إنها ظاهرة ذات مغزى .
وعلاوة على هذه الموالد يقيم أصحاب الخيرات عدة آلاف من الموالد فى بيوتهم ومساجدهم ورواياهم . وإقامة المولد الشريف فى جميع البلاد فى شهر ربيع الأول ولكن فى القاهرة يقام آلاف الموالد فى جميع شهور السنة ويحتشد فيها كثرة من الناس .

وفى بعض الأحياء يقام فى الليلة الواحدة أكثر من خمسة موالد . ويذل أهل القاهرة المال الجزيل لفرط محبتهم للنبي ﷺ ، لذا أصبح لهم ذائع الصيت بإقامة المولد الشريف .

وبعض الموالد سالفة الذكر يقام بمرسوم من الباشا وبعضها الآخر يقام حسب مراسم الشيوخ ولقد عرفت مئات الموالد غير التى تحدثت عنها ولكن تعذر على الحديث عنها كلها، لذا اكتفيت بما ذكرت منها . وحضرت معظم الموالد الشريفة المقامة خارج القرى والقصبات والثى تقام طبقا لمرسوم الباشا وسوف نذكر كل منها على قدر طاقتى فى موضعه .

الفصل الرابع والخمسون

الاماكن النزهة التى يرتادها أهل القاهرة العام منها والخاص

- بلدة البساتين:

بلدة عامرة تقع جنوب القاهرة على بعد ساعتين، وهى تحت إدارة نقباء الاشراف وبها حديقة قريبة من ساحل النيل كأنها الجنة. يتوسط هذه الحديقة قصر شامخ كأنه قصر الخورنق، وفى وسط هذا القصر حوض لطيف. إنه موضع نزه جميل به عدة قاعات علوية ومطبخ وسواق. إنه موضع تشرح الصدور لرؤيته.

- ممتزة قدم النبی:

من خيرات إبراهيم باشا الدفتردار، وهو أثر جد عظيم ينتشر به القصور والقاعات، وبه مطبخ وتكية عظيمة الاتساع وزوايا وسواق. وهذا كله من إنشاء إبراهيم باشا وقد ذكرنا توارىخ كل هذا سلفا.

- مخازن يوسف (أثبار يوسف):

مكان عجيب غريب

- ممتزه أم القياس: سبق وصفه.

- ممتزه الروضة:

فى جزيرة أم القياس كذلك، وهى حديقة انتقلت ملكيتها من يد حاكم إلى حاكم آخر وبداخلها حوض عظيم ويتوسط هذه الجزيرة قصر جميل شامخ يعبر إليه على جسر وبه قاعات متصلة جديرة بالمشاهدة.

- مصاد جبل الهرمين:

يسميه الناس «جبل الأهرام» ويسميه عوامهم «جبال فرعون»، أما فى اللغة القبطية فتسمى هذه الأهرام «أهرام برابى» وجاء فى تاريخ «ابن جلال» أن أول من بنى هذه الأهرام «برابى بن درمشيل بن مخويل بن خنوخ بن قاين» ولذا تسمى «بأهرام برابى» وتقع هذه الأهرام فى الجانب الغربى من النيل وهى جبلان كبيران وجبل صغير، وعلى مقربة منها يصاد الغزال والثور الوحشى والذئب والارانب وما أشبه.

وسوف نبين فيما بعد من بنى هذا الطلسم ولأى سبب بناه.

- مراعى أمير آخور:

تقع فى منطقة الجيزة عند حدود امبابه. إنها واد ذو زرع ترعى فيه خيول أهالى القاهرة ووزيرها. إنها موضع مخضوض ينشرح له صدر من يراه. ولكن ما فيها من زرع من غرس الإنسان. فبذور العشب المسمى «بالبرسيم» إذا بذرت فى ليلة ثمت فى صبيحة اليوم التالى فبلغت فى الطول إصبعين وفى اليوم الثالث يمكن للدواب أن ترعاها وجميع خيول القاهرة ترعى هذا العشب الذى يعرف فى بلاد الترك بـ «يونه»، وتضرب طائفة الجند وأمير آخور خيامهم فى هذه البقعة لرعى خيولهم ثلاثة أشهر بتمامها، وهناك ينعمون كذلك بالراحة والمتعة.

إنه سهل فيه مروج ورياض وأمير آخور الباشا حاكم مطلق عليه بتفويض من الباشا ومهمته تتبع اللصوص والضرب على أيديهم وإعمال السيف فيهم. ولأن هذه المنطقة تدخل فى حدود أولاد خبير يأتى منهم كل ليلة ألف من فرسان البدو - بخيولهم لحراسة جياد الباشا وغيرها من جياد طائفة الجند.

ويتعين على الأمير آخور أن يقيم للباشا سمطا عظيما، وأن يهدى إليه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشيه وثلاثة جياد أحدها ذا سرج مرصع بالجواهر، فيخلع الباشا عليه خلعة من فرو السمور. كما يقدم الأمير آخور جوادا إلى كل من كتخدا الباشا والخزينة دار ويوزع الهدايا كذلك على سائر رجال الباشا. ولأن عوائد وضرائب أمير آخور القاهرة والكتخدا معا ينص القانون على تعيين «أمير أمراء» الشام من بين أمراء آخور القاهرة.

ويتحصل لأمير آخور مائتا كيس من بيع العشب بالإضافة إلى دخل آخر من مصادر أخرى يقدر بمائتى كيس كذلك.

ويهدى الباشا ألفا من الجياد فى العام يلزم بأن يمنح الأمير آخور قماشاً من صرف على كل جواد من هذه الجياد الألفين.

وقياسا على ذلك فإنه بقدر ما تكون الأموال المتحصلة لأمير آخور وبقدر ما يكون شخصاً ذا وقار فإنه يتقاسم الربح مع الكتخدا.

متنزه قصر أبى العين الظاهر ببيرس

تكية بكتاشية على ضفة النيل وهى متنزه طيب النسيم وقد سبق أن وصفناها ضمن وصفنا للتكايا إلا أنه عندما شيد إبراهيم باشا قصرا شامخا فى أحد أركان هذه الحديقة أرخت له بهذا البيت:

يا أوليا نظمت هذا التاريخ وقلت داعيا
ليسبق هذا القصر عاليا

سنة ١٠٨٢

ويتصل بهذا القصر قصر آخر شيده عبد الرحمن باشا وأرخ له ركى خليل أفندى فقال:

قال تاريخه ركى الداعى بالبركات
هذا القصر ما يسمى بقصر الجنات

سنة ١٠٨٨

وقال آخر:

قال فى تاريخ هذا القصر العظيم
يا له من قصر فريد تشرح له الصدور فى الصميم

سنة ١٠٨٨

وعلى ضفة النيل أربعون موضعا لأشجار الجميز فى ظلالها مصاطب وكل منها موضع ظليل يشرح الصدور.

- متنزه طوب آتان (أى مطلق المدفع) وحديقة العجم، وحديقة الفرنجة، وحديقة رمضان بك فى طريق بولاق، وحديقة محمد چلبى صاحب العيار، وحديقة حسن بك. وإضافة إلى تلك الحدائق سالفة الذكر هناك ١٧٠ حديقة أخرى مفتوحة للعوام والخواص وكان كلا منها حديقة إرم ذات العماد.

- متنزه «جميز العبد»:

على ضفتى الطرف الشمالى للخليج الذى يخترق مدينة القاهرة بقعة مكسوة بأشجار الجميز، يتسع ظل كل منها لآلف كبش. وكل منها موضع ينشرح له الصدر وكل من

هذه الأشجار تمد أغصانها على النيل وظلالها لا يجعل لقيظ الشمس أى تأثير وظلال هذه الأشجار ملتقى لإخوان الصفاء والأحبة ذوى الوفاء، يجتمعون فيه للراحة والاستجمام.

- متنزه قصر السبتية بيولاقي:

متنزه به كثير من القاعات والظلات والحجرات الخاصة بالباشاوات وبعض الأعيان وإذا ما قدم الباشاوات من الأستانة إلى القاهرة بحرًا أو أقيم موكب أم القياس احتفالاً بقطع النيل فإن هذه المواكب كانت تخرج من قصر السبتية هذا. وفى أحد أطراف سقف هذا القصر تاريخ السلطان (^(١)) مشيده وهو: (إنه من بناء المعز الكريم العالى السيد محمد البدرى بن أبى البقا ولد المعز المرحوم سيد يحيى الجيعانى سنة ٦٨٧).

- حديقة رضوان بك:

تسمى بحديقة الرضوانية وهى حديقة كجنة رضوان، وليس لها من نظير فى مصر.

- متنزه التورحية:

يقع هذا المتنزه خارج قنطرة الليمون على ضفة خليج الشيخ البكرى.

- متنزه الطويخانه:

إنها زاوية لا وجود لمثلها فى القاهرة ولا فى المدائن بناها وزير السلطان قايتباى عند خروج سيده إلى الحج وعودته. ولهذه الزاوية قبة منقوشة تناطح الجوراء وترتفع عن الأرض بمقدار اثنتى عشرة درجة من الحجر وأبواب هذه القبة وجدانها من الرخام الطبيعى والأحجار الصماقية الملونة وأحجار اليشم والخرقانى واليرقانى وأحجار أخرى. وكانها الأحجار التى فى قبة الصخرة بالقدس.

والخط الكوفى الذى بداخلها وأعمال النحت والزخرفة الرائعة على الرخام والتى لا يخلو منها موضع فى القبة يعجز عنها مانى وحسان وبهزاد واررنك.

ومن الحق قولنا إن ثمة أساتذة عظام عاشوا فيما مضى من الأيام الخوالى.

(١) بياض فى الأصل.

وعلى يسرة هذه القبة العالية مرعى وكأنه الجنة وعلى يمتتها قاعات ودور للضيافة.
توزع الأطعمة على الغادى والرائح.

جملة القول أنها موضع نزه تنشرح له الصدور.

- متزه البشكية:

إنها ساحة للفروسية والرماية بالسهم، وفيها عدة قاعات ومطابخ وأحواض.
وفى الجانب الجنوبي منها فى الجبال على بعد ساعة.

- مصاد عين موسى:

إنها العين الواقعة فى جبل بجاميم والتى كانت موضع عبادة موسى - عليه السلام -
إلا أن ماءها أميل إلى الملوحة وليس ماءً عذباً كماء النيل. ويزور البدو هذا الموضع
قاطبة. كما يأتى إليه بعض جند مصر بأسلحتهم وخيولهم لصيد الغزلان واللصوص من
البدو.

- متزه عين شمس:

ذكر آتفا وكان يتصل بمدينة عين شمس مدينة تسمى «الفرما» وكان لها قلاعا مبنية
باللبن من ثلاثة طوابق، تمتد إلى البئر التى حفرها المسيح - عليه السلام - فى المطرية.
ولقد تخربت هذه المدينة بأكملها ولم يبق منها إلا مسلة من الحجر.

وعن سبب خراب هذه المدينة يحدثنا مؤرخو العرب فيقولون: إنه عندما قدم سيدنا
يعقوب - عليه السلام - للقاء ابنه يوسف الصديق نزل ضيفا فى عين شمس ومدينة
الفرما على سبعين من أشرافها الأثرياء لم يكرم وفادته أحد منهم، لذا دعا يعقوب الله
على هذه المدينة فلحق بها الخراب.

وفى النهاية التقى سيدنا يعقوب بيوسف الصديق فى مدينة الفيوم بعد فراق دام ستة
عشر عاما فارتد إليه بصره. وأوصى يوسف أن ينقل جثمانه بعد وفاته ليدفن فى جبل
جبرون بجبل الخليل.

- متزه قصر الغورية:

شيده السلطان الغورى وهو يبعد عن النيل. ووقت الفيضان يصبح هذا القصر وسط
الماء. وأسفل هذا القصر قاعة عظيمة وفيه عدة غرف ولكن ليست له آثار أخرى.

ولكن على مقربة من هذا القصر حدائق كحدائق الجنة بها قبة عالية ذات رخارف مثل قبة الطوبخانه إلا أنها لجامع، إلا أنها تشبه قبة الطوبخانه تمام الشبه.

- متنزّه ومزار «بئر المطرية»:

إنه مكان تعبد المسيح - عليه السلام - فى حدائق فى الجانب الشمالى من القاهرة على بعد ساعتين منها. وعندما كانت مصر فى حيرة اليونان كان فى هذه البقعة الكثير من الأبنية العظيمة. ولم يبق منها الآن إلا قاعة وزاوية. وفيها حوض من نزل فيه وكان به علة تم له الشفاء منها.

وجاء فى التواريخ وتواريخ اليونان أنه عندما هاجرت السيدة مريم مع ابنها المسيح عيسى من مدينة نابلس هبطت هذا المكان فطاب لها مستقرا ومقاما.

ويزعم النصارى أن المسيح عيسى وأمه السيدة مريم هما اللذان حفرا هذه البئر ليغتسلا وأنهما أقاما هذا الحوض. وهذا القول صحيح لا يتجافى عن الصواب، إذ إن جميع آبار القاهرة ماؤها أميل إلى الملوحة إلا أن ماء هذه البئر عذب بفضل معجزة المسيح - عليه السلام -.

وتسحب الثيران الماء العذب من هذا البئر بالدواليب لرى الحدائق المحيطة به من كل جانب. وكانت أشجار البلسم والبَلَسَان^(١) تملأ هذه الحدائق وكانت هذه الأشجار من غرس يد المسيح - عليه السلام -، ولم يكن لها من وجود فى بلد آخر. وكانت يستخرج منها الزيوت ويحتفظ بها الملوك فى خزائنهم تبركا.

وإذا ما تسم أحد وتناول من هذا الزيت مقدار قيراط نجى من الموت. وإذا لدغت أحد عقرب أو أفعى أو حية ودهن موضع اللدغ بزيت البلسان هذا أو لعقه نجى كذلك من الموت المحقق. وإذا دهن بهذا الزيت موضع ألم سكن هذا الألم.

(١) البَلَسْم: جنس شجر من القرنيات الفراشية، يسيل من فروعها وسوقها إذا جُرِحَتْ عُصَارَةٌ راتنجية، تستعمل فى الطب.

والبَلَسَانُ: شَجَرٌ له زهر أبيض صغير كهية العناقيد يستخرج من بعض أنواعه عطر.

وهذا الزيت معروف لدى النصارى فى القرى، وإذا لم يتناول منه النصرانى أو لم يدهن به جسمه لا يعد نصرانيا حقا. ويأتى النصارى من كل فج عميق إلى المطرية لزيارة هذه البئر والاغتسال فى حوضها، وهم يقطفون أوراق شجرة مريم ويقدمها البعض إلى البعض هدية فى مختلف الولايات، كما يحتفظون بهذه الأوراق بين صفحات الكتب.

إلا أنى لم أشاهد بها أشجار البلسم والبلسان تلك فسألت سدنثها فأجابونى بقولهم إنها جفت وتيبست منذ أن دخلت مصر فى حوزة العثمانيين.

ولكن أشجار البلسان منتشرة على طرق الكعبة الآن ويستخرج منها الأهالى زيوتها ويبيعونها فى جرار للحجيج.

- فوائد ماء بئر المطرية:

عندما يفيض النيل وتجرى مياهه خضراء اللون، ثم يحمر ماؤه عندئذ يمتنع الباشاوات والذواقة عن شرب ماء النيل. وسبب ذلك أن الماء الأخضر الذى ركد فى الترع والخلجان منذ العام الماضى يظهر فيه السم الزعاف وعندما يأتى فيضان النيل يدفع هذه المياه من الخلجان فتمر من القاهرة.

والتى إذا ما شرب أحد منها ابتلى بالمرض، لذا يمتنع الباشاوات والأعيان من شرب ماء النيل هذا طيلة شهر، ويشربون من بئر المطرية ذات الماء الزلال. إنها بقعة طيبة النسيم.

- متزه البئر المعظمة:

حفرها موسى - عليه السلام -، وإن كان بعض الأطباء يصفون ماء بئر المطرية بعذوبته وفوائده إلا أننى لم أشرب منها.

- متزه بركة الحج:

بقعة يقيم فيها حجيج مصر ثلاثة أيام وثلاث ليال عند خروجهم للحج يتزودون منها بمئات الآلاف من القرب المملوءة بمياه النيل. إنها خيرات عظيمة عجيبة، فقد شقوا بركة الحج هذه من النيل فكأنها بحيرة عظيمة. وهى تبعد عن القاهرة بمقدار أربع ساعات. وبعض وزراء مصر وأعيانها يسافرون عبر هذا الطريق ومنه يعودون إليها.

- متنزّه قلعة سبيل علام:

يتناوب عليها أحد أمراء مصر في خمسمائة من جنوده مرة في الشهر لحراسة المترددين عليها. إنها مصاد وميدان للرماية وميدان للتحطيب، أما للبدو فهي مكان للسطو على الناس. وقد جردوا من يسمى «بيريار ولي» من ملابسه وجعلوه مثل بهلوان تكية (كولشنجيلر) أي تكية المضحكين.

إلا أنه سهل طيب النسيم وشهرته في القاهرة باسم «سهل سبيل علام»،
فبينما كان السلطان سليم في طريقه إلى القاهرة دارت رحى الحرب السادسة بينه وبين السلطان طومانباي في سهل سبيل علام هذا. وقد استشهد في هذه المعركة سنان باشا الطواشي الصدر الأعظم، كما استشهد سبعة آلاف من جند العثمانيين وثلاثة وعشرون ألفاً من جند المصريين.

والآن ما يسمونه مقابر الشهداء في سبيل علام مزار يزوره عوام الناس وخواصهم وثمة غرف وقاعات عدة وسواق في قلعة سبيل علام يسكنها من يتولى الحراسة عليها من أمراء الجند. وفي جانبها الشمالي حدائق ومروج. وبها كذلك جامع ذو قبة ومنارة تركية الطراز وسبيل ومصاطب. والجامع بنى بتمامه من الحجر ويصعد إليه بسلم من ست درجات.

وعلى يسرة محاربه تاريخ مكتوب بخط جلبي هو:

أقام هذا الجامع الشريف
وهو مثل كتاب كارنامي كله حسنات
مير أكرم حسن بك
رفعه الله رافع الدرجات
وهذا التاريخ لهذا الجامع المنور
جامع الحسنات باهر النور

سنة ١٠٦٣

إنه جامع مزين يشتمل على ستة أعمدة ولكن لا حرم له.

- متزه العادلية:

واد يقع بين القاهرة وسبيل علام، يبعد ساعتين عن القاهرة، كان فى الزمان الخالى مستقرا لقبائل «السعادلية»، أقام به طومانباى جوسقا كان يعقد فيه الديوان لإقامة العدل والميزان بين الناس، لذا سمي هذا الوادى بـ «العادلية».

إنها بقعة طيبة النسيم تنشرح بها الصدور. إذا ما زارها عليل وجد الشفاء.

سبق الحديث فى عدة مواضع عن المعارك التى دارت رحاها بين السلطان طومانباى والسلطان سليم والثى على أثرها قبض سليم على طومانباى وصلبه على باب زويلة فوضع بذلك حدا للفتن والاضطرابات فى مصر. ثم أنزل سليم طومانباى من المشنقة وصلى عليه صلاة الجنازة وأمر بدفنه فى ضريحه بالعادلية.

ولما كان طومانباى سلطانا من أهل التقوى والصلاح، حافظا لكلام الله لم يصادر السلطان سليم أوقافه بل زين ضريحه بالأنوار وكان يزوره فى كل مرة يأتى فيها إلى العادلية.

وطومانباى مدفون فى تابوت من الرخام تحت قبة عالية ترتفع إلى عنان السماء وعلى الجوانب الأربعة لتابوته الرخامى نقش آية الكرسي وتاريخ هو:
(تحريرا فى سنة ستة وتسعمائة).

وبوفاة طومانباى دالت دولة الشراكسة. ولقد كان سلطانا صاحب خيرات له الكثير من المؤسسات الخيرية، فالخان والزاوية والتكية والمبرة والسيلان والساقية والمطبخ والغرف والقاعات المتعددة الخاصة بالباشاوات والقصور والأبهاء التى تشبه القلاع وما حولها من دور للضيافة كلها من خيرات رحمة الله عليه.

وهناك العديد من المتنزهات فى مختلف أنحاء القاهرة، إلا أن ما ذكرته هو ما زرته وشاهدته بعينى، لا ما سمعت عنه واجترأت على وصفه والاء المستعان. إلا أن الطف وأجمل هذه المتنزهات كان تكية «أثر قدم النبى».

الفصل الخامس والخمسون

في أغرب غرائب مصر وطلاسمها وعجائبها وحرف أهلها

سوف أتحدث عن لون بشرة شعب مصر، أم الدنيا، وحرفه بقدر وقوفى على حقيقة أمرها.

ومصر التى تحدثت عنها آنفا على وجه التفصيل هى «مصر القديمة» أى مدينة «الفسطاط» التى كانت عامرة فى الزمان الخالى. ومصر الحديثة ليست أحد أحيائها.

فقد أرخ علماء العالم بقولهم: إن حدود مصر تمتد من رشيد ودمياط والإسكندرية إلى إبريم وقلعة الصاى فى مسافة غاية فى عمرانها تقطع فى ثلاثة أشهر على ضفاف النيل حتى إن الرسائل كانت تسلم من يد إلى يد فتصل من رشيد إلى أسوان وأسنا والمنيا والصعيد العالى. فكانت مصر العتيقة مدينة مستبحرة العمران تتقارب قصورها العالية على ضفتى النيل بحيث يستطيع الديك أن ينتقل من سقف إلى سقف ويصل من مدينة بولاق ومصر العتيقة إلى مدينة «مقدونية» وهى موضع أثر قدم النبى ﷺ.

وكان أحد فروع نهر النيل يمتد من شمال مدينة القاهرة إلى عين شمس بمسيرة ست ساعات مستبحرة العمران على ضفتى النيل، كما أن أحد فروعه كان يبلغ مرحلتين من القاهرة حتى الفيوم وما بين ذلك حدائق وبساتين ولا يخلو موضع فيها من زرع. وهذا مما يجعله فى النظر أحسن وأجود الأقاليم، كما أنه أكثر الأقاليم خيرات وأكثرها قرى.

وفى جوف هذه الأراضى من أرض مصر كنوز عظيمة ودفائن جسيمة. يقول مؤرخ العالم الشيخ المقرئ: إنه لا يخلو ذراع من أرض مصر من كنز قديم.

وفى أيامنا تلك يعثر على أكثر من كنز فى كل عام. وهذا ما يبين إلى أى حد بعيد كانت ضفة النيل معمورة.

وقد نزلت فى شأن مصر آيات قرآنية على الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول عز من قائل: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)﴾ {الدخان: ٢٥ - ٢٦}، وقد فسر المفسرون هذه الآية بقولهم أن المقصود منها أرض مصر ونهر النيل.

وقد دعا موسى - عليه السلام - على مصر وشعبها بسبب ظلم فرعون وسوء ما صنع فتبدلت من عمرانها بخراب ومن بساتينها بتراب. وفى ذلك يقول عز من قائل: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾ [الاعراف: ١٣٧].

وعلاوة على خراب مصر بعد عهد فرعون يقول الحكماء: إن مصر وإن كانت قد تخربت سبع مرات فلا شك فى أنها عمرت كذلك سبع مرات.

أما محبى الدين بن عربى فيقول فى كتابه «الفتوحات المكية»:

«إن مصر بعد عام ١١٠٠ سوف تعمر إلى حد أن ذراعا من أرضها فى منطقة صحراوية أو منطقة تعلوها القمامة سوف يباع بألف دينار من ذهب، وسيأتى إليها «ابن كعب» من سلاطين آل عثمان فتطيب له مستقرا ومقاما ويتخذها حاضرة للملكه، وسيدور الفلك بما يحدث بها من أثر فيشيد شعبها المدن فى الصحراء حتى حدود مكة والمدينة ويجعلونها مروجاً وحدائقاً، وسيظهر بها أنهار كأن مياهها ماء الحياة فتصبح كل أكتافها رياضاً وغابات وتظهر فيها الضواوى. وسيجرى بحر السويس من مدينة (بليس) ويصب فى البحر الأبيض، وسيفتح طريق بين غزة وقبرص تسير فيه القوافل، وسيجرى بعض الملوك ذوى الهمم ماء النيل إلى جبل الجوشى فى مصر، وستفجر الماء الحار فى ثلاث آبار فى القاهرة».

هذا ما ذكره ابن عربى فى كتابه «اللهم يسر يا ميسر».

- عجيبه:

والواقع أن ذوى السن من أهل القاهرة يقولون: إننا منذ سبعين عاما لم نكن نعرف فى مصر الحدائق ولم نشاهد إلا حديقة قايتباى فى «قره ميدان» وأشجار النبق والجميز هنا وهناك خارج القاهرة. ولم نعرف غيرهما فاكهة، والآن ينمو فى مصر عشرون نوعا منها ويهطل المطر فى العام وكان قطراته الجوز وقد لا يهطل قط.

ولم نعرف فى مصر أحد يلبس الفرو فكان لبسه عيبا إلا للبكوات. ولم يكن يحل موسم الشتاء. أما الآن فيشتد برد الشتاء ويغزر المطر فصرنا نرتدى الفرو ليقينا شدة البرد.

وفى عهد كستخدا إبراهيم باشا اتفق أن نزل الثلج فى الصباح على مجرى العادة فجعل الأرض بيضاء وفى تلك الاوقات كذلك كان البرد ينزل وكانت الحبة منه تزن أكثر من ثلاثين درهما وعندما كان أبناء العرب يرون الثلج يسأل بعضهم البعض قائلا: إش هذا؟

وكان بعضهم يقول: «إن القطن نزل من السماء»، أما الترك فكانوا يحمدون الله ويأكلونه. وعندما كان العرب يسكون الثلج بأيديهم كان يحرقها كأنه النار فكانوا يقولون: «هذا مثل القطن ولكن ناره قوية».

وعندما كانوا يشاهدون البرد يقولون: «وقع من السماء بيض الدجاج». وحمدا لله فقد اعتدل جو مصر يوما بعد يوم ومضت شدة الحر وهطل غيث الرحمة مما غمر مصر بالخير فما وجد مثلها على وجه الأرض. وأصبحت «أم الدنيا» كأنها العروس فى زيتها، وبدأ المفتونون بها الاحتيال لصيدها.

أصل تسمية مصر «بأم الدنيا»

تضم مصر ما فى أنحاء الدنيا من جميع المخلوقات والملل الاثنتين والسبعين، واللغات المائة والأربعين، والله ييسط الرزق لهذا القدر من المخلوقات كرامة لمصر ولذلك تسمى بأم الدنيا.

وإذا ما ذهبت إلى أى مدينة فى مصر ونظرت فيها نظرة تأمل فلن تجد أحدا يتجاوز الآخر من شدة الزحام، وفى الطريق العام لا يمكن أن تسمع إلا عبارات مثل: «ظهرك وجنبك، ووشك ويمينك، ويسارك» ولا يمكنك المرور بسهولة من داخل الأسواق من شدة ازدحامها بالخيول والبغال والجمال والحمير والسائقين.

وأهل مصر جميعا من الفلاحين الكادحين، لذا يعملون مثل «فرهاد» مما يعود بالنفع على مصر. ويسمونها أم الدنيا لأنها تطعم هذه الدواب والمخلوقات كافة وتطعم الدنيا بأسرها وكأنها أمها وتصدر كل سلعتها إلى جميع أرجاء الدنيا.

وإذا ما قحطت الدنيا بأسرها والعياذ بالله فإن مصر تطعمها كأنها أم.

أما إذا قحطت مصر - حفظها الله - فإن جميع بلدان الدنيا تعجز عن إطعامها، وفى مصر أكثر مما فى الدنيا بأسرها من دواب ومخلوقات، كما أن أهلها كذلك لا يقعون تحت حصر. ومن ظلم وعسف جندها أصبح أهلها كقوم فرعون، ولأنهم بالغوا فى إظهار اسم «يا قهار» فقد حقر أهلها وذلوا واستحوذ جند السلطان على كل خيراتها وبقي الفلاح ذليلاً.

وفى شأن مصر وشعبها قال «كعب الأحبار» - رضى الله عنه - مصراعاً على لسان مصر هو: «خلق الله الغنى بمصر فقال الذل أنا معك».

والواقع أن الضعاف والفقراء والأذلاء من أهل مصر كثرة كاثرة، حتى إنه فى عام (١١) على عهد عبد الرحمن بأشأ على الرغم من كثرة الغلال لسوء تصرف الحكومة احتكرها الأغنياء فقحطت مصر قحطاً عظيماً للدرجة أن بعض الفقراء أكلوا الميتة، والبعض كان له قميص واحد يشترك فى لبسه مع زوجته، فكانت تلبسه نهاراً ويلبسه هو ليلاً.

وكانوا يعيشون على عشرين حبة من الفول فى اليوم. إلى هذا الحد كان الفقر وكانت كثرة الفقراء. لأنه عندما تحصل الخزائن من الرعايا والبرايا وهى إحدى وثمانون خزانة كان مئآت الآلاف من الناس يفلسون ويخلو وفاضهم. وهذه الخزائن المذكورة كانت تحصل بعد خمسة وسبعين يوماً من الحصاد. وباستثناء الماعز والأوز والخطب كانت ضريبة الجمر كتحصل على كل ما يطير فى السماء وما يدب على الأرض وما يسبح فى الماء وكل الأشياء «مقاطعة» حتى إن الفقراء المعدمين ممن هم فى أمس الحاجة إلى الفلوس الأحمر يؤدون الضرائب للحكومة وهم مقاطعة.

عجيبه أخرى:

ومن عجب أن بعض الفلاحين كانوا يسوقون أسراباً من الأوز فى شوارع القاهرة لبيعها وفى هذا الزحام كان الناس يدهمون بأقدامهم أسراب الأوز هذه فيجعلونها وكأنها رمال، ولكن لم تكن تفرض عليها ضريبة، وما عدا ذلك كانت تفرض عليه الضرائب والعشر السلطاني.

(١) بياض فى الأصل.

- إحدى العجائب المضحكة ممن تحصل منهم الضرائب:

وكثير من الفلاحين يقيمون لهم أكواخا على ضفة الخلدجان ويسكنونها، وإذا ما أراد أحد أن يشتري أورة أو بطة كان يمضى إلى سكان هذه الأكواخ وإذا ما قالوا لاحدهم يا حاج اعطنا أورة أو بطة. كان العربى يلبس القرعة التى بجانبه على رأسه ويمسك فى يده أربعين باعا من خيط الكتان ويقفز فى الماء ويبقى من يطلب البطة على الشاطئ ويسبح العربى فى الماء ويقرب من الأور والبط ويندس بينهم ويربط أقدامهم بالخيط الكتانى الذى فى يده فلا تشعر به هذه الطيور لأن ما يطفو بجانبها قرعة والعربى يراقب الطيور من ثقب القرعة ويقيد أرجلها ثم يخرج إلى الشاطئ ويسلم طرف الخيط إلى من يطلب الأورة فيقبض هذا الشخص على الخيط بيده ولا يجعله ينفلت منه ويجذبه وريدا وريدا حتى تقترب الطيور من الشاطئ، وعندئذ تدرك الطيور المسكينة ما وقع لها، فتفرق بأجنحتها. وتأخذ منها ما تريد من الطيور السمينة وتدفع پاره واحدة ثمنا لكل أورة منها وتطلق النحل منها.

وهذا العربى المذكور يلتزم بهذه الطيور ويؤدى ما عليه من ضرائب، وإذا ما صاد هذه الطيور غيره غرم. وكل ما يهرب من هذه الطيور المطلقة يعود حتما إلى هؤلاء الفلاحين وكأنهم سحرُوا من قبل هؤلاء الفلاحين. وكم لهم من حيل والأعيب شيطانية.

- من عجائب الضرائب:

وعجبية أخرى من عجائب الزمان هى أنهم يدفنون عشرة آلاف بيضة فى روث الخيل وبعد عشرين يوما يخرج منها عشرة آلاف فرخ تبدأ فى السير فيحار لذلك عقل الإنسان وهذا أمر غريب عجيب. إلا أن هذا العمل لا يقتدر على القيام به كل أحد، فهناك قرية تسمى «برمة» وهى إحدى قرى سليمان بك أجد قادة الجند فى مصر فى قضاء «أبيار» بها من توارثوا هذه الحرفة أبا عن جد وتفريخ الأفراخ فى روث الخيل عمل اختصوا به دون غيرهم.

ومن يريد أن يفرخ الأفراخ بهذه الطريقة اصطحب منهم رجلاً يذهب معه حيثما أراد وهناك يشرع فى بناء فرن خاص بتفريخ البيض، وهذا الفرن فرن كبير يشبه فرن الخبز، تعلوه قبة وأسفله فراغ، وداخله مقسم إلى خانات، تفرش الواحدة منها بطبقة من الروث الناعم غير المحترق بسمك إصبعين ثم يضع فى كل خانة خمسين بيضة وينظر فى كل بيضة خلال نور الشمس، فإن كانت البيضة طازجة وضعها فى الفرن، أما إذا كانت فاسدة استبعداها، إذ إنها تنفجر من حرارة الروث وتفسد بقية البيض فلا تخرج منه أفراخ. لذا يضع البيض الطازج وهو يعرف أى بيضة تفرخ ديكًا وأيها تفرخ دجاجة، ثم يغطى هذا البيض كذلك بطبقة من الروث بسمك إصبعين ويضرم تحته نارا هادئة خفيفة تكفى لحرق الروث ولا تحرق الحطب وتدوم الحال على ذلك ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع يتجرد الرجل من ثيابه ويدخل الفرن وهو يقوق كالدجاجة ويقلب البيض بأكمله وفى يده قفاز من ريش الدجاج وبه يقلب الخمسين بيضة التى فى كل خانة ويضع بينهما ريش الدجاج ويحرق أنواعا من البخور يبخر بها البيض، ثم يخرج ويغلق فوهة الفرن.

ولم يطلع أحد على هذا العمل، إلا أننى بقيت فى هذه البلدة اثنين وعشرين يوما واطلعت على ذلك بعينى رأسى. وفى خلال العشرين يوما دخل الرجل القائم بتفريخ البيض الفرن ثلاث مرات وقلب جميع البيض.

وقبل أن تتم الأيام العشرون بدأت الأفراخ فى الخروج من البيض كأنها الجند وأخذت تنبش الروث الموجود داخل الفرن وفى التو أخرجها الرجل من الفرن، إذ إن فى الروث بيض لم يفرخ بعد ولكيلا يفسدونه أخرج الأفراخ التى خرجت لتوها من البيض.

وتسير الدجاجات التى - احتضنت بيضها حتى أفرخ، وخروج منه صفارها - وراء الأفراخ التى خرجت من البيض بالطريقة المذكورة أعلاه.

ولحكمة لا يعلمها إلا الله فإن لحم هذا الدجاج الذى خرج من الروث ليس له من لذة الطعم ما للذة لحم الدجاج الذى حضن بيضه الدجاج. وهى ثقيلة اللحم والشحم

والحدأة عدو لدود للأفراخ ولهذا يقوم الصبيان على حراستها وإلا اختطفها الحدأة جميعاً في يوم واحد. وليس في مصر طائر في سمائها يؤذى إلا الحدأة.

- بيع الدجاج بالكيلة في مصر:

وتبعاً هذه الأفراخ في الكيلة وتباع الكيلة منها بخمسة أو عشر پارات. ولله الحمد فقد شاهدت الدجاج وهو يباع ويشترى بالكيلة في مصر. والكثرة الكثيرة من الدجاج الذي يباع بالكيلة حكومي، حيث يعهد (الكلارجي باشي) أي القائم على مخازن الطعام الخاصة بقصر الباشا - على أحد الأغوات بتفريخ عدة آلاف من الأفراخ ويذبح منها خمسمائة دجاجة يومياً في مطبخ الباشا لتقديمها إلى أتباعه وحاشيته.

ومن لا يرى هذا القدر من الأفراخ التي أفرخت لا يعرف إلى أي حد كانت براعة هؤلاء الفلاحين في مصر، وهذا في الواقع ما لا يدركه عقل. يا له من سر عجيب. مما ينهض دليلاً قاطعاً على أن الله يخلق ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته.

- أمانة على إعجاز الخلق:

في المنطقة المسماة «سبيل علام» أنواع من الحجارة الملونة، ولحجر سبيل علام ذائع الشهرة في مدينة القاهرة، وفي تلك الصحراء أنواع من أحجار الياقوت والماس التي يصل ثمن الحجر منها مائة قرش وخمسمائة قرش. كما تكثر بها الأحجار التي تسمى بعين السمك وعين الهر والتي يباع الواحد منها بخمسة أو عشرة قروش. وفي بعض الأوقات التي تشتد فيها الرياح فتشتت الرمال فتكشف عما لا يحصى كثرة من هذه الأحجار.

ويقوم الحكاكون بحك هذه الأحجار الخام ويصقلونها ويشكلونها فتباع بباهظ الأثمان بعد أن كانت بلا قيمة. ويعثر على أحجار أثمان من الماس ومن ياقوت «بدخشان»^(١). ومؤرخو مصر وعلماءها يزعمون أن «شداد بن عاد» باني إرم ذات العماد هو مشيد سبيل علام، وهذا ما اجتمعت عليه كلمتهم.

والواقع أنه في سبيل علام هذه أسس لأبنية عظيمة هنا وهناك. وعندما خُلع إبراهيم

(١) بدخشان: ويقال بدخشان الآن في أفغانستان، وهي بلاد خصبة مشهورة منذ القدم بأحجارها الكريمة لا سيما معدن الياقوت واللازورد. انظر: بلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترنج ص ٤٨٠ وما قبلها.

باشا مكث فى صحراء سبيل علام سبعة وسبعين يوماً. وكان خدامه يجمعون الأحجار من سبيل علام لكى يلعبوا لعبة «المنقلة»، وكان بعضهم يقدم ما يعثر عليه من أحجار إلى الحكاكين ليصنعوا منها فصوصاً لخواتمهم، حتى أصبح جميع الخدام - يلبسون الخاتم فى أصابعهم.

إلى هذا الحد كانت توجد أحجار كريمة ثمينة فى صحراء سبيل علام.

- تأثير أحد الأحجار العجيبة:

وفى سبيل علام هذه حجر ثمين أصفر اللون، يأتى أطباء الفرنجة على الدوام فى هذا القبط للبحث عنه. ومن خواص هذا الحجر أنه:

إذا أمسك أحد هذا الحجر بكلتا يديه شعر بالغبثيان وقاء ما فى بطنه وطالما لم يطرح هذا الحجر من يديه لا يتقطع عنه الشعور بالغبثيان. إلا أنه يخلصه من جميع ما فى جوفه من أخلاط مثل الصفراء والسوداء ولا يبقى فى معدته شئ وبذلك تنظف.

- من خواص أحد هذه الأحجار:

ثمة حجر ملون مثل الخرز يوجد فى المناطق الفضاء من سبيل علام، وهذا الحجر إذا ما ربطته المرأة فى خصرها وقت الجماع لم تحمل من أى شخص، ولذا يكثر هذا الحجر لدى بغايا «باب اللوق» فى القاهرة. حتى إن والدتى حينما ولدتنى تمزق فرجها بسبب كبر رأسى وخروج هذا الرأس بصعوبة، لذا كانت تستعمل هذا الحجر الموجود فى سبيل علام خوفاً من أن تحمل ثانية فكانت تعلقه فى خصرها أثناء الجماع مع والدتى. وهذا الحجر غير المبارك كان لدى والدتى.

أرض مصر التى تثير العيرة

كان البدو فى مصر يأكلون الفتران وهذه حقيقة. ولكن أى نوع من الفتران كانوا يأكلون سنوضح:

فى مصر نوع من الفتران يسمى «فارة الغيط». إنها مخلوق منظره يشير الضحك، تخرج هذه الفتران من جحورها عندما يغمز فيضان النيل أرض مصر كلها وعندئذ تخرج جميع النساء والغلمان إلى الصحارى لصيد الفتران على الشواطئ التى غمرها ماء

الفيضان ويملثون بها الفرائر ويذبحونها في منازلهم ويتناولون لحمها ويبيعون جلودها، وهي غاية في سمنها. وذيلها قصير ونوع منها ذيله طويل، وشفتها العلوية مشقوقة مثل شفة الأرنب. إنها فأرة غبراء، رنة الواحدة منها مائة درهم، ومنها ما يزن رطلاً. وهذا الحيوان يتكاثر في الأرض بأمر الله ولا يربيه أحد. حتى إنه يكوم أرضه أكواما أكواما، فيعرف الصيادون من ذلك أن ثمة فأر بها فيحفرون جحره ويخرجون ما به من فئران ويأكلونها.

ولحكمة لا يعلمها إلا الله فإن بعض هذه الفئران فئران إلى وسطهم أما ما تحت وسطهم لا يفترق عن التراب، بل هو تراب مخلوط بالدم. وهناك فئران على هيئة تراب تنفخ فيها الروح فيما بعد وتصبح لحماً، أما إذا أخرجت قبل ذلك من جحورها وتعرضت للهواء نفقت، إذ إنها لم تكتمل نمواً.

سالت عنها العرب، فقالوا: إنها تتولد من الماء في أربعين يوماً. وسألت قائلاً: هل تتزوج هذه الفئران؟ فقالوا: نعم إنها تتزوج، إلا أنها لا تلد وذلك بأمر الله.

ثم سألتهم عن نفعها، فقالوا: إن لحمها سريع الهضم ومن أكله سمن، وهو جد مقو للباه.

وتلك حكمة عجيبة كذلك، بيد أن طائفة المعتزلة من ضعافى العقول ينكرون هذا من خلق الله، ولكنى رأيت ذلك بعيني رأسى وقد دفعت خمس پارات ثم عشر للعربان اللذين يخرجون هذه الفئران من جحورها، فرأيت أن نصفها ذو روح والنصف الآخر من تراب وبعضها مما نصفها دم ونصفها تراب ليس لها روح. وهذا من عجيب صنع الله. أوليس هذا عبرة لمن يعتبر من بنى الإنسان؟ ، وحسبنا قوله عز من قائل ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً...﴾ [المؤمنون: ١٤].

دليلاً قاطعاً على ذلك. ومن لم يسلم بآراء ومعتقدات المعتزلة ويقر آراء أهل الشريعة يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].
ويقصر عن القول.

ذكر أصرة القرى بين الإنسان والنخل وشجر الجوز الهندى الأسود

فى كل عام فى قرى مصر يضعون سعة من نخلة ذكر فى قلب النخلة الأنثى وذلك لإتمام عملية التلقيح بين النخلتين. وفى هذا العام تثمر النخلة الأنثى أكثر من خمسة عشر عرجونا^(١).

وإذا لم يصنعوا ذلك لا تثمر النخلة الأنثى.

والنخلة الأنثى تحيض مرة فى الشهر وهى كالإنسان لها قلب فإذا ما قطعت جفت، أما إذا قطعت سعتها نمت غيره وازدادت النخلة طولاً.

ويسمون قلب النخلة «قلب البلح» وهو شئ لذيد الطعم مقو للباه، ويستعمله الرجال فى مصر الذين عجزوا عن الباه، إنه فى لون الجبن وطعم اللبن، وتوجد هذه المادة بين ألياف السعف فى رأس النخلة.

ويقولون إن ثمة قرى بين الإنسان وهذه النخلة، فعندما خلق البارئ آدم عليه السلام من قبضة من تراب خلق مما تبقى من التراب النخل وشجر الجوز الأسود الهندى وشجر الوقواق، وما تبقى من التراب خلق منه «بيروح الصنم» أى عبد السلام وهو عشب له شعر ولحية كالإنسان، ومنه الذكر والأنثى، فهو عشب له صفات بنى الإنسان. ويقولون إن هذا العشب خلق كذلك من التراب، «يفعل الله ما يشاء».

- أكلة الثعابين الحية:

ومن عجب أن فى مصر قوما يأكلون الثعابين وهى حية، وإذا ما ظهر ثعبان فى منزل أحد جاءوا بأحد من أكلة الثعابين هؤلاء ونفخ فى مزماره، فتجتمع حوله جميع الثعابين فيصارعها ويقبض عليها كلها، ويضعها فى مخلاته ويمضى بها، وبذلك تكون النجاة من هذه الثعابين.

ويقرب هؤلاء من أحد الأشخاص ودون أن يدري هذا الشخص يخرجون من جيبه وحصنه العقارب والأفاعى وقد يخرجون من جنب أحد الأشخاص التفاح والخوخ والعنب فى غير موسم هذه الفاكهة. وفى بعض الأحيان يخرجون من حصى بعض

(١) العرجون: العذق. وهو من النخلة كالعنقود من العنب. والجمع عراجين. المعجم الوجيز ص ٤١٢.

الناس نارا أو ماء، كما يطلبون على أحد أن يظهر لهم عمامته وعندما يرفع هذا الشخص العمامة عن رأسه يتدفق الماء من عمامته أو يخرج منها عقرب أو أفعى، فيطرح الرجل عمامته أرضا ويولى مدبرا حاسر الرأس بلا عمامة. وكان إبراهيم باشا رحمه الله تروق له مثل هذه الدعابات، إلا أنها فى الحقيقة مهارة تصل إلى درجة الإعجاز.

- جماع فلاحى مصر للتماسيح:

سلف الحديث عن جماع فلاحى مصر فى أسوان للتماسيح فى حديثنا عن المخلوقات التى تعيش فى النيل.

- شجرة الجميز العجيبة:

شجرة الجميز فى مصر شجرة ضخمة لا وجود لشجرة أضخم منها وهى تشبه شجرة «الدلب» فى بلاد الترك. وتمتاز شجرة الجميز بضخامتها وظلها الظليل ونسيمة العليل. وأثمارها وطلاسمها على النحو التالى:

إذا ما ظهرت هذه الشجرة فى بستان أحد، اتفق صاحب الحديقة هذا مع بعض الأشخاص ويحمل فأسا ويدخل حديقته ويتسلق شجرة الجميز ويضربها مئات الضربات بفأسه وإذا ما تجرحت الشجرة يأتى الأشخاص الذين اتفق معهم، ويقولون له لماذا أقدمت على قطع شجرة حية غضة مثل هذه. فيقول الرجل: إنها ملكى وإن أقطعها وهى بداخل حديقتى وهى لا تؤتى أكلا والمرج لا ينبت فى ظلها ويجب على أن أحرقها.

فيقول الرجال تحت الشجرة: أنقطع شجرة فى هذا الجمال، ما أجمل غصونها وأوراقها، ويسطون إليه الرجاء ألا يقطعها حتى تؤتى ثمارها وعندئذ يجرى ما يشبه الدم من الثقوب التى أوجدها الرجل فيها بفأسه، فيكرر الرجال الرجاء إليه ويقسمون له أنهم يضمنون أن تثمر هذه الشجرة سبع مرات فى العام ويأخذون الفأس من يده ويطرحونه جانباً ويحيطون جميعا بالشجرة ويحتضونها ويحضر أناس آخرون ليشهدوا على ذلك. ومن بعد تخرج هذه الشجرة الثمار من تلك الثقوب التى أحدثها الفأس فيها سبع مرات أو أكثر فى العام.

وثمار الجميز تشبه التين، ولكنها تختلف عنه بعدم وجود جلد داخلها فداخلها فارغ، وتزن الثمرة منه عشرين أو ثلاثين درهما. إنه فاكهة لذيدة الطعم، سهلة الهضم، ومنها الأحمر والأصفر والأبيض.

ومن عجب أن أغلب الثمار تنمو على غصون رقاق، ولكن ثمار الجميز تنمو في جذع في غلظ ثلاثة رجال ضخام. والجميز يثمر بهذه الطريقة بحيث لا يخلو موضع في جذعه من الثمار. إنها شجرة موفورة المحصول.

- فوائد ثمار الجميز:

وفي الطب يعد الجميز ذو طبيعة معتدلة، فإذا ما تناولت ثلاث ثمرات من ثماره وشربت عليها الماء قوى نظرك. وإذا ما أصيب أحد بالإسهال وعصر أوراقه الخضر وشرب عصيرها، زال عنه الإسهال، وكم لقشور جذعها الخضر من خواص، والأطباء يعرفون من خواصه الطبيعية أكثر مما ذكرنا. إنها شجرة تستحق المشاهدة.

خاصية أرض مصر

في مصر يدفنون قرن الماعز في الأرض ويروونه وبعد عدة أيام تثبت منها غصون خضر.

صناعة النشادر

تصنع النشادر في مصر من فضلات الإنسان، وله مصانع عجيبة سبق وصفها فيما تقدم.

عملية إنضاج العنب

عندما يكون العنب حُصْرًا يشعل فلاحو مصر الكبريت ويبخرون به هذا الحُصْرُ فينضج قبل أوانه بشهر. وهذه حيلة شيطانية عجيبة.

عملية إنضاج الشام والبطيخ

يسمى الفلاحون ربل الحمام «برأس المال» وكانوا يضعونه فى جذور البطيخ والشمام فتتضج قبل الأوان بشهر وتمتلئ ماء .
- ميزات أحد الحيوانات العجيبة -

ثمة حيوان صغير يشبه ابن عرس يعيش فى مناطق زراعة قصب السكر فى مصر، منظره يبعث على الضحك . حتى إنه يربى فى بعض المنازل، وهو حيوان أليف يكثر فى حدائق الفيوم . والمكان الذى يعيش فيه هذا الحيوان لا تقربه الأفعى ولا الحية وتهرب من رائحته . فهذه الرائحة التى تصدر عن هذا الحيوان تهلك الأفاعى، إلا أنها تغيد الإنسان . يا لها من حكمة عجيبة .

ذكر معدن الذهب

على بعد ساعتين من القاهرة وفى الجهة القبلىة لها خلف جبل الجيوشى تقع جبال عين موسى والتى تسمى «بجبل بجاميم»، وبها تكوينات جيرية حمراء اللون وإذا ما أحرق هذا الخام استخرج منه الذهب . إلا أنه لندرة الحطب فإن نفقات عملية استخراج الذهب تكون باهظة فلا يتحصل للقائمين بهذا العمل أى ربح .
وفى خلافة الحاكم بأمر الله استخرج الذهب طيلة سبع سنين، ثم سدت هذه المناجم وآثارها لازالت موجودة إلى يومنا هذا .

وتوجد مناجم الفضة فى جبل جالوت غرب القاهرة، وتوجد كذلك مناجم للذهب فى شرق مصر فى جبل المقطم المعروف بسجل الجوشى . وتوجد مناجم «الزمرد» فى ولاية الصعيد، ويوجد معدن النطرون فى أرض البحيرة، ويوجد ملح البارود فى كل قراها، كما يستخرج الملح من جميع بحيراتها .

مدينة عين شمس

كانت مدينة عظيمة فى شمال القاهرة بالقرب من المطرية، تبعد ساعتين عن القاهرة وهى الآن منطقة خربة، وكانت هذه المدينة حاضرة البلاد فى الزمان الخالى ولا تزال بعض آثار أبنيتها العظيمة ماثلة للعيان إلى يومنا هذا . وفيها «مسلة» سامقة كالتى فى «آت ميدانى» أى ميدان الفروسية فى اسطنبول . يبلغ طول هذه المسلة مائة ذراع، وعلى

جوانبها الأربعة نقوش باللغة القبطية، وفي ذروتها صورة فارس يمتطى جواداً وعلى رأسه العمامة المجورة وفي ذلك إشارة إلى مقدم السلطان سليم إلى مصر. وعلى الجوانب الأربعة لهذه المسلة نقوش ورخارف كنظيرتها الموجودة في ميدان القرومية باسطنبول.

وفي مدينة عين شمس هذه كثير من الطلاسم المعقدة والتي لا وجود لها في أي بلد آخر، ولم تفك رموز هذه الطلاسم إلى يومنا هذا، وكل من بذلوا الجهد الجهيد لفك رموزها والوقوف على أسرارها دفنوا فيها. وفي مجمل حديث مؤرخي مصر عن مدينة عين شمس امتدحوا قصرًا كان بها فقالوا:

إن لهذا القصر مائة وثمانون نافذة وكانت الشمس إذا ما دخلته من إحدى نوافذه تجعل داخله منيراً ولذلك سموه «قصر عين شمس».

وفي رواية أخرى أن ثمة ملكة كانت تسمى «عين شمس» هي التي أقامت هذا القصر. وعلى هذا القصر كانت تكمل الشمس مائة وثمانين منزلاً وعندما تأتي إلى منزلها الأول تعود. وأثار أبنية هذا القصر ظاهرة إلى الآن، وكان بها كذلك قلعة عظيمة لا تزال أسس جدرانها ماثلة إلى يومنا هذا.

جبال الأهرام وهي من عجائب الفرائب

تقع جبال الأهرام في قصبة الجيزة على بعد ساعتين من الساحل الغربي للنيل. وهي ثلاثة جبال، لا وجود لبناء أقدم منها على وجه الأرض، ولا وجود لما هو أعلى منها فكانها «جبال قاف».

إنها جبال غاية في عظم أبنيتها، وكل هرم منها صنم، ويسمى الهرم الأول «جبل بليث»، ويسمى الأوسط «جبل مهلوية»، أما الأخير فيسمى «بجبل أبي الهول» وكم من آلاف الروايات والأقوال وردت في شأن هذه الجبال التي هي من صنع بنى الإنسان، فبعض المؤرخين يذهب إلى أن مشيدها هو «عاد بن شداد»، والبعض الآخر يذهب إلى أن الملك «سوريد» هو الذي أقامها بإيعاز من الكهنة لتكون مقبرة له. وبعد الانتهاء من

بناء هذه الأهرام الثلاثة ملاها بكنوزه وخزائنه، كما نقل إليها جميع كتب تعاليم سيدنا إدريس، وجميع الأسلحة ووكل بها إلى بعض من يصنعون الطلاسم، وغطاها بالحرير، كما شيد كذلك مدينة عظيمة على شاطئ النيل ليسكنها سدة هذه الأهرام. وفي فصل الربيع من كل عام يأتي الناس من كل فج عميق ويطوفون حول الأهرام كطواف المسلمين حول الكعبة.

أما ابن جلال فيقول: إن هذه الأهرام كانت تسمى في اللغة القبطية «برابي» لأن أول من بناها هو «برابي بن درمشيل بن مخويل بن خنوخ بن قاين» لذلك سميت باسمه. ومن الناس من يقول: إن ثمة ملكة كانت تسمى «دلوكة» كانت تحكم قبل فرعون وهي التي بنت الأهرام، ولأن هذه الملكة كانت من القراعنة سميت هذه الأهرام «جبال فرعون»، ومع مرور الأزمان جاء ملوك من نسل هذه الملكة رعموا هذه الأهرام باعتبارها أبنية شيدتها جدتهم. ونفهم من ذلك أنه ربما تكون هذه الأهرام من بناء هذه الملكة المسماة «دلوكة».

والبعض يقول إنها من بناء «تدوره جادو» ودفن كهنة أشمون وأتريب وصاى مع تواريخهم داخل هذه الأهرام.

أما على ضوء ما ورد في تاريخ «الشهابي» فإن أول من بنى هذه الأهرام هو الملك سوريد بن شهلوق بن شرباق بن توميدون بن تدرسان بن هوصال.

وثمة باب مظل على الناحية الشمالية للهرم الواقع في الجهة الشمالية ويدخل هذا الباب وعلى الأحجار في الناحية اليمنى نقوش باللغة العبرية جاء فيها:

(أنا بنى الأهرام وقد أتممت بناءها في ستة أعوام، أيستطيع من يجيئون من بعدى هدمها في ستمائة عام والهدم أيسر من البناء. وقد غطيتها بالدياج، أيستطيع الملوك من بعدى أن يكسوها بالحصير).

وعندما هبط الخليفة المأمون مصر قادمًا من بغداد عقد عزمه على أن يكشف عن كثر الأهرام وبذل المهمة طيلة سبعة أشهر، فكروم حولها الخطب وأضرمت فيه النار وسكب عليها الخل وضربها بأحجار المنجنيق الضخمة فهدم قدر عشرين ذراعًا منها فعثر على جرة مرصعة بالزمرد بها ألف دينار من ذهب، وكل دينار يزن أوقية، كما عثر على حجر يضم نقوشًا جاء فيها:

«يا من تتوق نفسك إلى فتح هذا القبر للكشف عما به من دفائن، مهما بذلت من جهد جهيد وأنفقت من مالك الكثير لتحصل على المال الجزيل ومهما ارددت طمعًا فسوف ترحل عن تلك الدنيا الفانية».

وحينما شاهد جند المأمون هذا الكلام (أصيبوا بخيبة الأمل)، إذ إنهم بعد أن كابدوا شتى صنوف العناء طيلة سبعة أشهر في هذه الصحراء المترامية الأطراف وأنفقوا من المال ما أنفقوا لم يعثروا إلا على ألف دينار من ذهب.

سبق أن أشرنا إلى باب في الناحية الشمالية بداخله حجر كتب عليه:

«أيستطيع ملوك الأجيال التي تأتي من بعدى أن يكسوا الأهرام بالحصير» فخالها المأمون رموزًا وأمر بها فكسوا نصفها بالحصير المصرى وعندئذ عصفت ريح صرصر عاتية أذرت برجاله وحصيرهم في الهواء، فوقع الجزع والهلع في القلوب. ونزولا على سداد رأى «حسين بن سهيل» وزير المأمون نفضوا أيديهم من هذا العمل ومضوا إلى حال سبيلهم.

والى الآن تبدو المواضع التي انهدمت في عهد الخليفة المأمون. وعندما شرع يوسف صلاح الدين بجدد بناء قلعة القاهرة نزع الأحجار من جبال الأهرام وشيد بها قلعة مصر الداخلية والقلعة القبلية. وجاء من الحجارة التي نزعها من جبال الأهرام ومواضع الحجارة التي انتزعها ظاهرة للعيان إلى يومنا هذا.

ذكرت أن باني الأهرام هو الملك «سوريد» وهو المقاتل «لقد بنيت هذه الأهرام في ستة أعوام فهل يستطيع من يجيء بعدى من الملوك هدمها في ستمائة عام» وإنى أفند رعمه فأقول إننى لو لغمت هذه الأهرام بمائة قنطار من البارود الأسود وستة صناديق من

لغم قلعة قباندية فسوف تنسفها جميعا وتجعلها رأسا على عقب وفي تلك الساعة لن يبقى لها من قرار على وجه الأرض .

لكن في الواقع إننى ما رأيت على وجه الأرض أبنية عظيمة مثلها، ولله الحمد إنه فى عهد إبراهيم باشا بينما كنا نرعى خيولنا بجوار الأهرام لبثنا أكثر من خمسة أيام للراحة والاستحمام ثم مضينا إلى هناك عدة مرات للفرجة فبلغ منى العجب مبلغه وفى إحدى المرات اتفق أن كان معنا خمسة وأربعون رجلا من رجال الأمير أخور (أى بك الأصطل) وبهلول أغا وغيرهم وأحضرنا معنا المشاعل والقناديل وقمنا بإزالة ما على الباب الشرقى للهرم الأكبر من رمال تراكمت وعندما دخلناه متعوزين باسم الله نظرت فى البوصلة والساعة ومشينا فى داخله سبعة أقدام ناحية الجنوب فى عمر واسع يعلوه عقود حجرية ترتفع عشرين ذراعا وكان اتساع الممر عشرة أذرع .

وعلى جانبيه عدة كهوف وقاعات وقباب من الحجر مزدانة بنقوش ذهبية وكأنها خرجت لتوها من يد «بهزاد»، وكانت كل حجرة تفص بعظام وجماجم الأدميين وكل جمجمة منها تتسع لمائة كيله من القمح، وكم كان هناك من جماجم مختلفة الأحجام بين كبيرة وصغيرة لا يعلم عددها إلى الله .

وثمة عظمة رفيعة مكسوة بالجلد وهى بمقياس شبرى سبعون شبرا وغير ذلك عظام كثيرة وفى أحد هذه الكهوف العظيمة دفنت كثير من الجثث المحنطة وعدة مئآت من الطيور المحنطة بطول سبعين قدما أو أكثر تنبعث منها رائحة كريهة قاتلة كرائحة ربل الغراب وجميعها معلقة من مناقيرها على الصخور . واصطدمت قناديل بعض الرجال بها فاحترقت أجنتها وريشها فأصاب بعضها وجوهنا، وفى تلك اللحظة تهقر بعض رفاقنا بقناديلهم خوفا من أن ينالهم أذى، ولكنى بقيت مع الخمسة والثلاثين رجلا وصيرنا ساعة بكاملها ناحية القبلى بالاستعانة بالبوصلة فوصلنا إلى قاعات - غاية فى الفخامة والزخرف، وفى كل منها جثث محنطة لأدميين منها الراقد ومنها الجالس وأطول هذه الجثث لأناس من رجال يوم القيامة وإلى جانب هذه الجثث حصير بال وليف النخيل المغطى بالرمال وتقدمنا من ذلك الموضع ما يقرب من خمسين قدما فى

ارتفاع وانخفاض فوجدنا حوضاً كبيراً ممتلئاً بالماء الصافى وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحوض جلست طيور مخيفة تخلع القلوب ببشاعتها تشبه العقبان والأور وعندما رأنا بسطت أجنحتها فسمعنا ما يشبه الرعد وكأننا سالت أدمغتنا من آذاننا وعرت الحفافيش ملابسنا وقال حملة المشاعل: إن المشاعل على وشك الإنطفاء وجملة القول أننا عندما شاهدنا أجنحة العقبان خلعت قلوبنا من الهول والفرع وما استطعنا أن نحرك أقدامنا بخطوة واتفقنا على العودة فهبت ريح عقيم من جانب هذه الطيور لها إيذاء ريح الشتاء قارصة البرد، وقلنا كيف يكون مصيرنا إذا ما انطفأت مصابيحنا ومشاعلنا، ولدى خروجنا إذا بنا نرى أن لكل خفاش من تلك الحفافيش فراشة فى حجم الحمامة كانت أجنحتها تصطدم بمشاعلنا ووجوهنا.

وعلى أية حال خرجنا ولدى عودتنا التقينا برفاقنا الذين فروا من قبل وجعلوا يهزأون بنا ويضحكون من وجوهنا الملطخة.. ويعلم الله أننا خرجنا سالمين وقد بلغ بنا الجهد مبلغه وأنهكنا التعب والإعياء، إلا أننا شاهدنا أشياء عجيبة ولا يعلم أحد ما وراء هذا الحوض إلا الله. وهكذا شاهدنا الهرم الأكبر فما رأينا خزانة ولا كنزاً وإنما رأينا جيشاً محنطة دفينه.

إلا أن هذا الهرم طلسم ما فى ذلك شك أو ريب لأننا بهتتا عندما بلغنا هذا الحوض المذكور وعندما خرجنا من الهرم كان قد بلغ منا الإعياء مبلغه ولما تنسمنا الهواء دبب الروح فينا - لا يسر الله لنا دخوله ثانية -، بعد ذلك تناولنا الفطور وشربنا القهوة فى خيامنا وطوفنا حول الأهرام الثلاثة.

ويبلغ كل هرم من الهرمين مائتى قدم طولاً وعرضاً وعلى هذا الحساب يكون محيط كل واحد منها ثمانمائة قدم وبعض الأحجار فى قمته يصل حجمها إلى مائتى باع.

وفى الجانب الشمالى من الهرم الأكبر الباب الذى دخلنا منه، أما أبواب الأهرام الأخرى فغير ظاهرة. إلا أن هرم أبى الهول غاية فى صغر حجمه إلا أن كلا من الهرمين الآخرين يناطح الفلك. إنها جبال مخروطية الرأس وقد تسلقت الهرم الذى دخلته إلى قمته فكانت ميداناً يتسع لإقامة خيمة ذات عشرة خزائن. وفى بعض الثقوب

الموجودة في الأحجار عثرت على أوكار الشواهين والصقور والحمام والحدأة، وبدت القاهرة كلها تحتى. إنها جبال عالية إلى هذا الحد البعيد.

وحول هذه الأهرام العديد من الأبنية المطلسة مبنية بالحجر الأسود وإذا ما ذكرت أوصافها لَمَسْتَ الحاجةُ إلى كتابة مجلد بتمامه.

قتمة الحديث عن الأهرام

عندما ذهب المبعوث الذى أرسله المقوقس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم شرف بالدخول في الإسلام وهذا المبعوث هو «ذو النون المصرى» الذى ولد في شرق إخميم بالصعيد العالى وكان فريد دهره في فصاحته وإبائته، وبعد أن فتحت مصر دخل ذو النون هذا الأهرام بإذن من عمرو بن العاص وقرأ ما بداخلها من نقوش عجيبة وترجمها إلى اللغة العربية وهذه النقوش هي:

احذر العبيد المعتقين
والأحداث والجنود المتعبدین
والنبيط المستعربين

ونص آخر جاء فيه:

يقدر المقدر
والقضاء يضحك

أما الهرم الأصغر الذى بناه «قليمون الحكيم» قبل الطوفان ففيه بيت مكتوب هو:

تدبر بالنجوم ولست تدري . . . ورب النجم يفعل ما يريد

ذكر عجائب الأشكال الطلسمية لأبى الهول

والذى يسمى في العبرية «بلميب»

رأس كبير من حجر أبيض في حجم قبة الحمام، يقع كذلك في الناحية الشرقية من الهرم الأصغر. ولا وجود لمعالم أخرى لجسم التمثال بخلاف الرأس والجزء الذى خلف الرقبة. فهذا التمثال عبارة عن رأس ليس إلا، ولهذه الرأس وجه متجه نحو الشرق وحاجب وعين وأسنان وأذن وشفتان وعنق. وهي تسع لمجلد مائة رجل.

وقد صنع هذا التمثال أحد عباقرة السلف، وقد صنع بضربات فأسه هذا الرأس وكان له روحا وكان هذا الرأس يتسم، وأظهر الصانع ذوائب هذا الرأس وكأنه عمل السحر المعجز واستعرض مهارته وبراعته فى ذلك.

وفى الزمان الخالى كان هذا الرأس يتجاذب أطراف الحديث مع الغادى والرائح، فقد كان طلسمًا. فكان يستنبط الأسرار والغيبيات فيتنبأ بمن سوف يعتلى عرش مصر ووقوع القحط والغلاء وتفشى الطاعون وسقوط المطر واحتباسه ومقدار فيضان النيل وعدم فيضانه وما يحدث وما لا يحدث وكل الغيبيات الخمس.

وعندما ترامت إلى سيدنا موسى الأخبار عن مكاشفة أبى الهول للأسرار الغيبية جاء إليه - عليه السلام - وبعد حوار طويل قال سيدنا موسى عليه السلام لأبى الهول: إنك قادر على نطق كل الكلام، فأمن بحق رسول الله، فقال أبو الهول: إننى لا أومن إلا بإدريس - عليه السلام - وعندئذ دخل موسى غَضَبًا لا مزيد عليه فانهاه عليه ضربا بعضا فى يده محطما أنفه وفاه، وقال له: اسكت يا ملعون. ومضى وإلى الآن منذ عهد سيدنا موسى لم يتكلم أبو الهول، كما أن أنفه وفمه محطمان من ضربات عصاه.

إنه أثر عجيب من صنع الإنسان، وفى رواية أخرى أنه من صنع السحرة. لكن الناس يقولون: إن امرأة سرق منها مال كثير، فسألت هذه المرأة أبا الهول قائلة: من سرق مالى؟ فقال: إن فلانا هو الذى سرقه، فانطلقت المرأة فى الحال إلى القاضى وكبس بيت الرجل؛ فوجدوا أموالها غير منقوصة، فمضى الرجل السارق إلى أبى الهول وصعد رأسه وتغوط عليها، فبطل أثر الطلسم منذ ذلك الحين وسكت عن الكلام.

إلا أن رواية موسى - عليه السلام - صحيحة، إذ كان من أولى العزم وبمعجزة ضرباته أصابه البكم والصمم. وأبو الهول الآن رأس يأتى الناس لمشاهدتها. وعلى مقربة من رأس أبى الهول موضع آخر يستحق المشاهدة. إنه باب دير قد سد بالرمال والغناء، ولكن فى العقد الذى يعلو يمنة بابه العديد من النقوش المحفورة على

الرخام. وعلى الرغم من براعتي في قراءة شتى الخطوط إلا أنني لم أر خطأ يشبه هذا فكان من المحال قراءة حرف من حروفها.

طلبتم أبي الهول

جاء في تاريخ ابن جلال أنه عام ٧٨١ كان هناك من يسمى «محمد الصوفى» يسكن خانقاه الصلاحية وكان شخصاً متعصباً إلى حد جد بعيد، زاد في تعظيم أنف وفم أبي الهول مدعياً أنه صنم وقد فعل ذلك دون مراجعة القاضى والاستئذان منه واتفق أن عصفت ريح شديدة فى هذا اليوم فغمرت مزارع الجيزة بالرمال واستحال زراعة الغلال والبرسيم، فمضى أهل الجيزة بمحمد الصوفى هذا إلى القاضى، وصاحوا قائلين: إنه غمر مدينتنا بالرمال، وعندما استجوب محمد الصوفى قال: لقد نهيت عن المنكر. وما أن سمع الأهالى ذلك منه حتى مزقوه كل ممزق ودفنوه إلى جوار أبي الهول. وإلى يومنا هذا من أتى لمشاهدة أبى الهول رجم قبر هذا الصوفى الضال.

نعم الله على مصر

لا وجود للجراد قط فى أرض مصر، وإذا ما جاءها من بلد آخر هلك، حتى إنه فى عهده (صلى الله عليه وسلم) أصاب الجراد مكة والمدينة، وأخطر الصحابة النبى (صلى الله عليه وسلم) بما أصابهم ورغبوا إليه بأن يدفع عنهم شر هذا الجراد، فبسط صلى الله عليه وسلم يده ودعا الله قائلاً: اللهم ادفع هذا الجراد إلى كنانتك مصر. فقال الصحابة (رضوان الله عليهم): يا رسول الله إن خيرات مكة والمدينة تأتى من مصر، فإذا بلغ الجراد مصر وأتى على محاصيلها وقع القحط والغلاء. فقال صلى الله عليه وسلم: إن مصر فى حسمى الله فإذا ما نظر إليها أحد بعين الازدراء والتحقير وظلمها وعاث فيها فساداً هلك.

وهذا واقع لا مرأى فيه، فإلى الآن لا وجود للجراد فى مصر لأنه إذا بلغها هلك وللجامع الأزهر طلاسّم تمنع دخول الحمام والذباب والأفاعى والحيات وغيرها من الهوام، ومفعول تلك الطلاسّم مستمر إلى الآن.

- طلسم آخر (السفينة الحجرية) :

ثمة قلعة عتيقة تقع داخل قلعة الكبش بمدينة القاهرة، بالقرب منها زاوية السلطان «جاولى» وأسفل سلم هذه التكية حوض من الرخام الأخضر قطعة واحدة وهو مستطيل الشكل يشبه السفينة. وفي الزمان الخالى كان يركب هذه السفينة الحجرية أربعة أشخاص يعبرون فيها النيل ذهابا وإيابا، وإذا ما ركب فيها خمسة غرقت وقد جعل لها الكهنة القدماء طلسمًا على هذا الأساس، وقد عرف الناس طبيعة هذه السفينة فكانوا يخافون ركوب أكثر من أربعة فيها، وكان من يركبونها يمضون فى سرعة البرق الخاطف.

والى عهد «كافور الإخشيدى» كانت تلك السفينة تغدو وتروح فى النيل فى طرفة العين. وذات يوم عندما علم كافور الإخشيدى أن هذه السفينة من الحجر والحجر من طبيعته أن يرسب فى الماء فصاح قائلاً: كيف إذن لسفينة من الحجر أن تغدو وتروح منذ مئات السنين فى النيل وهى تحمل أربعة رجال ما السر فى ذلك يا ترى؟

فأمر رجاله بشد السفينة من النيل إلى اليابسة فشاهد طلسمًا أسفل هذه السفينة وكان عبارة عن سطر باللغة العبرية وصورة سمكة وصورة شعير ولا شئ سوى هذا فاستدعى جميع علماء مصر فما استطاعوا فك رموز هذا الخط. ثم أعادوا السفينة الحجرية إلى شاطئ النيل وركب فيها أربعة أشخاص ودفعوا بها فى النيل فغرقت بمن بها. وربما تكون غرقت بسبب بطلان تأثير طلسمها عندما أخرجوها إلى اليابسة أو أن يكون أحد قد تعلق نظره بها فحسدها.

وهذه السفينة الحجرية المذكورة موجودة إلى الآن أسفل سلم زاوية السلطان الجاولى وهى حوض مملوء بالماء الزلال ليل نهار وتشرب منه دواب الغادى والرائح، ومع ذلك يظل ممتلئًا، ولا يعلم من أين يأتى ماؤه. ولوقوع هذا الحوض على الطريق الرئيسى لبولاق فهو يسترعى نظر المارة. وعلى الجوانب الأربعة لهذا القارب كتب ترتيب ديوان سيدنا سليمان - عليه السلام - وكتب أسماء كل ذى روح من إنس وجن وحيوان وطيور وكان هذا الخط خط بهزاد وشاه قولى. إنه ديوان يستحق المشاهدة يخلب لب من

يشاهده، ويتسع لعقد مائة ديوان فى آن واحد. وحكم الإنس والجن والوحش والطيور لم يدم لسليمان. تلك هى الدنيا التى لا تدع شيئاً إلا ما سوى الله. اللهم يسر.

من خواص أحجار مصر

ثمة حجر لامع يضرب لونه إلى الحمرة يوجد فى الجبل الأخضر بمصر، إذا ما وضع هذا الحجر فى أفران الخبز أكسب الخبز حمرة وعجل بنضجه. إلا أننى لم أشاهد ذلك ولكن نقلت ذلك عن بدو البهيجة وحنادى عندما ذهبت لتسجيل أسماء حجاج المغرب بتكليف من إبراهيم باشا فى حوش عيسى، كما قالوا إنه يوجد كذلك لدينا فى «عز الدين».

طلسم أم القياس

على الجوانب الأربعة لحوض أم القياس خط غريب عجيب بتأثيره ما إن يحل شهر «توت» القبطى إلا وتسقط النقطة فى بداية هذا الشهر ويفيض النيل.

- طلسم آخر:

أقام سيدى الشيخ البطرانى هيكلاً تمساح فى حوض أم القياس ورسم على صدر هذا التمثال طلسماً، ومنذئذ لا تمر التماسيح من أم القياس، وإذا ما مر تمساح مع فيضان النيل انقلب على ظهره ونفق. وفى تلك الأماكن يتلصق التمساح من خوفه الحجارة فينتقل إلى أن يمضى فيضان النيل وتصفو مياهه ويهبط التمساح إلى قاع النيل ويعيش على الطين طيلة ثلاثة أشهر ثم يعود من أم القياس وينجو بذلك من الطلسم.

من تنبؤات المنجمين

ثمة دير عظيم عند باب القصر بمدينة القاهرة، وهو الآن مدرسة، وصنع كهنة السلف فى هذا الدير وجهاً من النحاس عليه نقاب مذهب، ونبى آخر الزمان يكون صاحب هذا الوجه وسيكون لأمه ملك مصر يقيمون فيها العدل، ومن سيفتحها من الرجال بعده عليه السلام عام ١٨ هو عمرو بن العاص وزير الفاروق عمر بن الخطاب هذا ما ورد ذكره على الرخام الأبيض لصورة شخص ذى خرقة صفراء فوق جمل أبيض وعلى صورة سيدنا محمد عليه السلام كتب على الرخام الأبيض آية من الإنجيل باللغة اليونانية معناها هو :

أن هذا الرجل من أبناء آزر وهو نبي واسمه محمد يملك الدنيا والآخرة.
ولكن عندما حاصر عمرو بن العاص مصر طمس النصارى صورة سيدنا عمر
المقوشة على الرخام.

طلاسم القلعة الداخلية

فى قاعة ديوان قلاوون بالقلعة الداخلية ثمانية وأربعون عمودا ينتهى كل منها بطلسم
عظيم وقد سبق ذكر ذلك فى مجمل حديثنا عن أوصاف القلعة الداخلية.
وفى مصر مئات الآلاف من العجائب والغرائب رأيت منها مئات تخلب لب من
يشاهدها والله أعلم.

ذكر ما فى مصر من أطعمة وأشربة ونباتات

وثمار لا وجود لها فى بلاد الترك

فى مصر سبعة عشر نوعا من التمر لا وجود لها فى بغداد ولا البصرة ولا الإحساء
فهى لا وجود لها إلا فى مصر وحدها وهى غاية فى لذة الطعم.
النوع الأول: وهو التمر الأبيض ومنه ثلاثة أنواع، منها نوع مستطيل يشبه تمر بغداد
ذى النواة وهو كالسكر وهو كذلك رطب يذوب فى حنك الإنسان.
النوع الثانى: وهو أقصر منه ونواته فى حجم حبة القمح وهو كذلك رطب مثل
ثمار المشمش.

والنوع الثالث: أبيض عادى تنبعث منه رائحة المسك.

إلا أن هذه الأنواع الثلاثة من التمر تجف من شدة الحر، ولا تحتمل النقل من بلد إلى
آخر لأنها طارئة رطبة، تباع رطبة طارئة ولكن لا تباع على النطاق الأوسع.
وهناك «التمر الأصفر» وهو كذلك له أنواع وهو غاية فى لذة طعمه وهو لا يجف
طالما كان نظيفا ويباع طارجا.

وهناك كذلك «التمر الأحمر» وله أنواع خمسة منها نوع بلدى وهو تمر نظيف لطيف
يرتوى بماء النيل فى مدينة القاهرة ومنه ما يسمى السلوانى والمدنى والحموى والشامى
والبستانى والرطب منه غاية فى اللذة وهو مقو. وعلاوة على هذه الأنواع هناك نوع

بنفسجي اللون ينضج فوق نخيله فيصبح مثل «المصطكا» وهو غاية في اللذة.
و«التمر الأسود» ثلاثة أنواع، منها نوع جاف ثماره كالحصى، يضعونه في جلود الإبل ليحمل إلى القاهرة وغيرها من البلاد، ولو ترك في موضع خمس سنوات لما فسد ولا تستطيع الفأرة أن تأكله. وفي البلاد الأخرى ينقع في الماء ويؤكل فهو غاية في اليبوسة.

وهناك نوع من التمر هو «التمر الصعدي» ومنه نحو عشرة أنواع. كما أن التمر الأسواني لذيد الطعم. وفي مناطق أسوان والشلال هناك «تمر العاص» ونخلاته تنمو من نواة واحدة حتى تناطح السحاب، وتمر العاص هذا ينفق عذقا عذقا، وأوراقه مفلطحة وثمرته تزن سبعين درهما أو مائة وهي في حجم قبضة اليد، ونواته مفرغة يضعون فيها الفلفل، وثماره ليست لذيدة الطعم يأكلها الفلاحون، ويملاون زناييلهم بتمر «الطين» ويحملونها من ولاية إلى ولاية.

وهناك «التمر القدرى» وهو نوع من التمر يشبه التمر «العقيق اليمنى» وهذا النوع صغير الحجم، لذيد الطعم إل أبعد حد، ويصدر بكميات ضخمة في زناييل إلى اسطنبول وسلاطيك وغيرها من البلاد.

ونوع آخر من التمر يسمى «التمر البرلسى» وهو تمر أحمر اللون كبير الحجم مستدير الشكل لا يقبل الناس على أكله، وهو رطب يضعونه في الجرار ويصنع منه «الكامخ» فيصبح غاية في لذة الطعم، ويفصلون حامضه عن طارجه ويصنعون منه الخل.

والخل يصنع كذلك من جميع التمرور إلا أن الخل المصنوع من هذا النوع غاية في الجودة.

كامخ البصل

ورائحة كامخ البصل في مصر تكاد تقضى على الإنسان، إلا أنه يفيد الفلاحين كثيراً فهو طارد للبلغم.

الجبن القديم

يضعون الجبن فى الملح ويظل فى الجرة خمسة أشهر أو أكثر وعندما تفتح هذه الجرة تنبعث منها رائحة إذا ما شمه تركى تعلق بأذيال الفرار فهى رائحة تكاد تكون قاتلة . أما العرب فيحضرون جرار الجبن القديم ويقطعون الخبز ويضعونه فى ماء الجبن وفيه الديدان وكأنها «خشاف» يضعون فيه الديدان المسلوقة ويأكلونه ويدعو بعضهم بعض إلى هذا الطعام .

الليمون (ترياق السموم)

إنه ليمون صغير مستدير أصفر، إلا أنه مملوء بالماء الصافى، وتباع المائة ليمونة منه بياره واحدة، إلا أنه ترياق للسم وينقذ حياة المسموم .

الليمون الحامض

وهو كذلك موفور فى مصر، ويأتى على مصر أحد العاملين فى مصنع الحلوى بالأستانة لعصر كميات من هذا الليمون وصنع مئات الزجاجات من الشراب المسك للسلطان .

وهناك «النارنج» إلا أنه حامض، والليمون الحلو كثير، وهناك التين والرمان وسبعة أنواع من العنب والخوخ والمشمش، ولا وجود للمشمش «اللوذى» وهناك البرقوق والزيتون إلا أنهما قليلان، وتأتى الكمثرى والسفرجل بكميات ضخمة من الفيووم . وتأتى السفن من طور سيناء إلى السويس محملة بالتفاح والكمثرى والسفرجل وتحملها الجمال إلى القاهرة لأن التفاح فيها قليل، أما المورد فموفور، أما الجميز فهو وفير جدا ولا تنمو ثمرته على الأغصان وإنما على الجذع الضخم، إنها شجرة عجيبة، لها ثمرة تشبه ثمرة التين، والأبيض والأصفر والأحمر منها غاية فى لذة الطعم، وإن كانت تبدو فى هيئتها كأنها ثمرة تين إلا أن داخلها مفرغ ولا بذرة فيها . وتنمو المائتان والثلاثمائة من شجرة فى موضع واحد، ويباع محصول مائة شجرة بياره واحدة . وهو فى جنبه مشقة يصعد الناس شجره بسلم قبل أن ينضج ويختنون كل ثمرة بسكين فتتضج الثمرة لذيدة الطعم وإذا لم تختن الثمرة فهى لن تكون لذيدة . إنها ثمرة لها رائحة المسك، سهلة الهضم ومقوية .

ولكى لا يأكل العصفور هذه الثمار يحيطون الجذوع المثمرة بشبكة صيد فتأمن من الطيور، وظل هذه الشجرة بقعة طيبة النسيم لا تنفذ إليها حرارة الشمس ومن استراح في ظلها شعر بالنشاط وكأنه لم ينم.

فاكهة النبق

في حجم ولذة ثمرة الـ «الحج» في تركيا، إلا أن الثانية داخلها ست بذور في حين أن في النبق بذرة واحدة، وهي تنمو في موسم الشتاء وثمره في حجم ثمرة الجوز، ومنها الأحمر والأصفر والوردي، وهي شجرة مرتفعة تعمر طويلاً وفي تكية «منصور الأنصاري» بمصر القديمة شجرة نبق سامقة عمرت ألف عام وتؤتى أكلها في كل وقت نواة النبق كنواة الكرز ولذلك يسمون كرزنا النبق وطبيعته قابضة.

فاكهة (١)

إنها فاكهة عجيبة في لذة تمر طرايبزون في بلاد الترك ولكنها لزجة في فم الإنسان كأنها الغراء، إلا أنه لذيذ مقو وأشجاره سامقة.

الخيار شنبه

أشجارها تشبه شجر الجوز وأوراقها كذلك تشبه أوراقه، وله أزهار صفراء. ثمارها طويلة كالسوط يبلغ طولها ذراعاً أو ذراعين، وهي تشبه الثعبان في طولها وفي أول ثمرها تكون خضراء وعند نضجها يسود لونها ويدخلها عقد من العسل الأسود. يضيفها الأطباء إلى المعاجين، فهي ملينة، كما يصنع منها المربى وبعض الأدوية الجيدة. وعندما تكون الثمرة ما زالت زهرة صفراء يصنعون منها الخميرة والمربى. إنها فاكهة مفضلة لدى العوام من الناس وخواصهم. إلا أن كل أشجارها تحتكرها الحكومة وأصحابها لا يستطيعون قطف ثمرة من ثمارها فهي أمانة عندهم للحكومة وتدفع لأصحابها أجرة واحدة على السبعة عشر حملاً منها، وثمارها تحت تصرف الحكومة، وتصدرها للملوك الأمتانة، وتحصى ثمارها ثمرة ثمرة وهي ما زالت فوق أشجارها ويقيد ذلك في دفاتر حتى إذا ما نقصت منها ثمرة غُرِّم صاحب البستان.

(١) بياض في الأصل.

شجرة المصرو

وهو فى مصر كثير ، كما توجد شجرة «دلب الفسوق» وهى موجودة فى حديقة «نقيب الأشراف» ، وشجرة «الصنوبر» وهى كذلك موجودة فى حديقة نقيب الأشراف ولا وجود لسواها.

شجرة الجوز

شجرة فى حقل نذير أغا فى عمق قلعة الكيش ولا وجود لسواها ولكنها تكثر فى مدينة الفيوم.

شجرة السبحة

قريبة الشبه من شجرة الجوز إلا أن أوراقها صغيرة، تنمو على غصونها التى تشبه السبحة. وتثقب ثمارها عندما تنضج وتصنع منها السبح، ومن يشاهدها يعجب لإبداع الخالق قائلاً: سبحان الله الذى خلق هذه الشجرة المستديرة التى تصنع منها السبح لذكر اسمه.

شجرة السنط

أشجار سامقة فى غلظ رَجُلَيْن، أوراقها كأوراق شجرة الكرر إلا أنها لا تؤتى ثماراً. تصنع السفن من خشبها وتحرق وقوداً، ولا رماد لها، وجمارها حمر. إنها شجرة صلبة، تستخدم أوراقها لعلاج الإسهال، فتدق فى الهاون وتخلط بالعسل وإذا ما تناول شخص خمسة دراهم من هذا الخليط على الريق شفى من الإسهال. وأخشابها غاية فى الصلابة حيث تصنع منها سفن تعمر مائة عام فى البحار. وبعض الأبنية العتيقة التى مضى على بنائها ألف عام أو أكثر أسسها من هذا الخشب. ومن ثم لا وجود لأشجار فى صلالة السنط والبقس، ومن الناس من يسميها «أشجار العالم الجديد»، إلا أن جو مصر يغير لونها.

شجرة الساج

ليست شجرة كبيرة، أوراقها كأوراق شجرة الكرر وهى دائمة الخضرة، تكثر على ضفاف النيل وهو شجر يقبل أهل مصر على زراعته، إلا أنه لا يؤتى ثماراً.

شجرة الحناء

شجرة فى حجم شجرة البرقوق التى فى بلاد الترك، ولها نوع خاص من النور زكى الرائحة، ويقدمها البستانيون هدية إلى الأعيان، ولكن ليس لها ثمار، إلا أن رائحتها تهب الروح. وهى ليست الحناء التى تستعملها النساء.

شجرة الحناء (حناء يد وقدم النساء)

تكثر فى مدينتى بلييس والقرين، إنها أشجار قصار، ترتوى على الدوام بماء السواقى ويجمعها النساء والأطفال فى موسم حصادها يقطعون أوراقها وتطحنها الطواحين وتصنع منها الحناء فتصبح فى لون الياقوت الأحمر. وكنت أسرُّ عندما أشاهدها فى كعب العجايز من نساتنا.

شجرة الصفصاف

وهى كثيرة، وأوراقها مفيدة لمرضى اليرقان، فتسحق أوراقها فى هواوين خشبية لاستخلاص مائها، وإذا شرب مريض منه كأسا فى ليلة مقمرة شفى من اليرقان فى الصباح.

شجر الحور

يوجد فى البساتين هنا وهناك.
وشجر «العُلكِ الأسود» منتشر هنا وهناك كذلك.

شجر التوت

وثماره منها الأبيض والبنفسجى والأسود الحامض، إلا أن أشجار التوت المحيطة بقصر ذى الفقار بك أمير الحج على ضفة بركة الفيل لا نظير لها فى الدنيا، بأسرها وجذعها فى غلظ أربعة أشخاص وأغصانها تظل ما حول القصر وتحت جميع أغصانها أكثر من أربعين عمودا وظلالها كأنها قاعة ديوان عظيمة. وعلى مصطبة تلك الحديقة مكان يتسع لتناول ألفين طعامهم. وثمارها لذينة الطعم كأنها اللؤلؤ، وهى غزيرة العصير.

ومجمل القول أنه لا وجود لمثل ثمار هذه الحديقة فى الدنيا.

شجر الآس

إنه كثير إلا أنه لا يثمر كآس حلب.

شجر (اتله)

أوراقها كأوراق شجرة السرو إلا أن خشبها ليس مثقوباً كخشب السرو، كما أنها كذلك لا تثمر، ويستخدم خشبها في أعمال البناء، كما تستخدم حطباً.

شجر التمر الهندي

يتشتر هنا وهناك في الحدائق، وهو يثمر.

شجر الجميز

ذكر أنقأ.

شجرة السيسبان

إنه نوع من الأشجار الصغيرة التي لا تعمر طويلاً، يزرع حول حقول قصب السكر، ولتورته رائحة إذا ما شمها الفأر أو ابن عرس لم يدخل حقل القصب ليأكله، ويضاف فحم هذه الشجرة إلى البارود. وكم من أشجار أخرى توجد في مصر إلا أن الكلام بذكرها يطول، لذا اكتفينا بذكر ما سلف من أشجار.

الفصل السابع والخمسين ذكر النباتات المأكولة في أرض مصر

- الموز:

شجر عجيب، إذا قلت إنه شجر فليس بشجر، لكن طوله كطول الشجر، يطول في كل عام بمقدار قامة شخصين، وجذعه في غلظ الرجل، وداخله مملوء بالماء، وهو يطرد ماء الاستسقاء على نحو ما قيل عنه. وأوراقه في حجم اللحف والبسط وتشبه الاعلام الأخضر وبين أوراقه إلى ذروته عناقيد الموز، وفي كل عنقود ما يقرب من مائتي ثمرة منضدة بعضها فوق بعض وعندما ينضج يصبح وكأنه قطعة من الماس وعندئذ يقطع للأكل ويكون الموز أخضر في بداية نموه. وعلى الرغم من أنه قريب الشبه من الباذنجان إلا أن ليس به بذور، بل إن ثمرته ممتلئة بالمعجون وهو مقو، وقشرته تسلخ من أعلى، وإذا ما أكل مع السكر كان أكثر لذة في طعمه. وإذا ما تناول منه الإنسان خمس ثمرات أصبح في غنى عن أكل اللحم وهو مشبع سهل الهضم، وثمرته غنية بمنافعها فهي تقوى البدن وتزيد من المنى وتقوى الإبصار.

ويقال إنها خلقت كرامة لسيدنا أويس^(١) رضي الله عنه فعندما استشهد السنة الشريفة للرسول ﷺ في غزوة أحد، وتناهى إلى سمع أويس ذلك الخبر قام بخلع أسنانه الاثنتين والثلاثين محبة في رسول الله ﷺ وهو يقول: أهذه السنة التي استشهدت أم تلك وعندما طرح أسنانه على الأرض نبئت هذه الاسنان موزا بقدره الله تعالى وانتشر الموز من اليمن إلى سائر البلدان الأخرى.

(١) هو أويس القرني خبير التابعين كان برأ بأمه، مؤثرا للعزلة وخمحول الذكر يستخفى من الناس حتى لا يعرفوا حاله مع الله وكان - رحمه الله - مجاب الدعوة، أمر النبي ﷺ - عمر - رضي الله عنه - إذا لقيه أن يستغفر له، فلما لقيه عمر في خلافته ذكر له ما كان من قوله صلى الله عليه وسلم فاستغفر له. والخبر في صحيح مسلم، كتاب الفضائل (١٠١) باب من فضائل أويس القرني رضي الله عنه. والحكاية الواردة هنا عن أويس وإن لم تكن مستبعدة في حق من يأخذ الحزن لفقد عزيز؛ فقد حلقت الخناء شعرها حزنا وكمدًا على أخيها، فما بالنا والأمر متعلق بالحبيب ﷺ إلا أن هذا قد يكون من قبيل كلام القصاص؛ فإنه لم يلق النبي ﷺ، وهو في عداد التابعين ولم يدرك أحداً.

هذا ما رواه علماء اليمن وأجمعوا عليه .

إلا أن شجرة الموز تنبت من الأرض كقصب السكر وتثمر مرة واحدة ثم تقطع، هكذا خلقت . وتكثر أشجار الموز في بيروت، تحتكرها الحكومة ولها ناظر خاص، كما أنه يكثر في دمياط والقاهرة .

- الخيار:

يزرع بكثرة ولكن تمس الحاجة إلى استيراد بذوره من الشام كل عام، لأن بذور الخيار التي نمت في مصر السنة الماضية أثمرت عجورا، ولذلك تستورد بذور الخيار من الشام في كل عام .

- العجور:

يشبه الخيار كذلك ولكن ثمرته عوجاء .

- القشاء:

وهي كذلك أحد أنواع الخيار، وهي مرطبة، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم .

- البطيخ الأصفر:

أي الشمام، هناك سبعة أنواع منه في مصر وهو يزرع ويحصد ثلاث مرات في العام، وهناك الشمام الأخضر والذي كان في بدايته يسمونه «دوميرى»، وهو مستدير ولذيذ الطعم وثمة نوع آخر يسمى «الشلاية» يزرع في أراضي الخانكة وهو لذيق الطعم غاية في امتلائه بالماء .

- البطيخ:

يزرع بكثرة في جميع المدن، إلا أنه صغير الحجم، ولكن بطيخ البرلس كبير وقشرته رقيقة وداخله نسيج أحمر ياقوتي ممتلئ بالماء .

- البطيخ الأزرق:

وهو كذلك أحد أنواع البطيخ، إلا أنه فارغ الداخل ويطرحونه في البرية في بلاد الترك غير أنه يباع بدينار ذهبي في بعض أحياء مصر، إذ إن جو مصر يجعله يهب الحياة فإذا ما أصابت إنسان حمى محرقة وشرب فتجانين من ماء هذا البطيخ الأزرق أصبح

جسمه كأنه قطعة من ثلج، يا لها من حكمة عجيبة. وفي تذكرة داود ذكر لفوائده التي يعجز الرصف عنها، ولا وجود لهذا البطيخ إلا في مصر.

- البطيخ (عبد اللاوى):

وما يعرف بعبد اللاوى يشبه الشمام في طعمه. إنه شيء عجيب عندما يستدير ينقسم رأسه إلى جزئين أو ثلاثة ويصبح كل جزء منها كأنه ثعبان أرقط، وفيه بذور تشبه بذور الشمام، إلا أن طعمه يعميل إلى الحموضة قليلاً وطبيعته مرطبة وهو مدر للبول وبما أن له هيئة الثعبان يأكله الإنسان متكرها.

وقد جاء في كتب الطب إنه خلق بفضل معجزة الرسول ﷺ والسبب هو:

حكاية

يحكى أن كفار قريش ذهلوا عند ظهور النبي صلى الله عليه وسلم فبالغوا في مهاتته إلا أنهم عجزوا عن الانتقام منه، فلجأوا إلى الحيلة والمكيده فأحضروا صندوقاً فيه عقارب «كاشان» من بلاد الفرس وهى عقارب تنفذ إبرتها في الحجر، والعقرب الكاشانى فى أيامنا تلك له واسع الشهرة فى شتى أنحاء الدنيا.

ثم أحضر ملاعين قريش هذا الصندوق وبعض الهدايا إلى الرسول ﷺ حتى تلدغه العقارب عند فتحه للصندوق. فقال ﷺ: ما هداياكم تلك. فقالوا: يا محمد إن هدايانا نوع من الشمام ظهر حديثاً لا علم لنا باسمه.

فقال الرسول ﷺ: سموه «عبد اللاوى» فقد كان ﷺ يحب الشمام كثيراً، وهم الرسول ﷺ بفتح الصندوق أمام رهط قريش ذاكرا اسم الله تعالى فأصبحت العقارب الموجودة فى الصندوق «عبد اللاوى» فأكل منها ﷺ قائلاً: بسم الله ووزع منها على صحابته ورأى كفار قريش هذا فأمن منهم سبعون فى التو، أما بقيتهم فقالوا: يا محمد إنك لساحر. ومضوا وبقوا على ضلالتهم. ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وتلك هى معجزة «عبد اللاوى» وهذا هو السبب فى أنه على هيئة الأفعى والعقرب. ولا وجود له إلا فى مصر.

- المعجور الأخضر:

وهو كذلك مثل عبد اللاوى إلا أنه أخضر وأشكاله معوجة مثله كذلك، وفيه بذور، وطبيعته مرطبة، وطعمه لا يشبهه طعام آخر. يسمى فى بلاد الترك «القرع المصرى» ويسمى فى مصر «القرع التركى». إنه قرع مستدير ينتشر بين فقرائنا، ومنه قرع الماء والقرع الأفرنجى وقرع الألواح وهى كثيرة.

- حب اللبذ^(١):

ينمو على ضفاف النيل وهو يشبه الحمص ويميل لونه إلى الصفرة وهو بقل لذيد ومقو.

- قصب السكر:

يزرع بكميات ضخمة فى جميع القرى وهو محصول عظيم.

- القلقاس:

نبات أسود يشبه فجل بروسه يأكله الفقراء وطعمه لذيد مثل «أبى فروة»^(٢).

- القنايط:

يشبه الكرنب، لكن له أزهار صفراء.

- التين الأفرنجى (الشوكى):

أشجاره خضراء والواحدة منها طول رجلين وهى تشبه الكف يلتصق بعضها ببعضها وأوراقها سميكة كالقف وعلى أطراف أوراقها الخضر تنمو عشرات من ثمار التين ومنه الأصفر والأحمر وتكون مغطاة بالأشواك. يستخدم دواء كالتين، إلا أن طعمه لا يشبه طعام الفاكهة وهو مقو للغاية.

- لوز النوى:

شجر قصير كشجر السمر وفى كل شجرة لوزتان أو ثلاث، وهو يشبه اللوز فى طعمه. وقد خلق هذا النبات كرامة للرسول ﷺ عندما قدم إلى الشام للتجارة، وهو يكثر فى أرض مصر. إنه مقو ولذيد.

(٢) أى الكستناء.

(١) يقال له حب العزيز.

- الملوخية :

عشب أخضر يشبه التنعاع، يطهى كالسبانخ، يسميها بعض الظرفاء «ملوكية» لشدة حبهم لها أى أنها طعام الملوك. إنها سريعة الهضم مقوية وهى طعام الزوج وهى مفيدة للطواشي.

- البامية :

نبات فى حجم رصاصة البندقية، وجلد ثمرتها شائك ولكن إذا طبخت زالت أشواكها. عندما تطهى مع اللحم ويضاف إليها عصير الليمون كانت طعاماً عظيم الفائدة. وبداخل ثمرتها بذور تشبه بذور العدس، والبعض يطبخها بالثوم والماست، إنها طعام عجيب لذيد.

- الثوم :

نبات ضار وسم زعاف، لذا لا يقبل عليه الناس والكل يستخدم الثوم التركى ولا وجود لشيء أرخص من البصل والملح.

- الكتان :

يزرع بكثرة، إلا أن أجود أنواعه التى تزرع فى الفيوم والنهارية، وتباع الكرة من خيطه بخمس عشرة پاره. إلا أن قماشه لا يتحمل، ويلبس قميص الكتان شهرين فقط.

- النيلة :

عشب لونه بين الزرقة والخضرة، عندما يكتمل نموه يطهى فى أوان كبيرة، ثم يدق بالمطارق الخشبية فينضج ماؤه فيؤخذ ماؤه ثم يوضع على النار حتى يغلى وترسب ربدته فى قاع الإناء ثم يحول إلى أقراص ويباع لبائعى الأصباغ. وتباع الأوقية منه بأربعة قروش، ويقال إن هذا العشب لا وجود له فى بلاد الهند.

- البرسيم :

عشب ينبت فى اليوم التالى من زراعته بمقدار شبر، وهو مرعى جميع المواشى ولولاه لما كان فى مصر مرعى.

- القصب الريحاني:

قصب طويل، رقيق فيه عقد، يصنع منه غليون التبغ.

- الحصير المصري:

وهو من شتى الألوان، ويصنع منه حصير الفيوم والبحيرة وتباع الواحدة بأربعين قرشا أو أكثر، وهذا الحصير لا وجود له إلا في مصر وحدها دون غيرها من البلاد، وبعض الصانع المهرة يصنعون حصيرا وكأنه سحر معجز.

- الترمس:

نبات مستدير مفلطح يشبه الفول، يتقع في الماء المملح ويؤكل، والبعض يطبخه والبعض يطحنه ويصنع منه دقيقا يمسحون أيديهم به بعد الفراغ من تناول الطعام ويغسلونها بالماء فهو يزيل الزهمة من اليد. وتستعمله جميع عائلات مصر بديلا عن الصابون في غسل أيديهم بعد الطعام فهو ذو رائحة زكية. وبعض السمان يدخلون إلى الحمام ويمسحون جسمهم كله بهذا الترمس فيزيل ما علق بأجسامهم من أوساخ ويجعل أجسامهم ناعمة وكأنها الفالودج، ولذا فإن جميع حسان مصر يمسحن أجسامهن به في الحمام إلا أنه ليس من أدوات الاغتسال.

- الغاسول:

أحد أنواع الصابون وهو نبات ينمو على ضفاف ثرعة «الناصرية» المؤدية إلى الإسكندرية، يكوم هذا النبات تلالا تلالا في مكان واحد وتضرم فيه النار فيتحصل من ذلك رماد يصنع منه الزجاج بمشيئة الله.

وقد لا يحرق في النار ويسحق في هواوين، ثم يخلط بالطين ويشكل على هيئة أقراص تغسل بها الملابس فتبدو لها رغبة كالصابون تنظف الملابس وتجعلها ناصعة البياض، إلا أنه لا يصلح لغسيل العمام والقمصان الرقيقة.

والسر العجيب أنه عشب يحرق في النار فيصير رجاجا ويخلط العشب بالتراب فيصبح صابونا. إنه ما يعرف «بالغاسول» يفعل الله ما يشاء.

- الحلبة:

حبة مثل حبة العدس، توضع فى صرر من البز وتنقع فى الماء فتتمو كأنها شعر العرب وتصبح بيض الافنان يأكلها الصبيان، كما يصنعون منها حساء. وطعمها لذيذ للغاية.

وفى مصر القمح والشعير والبقول والحمص والعدس والقطن والأرز والسمن أكثر منه فى البلاد الأخرى وأرز مصر الذ من أرز الهند، وروان ونيلان وحبته أكبر، ويقال إن أرز المنزل وفراسكور لا نظير لمثله على وجه الأرض وليس فيه حصى، وأجود أنواع الأرض فى مصر هو الأرض السلطاني الأبيض.

- النطرون:

شئ يشبه الملح، لندرة الحطب فى مصر يضعون هذا النطرون إلى الطعام فينضج اللحم وغيره فى طرفة العين، إلا أن أعيان مصر لا يقبلونه، وعلى الرغم من أنه ينضج الطعام بسرعة إلا أنه يسبب تورم الخصية لمن يستعمله فيمشى يتبختر وكأنه صاحب الدولة، ولذا فأغلب أهل مصر مصابون بتورم الخصية ويسميهـم الظرفاء أصحاب الدولة، وأثناء الكلام إذا قلت لأحد المصريين «بنخ بنخ يا صاحب الدولة» دخله شديد الغضب لأن ذلك يعنى - بأسلوب مهذب - أنه متورم الخصية.

ثمة ثلاثة أديرة للقبط تقع على صخور قائمة فى الجانب الغربى من كشوفية طرانة بالبحيرة، أمام تلك الأديرة الثلاثة بحيرة عظيمة يأتى كل النطرون منها محملاً على الجمال، وهو الآن تحتكره الحكومة. وقد بقى هذا النطرون من أموال قارون على وجه الأرض. والنطرون شئ عجيب، وإذا سقط الفرس أو البغل أو أى شئ آخر فيه ابتلعه النطرون، ولا وجود له إلا فى مصر دون غيرها من البلاد، ويصدر منها إلى جميع أنحاء العالم، ويستخدم فى بلاد الترك فى مصانع الزجاجات فهو يصهر الزجاج فيجعله كالماء. وفى مصر تلد الشاة ثلاث مرات فى العام، ولا تقل الخضروات فيها قط فى صيف أو شتاء.

ذكر الأشربة المصرية

- السويا:

أى بوزة الارز التى سبق وصفها فيما تقدم.

- المازة:

بوزة تصنع من القمح إلا أنها مشروب لعين مسكر للغاية.

- البربريس:

شراب يصنع من الزبيب الأسود يضاف إليه السكر والتوابل.

وعرق التمر وماء العسل ليسا كمثلهما فى بلاد الترك، وهما مسكران للغاية لعنهما الله.

- خمر البالجو:

ينقع الحشيش مع العسل التركى ويتخمر ليلة ويصفى فى الصباح بمنخل فيصبح

خمرا خضراء اللون من شربها لم يميز رأسه من قدمه.

- ماء الأسرار:

خليط من الحشيش مع حلوى خليل الرحمن، ينقع فى ماء الورد يومين فيصبح براقا

ويخرج منه غثاؤه ويباع فى كؤوس فى ميدان الروملى، ومن شرب منه كأسا أفشى ما

فى طويته من أسرار.

- عصير العرقسوس:

تستورد جذوره من بلاد الترك وتسحق فى هواوين وتنقع فى الماء ليلة ثم تصفى فى

مخللة خيل جديدة فتقطر قطرات حمراء صافية تشرب. إنه مشروب غير مُسكر.

وقد ذكر داود فى تذكرته سبعين فائدة له ومن أعظم فوائده أنه يطهر المثانة ويدر

البول، كما أنه طارد للبلغم، فالبلغم فى جسم أهل مصر كثير كماء النيل، كما أنه

خافض لدرجة حرارة الجسم ويقول داود فى تذكرته كذلك: إنه لولا شرب المصريين

للعرقسوس لأصابهم الجذام من شدة الحر، فالمصريون جميعا يشربون العرقسوس في الغدو والأصال.

في الواقع أنه مشروب عظيم الفائدة حقا.

- عصير التمر هندي:

إنه كذلك مشروب لا وجود له إلا بمصر لا وجود له في غيرها، وهو غير مسكر إلا أنه منشط للكبد ومدر للصفراء وطعمه يميل إلى الحموضة. والأشربة في مصر كثيرة، أما ما ذكرناه منها فهو مبلغ علمنا بأنواعها.

الفصل الثامن والخمسون

ذكر ما لا وجود له فى مصر من حرف وأطعمة ونباتات وغلل

إن عدد المصايين بالرمذ فى مصر ما لا يعلمه إلا الله فى حين أنه لا وجود لكحال ماهر فيها، وجيادها كثيرة فى حين أن لا وجود فيها لبيطار، ومرضاها كثير فى حين أنه لا وجود لطبيب يعالجهم، وكثير منهم تورمت خصيته حتى تمزقت ولا يجد له جراحاً، ورجالها كثير فى حين أنه لا وجود لحاكم يحكمها، وما أكثر المعاندين فيها فى حين أنه لا وجود لمن يتفوه بكلمة طيبة، وجندها كثرة فى حين أنه ليس لهم ضابط ويتملقون جندهم، وما أكثر القائمين على جباية الضرائب فى حين أنه لا وجود لمحاسب ذى ضمير. وهذه العبارات أصبحت أمثالا تضرب فى مصر وهى تدور على السنة الناس.

- ما لا وجود له فى مصر من مأكولات وحبوب:

ومما لا وجود له فى مصر من المأكولات والحبوب هو الدوسر والمعلس واللازوط والجلبان والعليق والزعفران والبندق والفسق والكرز، والكرز الحامض والبشملة والفاكهة الجافة والفراولة والقرانيا والمشمش والقسطل.

- ما لا وجود له فى مصر من أشجار:

ولا وجود فى مصر لشجرة واحدة من أشجار الأرغون والدلب والخور وشجر الشذا والغضا والبقس والقرانيا والعرعر والزيزفون البرى والسندر والأرز وشجر الملح والبلوط واللبلاب والبندق والصفصاف، وتمس حاجة مصر إلى ما يأتى من بلاد الترك من أخشاب البناء فى السفن. ولقلة الخطب فى مصر يباع الحمل منه الذى يزن ثمانين أوقية بأكثر من عشرين پاره، وفى بعض أحياء مصر تباع الأوقية بيارة فى دكاكين العطارين وكأنها توتيا. ويستورد التجار الخطب من تركيا ولا يدفعون عليه المكوس. ولذلك فإن جميع أعيان مصر وأثريائها يحرقون روث الماشية وجميع أهلها يحتاجون إلى البراز.

- بيان ما لا وجود له في مصر من معادن:

فالحديد والنحاس والرصاص والقصدير والفضة والزنابق لا وجود لها في مصر.

- أما المعادن الموجودة بها فهي:

الذهب ويوجد في جبل «بجاميم» بعيون موسى، إلا أنه قليل الفائدة، والزمرد وهو متوفر في ولاية الصعيد العالي ويقوم باستخراجه «على بك الجرجسى»، والذهب الخالص في أرض النوبة. وعلى ضوء ما أورده العلماء والمؤرخون إن ثمة سبعمائة منجم للذهب في ولايات الجبل الأخضر وأوجله وجزيرة مصر، والكثرة المطلقة من هذه المناجم توجد في ولاية الزنوج بين أناس من الناس كالبهائم، وفي ولاية «ماى بورنو» يبادلون حمل بغل من الذهب بمثله من حمل الخرز. وقياسا على ذلك إن الذهب لديهم شىء لا يرغب فيه.

ويوجد في مصر كذلك الجبس، وقد أسلفنا ذكرا لكثير من المعادن، بيد أنه في مصر آلاف من المعادن التى لم تكتشف بعد.

- أنواع الأزهار في مصر:

إن أول حديقة أنشأت في مصر للتي في جزيرة الروضة قبالة مصر العتيقة ثم أنشأت بعد ذلك الحدائق العامة حتى أنشأت حديقة «طوب اتان» أى مطلق المدفع، وهى حديقة كأنها جنة إرم ذات العماد ثم توالى إنشاء كثير من الحدائق وفيها الآن تكثر الورود والرياحين والبلابل، ويستخلص ماء الورد من وردها وهو ذكى الرائحة.

وأزهار القرنفل والبنفسج والياسمين الفل والريحان والريحان المكى والريحان اليمنى والريحان الحنائى والصدف والخرجس والخيرى والسنام والحناء والزنابق والسنبيل وزهرة قرن الغزال والمسك التركى والورد الأبيض كلها أزهار حديثة عهد بزراعتها في مصر.

والشقائق والزرين (زهر أصفر طيب الرائحة) أكثر الزهور انتشارا في مصر.

وما نعلمه فهو تلك الزهور فكل من أراد أن يزرع نوعا من الزهور زرعه، إلا أن أهل مصر ينقصهم الذوق والنظافة فهم لا يهتمون قط بهذه الأزهار. وهم لا يزرعون أرض النيل أزهارا بل يزرعونها بما يعرف بعشب الروح وهو القمح الذى ورد فى شأنه

آيات كريمة، وهم الآن يزرعون مما يعود بالرخاء على مصر.

بدع حكام مصر

إذا ما توفى يهودى فى القاهرة يصطحب جميع اليهود بعض جند الصوباشى ويحملون آلاف المشاعل ويحمل جند الصوباشى كامل أسلحتهم ومع دخول الليل يمضى أهل اليهودى المتوفى بجثمانه لدفنه فى مقابر اليهود بالقرب من البساتين وينفقون فى ذلك ثلاثمائة قرش.

ودفن اليهود نهارا ممنوع منا باتا، وللإهود عذاب أليم اللهم زده.
وهناك العديد من جبانات النصارى منها جبانة بالقرب من مصر العتيقة، وتشيع جنازتهم فى أى وقت.



الفصل التاسع والخمسون

ذكر اعتدال جو مصر ويدع ومحاسن شعبها قدر المستطاع

إن ماء أم الدنيا مصر وهى شوق الملوك من ماء النيل، وليس بها نهر آخر، وقد أسهبنا فى وصفه وإحصاء محامده فيما سبق. وجوها معتدل لطيف إلى حد جد بعيد، فلا يصاب أهل مصر بالحمى. سيما وقد ذكرنا آنفا أن جو القلعة الداخلية يشرح الصدور، وتنتشر بها الحداثق والرياض والأحواض والشادروانات، ويتردد فيها تغريد البلابل مما يبهج النفوس وهذا ما لا وجود له فى القلعة العليا. إلا أن جوها طيب فإذا ما مرض جنوب المدينة صعدوا به إلى القلعة العليا (أو إلى أعلى القلعة).

والقلعة العليا مصحة للمدينة، والأبنية فى الجهة القبلىة للمدينة متلاصقة، لذا فطرقها ضيقة مظلمة ولذلك فعلى سطح كل بيت «عبّار هوائى» لإنفاذ الهواء إلى داخل البيت ومنافذ الهواء هذه من اختراع ابن سينا على ما يقال. وقد صنع ابن سينا هذه المنافذ بعلم السما وكان يبيع كلا منهما بدينار من ذهب على قدر استطاعة كل أحد، وكان كل منهم يضع هذا العبار فوق سطح بيته ليدخل منه الهواء فيتشمسه أهالى القاهرة.

ولهذا السبب فإن جو الجهة القبلىة للمدينة غير متقلب فى اليوم الواحد تهب عشر رياح.

- ريح (تياب):

ولكن ريح (تياب) تهب من جهة () (١) وتسمى () (٢) فى بلاد الترك.

إنها فى مصر راحة للأرواح، وهذه الرياح لا تبرد جرار وقلل الماء فى مصر.

- ريح المليس:

وتسمى فى بلاد الترك «لودس» وهى وإن كانت حارة التأثير إلا أنها تجعل الماء كأنه

قطعة من ثلج.

- ريح «مركب»:

وهى رياح مثيرة للرمال والأتربة، تملأ القاهرة غبارا وترفع ثياب جميع الناس، ومن

شدتها تأتى بجميع سفن الحجاج من جدة إلى مصر مما يعود بالخير على البلاد.

(١، ٢) يياض فى الأصل.

والجهات الخارجية للقاهرة طيبة النسيم، وإذا ما هبت رياح «بويراز» ورياح «لودوس» خمسة أشهر جاءت السفن من بلاد الترك مما يعود بالرخاء على مصر.

كما أن الرياح التي تسمى «بويراز» تأتي بالحجاج من السويس، وتحمل الحجاج إلى جدة وينبع مما يعود بالنفع والخير على مكة والمدينة. وإذا ما هبت الريح المعروفة بلودوس خمسة أشهر وهي أشهر الشتاء جاءت سفن الحجاج والتوابل من جدة وينبع إلى السويس مما يعود بالخير والرخاء على مصر، وتغضى هذه الرياح ثانية بالسفن إلى بلاد الترك. ولها تين الريحين عظيم الفائدة لمصر وشعبها.

وفي وسط القاهرة يطيب الجو، كما أن أجواء جبل المقطم أى الجوشى ومصيف قايتباى وسهل العادلية وسبيل غلام والمطرية وبركة الحاج غاية فى اعتدالها.

أما الجهات القبلية للمدينة فتوجد البرك وعلى حوافها صور سلاطين وملوك السلف، وجوها كذلك يشرح الصدر. ولكن داخل المدينة وكالات وربوع وهى منازل من خمسة طوابق أو أكثر، وفى أيام هبوب «رياح الخماسين» والعياذ بالله فإن لون وجوه الفلاحين، من ألم البق والبراغيث والقمل والبعوض، والذباب والرائحة الكريهة، تصبح وكأنها وجوه أناس مصابين بالصرع، والسبب فى ذلك هو أنه لا وجود فى مصر لقنوات الصرف، بل آبار وفى أيام هبوب الخماسين على الخصوص تكسح المراحيض وهذه القنوات فتفوح الروائح الكريهة والعفنة، إلا أنهم يخبرون أهالى الأحياء بذلك ليهرب الأشخاص ذوو الحساسية بأطفالهم عن هم فى سن خمسة أو ستة أشهر إلى حى قايتباى أو داخل القلعة أو غير ذلك من القرى.

وبسبب هذه الروائح الكريهة فى تلك الأحياء ينتفخ أعلى مخ الطفل وينفتح فيه ثقب يخرج منه مخ الطفل وقد أحضض كالبرورة فيموت الطفل.

وجملة القول أن رياح الخماسين تلك ضارة للغاية، وسميت هذه الرياح بهذا الاسم لأن الله ابتلى بها بنى إسرائيل بخمس مصائب فى خمسة أسابيع.

وبعد أن تفشى الطاعون وعم القحط وانتشرت الأفاعى والعقبان طيلة خمسين يوماً ثم دفع هذا البلاء بفضل دعاء موسى - عليه السلام - . وعندما تحين الأسابيع الخمسة تلك يسارع أهل مصر إلى توزيع الصدقات، فى حين أن الدنيا تنهدم فوق رموس

المسنين وتستولى عليهم الكآبة، أما الباشاوات فيسرون سرورا لا مزيد عليه إذ إن بعض القرى تصبح محلولة فتكون من نصيبهم.

وفى جو الخماسين السوء لا يلامس ذوو الحساسية نساءهم، ففي تلك الايام تضعف اجسامهم وتقل قوة نطفتهم. أما إذا عيل صبرهم ولا مسوهم ولدت لهم اطفالا عمى مجذومين وذوى نمو غير مكتمل وعرج.

وهذه الايام المنحوسة فى مصر توافق ايام الربيع فى بلاد الترك، بيد أنها فى مصر ايام الجحيم. ولا يهب نسيم الصبا فى العريش نحو القاهرة ولا يهب منها كذلك ريح سام.

وإذا ما هبط مصر شخص من بلد آخر طابت له مستقرا ومقاما وتعود على جوها وصح جسمه، فبركة دعاء يوسف الصديق - عليه السلام - يصبح الغريب موفور العافية عظيم الثراء إلا أنه لحكمة لا يعلمها إلا المولى - سبحانه وتعالى - فإن أعين أبناء الغرباء الذين يتوافدون على مصر تصاب بالرمد وكأنها عين ابن العبد وهذا ما يتحتم حدوثه. يا لها من حكمة عجيبة. وبأمر الله عندما يولد أطفالهم يولدون ضعاف البصر.

والكثرة الكاثرة من أهل مصر يضعون ملح النطرون فى طعامهم، لذا يصابون بتورم الخصية وهنا تبدو نساؤهم وكأنها حوامل. وت تورم أرجل فلاحهم كأنها القرب.

يحكى علماء مصر أنه عندما أرسل يزيد رأس الإمام الحسين - رضى الله عنه - إلى دمشق، ثم أرسله إلى عامله على مصر والذى كان يدين له بالولاء، فوضعه فى جامع السلطان حسن بميدان الروملى، وجعل اليزيديون - الذين كانوا ينتشرون فى مصر آنئذ - يركلون الرأس الشريف بأرجلهم، وكان كل من ركل رأس الحسين برجله تورمت وأصيبت وكأنها القربة ومن فى مصر الآن من ذوى الأرجل المتورمة كالقربة من سلالة هؤلاء اليزيديين.

وهذا ما رواه علماء مصر.

- نفشى مرض الجذام بين المصريين:

وفضلا عن تورم أرجل هؤلاء تورمت وجوههم وعيونهم وأجسامهم، وأغلب فقرائهم وغيرهم مصابون «بالجذام» فى وجوههم وعيونهم وأجسامهم. ويسمى هذا المرض فى بلاد الترك «بالجرب الأفرنجى» وهو مرض متفش فى مصر ولا يسبب أى حرج لمن يصاب به، ويخالط فلاحو مصر المصابين به بمن تأكلت أطرافهم قائلين لهم: أهذا جذام. حتى إنهم يتناولون معهم طعامهم ولا يخافون قط من هذا المرض لأنه أكثر الأمراض انتشارا فى مصر إذ إنه لا وجود فيها لمستعمرات لهؤلاء المجذومين على حين أنها توجد فى سائر البلدان الأخرى حتى لا يقيمون فى داخل المدينة. ويتصدق أهالى الولايات بأموال ركاتهم على هؤلاء المرضى وذلك امتثالا لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠]، أما فى مصر فلا يجدون من يتصدق عليهم بحبة قمح.

- سبب نفشى الجذام فى مصر:

والسبب فى انتشار الجذام فى مصر هو إباحة الدعارة فيها، فبغاياهم يسرن فى الطرقات أسرابا أسرابا.

والمصريون قوم سمر البشرة، متوسطو الطول، أما فلاحو القرى فمنهم أشخاص ضخام الجثة وكأنهم دابة الأرض. ولسانهم عربى إلا أن كلامهم ليس فى بلاغة فلاحى مكة والمدينة وبغداد ودمشق، ولأنهم قوم فرعون الجبابة فهم يحرفون الكلام بدلا من أن يقول أحدهم للآخر «تعال اقعد» يقول «تعقعد» وذلك من قبيل تخفيف الكلام، وهم يسمون الخبز «رغيفا» و «شيلواقا» ويسمون الماء «موى»، ويقولون «دى» بدلا من هذا. ولهم غير ذلك من ألفاظ مهمة محرفة.

ومن فصيح أشعارهم هذه الأبيات:

- | | | |
|------------------------------|----|------------------------------|
| ياسين ياسين يا غزال ياسين | ٠٠ | أنت الورد وأنت النسرين |
| بالله قل من هجرانك وارحم أنا | ٠٠ | الغريب المسكين |
| يا روحى يا قلبى يا بعدى | ٠٠ | يا قمرا يحيى لعننا المحبوبين |
- إلا أنهم على المذهب الشافعى القويم.

أسماء فلاحى مصر

ولفلاحى مصر أسماء منها: جاد الله ، حيا الله ، عبد الخالق ، عبد الصمد ، عبد الغفور ، حمى الله ، هاشم ، طه ، ياسين ، مرزوق ، حمد الله ، حمد ، شرابى ، طاهر ، عبد الحى .

وهذه الأسماء المذكورة أسماء العوام ، أما أسماء الخواص فسوف نذكرها فى حينها .

- طوائف أهل القاهرة :

وينقسم أهل القاهرة إلى طوائف منهم طائفة «التجار» وهم قوم ثراة ، والكثرة الكاثرة من أهلها من الحضر ، وهم يعيشون فى رغد وسعة ، ومنهم طائفة «الحرفيين» وهؤلاء يعيشون فى كفاف . وطائفة منهم هى «الترك» يشكلون طائفة الجند وأغلبهم من عماليك من الأبخاز والجراكسة والجورجيين والروس وذنوج العرب وهم جند أترك غاية فى بهاء ثيابهم واكتمال أسلحتهم .

وطبقا لما جاء فى قانون السلطان سليم لم يكن يسمح بتجنيد «مستوى القدم» من فلاحى مصر .

ويرتدى كل ثيابا قدر ما يستطيع ويلبسون الصوف الحورانى والسراويل الحمر ، أما الحرفيون إذا ما ارتدى أحدهم هذه الثياب وقع تحت طائلة العقاب . والصناع يرتدون فاخر الثياب وأنواع الحرير إلا أنهم لا يرتدون السراويل وصيفا وشتاء يتجولون عراة السيقان وكم من مئات الآلاف من فلاحى مصر يمشون عراة .

وجميع أهل القاهرة لا يلبسون السراويل ، أما علماءها فيلبسون العباءة .

ذكر نساء مصر

وجميع نساء القاهرة لا يلبسون السراويل ، أما النساء التركيات هن اللاتى يلبسهنها ويلبسن على شعورهن قلانس مخططة بالذهب والفضة وعليها ريشات ، ويلبسن الأطواق والقرطة والخلخال والمعاضد والمناطق المرصعة ، ويلبسن القباء الحريرى المزركش وفوقه قباء من قماش موج أبيض وإزار أسود . ونساء الأعيان يلبسن القلانس التى تسمى «سلامية» وفى أقدامهن الخفاف الصفرة والنعال المزركشة الخفيفة ويركبن

حمرهن ويتجولن فى الطرقات فينضح منهن شذا المسك والعنبر فى الأسواق السلطانية.

وفى كل بلاد الدنيا ثمة حسان لا نظير لهن فى حسنهن وجمالهن، ومن عجب أنه ليس بين نساء القاهرة حسان، وبعض الأثرياء يتزوجون من بنات قبائل بهجة وحنادى والحضرى، ومنهم من يستقدم البغدادى الحسان من بنات الترك والتى تساوى الواحدة منهن خزانة مصرية، فهن حسانوات فاتنات ينطبق عليهن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، كما أن الغلمان الصباح يأتون من خارج مصر، أما ما فيها منهم فهم لا يعمرن طويلاً. وإذا ولدت إحدى الجميلات فى مصر رمدت - عيناها، وللحضر بنات رشيقات القوام كأنهن أمهاتنا.

أسماء نساء مصر

أسماءهن: مريم، حواء، عذراء، صفاء، ورقاء، وردة، امهان، كلثوم، رابعة، رقية، زينب، ستيتة، زليخا، زالحة، صالحة، دمرية، عجيبه، شناس، طاهرة، وسامعة، ماهية وأسماء أخرى مستطرفة وحسبنا هذا القدر. وللجوارى الحبشيات أسماء تثير العجب منها: خسيصة، قسيصة، نفيسة، فتنه، أشمينية، شمسية، شمونة، ريحانة، هدية، وردية، حمراء، قمراء، عميرية، جميلة، وأسماء كثيرة من هذا القبيل إذا ذكرناها ألقى علينا اللوم.

أما خارج القاهرة فى القرى والبلدات فثمة حسان صعيديات وبدويات لهن عيون الظباء ووجوه منيرة يقصر اللسان عن وصف جمالهن.

- طقوس ومراسم زواج الفلاحين فى مصر -

للفلاحين تقاليد مرعية توارثوها عن أسلافهم، فإذا ما شاء واحد منهم أن يزوج ابنته مسلماً فهذه الزيجة تتم وفق أصول وطقوس مرعية.

اتفق أن كانت هناك ليلة زفاف فاجتمع ما يقرب من ألفى شخص من أهل العروسين وأقاربهم وعقب وليمة عظيمة طعموا فيها الملوخية والقلقاس والجبن خرج فتى من أحد جوانب الساحة وعلى رأسه شال الإنكشارية وفى وسطه منطقة وفى إحدى يديه سكين

وفى يده الأخرى فأس وأخذ يصيح ويضرب الحاضرين فجرح كثير منهم وحطم بعض ما لديهم وكان هذا الشاب وكأنه ثمل وكان إذا ما تكلم أو أقدم على عمل شيء يقوم بعض الحضور ويقبلونه ويجلسونه فى ركن، ولعله كان ابنا لأحد المجرمين، ثم قام ثانية وصاح قائلا: «أين سيدنا» وبحث عمن يتزوج ليقتله فتقدم إليه من يتقدمون بالرجاء وقالوا له: «ما فى بالى يا عىنى».

وقبله من فى المجلس وأغمدوا سكاكينهم ومضى.

وعندما ذهبت العروس الجميلة تلك لثلثتى بزوجها جلست فى ركن بين مظاهر الأبهة وأقبلت بعض صديقاتها قائلات: «الحمد لله فقد جاء معشوقك» لقد غضب وبحث عنك فلم يجدك، ولا بد أنه قد بسط لسانه بالسوء وعندئذ وقفت العروس هى الأخرى وقالت: عجبا إن معشوقى إذا ما أراد أن يقتلنى فأى ذنب كان منى، قال إنه سيقدم عشرة أكياس صداقا واطلع الحضور على ما أنفق منذ شهر أو أكثر من دفتر فى يده. وكل منهم كان يتباهى بما قدم إلى ابنته من صداق.

وأمسك من يريد الزواج بسكين معقوف ومشى غاضبا بين جموع الحاضرين وقال إنه أنفق مالا كثيرا وإذا ما وجد من يحبها فسوف يقتلها، ثم ظهرت العروس من أحد أطراف تلك الساحة ففر طالب الزواج هذا واختفى فى ركن ولم يعد له من أثر وجاءت العروس فى رى آخر وقد لبست ثوبا أحمر فخرج بعض الناس لاستقبالها وقالت العروس:

إن بينى وبين فلان عداا وشاء أن يقتلنى وقد قدم إليه أبى وأمى هذا القدر من أكياس الجوهر والأواني الذهبية وعرضت ذلك على جميع الحضور فعرفوا من ذلك أن فلانا قدم كل ذلك لهذه العذراء، وكانت الفتاة إذا ما سكنت لقنها أقاربها، ثم أخرجت العروس سكينها ومضت وجاء من يريد الزواج فى ثوب آخر وزعم أنه قدم مالا جما لوالديها وعمتها وخالتها وهدايا أخرى كثيرة، ثم جاءت العروس فى سروالها الأحمر والخنجر معلق فى خصرها وكأنها جندى فأمسكت الخنجر وبحثت عنه ثم جلست فى خيلاء وتكلمت كلاما تقدم فيه النصيح ومضت، ثم قدم طالب الزواج وفى إحدى يديه

عصا وفى الأخرى سبحة وهز رأسه ووجد الله كثيرا ثم مضى وحاصل الكلام أنه فى تلك الليلة الطويلة حتى مطلع الفجر غير العروسان ثيابهما عشر مرات ومضيا وقدما واشتجر بينهما الخلاف غير مرة وفى النهاية انحنت العروس على ركبة من تريده روجا وتبادلا القبلات ثم رفعت مئات المشاعل وقرعت الطبول كما أضيئت القناديل فى تلك الساحة وغمرت البهجة الجميع وارتفعت الأصوات من كل جانب بإنشاد القصائد والتغنى بالمواويل وفى هذه الأثناء ظهرت المشاكل من جهة أخرى. مضت العروس على صهوة جواد مرصع السرج وهى فى قباء من السمرور وهى فى كامل زيتها وفوق رأسها تاج فرعونى عليه ثلاث ريشات متفرعة وهى مكشوفة الوجه وهى تلوح بالسلام إلى من اصطفوا على جانبيها ووقف الفلاحون جميعا وردوا عليها السلام وعلى جانبي العروس اصطف مئات من النساء والصبيان يحملون الشموع ويصيحون قائلين: «الله ينصر السلطان» ومضوا بالعروس وفى يديها منديل وعلى رأسها التاج الفرعونى ويقف جميع الفلاحين إذا ما لوحت العروس لهم بمنديلها.

وصف تاج العروس الفرعونى

قلنسوة من جلد الجمل المدبوغ فى حجم القدر وكل زاوية من رواياه الثمانية مخيطة بالذهب وفى سالف الزمان كان بين رواياه مرصعاً بالدر والآن مواضع هذا الدر ظاهرة، وداخله مكسو بمخمل صفيق وهو وردى اللون وحتى قمته حجر سيلانى فى حجم التفاحة وأطرافه مزدانة بالعقيق والحجر اليمنى، إنه تاج عجيب.

نزلت العروس عن جوادها فى تلك الساحة ونادت من يطلب الزواج منها قائلة: أين من يطلب صاحبة المقام العالى. فجاء وكر وفر أمامها فحملت العروس الخنجر المعقوف وأمسكت بلحيته وجذبتها إلى أسفل وعندما همت بذبحه جاء من أصلح ذات بينهما وأصلحا بينهما مع الاتفاق أن يبنى الزوج لها بيتا أو ينشئ لها بستانا أو يبتاع لها عدة جوار أو يقدم لها عدة أكياس وشهد جميع الحضور على ذلك وعندما قرأت الفاتحة خطف الزوج زوجته من بين الحاضرين وفى التو خلع التاج عن رأسها فى حجرة ثم اقتضها، فسال الدم منها، وأطلعَ دمها على والديها وقومها فعرضت العروس شكواها

ببعض كلمات وهذه فخر لوالديها على أن بتتهما ظلت عفيفة لم يلمسها أحد من قبل قط، ففى العرب وخصوصا لدى فلاحى قبيلة الحضر يصعب وجود فتاة عذراء، فعمر قلب والديها وأقاربها بالطمأنينة ورفعوا عن رأسها التاج الفرعونى، كما أطلع أبوها وأما هذا الدم على الحاضرين ودعوا الزوج إليهم وسألوه لماذا سفك كل هذا الدم فأنكر أن يكون فعل ذلك فقالت العروس: انظروا إلى ملابسه تجدونها ملطخة بدماء بكارتى، وعندئذ نظر جميع الحضور فى ثياب الزوج فرأوا آثار الدماء عليها، فتعلقت العروس ببعض زوجها وتعلق الأب والأم بوسط الزوج وطالبوه بأن يدفع دية ذلك الدم المسفوك، ثم أصلح المصلحون بينهم وقدم الزوج هداياه إلى أبيها وأما دية لهذا الدم المراق، وعندما طالبا بالمزيد حضر والد الزوج وأمه وأقرباؤه واحتدم الخلاف بينهم، وقالوا سلبتم ابنتنا كل ما يملك دون حق وشهد على ذلك الحاضرون وتدخل من أصلح ذات بينهم وقدمت الهدايا إلى والدى العروسين وأقربائهم ليلزما الصمت وتم الصلح بينهم وتراضوا جميعا وجلسوا فى مكان واحد وعمت البهجة والسرور نفوسهم حتى مطلع الفجر وأطلقوا البنادق وغنى المطربون وعزف العازفون بما أدخل البهجة حتى على روح فرعون الحبشة وكان الحاضرون يتجاذبون أطراف الحديث عن الجماع.

هذه هى عادات الفلاحين الحضريين وطقوس الزواج عندهم.

إلا أنهم لا يسمحون بتزويج بناتهم من الغريباء ويحافظون على ذلك التاج الفرعونى.

أوصاف الاحتفال بختان البنات

يعتقد الفلاحون على الاحتفال بختان بناتهم، فيقيمون حفلا بهيجا عند ختانهن وكأنه عرس عظيم، وتركب آلاف النساء الحمر فى موكب عظيم ويمضون بالبنت إلى الحمام ثم يمضين بها ثانية إلى بيتها وفى تلك الليلة تحضر النساء الحاضفات وعندما يقطعون بقر البنت يقام حفل وكأنه العرس.

وقد بقى هذا الختان من عهد سيدنا إبراهيم - عليه السلام -، فعندما كان فى مكة أرسل إليه الملك طوطيس ملك مصر جارية وهى أمنا هاجر. فغارت منها أمنا سارة فقطعت الشحمة الزائدة فى فرج أمنا هاجر، ولكن الحكمة لا يعلمها إلا الله أصبح جماعها للذيذا. ومنذ ذلك الزمان وعادة ختان البنات عند العرب وهى مأخوذة عن أمنا هاجر وقد ولد إسماعيل عليه السلام لهاجر.

وصف الاحتفال بختان الصبيان

إنها أجمل العادات فى مصر لأن الناس جميعاً من فقراء وأغنياء إذا ما ختنوا أولادهم اتباعاً لسنة المصطفى - عليه الصلاة والسلام - يعاون بعضهم بعضاً فيجمعون عشرة أو خمسة عشر أو عشرين طفلاً ليذهبوا بهم إلى الحمام فى جوقة موسيقية وقد حملوا عليهم الذهب والفضة وأركبهم الخيل وعلى رؤوسهم جميعاً ريشات سلطانية يتقدمه جنائب عليها السروج المرصعة ويتقدمه كذلك مسنو الحى والأحياء المجاورة وقد حملوا السلاح وأزيّنوا ويمضون صفا صفا وهم يتبادلون الفكاهات، كما يمضى بينهم من يحملون القناديل والأعلام ثم يركب الجراح جواده يتقدمه صندوق به جميع آلات الختان يحملها رجل على رأسه ويمضى مساعد الجراح وعليهم مناشف من الحرير سيرا على الأقدام، وقد ركب الصبيان الذين سيختنون العجول والحمر والخيل ويستعرض المضحكون المضحكات ويطوفون الأسواق بهؤلاء الأطفال على هذا النحو على نغمات الموسيقى العسكرية والأغنياء والفقراء على تلك الحال. ويدوم هذا الاحتفال ثلاثة أيام بلياليها فى صخب وجلبة وتقام الولائم وفى كل ليلة فى مدينة القاهرة تعم البهجة فى مائة مكان وتقام الاحتفالات وتتلّى الموالد، وتزدان شوارع القاهرة وأرقعتها بألاف القناديل وتوزع الأطعمة وينادى المنادون من قبل الصوباشى طوال ثلاثة أيام بأن تظل المقاهى وما حولها من حوانيت الأطعمة والأشربة مفتوحة حتى مطلع الفجر، ويستمر البيع والشراء.

وخيرا يفعل الناس علما بحديث رسول الله ﷺ وهو: «أعلنوا الزفاف ولو بالدفاف» (١).

فما في مصر من هذه الأبهة لا وجود له في ديار أخرى.

فضائل أهل القاهرة

إذا ما مرض أحد في القاهرة قدم عليه جميع أهل الحى لزيارته وتقديم الهدايا إليه، وإذا توفاه الله أخطروا أمين بيت المال وجهازه وكفنوه ووقف جميع أهل الحى عند بابه وغسلوه وهم يسبحون ويوحدون، ويضعونه في النعش ويزينونه بماء الورد والريحان ويقوم جميع العلماء والصلحاء والمشايخ بالتوحيد والتسبيح ويدخلون نعشه في الجامع الأزهر ويصلى عليه جمع غفير ثم يمشون به إلى القرافة أو إلى الموضع الذى يسمى «زاوية الجنائزة» أى سبيل المؤمنين بميدان الروملى وهناك يصلون عليه ويذهبون به إلى مقابر الإمام الشافعى أو مقبرة من المقابر الاثنتى عشرة. وأفضل هذه المقابر مقابر أخى يوسف فى سفح جبل الجوشى أو مقبرة الشيخ عقبة. أما الفلاحون فيدفنون بالقرب من مصر العتيقة فى القرافة العتيقة. ولما كان فرعون صوباشيا أحاط هذه القرافة بسور وكان يحصل ضريبة على كل ميت يأتون به لدفنه فيها.

ويمضى الفلاحون فى جنازتهم رافعين الاعلام، ويتبعهم نساؤهم وهن على الخمر وفى أيديهن مناديل يلوحن بها وقد كشفن عن وجوههن ونشرن شعورهن نائحات باكيات.

ونعوش هؤلاء الفلاحين مسنة كنعوش النصارى يحملونها على سلالم متحركة إلا أنهم يمعنون فى تزيينها وبذلك يكرمون موتاهم ويقيمون عليهم صلاة الجنائزة على الأصول الشرعية.

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب النكاح، باب ما جاء فى إعلان النكاح حديث رقم ١٠٨٩، وابن ماجه فيه حديث (١٨٩٥) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى ٢٩٠/٧ عن عائشة - رضى الله عنها - ولقطة: «أظهروا النكاح واضربوا عليه بالغرال».

فضيلة أخرى لأهل القاهرة

ولاهل القاهرة عادة أخرى مستطرفة ففى ليلة جمعة يمضى مئآت الآلاف من النساء والرجال إلى الاثنى عشرة قرافة فتصبح وكأنها بحر من الناس وهناك من يختمون القرآن الكريم ويتلون سورة «يس»، ويوزعون الصدقات على الفقراء.

وجميع الأضرحة مبنية بالحجر وتحتها مخازن يسمى الواحد منها «فسقية» ويسمى الواحد من هذه الأضرحة «بيت الحزن» ولها نوع خاص من الأبواب وهى موصدة بالتراب، تفتح عند الدفن. وتتسع الفسقية الواحدة لدفن مائة أو مائتين إلا أن الجثث لا تغطى بالتراب وإنما توضع فى أكفانها بعضها يتعفن وبعضها يتيبس ثم يسدون الباب بالحص الخرسانى. ففى مصر كثير من لصوص المقابر الذين يسرقون الأكفان. حتى إنه فى عهد جان بولاد زاده حسين باشا وضع بعض لصوص المقابر على الخاذوق فى ميدان الروملى وخنقوا بالأكفان التى سرقوها وذلك لتطهير الدنيا من شرورهم.

وعلى كل قبر يحفرون تاريخا بماء الذهب يصفقون قبابا مكشوفة ويثرون فوقها الحب ويضعون الماء للطيور. ويضعون كذلك على قعة كل قبر الآس والريحان وفى تلك الأيام تمضى النساء إلى القرافات دون إذن من أزواجهن، كما أنه لا يحق لزوج أن يسأل زوجته إلى أين أنت ذاهبة، إذ إن زواجهما انعقد شريطة ذلك.

وفى غير ذلك لا يستطيع زوج فى القاهرة أن يسأل امرأته أين كنت، إذ إن عزيز مصر وقع تحت سطوة «زليخا» ومنذ ذلك الحين والرجال فى مصر مغلوبون على أمرهم تحت تسلط زوجاتهم. وهذا هو عرف مصر وما جرى فيها مجرى العادة. وما من قوم يحبون موتاهم ويخلصون لهم إلى هذا الحد إلا فى مصر.

مصدر رزق فقراء القاهرة

يستطيع المصريون أن يفيدوا من كل ما فى الوجود ويصنعونه للكسب منه.

- حرفة مستطرفة -

وفى ليلة مولد الإمام الحسين فى شهر المحرم بمدينة القاهرة يجتمع آلاف من يهود القاهرة كل ثلاثة منهم فى موضع وفى أيديهم زنايل كبيرة يحرقون أنواعا من البخور ويبيعونها وأثناء ذلك يرفعون أصواتهم الرخيمة بالغناء، وثمة نوع من البخور يبيعونه لا مثيل له. ويقال إن هذه العادة بقيت فى القاهرة منذ نقل رأس الحسين إلى مصر وعهد السيدة نفيسة.

- متسولو القاهرة:

ولكن المتسولين الذين لا عمل لهم فكثير في القاهرة، ففي القرافات المذكورة ليلة الجمعة وليلة الإثنين لا يسلم أحد من هؤلاء المتسولين الجبابرة. وبعضهم يقترب من أحد الأعيان وبعد أن يلقي السلام عليه يتملقه بمعسول الكلام إلى أن يصل معه إلى بابه. وهنا وبأسلوب لا يخلو من القحة والوقاحة يقول له المتسول: «أعطني يا سيدي نفقة أهل بيتي»، أما إذا كان المار فقيراً فلا يسمح له الشحاذون بالسير في السوق.

حادثة

اتفق لي ذات يوم أن أردت قضاء حاجتي فدخلت مرحاض جامع السلطان حسن وأغلقت على بابي ولا شعور لي بأحد وبينما كنت أقضي حاجتي فتح على الباب متسول ومد إلى يده قائلاً: «أعطني صدقتي يا سيدي» وعلى الرغم من أنني لم أكن قد تطهرت بعد سارعت إلى إعطائه فقال لي المتسول: «زادك الله نجاسة» وانصرف؛ بعد ذلك تطهرت وخرجت وتوضأت وصليت في جامع السلطان حسن ثم التقيت بصديق حميم وقصصت عليه ما وقع لي. فقال لي ذلك الصديق: بالله أمجنون أنت؟ أصلحك الله، أيلطخ أحد يده بالنجاسة هكذا فقلت له: إذا ما فتح أحد باب المرحاض هكذا وعورتك مكشوفة فذلك أمر الله، أكان يطلب نقوداً؟ فقال هذا الصديق: أكان هذا الرجل أصفر اللحية، متوسط القامة، مسطح الجبهة، مستدير الوجه، ترى السحنة يشع من وجهه النور؟ قلت: نعم، إنه ترى السحنة، أصفر اللحية. فقال لي أيها الظالم إنه قطب من أقطاب صوفية القاهرة وقد ظهر لك في بيت الخلاء ليختبرك فلما نظرت إليه نظرة ازدراء واحتقار ومسحت يدك بالنجاسة، ولذلك دعا الله عليك بأن يرثيك نجاسة. ولما قال لي هذا شرد عقلي وطاش صوابي وبعد مرور شهرين على تلك الواقعة أصبت بمرض «الزحار» وتحققت دعوته على بقوله: «زادك الله نجاسة». ولكني والله الحمد تصدقت فشفاني الله من هذا المرض.

فكم من فقراء مصر من المغمورين من لهم عظيم المنزلة عند الله.

لا تحسبن أن كل غابة خالية .: . فربما استتر نمر فيها

وصف الملاميين

فى القاهرة آلاف من حاسرى الرءوس من المجاذيب، منهم من يأخذ النقود ومنهم من لا يأخذ، ومنهم من يأخذ الخبز ومن لا يأخذ، ومنهم من لا يتكلم البتة ويمضى صامتا ولكن إذا تلا القرآن الكريم أذاب أكباد من سمعه، وبعضهم يأخذ الكسوة وكل منهم له أطوار وحركات خاصة، وبعضهم يعتم بعمامة من الصوف وكأنها وعاء الماء المغرى التى لا يستطيع شاب أن يحملها فهى عمائم تزن الواحدة منها ثمانين أو تسعين أو مائة أوقية. ومنهم من يتخذ عمامة من ليف النخيل وهى كذلك فى حجم قبة الحمام إلا أنها خفيفة الوزن ويسمون من يلبسها «أبا الليف»، ومنهم من يتجول عاريا تماما كمن ولدته أمه.

وهؤلاء الدراويش لا يحصون كثرة كما أن الفقراء والمجاذيب واللاميون كثير لا يقعون تحت حصر، وهم إذا ما دخلوا الحمام تشرق بالناشف وإذا ما خرجوا مشوا عراة بين الناس. وثمة حديث قدسى ورد فى شأن هؤلاء يقول عز من قائل: «أولياى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى». أى إنه لا يجوز التعرض لهم، لأنهم اختاروا الفقر والفاقة ولا علم لأحد بحالهم إلا الله، ويقول صلى الله عليه وسلم: «الفقر فخرى». لذا فهم يرددون قولهم:

تالله إننا لنفخر بالفقر .: . لذلك نمضى فى هيئة الفقراء

إلا أن معدمهم كثير لا حبة لهم ولا حبة.

المجاذيب الإلهيون

ومن أعظم هؤلاء الشيخ «إسماعيل الصنافيرى» فى حى (^(١)) على طريق بولاق، وكمن من كرامات له أظهرها. اتفق ذات مرة أن ذهبنا أنا وصهر أحمد باشا

(١) بياض فى الأصل.

الدفتردار وأحمد أغا المهردار والجاشنكير الرئيس وبعض الإخوان والأصدقاء واشترينا عدة أوقيات من الرمان لتقديمها هدية له وكان يسكن في إحدى وكالات الحُمُر، ولما قدمناه عليه وجدناه يفتش التراب وعلى ظهره خرقه بيضاء تغطي أكمامه أما ما تحت عورته فكان عاريا. ومن بجانبه من الدراويش دعونا لنبجلس بجانب الشيخ فجلستا دون أن نقرأ عليه السلام وكل منا جذب انتباهه خاص الخاص من شأنه ووضعنا الرمان أمامه فتناول منها رمانة وهو راقد في مكانه، ثم قدم إلى كل منا رمانة كما قدم إلى دراويشه، ولكن ما أتيناه كان تسع رمانات في حين أنه وزع منها ثمانى عشرة رمانة. ثم أعطى كلا منا قطعة من حجر، كما أعطانا حجرا كبيرا وقال لنا: «أعطوا هذا الحجر للبasha وليعطيه إلى جنده وليرحل من مصر إلى بلاد الترك، وليأت من بغداد وليأت من بغداد» ولم يقل غير ذلك ولا دعا ولا أثنى، فنهضنا ومضينا إلى قصر البasha، وقدمنا إليه الحجر المذكور وأخبرناه بما قاله الشيخ الصنافيرى. فقال البasha: سبحان الله. ووضع الحجر بجانب كتبه، وفي اليوم التاسع عمّت الثورة والتمرد، وأسقط الجند أحمد باشا وقدم عبد الرحمن باشا من بغداد، وأصبح واليا على مصر. ولعل قول الشيخ «ليأت من بغداد ليأت من بغداد» إشارة إلى مجئ عبد الرحمن باشا من بغداد. والله سبحانه وتعالى أعلم. فهذا ما وقع.



الفصل الستون

العلماء المستجابة دعوتهم في مصر وشيوخها وفضلاء الدهر فيها وأئمتها وخطباؤها

- الشيخ على الشمرلي:

قطب علماء وصلحاء ومشايخ القاهرة وشيوخ شيوخها وأعقلهم. إنه أهل ورع وأهل حال وهو من بليدة في مصر تسمى «شمرلس». إلا أنه ولد أكمه^(١) بأمر الله، ولكنه كان يلقي دروسه في الجامع الأزهر في أربعة مواضع وكان له اثنا عشر ألفاً من التلاميذ وكان فريد دهره في علمه، كما كان يدرس مرتين في داره وهو من العلماء العظام المتبحرين الذين تحمل على يديهم العضلات. وهو ولي من أولياء الله ما في ذلك شك، وقد اطلع على مسائل الشرع في الكتب الأمهات وكان يشير إلى المسألة من المسائل ويعين موضعها في الصحيفة والسطر. وأحمد الله أني شرفْتُ بصحبته فهو فريد دهره في فضائله وكراماته. ومن كراماته أنه:

إذا سلم عليه أحد مرة واحدة في عمره وأراد التعرف عليه كان يسأله عن اسمه وقريته واسم أبيه، حتى إذا ما قدم هذا الرجل عليه بعد خمس أو عشر سنوات وسلم عليه رد عليه قائلاً: وعليك السلام يا ابن فلان. ومن باب أولى إذا ما سلم عليه أحد من تلامذته رد عليه السلام قائلاً: وعليك السلام يا ابن فلان. فهو يعرف أسماء تلامذته أجمعين.

- الشيخ أحمد المعجمي:

كان فريد دهره في علم الحديث، إلا أنه ليس ضريراً، وجاء على لسانه أنه كان يحفظ سبعين ألف حديث مما في الكتب الأمهات القيمة مثل البخاري ومسلم، فقد كان أعجوبة دهره في قوة حافظته.

(١) الأكمه: الأعمى. كَمِهَ من باب تَعَبَ كَمَهاً : عَمِيَ.

- شيخ الإسلام بولوى مصطفى أفندى:

كان شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية، وطلب الصدر الأعظم كوپرلى منه استصدار فتوى بقتل دلى حسين باشا لفشله فى فتح قلعة «قندة» فى جزيرة كريت فقال بولوى أفندى: أفتى يا سيدى الوزير بقتل دلى حسين باشا؟ ولو كنت أنت فائدك ضعيفه الشأن مثله ومضيت إلى جزيرة كريت ووفقت إلى فتحها وثبت تقصير حسين باشا حيثن لا أستطيع كذلك أن أفتى بقتله، لأن الفتح والنصر من عند الله.

فقال الوزير كوپرلى: أنت لم تقطع برأى وقُلْتَ الله أعلم، إنك صاحب سجادة الآن.

فقال بولوى أفندى: حبذا أن أعزل نفسى من التصدر للفتوى وخرج من مجلس كوپرلى فأرسل بعض الأشخاص فى أثره إلا أنه لم يعد، ولم يصدق بعدها على فتوى قط. وعندما أسندت الفتيا إلى «أسيرى محمد أفندى» أصدر فى التوفى بقتل دلى حسين باشا فسجنوه فى قلعة «يدى قلة» وقتلوه فيها. ونفى بولوى أفندى إلى مصر وأمسد إليه قضاء الجيزة ليعيش منه، وقد أذاع علم الفقه فى القاهرة وأصبح جميع علماء القاهرة من زمرة الفقهاء. وكأنا كانت داره مدرسة وكان حاتمى الكرم يقدم الطعام مرتين لجميع تلامذته، كما كان صالحا صاحب وقار.

- الشيخ عبد القادر أفندى:

من بغداد وهو تقى ورع متضلع من شتى العلوم والفنون، بينما كان كتخدا إبراهيم باشا واليا على مصر قرأ عليه بين شواغله الكثيرة صحيح مسلم والبخارى وتفسير ابن جرير الطبرى. وكان فى زمانه بحر المعارف بل النعمان الثانى، وله أشعار بالفارسية والتركية تخلص فيها بـ «قادرى».

- الشيخ عبد القادر المغربى:

وإن لم يكن واعظ منبر إلا أنه حينما كان يعظ تلاميذه فى الأزهر كان جميع تلامذته يفيدون كثيرا مما يقول، إذ كان لكلامه عميق أثر فى النفوس.

- الشيخ أحمد المرحوم:

وهو من محلة المرحوم في المنوفية، وهو من تلاميذ أستاذنا الشيخ «على الشمرلى»، بيد أنه سلك طريق التصوف وكان له العلم اللدنى، أطال الله في عمره.

- الشيخ يحيى المغربى:

كان يناظر «وانى»^(١) افندى في مجلس السلطان محمد الرابع^(٢) وأفحمه في علم الحديث وعلم التفسير، وكان يتقاضى من خزانة مصر مائة أقبجة يوميا منحة من السلطان وكان يلقي دروسا عامة في الأزهر، وكان صاحب دعاية.

- الشيخ السادات أبو التخصيص:

سبق ذكره عند الكلام على مولده الشريف. لم يكن عالما ولا فاضلا، إلا أنه كان عاملا وثريا، عُرف بصلاحه وتقواه واشتهر بكرمه.

- الشيخ السادات على أفطى:

هو الآخر الأكبر للشيخ أبى التخصيص.

- الشيخ محمد البكرى:

من النسل الطاهر لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه -، إنه مرشد كامل، عامل فاضل للسجادة البكرية. وكان صاحب حال في علم الأسماء، وكان كريما زاده الله كرما.

- ابن الشيخ جلى أبى المواهب:

كان زاهدا عابدا وهو الابن الأكبر للشيخ العزيز.

- الشيخ جلى زين العابدين:

أصغر أبناء الشيخ العزيز إلا أنه كان ألمعىً الذهن معروفا بالدعاية والظرف، وأهل القاهرة جميعا يحبونه.

(١) عالم عرف عنه تصلبه في التعصب على أهل الأديان الأخرى وعلى المتصوفة. وهو غير وانى المعروف المولوى الفقيه الذى نقل صحاح الجوهرى إلى التركية. معجم الدولة العثمانية ص ١٥٤.

(٢) السلطان العثمانى، حكم أربعين عامًا، وكانت وفاته سنة ١٦٩٢.

- الشيخ سيد برهان الدين:

وهو من قسبة في لواء حميد ببلاد الترك، يسكن القاهرة منذ ثمانين عاما، وهو نقيب الأشراف، وعلاوة على أنه يوزع الصدقات والأطعمة على الغادى والرائح كان يوزع على الدوام خرقة على كل ضيف وكل فقير. إنه شيخ عظيم حاتمى الكرم.

- الشيخ سيد إبراهيم جليلي أفندى:

وهو ابن سيد على ابن الشيخ على الصفوتى بن سيد حسن ابن سيدى الشيخ إبراهيم الكلشنى. وحسبه هذا شرفا فى نسبه وحسبه، ومن رأى وجهه الشريف مرة أحبه وتعلق به تعلقا شديدا وتلقى عنه تعاليم التصوف وأصبح من دراويش الكلشنية، لأن وجهه الشريف منور كمذهبه. إلا أنه كان على الدوام معتزلا، وهو صالح كالصالحين من السلف. وكان على الدوام قابعا فى ركن العزلة، يخرج مرة فى العام ويمضى إلى تكيته ويخرج إلى المولد، وهو لا يغادر داره قط ولا يختلط بأحد من الناس والنفوس تنجذب إليه.

- الشيخ محمد كيسودار:

كان من قبل على الطريقة القادرية وكان يعرف بصاجلى محمد افندى (أى محمد افندى ذو الغدائر)، وفى ليلة مولد الكلشنى عندما نظر إليه لم يتحمل جاذبيته فتطايرت غداثته وخرج عن الطريقة القادرية ودخل الطريقة الكلشنية وروّجه الكلشنى من كريمته فأصبح صهرا له.

إنه درويش (إباحى المشرب) له التبحر فى شتى العلوم، له أشعار كثيرة بالعربية والتركية، كما كان وفير المؤلفات ومليح الخط، حسن العشرة لين الجانب، لبقا فى الحوار، كما كان أهل كرم وسخاء، يحج بيت الله الحرام مرة كل ثلاثة أعوام، وغالبا ما كان يمضى إلى مكة سيرا على قدمه.

- الشيخ على الخراشى:

من بلدة تسمى «خراش» نسب إليها، أما اسمه الحقيقى فهو ()^(١)، وهو محدث ومفسر مرموق المنزلة بين المحدثين والمفسرين، وهو يحفظ عن ظهر قلب صحيح

(١) يياض فى الأصل.

مسلم وصحيح البخارى والقاموس للاختري والصحاح للجوهري، وفصوص الحكم لمحيى الدين بن عربى، وعلاوة على ذلك كان يدرس شتى العلوم فى الأزهر وله تلاميذ يربون على الألف. وكان واسع المحفوظ، وهو شيخ القراء فى الجامع الأزهر.

وتلاميذه الذين يَرْتَوْنَ على الألف يقرأون القرآن الكريم بالقراءات المختلفة. إلا أنه حينما كان يلقى دروسه يكون منفعلاً كالشرارة فياضاً، وكل من يلقى السمع إلى دروسه تنقش فى ذهنه، كما ينقش فى الحجر، ولا تمس حاجته إلى أن يسمع الدرس ثانية.

- الشيخ العياشى:

تتلمذ للشيخ على الشمرلسى، وكان يلقى الدرس العام فى جامع السلطان المؤيد، وكان صاحب فصاحة وإبانة، كما كان كريماً بكلامه، تقياً ورعاً. ولأنه كان يتكلم اللغة التركية انعقدت أواصر الصلة بينه وبين العلماء العثمانيين مما أثار عليه حسد الجاسدين، إلا أنه كان حليماً صبوراً هادئ الطبع.

- الشيخ (١) العبارى:

أهل تقوى وورع، عالم عامل فاضل، اعتكف فى عقر داره بزاوية (٢) بالقرب من سوق الصليبية (٣)، وقد تنبأ بإسقاط أحمد باشا. وهو لا نظير له فى مصر.

- الشيخ أحمد الاسكندراني:

وهو من أكمل الكمل فى مصر، رخيخ الصوت وليس بد من وجوده عند إقامة مولد النبى فى شهر صفر، فهو عندما ينشد الآلاف من القصائد فى مدح الرسول ﷺ وتائية عمر بن الفارض بصوت مرتفع جهورى يدخل الصوفية فى نشوة الوجد كأنما أصابهم الصرع. إن فى أنفاسه شيئاً عجيباً يوقع من يلقى السمع إليه فى الوله والخيرة. لقد نال الفيض من الشيخ «على العريانى» وهو صالح من صلحاء الأمة ويزور بيت الله الحرام مرة كل عامين أو ثلاثة، وقد ذهب ذات مرة فى قافلة من عشرة أو خمسة عشر رجلاً، وبعد الطواف مضى إلى قبر المصطفى ﷺ فى المدينة المنورة، وبينما كان يقف قبالة المقصورة الشريفة صاح بأعلى صوته قائلاً: الغوث يا ملاذ العاجزين، وكنت حاضراً

(١، ٢) بياض بالأصل.

(٣) أحد أحياء القاهرة ولا يزال قائماً إلى الآن بقسم الخليفة.

آنذاك فدخلتني الدهشة والوله والحيرة. وفي طريق عودتنا إلى مصر كنت معه رفيق الطريق وكان معنا أمير الحج أوزبك بك فكنا نطيب أنفسنا بالاستماع إليه وهو يشد القصائد في مدح النسي عليه السلام، وكان إذا ما تسلل السأم إلى نفوس الناس من مشقة الطريق كان سرعان ما يزول حينما يستمعون إلى قصائد الشيخ الاسكندراني في مدح خير الانام عليه السلام، فكان كل منهم يدعو له بالخير ويقبل يده. إنه عالم نحير.

- الشيخ بكرى زاده أفندي:

إنه سليل أسرة عريقة، فهو من نسل أبي بكر الصديق رضى الله عنه. كان راسخ القدم في علم القصائد والمذاهب النبوية، حتى إنه نظم قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تتلى في ليالي رمضان بين صلاة التراويح بدلا من التسيح. وكان من أعظم العلماء والفضلاء ذوى الاحترام.

- نقيب الاشراف السيد محمد أفندي ابن السيد برهان الدين أفندي:

وهو ابن المرحوم برهان الدين أفندي نقيب الاشراف، إنه عالم فاضل من تلاميذ المدرسة السليمانية^(١)، وكان مليح الخط، انتقل والده برهان الدين من دار الفناء إلى دار البقاء وهو فى المائة وأربعين من سنه. وعندما آلت إليه أملاك أبيه على ضفاف بركة الفيل وجدت الحُجج والوصايا لدى الشيخ، وفى ذلك الوقت كان جان بولاد زاده واليًا على مصر، وطعن فى صحة هذه الوثائق وأسند مدارسهم وقضاء تكيتهم إلى شخص آخر، واضطر الشيخ إلى التنازل عن ملكيته لبلدتى البساتين والفرزدق؛ لأن الاحتفاظ بهما يكلفه ضرائب باهظة لا قبل له بسدادها، ونزلت به كثير من الشدائد وفى النهاية عندما عزل جان بولاد زاده حسين باشا طالب الشيخ باسترداد حقه؛ فاسترد منه الكثير، وتم الصلح بينه وبين جان بولاد زاده ومضى الشيخ إلى قلعة الإسكندرية ليتوجه منها إلى الأستانة فوصل إليها وفى معيته الجند المصرين الذين كلّفوا يفتح «قمانجه» بعد أن عادوا سالمين مظفرين فأصيب بالحمى المحرقة التى أحرقت جسده الرقيق ولم يطفئ نار حرقة هذه الحمى ماء أربعين نبعاً فانطوى دفتر عمره واحترق. وانحنت ظهور مريديه حزناً عليه، ودفن فى ضريح الأمير البخارى خارج باب أدرنه^(٢).

(١) المدرسة السليمانية: نسبة إلى السلطان سليمان القانوني، ومقرها إستانبول.

(٢) باب أدرنه: أحد أبواب مدينة إستانبول القديمة.

- الطيب يلونى زاده:

كان يدرس لطلبة مستشفى قلاوون كتاب «قانون الشفاء» و «تذكرة داود» يومين فى الأسبوع، وكأنه فيشاغورث علم الطب، وكان من أهل التقوى والكرم، من مضى إلى داره وشرف بلفائه جساً نبضه وأعطاه الأدوية والمعاجين من الأطعمة والأشربة كان طيباً له البراعة فى الطب، ندر نظيره فى مصر.

- الشيخ () (٢) خطيب الجامع الأزهر:

إنه رجل أهل تقوى وعبادة.

- الشيخ شاهين خطيب جامع الدهيشة:

شيخ من أهل التقوى والورع، ولوعظه عميق الأثر فى النفوس.

وهناك الشيخ «سيد أحمد جزى»: خدام المحكمة.

و«سيد تاج الدين»: خدام المحكمة كذلك.

و «إسحق زاده» قاضى العسكر وهو من علماء الترك الذين تضلعوا من شتى العلوم.

و «نخضم عبد الباقي أفندى»: قاضى العسكر وهو كاتب وصاحب سلوك من فضلاء

الدهر بلغ من تقواه أنه لم يصل صلاة فى غير وقتها قط طوال حياته.

وقاضى العسكر «كبرى زاده»: وهو رجل دين واسع العلم بأحكام الشرع الشريف.

و «تذكرجى أفندى» قاضى العسكر: وهو واسع المعرفة بالتواريخ وهو نحوى إمام،

وعلى علم بتحصيل المال.

«عشاقى زاده» قاضى العسكر: وهو من السادات الكرام، نزيه، لا يخشى فى الحق

لومة لائم ولا يحيد قيد أنملة عن جادة الشرع الخفيف، كان قاضياً رابط الجأش ثابت القدم.

«حفظى أفندى»، قاضى العسكر وكان حافظاً لكلام الله وشاعراً واسع العلم بشتى

العلوم الدينية.

(١) باب أدرنه: أحد أبواب مدينة إستانبول القديمة.

(٢) بياض فى الأصل.

وبين هؤلاء الذين أسلفنا ذكرهم آلاف ممن كانت لهم قدم راسخة في شتى العلوم والفنون.

وإذا ما حاولنا أن نعرف بشيء من كرامات وفضائل هؤلاء العلماء لاقتضى ذلك منا تأليف مجلد قائم بذاته، لذا عرضنا لذلك على وجه الإجمال وبقدر ما أتيح لنا من سياحاتنا في تلك البلاد فالمعذرة متسعة لنا في هذا الخصوص. ولكن لا شك في أن لكبار المشايخ كرامات وقدره على مكاشفة الغيبات.

- كرامات صبيان الغريبة -

حينما كان كتحدا إبراهيم باشا واليا على مصر نَبَّه على جميع معلمى الكتاتيب بالدعاء من أجل حملة «قمانجة» وكانوا يجتمعون مرتين في الأسبوع في الجامع الأزهر للدعاء، وبعد ذلك - بناء على أمر الوزير - بدأوا يدعون الله في جوامع السلاطين ولما طالت مدة فتح «قمانجه» وتأخرت وصول بشارت الفتح دب ديب اليأس في نفوس الناس فتقاعسوا عن الذهاب إلى المساجد للدعاء.

واتفق ذات يوم أن كان إبراهيم باشا يتجاذب أطراف الحديث مع إسحاق زاده قاضى العسكر في مصر فقال له الباشا: إن معلمى المدارس الابتدائية طوع أمرك فبه عليهم بأن يداوموا على الدعاء للفتح. فقال قاضى العسكر: لا بأس فلنذهب إلى المحكمة ولنستدع جميع معلمى المدارس ولنضرب كلا منهم أربعين أو خمسين عصا على ركبته، إذ إنه لا وجود للفلكة في البلاد العربية، ولأن جميع الفلاحين لا يلبسون سراويل فإنهم إذا ما ضربوا على أرجلهم انكشفت عورتهم، لذلك يضرب الفلاحون على ركبهم وإليتهم بعضا من شجر الشوحط^(١). فضرب المعلمون الفقراء ضربا مبرحا على إلتيتهم وركبهم وعادوا إلى مدارسهم وهم يثنون من شدة الألم فجعل هؤلاء يضربون الصبيان بعضا الشوحط على نفس الموضع الحساس من أجسامهم فجزع الصبيان من الألم وبعد العصر خلدوا إلى الراحة فتملا بعض الصبيان في موضع وأثناء لعبهم تنامى إلى علمهم أن ضربهم إنما كان بإيعاز من الباشا وقاضى العسكر فجعلوا يدعون الله عليهما، فقال بعض المنصفين منهم: إن الباشا يتصدق علينا فلا ينبغي أن ندعو الله

(١) الشوحط والتَّبُّ والشَّريَّانُ شجرة واحدة، ومنه تصنع القسيّ والسهام. لسان العرب (شحط).

عليه، أما القاضى فهو رجل خسيس لثيم، كما أنه ضرب معلمينا ضربا مبرحا ولذلك ضربونا، فتعالوا نصلى صلاة الجنائزة على قاضى العسكر. وجاءوا بخرق جعلوها على هيئة الجثة ووضعوها على محفة من الخشب ولما رأى مئآت الآباء ذلك من أبنائهم منهم من ابتسم ومنهم من ضحك حتى استغرب ومنهم من قال لا إله إلا الله، وبينما كانوا يمرون بالأسواق السلطانية سألهم أهل السوق قائلين:

«اش هذا يا صبيان» فقالوا: إنها جثة قاضى العسكر. فأغلظ لهم القول بعض الأهلالي، والبعض الآخر لم يكثر. وعلى هذا النحو اجتمع جميع الصبيان خارج المدينة فى موضع فوق الرمال وصلوا صلاة الجنائزة على تلك الخرقة ودفنوها إلى جانب الإمام الشافعى.

ومن ناحية أخرى اشتكى قاضى العسكر لما فى قلبه وأسلم الروح فى صبيحة اليوم التالى، وبينما كانوا يدفنونونه إلى جانب الإمام الشافعى فى نفس الموضع الذى دفن فيه الصبيان خرقتهم ظهرت قطع منها من الأرض فدفنوها ثانية والقاضى عسكر فى ذات الموضع.

سر آخر عجيب

والصبيان الاثنى عشر الذين جعلوا تلك الخرقة على هيئة قاضى العسكر وصلوا عليها صلاة الجنائزة وحملوها كانوا نجباء وهم الآن ومنذ ذلك اليوم بكم، كما أصبحوا عُرَاةً مجاذيب يهيمنون على وجوههم فى صحارى مصر وأراضيها الحرة. إنه لَسِرٌ إلهى عجيب.

وقد أخذ إبراهيم باشا الخوف مما وقع وأدرك أنه هو السبب فى ضرب هؤلاء الصبيان فتصدق على جميع معلمى وصبيان المدارس حتى أصبح شحاذهم غنيا يعيش فى سعة ورغد.

الفصل الحادى والستون

ذكر أولياء نعمتى من البكوات والأعيان سليلى الأسر العريقة

منهم أمير الحج (اوزبك بك أبو الشوارب) وهو رب أسرة عظيمة وله من الجند خمسمائة. إنه بك.

(نووہ لی بك) وهو رجل شجاع ثرى .
 و(قنصوه بك) وهو ابن أحد جند مصر، وهو من أهل التقوى والعلم .
 و (على بك الملقب) إنه رجل محبوب، طيب المعشر .
 و(رمضان بك) الذى تولى قيادة الجند فى حملة «قندة» وحارب النصارى حرباً شعواء بالقرب من «خانيه» ووقع فى الأسر .
 (قاسم بك) أى قاسم باشا زاده بشيكتاشلى، وهو واسع الشهرة فى البطولة والشجاعة، وله خمسمائة من الجند الشجعان المدججين بالسلاح .
 و(عبد الله بك) تولى منصب الدفتردار مرتين، وهو ذو علم، وهو بوسنوى الأصل .
 (ذو الفقار بك) كان من الأبخاز، تولى حكم جرجا فأعاد الأمن والأمان إلى الصعيد .
 و (دولاور بك) كان كذلك من الأبخاز، تولى حكم جرجا فى عهد إبراهيم باشا، وكان رجلاً معروفاً بكرمه وسخائه وتقواه .
 و (عوض بك) بما أنه تولى رئاسة خزانة «خاصكى محمد باشا» أصبح بك وهو جورجى الأصل .
 (جان بولاد زاده) الذى كانت له قيادة الجيش فى «قمانجه» .
 و (سليمان بك البوسنوى) تولى هو الآخر قيادة الجند فى قمانجه .
 و (حسين بك الدفتردار) وهو من الأناضول، إنه رجل طيب المعشر .
 و (قيطاس بك) إنه رجل شديد الراى حسن التدبير، شركسى الأصل .
 و (يوسف بك) أمير الحج، وهو شركسى الأصل كذلك .
 و (بقلاجى محمد بك) إنه رجل بصير بالأمور وهو بوسنوى الأصل، شجاع بطل .
 و (بيقلى محمد بك) بوسنوى الأصل ولكنه ليس كثير الأتباع .
 و (جندى محمد بك) تربى فى قصر السلطان، وسجن فى جزيرة «الم» لدخوله فى زمرة المتمردين .
 و (كور عمر بك) أى عمر بك الأعمى وهو جورجى الأصل تربى فى قصر السلطان، وفقنت عينه وهو يلعب الجريد، أسندت إليه بكوية القاهرة فى عهد محمد الرابع .

ومن البكوات الجدد (إبراهيم بك) وهو كردى الأصل ، بينما كان يشغل منصب كتخدا فرقة العزب أسند إليه جان بولاد زاده حسين باشا جنة فعمرها .
(موسى بك) وهو من أبناء جند مصر ، عندما كان يشغل منصب كتخدا لقاسم بك منحه عبد الرحمن باشا إيالة جزجا بتوصية من أحمد باشا الدفتردار فعمرها .
و (محمد بك الحبشى) وهو جورجى الأصل ، بينما كان يشغل منصب كتخدا فرقة الإنكشارية ، لم يقبله الجند فمنحه عبد الرحمن باشا حكم أحد الألوية ، وظل فى منصبه طويلا ولم تكن له الحنكة فى الحرب ، وتقاعد فى المدينة المنورة ، وعاد إلى بلاده .

و (جنار مصطفى بك) حينما كان كتخدا الجند الإنكشارية تحالف مع المتمردين لإسقاط أحمد باشا . وفى عهد عبد الرحمن باشا ثار جميع مُسَيِّى الإنكشارية ، وقالوا : إننا لا نريد فى طائفتنا رجلا يمالئ المتمردين . ويعينهم ؛ فتجاوز عبد الرحمن باشا عن أخطائه وما بدر منه وأسند إليه بكوية اللواء وأصبح أميراً على جدة ، وكان أرمئى الأصل يبيع الخفاف فى مدينة «إزمير»^(١) إلا أنه شرف باعتناق الإسلام وأصبح من ثروة القوم .

و (حسين بك) لأنه تولى منصب كتخدا جاویشية عبد الرحمن باشا أسندت إليه بكوية المنصورة ، إنه من الأناضول وهو صاحب فصاحة وإبانة وكرم حاتمى .
وولى نعمتى (قوجه مصطفى أغا رئيس الإنكشارية) وهو من قسطنطيني^(٢) ، إنه تقى صالح .

(مظلوم على أغا) قدم من الأستانة بفرمان السلطان وتولى رئاسة الإنكشارية مدى حياته ، (قونداقجى مصطفى كتخدا وذو الفقار كتخدا وحسن كتخدا وحبشلى كتخدا ومحسرم كتخدا وكنعان كتخدا وقاريغدى على جاووش وسليم جاووش وكمجى جاووش وجلبى جاووش وبكر جاووش وحسين جاووش وشريف جاووش الذى شنفه عبد الرحمن باشا ، وسليم أفندى وبكر أفندى ودلى حسين أفندى ورجب أفندى وقره

قبوچى راده عبد الله افندى وأبوه قره قبوچى آغا و(عبد الرحمن افندى الروزنامجى، وإبراهيم افندى كاتب الأيتام، عمر افندى كاتب الأرزاق، وحسين جاووش راده جلى افندى كاتب الجاوشية، وأحمد جلى افندى دلال القرية، حسن آغا رئيس فرقة العزب، وشعبان آغا رئيس فرقة المتفرقة ويوسف آغا الترجمان الرئيس، وأحمد آغا كتخدا العزب وسيد حنفى الجاوشى النقيب، وقوجه حسين جاووش ومررا كاشف، ومسعود آغا وعبد الرحمن آغا وقوجه خليل نديم السلطان مراد وداود آغا شيخ الحرم ومحمد آغا ترجمان العجم ولا لا ياقوت) هؤلاء الأغوات سالفو الذكر كانوا من رجال وزراء سلاطين آل عثمان وكم من آلاف سواهم، إلا أنهم أولياء نعمنا.

وبك الشراكسة سليمان بك وعبد الرحمن باشا، وسليمان بك ابن الخزينة دار على آغا وأخوه كوجوك شاهين آغا ويوك مصطفى افندى كاتب الإنكشارية، وسليمان الجورجى كاتب الإنكشارية كذلك وسليم كتخدا وإسماعيل الكاشف وحموه قوجه حسن آغا ومحمد الكاشف كاشف البحيرة وقره على الكاشف وأحمد آغا كاشف الشرقية وجالق مصطفى آغا . . إلى آخره).



الفصل الثانى والمستون

ذكر أهاليم مصر فى ضوء علم النجوم والهيئة

والاسطرلاب ومساحة البلاد وطول نهارها وطالعتها

والمسافة بالميل بين السماء والأرض ومساحة العالم بالميل

تَفَكَّرَ الحكماءُ القدامى فى آلاء الله وكتبوا عن أحوال العالم، فقد قيل «تفكروا فى إلاء الله ولا تفكروا فى ذات الله» لذا تفكروا فى آلائه - سبحانه وتعالى - ووقفوا على جميع أسرار الكون بقوة العلم وطول العمر؛ فقالوا: إن المسافة بين الأرض والسماء ٣٥٦ ميلاً وبناءً على هذا الحساب فإن محيط الدنيا ٢٠١٦٠ ميلاً تقع فى البحر المحيط، وتقع جزيرة مصر داخل هذه الدنيا. وطول قطر هذه الدنيا من الشمال إلى الجنوب ٦٤٠٠ ميل.

يقول ابن الوردي فى صحفه: إن بطليموس الحكيم قَدَّرَ محيط الأرض بـ ٢٠١٦٠ ميلاً (أى ٨٠٠٠ فرسخ)، والميل يساوى ٣٠٠٠ ذراع مكى والذراع المكى ٣ أشبار، وكل شبر ١٢ إصبعًا وطول كل إصبع يساوى ٥ حبات شعير ونحن نقدرها بـ ٧٦٣٦ ميلاً (أى ٢٥٤٥ فرسخًا) وثلاث، والمساحة الكلية لسطح الأرض ١٣٢ ألف ألف ميل و ٦٠٠ ألف و ٢٨٨ فرسخًا.

وهذه الأقوال المذكورة هى أقوال صحيحة لبقرات وسقراط وفليقوس وبطليموس وهم الذين أحاطوا بعجائب العلوم وغرائبها، وملكوا ناصية شتى العلوم والفنون وكتبوا ما كتبوا بقوة العلم دون أن يتجولوا فى الأرض من أقصاها إلى أقصاها، ودون أن يكون علمهم عنها علم اليقين، وقالوا: إن محيط العالم ٢٠١٦٠ وكان ذلك بناءً على أعمال عبقرتهم.

ولفظ «فتحتا» بتاريخ سنة ٨٨٩ حينما ضرب السلطان بايزيد ولى^(١) الحصار على قلعة «كرمان» قدم عليه راهبان التقياء به وبـ «قره شمس الدين السيواسى» وزفا إليه البشرى بأنها ستفتح فى يوم كذا وساعة كذا ودقيقة كذا. وهذان الراهبان أحدهما كان

(١) هو السلطان بايزيد الثانى العثمانى، اشتهر بلقب ولى بسبب تصوفه.

يسمى «بادره» والآخر «بطريق قولون»، وقولون هذا من أهل البرتغال أما بادره فمن أهل أسبانيا وقد عين لهما السلطان با يزيد خديما وشاء الله أن تفتح قلعة «كرمان» في نفس اللحظة التي عينها هذان الراهبان وجاءت البشرى بتسلم مقاتيحها. هذا ما وقع فعلا. وتاريخ فتح هذه القلعة كان لفظ «فتحتا» ومن بعد كرم هذان الراهبان بما لا مزيد عليه من تكريم. ثم سئل هذان الراهبان كيف عرفا من سيفتح هذه القلعة فأجابا:

أنهما عرفا ذلك بفضل من علم الرهبان والعلماء النصارى، وقالوا: لنا أكثر من بشارة نزفها إلى مولانا السلطان. إن ابنك سليم والى طرايزون سوف يكون له ملك مصر، كما سيكون له ملك مكة والمدينة، وتسيملك ابنه سليمان «التفاحة الحمراء»^(١). وإن طالع الدولة العثمانية لطالع سعيد وستكون الدنيا بأسرها فى حوزتكم، ولكن لنا بشارة أخرى عظيمة لسلطاننا كذلك وقال «قولون» أنت يا مولاي أعظم السلاطين كافة، يسر الله لك الملك، بينما كنت أطوف فى الآفاق منذ مائة وأربعين عاما. وبادره هذا يطوف منذ مائة وخمسة عشر عاما وطيلة هذا العمر المديد طوفنا فى العالم سبع مرات. وعبرنا من خارج مضيق «سبته» غربا سبعة آلاف ميل بفضل قوة العلم فاكشفنا ما يسمى «العالم الجديد»: وفيه ما لا وجود له فى عالمنا هذا، ففيه أنواع من الحيوانات والجبال والحدائق وأناس لا يعرفون الحشر ولا النسر، والذهب فى كل أنهارهم والمعادن فى كل جبالهم وسهولهم مروج وجو بلادهم لطيف، إنها أرض بكر لم تطأها قدم يسر الله فتحها لسلطاننا. تلك هى البشرى التى أرفها إليك يا مولاي السلطان.

فقال السلطان با يزيد: لابد لنا من فتح مكة والمدينة وإحكام سيطرتنا على هذا العالم وليس من اللازم أن نتجاوز البحر إلى تلك البلاد البعيدة.

وعندما قال السلطان هذا من كلامه ودعه الراهبان بتقبيل يده ثم انطلقا إلى البابا وأطلعاه على أوصاف الدنيا الجديدة فقدمت لهما أسبانيا اثنتى عشرة سفينة وبسطت سيطرتها على هذه الدنيا الجديدة، ثم ملكتها إنجلترا بعدها، ثم آل ملكها إلى ملك هولندا والدنيا الجديدة الآن اثنتى عشر ملكا ومنذ تاريخ «فتحتا» (أى عام ٨٨٩) إلى

(١) اسم كان يطلق على روما قديما.

يومنا هذا أقيمت فيها ٣٠٦٠ قلعة ويتناحر الملوك فيها من أجل الاستيلاء على معانها حتى إننى بعد أن فتحنا «أويوار» وصلت بلاد الألمان برفقة السفير «محمد قره باشا» فى طريقنا إلى إمبراطور النمسا وصلنا مدينة تسمى «لونغباط» على شاطئ البحر المحيط، وكانت سفن الدنيا الجديدة ترسو على ذلك الشاطئ وفى كل منها ثلاثة آلاف رجل وكان بين من على ظهر هذه السفن أناس من الدنيا الجديدة قصار القامة يلبسون الريش فكلفت تراجمة النمسا بسؤالهم عن الدنيا الجديدة فما كان منهم إلا أنهم سبوا الراهبين «بادره» و «قولون» اللذين أفعما دنياهم الهادئة الآمنة بالطامعين فيها والذين يحاربونهم على الدوام لإبادتهم وقصف أعمارهم.

ومحصلة القول أن الراهبين بادره وقولون، بفضل العلم وتطوافهما فى الدنيا، بذلا الوسع فى الاطلاع على آلاف من كتب التاريخ وراجعا كتب الاطالس والهيئة وقضيا عمرهما فى السياحة والتطواف وكتبوا عما وقفا عليه من حقائق هيئة العالم.

ووصل هذان الراهبان إلى تلك البلاد التى لم يصل إليها كل من فليقوس وبطليموس فى الزمان القديم على شدة الحر والبرد وما يكتنفها من مهالك ومعاطب بعد أن ساجا فى الأرض مرات ومرات شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، وذكرنا أن مساحة العالم ٨٧٠٠٠ ميل كما ذكرنا أنهما لم يبحرا فى شواطئ البحر الأبيض ولا البحر الأسود بل أبجرا حول هذا العالم الجديد عبر المحيط.

وقد رسم ملاحو العالم كافة خرائطهم فى ضوء ما كتبه الراهبان بادره وقولون ويبحرون فى البحار معتمدين كل الاعتماد على هذه الخرائط، فقد اكتملت لهذين الراهبين آلاف التجارب ونجت السفن فى البحر المحيط بفضل ما كتباه ووصلا إلى جميع موانئ الدنيا وحملنا من أحجارها ومعانها وكتبنا عن اعتدال جو تلك الموانئ كما كتبنا عن جبالها وأحجارها وأجوائها ومنبع كل نهر فيها. اتفق جميع علماء الهيئة رأيا على أن مساحة الدنيا القديمة ٨٧٠٠٠ ميل على نحو ما قال بادره وقولون، وكل ميل يساوى ٤٠٠٠ ذراع أسود، والذراع يساوى ٢٤ اصبعًا، وكل ميل يساوى ٤٠٠ قدم، والفرسخ يساوى ١٢ قدما (أى مسيرة) (١) ساعة).

وقد قسم حكماء السلف وجه الأرض إلى سبعة أقاليم بعلم الاسطرلاب:

- الإقليم الأول:

يقع كذلك في جزيرة مصر ويمتد إلى منبع النيل عند جبل القمر.
والإقليم - بعلم الاسطرلاب - عبارة عن خط يمتد من الشرق إلى الغرب فتكون جميع المدن الواقعة على هذا الخط لها نفس الأرض ونفس طول النهار.
وثمة إقليم آخر يقع على حدود بلاد الحبشة جنوب جزيرة مصر وهذا الإقليم الآن في حوزة البرتغاليين ويسمى في علم الهيئة «مدار الجدى» ويطلقون على نهاية الإقليم الثاني اسم «خط الاستواء». هذا ما اصطلاح عليه العلماء.

أما عرض الإقليم الأول ١٢ درجة و ٤٠ دقيقة. ومن خط الاستواء جنوبا يتبقى جزء من العالم وهذا الإقليم بما أنه غير معمور لشدة الحر فيه لم يعده العلماء إقليما. لأن هذه الجهات هي البحر المحيط وبه بعض الجزر. وعند بطليموس أنه وراء خط الاستواء بـ ١٦ درجة و ٢٥ دقيقة بعض البلدان المعمورة بالقرب من ولاية الزنوج وأقاليم الحبشة ولكن في الوقت الذي لا يطبق فيه الإنسان شدة حرها تكثر فيها الفيلة والقردة.

حتى إنه في شهر يوليو من عام ٨٣ عندما كنت في سياحتي بفونجستان وحرها جد شديد تجاوزت خط الاستواء جنوبا قاطعا المنازل طاويا المراحل طيلة سبعة وعشرين يوما فارتفعت ربع دائرة فوجدت بالحساب أن طول النهار (١) ساعة و ١٦ درجة و ٢١ دقيقة.

أما وسط الإقليم الأول فمن المتفق عليه أن عرضه ١٦ درجة و ٣٧ دقيقة، وطول نهاره ١٣ ساعة.

- الإقليم الثاني:

يبدأ من خط عرض ٢٠ درجة و ٢٧ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة و ١٥ دقيقة، ووسط هذا الإقليم خط عرض ٢٤ درجة و ٤٠ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة.

(١) بياض بالأصل.

- الإقليم الثالث:

يبدأ من خط عرض ٢٧ درجة و ٣٠ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة و ٣٥ دقيقة،
ووسطه من خط عرض ٣٢ درجة و ٣٧ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة و ربع.

- الإقليم الرابع:

يبدأ من الإسكندرية ورشيد ودمياط وجزيرة مصر تقع في الأقاليم الثلاثة.

ولنوضح أوصاف الأقاليم الأخرى على هذا النحو التقريبي:

أما بداية الإقليم الرابع فمن خط عرض ٣٠ درجة و ٤٠ دقيقة، وطول نهاره ١٣
ساعة، ووسطه عند خط عرض ٣٦ درجة و ٢٢ دقيقة، وطول نهاره ١٤ ساعة.

- الإقليم الخامس:

بدايته من خط عرض ٣٨ درجة و ١٥ دقيقة، وطول نهاره ١٥ ساعة، ووسطه من
خط عرض ١٤ درجة و ١٥ دقيقة وطول نهاره ١٥ ساعة ونصف.

- الإقليم السادس:

يبدأ من خط عرض ٤٣ درجة و ٢٢ دقيقة وطول نهاره ١٥ ساعة و ربع، ووسطه من
خط عرض ٤٥ درجة و ١٢ دقيقة وطول نهاره ١٦ ساعة ونصف.

- الإقليم السابع:

يبدأ من خط عرض ٤٨ درجة و ٢٩ دقيقة وطول نهاره ٢١ ساعة ووسطه عند خط
عرض ٤٨ درجة و ٢٩ دقيقة وطول نهاره ١٢ ساعة و ربع.

حتى إنه في عام ١٠٧٦ عندما خلّع «محمد كراي خان»^(١) وفرّ إلى داغستان رعيت
حق الخبز والملح ومضيت إلى إقليم ملك «قره بوداق»^(٢) وشاهدت أنهار طرخوى
وقوون واندري وبلغت «دمير قابو»^(٣) ومن هناك ركبت السفينة ووصلت بسلام إلى
قلعة الترك في موسكو في ثلاثة أيام بلياليها في بحر الخزر، ثم سلمنى بكوات
الشراكسة في «رهن» وقادة قلعة الترك في موسكو أوراقا، ثم توجهت إلى ملك موسكو
فمضيت شمالا على ساحل بحر الخزر طوال ستة أيام في ولاية «قازان» ومنها اتجهت

(١) أخذ خانات القرم، أى: حكامها. (٢) موضع في آسيا الوسطى. (٣) الباب الحديد.

شمالاً إلى صحراء «القبحاق» وولاية «الأطر» على ساحل بحر الخزر، ثم تابعت السير شمالاً حتى اجتزت صحراء «هيات» في واحد وعشرين يوماً فبلغت ولاية «هشداك» وهي بلاد عظيمة على ضفاف نهر «أدل» وهي تتبع موسكو وسكانها ٧٠٠ ألف من المسلمين لهم مساجدهم ومدارسهم ولكن ليس لجوامعهم مآذن وهم يؤدون الخراج لموسكو وقدره دينار ذهبي على كل شخص في العام. وجبت بلادهم في برد قارص طيلة سبعة أشهر وعبرت إلى الضفة الأخرى لنهر «أدل» فبلغت القلعة المسماة «يورانجه» وطول النهار هناك إحدى وعشرون ساعة ونصف ساعة، ولم يكن سكان هذه القلعة يؤدون صلاة العشاء وكنت مثلهم وفيها علماء فضلاء، إلا أن لسانهم هو لسان موسكو وهم يتلون القرآن الكريم ويقرأون معانيه بالروسية وقد ترجموا كتاب «عماد الإسلام» إلى اللغة الروسية وترجم بعضهم جميع كتب الفرائض والفقه.

وجل الإقليم السابع يمتد في مملكة موسكو وبلاد فغفور^(١) وبولندا ودانصقة وقراقوجه وأسفج^(٢) تقع جميعها في الإقليم السابع. بيد أنه لشدة البرد في موسكو يقل العمران فيها وتشكل صحارى هيات معظم مساحة موسكو، كما أن تثار القلموق خربوا الكثير من المناطق العامرة وعاثوا فيها فساداً.

وبينما كنت أتجول في المنطقة بين نهري «أدل» و«جالق» اكتشفت أنها تقع عند خط عرض ٣٦ درجة وطول نهارها ٢١ ساعة ونصف.

وعندما كنت أعد حساء الكرنب ظهرت الشمس في وسط الفلك ولم يكن لحرارتها تأثير فيها والحاجة في هذه المنطقة ماسة إلى ارتداء قرويين فهي أماكن قارصة البرد. ومسلمو الهشداك ونصارى الموثق غاية في البلاء، ولا شجاعة لهم، ولا وجود قط للحداثق والبساتين في هذه البلاد، ولكن الحيوانات والطيور والمراعى كثيرة فيها، وأراضيها جد خصبة وقد تكلمت مع كثير من رحالة موسكو وقسيسيها وسألتهن عن بلادهم فقالوا:

(١) لعله يقصد الصين.

(٢) أسفج: السويد.

نحن من سكان جزيرة تسمى «وقولون» فى البحر المتجمد فى نهاية الإقليم السابع ومياه بحرنا تتجمد ستة أشهر فى السنة ولا تطلع الشمس طيلة ستة أشهر فبلادنا مظلمة وليلنا ساعتان ونهارنا ٢٢ ساعة.

فسألتهم عن المسافة بين بلادهم ونهر «أدل» فقالوا: لقد خرجنا من بلادنا منذ أربعة أشهر ووصلنا لتونا.

وهم بالفعل وصلوا لتوهم ومعهم من سن السمك وفرو السمور ووجوههم قد تمزقت من شدة البرد. ولموسكو وراء الإقليم السابع أرض معصورة كما هو الشأن وراء خط الاستواء.

وقد ذكر القرطبى فى كتابه «المسالك» أن:

الإقليم الأول: يمتد من سواحل بلاد الصين على وجه التقريب إلى داخل الحيشة حتى جزيرة «لوكة»، وينتهى بجزيرة العرب واليمن وساحل المغرب وأشهر مدنه هى عمان وحضرموت وصنعاء اليمن.

- الإقليم الثانى:

يمتد من الجانب المذكور إلى بلاد اليمن والهند ثم يمتد إلى بحر الحسا والبصرة وتهامة وجزيرة العرب واليمامة وبحر هجرين والحجاز ومكة والطائف والمدينة والبحر الأحمر ثم إلى بلاد المغرب وبحر المغرب.

- الإقليم الثالث:

يمتد فى بلاد الصين والهند وقندهار وبلاد السند من الشمال ويمر من كابل وكerman وجيرون وسجستان وسواحل قصره ثم يقطع مدينة اضطخر وسابور ومهربان وشيراز وسبقيرون ونور وأهواز والعراق وواسط والكوفة وبغداد وانباء وهيت ثم دمشق وحماة وحمص وسور عكا والرملة وساه وطبرية وغزة وبيت المقدس وعسقلان والمدائن والقلمز سلمية ثم إلى أسافل أرض مصر ثم يمر بالفرما وتنيش ودمياط ورشيد والإسكندرية والفسطاط والفيوم وبلاد رقية ويجتاز أرض إفريقيا وينتهى عند بحر

المغرب. أما بلاد طرابلس وتونس والجزائر وطنجة وفاس والأندلس وقرطبة ومراكش تقع في الإقليم الثالث.

- الإقليم الرابع:

يمر من بلاد السند وخراسان وسمرقند وبلخ وبخارى وهيران وأصفهان وسرخس وطوس وزابلستان ونيسابور ونهاوند وديلور وحلوان ونصيبين والموصل وخجند وقزغان وقالى وقلا والرقه وتبرجك ثم يمر بعد ذلك بدمشق فملاطيا وحلب وقيصرية وأنطاكية وطرابلس الشام وطرسوس وأدنه وعمورية وسلفكة وجزيرة قبرص وجزيرة كريت وجزيرة كورسيكا وجزيرة مسنه والبرتغال.

وفي أقصى الغرب أسبانيا وجنوز وفرنسا تقع في الإقليم الرابع. وعلى بعد ٧٠٠٠ ميل من سواحل فرنسا تقع الدنيا الجديدة إلا أن العلماء لا يعدونها إقليما.

- الإقليم الخامس:

يبدأ من بلاد ياجوج ويمر بالصين والختا والختن وبعض مدن بلاد خراسان ويمر بخرشبه كما يمر بوسط الأناضول ومن قرمان إلى أذاليا ومنها إلى البحر الأبيض ويمر برأس قلاوره والبندقية ودور دوشقة ويتهى ببحر الألمان وقبالتها الدنيا الجديدة على بعد ٧٠٠٠ ميل.

- الإقليم السادس:

يمر ببلاد ترجانه دون الوصول إلى بحر الخزر وطبرستان ويتهى ببحر المغرب ونهاية هذا الإقليم هو القسطنطينية وأواخر بلاد الإفرنج.

وقال حكماء السلف:

إن اسطنبول تقع في الإقليم السادس. إلا أنها تقع في أواخر الإقليم الخامس لأن القسطنطينية تقع عند خط عرض ٤٠ درجة.

والحقيقة الظاهرة ظهور الشمس أن طول نهارها ١٥ ساعة.

- الإقليم السابع:

يمتد من الجانب الشرقى وينتهى فى الشمال عند سد «يأجوج» فى بلاد الترك والصقالبة وموسكو وهولندا ودوقانقيز والدنمارك وألمانيا ولونجباط، وعلى بعد () (١) ميل قبالتها تقع جزيرة الإنجليز، كما تقع قبالتها الدنيا الجديدة على بعد ٧٠٠٠ ميل.

- ذكر الأقاليم السبعة على نحو آخر -

- الإقليم الأول:

به ٢٠ جبلا، و ٣٠ نهرا عظيما، وسكانه سود البشرة أما أهل السودان فهم بيض البشرة وهذا الإقليم كذلك يمتد فى جزيرة مصر.

- الإقليم الثانى:

به ٢٧ جبلا و ٢٧ نهرا عظيما، وسكان هذا الإقليم كذلك سمر البشرة وطائفة منهم ديمية وجوهم، ويمتد هذا الإقليم كذلك بمصر على ضفاف النيل.

- الإقليم الثالث:

به ٣٣ جبلا و ٢٢ نهرا عظيما. وجميع الأنهار التى تجرى فى جزيرة مصر تنشعب عن النيل ويمر هذا الإقليم كذلك بجزيرة مصر وهى جزيرة متراجبة الأرجاء لها نصيب فى هذه الأقاليم الثلاثة ويحكمها سبعون ملكا ومساحتها ١٨٠٠٠ ميل وينبع النيل من داخل هذه الجزيرة ويصب فى البحر الأبيض شمال مصر عند مينائى دمياط ورشيد، ومن منبعه إلى مصبه مسيرة ثمانية أشهر، ولا وجود لنهر يجرى مثل هذه المسافة الطويلة.

- الإقليم الرابع:

به ٢٥ جبلا و ٢٢ نهرا وجميع سكانه بيض البشرة.

- الإقليم الخامس:

به ٣٠ جبلا، ١٥ نهرا عظيما وجميع سكانه بيض الوجوه.

(١) يياض فى الأصل.

الإقليم السادس:

به ١١ جبلا و ٤٠ نهرا، أطول هذه الأنهار نهر «الطونة» ومساحة منبعه ١١٠ مرحلة، وينبع هذا النهر من ألمانيا ويصب فيه ٧٠٠ نهر، وله خمسة فروع تصب في البحر الأسود منها فرع عند مضيق «كلى» وآخر عند مضيق «طولجه» وآخر عند مضيق «سلونه» وآخر عند سفح التلال الخمسة والآخر عند مضيق «قره خرمن».

وتبحر السفن الشراعية في هذا النهر حتى بودابست وبراغ وألمانيا. إنه نهر عظيم وحما لله فقد تأتى لى أن أطوف خمس مرات على ضفافه من المنبع ببلاد الألمان حتى المصب في البحر الأسود.

- الإقليم السابع:

به ١٠ من شوامخ الجبال أعظمها «جبال البرز» على مقربة من داغستان ولا وجود لجبل مرتفع كهذا في الربع المسكون من العالم، ولم يصعد إلى قمته مخلوق من البشر وفيها غيلان وضوار ويستوطن جوانبه الأربعة خمسة سلاطين. إنه جبل عظيم إلى هذا الحد البعيد. وبهذا الإقليم ٤٠ نهرا منها على سبيل المثال نهر «قوبان» العظيم الذى ينبع من جبال البرز ويخترق داغستان وبلاد الشركس والجهة القبليّة من صحراء «هيهات» في بلاد الشركس ويصب في البحر الأسود أسفل قلعة «نمر» في الجزيرة المسماة «طمان» وكذلك عند مضيقى «خون» و «يلشكة» وتجرى فيه بوارج عملاقة.

وهناك في هذا الإقليم كذلك نهر الترك الذى ينبع من الجبل نفسه ويخترق ولاية داغستان ويصب في بحر الخزر أى بحر كيلاّن أسفل قلعة الترك بموسكو على مقربة من «دمير قبو» في الشمال. إنه نهر ماؤه عذب فرات وسكان هذا الإقليم حمر البشرة، شجعان.

والإقليم السابع به ١٠ جبال و ٤٠ نهرا، أطولها نهر «أدل» العظيم. إن ماء ماء الحياة وعرضه ٤٠ ميلا ويبلغ فى بعض الجهات ٦٧ ميلا، وعمقه ٣٤ باعا وجميع سكان هذا الإقليم بيض البشرة.

وليعلم إخوان الصفاء أنى قضيت فى الترحال إحدى وأربعين سنة ورأيت بأم عيني أن أطول الانهار هو نهر «إدل» يليه فى الطول نهر «جايق» ثم نهر الطونة ثم نهر شط العرب ثم نهر النيل المبارك فى مصر الذى يصبح كأنه البحر فى شهر يوليو من كل عام بيد أنه فى بقية أوقات السنة يكون فى حجم نهر «دياله» القريب من «بغداد» أما نهر «إدل» هذا هناك العديد من الترع تتفرع منه وتجرى بجانبه .

وفى ضوء علم الهيئة وطبقا لما دونه الرحالة وعلى حد قول العالم الجليل «بطليموس» إن على وجه الأرض ٢٠٠ نهر عظيم و ٤٤٠٠٠ نبعاً جارياً .

ويروى العوفى عن ابن عباس قوله: إن على وجه الأرض أنهاراً تتفاوت طولاً بعدد ما فى جسم الإنسان من شرايين، ولو لم تجر هذه الأنهار على وجه الأرض لتمزقت الدنيا قطعاً، وما كان فى الإمكان أن يسكنها مخلوق. وهذا هو الحق فقد قال عز من قائل ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ {الأنبياء: ٣٠}.

ويقول ابن إسحاق: على وجه الأرض ١٤٨ جبلاً علاوة على مئات من الجبال الأخرى ولكن ما يعيننا منها شوامخها، والتى قال الله فى شأنها فى كتابة العزيز ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ {الشورى: ١٢} ومقاليده فى اللغة العربية بمعنى أقفال وإذا لم تتشابك الجبال وتحكم الأرض وكأنها الأقفال لما كان لوجه الأرض من قوار.

وصف الأقاليم السبعة من منظور آخر

الإقليم الأول:

طوله من الشرق إلى الغرب ١٢٥٠ فرسخاً، وعرضه ١٩٠ ويضم هذا الإقليم ١٠٠٠ مدينة، ٥٠ منها من كُبرى المدن تقع معظمها فى أقاليم الزوج ومنها الحبشة واليمن وصنعاء وبحرانة وطغار وحرش وجزيرة سرنديب والهند وميناء الصين ومدينة فارس ومراكش فى المغرب والسودان والفونج وبورنو.

الإقليم الثانى:

يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٢٤٠٠ فرسخ وعرضه ١٣٦، وبه ٢٧ جبلاً من شوامخ الجبال و ٣٦ وادياً، و ٢٠٠٠ مدينة ٥٠ منها مدن عظيمة ويمتد من خجند

والهند والسند، والمنصورية والحيرة وكِسْنَدَة والجزائر ونجد ويشرب إلى الحجاز والبحر الأحمر وأرض البربر وأفريقيا وأرض مصر وأرض بغلبه^(١).

- الإقليم الثالث:

طوله ٢٩٢٥ فرسخا وعرضه ٩٠ فرسخًا، وبه ٣٠٠ مدينة منها ٢٠٠ من كبريات المدن ويبدأ من شمال الصين حيث موغان وقندهار ويضم كابل وزابلستان وسيستان وكرمان وفارس وسواحل بحر عمان والبصرة والإحساء واصطخر وشيراز ونيسابور والأهواز والعراق وبغداد والشام وفرحين والإسكندرية ومرقان وفرنسا وينتهي في البكرية.

- الإقليم الرابع:

يبلغ طوله ٢٧٠٠ فرسخ وعرضه ١٠٢ فرسخ وفيه ٢٥ جبلاً، و٣٢ واديا وعدد مدنه (٢) مدينة ويمتد هذا الإقليم من التبت وخراسان وبلخ وبخارى ويضم ملتان وطبرستان والديلم وقزوين والرى وقم وكاشان وأصفهان وهمدان وحلوان وشهرزور والموصل ونصيبين وحلب وأنطاكية وطرسوس وعمورية وجزيرتي قبرص وكريت ومدينة البندقية وينتهي بألمانيا.

- الإقليم الخامس:

يبلغ في الطول ٢٥٥٠ فرسخا وفي العرض ١٠٢ فرسخ، ويضم ١٠٤٠ مدينة، ٧٠٠ منها موانئ، وفيه ٢٥ جبلا و ٣٣ واديا، والمدن الواقعة في جانبه الشرقي هي كوره وكاتج وكاس وخوارزم والتبت وأرمينيا وبخارى وسمرقند وخجند وطشقند وكولقند ودقند وسنجاب وقرمان وانطاليا وفي الجانب الغربي من بحر الروم النمسا وبها مدن بودين واستورغون وسيدوار واستونلى بلغراد وياپا وقومران ويانيق وسنمارتين وبشتهل وبراغ ولونغاط وأمستردام. وفي الجانب المقابل تقع جزيرة الإنجليز ووراءها بمسافة قدرها ٧٠٠٠ ميل تقع الدنيا الجديدة.

(١) لعلها: بعلبك.

(٢) بياض بالأصل.

الإقليم السادس:

يمتد من الشرق إلى الغرب بمسافة طولها ٢٣٨٠ فرسخا وعرضه ٩٠ فرسخا به ٣٠ واديا و ١٠٧٠ مدينة، سبعمائة من هذه المدن مرافئ. ويمتد هذا الإقليم من مد «يأجوج وماجوج» وشمال خراسان وجزء من خوارزم ونواحي أذربيجان وأرمينيا والأخلاق والرمية الكبرى ويتهى بالاندلس.

- الإقليم السابع:

يمتد من المشرق إلى المغرب بمسافة قدرها ٢٢٠٠ فرسخ وعرضه ١٤٠ فرسخا، وفيه ١٠٠٠ مدينة، جلها كان يقع في ولاية «فغفور»، ويضم هذا الإقليم مدن قزاق ومغول وبوغول وموسكو وصحراء القيقاق والقرم وقزاق له، وجه، ودانسق والسويد وهولندا. وفي الجانب المقابل تقع جزيرة الإنجليز وهى جزيرة عظيمة تمتد أراضيها فى الإقليمين السادس والسابع، ومساحتها ٨٠٠٠ ميل وحاضرة ملوكها مدينة «لندن» وقد زارها والدى الدرويش «محمد ظللى» فى عهد السلطان أحمد أما أنا فما ررتها. ولقد تأتى لى بلوغ مرفأ «لونجاط» العظيم الذى يقع قبالتها ولم يتيسر لى العبور إليها اللهم يسر بالخير.

أما جزيرة مصر فأكبر من جزيرة الإنكليز. إنها جزيرة متراجبة الاطراف تبلغ مساحتها ١٨٠٠٠ ميل، ولم يخلق الرحمن جزيرة مثلها على وجه الأرض، وفيها خمسة عشر ملكا لهم سكة وخطبة وسبعون أميرا وبها ١٠٧٠ مدينة، ٧٠ منها مرافئ عظيمة.

وتضم السودان دنقلا ب وفاس ومراكش وقرطبة وطنجة والجزائر وتونس وطرابلس والإسكندرية ورشيد ودمياط والقاهرة المحروسة، وجزيرة مصر هذه أعظم جزر الدنيا عمراننا عمرها الله.

- حاضرة ملك مصر:

وحاضرة مصر تقع وسط الإقليم الثالث عند خط عرض ٢٧ و - ٣ دقيقة، وطول نهارها ١٤ ساعة ١٣ درجة و ٤٥ دقيقة وهى بلد حار.

ولأنها بنيت وقت طلوع المريخ في برجها لا تنقطع فيها الفتق والجروب. إلا أن طالعتها غاية في قوتها والنصر حليفها على الدوام.

سر إلهي في مصر

ثمة سرٌّ إلهي في مصر هو إذا ما كانت هناك حادثة غير متوقعة على وجه الأرض شاع خبرها على السنة الناس في مصر، وبعد خمسة أيام أو أكثر تقع هذه الحادثة التي كثر فيها القيل والقال.

فعلى سبيل المثال سرت شائعة ذات يوم مؤداها أنه قد تم فتح «قمانجسه» وبعد أربعين يوما جاء أحد أغوات الوزير عام ١٠٨ من قمانجسه حاملا بشري النصر وتحقق ما قاله الناس في هذا الشأن.

وفي شهر () (١) من عام () (٢) شاع بين الناس أن الوزير

قد مات وبعد اثنين وعشرين يوما ورد نعى الوزير الأعظم «كوبرلى أوغلو». واتفق ذات يوم أن ظهر درويش من أهل الله وجعل يطوف صائحا: «وقع الباشا وقع الباشا» وبعد أسبوع أسقطوا أحمد باشا الدفتردار.

وهذا بفضل تأثير نجم () (٣) على مصر مما جعل كل حادثة تذكر قبل وقوعها بأربعين يوما على وجه الأرض، وهذا أثر ذلك النجم كما أنه من تأثير من في مصر من دراويش ومجاذيب وأمناء ونُقباء موكلون بمصر.

وبين سكان القرافات الكبرى الاثنى عشرة الواقعة في جوانب القاهرة الأربعة دفن مئات الآلاف من كبار أولياء الله، وكثير من أبناء الأنبياء، وربما الأنبياء ومئات الآلاف غيرهم من أعظام المشايخ من صلحاء الأمة، وبفضل من روحانياتهم فإنا كل ما يقع على وجه الأرض يصبح حديث أهل مصر قبل وقوعه بأربعين يوما.

الفصل الثالث والستون

الأضرحة المنورة لسلطين السلف والعلماء والمشايخ والقضاة
وكبار أولياء الله والصحابية الكرام والأئمة المجتهدين فى قراغات مصر

فى الجانب الشرقى من مدينة القاهرة جبل يسمى «المقطم» لما كان هذا الجبل موضع
تعبد سيدنا موسى وهارون والمسيح - عليهم السلام - فقد وردت فى شأنه أحاديث
صحيحة عن النبى ﷺ وقد رغب أمته فى فتح مصر.

وبعد الفتح فى عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه دفن ١٧٠٠٠ صحابى جليل
فى ظل هذا الجبل والآن يسمى العوام هذا الجبل «جبل الجوشى».

وعندما تبرز الشمس فى الأفاق يمتد ظل هذا الجبل على مدينة القسطا ط أى مصر العتيقة
على ضفة نهر النيل. وقد دفن فى ظل جبل المقطم هذا الكثير من أمة للمصطفى ﷺ الذين
وعدوا بالجنة وقد ورد عدد من الأحاديث الصحيحة فى هذا الصدد.

- سبب تسمية جبل المقطم بهذا الاسم:

ولفظ «المقطم» مأخوذ من «القطم» وهو القطع فسمى هذا الجبل بالمقطم لما كان
منقطع الشجر والنباتات.

وجاء فى رواية أخرى أن أحد أبناء سيدنا نوح - عليه السلام - كان يسمى «المقطم»
سكن هذا الجبل فسمى باسمه. إنه جبل تغمره الأنوار وكل كهف فيه مفعم بالنور
بفضل أولياء الله.

ذكر أضرحة أولياء الله والمشايخ والصلحاء الكائنة

فى جبل المقطم والتي زرتها أثناء تطوافى فى مصر

فاتح مصر أبو عبد الله عمرو بن العاص بن هشام بن سَعِيد بن سهم بن عمرو بن
هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر رضى الله عنه وقد بشره ﷺ بفتح مصر
وقد توفى عام (١١) بعد أن فتح مصر ودفن فى سفح جبل المقطم.

(١) بياض بالأصل، وقد اختلف فى تاريخ وفاة سيدنا عمرو بن العاص - رضى الله عنه - والذي عليه
المحققون أنه مات سنة ثلاث وأربعين. انظر: الإصابة (٣/٥).

ضريح «أبي نصر الغفاري» من الصحابة الكرام، تلقى الإجازة من سيدنا علي - كرم الله وجهه - بين يدي النبي ﷺ، وهو أول من صنع الإكاف وتنتهى به سلالة صانعي الإكاف، عمر أبو نصر الغفاري هذا مائة وسبعين عاما وقد هبط مصر مع السيدة نفيسة رضوان الله عليها وتوفى فيها وقبره بجوار قبر عمرو بن العاص. إنه أحد صحابة رسول الله ﷺ ولكن وقع الخلاف في اسمه فهو عند البعض «حميل»، وقال البعض الآخر إن اسمه «ارعره» إلا أنه اشتهر بأبي نصر الغفاري رحمه الله.

ضريح عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي^(١) صاحب رسول الله ﷺ، وإن زيارته لأمر عظيم.

سيدنا «يامن» ابن سيدنا يعقوب وأفرايم ابن سيدنا يوسف الذي ولد في الفيوم وسيدنا صارم بن يهوذا ابن سيدنا يعقوب - عليه السلام -.

وجاء في بعض التواريخ أن الصحف أنزلت عليه وأصبح نبيا.

وقبر أمنا هاجر - رضى الله عنها - وقبر الملك الريان وقبر الحسناء زليخا، وقبر عزيز مصر، كل هذه القبور تقع في سفح جبل المقطم تحت قبة سيدنا ابن يامن - رضى الله عنه -، ويزورها خواص الناس وعوامهم.

وقبر عبد الله بن سلامة السلمى وهو من صحابة رسول الله ﷺ، ومزار مسجد سيدنا موسى - عليه السلام - على جبل المقطم وقد سكن هذا المكان سيدنا عيسى - عليه السلام - مع أمه السيدة مريم وهذا الموضع يزوره جميع النصارى كل عام. وقد رسم ابن طولون هذا المسجد وضريح ابن يامن أخى يوسف الصديق عليه السلام، والآن كل هذه الأبنية تحمل تاريخ ابن طولون.

«تنور فرعون» فوق جبل المقطم تبدو آثاره للعيان إلى يومنا هذا، وفي عهد القبط كانوا يزورونه ويعظمونه. وعلى مقربة منه وادى المستضعفين ووادى الملك ووادى الليلا ووادى الدجلة وهى وديان تقع جميعا فوق المقطم والمسافة بين هذه الوديان وعين

(١) الإصابة (٤/ ٥٠ - ٥١).

موسى مسيرة ست ساعات يتصيد فيها أهالى مصر الطباء والأرانب وهى أماكن نزهة .
«مزار مسجد سيدنا هارون» أخى موسى عليه السلام، أنشأ هذه الزاوية فيما كان وزيرا لموسى، وقد عمرها ملوك السلف، وهى عامرة إلى يومنا هذا وتزار . وعلى عتبها العالية تاريخها ونصه «أمر بإنشاء هذه الزاوية المباركة وزير ابن جعفر بن العراب».

«مسجد سيدنا الزبير ومسجد الصخرة»: زاوية عظيمة فى غار منحوت فى الصخر إلا أنها لا تحمل أى تاريخ .

مسجد الديلمى، وهو زاوية عتيقة بنيت على الطراز القديم . مسجد الشريف الجرجانى . وكل هذه الزوايا زوايا معمورة فى سفح جبل الجوشى .
ومسجد «المعروف» وهو معجزة سيدنا موسى عليه السلام، لا وجود لمسجد مثله بناءه إنسان . إنه معجزة حقا وهو فى سفح جبل الجوشى وهو أحد زوايا القاهرة التى تحير الألباب .

ومسجد محمود وهو دار قديمة للعبادة، ومسجد الولوه وهو يحمل تاريخ ترميمه عام (٤١٦)، وقبر شقيق الراعى، وقبر سيد الراعى، وكانا أخوين من صحابة رسول الله الكرام وكانا يريان الغنم التى اغتنامها عند فتح مصر وبينما كانا يريان غنمهما وافاهما الأجل فى ليلة القدر، وصلى عمرو بن العاص عليهما صلاة الجنازة ودفنا بجانب مسجد «الولوه» والآن فى كل عام فى ليلة القدر يغمر النور ضريحهما عليهما رحمة الله .

وعلى حد قول الشيخ القمقماعى إن مسجد ولوه ومسجد محمود مسجدان قديمان يستجاب فيهما دعوة الداعى وفيهما روحانية عجيبة ولا ينقطع عنهما المتصوفة وأهل التقوى والصلاح .

وقبر عبد الله بن الحارث الصحابى الجليل، وكانت وفاته بعد أن بلغ المائتين من سنه وقد دفن فى أطراف جبل المقطم، وقبر عبد الله بن حذافة السهمى بجوار ضريح «هاجر الحبشية» وتوفى فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه . وقبر أمير الروم عبد الله بن

حذافة (مات فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه)

- ضريح الشيخ عقبة بن عامر الجهنى - رضى الله عنه :-

وكنيته «أبو حاملة» وعند البعض أنه «أبو سيد» وعند البعض «أبو عمر» وعند البعض الآخر «عامر»، استشهد فى فتح مصر عام (٥٨) وكان عالما بالفرائض، فقيها، شاعرا، صاحب فصاحة وإبانة، وما خطه بيده من كلام الله العزيز بأمر الخليفة عثمان - رضى الله عنه - مازال محفوظا بجامعة عمرو بن العاص.

وقبره فى القرافة الكبرى فى ظل جبل المقطم، وقد تخرب ضريحه على مر الأيام. وفى عام ١٠٦٦ رأى كل من أبى النور خصاصكى محمد باشا سلاحدار السلطان محمد الرابع واليه على مصر، وإمامه نوح افندى فى المنام الشيخ عقبة يقول لهما: ارفعا عنى تراب المذلة هذا وعمرأ قبرى عمر الله لكما الملك.

فهب محمد باشا وأمامه نوح افندى من نومهما وقص كل منهما على الآخر ما رآه فى منامه، وشرعا يُعمران فى التو ضريحه، فأقاما على ضريحه جامعا عاليا وتكية ومبرة وسبيلا وساقية ومكتبا للصبيان وحوضا ومنازل لخدام هذا الجامع وخمسين غرفة للدراويش، كما أحاطا كل ذلك بسور حجرى كأنه سور القلعة؛ فأصبح ضريح الشيخ عقبة وكأنه سد متين وحصن حصين، ويوزع منه الطعام على الغادى والرائح من السابلة. كما خصصا له أوقافا كثيرة، ولأن ثلثى هذه الأوقاف لأغا الإنكشارية فهى أوقاف عظيمة العمران. ولقد أنشأت قبة جميلة فوق ضريح الشيخ عقبة، وكانها قبة الفلك، وهى قبة من حجر إلا أنها غير مكسوة بالرصاص ويهبط إليها بسلم من دوجتين فى الجانب الأيمن من الجامع، ويتوسط هذه القبة تابوت مغطى بالحرير الأخضر المزركش دفن بداخله الشيخ عقبة، إنه ضريح مزين يعلوه شمعانات من فضة وثريات من ذهب.

وفوق رأس الشيخ عقبة عمود من الرخام الأبيض كتب عليه بماء الذهب واللازورد ما نصه:

(هذا مقام العارف بالله تعالى الشيخ عقبة بن عامر الجهنى من أصحاب رسول

الله ﷻ - رضى الله عنه - جدد هذا المكان المبارك الوزير محمد باشا سلحدار السلطان محمد الرابع دام بقاءه فى سنة ست وستين وألف).

وعلى جدران قبلة هذا الضريح المنور كتب بالخط الكوفى على حجر أبيض قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ {التوبة: ١٨}. لكم هى خيرات عظيمة.

مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها:

دفنت فى حى منفصل بجنوب القاهرة، إنها مبرة عظيمة وخير عميم، ولها جامع وضريح يغمره النور دفن فيه سائر خلفاء بنى العباس رحمة الله عليهم أجمعين. وعلى عتبة القبة العالية لهذا الضريح كتب بخط جلى بالسليو واللازورد ما نصه:

(هذا مشهد الحسينة للسيدة نفيسة . بسم الله الرحمن الرحيم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت إنه حميد مجيد (وقوله عز من قائل): ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ {الاحزاب: ٣٣} (احتوى هذا المكان على جامع خطبة المسلمين ومشهد السيدة الحسينة البضعة النبوية ابنة السيد الحسن ابن آل زيد ابن السيد الحسن ابن الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليهم أجمعين، مولدها سنة خمسة وأربعون ومائة وقدمت مصر سنة ثلاثة وأربعين بعد المائة وقد انتقلت إلى رحمة الله تعالى فى شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين ومائتين فى أيام مولانا السلطان الملك المنصور أبى النصر عبد العزيز أعز الله أنصاره).

وعلاوة على هذا التاريخ ثمة تاريخ آخر كتب بخط جلى باللازورد على ألواح مقاصير الجامع وهو:

(أمر بإنشاء هذا المكان المبارك مولانا المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز أعمر الله به بتاريخ شهر جمادى الأولى سنة ست وثمانين ومائة).

والتزول إلى ضريحها الشريف من خلال سلم حجرى من ثلاث درجات، وباب ضريحها باب عال مطلى بالذهب ومزين بالجواهر، وتابوتها مغطى بغطاء من الحرير الأخضر المزركش، وعندما يدخل الزوار المسلمون هذا الضريح يجدونها مدفونة فى

تابوت مربع ذى زخارف يتوسط الضريح، وإذا ما وقعت عليه عين إنسان علت جسمه رعدة، وما اجتراً على النظر إليه فهى العرق الطاهر من سلالة النبي ﷺ.

وزوجها إسحاق بن جعفر الصادق وحول تابوتها مئات القطع من الأواني والشمعدانات والمباخر والقناديل النفيسة المزدانة بكلمات الله؛ بالإضافة إلى ما لا يدخل تحت حصر من الثريات مما يجعل قبرها وكأنه متحف الصين، وهو مفروش بالبسط الحريرية النفيسة التى طالما كان يهديها ملوك السلف ووزراؤهم ووكلاؤهم تبركا، ويتلو القراء الختم الشريف مرة فى كل وقت من الأوقات الخمس. وداخل الضريح يفغم عبير العود والعنبر وجل زوارها من النساء يقدمن لها التذوق فى كل مرة يأتين فيها إلى الضريح.

كما دفن مع السيدة نفيسة ولدان من أبنائها هما القاسم والطيب، ولقد قالت لهما وهى فى النزع الأخير: أتيتان معى إلى الدار الآخرة؟ فقال الطفلان الصغيران: نعم يا أمه نأتى فقالت لهما: اذهبا وسلما أمانتكما وعندئذ فاضت روحهما وامثلا إلى قوله تعالى ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨]، والناس يزورونها ليل نهار ولا ينقطعون عن زيارتها قط، يقام مولدها مرة فى العام فى الليلة الثالثة من شهر ربيع الأول فيتوافد على ضريحها مئات الآلاف.

وثمة قبة أخرى على الجانب القبلى للضريح المنورة للسيدة نفيسة وهذه القبة هى مثنوى لأبناء السيدة نفيسة الكرام وخلفاء السلف من بنى العباس وهم:

- سيد يحيى بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين:
يقول القعقاعى عنه: إنه أخو السيدة نفيسة، وهو مدفون فى هذا الضريح، وقد كتب بخط جلى على جوانب تابوت من الرخام: (قبر أشرف الحجاز سيد قاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل واسمه إسماعيل الديباج بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنه -).

- قبر أبى محمد يحيى بن قاسم بن محمد العلى بن الحسن بن على بن أبى طالب:

- قال الكندي: «قدم رأس زيد بن علي في جمادى الآخر سنة اثنين وعشرين ومائتين».
- مشهد رأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي - كرم الله وجهه :-
دفن هذا الرأس تحت قبة عالية أمام مجراب جامع «النبر» سنة خمس وأربعين ومائة،
ويزوره الخواص والعوام ويحمل هذا المشهد تاريخا هو:
(أقام هذا البناء العلامة رضى الله عنه)
- مشهد رأس محمد بن أبى بكر رضى الله عنهما:
جاء فى رواية أن محمد الأكبر هذا ولى مصر فى خلافة عثمان بن عفان - رضى الله عنه -
وبسبب ما كتبه «مروان الحمار» كاتب عثمان خلافا للأمر قتل محمد الأكبر فى مصر مما كان سببا فى مقتل عثمان رضى الله عنه. ومشهد محمد الأكبر هذا يقع فى رملة خارج الجانب الغربى للقاهرة وقد تخرب وعلى الرغم من أن الناس كافة يعلمونه إلا أنه لا يزار كثيرا، والتاريخ المكتوب على بابه هو: (بناء علامة العصر).
- مشهد السلطان الإمام زين العابدين ابن الإمام الحسين بن علي بن أبى طالب - رضى الله عنه :-

يقع هذا المشهد على مقربة من مشهد محمد الأكبر وهو بناء عظيم كأنه القلعة شيده المستكفى بالله من بنى العباس على رملة، إنه بناء عظيم يضم غرضا للبوابين وحراس القبور ومشايخها. وفى غرة كل شهر يقام مولد عظيم فتغص أركان هذا الضريح بما يربو على الأربعين ألف من الناس. إنه قطب عظيم وهو مدفون فى قبر عال تناطح قبة الفلك. ويحيط بالضريح أعمدة من الرخام تحمل مبنى عظيما وإلى جانب الجهة القبلىة للقبر الشريف زاوية ذات قبة عظيمة. وعلى أطراف الحرم مصاطب جانبية عليها أعمدة عالية من الرخام تحمل سقفا ذا رخارف. ويتوسط الحرم عدة نخلات وشجرة نبق عظيمة وعلى الجوانب الأربعة لباب الحرم حجر سماقى أخضر مصقول، ومصراع الباب من قطعة واحدة من السماقى الأخضر لا وجود لمثله فى بلد آخر. إنه باب عال من قطعة واحدة وعتبه عالية وله شهرة واسعة لدى رحالة العالم.

وياب الضريح هذا يطل على الجهة الشمالية وعلى عتبة العالية ألواح تحمل تاريخاً

نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا مشهد الإمام على بن زين العابدين ابن الإمام الحسن ابن الإمام على بن أبي طالب بن عبد المطلب - صلوات الله عليهم أجمعين - سنة إحدى وعشرين ومائة بعد الهجرة النبوية).

وهذا التاريخ كذلك منقوش بخط كوفي على الرخام الأبيض للتابوت الشريف.

ومن عجب أنى فى عام ١٠٥٦ حينما وصلت إلى بغداد زرت (١) زين العابدين وهو كذلك ضريح عظيم، وبعد ذلك فى عام ١٠٨٢ بلغت البقيع بالمدينة المنورة بعد أداء مناسك الحج وزرت الإمام زين العابدين بجوار سيدنا العباس - رضى الله عنه - والضريح المدفون فيه جثمانه الشريف حير ألبائنا وتلا كل منا سورة «يس» على روحه الشريفة، واستمد البركة من روحانيته تقبل الله دعاءنا آمين.

وفى مصر أم الدنيا آلاف من أرواح الأنبياء والأولياء وصحابة رسول الله ﷺ

- رضوان الله عليهم أجمعين - إلا أننى سوف أذكرهم حسب زيارتى لأضرحتهم :

- مزار يشكر - رضى الله عنه - :

كان من أهل التقوى والصلاح وهو مدفون فى حرم جامع أحمد بن طولون فى جبل يشكر، وهو موضع عبادة ومزار عتيق.

- ضريح الشيخ العلامة الزاهد أبى محمد عبد الله بن وهب بن مسلم :

صاحب مالك بن أنس وضريحه يقع خارج باب الصفا فى الجهة اليمنى على بعد مائة قدم من الباب الجديد فى الجهة القبلىة. إنه عالم عظيم من العلماء الأئمة أخذ العلم على مالك بن أنس وابن أبى ذؤيب وحيوة بن شريح والليث بن سعد - رضى الله عنهم أجمعين -.

(١) يياض بالأصل. لعله فى هذا الموضع توجد كلمة ضريح.

- ضريح القاضي بكار رضى الله عنه:

إنه ابن قتيبة بن أسد بن عبد الله بن بشير بن أبى بكر بن الحارث مولى رسول الله ﷺ ، ولى القضاء فى مصر وكان محدثاً جليلاً دفن فى () (١).

- ضريح الشيخ جزعل:

وهو من العلماء المتبحرين.

- ضريح الشيخ آتى:

كان أهل تقوى وصلاح، محبوباً بين الناس، رحمة الله عليه.

- ضريح الحخير بن نعيم بن مرة:

وكنيته أبو إسماعيل وكان من فضلاء المحدثين.

- ضريح فاطمة بنت عبد الحميد بن عمر بن حمزة:

توفيت رحمة الله عليها عام تسعة وسبعين ومائة.

- ضريح طباطبا أبى محمد عبد الله بن أحمد بن على بن الحسن بن إبراهيم بن

الحسن بن على بن أبى طالب - رحمة الله عليه -، بالقرب من السيدة نفيسة وعلى

مقربة منه قبر فرج وهو عبد الشریف طباطبا وقد توفى قبل طباطبا.

- قبر الأربعين:

وعلى حجر تابوته كتب بخط جلى : (يحيى بن بكير هو صاحب الموطأ).

- قبر نفالة عبد الرحمن:

من أبناء سيدنا عثمان - رضى الله عنه - فقد تزوج عثمان من أم كلثوم ابنة المصطفى

ﷺ فولدت له نفالة هذا وهو مدفون بجانب السيدة نفيسة.

وقبر عبد الله بن رواحة وقبور أشراف مكة كلها فى ساحة جامع «الست» على مقربة

من السيدة نفيسة.

(١) يياض بالأصل.

وقبر أبى الجيش على بن أحمد بن طولون ومولده سنة ثلاث وعشرين ومائتين واستشهد - رحمه الله - فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وهو مدفون فى قبر عال فى رملة بجوار «محمد الأكبر» بن أبى بكر - رضى الله عنه - .

وقبور الشريف الجارودى والبكرى والمقرى، وهؤلاء كانوا من الوعاظ ذوى الشأن فى موضع واحد. وعلى مقربة منهم قبر «صغير الكاتب» وهو مزار عظيم.

وقبر الشريفة فاطمة ابنة محمد بن عيسى بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب - كرم الله وجهه -، وهو مزار لعوام الناس وخواصهم ولوقوعه على الطريق الغام لا يخلو من الزوار قط ولا ينقطع النساء عن زيارته البتة.

والشيخ «الجامى» قدس سره مدفون فى قبة فى صحراء قايتباى، والشيخ «أبو بكر الأذفوى» وهو من أجلة العلماء وشيوخ القراء، وقبره على مقربة من مشهد الحسين، والشيخ الفقيه «أبو القاسم عبد الرحمن ابن الشيخ أبى بكر الأذفوى» من العلماء المحدثين، وكتب على قبره الشريف: (توفى الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن فى شهر ذى القعدة سنة سبع وعشرين وأربعمائة) وهو مدفون فى طرف قبر أبيه وقبرهما معروف لدى الناس بقبر الجولانيين.

والشيخ الإمام أبو إسحاق بن إبراهيم بن سعيد الجبال الحافظ - رحمه الله - مدفون فى سفح جبل المقطم، والشيخ أبو الحسن بن الرضا المصلى مدفون مع أبنائه على مقربة من الجامع العتيق وقبره يزار.

والسيد محمد بن إبراهيم بن محمد ابن الإمام بكر بن زين العابدين ابن الإمام الحسين، مدفون بالقرب من السيدة نفيسة.

وضريح السيدة «زينب بنت يحيى بن الحسن بن على بن أبى طالب» ضريح عال بالقرب من قنطرة السبع على طريق مدينة بولاق غرب القاهرة، والكثرة الكاثرة من زوارها نساء وعلى باب جامعها تاريخ مرقوم وهو تاريخ وفاتها، إلا أنه كان شديد الارتفاع فتعذر على قراءته ولذلك لم أذكره.

أما المشهد المعروف «بالست آسيا» ابنة مزاحم بن الرضا بن سهون بن خاقان وكيل ابن طولون أسفل قلعة صلاح الدين بالقاهرة وتزوره النساء وزيارتهم في يوم الأربعاء حيث تجتمع فيه منهن حشود.

وبالقرب من مقام الست آسيا هذا قبر الشيخ أبي الحسن مالك بن سعد بن مالك القاروقى قدس سره، وقبر ميمونة العابدة أخت رابعة في العبادة مدفونان في ظل جبل المقطم، وقبر أشهب صاحب مالك بن أنس بالقرب من السيدة «أمينة»، وضريح هند بنت عبد الرحمن بن عوف والزهرى وهو ضريح عظيم يقع على طريق الإمام الشافعى وأكثر من يزوره النساء.

وقبر الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد الحكم - الذى كان كاتب السلطان - على مقربة من بركة الحبش، وكانت وفاته عام ٢١٤، وأبو عبد الله محمد بن عبد الحكم ابن أعين كان قاضى مصر وتوفى عام ٢٦٨ ودفن في سفح جبل الجوشى.

وضريح السيدة الزاهدة العابدة فاطمة بنت جعفر الصادق في الجهة القبلىة لقائتابى، و«بشرك بن سعد الجوهري» جد أولاد الجوهري ومحمد بن إسماعيل المقرئ المعروف بالحداد صاحب القراء والمحدثين مدفونان في القرافة الكبرى.

وقبر الشيخ أبى بكر الدقاق أحمد بن المنصور في سفح جبل المقطم.

وقبر القاضى عبد الوهاب بن على بن نصر البغدادى المالكى وقبر الإمام أبى عمرو عثمان بن سعيد صاحب الرواية، تولى القضاء في عهد عبد الحكم بن محمد الأنصارى و«توفى عام ١٩٧» وهذا ما كتب على تابوته في القرافة الكبرى - ضريح كافور الإخشيدي المملوك الأسود الحبشى مولى الإخشيد في القرافة الكبرى، وقبر الوزير أبى الفضل جعفر الفسرات وزير كافور الإخشيدى في مصر وأبوه المقتدر بالله، والشيخ أبو الحسن الوراق السالم من كل الشبهات بجوار قبر الإخشيدى.

وقبر الشيخ أبى الحسن على بن محمد بن سهيل الدينورى المتوفى عام ٣٣١ بالقرب من أبى الليث.

وقبر الشيخ الفقيه أبي عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن خالد رضى الله عنه المتوفى عام ١٩١ بالقرب من القاضى بكار.

«قبر أبى بكر الإصطبللى قدس سره، وصالح المبتلى المتوفى ام ٥٤٠»، ووزير مصر والشام «المتوفى عام ٥٩٦» مدفون فى ضريح عظيم على مقربة من ابن يامن وهذا ما كتب على أطراف تابوته الرخامى المربع: (ولم يأت وزير عظيم مثله فى عهد ملوك وسلاطين السلف).

وقبر الفقيه مجلى أبو المعالى لم يأت مؤرخ مثله منذ عهد إدريس - عليه السلام -، حتى إن «حمزة نامه» أحد المؤلفات التى جاد بها قلمه. وقبره الآن يزار، وإذا ما نسى إنسان شيئا مضى إلى قبره وأكل ما أكل فى يومه سبغ حبات من العنب الأسود طيلة أيامه كان له عقل أرسطو وأصبح أبا الكلام. وقد توفى عام ٥٥١ ودفن بالقرب من الإمام الشافعى مع سيدى محمد البوصيرى صاحب قصيدة «البردة».

وقبر جُحًا وكان من حمقى العرب مثل «نصر الدين خوجة» وهو مدفون مع أبى المعالى فى مكان واحد. والشيخ غنايم الشامى وقد ذكرت كراماته الباهرة فى طبقات الشعراوى، وهو مدفون فى قراقة المجاورين.

وأحمد بن طولون المتوفى عام ٢٧١ مدفون فى مدينة القسطاط وهى مصر القديمة إلى جانب عفان أبى سيدنا عثمان - رضى الله عنه -، وعلى أطراف تابوته تواريخ مكتوبة بخطوط مختلفة. والدعاء مستجاب عند قبره.

ومشهد زوجة سيدنا أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أم محمد الأكبر بن أبى بكر. واسمها «أسماء بنت عميس الخثعمية». كان قد تزوجها جعفر بن أبى طالب المعروف بجعفر الطيار فولدت له عبد الله وعونا ومحمدا، ثم تزوجها سيدنا أبو بكر الصديق بعد قتل جعفر الطيار فولدت له محمد بن أبى بكر، ثم تزوجها بعده سيدنا على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

وعندما تزوجت أسماء من سيدنا على صار محمد ابناً لزوجته. حتى إنه قد جاء فى أحد التواريخ أن محمد بن أبى بكر قاتل بجانب سيدنا على فى موقعة «صفين» أسفل قلعة «جعبر» على ضفة نهر الفرات.

ولما كان فى الجانب المقابل السيدة عائشة بنت الصديق وهى أخت محمد بن أبى بكر بذل كل وسعه فى إصلاح ذات البين ولكن غثا ونشت حرب ضروس .

ولا يخفى على إخوان الصفا وخلان الوفا أن الجوانب الأربعة لمصر القاهرة أى الفسطاط وهى مصر القديمة، ومدينة بولاق وما يقرب من الإمام الشافعى ومصيف قايتباى فيها اثنتا عشرة قرافة دفن فى وادى سكونها مئات الألوف من أبناء الأنبياء، وربما الأنبياء وكبار الأولياء والأئمة والصحابه الكرام وملوك السلف .

إلا أنه بتعاقب الايام منذ هبوط آدم - عليه السلام - ومنذ طوفان نوح - عليه السلام - وهو آدم الثانى تعرضت أم الدنيا للعديد من الحوادث فأصبحت حيناً عروساً فى شرح شبابها وفى حين آخر أصبحت خراباً ياباً، وكم من مقابر للأنبياء ومشاهد لأولياء انهدمت وانحمت آثارها .

إلا أنه منذ دخولها فى حوزة الإسلام أصبحت عروساً من جديد وعمرت . ولقد مسحت وجهى على أعتاب تلك الأضرحة وكنت أقرأ على أرواح أبناء الأنبياء وكبار الأولياء الطاهرة سورة يس أو الفاتحة على الأقل، وقد وقعت الهية والخشوع فى نفسى عند زيارتها . وقد قرأت كلام الله العزيز الذى تمس إليه حاجة أرواح جميع الموتى واستمددت العون والروحانية منهم، وما زرت من تلك الأضرحة أذكره قدس الله سرهم ونفعنا بـسرهم .

وفى الساعة التى دخلت فيها مصر عائداً من الحج للمرة الأولى خرجت من قصر القاهرة وتقدمت جنوباً سيرا على الأقدام وسط المقابر ألفى قدم فى طريق رملى وفى منتصف قصبة واجهت :

مشهد شيخ الشيوخ، الإمام الهمام، العالم العلامة، منهج السالكين ومطلوب الطالبين الإمام الشافعى - رحمه الله - .

حملت الله أنى مسحت وجهى على عتبه ودخلت ضريحه وختمت القرآن الذى كنت قد نذرت وهبت ثواب ذلك لروحه الشريفة، وتصدقت على الفقراء وسألت الله القبول .

والإمام الشافعي - رضى الله عنه - مدفون فى قبر ترتفع قبته إلى عنان السماء وهى قبة حجرية ررقاء الداخل، ودخلها مكسو بصنوف من الأحجار القيمة. وهى مزدانة من الداخل كذلك بالعديد من الثريات والقناديل النفيسة، وقد كتب فيها بخطه كثير من الرحالة الصوفية، وقد كتبت أنا على لوح مذهب الفاتحة. وهذه القبة مزينة إلى ذروتها بشتى التحف والبللور والزجاج الفاخر.

وفى الجهة القبلية من هذا الضريح محراب بديع الصنع مذهب ومزدان بالصدف وكأنه السحر الحلال ومفروش بالبسط الحريرية.

وهذه القبة المallee مكسوة بالرصاص. إلا أنه لا يشبه رصاصنا التركى الذى يبلغ طول اللوح منه ثلاثة أذرع. إنها رقائق من الرصاص يضرب لونها إلى الصفرة، ويقال إن بها ذهباً. وعلم هذه القبة من النحاس الأخضر، ويعلم هذا العلم قارب من النحاس الأخضر ويملاً خدام الضريح هذا القارب على الدوام بالقمح والشعير، وتحط الطيور لالتقاط الحب وفى الجوانب الأربعة للقبة شبايك من النحاس. وقد دفن خارج الضريح مئات الآلاف من العلماء والصلحاء والأئمة والخطباء ومشايخ السادات والوزراء والوكلاء وكبار الأعيان، ولا يعرف عددهم إلا علام الغيوب.

وبما أنها مقبرة عظيمة من أولها إلى آخرها يوصى كل شخص بأن يدفن فيها وبني له ضريحاً هناك.

والإمام الشافعى مدفون فى تابوت فى الجهة الشمالية لنوافذ الضريح، وهذا التابوت مغطى بحرير مزركش أخضر، وأركانه الأربعة مزينة بكرات من الفضة الخالصة. ويحيط بالتابوت سياج من خشب «الصبا» وذلك لمنع العوام من تقبيل تابوته وما يترتب على ذلك من تأذى روحه.

وعند قدم هذا التابوت وعند رأسه شمعدانات ذهبية فى طول قامة الإنسان، وفى كل منها شمع كافورى. وزين التابوت بأعلام مختلفة الألوان، وعند رأسه الشريف عمود اسطوانى الشكل من الرخام الأبيض، طوله طول قامتى إنسان. كتب على هذا العمود بخط الثلث المذهب على خلفية لازوردية ما نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم). ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾. [النجم: ٣٩، ٤١] هذا قبر السيد الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد زيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف جد النبی ﷺ . ولد - رضى الله عنه - فى سنة خمسين ومائة وهى السنة التى مات فيها أبو حنيفة وتوفى سنة أربع ومائتين).

ومدة عمره أربع وخمسون سنة، وكان فى كل يوم من أيام حياته يؤلف كتابا. ولد فى مدينة غزة وظل فى رحم والدته أعواماً ثلاثة. ولما انتقل النعمان بن ثابت وهو الإمام الأعظم من دار الفناء إلى دار البقاء لم يكن قد ولد الإمام الشافعى وظل فى رحم أمه ثلاثة أعوام وفى الساعة التى حضرت فيها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان الوفاة ولد الإمام الشافعى. ولما بلغ السابعة تلقى العلم على يد الإمام محمد والإمام مالك - رضى الله عنهما - وجلس منهما مجلس التلميذ.

والآن عند قدمه الشريفة دفن اثنان من زملائه من تلامذة الإمام محمد ولهما روحانية عجيبة واسمهما الشيخ محمد والشيخ سيد عبد العزيز.

وفى الجهة الغربية من هذا الضريح كذلك دفن السلطان محمد الكردي مشيد هذا الضريح والإمام الشافعى كانت بينه وبين هارون الرشيد من بنى العباس ضحية وصدرت له الكثير من المؤلفات فى بغداد.

ووالدته السيدة شمسة ملكة مدفونة فى هذا الضريح كذلك. وعلى باب الضريح ثمانون خادماً لإرشاد من يقدمون للزيارة. وعلى عتبة الضريح العالية كتبت آية من آيات الذكر الحكيم من سورة الحجر على لوح من خشب الجوز الأسود وهى:
(بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ * وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلَرٍ...﴾ إلى آخر الآية [الحجر: ٤٦ - ٤٧].

وخارج باب الضريح العالى أضرحه لا يعرف عددها إلا الله - تعالى - إلا أن الأضرحه التى زرتها هى ضريح الشيخ أبى الحسن البكرى وضريح شيخ الإسلام زكريا الانصارى وضريح الشيخ نجم الدين حب الشالى المعجمى، وضريح الشيخ فرحان.

الحسنى، والشيخ إسماعيل المؤذن وهو زميل الشافعى، والشيخ شيبان الراعى قدس سره العزيز.

وقد ررت أكثر من هؤلاء إلا أننى لم أذكرهم لعدم علمى بأسمائهم. والإمام الشافعى حى مستقل يسكنه ٢٠٠٠ نسمة، وبه ٦٠٠ منزل متصل. ومن نافذة كل منزل تتدلى مئات الزنايل الصغيرة. وإذا مر بعض الزوار حركت نساء المنزل وصبيانهم تلك الزنايل المدلاة طلبا للصدقة فيضع رجل الخير فى الزنايل باره أو منقر أو رغيفا فتجذب هذه الزنايل إلى المنزل ويرفع الدعاء للمتصدق. وتلك عادة معهودة. وفى الطريق العام كذلك يتصدق على الفقراء والمعدمين.

وفى قصبة الإمام الشافعى جامع لأحد سلاطين السلف ومدرسة وحوض وساقية و ٧ تكايا وعدة قاعات ومبرتان و ٧ زوايا و ١٠ دكاكين. وهذه الخيرات والحسنات معظمها للسلطان محمد أكراد والملك الكامل.

وعلى مسافة ساعة فى آخر قرية البساتين على بركة الحبش المتفرعة من النيل أقام ساقية كأنها البرج تجلب الماء إلى حى الإمام الشافعى بأقواس كأنها قوس قزح فما أعظم ما صنع من خير.

وفى كل ليلة سبت يتوجه كل من فى مصر القاهرة من أهل التقوى والصلاح إلى الإمام الشافعى زرافات زرافات قارعين الدفوف، ذاكرين اسم الله - تعالى -، حاملين آلاف القناديل والفوانيس والمشاعل، مشدين قصائد النفس والقصيدة الثابتة ونعت الإمام الشافعى وحتى مطلع الفجر يتقاطر على الإمام الشافعى خضم من البشر. ومنهم من لم يتخلفوا عن زيارة الإمام الشافعى منذ أكثر من سبعين عامًا، وهم أناس مستجابة دعواتهم. وفى داخل الضريح المقعم بالأنوار لكل منهم مقر معلوم، يقيم فيه للعبادة وقراءة المولد الشريف. ويتجمع فى هذه الليلة عدة آلاف من العميان حافظى كلام الله ويقرءون الحتم الشريف ستمائة مرة وربما ألف مرة. فما فى مصر من حافظى كلام الله لا وجود لثلهم فى غيرها. وهذا ما يجرى مجرى العادة منذ قديم فى كل ليلة سبت وله الدوام إلى ما شاء الله.

وفى العام يقام مولد عظيم لمرة واحدة ويحتشد مئات الآلاف فى مقابر الإمام الشافعى ورملة ومبراته وتزدان جميع المنائر والقباب والكوات بالقناديل ويدوم احتشادهم يومين وليتين.

وخارج نوافذ ضريح الإمام الشافعى المطلة على الناحية الغربية دفن الشيخ البكرى رضى الله عنه، أجداده وسبعون من الأقطاب سوف نتحدث عنه فى موضعة - رحمة الله عليهم أجمعين -.

وعلى مسافة قدرها مائتا قدم جنوب ضريح الإمام الشافعى:
ضريح الشيخ الفقيه، الإمام الزاهد، سيدى الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبى الحارث - رضى الله عنه -.

كان شيخ إسلام الديار المصرية ومفتى الثقلين، وهذا القطب العظيم مدفون كذلك فى ضريح ذى قبة شاهقة العلو فى القرافة الكبرى، وهناك جامع ومدرسة وتكية وأسبلة ومبرة وزاوية وما يقرب من ٢٠٠ منزل للفقراء وسكانها يطلبون الصدقة بالزنايل.

وهناك كذلك أضرحة للعلماء، وضريح الإمام الليث لا يبلغ مبلغ ضريح الإمام الشافعى فى اتساعه ورحابة أرجائه إذ إنه لا يتسع إلا لخمسمائة شخص. ويتوسطه تابوت مربع مغطى بالجوخ الأخضر وهو مدفون فيه. والضريح مزين ببعض القناديل والثريات وفيه يجتمع جميع فقهاء القاهرة وعلمائها لتلاوة القرآن الكريم ولا يأتى غيرهم.

وعلى ضريحه تاريخ مسطور هو: (أمر بإنشاء هذا المرقد المبارك الشريف بفضل الله تعالى سيدنا ومولانا الدنيا والدين السلطان الملك قنصوه الغورى فى سنة عشرين وستمائة).

وعلى الجانب الأيسر من باب الضريح المعلى لوح من الرخام الأبيض طوله طول قامة إنسان كتبت عليه آية من آيات الذكر الحكيم هى: (بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يُشْرِكُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ [التوبة: ٢١])، كما كتبت تحت هذه الآية سورة الإخلاص وأسفلها سطر تاريخ هو: (اثنان وسبعون وسبعمائة).

ولقد زرت هذا القطب وتلوت سورة «يس» ابتغاء مرضاة الله ووهبت مئوبتها روحه ورجوت منه الشفاعة وليتقبل الله .

والى جوار الإمام الليث قبر داود باشا وهو من وزراء السلطان سليمان، وتاريخه عام ٩٥٦ وفى الجانب الشرقى لهذا الضريح، على بعد ألف قدم، فى منتصف الطريق إلى جبل المقطم، فوق أكمة عالية مرقد القطب الزاهد، صاحب الكرامات، غياث الواصلين، مطلوب الطالبين الشيخ شاهين رضى اله عنه، وكأنه شاهين قنع بصيده، واستقر فى رأس جبل قاف، وضريحه لا يخلو من الزائرين يصيد قلوبهم بالعشق، وأضرحة كل المدفونين فى القرافة الكبرى تبدو وكأنها تحت منقار هذا الشاهين. إنه ضريح طيب النسيم، وله جامع وتكية يسكنها المتصوفة ومبرة وسبيل وهو مدفون فى الجهة اليمنى من جامع مع أولاده العظام وخلفائه الكرام وأكبر أبنائه الشيخ محمد العنقاء مدفون فى الجانب الأيمن، أما أصغر أبنائه الشيخ عبد الله العقاب فمدفون فى الجانب الأيسر وألقاب خلفائهم كذلك مشتقة من أسماء الطيور، إنهم متصوفة معتكفون فى ركن العزلة يسمون الطريقة الشاهينية. وجميع نققاتهم من فضله فلا تجرى عليهم مرتبات من جهة، وهم متوكلون على الله، والله يسط الرزق لهم وفى التنزيل العزيز: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ {هود: ٦}، وقد وردت هذه الآية الكريمة فى شأن المتوكلين عليه - سبحانه وتعالى - .

ضريح الشيخ إدريس بن العباس والد الإمام الشافعى - رحمه الله :-

إنه ضريح صغير فى مصر القاهرة بالقرب من بيت المولوية. وقد رأيت فى أحد التواريخ أن الشيخ إدريس بن العباس مدفون فى غرة لأن الإمام الشافعى ولد فيها ولما توفى والده - الشيخ إدريس - ارتحلت والدته إلى بغداد ثم إلى المدينة، وهناك تلقى الشافعى العلم على يد الإمام محمد والإمام مالك. وقد أكد مؤرخو مصر بالتواتر أن وفاته كانت فى مصر ولقد زرته - رحمه الله عليه - .

وفى طريق القصر العينى داخل باب جمال الدين ضريح الشيخ عبد الله العراقي وهو ضريح صغير، وبالقرب من درب الكنيسة ضريح الشيخ أبى بكر معرف القوم وهو مزار عظيم.

وفى الطريق بين جامع الخاتونية والسيدة نفيسة مشهد قبر الطويل وهو مقام لا قبة له ولا تكية، وجوانبه الأربعة فى الطريق العام، ولأنه قبر طويل يصل طوله إلى عشرين قدما سمى بالقبر الطويل، وجاء فى إحدى الروايات أن أربعين من الصحابة الكرام مدفونون فيه لذلك سمى عند البعض بضريح الأربعين.

وعلى مقربة منه قبر الشيخ أبى بكر السليمانى، وعلى مقربة منه مرقد الوزير سلطان ناصر الدين. أدرك هذا الوزير عهد السلطان سليم، وكان عمره مائتا عام، ودخل فى طاعته مع خيره بك، وقد سعى السلطان سليم فى جنازته ودفن بالقرب من القبر الطويل.

مقام سيدنا موسى - عليه السلام -

داخل القاهرة، على مقربة من باب الناصر بجوار جامع جمال الدين، يقع هذا الضريح على الطريق العام، ويهبط إليه بسلم من ست درجات، إنه زاوية ذات ثلاث قباب ومحراب وضريح، وهو موضع يستجاب فيه الدعاء.

وعلى مقربة من قنطرة الدكة شمال بركة الأوزيكية ضريح الشيخ حسن الشاذلى، وهو صاحب «حزب البحر» وهو مدفون فى جامع. ويقرأ «حزب البحر» لمعظم المصايين بالصرع طيلة أربعين يوما فيتم شفاؤهم بمشيئة الله. شهرته طبقت الأفاق وتوفى عام ٦٥٦ رحمه الله. وبالقرب منه قبر الشيخ ساكنية وهو مدفون كذلك فى جامع.

ضريح الشيخ مرزوق كضافى

يقع بالقرب من قصر قاضى العسكر، إنه قطب عظيم على الطريقة الأحمدية. التقى بالسلطان سليم عند فتح مصر، وقد شاد جرجلى على بك جامعا وقبة فوق ضريحه، ولأنه عاصر أبا السعود الجارحى وهما اللذان قالوا للسلطان سليم «تعال إلى مصر». إنه قطب عظيم له كثير الاتباع من المتصوفة، وهم يسمون الطريقة الكفافية، وينسبون إلى الطريقة الأحمدية. وضريحه يزوره الناس خواصهم وعوامهم. وقد دفن معه ثلاثة من خلفائه، وفى الجوانب الأربعة لقبتة عدة مئات من الحراب المذهبة والقلائس والطبول والابواق والشارات.

وبالقرب من قنطرة الليمون ضريح الشيخ محمد العناني، وعلى مقربة من درب الحماميز قبر الشيخ صفى قدس سره. إنه قطيب عظيم وأتباعه من المتصوفة لا يحصون كثرة، ويوزع من قبره الأطعمة على الغادى والرائح، وهو مدفون كذلك فى جامعته وفى حرم تكيته شجرة نبق عظيمة.

مزار الشيخ الشعراوى

يوجد بالقرب من باب الشعرية، وهو من الأقطاب، ومدفون فى جامعته، ومناقبه لا تقع تحت حصر، ومؤلفاته تروى على ألف مجلد ومنزلتها لا تسامى فى علم التصوف. وكتابه «طبقات الشعراوى» و«ميزان الشعراوى» رينة الدنيا. وضريحه يزوره العوام والخواص.

مزار السلطان أيك التركمانى

يوجد فى حى الخلالين بالقرب من سوق الغنم، وهو على الطريق العام، ولا قبة له إلا أن - جوانبه الأربعة محاطة بجدران من الرخام الأبيض. وعلى الرخام كتابات بنمط من الخط الكوفى يعجز علماء فاس ومراكش عن قراءتها، وهو خط بديع الزينة. والسلطان أيك هو زوج شجرة الدر التى أوقفت الكسوة السوداء الحريرية للكعبة، وكان لها الملك فترة من الزمن، وكانت ملكة عظيمة الشأن. واقتضت حكمة الله أن يكون الملك لأيك على أثر تفشى الثورة. واتفق ذات يوم أن تقسم شجرة الدر على أيك، وبينما كان أيك يغتسل فى الحمام انتهزت شجرة الدر هذه الفرصة فأمرت جواربها بأن يعملن السيف فيه فى غفلة منه وقد أئختته الجراح فى عدة مواضع من جسمه. ولما كانت شجرة الدر سفاحة تحب رؤية الدماء كانت تسترق النظر إليه وهو يضرب بالصفيوف من ثقب رجائى فى أعلى قبة الحمام، بيد أن أيك التركمانى كان شجاعا فاجذب السيف من يد إحدى الجوارى. وكان عارى الجسم تماما، وما أن رأت شجرة الدر أيك يشحن القتل فى جواربها وينجو بادرته بالفرار بكل ما أوتيت من قوة من فوق قبة الحمام فهوت بها لفرط بدانتها وسقطت أمام أيك التركمانى مدرجة فى دماها وسرعان ما قتلها أيك وهو يصب عليها اللعنات. ومات أيك كذلك متأثرا

بجراحه، وهو مدفون في هذا المكان ودقنت شجرة الدر مع من قتل أليك من جواربها داخل الجامع الذي في ذلك المكان.

إلا أن قبر شجرة الدر معمور وله كثير من الأوقاف، فقد كانت شجرة الدر امرأة تتقلب في أعطاف النعيم، ولم يحظ أي سلطان من سلاطين السلف بكسوة الكعبة الشريفة بالحرير الأسود، ولكن هذا تيسر لشجرة الدر، وخصص في كل عام مائة وسبعون كيسا من أوقافها للإنفاق على هذه الكسوة التي ترسل إلى مكة المكرمة. وهذه الكسوة ينسجها ثلاثمائة نساج من الحرير والذهب في جوسق يوسف وهي جديرة بالمشاهدة.

ومزار القاضي (١) في القرافة الصغرى، وهو قطب عظيم.

قبر المستنصر بالله

أول من كان له الملك في مصر من خلفاء بني العباس. لقد استشهد آل عباس عن آخرهم على يد هولاكو الترى وأعمل السيف في أهل بغداد جميعاً وعندما سوى أبنية بغداد بالأرض هدمها وجعلها خرابا يابا كان المستنصر بالله في بادية العرب فكتبت له النجاة، ولما أفضت الخلافة في مصر إلى الظاهر بيبرس دعا المستنصر بالله إلى مصر وفي عام ٦٥٩ كانت الخطبة والسكة باسمه، ثم رد مصر إلى الظاهر بيبرس وتوجه بيبرس إلى دمشق في معية الخليفة المستنصر، ومضى الخليفة منها إلى بغداد حاضرة أسلافه واستقل الظاهر بيبرس بمصر ودمشق وحلب، إلا أن السكة والخطبة كانت باسم خلفاء بني العباس. ولما بلغ المستنصر بغداد تنفس العباسيون الصعداء، وقدم المتوكل على الله إلى مصر، وهو الخليفة العباسي السابع عشر، وسكن القصر الذي بنى للمستنصر في قلعة الكيش، فكانت الخطبة والسكة باسمه، إلا أن مقاليد الحكم كانت في يد الظاهر بيبرس، ثم توفي المتوكل عام ٦٦٦ وهو مدفون في ضريح ذي قبة أمام قبة السيدة نفيسة.

(١) يياض بالأصل.

مشهد الحاكم بأمر الله

كان في طور الطفولة في البداية على عهد هولاكو، وفر إلى مصر، وظل في قلعة الكيش في مصر خليفة طوال إحدى وأربعين سنة، واشتهر بالسفه في سلوكه، حتى إنه أنشأ مرصداً فوق الصخرة التي أمام قدم النبي ليجعل الليل نهاراً والنهار ليلاً فإذا خرج أحد في وضح النهار من داره قتله، فكان الناس يتامون نهاراً على أن نهارهم ليل وإذا ما حل المساء ازدانت القاهرة بالمصابيح واشتغل الناس بالبيع والشراء وكأنه النهار. ولقد أمهله الله إحدى وأربعين سنة على هذه الأحوال الغريبة والأطوار العجيبة وفي آخر الأمر قتله أخته في إحدى القرى ودفنوه إلى جوار السيدة نفيسة، واستقر جثمانه هناك إلى يومنا هذا.

وقد أقام الحاكم بأمر الله الجامع الكبير الموجود في باب الناصر، وملاً الجامع الأزهر بروث الخيل ودعا الناس إلى جامعهم وعين لكل منهم رقيقاً وصحناً من الحساء، إلا أنهم صدوا عن جامعهم، وتابعوا دروسهم وصلاتهم وسط الروث الذي كان موجود بالجامع الأزهر، إلى أن أهلكه الله فظهروا الجامع الأزهر وهو إلى يومنا هذا ينفص بطلبة العلم، ولا يؤم جامع الحاكم الآن إلا قلة من الناس، لأنه بنى ظلماً ولا تطيب الصلاة لمن يصلون فيه.

قبر الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي بالله سليمان

استوى على عرش الخلافة عام ١٢ وأدركته الوفاة في عهد الملك الصالح ابن الملك الناصر بالطاعون عام ٧٥٣ ودفن كذلك بجوار السيدة نفيسة.

مشهد المقتصد بالله بالقرب من السيدة نفيسة

مشهد المتوكل على الله محمد بن المقتصد بالله أبو بكر

تولى الخلافة عام ٧٨٥. آلت الخلافة إلى السلطان برقوق الشركسي وطالب بالسلطنة لذا خلع المتوكل وحبسه في قلعة الجبل، وبعد ست سنوات أطلق سراحه وجعله خليفة.

وفى عام ٧٩٧ كانت الخلافة لبايزيد فى بلاد الروم (الأناضول). فأرسل رسولا إلى المتوكل تبركا وتيمنا واستاذن منه فى تجديد البيعة، وأرسل المتوكل كذلك إلى السلطان بايزيد يلدريم سجادة ومصحفا وجوادا وشاة ومرسوما. وعندما توثقت الصلة بين المتوكل وبايزيد يلدريم، خان استقل الأخير ملكا، وأغار كالصاعقة على بلاد الكفر، وقرأت الخطبة باسمه فى سبعمائة مكان.

ومن ناحية أخرى دام حبس المتوكل على الله وعزله وعودته إلى الخلافة خمسا وأربعين سنة، ثم توفى فى عهد السلطان فرج بن برقوق ودفن كذلك بجوار السيدة نفيسة - رحمه الله -.

والواقى بأمر الله عمر بن إبراهيم بن المستمسك بالله بن الحاكم بأمر الله دفن فى قبر عظيم بالقرب من السيدة نفيسة عام ٧٨٨.

مشهد المقتصد بالله داود بن المتوكل على الله محمد

أنته الخلافة عام ٣٢، حمل على دمشق مع السلطان جقماق وفتحها، وعندما عاد إلى مصر منصورا مظفرا توفى المقتصد بالله عام ٨٤٥، وسعى حقماق فى جنازته حاملاً جثمانه على كتفيه حتى السيدة نفيسة وهو يبكى أحر بكاء، ودفنوه فى ضريح الخلفاء أمام السيدة نفيسة لأن هذا الضريح كان المثلوى المبارك لخلفاء بنى العباس العظام، وفى ذلك المقام الشريف دفن مئات من ملوك السلف وآلاف من الأمراء أنمحت آثارهم فيه.

مشهد المستكفى بالله سليمان بن المتوكل على الله محمود

ألت إليه الخلافة بعد أخيه المقتصد، ولم يمهل الموت إلا تسعة أشهر وسعى الملك الظاهر جقماق فى جنازته ودفن إلى جوار أخيه المقتصد بالله بالقرب من السيدة نفيسة.

مشهد المستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله محمد

دامت له الخلافة خمسة وعشرون عاما وتوفى عام ٨٨٤ وسعى فى جنازته السلطان قايتباى ودفن كذلك فى السيدة نفيسة، وعندما فتح السلطان محمد اسطنبول بلغه نعى

المستجد بالله فأخذه شديد الأسى وأرسل برهان الدين المغولى خليفة آق شمس الدين ومعه ستر مزركشا من مال الغزو وبه ستر ثابوته الشريف وهو مستور إلى يومنا هذا به. إنه ستر بديع الصنع منقطع الشبيه.

مشهد المتوكل على الله عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله

آلت إليه الخلافة عام ٨٨٤، وبقي فيها تسعة عشر عاماً، وفي عام ٩٠٣ على عهد السلطان قايتباي توفي السلطان الناصر محمد^(١) والمتوكل في اليوم نفسه ودفنوا المتوكل بجوار السيدة نفيسة، أما السلطان محمد فدفنوه في مصر العتيقة.

إلا أن المتوكل هذا كان خليفة بلغ من الكبر عتياً حتى إنه أدرك عهد السلطان سليم فاتح مصر وطابت صحبته وانعقدت بينهما أواصر اللفة واصطحبه إلى اسطنبول ونزل المتوكل ضيفاً على قصر بيرى باشا، وقضى الله بأن يموت السلطان سليم، فانعقدت بينه وبين سليمان مودة وألفة.

نمى إلى المتوكل نعى أبيه من مصر فأذن له سليمان بأن يكون خليفة في مصر، وقبل يده أمام الشيخ أبى السعود، وعين بلاق مصطفى باشا قائد أسطول عظيم، فقدم مع المتوكل من اسطنبول إلى الإسكندرية وألقت السفينة مراساتها بعد سبعة أيام في الإسكندرية ودخل القاهرة بعد ذلك بيومين واستقبله داود باشا والى مصر ومضى به إلى قلعة الكيش في موكب عظيم حيث عرش أسلافه واستوى المتوكل على سرير الخلافة ودامت خلافته ثلاثة وعشرين عاماً وأدركته الوفاة عام ٩٠٥ في عهد داود باشا ودفن بجوار السيدة نفيسة.

وبوفاة المتوكل هذا انقضى من كانوا بمثابة خلفاء بنى العباس في مصر، وعددهم سبعة عشر خليفة ودامت خلافتهم (٢) سنة.

إلا أن خلفاء مصر من بنى العباس كانوا في منزلة شيخ الشيوخ وكانت الخطبة والسكة باسمهم إلا أن أرملة الحكم كانت في يد سلاطين الجراكسة وكانوا يدبرون

(١) مات مقتولاً في ١٥ ربيع الأول سنة ٩٠٤ هـ، والله أعلم.

(٢) يياض في الأصل.

كل الأمور أما هؤلاء العباسيون فكان لهم القبول دون العمل وكانوا يبايعونهم ولهم منزلة رفيعة.

ومشهد المستمسك بالله كذلك بالقرب من السيدة نضيسة

مراقد سلاطين مصر بداية من صلاح الدين يوسف بن شاذ الكردي من آل أيوب سبعة سلاطين، وفي عام ٥٧٢ عندما كان صلاح الدين يوسف وزيراً لنور الدين الشهيد في دمشق استقل بملك مصر، وأوجس خيفة من نور الدين الشهيد فبنى قلعة مصر الداخلية والخارجية وأحاط القاهرة بسور يبلغ طوله تسعة وعشرين ألفاً وثلاثمائة ذراع، وأقام بالقرب من الإمام الشافعي مدرسة.

وفي عام ٥٧٥ دارت رحى الحرب بينه وبين الصليبيين في مرج العيون وألحق الهزيمة بالفرنجة. وفي عام ٥٨٩ دفن بالقرب من جامعته في القاهرة. يقول البعض إنه دفن في دمشق وهذا مجاف للحقيقة وتاريخه مطبوع في ذاكرتي.

مشهد الملك الكامل

دفن بجوار دار الحديث بمدينة القاهرة، وله كثير من المؤسسات الخيرية في الإمام الشافعي.

مشهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون

ضرب الحصار على عكا أربعة وأربعين يوماً وانتزعها من يد الأسبان، وبعد انتصاره قفل راجعاً إلى مصر وكانت وفاته فيها، وهو مدفون في ضريح ذي قبة في ساحة جامعته.

ومشهد الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف في سقف جامعته، أما أخوه الملك الأفضل فكانت له الخلافة (الملك) قبل الملك العزيز إلا أنه خلع لخيشته ودناؤه ونفى إلى دمياط، وفيها كانت وفاته، وحملوا جثمانه إلى القاهرة حيث دفن إلى جوار أخيه الملك العزيز عثمان.

قبر الأشرف الأيوبي

سماه المصريون العبد الدمشقي، ولأنه كان كَسلا جهولا كثر من يناشونه العداء من كل جهة، وفي عهده تنازل عن القدس للأسبان والفرنجة صلحا. وفي عام ٩٣٥ توفي في دمشق وهو في الستين من عمره وحمل جثمانه إلى مصر ليدفن في جامع.

مشهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد

أدركته الوفاة في مدينة المنصورة وهو مدفون في ساحة جامع بالقاهرة. وقد أقام مدارس للمذاهب الأربعة في «بين القصر»، كما أقام قلعة جزيرة الروضة إلا أن فيضان النيل خربها، إلا أن آثار أبراجها ما زالت ماثلة للعيان في ناحية أم القياس في الجهة المطلّة على الجزيرة.

مشهد الملك المعظم طوران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب

وطوران شاه هذا كان أميرا للجيش في حصن كيفا عندما توفي والده نجم الدين أيوب في مدينة المنصورة، وكان طوران شاه في حرب مع العجم. وطوران شاه ابن شجرة الدر زوجة نجم الدين أيوب، وبعد أن توفي نجم الدين كتمت شجرة الدر خبر وفاته عن الناس بحسن تدبيرها وسداد رأيها، وأبلغت نعيه ابنتها الملك المعظم طورانشاه مرآ، فقدم مصر على عجل وبلغ القاهرة في أربعين يوما، وعندئذ أميط اللثام عن وفاة والده وباع جميع الأعيان الملك المعظم، واستقل بملك مصر، وعندئذ سرعان ما استولى الصليبيون على مدينة دمياط.

وفي عام ٦٤٨ أباد طوران شاه الفرنجة عن آخرهم وفتح دمياط ثم عاد إلى القاهرة وشن مماليكه عصا الطاعة وقتلوه في قصره.

دامت سلطنة طوران شاه سبعين يوما ودفن بجوار أبيه في القاهرة ودالت به دولة الأيوبيين وأفضى الملك إلى أمه شجرة الدر، ودام حكمها سبعين يوما كذلك، ثم أفضت الخلافة إلى زوجها أليك التركماني وقد ذكرنا وقائعهما آنفا.

ثم آل ملك مصر إلى ممالك نجم الدين أيوب وعصره بداية عهد المماليك.

وفى الطريق بين دمشق ومكة المكرمة بركة الملك المعظم طوران شاه وهى من خيراته ولا نظير لها فى طريق عام. حقا إنه ملك خير معظم.

والملك أسد الدين شيركوه شاد الكردي دفن بجوار جامع الأشرفية فى مصيف قايتباى، والسلطان المؤيد من عند الله مدفون فى ساحة جامعته بالبواب الحديد.

وفى الباب الحديد الأضرحة الأربعون وهى أسفل جامع السلطان المؤيد، إنها أضرحة عظيمة خلف الباب الحديدى، وهى الآن مقام شريف لا يخلو من المتصوفة.

وعلى مقربة من جامع المؤيد ضريح الملك المظفر أبى السعادة خامس سلاطين الجراكسة وكان ملكا عادلا.

وفى القرافة المنحوتة ضريح الملك الطاهر أبى الفتح التتري، وهو سادس سلاطين الجراكسة ووفاته كانت عام ٨٢٤، وعلى عتبة ضريحه العالية تاريخ تعلوه عبارة: (فاتح حلب الشهباء) والملك العزيز ابن الملك الأشرف، وكذلك الملك جمال الدين، مدفونان إلى جوار الملك الأشرف فى جامع الأشرفية. والملك العزيز عماد الدولة بن صلاح الدين يوسف مدفون بجوار الإمام الشافعى. والملك معز الدين من نماليك آل أيوب مدفون فوق سد على طريق مصيف قايتباى وفاته كانت عام ٣٦٥. وبانى الجامع الأزهر من صلب مال المعز لدين الله هذا، وفى عام ٣٦١ خرج المعز لدين الله هذا من بلاد المغرب متعللا بالجامع الأزهر وانتزع مصر من يد الإخشيديين وقهر أناسا من شعبيها، ولأن أهل مصر القاهرة عتاة جبابرة أرضى المذهب سميت القاهرة المعزية.

وأزهر ماى بورنوى مدفون بالقرب من جامع الأزهر، وأخو يوسف صلاح الدين الذى بنى قصور الوزراء هو الملك سيف الدين بن أبى بكر بن أيوب، ولكن بما أنه كان عاشقا ولهان دخله الغضب ذات يوم وضرب تحت أذنه بقبضته فجرى الدم من أسفل أذنه ومات، وهو مدفون بجوار عمر بن الفارض وقد انهدمت بعض جوانب ضريحه.

مشهد طومانباى والسلطان محمد ابن السلطان الغورى

إنه السلطان طومانباى الذى حارب السلطان سليم، ولقد لقي السلطان الغورى حتفه فى حربه مع السلطان سليم، فخلفه ابنه السلطان محمد وهو قاصر، وما كانت له الحنكة والدراية بفنون الحرب، ولذلك تمرد عليه الجند وخلعوه وأحلوا محله السلطان طومانباى.

وقد سبق لطومانباى أن حارب سليما فى اثنين وأربعين معركة إلا أن الهزيمة لحقت به فى النهاية وولى هاربا وقبض عليه فى جبال صعب بالفيوم بعون بعض عرب البحيرة وصلبه سليم على باب زويلة فانتهدت الفتنة والفساد ولكن أدركت سليم الرحمة عليه فأمر بغسل جثمانه وشيعه حتى العادلية. وإلى جوار طومانباى دفن السلطان محمد بن الغورى، وفى عام ٩٢٢ كتب تاريخ وآية الكرسي على تابوته الرخامى.

مزار الشيخ ذى النون المصرى

دفن فى ضريح مستقل بالقرب من ضريح الشيخ عقبة الجهنى فى ظل جبل المقطم. ولد ذو النون المصرى فى شرق مدينة أحميم وكان قبطيا من خواص المقوقس ملك مصر، وقد أوفده المقوقس مبعوثا من قبله ومعه جاريتان إحداهما السيدة مارية وهى أم إبراهيم ابن النبى (صلى الله عليه وسلم) وبغلة وسيف.

وقد أهدى النبى (صلى الله عليه وسلم) السيف والبغلة المسماه «لدل» وهما هدية المقوقس إلى سيدنا على كرم الله وجهه، والسيف الذى أهده هو سيف المقوقس واسمه «ذو الفقار»، وأهدى إحدى الجاريتين إلى الشاعر حسان بن ثابت وقد أنجبت له ولده الأكبر عبد الرحمن بن حسان.

وعندما أوصل ذو النون هذه الهدايا إلى النبى ﷺ لم يَقْوْ على كبت محبة للنبى ﷺ فأسلم من أعماق قلبه ودخل فى زمرة الصحابة الكرام وأصبح شيخا لمهرة الأطباء، وبلغ مبلغ فيثاغورث التوحيدى فى علم الطب، وكان عالما شاعرا، وتلقى تعاليم التصوف على يد على بن أبى طالب، وتضلّع من العلم الدنى، وسلسلة الأطباء تنتهى إليه.

وفى عهد خلافة عمر نازعته نفسه إلى وطنه فمضى مع عمرو بن العاص واستشهد فى فتح مصر، ودفن فى تراب مسقط رأسه فكل شيء يرجع إلى أصله.

ضريح الشيخ أبى السعود الجارحى

يقع خارج الجهة الجنوبية لمصر القاهرة على مسافة ألف وستمائة قدم منها، وهى قصبة بها ما يقرب من ستمائة منزل وجامع وزاوية وتكية وسبيل. والشيخ الجارحى مدفون فى تابوت مغطى بالجوخ الأخضر، وهو داخل ضريح ذى قبة عالية وسط هذه القصبة.

والشيخ أبو السعود الجارحى أحد من نادوا سليم قائلين «تعال يا سليم إلى مصر». ويحتشد جميع فقير من الناس فى ضريحه كل عام للاحتفال بالمولد النبوى. إنه مزار يؤمه العوام والخواص والنساء. ومن يمسح عتبه بوجهه هم العارفون بالله.

مشهد رأس الإمام الحسين

ابن الإمام على بن أبى طالب. رضى الله عنهما.

بالقرب من خان الخليلى

ولد فى اللحظة التى استشهد فيها سيدنا حمزة - رضى الله عنه - فى غزوة أحد. ويقول بعض المؤرخين إنه ولد قبل الهجرة النبوية الشريفة وعاش ستة وخمسين عامًا. تنازل الحسين عن الخلافة ليزيد بن معاوية عن رضاء وطواعية، ولأنه لم يبايع يزيدا وجه إليه. قادته عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد وغيرهم من دمشق، ونشبت الحرب فى صحراء كربلاء مع مائة ألف بلاء واستشهد أميران من أبنائه وأربعة أخوة وأولاد أحد إخوته وخمسة من أبناء عمومته، وعشرون ألفا من الصحابة الكرام فى يوم عاشوراء من سنة (٦١هـ) للهجرة وهم جياع عطاش، ثم استشهد الإمام الحسين وحملوا رأسه الشريف إلى يزيد فى دمشق فابتهج لذلك كثيرا وأرسل الرأس إلى معاوية بن جريح فى مصر، وقام هذا اللعين بالتمثيل به فى ميدان مصر القاهرة، وكل من ركل هذا الرأس الشريف بقدمه من جابرة الفراغة تورمت قدمه وأصبحت وكأنها القربة. والآن تورمت أقدام عدة آلاف فى مصر.

بعد ذلك قضى الله بأن تقطع إحدى النساء رأس أحد أبنائها ووضعت فى الميدان، واحتفظت برأس الإمام الحسين حتى إذا عزل عامل يزيد على مصر وتولى مكانه عامل

مؤمن ورع من محبي أهل البيت فأمر تلك السيدة بإظهار رأس الحسين، ودفعته في مشهده الموجود الآن، ثم أولاه - المقتدر بالله ومن جاء بعده من خلفاء بنى العباس اهتماما عظيما فأقام عليه بناء عظيما وقبة ودفن الرأس الشريف في تابوت مكسو بالحرير المزركش وسط هذه القبة. ويزدان هذا الضريح بصنوف المباخر وأوعية ماء الورد والشمعدانات والقناديل، وكأنه الجنة العالية والجامع السلطاني. وبما أن هذا المشهد في حجم الكعبة الشريفة يلف حول أعمدته كسوة الكعبة الشريفة لقياسها.

إنه مشهد يزار ليل نهار. وفي سفح جبل المقطم المعروف بجبل الجوشى:

مزار سلطان العاشقين

سيدى الشيخ عمر بن الفارض الحموى المصرى

كنيته أبو حفص واسمه الشريف عمر، من قبيلة بنى سعد. وله قصيدة بليغة تسمى «التائية» يعجز فحول الشعراء عن قرض مصراع مثل مصراع فيها. حتى إن محبى الدين بن عربى فى دمشق أرسل إلى عمر بن الفارض يستأذنه فى أن ينظم لها نظيرة. فقال عمر بن الفارض لمحبى الدين بن عربى إن كتابك المسمى «الفتوحات المكية» نظيرة لهذه «التائية». إنها قصيدة بليغة إلى حد جد بعيد، وعندما ينشد المتصوفة بيتا أو بيتين منها كل يوم جمعة فى ضريحه يغيبون عن الوعى فى نشوة الوجد. إنه ضريح عظيم، وتكية عظيمة، ومبرة، وفيه متصوفة وجميع أوقافه من أوقاف الملك الكامل، لأن عمر بن الفارض توفى عام ٦٣٢ فى أواخر عهد الملك الكامل.

وفى كل يوم جمعة يُقَصُّ جامعهم بالناس حتى إذا قدم أحد لم يجد له موضعا، ومع ذلك يجسد له مكانا بأمر الله، وكرامة له، ويجسو كل منهم على ركب بعضهم خواصهم وعوامهم، ولا يستتكف أحد من ذلك وقد اجتمعت قلوبهم خواصا وعواما. يا لها من حكمة عجيبة. ولا وجود لمثل هذا الجو الروحى فى أى تكية أخرى ويقول جميع علماء مصر إن روح النبى (صلى الله عليه وسلم) تحضر فى كل يوم جمعة فى هذه التكية، كما تحضر أرواح سائر الأنبياء وهذا ما اصطلاح عليه جميع مشايخ مصر. - راحة الله عليه -.

مزار الشيخ الجوشى فوق جبل الجوشى

له جامع وتكية وعدة بيوت وهو مدفون فى ضريح صغير ذى قبة فى الجهة اليسرى من جامعته وهو ضريح جد بديع، أعلى جبل المقطم وهو على مسيرة يوم من مصر القاهرة فيما يحيط بها من الصحارى. وتحت هذا الجبل كهوف تربو على الآلاف بها عدة آلاف من المتصوفة وصلحاء الأئمة ممن لم يهبطوا القاهرة قط. وهم أهل حال وأصحاب مجاهدات قوامون ليلاً صوامون نهاراً، منهم:

الشيخ محمد الغمراوى الذى يجاهد نفسه ويفطر يوماً فى الأسبوع، فهو سلطان فى ركن عزلته، وردى البشارة.

والشيخ على المغربى يسكن كذلك إحدى المغارات وهو نحيل ضئيل، إلا أن زواره يقدمون له الطعام، والهدايا، ولا يصيبه منها إلا النذر اليسير، وهو مع ذلك لم يشاهد متبولاً ولا متغوطاً، وتفوح رائحة الزعفران من مغارته على الدوام - سلمه الله -.

وفى غار آخر كذلك الشيخ رجب شاه وانى الذى لم يخرج من غاره منذ ثمانية وأربعين عاماً قضاها فى التنسك وتلاوة القرآن، إنه راهد زائع الصيت بتقواه، فقد جاءه أحد الرهبان ونجراً قائلاً: «فلنعتكف أربعين يوماً بلا طعام»، وظلا فى الغار سبعة أيام بلياليها أراد الراهب بعدها أن يخرج من الغار لقضاء حاجة عرضت له فمنعه الشيخ رجب شاه وانى من الخروج من الغار، وسد خداه باب الغار، فمكثا فى الغار. وفى اليوم الثامن عشر هلك الراهب من الجوع، وأخرجوا جثمانه من الغار، أما الشيخ رجب شاه فقد أكمل الأربعين يوماً بلياليها دون أن يتناول حبة من قمح. كان الشيخ رجب حافظاً للقرآن الكريم.

وبالقرب من ضريحه يوجد ضريح الشيخ معصوم البلغرادى وهو رجل عاقل من الشعراء البلغاء وله ملكة حسن الخط، كان يتعيش منها على الكفاف، كان مداوماً على صيام داود، كما يقيم كل من الشيخ محمد الفرسكورى والشيخ مردى الطربزوى فى غار واحد، معتكفين عن الناس، ولا يعلم أحد من أين يحصلان على قوتهما، سلمهما الله، ونحمد الله أن شرفنا بمقابلتهم والحديث معهم، ودعائهم لنا بالخير. وما عرفناه منهم من كلمات الأسرار لا يمكن البوح بها باللسان.

وهناك المئات من العارفين الذين يسكنون أركان تلك المغارات ونسأل البارئ أن يرفع من قدرهم، ولو أننا قمنا بتدوين ما دار بيننا وبين كل واحد منهم لصار كتاباً مفصلاً.

وأسفل هذه المغارات يقع غار الشيخ عبد الله المغاورى، وهو غار عظيم موسوم بعموده الكبير الذى يشبه الجبل لو دخله شخص لتملكته الخيرة والدهشة من اتساعه، إذ يتسع لعشرة آلاف رأس من الغنم، وفى نهايتها ضريح عبد الله المغاورى وكان سلطاناً له قدرة على التسخير، فكان يذهب إلى الحج فى كل عام ويرى الآلام التى تتكبدها أمة محمد ﷺ فى الطريق من شدة الحر، وكان له صاحب من الجن، أمره عبد الله المغاورى بأن يخترق الجبال والكهوف الواقعة على الطريق بين مصر ومكة ويشقها لتخلص عباد الله من شدة الحر، فشق الجنى أولاً مغارة عبد الله المغاورى. حقيقة إن هذا الصنيع ليس من مقدور البشر، ولم يسر البارئ - عز وجل - إتمام هذا العمل، فقد توفى المرحوم الشيخ عبد الله المغاورى ودفن فى فناء هذا الغار، كما أن أربعين من كبار أولياء الله مدفونين معه فى هذا الغار لكننا لا نعرف أسماءهم الشريفة ولهم مريدون، ومكتوب على باب هذا الغار عبارة (أمر بإنشائه مولانا الملك المظفر الظاهر بيبرس) لكنها مكتوبة فى مكان شديد الارتفاع، وفى أركان هذا الغار يقيم المريدون جماعات جماعات.

وعلى مقربة من هذا الضريح توجد أضرحة أخوة يوسف الصديق يامن وابنه إفرام وصارير بن يهودا وعزيز مصر وزليخة والملك الريان.

وعلى مقربة منها مقام النبى موسى - عليه السلام - وهو مكان للعبادة، وملحق بهذا المقام ضريح الشيخ عيسى أحد أبناء الشيخ عيد القادر الجيلانى، وهو رفيع المقام يسكنه بعض مريدى الطريقة القادرية.

وبحافة جبل المقطم - أى فى نهاية القرافة الكبرى - يوجد مزار الشيخ السادات المغربى، وهو تكية كبرى تضم جامعاً وتكية وعمارة وغرفاً للمريدين، إنها تكية عامرة، ومدفون فى مصر من أحفاد وأبناء الشيخ السادات أربعون شخصاً يقام لهم احتفال مرة كل عام فى النصف من شعبان حيث يفد مائتا ألف شخص بالخيام الصغيرة والكبيرة

ويمكنون هناك اثنا عشر يوماً بلسياها، وفي الليل يضيئون مئآت الآلاف من القناديل ويذكرون الله، وقد توسط المكان الشيخ أبو التخصيص «صاحب السجادة» يقدم الخبز للزوار ويعطى لكل واحد منهم كنية أى لقب. ثم يضعون على صدره الشال الكشميري أو عمامة الرضا البيضاء، ويباعونه لأن طريقتهم الطريقة الوفاية التى تنتهى برسول الله ﷺ، إنها تكية عظيمة قدّس سره.

وبالقرب من هذه التكية مزار أبو السعود العشائر وقد ضم ولاية مصر أوقاف تلك التكية إلى الاموال الاميرية ولهذا خلت من المريدين، ويجوار جامع السلطان حسن يوجد ضريح الشيخ أحمد الرفاعى، والشيخ وكل أبنائه مدفونون فى هذا الضريح، إنها تكية عامرة مريدها كثير، وهم على الطريقة البرهانية، وخلفاءهم يعمّون بعمامة عباسية سوداء، ويحملون راية بيضاء، ولهم مولد عظيم يقام مرة واحدة فى السنة.

وبالقرب من سويقة الدلال يوجد جامع قطب الآفاق وشيخ الشيوخ على الإطلاق الشيخ شمس الدين الحنفى، وهو سلطان عظيم مدفون فى قبة عالية بالجانب الايمن من الجامع المذكور، وهى تكية عامرة بالمشايخ والمتصوفة. وفى فناء الجامع شجرة سدر، وفى يوم الاربعاء من كل أسبوع يأتى الآلاف لزيارتها، قدّس سره العزيز.

وفى الناحية الأخرى من النيل المواجهة لمصر القديمة، والجانب الغربى من قصبة الجيزة يوجد ضريح الصحابى الجليل أبو هريرة - رضى الله عنه - الذى روى الأحاديث الصحيحة عن النبى ﷺ، كان النبى ﷺ يحبه حباً شديداً وقد لقبه النبى بأبو هريرة لفرط حبه للقطط وقد قال النبى ﷺ: «حب الهرة من الإيمان»^(١)، وأبو هريرة من قبيلة دوس، وعندما كان خالد بن الوليد قائداً على غزوة الشام كان أبو هريرة قائداً على قبيلة دوس المذكورة فى تلك الغزوة، وفتح القدّس الشريق مع عمر بن الخطاب وعندما كان

(١) ذكره الصّغاني فى كتاب الموضوعات برقم (٨٣) ص ٤٧.

وقال الإمام على القارى فى كتاب «الموضوعات الكبرى» ص ١٨٢ - ١٨٣ بأن الحديث «موضوع كما قال الصّغاني وغيره. وقد بسطت عليه بعض الكلام فى رسالة مستقلة لتحقيق المرام».

ووافقه أيضاً فى الحكم على هذا الحديث بالوضع المعجلونى فى كتاب: كشف الحفاء ١/٤١٥، والشيخ محمد الحوث البيروتى فى: أسنى المطالب ص ٩٢.

يقاتل فى غزوة مصر مع عمرو بن العاص جرح فى خده وعبر إلى ناحية الجيزة واستشهد هناك، وقد بنى عمرو بن العاص ضريحاً له داخل بستان عامر بالنخيل والأشجار، وفى تكيته الآلاف من القبط والهرر، وفى مصر إذا ما ضاق أحد من هرتة فإنه ينقلها إلى تكية أبو هريرة لذا لا يعلم عدد تلك القبط الموجودة هناك إلا الله، وهو الذى يطعمهم.

ذكر أوصاف مولد أبو هريرة

يقام المولد فى تكية أبو هريرة مرة واحدة فى السنة فى شهر يوليو، وحيث يصل كل الدعاة والصلحاء والأشراف بخيامهم وينصبونها فى الأماكن العشوشية من صحراء الجيزة ويذكرون الله ثلاثة أيام بلياليها ويشعلون مئات الآلاف من القناديل والفوانيس والمشاعل، ويحضر الزوار بالخيام وتحمل مئات الآلاف من الزوارق والقوارب الزوار بخيامهم، ويصبح الجمع عظيماً وكأنه عيد خوارزم شاه. ولا يوجد تجمع كهذا فى أى مكان آخر فى شهر يوليو سوى فى هذا المكان، هذا بالإضافة إلى وجود عين فى الجانب الشرقى لنافذة ضريح أبو هريرة تدفق منها المياه الصافية ويطلقون عليها «عين الهرة» لصفائها كعين الهرة، وقد نبتت تلك العين كرامة لأبى هريرة، ويشرب منها مئات الآلاف من القبط الموجودة فى تكية أبو هريرة ويدفعون بها جوعهم وعطشهم بأمر الله، ويعيشون عليها حيث لا غذاء لهم سواها، وفى شهر يوليو تجرى المياه فى تلك العين حمراء اللون لأنه عندما جرح أبو هريرة فى غزوة مصر وسقط دمه على الأرض جرى الماء دمًا من تلك العين لمدة أربعين يوماً إلى أن فاضت روحه صار الماء أبيض صافياً مرة أخرى، وإلى الآن تجرى المياه فى هذه العين من شهر يوليو وحتى أيام المولد حمراء، وإذا ما شربت النساء والحائضات منه ينقطع عنهن الحيض، وفى أيام المولد تجرى المياه بيضاء بأمر الله، حيث يجتمع السادة والمتصوفة وحملة المشاعل عند هذه العين ويدعون الله فتجرى المياه بيضاء عذبة. فيشرب شيخ تكية أبو هريرة أولاً ثم يقوم بملى الأباريق والجرار والأقداح ويقدم إلى وزير مصر وقاضيهما ونقيب الأشراف ومشايخ الإسلام

الأربعة وسائر أمراء مصر وتُرسل هدايا لكل أعيان مصر، حيث يشربون منه، ومنهم من يشربها بنية الشفاء. كما يحسنون بها على المتصوفة والمريدين الذين يجلبونها إليهم، وتشرب كل أمة محمد من هذا الماء، وبالرغم من أنه يتم ملئ مئات الآلاف من الجرار والاباريق من مياه تلك العين إلا أنها لا تنقص قطرة واحدة، وفي اليوم الثالث للمولد تصير مياه هذه العين كماء الورد ويُرسل منها إلى الشام وحلب وبغداد والبصرة وإستانبول تبركاً، حيث يكون طعم المياه حينذاك مثل ماء زمزم وطبيعته مسهلة، وهو دواء لسبعين داء مختلف، من يشرب منه مرة لن يصيبه مرض حتى السنة المقبلة بل إنه لن يحتاج إلى طبيب، ولكن يجب أن يُشرب بنية خالصة، فإنه عندئذ يدفع الدم الفاسد من الجسد والاختلاط الموجودة في الجسم والعرشة والبرص والجذام، وعادة ما تظل مياه العين المذكورة عذبة لونها أصفر براق حتى السنة التالية، ثم تتحول إلى اللون الأحمر في شهر يوليو وتظل على ذلك أربعين يوماً بلياليها، حتى يوم المولد حيث تنقطع المياه الحمراء فيه، وتجرى المياه الباردة وكأنها ماء الورد، وهي تجري على هذا المنوال إلى ما شاء الله، وفي هذا المولد الشريف يتم بيع ما يقرب من عشرة ملايين جرة وكوب وقصعة وذلك من أجل العين المذكورة، ولا يعلم حسابها إلا الله ويُباع في هذا اليوم أيضاً اللبن الرايب والسمن الجيزاوى، ولوجود جبال الأهرامات في تلك المنطقة يقوم خمسة أو عشرة أشخاص من زوار تكية أبو هريرة بالتجمع في مكان ما ويسدّون لمشاهدة جبال فرعون إما سيراً وإما على ظهور الدواب.

عبرة

في أيام مولد «أبو هريرة» وعلى مقربة من تكية في الجزيرة تخرج من باطن الأرض مئات الآلاف من عظام الشهداء الذين استشهدوا معه وتتحرك تلك العظام، ولكنى لم أر ذلك بعيني بل سمعته من رجال ثقات، وعندما كنت أعبر النيل بالركب إلى ناحية مصر القديمة شاهدت الأهالي يحملون في أيديهم بعض العظام وقالوا إنها أعضاء الشهداء وناخذها إلى بيوتنا تبركاً بها، وهذه حكمة إلهية للعبرة والعظة.

وعندما سألت بعض الرجال وعلماء الأهر عن ذلك قالوا إن العظام تكثر حقيقة في هذا اليوم ولا يعرف أصحابها، والبعض يقول عن تلك العظام أنها عظام القبط الذين تحاربوا مع الصحابة وقتلوا في تلك الحرب، ولأن قتلهم كان في شهر يوليو فإن الأرض تلفظ عظامهم حتى أن بعض القبط يحملون تلك العظام إلى منازلهم، لا يعلم الغيب إلا الله.

وبجانب الخليج في مصر قبر الشيخ (١) الخلوتي وهو مدفون في جامع له تكية ومشايخ ومريدين وعمارة، وتطل نوافذ الجامع على مياه الخليج الجارية وبفتاء الجامع شجرة سدر وحديقة بها أشجار، وقد ذكرت أوصاف الجامع سابقاً. ويدخل السوق السلطاني على مقربة من باب النصر يقع قبر عين الغزالي قدس سره، ويدخل قصر رئيس الحسبة بالقلعة العلوية يوجد قبر الشيخ عبد الله الأنصاري وهو من الصحابة الكرام وهو مدفون في تكيته.

ثم ضريح الشيخ (٢) ويقع داخل راوية وزير السلطان الظاهر بيسبرس بقصر اغوات الباشا الوالي بالقلعة.

وعلى مقربة منه تقع تكية الشيخ عبد القادر الجيلاني ومدفون بها الشيخ محمد الأنصاري، والشيخ أحمد المفتي، والشيخ عبد الله اليمنى الزيلعي والثلاثة من الصحابة الكرام وبالتكية بعض أتباع الطريقة القادرية، ويهب والى مصر لهذه التكية مع أوقافها أوقيتين من اللحم وعشر قطع خبز، كما يقدم الاغوات أيضاً النذور لهذا الضريح.

وبفتاء جامع سليمان باشا الخادم المجاور لغرف الانكشارية بالقلعة الداخلية يقع قبر الصحابي سارية الجبل، وسارية من كبار الصحابة الكرام كان قد سار على رأس أربعين ألف جندي لولاية العجم في خلافة عمر بن الخطاب، وقد انهزم سارية على يد العجم في قلعة نهاوند، وبينما كان عمر بن الخطاب يخطب الجمعة في المدينة المنورة رأى بعين الباطن أن القائد سارية انهزم في بلاد العجم، فنادى وهو على المنبر يا سارية الجبل (ثلاث مرات) ثم أكمل الخطبة، فتبسم بعض الصحابة وتعجبوا مما فعل عمر لأنه ينادي

على سارية وبينهما مسيرة ثلاثة أشهر، أما بعضهم فقد ظن أن في الأمر سرّاً لا يعلمه إلا الله، ومن حكمة الله سمع سارية ومن معه نداء عمر عندما نادى عليهم يوم الجمعة فاتسحبوا ناحية الجبل وقد جدد جند الإسلام نشاطهم خلف هذا الجبل وقتلوا العجم وانتصروا عليهم ثم جاءوا إلى المدينة المنورة سالمين غانمين وأخبروا أهل مكة والمدينة بالصوت الذي سمعوه يوم الجمعة فتابقوا بين التاريخين فتطابقا فازداد الناس حباً لعمر، وكان سارية ضمن الصحابة المرافقين لعمر بن العاص في فتح مصر وتوفى بها.

ويتكلم الشيخ سارية الجبل سبعين من الصحابة الأنصار مدفونين معه منهم الشيخ داود والشيخ قاسم والشيخ يحيى والشيخ إسماعيل والشيخ () (١).

وبجانب ضريح السيدة زليخة يقع ضريح أمنا آسيا امرأة فرعون وبالرغم من أنها كانت امرأة فرعون إلا أنها بأمر الله آمنت بموسى فقتلها فرعون وتوفيت بكرّاً، وبعض المفسرين يقولون بأنها ماتت بكرّاً لأنها ستزوج سيدنا موسى في الجنة، وقد بنى الملك طوطيس أحد ملوك القبط قبة على ضريحها وكتب عليه تاريخه باللغة القبطية، وأكثر زوار هذا الضريح من النساء.

وبالقرب من قبر يامن أخو يوسف في سفح جبل الجوشى يوجد ضريح عبد الله بن طاهر وهو من أكراد مدينة نصيبين، كان وزيراً للخليفة المأمون عندما جاء من بغداد إلى مصر، عندما أراد الخليفة المأمون أن ينقب في جبال الأهرام عام ٢٠٥هـ، لكي يستخرج الكنوز الموجودة بها، سقط حجر من الهرم الأكبر على عبد الرحمن بن طاهر فقتله ودفن بجوار ابن يامن. وقد بنى الخليفة المأمون قبة عظيمة على قبره والعديد من التكايا. وكتب على العتبة العليا للضريح: «أمير المؤمنين مأمون الزمان بن هارون الرشيد سنة ٢٠٥هـ».

وبقرية أبو صير الواقعة بالقرب من جبل الهرم الذي هدمه الخليفة المأمون يقع قبر الملك مروان الحمار^(١) وهو أحد ملوك بني أمية، وأنهم يفعل الأعمال غير الشرعية وقد تحارب على ضفاف نهر الفرات وقتل كل جنوده أما هو فقد فر هارباً إلى الشام مقر حكمه، ولم يستطع الاستقرار بالشام ففر هارباً إلى مصر وقد ظن أنه قد استقر في مصر في مأمن إلا أن أحد الجنود ويدعى عامر بن جرجابي قبض عليه وسلمه لعبد الله المازني الذي قطع رأسه وعلقها على رأس طريق وقتل كل من كانوا معه وخرج موكب عظيم من مصر برأس مروان الحمار ومر الموكب برأسه من غزة والشام وحلب وعُرفه^(٢) حتى وصلوا إلى ملاطية وهناك سلموا رأس مروان الحمار إلى الملك الناصر على طاهر، وأقيمت الاحتفالات وذلك لأن الملك الناصر انتقم من خصمه وحمد الله على ذلك فقد انقطع نسل يزيد الأموي عند مروان الحمار وقد أرسل الرسائل لكل سلاطين الإسلام يذكرهم فيها أنه انتقم لدم الحسين، والآن يرقد نعش مروان الحمار في قرية أبو صير تعلوه قبة منخفضة ويقوم بزيارته الذاهبون لمشاهدة الأهرام، وبعضهم يسبه ويقولون «مقام مذموم».

وبمصر القديمة يقع قبر الشيخ عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من الصحابة الكرام رواة الحديث، دفن في منزله بناء على وصيته أثناء فتح مصر.

وبالقرب من قبر الإمام الشافعي والإمام الليث يقع ضريح الشيخ جلال الدين السيوطي قدس سره العزيز، وقد ولد جلال الدين السيوطي في مدينة مزينة هي مجمع

(١) هو مروان (الثاني) بن محمد بن مروان بن الحكم كان يكنى أبا عبد الملك، ولي أمور دولة بني أمية سنة (١٢٧هـ)، وهو آخر ملوكهم، لقب بالحمار لا على سبيل السخرية أو الاستهزاء إنما على سبيل المجاز إشارة لقوة عضلاته وإعجاباً بصلابته، كما أن الحمار يمتاز بالصبر على الشدائد، وقوة الاحتمال. انظر خبره في: مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي لسيد أمير على، ترجمة رياض رأفت ص ١٤٥ وما بعدها ط. دار الأفاق العربية القاهرة ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، والمعارف لابن قتيبة الدينوري بتحقيق ثروت عكاشة ط. ٤ - دار المعارف ص ٣٦٩، والجزء السادس والسابع من تاريخ الطبري (في مواضع متفرقة)، وغيرها.

(٢) هي: أورفه.

الفقهاء والمفسرين تسمى أسيوط تقع على شاطئ النيل فى صعيد مصر العالى، وللإمام السيوطى مؤلفات تبلغ ٧٠٠ مجلد، وهو عالم ومؤرخ ومؤلفاته مشهورة فى الآفاق، وضريحه الآن مزار للعام والخاص.

وعلى مقربة من جامع ابن طولون الواقع فى قلعة الكبش التى يطلقون عليها «جبل يشكر» يوجد ضريحان داخل جامع السلطان الجولى مدفون بهما السلطان الجولى وأقاربه، وفى قبتي الضريحين نوافذ تطل على بركة الفيل، والحوائط الداخلية لهاتين القبتين مغطاة بالمرمر المصقول، المموج، وقد كتب على عتبة العليا تاريخ بنائه والآية الكريمة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧] وعلى أطراف الأضرحة المرمية نقش بتاريخ «سنة ثلاثة وسبع مائة» على الممرم بخطوط قديمة.

وبالقرافة الكبرى يوجد قبر الشيخ سيد حسين الأخلاطى، وهو سلطان عظيم، وعندما خلت سجاده جاء ابن قاضى سماونة أحد علماء السلطان يلدريم با يزيد، من بلاد العجم إلى مصر، على زمن السلطان فرج بن برقوق، ليصبح خليفة للشيخ سيد حسين الأخلاطى بإذن من السلطان يلدريم با يزيد، وكان يتقاضى راتبًا يوميًا يقدر بثلاثمائة قطعة من العملة المصرية، وابن سماونة هو الشيخ بدر الدين بن محمد بن إسرائيل بن عبد العزيز، وقد ذاع صيته بن علماء ومشايخ مصر فى ذلك الوقت، فقد ألف كتاب جامع الفصولين وكتاب عقود الجواهر، وهما من الكتب المعتمدة القيمة بين العلماء والطلاب، وقد توفى ابن سماونة فى مصر ودفن فيها وقبره مستور بجوار ضريح أبى الليث بالقرافة الكبرى، وقبره الآن مزار للعام والخاص.

وبجواره قبر إبراهيم الكلشنى الصارجانى، وهو من شعراء السلطان محمد خان أبو الفتح، فقد توفى أثناء قدومه من الحج.

وبجوار قبر عمر بن الفارض يوجد ضريح المتلا عتيقى.

وعلى مقربة من سويقة السباعين يقع ضريح الشيخ حمودة، وهو مدفون فى قبة صغيرة.

وضريح الشيخ يوسف العجمي، وهو على مقربة من الجامع الأزهر. وقبر الشيخ تاج الدين المتصل بسوق الغنم بالقرب من تكية السلطان ذك كيز، والشيخ تاج الدين من المشايخ العظام وله آلاف الكرامات.

وعلى مقربة من منزل الشيخ البكري يقع ضريح أولاد عنان قُدس سرهم جميعاً، وفي ناحية قطرة السبع خارج الباب الجديد ضريح الشيخ أبو البشر - رحمة الله عليه -، وضريح الشيخ إبراهيم اللقاني، وهما أفضل علماء مصر وقد درسا لعدة سنوات في الأزهر، وتوفيا في مصر بعد العودة من الحج عام ١٠٠٣هـ والشيخ بدر الدين القرافي والشيخ صالح البلقيني من أقارب الشيخ إبراهيم اللقاني، وهما مدفونان معه، وهما من كبار مشايخ مصر وضريحهما مزار.

وعلى يمين تكية الإمام الشافعي نجد تكية ابن الشيخ محمد البكري وهو من نسل أبو بكر الصديق، وقد انتقل هذا الشيخ إلى دار البقاء في شهر صفر من عام ١٠٩٧هـ عندما كان (١١) ^(١) باشا والياً على مصر، ودفن بجوار أجداده العظام وقد حضر جنازته مئات الآلاف من البشر، وقد خلفه على سجاده الشيخ أبو المواهب من أولاد مهترى، وقد جدد كل المتصوفة البيعة له، - عمره الله - وأصبح ناظرًا على كل أوقاف الشيخ زين العابدين كوجك جلبي، وله تكية عظيمة حفظه الله. ويحتفل في نصف شعبان بمولد أجداده العظام.

وبالقرب من تلك التكايا وبجوار الإمام الشافعي يوجد ضريح الغازي كرتباي، والغازي كرتباي هو أحد الجنود الشراكسة الشجعان الذي أقسم أن يقتل السلطان سليم خان أثناء قتاله مع السلطان طومان باي في صحراء العادلية، وخاض بجواده بين جند آل عثمان الذين كانوا كموج البحر، فصادف سنان باشا الخادم الوزير الأعظم وكان في ذلك اليوم وشاء الله أنه كان يرتدى نفس لباس السلطان سليم ويمتطي جوادًا مثل جواده، فضلاً عن أنه كان قريب الشبه بسليم، فقام كرتباي بقتله فاجتمع عليه الجند

(١) يياض في الأصل.

وقتلوه. ونحمد الله أن كرتباى لم يقتل السلطان سليم، حقيقة كان كرتباى شجاعاً محارباً رحمة الله عليه ويأتى كل شراكسة مصر لزيارة ضريحه.

وبالقرب من باب الحديد بوسط مصر يقع ضريح الشيخ إبراهيم الكلشنى وقد وصفنا تكيته، وتاريخ وفاته (مات قطب الزمان إبراهيم) سنة ٩٣٠هـ. درس علم التصوف والتوحيد على الشيخ أبى السعود فى زمن السلطان سليمان، ولما جاء مصر بنى تلك التكية بكل أمواله وهو مدفون بها، وقد أخذ الشيخ إبراهيم عن عمر الروشنى وأخذ عمر عن يحيى الشروانى، وهو سلطان عظيم وقطب الآفاق الذى ملك العلم البدنى والعلوم الأخرى.

ودفن بضريحه أيضاً ابن أحمد الخيالى المتوفى عام ٩٧٧هـ.

وبجانبه الشيخ ابن على الصفوتى المتوفى عام ١٠٠٥هـ.

وبجانبه ابن الشيخ حسن أفندى الذى توفى فى ١٠١٢هـ.

وقد خلفه فى الطريقة صهره محمد جلى، المتوفى عام ١٠١٤هـ.

ويوجد أيضاً ضريح الشيخ القرمانى وهو من خلفاء الشيخ الكلشنى حينذاك وقبره ليس معلوماً.

بعده قبر الشيخ صاحب السجادة الشيخ محبى الدين الأدرنوى وقد بايع الشيخ على صفوتى فى مصر وصاهره، ودفن فى التكية الكلشنية، كان غارقاً فى العشق الإلهى، وكان أثناء التوحيد والذكر يردد أشعار العشق، فيشمل العاشقين.

ويقع قبر الشيخ البغدادى خارج مصر القديمة من ناحية الشرق، وهو وسط الرمال، ومغطى بقبة عالية، وبالقرب من كنيسة يطلقون عليها دير سنودة، كان المقوقس قد طلب من عمرو بن العاص حين فتحه لمصر ألا يهدمها، ويقولون لو دخل تلك الكنيسة أى كائن حى غير البشر والطيور يموت فى الحال، وإذا ما دخلها العربان الذين يعانون من الآلام يبرء وسهم يتخلصون من آلامهم، إنه دير عجيب مطمئ.

وعلى مسافة خمسمائة خطوة من هذا الدير على الطريق العام يقع قبر الشيخ حويدى ومؤلفاته لا تعد ولا تحصى، وله زاوية ومثدنة وقبتين. ويداوم أهل مصر على زيارته، وكراماته مذكورة فى كتاب طبقات الشعراوى قدس سره.

ثم قبر المولى على بن غسانم المقدسى بالقرافة الكبرى، وهو من فضلاء الدهر الواصلين إلى القطبية، فكان غواصاً فى بحر العلم اللدن.

ثم قبر المولى بدر جلى الواقع بجوار عمر بن الفارض وقد توفى وهو قاضٍ على مصر، وقبره مزار يزار.

ثم قبر المولى معروف أفندى وهو من طريزون، وهو مدفون مع علماء الروم بجوار عمر بن الفارض.

ثم قبر الشيخ الفاضل أمير التيره وى فى قرافة مصر الكبرى، وكانت وفاته فى عام ٩٨٧هـ، كان أمير التيره وى مصنفًا ومؤلفًا وخطاطًا، ترك ٤٢ مجلد بخط يده وتوقيعه وكلها موقعة بإمضائه، وهذه المؤلفات النفيسة موقوفة فى الجامع الأزهر وجامع المؤيد.

ثم قبر الشيخ سنان أفندى وهو من أكراد صوران العلماء، لم يقبل صدقة أو نذرًا أو طعامًا من أحد، قام بتعمير وترميم مسجد محلة الكردي فى مصر وعاش ودفن بها، وقد كان للشيخ الكردي مكانة بين مشايخ مصر، حيث كانوا يزورونه ويحتفلون بمولده مرة كل عام، ويجتمع بمولده أناس كثير.

ثم قبر المولى عبد الله أفندى بن محمود، توفى أثناء توليه قضاء مصر، ومدفنه بجوار الشيخ شاهين.

وبالقرب من جامع المربانية قبر الشيخ محمد بن محمد الشهير بـ «آلتى بارمق» أفندى (أى الأصابع الستة) رحمة الله عليه، وهو إسكوبى ويعرف بـ «جقرجى زاده» حتى إنه أثناء قدوم هذا العبد الحقير^(١) من البوسنة مع ملك أحمد باشا مر باسكوب ومكث يومان فى منزل آلتى بارمق أفندى، وتحدثنا مع أقاربه وكانوا من أصحاب المعارف، ونحمد الله أن يسر لنا زيارتهم فى مضر أيضًا.

(١) يعنى المؤلف بالعبد الحقير نفسه، تواضعًا منه كمادة من يتكلم عن نفسه من أهل العلم والفضل.

والشيخ محمد بن محمد مؤلفات كثيرة منها سيرة النبي ﷺ وهي سيرة ممدوحة بين السير، لقد كان شيخاً عزيزاً وبحراً للمعاني وهو النعمان الثاني ومدفنه أمام قبة جامعته حيث توفي عام ١٠٣٣هـ، كان العزيز المذكور بحراً في مختلف العلوم، عذب البيان، طلق اللسان.

ثم ضريح المولى ظهير الدين الأردبيلي، الذي جاء من تبريز إلى بلاد الروم في عصر سليم الأول، وقابله السلطان، ثم ذهب إلى مصر قاصداً حج بيت الله الحرام، وقد قُتل مع أحمد باشا الخائن في مكان واحد، كان المولى ظهير الدين الأردبيلي له باع في العلوم وله مائة مجلد من المؤلفات، وهذه هي الدنيا يموت الإنسان ويبقى اسمه، إنه الموت الذي يتساوى فيه الجميع السيد والفقير ولم ينجو أحد منه وليس له دواء. إن أضرحة ومزارات الأولياء والعلماء والصلحاء في القاهرة لا تعد ولا تحصى، ولكننا حررنا هنا ما ذهبنا إليه فقط.

ثم قبر المولى حسين باشا زاده افندي وابنه صاحب الحظ السعيد «كورلجة رستم باشا» وزير «بودين»، توفي حسين باشا زاده وهو قاضي على مصر، وقبره بجوار الإمام الشافعي، ومكتوب على العتبة العليا للضريح: «هذا مقام حسين افندي في دار السلام سنة ١٠٢٣هـ»، كان المذكور من أرباب العلم والمعرفة محبوباً من الجميع، وكان يجزل العطاء في منزله.

ثم قبر المولى محمد أهلي افندي أخو عبد الرحمن افندي طبيب زاده، كان صاحب فيض في كل العلوم تولى منصب قضاء مصر، ومدفنه في ساحة جامع مسيح باشا ويزوره الداهيون إلى الإمام الشافعي. وثمة شخص آخر باسم أهلي جلي ولكن مدفون في رودس.

ثم قبر المولى عبد الباقي الشهير بطورسون زاده افندي، توفي وهو قاضي على مصر، وقبره في القرافة الكبرى على الطريق، وعلى مشهد قبره تاريخ وفاته.

ثم قبر المولى مصطفى بن محمد بن سليمان، وفد من مكة إلى مصر بعد آلام كثيرة وهو مدفون بجوار الإمام أبو الليث، قدس سره العزيز.

ثم قبر الشيخ أبو بكر الكفوي الذي كان مصاحباً للشيخ شاهين بمصر، حيث اتجه إلى طريق الحق، وهو مدفون بجوار الشيخ شاهين، كان شيخاً زاهداً عابداً متورعاً اشتهر بالكرامات.

ثم قبر مولانا الفاضل رضاي محمد جلبي، مخدوم المرحوم بيرى افندي قاضي قونية دار الملك، وتاريخ ميلاد رضاي جلبي ١٠٠١ هـ هو لفظ (رضا) لذا تخلص برضاي، تولى قضاء مصر ثم توفي، ورضاي جلبي حسيب نسيب، وأديب كامل ومؤلف ومصنف وشاعر وماهر له نصيب من كل الفنون، حافظ لقاموس النجوم والكواكب، كما كان متصوفاً خلوفاً، ومدفنه في ساحة مشهد الإمام الحسين وقبره من الحجر. ويقوم الروم بزيارته وهم يقولون عنه إنه قبر فاضل.

ثم قبر مولانا جمالي زاده وهو من علماء الروم كان خادماً لشيخ الإسلام على جمالي، كما كان صاحب السجادة في الأناضول ومصر والعديد من الأماكن الأخرى، وتولى متصرفية الشرقية والغربية بمصر، ولكنه استقر في القاهرة مصداقاً لقوله - تعالى -: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ [النور: ٣٥] وهو مدفون بجوار الإمام أبو الليث، رحمة الله عليه سنة ٩٦٨ هـ.

فى بيان كرامات المرحوم والمغفور له السلطان أعلم العلماء وأفضل الفضلاء شيخ الشيوخ الشيخ على الشمرلى

عندما دخل الحقير صاحب التقصير قليل البضاعة مصر فى عام ١٠٨٣ هـ شرع فى زيارة الأولياء والأنبياء واجتهد فى مقابلة العلماء والمشايخ الكبار وقد تشرفت بمقابلة الشيخ الشمرلى فى الجامع الأزهر تبركاً وتيمناً به، فقبلت يده وكان لى نصيب من دعواته لى بالخير، وبدأت فى قراءة كتابه (قوهستان)، كان الشيخ الشمرلى أعمى منذ ولادته، ولكن الفصاحة والبلاغة وطلاقة اللسان التى يمتلكها لم تكن حتى عند أفصح الشعراء محمد البوصيرى، وقد خدم الحقير الشيخ، حيث تلمذت على يديه ثلاث سنوات، ولحكمة الخالق لزم الشيخ الشمرلى الفراش فى السنة التى كان فيها عبد الرحمن باشا والياً على مصر، ظل الشيخ لمدة شهرين طريح الفراش وكان كل تلاميذه يذهبون إلى بيته فى تلك الفترة، الكل يقبل يديه ويبدأ فى قراءة الدرس عليه، وسبحان الله كانت الدروس حينئذ أكثر من الأوقات الأخرى، فقد كانت كل أعضاء الشيخ نحيفة ضعيفة وكأنه قد وهبها كلها فى سبيل العلم، وكانت له قوة قدسية فكان يرى بمنظار قلبه، وكان الشيخ موصوفاً بالذكاء الحاد والفراسة والفتنة التى لا حد لها، من يراه لا يقول أنه ولد أعمى، حتى أن صهره القاضى منصور الذى كان متزوجاً بابنة الشيخ، وهى سيدة حافظة مثل رابعة العدوية، نقل إلى الحاضرين بالمجلس ما سمعه من زوجته ابنة الشيخ الشمرلى أنها كانت تسمع والدها فى الليالى المباركة وهو يقرأ العلم فى حضور النبى ﷺ ويقول بلسان فصيح صريح: نعم يا رسول الله ويقول صحيح يا شفيع المذنبين، وفى أحد الأيام وبعد انتهاء الدرس كنا فى حضور الشيخ، فقال فى أى يوم سيخرج حجاج المسلمين إلى بركة الحج.

فأجاب صهره: لقد صدر فرمان بخروجهم إلى البركة يوم الخميس الموافق ١٨ شوال المعظم.

فقال الشيخ: يا قاضي منصور كم يوماً بقى على ذلك اليوم؟
فأجاب الشيخ: ()^(١) خطيب جامع القيسونية: بقى يومان فقط يا سلطاننا.
فنهض الشيخ من الفراش بعد أن كان طريقه لمدة شهرين ووقف على قدميه وأخذ
يتحرك ويدور بلطف في البيت مثل طاووس حدائق الجنة، وكأنه في سماع خانه جلال
الدين الرومي^(٢)، فتحير كل الحاضرين من ذلك، وتحيرت أنا أيضاً لما شاهدت، وقد
تصيب الشيخ عرفاً بعد السماع، وقال لنا: أيها الأبناء لقد عادت لى الحياة وشفيت
لأنكم بشرتموني بخبر خروج الحجاج إلى البركة، وبذلك وجدت الدنيا والآخرة، ودعا
لنا جميعاً بأن يغفر الله لنا وأن يمنحنا طول العمر، وابتهج بعض الحاضرين من ذلك
قائلين الحمد لله لقد شفى الشيخ، وبعضهم انخرط في البكاء، إلا أن الشيخ تحدث إلينا
مرة أخرى وقال: أيها الأبناء لى رجاء عندكم؟ فى اليوم الذى سيخرج فيه أول موكب
للحجاج أخرجوني ولا تحرموني من رؤية موكب الحجاج فهذه الأيام هى أيام الحج
الأكبر، ضعنوني فى صندوق يحمله أربع حيوانات ثم سيروا بى من الجامع الأزهر

(١) بياض فى الأصل.

(٢) هو جلال الدين الرومي المولود فى بلخ عام ١٢٠٧م. كان أبوه بهاء الدين ولد من العلماء الأجلاء،
صاحبه جلال الدين فى رحلة الحج، وأثناء عودته مرّ بدمشق، واستقر به المقام فى قونيه وبها توفى أبوه
عام ١٢٢٣م.

وقد أخذ جلال الدين الرومي التصوف عن الشيخ شمس التبريزي، وأسس طبقة الصوفية المعروفة
بالمولوية، وقد بين طبقة هذه فى كتاب منظوم له بالفارسية يسمى (الثنوى). وتخلق حوله المريدون
واتشرت طريقته فى الأناضول، وكان دراويش المولوية موضع توقير رجال الدولة العثمانية حتى جرت
العادة بأن يتولى رئيسهم توزيع السلطان العثماني فى مسجد با يزيد.
وكان من عادة المولوية أنهم بعد صلاة الجمعة يقابلون شيخهم ويجمعون فيما يعرف بـ «سماع خانه»
أى: بيت السماع فيمارسون أذكارتهم على أنغام المعارف وهم يرقصون بكيفية خاصة بهم وفى رأيهم أن
السماع وما يصحبه من رقص إنما يرقق القلوب، ويسمو بالفؤوس، ويثير الخوف عند الثائنين، ويلهب
قلوب المشتاقين.

انظر: معجم الدولة العثمانية: للدكتور حسين مجيب المصرى ص ١٤٢ - ١٤٣ (بتصرف) ط. أولى:
الدار الثقافية، القاهرة ٢٠٠٤.

ولكن معكم تلاميذى الأحباء وكل العاشقين المشتاقين من المجاورين وطلاب رواق العراق وضعننى بالقرب من قرافة المجاورين فلإنها طريق الأهالى وكل المسلمين المدفونين بها، وبهذا أشاهد موكب الحجاج كل عام وليكن ترابهم غباراً لى، وهذه هى وصيتى لكم لا تحرمونى من موكب الحجاج، فقال كل التلاميذ على الرأس والعين يا سلطاننا، وقد فرح كل الصادقين من كلام الشيخ، ثم قال الشيخ مرة أخرى أيها الأبناء لتخبروا على بك من أمراء مصر والشيخ المتبولى خادم ضريح إبراهيم العراقى بأن يكونوا معى أثناء مشاهدة الموكب، وذهب أحد التلاميذ إلى الاثنين ورجع إلى الشيخ الشرلسى وقال له إن الاثنين مرضى وفى النزاع الأخير، ويقولون أنهما لن يستطيعا الحضور لمشاهدة الموكب، فرد الشيخ قائلاً سييراون ويعافون بعد يومين بمشيئة الله وسيأتون معنا لمشاهدة الموكب، ولى رجاء آخر عندكم يا أبنائى أن تقرأوا ختمة شريفة أربعين مرة فى الجامع الأزهر وتهبوا ثوابها للمرحوم عبد الفتاح، وأن تقوموا بطبخ الحلوى يوم الجمعة وتقدموها للفقراء، فقد كان الشيخ عبد الفتاح من أقارب أستاذنا الشيخ الشعراوى وقد استولى على نظارة ميراث السيدة زهرة ابنة الشيخ الشعراوى فدعوت عليه، فقطع أرباً أمام باب العزب فى واقعة خلع الدفتردار أحمد باشا.

ثم جلس الشيخ على الفراش واتكأ على الوسادة، وبدأ تلاميذه يتحدثون عن هذا الشأن، وقد ظهرت له كرامة، والحكمة الله فاضت روح الشيخ إلى بارئها فى نفس الوقت الذى تأهب فيه كل جنود مصر للخروج لموكب الحج فى اليوم الثامن عشر من شهر شوال، فصلوا عليه فى الجامع الأزهر كما صلى عليه جميع مشايخ مصر فى الجوامع، وبهذا تحققت وصية الشيخ فقد صلى عليه مئات الآلاف من الجنود ومثلهم من العوام والخواص والفقراء وكانت الجنازة تموج كالبجر، وقد حُمل النعش فى صندوق على أربعة حيوانات كما أوصى بذلك وقام مئات الآلاف من العلماء بالذكر والتوحيد، وحُمل الشيخ مع موكل الحجاج إلى قرافة المجاورين، وهناك انتهت رحلته واستقر بدار

لسقارار، وروحه في أعلى عليين فقد انتقل من دار لسفناء إلى دار لسبقاء رحمة الله عليه تاريخ (١) لسفاعة شروحه، ولحكمة الله توفي خل من لشيخ المدبوسى خادم ضريح إبراهيم اسعراقى وعلى بك تحقيقاً سكرامة لشيخ لشمريسى.

وفى محلة (٢) على باب لسلوق يقع ضريح لشيخ إسماعيل لسنافيرى وهو من المتصوفة لسكرام، سم يكن متكلفاً، بل خان عارى لسراس، لا يتكلم مع أحد وسكنه عندما يرى المحبين إليه يتحدث معهم ببعض لسكرامات مبتسماً، خانت خل خلعة من خلّامه رمزاً، وقام لسقاضى جلال لستين ببناء زاوية وقبر لشيخ لسنافيرى فى حياته وفى عام ١٠٨٩ هـ عندما خان عبد لرحمن باشا ولياً على مصر أشار لشيخ لسنافيرى ببعض لسكرامات لرمزية قائلاً: ستموت فى هذا لشهر، وقد خانت تلك لسجارة إشارة ستاريخ غزوة آل عثمان على موسكو، ولسقى الآن مزار يزار.

(١) موضع سطر خال.

(٢) بياض فى الأصل.

الفصل الرابع والستون

فى بيان أسماء المحلات الموجودة على الطريق الرئيسى

للسلاطين وكل الأعيان فى مصر

بمصر طريق عام كبير يبدأ من أدنى المدينة ويصل حتى القلعة الداخلية لمصر (١) وتوجد طرق أخرى فى الأسواق السلطانية والمحلات تبلغ (٢) ألف طريق عام، ويطلقون على الطريق الذى يبدأ من باب السيدة نفيسة وحتى باب النصر درب السلطان، ويطلقون اسم درب السلطان أيضاً على الطريق من سوق الحدادين وسوق أمير الحاجب وسوق الخيام وباب الحديد وحتى باب النصر، وينقسم الطريق عند بين القصرين إلى طريقين الأول ويتجه إلى باب الفتوح ويطلقون عليه درب الحاكم بأمر الله، والثانى ويبدأ من درب باب الشعرية ويتجه حتى خارج المدينة ويطلقون عليه درب الطاهرية، ويطلقون على الطريق الذى يبدأ من سوق الطيور وحتى الداخل درب العباسية، وسمى بهذا الاسم لأن كل خلفاء العباسيين الذين ملكوا مصر كانوا يسكنون فيه، ويطلقون على الطريق الذى يبدأ من درب باب الحديد وحتى باب سلامة قنطرة السبوع وبالقرب منه فى الناحية المواجهة للخليج يوجد درب سويقة الدلال وعلى مقربة منها يوجد درب قنطرة السنفور وسوق محلة عابدين ودرب باب الدباغين ودرب الشوارب ودرب الأوربكية ودرب قنطرة الليمون ودرب الرطل ودرب باب اللوق ودرب الحراطين ودرب بين القصرين ودرب قاضى العسكر ودرب خان الخليلي ودرب خرطة الجمالية وخرطة الصاغة أى سوق الفضة ودرب الفحامين ودرب الغورى ودرب البندقانى وباب الذحوة وسوق الشوائين وباب زويلة وخرطة الوالى، وللعبور من هذه الأماكن ينبغى أن يسلك المرء طريقاً مدته ساعة يطلقون عليه الآن طريق خرطة الوالى ويقع عليه سوق قرب السقائين والطلومبات والزجاج، ومن سوق الخياطيين أى سوق صناع الخيام وسوق الخضار وخرطة الخليفة وسوق الطليون وسوق المغاربة وسوق الحنا وسوق قبر الطويل وسوق أمير الآخور وخرطة السقائين وخرطة النصارى وخرطة الموسكى وسوق الروملى والدرب الأحمر الواقع بقصر الباشا وحتى جامع الأزهر بطول ثلاثة آلاف وخمسماية خطوة.

(١ ، ٢) يياض فى الأصل.

أوصاف بقية الطريق الرئيسي لمصر القاهرة

وطولة الفان ومائة خطوة

وهو الطريق الذي يمر من أمام خمام السبّاهية بالقرب من مسكن الحقيير^(١) في القلعة الداخلية بمصر، والذي يمر أيضاً من أمام قصر عوض بك ومن أمام باب مسعود أغا، حتى قصر برهان أفندي النقيب ألفين ومائة خطوة، وطول الطريق من أمام جامع الكتي بآرمق الذي يدنو من قصرنا وكذا من أمام قصر مسعود أغا وحتى قصر النقيب ألفين وثلاثمائة خطوة، وهذا يعني أن هذا الطريق أريد من الطريق الأول بمائتي خطوة والطريق من ميدان الروملى الواقع عند باب العزب أسفل قصرنا وكذا من قنطرة السبع عند الباب الجديد وحتى منزل قيطاس بك الدفتردار ثلاثة آلاف خطوة بالتمام. وبهذه الطرق آلاف الحوانيت والأسواق السلطانية، ولو قمنا بذكرها كلها سنكتب مجلداً آخر.

لما الطريق العام المذكور فهو أشهر الطرق في مصر وهو مزدحم، ولا شك في أن لذكره فائدة كبيرة لذا ذكرناه، أما غير المشهور منها قد عزفنا عن ذكره تجنباً للإطالة والملل واكتفينا بذلك.

(١) يعنى المؤلف نفسه.

الفصل الخامس والستون

فى بيان ذهابنا إلى مولد أحمد البدوى عام ١٠٨٣هـ

وزيارتنا دمياط ورشيد والإسكندرية وغيرها

من الطرق والقصبات والمنازل والأضرحة

لقد شاهدت بما تيسر لى جميع الأضرحة الموجودة بمصر القاهرة، وقمنا بزيارة ضريح المشهور فى الأفاق والقطب على الإطلاق حضرة أبو اليتامى السلطان السيد أحمد البدوى، وصلنا إلى السيد أحمد البدوى نطلب منه المدد فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الآخر عام ١٠٨٣هـ.

خرج موكب مولد أحمد البدوى فى جمع غفير من المشايخ والمتصوفة وهم يذكرون الله واتجهوا إلى صاحب الدولة، وقد ذهب الحقيقى على الفور إلى ميدان سراى الباشا وانزويت فى زاوية واشتغلت بالمشاهدة، كان مستصوفة ومريدو البدوى - والعظمة لله - ما يزيد على عشرة آلاف شخص يسىرون بالطبول والدفوف ويحملون الأعلام والرايات وبعضهم يحمل آلات الحرب والبعض الآخر يحمل قى يديه الثبوت وفى حضورهم التنورة يذكرون الله، ويحملون مئات الآلاف من الرايات والأعلام، فأصبحت القاهرة فى ذلك اليوم مثل الحديقة المثمرة، سار الموكب حتى ميدان القصر وعندما قال الخليفة الأول للمريدين اذكروا الله وكان ذلك فى حضور الباشا، ردد المريدون كلمة التوحيد، ورفعوا الرايات المطلية بالذهب على رؤوسهم ودقت الطبول والدفوف ونفخ فى النفير، وانشغل ما يقرب من ثلاثة آلاف وسبعمائة شيخ وما يقرب من عشرة آلاف مريد حاسرى الرأس بالتوحيد والذكر وأطلق المجازيب الصيحات ودقت الطبول، حتى أن ميدان القصر أصبح كساحة الذكر، وأقسم برب الكعبة أن صدى أصوات المريدين وهم يرددون الله الله كانت تصل إلى عنان السماء حتى أن الملائكة فى السماء كانت تغطهم على ذلك، وبعد الذكر قام نقيب المريدين بحمد الله والثناء عليه ثم صلى على النبى ﷺ وأتى على الكتخدا إبراهيم باشا، ثم تقدم الجميع بعد ذلك إلى الباشا أفواجاً، ثم قام أبو الخير

إبراهيم باشا بمقتضى قانون البدو وفرمان السلطان قايتباي بتحرير رسائل إلى حسن أغا كاشف الغربية وعلى أغا كاشف منوف ورؤساء البلوكات السبعة وبقية الأغوات بأن يتأهبوا بكامل أسلحتهم للمولد الشريف، ويوصيهم بالحفاظ على ميدان المولد دون تقصير، ويوصيهم بمنع انتشار الخمر وأماكن شرب البوظة وخيام البغايا ومنع أشقياء الغزيان والأشرار من الخروج إلى ميدان المولد.

وزيادة على المنحة التى يمنحها الباشا للمشايخ يقوم الباشا بإهداء ضريح البدوى قطعتين فن القماش الأخضر وبطمانين عؤد بخور وخمسين فقلاً فن عنبر وسجادة حرير وأخرى إبريشم واثنان فن شمع العسل، ويعطى لكل رجل فائة بطمان فن الشمع، ويسلم الباشا ذلك كله إلى مصطفى الروفى خليفة البدوى فيقوم كل المشايخ بتقبيل يد الشيخ ويدعون له بالخير، ثم يبدأون فى التوحيد السلطانى فرة أخرى.

ويتعجب المفرطون من ذلك أشد العجب، وبعد الانتهاء من الذكر والدعاء للباشا يحملون كل الأشياء التى منحها الباشا لهم، ويقف رئيس الجلادين بعد ذلك فى ميدان القصر وينادى بصوت مرتفع مولد البدوى فى منتصف جماد الآخر، ويذهب كل المشايخ والشباب والمريدون إلى خلواتهم فى صفوف وترتيب كأنهم أمواج، وقد تحركت عواطفى لى أشارك فى هذا المولد، ولكنى سألت نفسى بأى طريق سأقوم بتلك الزيارة الواجبة، وبعد المغرب جاءنى أحد الجنود الداخليين وقال لى تفضل يا سيدى إن الباشا صاحب الدولة يريدك، وعلى الفور ذهب الحقيقى إلى إبراهيم باشا وكان الحديث عن مولد السيد أحمد البدوى، وقد رأى الحقيقى أن هذه فرصة عظيمة اغتنمها فقلت: يا سلطانى هلا أذنتم لنا بالمشاركة فى الدعاء بمولد البدوى، فوافق الباشا على مطلبى، وأصدر فرماناً بخروج على كتخدأ معنا، وأتى الكتخدأ وأحسن على الحقيقى بمائة سكة^(١)، وقد نزلت ضيفاً بمنزل إبراهيم أغا فى بولاق لمدة ثلاثة أيام بلياليها، وتجمع فى بولاق فى تلك الليلة آلاف العاشقين الموحدين، رينوا صفحة النيل المبارك بمئات الآلاف من القناديل

(١) السكة: العملة المضروبة.

والمصاييح، وانشغلوا بالذكر حتى الصباح، وفي صباح اليوم التالى أقام نقيب الأشراف وليمة عظيمة فى تكية إبراهيم الكلشنى فى بولاق، حضرها كل علماء وصلحاء ومشايخ معتر، خاصة قاضى العنكر، ومشايخ المذاهب الأربعة، وتناولوا الطعام واشتغلوا بذكر الله، وتصير تكية الكلشنى فى تلك الليلة مثل النور، وقد ذكرنا ذلك من قبل عند وصف الموالد، وبعد ذلك ينفذ الجمع.

وفى صباح اليوم التالى يركب جميع مريدى البدوى وسائر مريدى الطرق الأخرى والبنحارة فى اثنى عشر مركباً تسمى مراكب العقبة، تتسع كل مركب منها لآلفى رجل إتنها مراكب تشبه القروانة، الواحدة منها أربعة طوابق الطابق الأسفل عبارة عن المخزن وبه الطعام والشراب وسائر المهمات واللوازم، والطابق الذى يعلوه خاص بالنساء، ثم الطابق الخاص بمشايخ المريدين، والطابق الذى يعلوه للفلاحين ومساعدى الريان والزوار، لقد شُيد المركب طابقاً فوق طابق ومقصورة فوق مقصورة، ويستغرق كل فرد فى وجده وشوقه، وهذه المراكب المذكورة من أوقاف السيد أحمد البدوى وتُحصّل كل مصاريفها من وقف السيد أحمد البدوى، وتُزين صوارى تلك المراكب بالرايات والأعلام كما يقف المشايخ على جوانبها الأربعة يحملون آلاف القناديل والرايات، وبخلاف تلك المراكب المسماة العقبة، يستأجر آلاف الزوار والمشايخ حوالى مائتى قطعة من الزوارق والقوارب والسفن الصغيرة، حيث يزينون صفحة نهر النيل، وفى وقت الضحى يتحرك المركب من مدينة بولاق بائتى عشرة سفينة كبيرة تسمى «عقبة» وما يقرب من ستمائة أو مئعمائة مركب مصغير تحمل جميعها حوالى أربعين ألف أو خمسين ألف شخص، ثم يُطلق الجنود الموجودون طلقة من البنادق وطلقة من المدافع، ثم تدق طبول خليفة البدوى، ويردد كل المريدين كلمة التوحيد، وتسير المراكب مع اتجاه النيل، ويُنفخ فى النفير.

وعندما يصل المريدون إلى المكان المواجه لإمبابه يقرأون الفاتحة، ويعقدون النية على الذهاب إلى البدوى، وفى هذه الأماكن بخلاف السفن استشعر الحقيق الذوق والصفاء مع

ثمانية مشايخ فتارة مع الشيخ مصطفى الرومي وتارة مع الشيخ عثمان الكلناسي والشيخ الإمامي والشيخ أحمد القليوبي.

وشاهدت القصبات والبلدان المعمورة التي تشبه الجنان على ضفتي النيل المبارك، ودوتنا أوصافها فمنها:

قصة شبرا الواقعة على ساحل النيل في مكان قريب من مصر القاهرة بثمانية أميال وهي قصة عامرة أهلة بها ألف منزل وسبعة جوامع وأسواق وحمام، وتزينها بساتين التخليل، ويديرها رئيس فرقة من طائفة إنكشارية مصر، وتشتهر شبرا بالبطيخ والشمام والذهب أو الآتى منها يشتري البطيخ، يحصل منها ألفي قرش سنوياً، وهي مركز الإنكشارية، ولها ملتزم.

ثم تقدمنا مسيرة عشرة أميال فبلغنا جزيرة بطن البقر، وهي عبارة عن رأس في وسط النيل المبارك يتفرع عندها النيل إلى ذراعين، فقد قام سيف بن ذي اليزن بشق هذين الذراعين بعد عصر نوح - عليه السلام -، الذراع الأيسر منه يتجه ناحية الغرب، إلى بندر رشيد وطوله (١) ميل أما الذراع الثاني وهو الأيمن فيتجه شمالاً إلى بندر دمياط وطوله (٢) ميل، وبين هذين الذراعين جزيرة عظيمة عبارة عن كشوفيتين؛ الأولى كشوفية الغربية والثانية كشوفية المنوفية، وهذه الجزيرة مزينة بآلاف القرى العامرة، بوسطها مقر كشوفية الغربية وعلى أرضها قصبة طنطا المدفون بها السيد أحمد البدوي، وهذه الرأس المسماة بطن البقر تقع في أرض المنوفية وكل مراعيها أميرية، حيث يقوم رئيس فرقة الجبه جيه (٣) بمصر بتجفيف الفروع والأخشاب الموجودة بتلك المراعى وتحويلها إلى فحم حيث يضعونه في مصر على البارود الأسود، فتزداد قوة البارود، وقد سرنا من هذا المكان بالسفن في ذراع النيل المتجه إلى دمياط، وعبرنا قنطرة الملك الطاهر الواقعة بين أرض قليوب، وهي جسر عظيم به ألوان قوس قزح يعبره الذاهبون من مصر إلى قليوب وإلى المنصورة ودمياط، إنه صراط عظيم لم نشاهد مثله،

(١ ، ٢) يياض في الأصل.

(٣) سلاح الذخيرة.

ثم مرونا بقرية مصرخيم الواقعة على ضفاف النيل، والشيخ عبد الله مصرخيم مدفون بها في ضريح مغطى بقبة صغيرة بيضاء، وقد توقفت كل المراكب أمام هذا الضريح ودقت الطبول وذكرو الله، ثم لبحرت المراكب مرة أخرى، وهذا المكان هو الحدود بين الغربية والمنوفية، وتلاطم النيل في هذا الموضع شيء ظاهر، وقد تحطمت بعض المراكب من شدة تيار المياه، وعبرنا ذلك المكان والكل يسأل الله أن نعبّر طريقنا بسلام، ويصل ماء النيل إلى قمة اندفاعه، وفي وقت الغروب ترسو كل السفن على جانب النيل، حيث يكونوا في مأمن من الإبحار ليلاً، وفي ذلك المكان قرية تسمى قرية العفريت، وهي قرية كبيرة تقع في أراضي الغربية بها مساكن ومنازل وجامع، ويشغل معظم الأهالي هناك بصناعة الأكواب، وبها قصر مشهور مثل حدائق إرم، قام ملوك مصر السلف بصرف خزينة على هذا القصر من خزائن مصر، وفي وقت قريب سكن هذا القصر شخص يدعى فضلى أغا، وفي أحد الليالي رأى فضلى أغا شخصاً عظيم الجثة يهجم على القصر، فظن فضلى أغا أنه لص فجمع الحراس وتسليحوا ونادى فيهم أن يهجموا على القصر، وعندما أطلقوا النار وضربوا بالسيوف، أصيب أحد اللصوص ولكنه لم يمت، أما حراس فضلى أغا فقد أصيب بعضهم بالصرع وأصيب البعض الآخر بأعوجاج في يده وفمه وأنفه، وبالرغم من ذلك ظل فضلى أغا وحراسه يحاربون بشجاعة لمدة ساعة، ثم فروا هاربين من القصر، ثم سد أهالي القرية باب القصر بالطوب وظل على حاله حتى الآن، ولا يستطيع أحد أن يدخله، حتى عندما وصلنا هناك سألنا أهل القرية عن هذا القصر فقالوا: «إنهم في بعض الليالي يرون قناديل تضيء فوق سطحه، ويسمعون صوت دق الطبول، وفي صباح تلك الليالي يجدوا على حوائط القصر منسوجات بيضاء وسوداء لا هي من صوف الإبل ولا هي من صوف الأغنام، إنها منسوجات لا مثيل لها في الدنيا، إنه بلاء مسلط على قريتنا، ولكن لا ضرر منه على أولادنا وأهلنا».

أما فضلى أغا وجميع حراسه فإنهم يعيشون الآن بصحة جيدة، ولا يعرف أحد مقدار أمواله التي تركها في القصر عندما فر هارباً، فقد زادت الضعف وهذا ما نقله

أهل القرية لنا، ويخرج كل الزوار من المراكب ويتزلون على شاطئها ويطهون الطعام، وقد أخذ الشيخ مصطفى الرومي عشرة نعاج وطبخها وقدمها للجوعى والمساكين مصداقاً لقوله - تعالى -: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: ٨) فمما لا شك فيه أن هذا الجمع الكبير من الناس به المساكين والأيتام والفقراء حيث يتناولون الطعام جميعاً، وبعد الطعام والحمد والثناء يبدأ الذكر، وفي وقت العشاء تسكن الرياح ويطلق الشيخ مصطفى طلقة مدفع من سفينة فيسير الموكب وتشعل آلاف القناديل في المراكب وتطلق السفن قذائف المدفعية والبنادق الفشنك. وقد مررنا في تلك الليلة ببلدان وقرى صامرة بالحدايق والبساتين وكأنها حدائق إرم، وتزينت بصفحة النيل المبارك بالسفن، وتولى الملاحون توجيه السفن يمينا ويساراً حتى يتمكنوا من اجتياز هذا المكان بسلام، بينما الراكبون يذكرون ويرددون يا مولا يا فتاح، وعندما يقول الشيخ مصطفى خليفة البدوي اذكروا الله يا إخوان، يرد كل العاشقين والمشتاقين بكلمة التوحيد لا إله إلا الله ويبدأ المريدون في التهليل فيصبح وجه النيل المبارك كله ذكراً لله، ويغمر ماء النيل في النور ويدهش كل الموحدون ويهيجون وقد غابوا عن الوعي من شدة الروجد، وعندما يستمع أهالي القرى الواقعة على ضفاف النيل، وتسير السفن على هذا النحو حتى صلاة الفجر وعند صلاة الصبح ترسو كل السفن على جانب النيل.

منزل قصبة التفاحية وهي قصبة عامرة تقع في أراضي الغربية بها ثلاثمائة منزل وحدائق وبساتين نخيل وجامعين ذوى مئذنة وشيخة مودونة وما يقرب من أربعين أو خمسين خانوتاً وحمام، ولهذه القصبة ملتزم، بالجهة الجنوبية لها ضريح السيد داود العرب وهو مجاور لجامع باسمه، وللسيد داود العرب مولد كل عام يجتمع فيه أناس كثيرون، إنه شيخ عظيم في منزلة السيد البدوي وله مناقب في طبقات الشعراوى، ولو دخل قاتل أو لص أو مدين تكيته لا يستطيع الحاكم أن يقبض عليه، وذلك لأن المتهم الذى يدخل التكية لو ثبت في حقه أنه مذنب فإنه يتوب بمجرد دخوله التكية، كما أن الدائن إذا دخل التكية يؤدي ما عليه، إنه سلطان عظيم قدس سره العزيز، ويقوم كل

الزوار بزيارة تكية الشيخ فاود العرب ثم يركبون السفن مرة أخرى ويبحرون مقلداً ثلاثين ميلاً حتى يصلوا إلى قرية مسهوم وقرية شبراتين وهما قريتان عامرتان بهما ثلاثمائة منزل وستاتين نخيل وجامع، تقع هاتان القريتان في أراضي الغربية، ويمر الزوار من عليهما ويبحرون مقدار عشرة أميال.

أوصاف قصبة زفتى وتعنى في اللغة العربية (١) وترسو كل السفن على جانب النيل المبارك في الجهة الشمالية لهذه المدينة ويخرج منها كل الزوار وينصبون آلاف الخيام على ضفاف النيل حيث يبيتون بها يومين ويأتى الجمالون والبغالون وأصحاب الحمير من كل القرى لتأجير الدواب لتحصيل أمتعة وأغراض الزوار، والمسافة بين زفتى والسيد أحمد البدوى خمس ساعات تقريباً.

أوصاف مدينة زفتى

مدينة زفتى عبارة عن قضاء شريف يُحصل مائة وخمسين أفجة، تقع على ضفاف النيل تحت حكم حاكم الغربية ويتبعها سبعون قرية عامرة، يحصل لقاضيهما سبعة أكياس من الأموال المصرية، وكل قرى زفتى إلزام لعباس آغا الذى كان آغا للبنات قبل ذلك، ومدينة زفتى مدينة عامرة، بها خمسمائة منزل للفلاحين كما يوجد بها بساتين للنخيل وغلالها مشهورة وقمحها جيد وبها ثلاثة جوامع؛ الأول منها الجامع الكبير عند الميناء ويبلغ طوله مائة خطوة وعرضه مائة خطوة أيضاً، له مئذنة ذات ثلاثة طوابق وثلاثة أبواب، ويفنائه شجرة سدر، ويوجد جامع آخر بالقرب من الميناء وهو جامع صغير له مئذنة واحدة ذات طابق واحد، ويوجد جامع ثالث صغير بنائه حديث، وبخلاف تلك الجوامع توجد سبعة روايا بالمدينة ولا يوجد بالمدينة مدرسة أو حمام، وبها خمسة وعشرين حانوتاً وستة مقاه وبها الجاموس والأبقار البلدية، ولعدم وجود حمام بالمدينة يذهب الأهالى إلى حمام عباس آغا بواسطة القوارب، وفي الناحية المقابلة لزفتى

(١) بياض في الأصل.

فى أراضي المنصورة تقع مدينة ميت غمر، وتعنى فى اللغة العربية (١) وهى قضاء مائة وخمسين أفعج تقع تحت حكم حاكم المنصورة يتبعها (٢) قرية، يحصل منها سنوياً ستة أكياس والتزام هذه المدينة للأمير أبو السيف أحمد بك وهو من أمراء مصر، وتشتهر ميت غمر بسكرها ويكثر بها الزمان والتمر، وبساتينها ونخيلها بمدوحان، والمدينة تقع فى صحراء واسعة على ساحل النيل بها أربعة آلاف منزل معظمها مغطى بالطوب الجيرى، وتشتهر المدينة بأعيانها وعلمائها وأشرافها، فقد اشتهر العلماء الغمراويون فى كل أقاليم مصر، فيها المئات من المصنفين والعلماء والمؤلفين وبالمدينة تسع نواح تتبعها، وبها خمسة وأربعون محراباً منها تسعة جوامع جامعة فقط، أما الباقي فهى مساجد صغيرة، وهى على التفصيل؛ الجامع الكبير ويقع فى السوق وهو من بناء حماد بن بقر ويتسع لجماعة كبيرة، يبلغ طوله مائة خطوة وعرضه ثمانين قدماً، وبه مثذنة رشيقة ذات ثلاث شرفات عند باب الجامع، يبلغ طول تلك المثذنة مائتين وخمسين قدماً تقريباً وفى أعلاها مكان للراية كما تعلوها قبة صغيرة تشبه الكوب، يعلو ذلك كله راية خضراء وحاصل القول أنها مثذنة غاية فى براعة البناء لا يمكن التعبير عنها، ومحراب المسجد ومنبره على الطراز القديم، وحول فناء المسجد وبداخله ستة وثلاثين عاموداً من الرمر الملون، وللجامع ثلاثة أبواب لكل منها سلم يبلغ خمسة أقدام لأسفل ينزل من خلالها إلى المسجد، ودائماً ما يكثر العلماء فى هذا المسجد يدرسون ويتباحثون فى المسائل العلمية، كما يتواجد به أشخاص من أتقياء الأمة، أما الجامع الموجود عند رأس الميناء فهو جامع جديد ويتسع لأناس كثيرين، وبالقرب من المحكمة الجامع المعلق، وقد أسموه المعلق لأنه يصعد إليه بسلم حجرى يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر قدماً ويدنو من الجامع حوانيت وميضئة للوضوء وحوض شافعى، إنه جامع غاية فى الجمال، وجامع آخر لم نعلم اسمه، أما المحارب الباقية فهى مساجد صغيرة لا تعد جوامع، وبالمدينة سبعة مدارس، واثنان عشر مكتباً للصبيان وأسبلة فى سبعة أماكن بالمدينة ومسبح وكالات تجارية وستمائة حانوت، ولا يوجد بها سوق مبنى بالطوب، إلا أن تلك الحوانيت المذكورة بها كل شىء، وتنتشر المقاهى بها

على ضفاف النيل، وكان القرآن يُتلى في كل دكاكين الحرفيين، فيوجد هناك حَمَلَة القرآن، وبها أيضاً ما يزيد على ثلاثة آلاف مفسر ومحدث إنها مقر العلماء التي تلى الأزهر الشريف إنها ميت غمر، وبها رجال عظام يقولون عليهم علماء الغمراوي، والحمد لله أن ذهبنا إلى هذا العالم وهو يشرح تفسير ابن جرير ودعا لنا بالخير. ويشتهر أهالي ميت غمر بالذكاء، وهي بلدٌ هواءه لطيف وماءه عذب، وعشاقها مشهورون في الأفاق، حتى أنه في بعض البلدان عندما يريد أحدهم مدح محبوبته يصف عينها بأنها عين حوران وعين الغمراوي، والسعجب أن أهل مصر لا يضعون كُحْلاً في أعينهم لذا تجد أعينهم جميعاً مشوشة، أما عين الغمراوي فهي ممدوحة بين الناس، وخلاصة القول إنها مدينة كثيرة الغلال.

في بيان الأضرحة الموجودة بميت غمر

ضريح الشيخ عبد الله وهو مدفون في قبة عالية في المكان المقابل للمحكمة، ووسط بسايتين النخيل الواقعة في الجانب الشرقي خارج المدينة توجد أضرحة كُلِّ من الشيخ محمد المنصوري والشيخ عز الدين الواعظ والشيخ شجاع الدين الشنلواني والشيخ سيد خلف والشيخ سيد محمد القصري والشيخ يونس الأحمدى والشيخ محيى الدين والشيخ إسماعيل والسادات الأربعين والشيخ محمد الهندي والشيخ أحمد الزنفلى - رحمة الله عليهم أجمعين -.

كما دخلنا حمام المدينة وبعْدَ حمام ميت غمر من الحمامات السبعة المشهورة في مصر، بناءً ومياهه وهواه في غاية اللطف، أدينا صلاة الجمعة في الجامع الكبير، وكان لنا نصيب من دعوات أهل الحال، وركبنا المراكب مرة أخرى ومررنا بقصبة زفتى من الناحية المواجهة لميت غمر، وتوجهنا صوب ناحية الغرب مع مجموعة من الحفالة العرب وخمسة من الجنود ومررنا بعشرين قرية عامرة بسحائق النخيل والبساتين ودخلنا قرية شرسنة ومكثنا هناك فترة حيث تناولنا الطعام، إنها قرية عامرة بها مائتى منزل معظم أهلها من السادات الكرام، أجدادهم حضرة الشيخ أبو العز والشيخ على المدنى والشيخ

رمضان الواحدى وكلهم راقدون فى أضرحتهم إلى يوم الدين، تقع هذه القرية فى أراضى منوف، بها جامع وتكية ودار للضيافة كثيرة الخيرات وهى التزام ليوسف أغا أغا الانكشارية من أغوات الكتخدا إبراهيم باشا. ويحصل منها سنوياً ستة أكياس.

وفى الساعة الثالثة وصلنا مدينة العرش القديم المدينة العظيمة منوف، وكلمة منوف كلمة قبطية تعنى العدد ثلاثين، فقد بُنيت عدة قرى بعد طوفان نوح منها قرية الجودى الواقعة تحت سفح جبل الغورى بالقرب من الموصل، كما تم بناء مدينت بلبسى والعريش ومن بعدهم مدينة منوف فى أرض ساحان، وتقع المدينة فى صحراء تبعد ساعتين عن شرق النيل وساعتين عن غربه، ويقول المفسرون أن مبوف مدينة القدماء، وهى المدينة المقصودة فى الآية الكريمة: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ {القصص: ١٥} ويذكر المؤرخ المسقريزى فى خططه ما نقله عن تواريخ القبط والتواريخ التى كانت موجودة أيام الخليفة المأمون وهى التواريخ الخاصة بإدريس عليه السلام ووجدتها المأمون فى جبل الأهرام، أن فرعون موسى خرج من ديار الموصل فى أرض بابل وسكن فى مدينة منوف وترعرع بها، ثم أصبح حاجباً على مصر ثم حاكماً عليها، واتخذ منها عاصمة له، وعمرها أكثر مما كانت عليه.

وبداية عمران هذه المدينة كانت فى عهد بيظ بن حام بن نوح، فقد استأذن بيظ من جده نوح - عليه السلام - بعد الطوفان وجاء إلى جبال الأهرام المواجهة لمصر القديمة، وكان معه حماه الحكيم قليمون، فلم يجد بيظ وقليمون أى أثر للابنية التى كانت عامرة قبل الطوفان إلا جبال الأهرام، وقد رأى بيظ وقليمون أن هذا المكان لا يصلح أن يكون سكناً لهما، وسارا حتى بلغا الموضع الذى به منوف الآن، وبدأ فى بناء المدينة، وبيظ بن حام بن نوح هو النبی الذى وطأت قدمه مصر بعد الطوفان، وكان معه تسعة وعشرين شخصاً أى أنهم كانوا ثلاثين شخصاً وهذا سبب تسمية المدينة منوف، ومن يقول أن أصل كلمة منوف من ماف فهو غلط، وعمر بيظ بعد ذلك مائة عام، وقد أنشأ بمدينة منوف الآثار الكثيرة وبعد بيظ بن حام هو أول حاكم على مصر فى التاريخ، وأول بناء له هو مدينة منوف هذه، واستخرج الكنوز الكثيرة من باطن الأرض

بناء على تعاليم حماء الكاهن قليمون، وبنى سبعمائة مدينة محصنة بالأسوار، ويظهر هو أول من شق الخلدجان والأذرع من نهر النيل على أرض مصر بحساب الهندسة، وقد توفى بيظهر والحكيم قليمون بعد السنة السادسة بعد ثمانمائة وألف بعد الطوفان ودفنا في الهرم الواقع في الجهة الغربية لهضبة الأهرام، وهما أيضاً أول من دفنا في مصر بعد الطوفان، وأصبح ابنه مصرام حاكماً مكان أبيه وهو الذي قام ببناء مصر القديمة لذا سموها مصر على اسمه، واتخذ مصرام مدينة منوف عاصمة له مثل والده وعمرها أكثر مما كانت.

بعد ذلك تولى عرش مصر دلوكة بنت زيباك، وكانت منوف في عهدها عامرة للغاية حيث بنت قلعة لم يبنى مثلها في ذلك الوقت، كان لهذه القلعة سبعون باباً، وقد صُفِّحت كل الآثار بالرصاص والحديد والنحاس، وأصبحت دلوكة هذه ملكة على مصر بعد أن ظلت زوجة لفرعون عشرين عاماً، واتخذت من مدينة منوف عاصمة لها، وقد تزينت المدينة في عهدها إلى أقصى درجة حتى أن كل الأسطح والأسقف كانت مغطاة بالفضة الخالصة، وكل رجاءها من التجف والزجاج والبللور، وبعد استشهاد يحيى - عليه السلام - أي قبل ميلاد الإسكندر بمائة وعشرين عاماً خرج بخت النصر^(١) من مدينة الموصل، وضرب مدن الشام والقدس ومصر ومدينة منوف عاصمة مصر وحولها إلى تراب، وأحرق بنى إسرائيل وبذلك انتقم بخت النصر لدم يحيى - عليه السلام - نظم:

خرَّب بخت النصر مصر فلم يبقَ بها إيوان أو قصر

وبأرض جزيرة السورية كشوفية أخرى هي كشوفية منوف، التزامها مائة وسبعون كيساً، كان حاكمها ميرزا الكاشف يشتهر بالشجاعة والصلاح حيث كان حاكماً على منوف وخمسائة ناحية تابعة بها، وتحت إمرته ألف جندي من جنود الفرقة السابعة من جند مصر، كانوا يحصلون الأموال الأميرية له ويقدمون كل عام مائة كيس من العملات المصرية، وهي أعلى حكومة، كما يتحصل لكل الملتزمين مائة حمل من الغلات

(١) هو بختنصر، والخبر في المعارف لابن قتيبة ٤٦ - ٤٧ وغيره.

العثمانية، ويتحصل لكل مشايخ الفلاحين وأصحاب البلاد ألف حمل من المال، وهذا مدون في سجلات الأحوال اليومية.

ومنوف قضاء شريف به ثلاثمائة وعشرين قرية عامرة، يُحصل من كل قرية منها للقاضي عشرة أكياس سنوياً، ويبقى للملتزم طرقي راده سبعة أكياس من كل قرية، ولأن منوف كانت مدينة العرش الفرعوني فإن فلاحيه كانوا عصاة وملاعين وبلا حياء ودائماً ما يجمعون بعضهم لمحاربة الكاشف وقد هزمهم الكاشف وقتل بعضهم وحبس البعض الآخر.

عجيبة وغريبة

لقد ذكرنا أن أهالي منوف قومًا معاندين ملاعين، ولو أصدر الكاشف حكمه بقتل أحد أشخاصها يتجمع أهالي هذا الشخص المحكوم عليه بالقتل ويذهبون للكاشف ويلتمسون منه الرجاء بعدم قتل هذا المجرم وإنهم سوف يدفعون الدية، وقد عُرف عنهم أنهم منهم اللص والنشال وقاطع الطريق وصاحب اللوم أي الذي يشعل الفتنة بين الجند، وهؤلاء جميعاً ينبغي قتالهم.

وبمدينة منوف جند تحت إمرة الكاشف وأسماءهم تختلف عن أسماء الروم فمنهم الأمير أوريك والأمير تيمور وتيمور طاش وقمرس وقصوه وغوري ولاجين وقرصاي وبولاد-وكرتباي وشاهين وسيتال وجابة بذري وجابة الذي وجابة وردى وأسد وسيفي وجانبولاط، ويسير هؤلاء الجنود دائماً وفي خصورهم السلاح، كما أن لهم منازل عامرة ولم يتبقى بالمدينة من آثار الأوائل إلا سبعة عشر محلة وأربعين جامعاً.

من تلك الجوامع الجامع الكبير وهو جامع فسيح به أربعون عاموداً تحمل السقف، وله مثلثة، وثلاثة أبواب، وبفناءه شجرتي نخيل ارتفاعهما كبير وحجمهما كبير أيضاً، ولا يوجد مثلهما في إيالة مصر كلها، وقد قيل أن هاتين النخلتين مزروعتان من أيام الملكة طوكة وأنها كانت تعقد الديوان عندهما.

وبالسوق جامع الصوين وبه ثمانية عشر عاموداً تحمل السقف المزين بالنقوش، وأسفل الجامع حوانيت، ولوجود الجامع في السوق فإن جماعته كثيرة، وللجامع مثانة

بديعة البناء. ثم جامع الشيخ موسى وهو جامع لطيف، وبخلاف تلك الجوامع توجد المساجد الصغيرة، كما يوجد بالمدينة أربعين مكتب للصبيان وثلاثة مدارس وسبعة وكالات وأربعمائة حانوت وبالرغم من عدم وجود سوق للقماش إلا أن كل وكالة من الوكالات السبع المذكورة بها حانوت لبيع الأقمشة، كما يوجد حمامان قديمان أحدهما من أيام فرعون، والحقيقة لا يوجد بناء يشبه منذ خمسمائة أو ستمائة سنة، وبالمدينة أربعون سبيل مياه، وعند رأس الزاوية في مواجهة جامع الصوين داخل السوق يوجد سبيل مياه، ماءه هو ماء الحياة، وبالرغم من أنى شاهدت كل هذا العمران بمدينة منوف، إلا أن أطلالها وأخنانها القديمة كثيرة، وهذا دليل على قدم المدينة، فالأختان الموجودة في الجهات الأربعة من المدينة لا توجد في أى مكان آخر في مصر سوى في هذا المكان، حتى أن قصر فرعون غاص في الرمال، ويقوم الأهالي بإلقاء القاذورات في مكانه، وتراكمت تلك القاذورات فوق بعضها البعض حتى صارت كالجبل، وعندما يفيض النيل تأتى المراكب لمدينة منوف ويشترون البضائع والأمتعة.

يتميز طقس المدينة بأنه طقس لطيف، رغم أنها كانت مدينة الفراعنة، إلا أنه يوجد بها أشخاص من صلحاء الأمة.

مزار منوف

لأن مدينة منوف مدينة مدمومة، لم يستوطنها أحد من كبار الأولياء، إلا بعض المشايخ وذلك للنص القرآنى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وهم: مقام الأربعين، ومقام الشيخ ليمان البجوى، ومقام الشيخ دالكون، وهو قبة صغيرة بالسوق، وهو سلطان عظيم، يقام له مولد كل عام ويقال إن كل أرواح الأولياء تأتى يوم مولد هذا الشيخ للزيارة، بل إن الأهالي شهدوا على أن يوم مولد هذا الشيخ يجدون دخاناً أخضر ينبعث من الضريح وينتشر في كل طرقات المدينة وتنتشر الرائحة الطيبة في كل الطرقات، ويقال إنهم لم يشاهدوا شخصاً رأى العين بل يسمعون صوت طرق نعال داخل الدخان، رحمة الله عليه، وقد قام الحقيير بزيارته فأحسن عليه الكاشف بجواد كحيلانى.

وخرجنا من منوف مع عشرين خيالا من العزب وسرنا في اتجاه الشمال خمس ساعات حتى وصلنا بلدة طوخ النصارى وكل سكانها من القبط، وقد كانت مدينة عظيمة قديما ولا تزال آثارها ظاهرة للعيان، ولم يبق من منازلها إلا ثمانمائة منزل فقط وثلاث أديرة، وهذه البلدة مكانة عند كل القبط، فهي مسقط رأس الملك القبطي الملك طوطيس وهو مدفون في أحد الأديرة هناك، وهذا الملك طوطيس هو الذي أهدى سيدنا إبراهيم أمنا هاجر والده سيدنا إسماعيل، وقد ولد في تلك المدينة الملك المقوقس الذي كان يحكم مصر أيام فتح عمرو بن العاص، ولهذا فإن كل القبط يعظمونها، ويوزرونها مرة كل عام، والملك المقوقس هو الذي أرسل مع ذى النون المصري البغلة والسيف وفاتين من القبط إلى سيدنا محمد ﷺ، أهدى الرسول ﷺ فتاة منهما إلى حسان بن ثابت وأنجب منها حسان ابنه عبد الرحمن، أما الثانية وهي مارية فقد أخذها النبي ﷺ لنفسه وأنجب له ابنه إبراهيم، وأهدى السيف والبغلة إلى علي بن أبى طالب وهذا السيف هو ذو الفقار، وقد نظم المعجم في هذا السيف:

لا فتى إلا على، ولا سيف إلا ذو الفقار

أما البغلة فهي دلدل. وبقرية طوخ النصارى مكان منخفض به آثار حوافرها، لأنها مشت فيه، لذا فإن كل القبط يأتون لزيارة هذه القرية، ملتزمها هو على افندى الروزنامجى فى إستانبول ويحصل سنوياً سبعة أكياس، وقد سرنا فى تلك القرية، ثم هزلنا فى المسير حتى نتسكن من الوصول إلى مولد أحمد البدوى قبل المولد بيوم، واجتزنا القرى العامرة فى خمس ساعات.

أوصاف قصبة طنطا

مرقد أبو اليتامى السلطان العلوى

وقطب الأقطاب السيد أحمد البدوى قُدس سره

مدينة طنطا مدينة مباركة مدفون بها السيد أحمد البدوى، تقع فى مكان مرتفع بالصحرَاء فى أراضي الغربية، ملتزموها ثلاثة وهم مكلفون بجمع المحاصيل، ويحصلون منها سنوياً عشرة أكياس ويقدمونها للجانب الميرى، وتعد المدينة بمثابة مركز

كاشف الغربية وهى مدينة أهلة بها ألف وخمسمائة منزل بدون حدائق أو بساتين، ويتبعها ستة محلات وبها ثمانية جوامع هى جامع السلطان قايتباى وهو جامع عظيم مثل القلعة من جوامع السلاطين السابقة، وبه ضريح السيد أحمد البدوى، لذا يعج الجامع بالناس ليل نهار، يبلغ طول فناءه مائة وعشرون خطوة وعرضه مائة خطوة، والمحراب والمنبر على الطراز القديم، وبالجامع وفناءه مستون عاموداً من المرمر أربعة وعشرون منها داخل الجامع والباقيون فى الفناء، على تلك الأعمدة قبوات عظيمة يعلوها السقف المزين بالنقوش والسطح مغطى بالجير وللجامع مئذنتين الأولى فى الناحية اليمنى وبها ثلاث شرفات، ويبلغ ارتفاعها مائتى قدم، وبهذا تكون تلك المئذنة أعلى من مئذنة جامع السلطان حسن فى القاهرة إنها مئذنة بديعة الصنع.

ويقع ضريح البدوى على مقربة من تلك المئذنة، أما المئذنة الواقعة فى الناحية اليسرى فهى مئذنة قديمة مثل البرج بها شرفتين ترتفع لخمسين قدماً، بين كل قدم وآخر مقدار ذراع وهى منخفضة عن الأخرى، ولا توجد رايات فوق تلك المئذنة، ولكن تعلوها قبتين صغيرتين مثل القلنسوة البكتاشية.

أسفل هذه المئذنة المنخفضة صهريج كبير لسبيل مياه، يملأ هذا الصهريج خمسة عشر راوية (قربة)، ويكفى ماؤه كل الزوار، وبالقرب منه صناعير مياه مظلمة بقبة مثل قبة القصر، مغطاة بالكلس، إنه خيرات عظيمة، وعلى مقربة منه حوض مياه يطلق عليه حوض الشافعى وهو حوض عظيم مثل البركة، تحيط به المراحيض من جوانبه الأربعة، أما أعلى الحوض فتوجد غرف للطلاب والمريدين ولهذا الجامع أربعة أبواب اثنان منها جانبان الأول للبيضاء والثانى باب صغير عند حائط القبلة والباب الثالث باب القبلة وهو الباب الرئيسى وتعلوه لوحة مرمرية بيضاء كتب عليها (جدد هذا الباب المعظم الإمام المعظم مالك الممالك السلطان أبو النصر قنصوه الغورى خلد الله خلافته فى تاريخ ذى الحجة الحرام من إحدى وعشرين وسبعمائة) ولكن الجامع من بناء السلطان قايتباى، وقد اطلع الحقيق ذات مرة على أوقاف الجامع، ولكل باب من الأبواب الثلاثة للمسجد سلم حجرى يرتفع ثلاثة أقدام.

أوصاف ضريح أحمد البدوي

يتصل ضريح البدوي بالباب الايمن للجامع، وتوجد قبة عظيمة مطلية بالكلس الأبيض الذي يشبه اللؤلؤ ذات أعلام حضراء بين القباب الجانبية الواقعة فى الساحة اليمنى للجامع إنها قبة تكية القطب الزباني أحمد البدوي، بوسط هذه التكية ضريح البدوي وهو عبارة عن صندوق من خشب السرو مغطى بقماش من أستار الكعبة المرسعة بالنجوم المذهبة داخل سياج خشبى على شكل مصبغات، وعلى كل زاوية من زوايا الصندوق كبة من الفضة الخالصة، وفى وسطه عمامة حضراء أرسلها والى مصر أبو الخير الكتبخدا إبراهيم باشا لتكون علامة على موضع رأسه المباركة.

وذهب الموكب الذى يضم مشايخ الطرق وخلفاء البدوي وعشرين ألف مريد على دق الطبول والتوحيد لإيصال القماش الشريف للضريح، وقام خليفة البدوي بلف القماش على هيئة العمامة عند رأس البدوي وسط التكبير، كما قاموا بلف الضريح بالقماش المنقوش والمشغول بالذهب والفضة، والأقمشة المزينة المطرزة بالذهب والفضة فى ضريح البدوي كثيرة، ولا يستطيع أى شخص من الخدم أو غيرهم أن يمد يده لياخذ واحدة منها، وقد عمد الكثيرون إلى هذا ولكن أيديهم شُلت عن الحركة ووضعت الهدايا التى جلبها الوالى وفرشت السجادة وأشعل بخور العنبر فامتلات القبة بالرائحة الطيبة، وعلى شبكة الضريح توجد معلقات كثيرة قيمة كل واحدة منها تساوى خراج الروم، كما توجد تحف وأشياء ثمينة حول الضريح من جهاته الأربعة مثل الشمعدانات الفضية والذهبية التى يبلغ طول الواحد منها مثل طول الرجل، وشمعدانات نحاسية وأوانى فضية وذهبية ومباخر فضية وذهبية وأكواب فضية، والضريح من الداخل مزين بالخطوط الجميلة وهى من خطوط ياقوت المستعصمى والشيخ قره حصارى، وبالجوانب الأربعة توجد مئات الشموع الكبيرة، التى تزن الواحدة منها ثلاثة أو أربع قناطير، وكلها من هدايا ملوك الكفار وذلك لأنهم يعتقدون فى البدوي أيضاً، ويفرج عن الأسر من الزنانات وتقطع سلاسلهم ويمنحون الحرية، ويرسل سلاطين البلدان الإسلامية فى الأقاليم السبعة الهدايا والتحف إلى البدوي تبركاً، منها الجواهر والقناديل المرسعة والأكواب والأباريق الفضية، وكل هذه التحف

والأشياء الثمينة معلقة على روايا الضريح، وبخلاف هذه الأشياء توجد أيضاً آلاف من الأشياء الملونة المعلقة على الحوائط التي رُئيت بالخطوط الجميلة لكبار الخطاطين، حتى أن الحقير كتب آية: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] على لوحة خشبية بالخط الجلي ووضعتها بجوار المحراب.

وفي الناحية الموجود بها رأس البدوي يوجد حجر أسود عليه آثار قدم النبي ﷺ، لا يقع بصندوق الضريح بل خارجه، ويقوم الزوار بمسح وجوههم فيه، ويقولون الشفاعة يا رسول الله، وبالجوانب الأربعة للضريح نوافذ ذات سياج نحاسي تطل على الطريق العام، والمحراب صغير، بناءً غاية في الجمال، مرصع بالأحجار الكريمة التي تشبه الصدف، ورُئيت القبة بالزجاج، وبالتكية دواليب محفوظ بها كتاب الله والوانى مرصعة بالجواهر، وسجلات للأوقاف، ويطل باب التكية على فناء الجامع إلى ناحية الشرق وضلعتى الباب مزيتان بالحلقات والنقوش الفضية، وكلها من آثار أصحاب الخير وإطار الباب من على الجوانب الأربعة مزين بقطع القيشاني المنقوش، وعلى الإطار العلوى له لوحة مرمرية دائرية مذهبة منقوش عليها بالخط الجلي:

(أمر بإنشاء هذا المقام المبارك مولانا السلطان قايتباي عز نصره).

ومن يصل ركعتين في محراب هذا الضريح يحفظ من كل بلاء الدهر، ولا يستطيع أى خصيم أن يخاصمه أو يعاديه، ولا يرى الفقر وإذا ما التجأ صاحب دين أو لص أو صاحب دم بهذا الضريح فإن الحاكم لا يستطيع أن يتعرض له طالما أنه بداخل الضريح أما إذا بقى هذا الشخص بالداخل أربعين يوم وليلة بلا طعام أو شراب فإنه سيموت بالطبع، وإذا كان الملتجئ إلى الضريح يلوذ به وهو مظلوم فإنه سيجد الخلاص بإذن الله، حتى أنه قد تدانين أحد الكاشفين من المال الميرى، وفر هذا الكاشف من جراء هذا الدين والتجأ إلى تكية السيد البدوي واعتكف بها، وقد أرسل الباشا الأغوات مرتين للقبض عليه ولكنهم لم يستطيعوا، وفي أحد الأيام أرسل الباشا أحد الأغوات المتفرقة ويدعى على أغا وكان رجلاً متجبراً، فأتى على أغا إلى ضريح البدوي وشم الشيخ سلامة والشيخ أحمد وأخرج الفرمان وضرب به وجوههم وقال: لتخرجوا الكاشف من

الضريح وإلا سوف أقبض عليكما وأرسلكما للبasha، فرد المشايخ: نحن؟ حاشا لله لن نستطيع إخراجه، ها هي المفاتيح أمامك خذها وافتح الباب واقبض عليه إن استطعت، فقال على أغا: أنتم اللذان ستفتحان الباب وتسلمانى الكاشف وإلا سأقوم بكسر الباب وإخراجه، وقد نصح الحقير على أغا بعدم كسر الباب قائلاً له: خذ المفاتيح وأخرج أنت الكاشف، وبعد ساعة كاملة من العناء لم يستطع على أغا أن يفتح الباب، فغضب وأمر خدامه بأن يخلعوا الباب وأخرجوا الكاشف من الداخل، فقال كل من فى المجلس بحسبى الله وتحيروا لهذا الصنيع، حتى أننا تحيرت جداً، أما الشيخ سلامة فقال: اصبروا قليلاً وذهب إلى بيته، وركب الأغا المذكور وخدامه الخيول وذهبوا وعندما خرجوا من المدينة وهم بقرية طوخ النصارى أخذ على أغا يتأوه من شدة الألم ومات وذهب به خدامه إلى مدينة طنطا وهو ميت ودفن هناك، وقد أخبر الحقير البasha بهذه الحادثة فعفى البasha عن الكاشف، وتصدق بعشرة آلاف قطعة من المال على المريدين الموجودين بالتكية.

وتوجد حجرة خارج الناحية اليسرى للتكية، بها صندوق خشبى محفوظ به خرقة البدوى وعمامة الخضراء يحفظها بعض المريدين، ويقام لهذه الحجرة احتفال مرة فى العلم، تكون يوم الجمعة الأخير المتم لمولد البدوى، حيث يقوم الشيخ عبد العال وهو ابن الشيخ البدوى بارتداء الخرقة والعمامة فى حضور المشايخ وآلاف المريدين وتدق الطبول والنفير والدفوف والتقارات ويخرج موكب عظيم به مئات الآلاف من الرايات ويكون كل جنود كاشف الغربية وكاشف المنوفية فى هذا الموكب ويدخل الشيخ عبد العال مدينة طنطا مع الموكب عمتطياً جواده ويستجول بالمدينة، ثم يصل إلى الجمعة فى جامع للشيخ المدبولى بالمدينة ثم يذهب الشيخ مع الموكب إلى التكية حيث يحفظ الخرقة والعمامة فى الغرفة ثم يتفرق كل الزوار حيث يذهب كل إلى بلده.

أوصاف الخرقة الشريفة والشال

الخرقة من القماش الأحمر ولكنها ممزقة إلى قطع صغيرة، أما الدستار فهو شال من صوف الإبل وقد تمزق بمرور الزمن وتم ترقيعه حتى لا يُبلى، ولا يستطيع أى أحد أن

يرتديه سوى أبناء المشايخ، والخرقة تفوح منها رائحة للعنبر الحام، توضع الخرقة بعد نهاية المولد في مكانها وسط تكبير العاشقين المشتاقين ثم يذهبون.

عاش السيد أحمد البدوي في عهد (١) مدة عمره (٢) سنة ووفاته سنة (٣) قُدس سره العزيز، والحمد لله أنه قد تسنى للحقير زيارته وصلى عنده الصلوات الخمسة وقد ختم الحقير القرآن ثلاث مرات في خمسة عشر يوماً بلياليها وروى ثوابها للبدوي والحمد لله على ذلك.

أوصاف ضريح الشيخ عبد العال

يقع ضريح الشيخ عبد العال بجانب باب القبلة الرئيسي للجامع بمحاذاة ضريح السيد البدوي، ولا يوجد أحد بالضريح غيره، ويرقد الشيخ عبد العال تحت صندوق من خشب السرو مغطى بالمخمل الأحمر، وعلى الصندوق سياج خشبي مصبغ الشكل، والضريح من الداخل غير مزين بدرجة كبيرة.

ظل الشيخ عبد العال خليفة للبدوي أربعين سنة في حياته وأربعين سنة بعد مماته، وكان صاحب سجادة، وله ما يقرب من مائة وسبعين ألف مريد، عاش مائة وعشرين سنة، وهو الذي عمّر مدينة طنطا، حيث كانت له قوة خارقة، قُدس سره العزيز، وهو من مريدي الشيخ أحمد البدوي ولم يكن له نصيب من العلم الظاهر بل كان له نصيب من علوم الباطن وارتحل عن الدنيا إلى الآخرة مجرّداً نظيفاً، وكان في حياته بمثابة ابن البدوي، حيث فوض له البدوي كل الأمور، وأبناءه هم أصحاب السجادة الآن وكل الأوقاف تحت حكمهم، إلا أن نظارتها منذ عهد السلطان قايتباي في عهدة ولاية مصر وعندما يحل والياً جديداً يقوم باستدعاء هؤلاء المشايخ ويحاسبهم عن تلك الأوقاف، حقاً إنها أوقاف عظيمة بها أموال كثيرة حيث تأتيها الذنور والصدقات من كل خلفاء ديار المسلمين وغير المسلمين، ويطل باب ضريح الشيخ عبد العال على قنات الجامع أو على قبلته، على عتبة العليا لوحة مربعة كتب عليها بالخط الأبيض آية: ﴿لَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] ويجوار الضريح مرقد خمسة من أبناء الشيخ عبد العال لم نعلم أسماءهم، قُدس سره العزيز.

فى بيان أولياء الله المدفونين بمدينة طنطا

وهم على طريقة البدوى

أولاً: بيان الموجودين خارج المدينة:

الشيخ نور الدين والشيخ عبد المجيد شمس الدين والشيخ حسن والشيخ عبد الكريم.

ثانياً: بيان الموجودين داخل المدينة:

الشيخ سالم والشيخ عبد العزيز والشيخ سعد والشيخ السيد على البربرى والشيخ ركيل والشيخ السيد عبد الحق والشيخ السيد ذو النون والشيخ السيد عبد الله. وبخلاف هؤلاء توجد العديد من الأضرحة التى قمنا بزيارتها ولكنها لمشايخ غير معروفين، ولكل شيخ منهم ضريح، رحمة الله عليهم أجمعين.

وبمدينة طنطا أيضاً جامع الشيخ إبراهيم المدبولي، وقد كان هذا الجامع قديماً الجامع القديم بالمدينة، وقد تعبد فيه البدوى فترة طويلة ومقامه به الآن متهدم، وأحمد الله أنى قد أبلغت جانبولاط حسين باشا بذلك، فصرح لى بأن أقوم بمراجعة أوقاف هذا المحل، وقد تم ترميم الجامع من المال الفائض من أموال الأوقاف، وارتدى خليفة البدوى الخرقة الشريفة والشال الخاص بالبدوى وأدى صلاة الجمعة الأخيرة فى مقام البدوى الموجود به، إنه جامع قديم تتوسط فناءه شجرة سدر كبيرة، وقد بنى هذا الجامع على أربعين عاموداً ولا توجد به رينات كثيرة، ومحرابه ومنبره على الطراز القديم، وللجامع بابان جانبيان، وباب لمقام البدوى ومثناة منخفضة، وتنتهى الزيارات فى هذا المكان، وبذلك نكون قد انتهينا من أوصاف الجامعين أيضاً.

وبخلاف ذلك يوجد ضريح بين تلك الأضرحة وبه حكمة عجيبة، حيث تمتلى أرضيته بالرمال، وفى أيام مولد البدوى تتحرك تلك الرمال ويخرج منها عظام بشرية، ويلى آلاف الأهالى لرؤيتها حتى أن بعض الرجال يأخذون من تلك العظام، بعد ذلك تهب رياح قوية تتحرك على أثرها الرمال مرة أخرى فتختفى العظام تحتها، ويقول البعض إن هذه العظام هى عظام مريدى أحمد البدوى، ويقولون إنها تخرج أيام المولد

وتحرك والبعض الآخر يقول إن تلك المعظام هي عظام الأشخاص الذين كانوا منكرين للبدوى ومنكرين لكرامته ومنكرين للذكر والتوحيد بالدف والطبل، فدعا عليهم البدوى قائلاً بأن لا يرقد لهم جسد فى التراب وبالتالي تلفظهم الأرض فى كل عام، والله أعلم. وقد شاهد الحقيق بنفسه هذه المعظام فى أيام المولد.

وبميدان الملعب زاوية كبيرة مثل الجامع لا توجد لها مثذنة ولكنها زاوية عامرة للغاية، ولا يوجد بالمدينة مسجد يضاهيها، والزاوية من خيرات المرحوم على بك الجرجاوى حتى أنها تعرف باسم مصطبة على بك، وأمام محراب الزاوية يوجد بركس عظيم قطره دائر ما دار ثلاثمائة خطوة به أحواض لسقى الحيوانات، يشرب منها معظم الحيوانات كما يشرب منها كل الزوار ويجددون منها وضوءهم إنها خيرات عظيمة، وبذلك يكون بالمدينة أربعين محراباً بهذه الزاوية، منها اثنان فقط جوامع جامعة تقام بهما خطبة الجمعة، وقد ذكرناها آنفاً، وما عدا هذين الجامعين زوايا، وبمدينة طنطا حمام صغير ومدرستين إحداهما مدرسة السيد البدوى وبها طلاب كثيرون بها ما يزيد على ألف شخص أعمى من حفظ كتاب الله يختمون القرآن كل سبع أو ثمانى ساعات، وبجامع البدوى عمارة تقدم الطعام مرتين فى اليوم للمريدين والفقراء وعابرى السبيل، حيث تقدم القمح مع حساء العدس وقطعة خبز وأتمة ومشايخ وخطباء الجامع ثمانمائة شخص يأخذون جرايتهم وروايتهم من أوقاف البدوى كما يتم طهو ثلاثة أرباب قمح وأردب عدس وتذبح بقرة وخمس نعاج يومياً فى عمارة البدوى وتقدم للفقراء والمريدين والزوار خلال أيام المولد، وفى الأيام العادية يُطهى المقدار الكافى فقط ويقدم كله للفقراء والمريدين.

وبالمدينة سبعة مكاتب للصبيان وثلاثة أسبلة، وماء سبيل البدوى مثل ماء الحياة، وكل الحوانيت بالمدينة ثلاثمائة حانوت ولكن فى أيام المولد تزيد على آلاف حانوت لكثرة الخيام الصغيرة والكبيرة التى تنصب فى المدينة، ولا يوجد بالمدينة محلات أقمشة، إلا أن بها سبع وكالات بها بضائع لتجار يقدون من اليمن والهند والسند والعجم والروم والعرب، والبضائع فى تلك الوكالات تباع بلا قيمة لا سيما وأن بها كل البضائع،

وبالمدينة سبع مقام تعج بكثير من المداحين والمطربين والقواسين، ومدينة طنطا ليست وقتاً للسيد أحمد البدوي بل هي التزام للمستزمين، أما وقف البدوي فهو عبارة عن حصص من بعض القرى والبلدان الواقعة شمال طنطا مثل قرية قحافة وكفر النور وبها أفدنة وأوراق بلا حساب، كما أنه لو توفي شخص ولم يكن له ولد فإن كل ثروته تؤول إلى وقف البدوي.

مناقب البدوي

عندما كان جان بولاط حسين باشا والياً على مصر عام ١٠٨٣ هـ كانت هناك طائفة تسمى أبناء العوار أشقياء قاطعون للطريق يقوم كل خمسمائة أو ستمائة خيال ملعون منهم بالنصب والسلب للقرى والقصبات المجاورة لطنطا، وذات يوم هجموا على قرية من أوقاف البدوي وهي قرية قحافة وأخذوا منها الإبل والبقر والغنم وقد علم حسين باشا بذلك وتأثر كثيراً، وعلى الفور أخرج تجريدة مكونة من ألف رجل من الفرقة السابعة وعين عليهم قوجه مصطفى أغا من أمراء الشراكسة، هجم قوجه مصطفى باشا بقواته فجأة ليلاً على ابن العوار وتحاربت الطائفتان ولم يجد ابن العوار مجالاً فتحول كره إلى قر، والتجأ إلى تكية أحمد البدوي وقال أغثنا يا بدوي وتعقبهم الجند وحاصروا قصبة أحمد البدوي وتحصن ابن العوار في التكية يوماً وليلة وكأنه مستحصن في قلعة، وكان يصعد إلى مثذنة المسجد ويطلق النيران على الجند، وكان اللصوص الموجودون معه ينادون من داخل التكية على الجند «يا بدوي يا بدوي» في تهكم وقد هجم أفراد التجريدة من كل نواحي القصبة بشجاعة فائقة، وفي تلك الأثناء فتحت أبواب الجامع والتكية وخرج العلماء والمجاورون وقالوا لقد اختفى الأشقياء وكانت كل أمتعتهم وخيولهم موجودة، أما الأشقياء فقد اختفوا وهم عارون فقال الجند ربما تكون تلك حميلة من الأشقياء ودخل الجند المدينة، واغتموا كل أمتعة اللصوص وثلاثمائة جواد وثلاثمائة سيف ورمح ونبت بخلاف الملابس.

وفى تلك الاثناء دخل رجل بيت الخلاء ليقتضى حاجته وفيما هو بمفرده فى بيت الخلاء سمع صوت صدى أقدام قاتنى من مجارى المراحيض ، وقف الرجل ونظر فإذا بالاشرار-المفسدين قد نزلوا إلى مجارى المراحيض فربط الرجل سرواله وهرول إلى القائد وأخبره فقام القائد بسد فتحة المجارى التى تخرج خارج المدينة ببناء خرسانى وأمر بدفع الميناء الموجودة فى الخوض المضافى إلى المجارى وجعل البقر يدور فى السواقي فامتلات المجارى بالقافورات وخشى الملاعين أن يخرقوا فى مياه النجاسة ، وعلى الفور أظهر كل شخص منهم رأسه من فتحات المراحيض وعندما خرج الملاعين لم يكن هناك إمكانية للقبض عليهم والإمساك بهم لأنهم كانوا ملوثين بالنجاسة ، وتم قتلهم بالسيوف والبلط والنبايت وهم كالحنايرز الملوثين وقتل منهم ثلاثمائة وخمسة أشخاص ثم نظفت الجثث من الروث والنجس وقطعت رؤوسهم عن أجسامهم وأرسلت رؤوسهم جميعاً إلى ديوان حصر فابتهج الموالى وأنعم على هؤلاء الجند وبذلك ظهرت تكية البدوى من هؤلاء الاشرار ، وهكذا غرق كل الاشقياء الذين نهبوا قرية قحافة من أوقاف السيد البدوى فى الماء النجس بالمهانة وسحبت رؤوسهم وكان هذا من تصرف أحمد البدوى قدس سره العزيز .

وبقرية قحافة التى نهبها هؤلاء الاشقياء خليفة للبدوى وهو من أصحاب الكشف والكرامات وله فى كل ديار الإسلام أربعة آلاف خليفة ومئات الألوف من المريدين ، وكل مكاسبهم وأوراقهم من أوقاف البدوى ، كما يحصل الفقراء العرب والروم والعجم الأموال من هذا الوقف ، حيث يأتون مرة واحدة فى المكان الذى يكون فيه المولد ، ويضعون تلك الاشياء التى جمعوها أمام الخليفة ، وفى الليلة الاخيرة من المولد يصبح مائتين أو ثلاثمائة خليفة من خلفاء البدوى أصحاب سجاد ، ويصل هؤلاء الخلفاء إلى ديارهم معززين مكرمين على دقات الطبول والصيحات والدفوف ، ويخرج كل أهالى هذه الديار إلى استقبالهم بالتعظيم والتكريم وفى حالة عدم وجود تكية للبدوى فى تلك الديار الذهاب إليها الخلفاء وينشئ بها تكية على الفور ، حيث يسكن بها هذا الخليفة هذا بالإضافة إلى أنها تطيب خواطرهم كما أنها بركات البدوى .

أوصاف مولد السيد أحمد البدوي بصحراء طنطا

يوجد وادي بين قسبة طنطا ومحلة مرحوم يبعد عن المدينة بمقدار ثلاثة آلاف خطوة وقديماً كان كل التجار وأهل الحرف يذهبون إلى هذا الوادي قبل قطع النيل بعشرين يوماً، وعندما كانوا يصلون إلى منتصف طريق محلة مرحوم ينصبون الخيام على جانبي الطريق وتنصب أيضاً آلاف الحوانيت والمقاهي، ثم يأتي جميع المشايخ البدوية وينصبون خيامهم بجوار تلك الأسواق الواقعة في الناحية الشمالية للمدينة، حيث يقوم اثنا عشر خليفة من خلفاء البدوي بنصب خيامهم في هذا الميدان، ويأتي كل المريدن وينصبون خيامهم على الترتيب المفصل الموجود عند البدوية، يكون الشيخ مصطفى الرومي في المقدمة وهو من طريقة مرزوق كفافى والبدوية تنتهي عنده، ثم يليه الشيخ الإمبابي، ثم الشيخ الكائناسي ثم الشيخ الشناوي ويمكث مع عشرة آلاف مريد من مريديه، ثم الشيخ أحمد القليوبى ثم الشيخ عثمان ثم الشيخ الغمراوي وخلاصة القول أن كل الخلفاء يكتفون في أماكنهم، وكل المشايخ الذين يأتون بعد ذلك ينصبون خيامهم في المكان الذي يجده خالياً، وخلف هؤلاء المشايخ يربط ألف جندي مسلح من جنود كاشف المنوفية، يقومون بحماية الأسواق والمشايخ فيستجول كل الجنود ليلاً وإذا ما وجدوا أى لص أو قاتل قتلوه على الفور.

ثم بعد ذلك يبدأ مريدو اليمن والهند والحيش والعجم في المجيء أفواجاً وكانهم البحر، ويكتفون في خيامهم في هذا الوادي المعبشوشب بخيامهم وسناجقهم وراياتهم، وبعد ذلك اعتباراً من اليوم السادس يأتي كاشف الغربية بفرمان وإلى مصر مع ألفين من جنود مصر وألف خيال عربى وخمسمائة صبي من حملة الثبوت والقواسين على دقات الطبول، رافعين الرايات، ويستعد كاشف المنوفية بجنوده أيضاً لملاقاة كاشف الغربية وتغزف الأقواس، ولا يوجد لكاشف المنوفية خمس طبقات من الموسيقى العسكرية مثل كاشف الغربية، وذلك لأن كاشف الغربية نال رتبة الباشاوية ويعتضى قانون الظاهر ببيرس يتصدر كاشف الغربية كل الكاشفين ما عدا وإلى جرجا وذلك لأن مرتبة وإلى جرجا أعلى منه، ثم يتوقف كاشف المنوفية للسلام على كاشف الغربية ويمر الموكبان بين

خضم كبير من الناس كأنهم البحر، ويمكث الجميع فى خيامهم، وقد مكث الحقيير أيضاً مع رفقته مع الموكب وسلم الحقيير فرمانات الوزير إبراهيم باشا للكاشف حيث قُرئت فى الديوان وجاء فيها ما يلى: «إلى حسن أغا كاشف الغربية لتكن على بصيرة ويقظة حتى انتهاء مولد السيد أحمد البدوى الموجود بإيالتكم ولتحفظوا كل الزوار والتجار، ولتتمنوا أشقياء العريان من المجرىء بالخيول إلى ميدان الملعب وأن تمنعوا أى شغب يقومون به»، فقال الكاشف سمعنا وأطعنا.

كما قدمت رسائل كتخدا الباشا وقرأت على الملأ وجاء فيها أن يقوم الكاشف بالإحسان على أوليا جلى بخیل مزين وكيس من النقود المصرية، وقد أحسن الكاشف على الحقيير بجواد فضى السرج مذهب الركاب وكيس من المال وخمسة آلاف عملة حالية كما أمر الكاشف بفرش خيمة لنا بجانب خيمته أقمت فيها ثلاثة أيام بلياليها، كما نزلت ضيفاً بمنزل خليفة البدوى لمدة عشر ليال، وبعد أن جاء الكاشفان إلى ميدان المولد ومكثا فيه واستتب الأمن هناك، قام كل التجار والزوار بإخراج أمتعتهم وبضاعتهم ليعرضوها وحيث يتم البيع والشراء بشكل لا يمكن التعبير عنه، ويزين الجميع خيامه بآلاف القناديل والسناجق والأعلام بشكل لا يمكن وصفه، وقد كان بهذا الميدان الذى يقام فيه المولد صفةً للبدوى يتعبد فيها خارج المدينة فى مكان لا يعرفه أحد يُطلق الاهالى عليها مقام السيد البدوى وهى مكان للتعبد وبها صارى اتفاعه ثمانون ذراعاً به خيوط يعلق بها القناديل التى يبلغ عددها أربعين ألف قنديل فتصبح الصفة وكأنها خيمة عظيمة ذات صارٍ مثل خيام الوزراء، وفى بلاد العرب يقولون على تلك القناديل إشارة، وللصفة أربعون خادماً يشعلون كل ليلة عشرة قناطير من زيت السمسم، وقد وقف لها صاحب الخيرات فى خمسة عشر يوماً بلياليها عشرين ألف پاره، ويضاء الميدان كله بآلاف القناديل الصغيرة والكبيرة، وعندما ذهب المشايخ لحضرة إبراهيم باشا للحصول منه على الإذن بإقامة المولد وذلك فى السنة التى كنا فيها هناك، قال لهم الوزير: أيها المشايخ الكرام لتكونوا على بصيرة فى هذه السنة ولتكن الأفراح والاحتفالات أكثر من العام الماضى، إنه مولد النبى، إنها شعائر الإسلام فقال كل المشايخ على الرأس والعين

يا وزير، وعندما شاع هذا الخبر على أفواه الناس اجتمع أناس كثيرون من أعيان وأشرف مصر والشام وحلب والعرب والعجم للاحتفال بمولد البدوي، وكانت هناك ثلاثة آلاف وسبعمائة خيمة وأطاق بخلاف الخيام الصغيرة المصنوعة من الكلیم وهي الخيام الخاصة بالعربان، وقد قام أصحاب الخير بوضع أسبلة المياه على رأس كل الطرقات لأن المياه في هذا الميدان قليلة، ولم تكن الأسبلة تكفي هذا الكم الهائل من البشر الذي يقدر عددهم بمئات الآلاف والنيل المبارك يبعد عن هذا المكان بمقدار ساعة عند محلة مرحوم، ويحيط جند الكاشفين بهذا الكم الهائل من البشر ليلاً ونهاراً يقومون بحراستهم، أما أعيان مصر فحرسهم خدامهم، وذلك لأن اللصوص وأبناء الحرام يكثرون في هذا الجمع ويكون موجوداً في هذا الميدان كل يوم عشرة أو خمسة عشر ألف من العربان العرايا برماحهم ويكونون مثل الغابة.

فصل في بيان اللاعبين وأصحاب المهارات في مولد البدوي

يقوم مئات العارفين من الطريقة البدوية والطريقة السعدية بمسك قطع الحديد التي احمرت من شدة النيران بأيديهم، ويلعقونها بالسهم لتسكين نار الشوق التي عندهم، ولإظهار معرفتهم، وبعضهم يأكل قطع النار التي احمرت مثل العقيق الأحمر، والحاصل أنه يجتمع في ميدان البدوي سبعة وسبعين فرقة من أصحاب الألعاب كالأعبي النار ولاعبي الحبل ولاعبي اليد ولاعبي خيال الظل، ولاعبي الخزف، ولاعبي السحر، ولاعبي القمار، ولاعبي الحمار، ولاعبي الطيور، ولاعبي الديك، ولاعبي الطاس، ولاعبي القرد، ولاعبي الكلب، ولاعبي القدح، ولاعبي الكباش، ولاعبي المرأة، ولاعبي الشعبان، ولاعبي العين، ولو دوناً كل ما يقوم به كل لاعب سنكتب كتاباً مفصلاً، ويكثر اللصوص والنشالين، ويجب على كل من يكون هناك أن ينتبه ويكون على يقظة دائماً، فمشهور عن اللصوص أنهم يسرقون الكحل من العين، أما لصوص مصر فعندهم من المهارة ما يجعلهم يستطيعون سرقة العين ويبقى الكحل مكانه.

ومن العجائب التي رأيناها هناك: أن الثعابين الموجودة مع لاعبي الثعبان كبيرة وضخمة للغاية، تخيف الإنسان، والعجب أن لكل ثعبان منها اسم إذا ما قام صاحبه بالنداء عليه، فإنه يأتيه، وإذا نادى على ثعبان ما باسمه وأخطأ ثعبان آخر وأتى بدلاً منه، يعاقبه صاحبه، وقد أتى أحد الدراويش البدويين في الميدان وأخرج ثعباناً كبيراً من جعبته، وعندما كان يناديه باسمه يتحرك، كأنه يفهم الكلام، وعندما يشير إليه بالرقص يرقص، وبينما كان هذا الدراويش يقوم بملاعبة الثعبان أمام الناس، جاء أحد مريدي البدوى، ونظر إلى الثعبان وقبض عليه بيده، ووضع في فمه وأكله، وعندما رأى الدراويش صاحب الثعبان هذا الأمر، أخذ يصيح ويقول أيها المسلمون، هل يجوز ذلك؟ لقد علّمت ثعباني هذا طوال عشر سنوات كاملة حتى أصبح يفهم كل شيء، وأتبعني منه أنا وأبنائي، فهو يغنينا عن السؤال، واحتكم الاثنان إلى القاضي، فقال الدراويش صاحب الثعبان، يا مولانا لقد ظلمت أعلم ثعباني هذا عشر سنوات، أتبعني منه أنا وأبنائي، ثم جاء هذا الرجل وأكله، فماذا أنا فاعل؟

فقال القاضي للرجل: لماذا أكلت الثعبان؟ فقال: يا مولاي وجدته ثعباناً سمياً لطيفاً، وكنت جائعاً.

فقال القاضي للدراويش: كم تريد ثمناً لثعبانك؟

فقال الرجل: أريد عملة ذهبية.

فدفع الرجل العملة الذهبية، وسار وهو يمسح فمه.

عجيبة أخرى

كان يوجد أيضاً أحد الدراويش التابعين للبدوى يرتدى جبة صفراء، يلعب بالديك في هذا الميدان. كان هذا الديك ذا عرف أحمر على رأسه وفاتماً كان الديك يجلس على رأس هذا البدوى. وإذا ما جاء شخص وأعطى للديك پارة يقوم الديك بضرب جناحيه ويصيح، ولكن لم أسمع إلى صياحه، ثم يقول له يا فرخ وحد الله فيقول الديك بضرب جناحيه ثلاث مرات ويقول بصوت عال لا إله إلا الله محمد رسول الله. والله أعلم.

كان يقول لا إله بأجزاء الحروف ثم يقوم الديك بالرقص على الأرض ثم يستقر مرة أخرى على رأس البدوى، شيء عجيب وغريب. لذا يقولون على هذا البدوى أنه من أصحاب الكرامات ويجمع هذا الديك يومياً في هذا التجمع ما يقرب من ألف ياره. وغير ذلك توجد العديد والعديد من العجائب والعبر. منها:

عبرة أخرى

هي: أحد العارفين بالسحر المقبول وقد شاهدناه ومعه شخص يدعى نصر الدين الطنجاوى من بلاد المغرب، قام هذا الشيخ بدعوى الأعيان والكبار الموجودين بالحيايم لمشاهدته في الميدان، واجتمع أناس كثيرون فكانوا فوق بعضهم البعض من كثرتهم. ثم قام هذا الشخص بوضع يده على صدره ثم قام بدق عصا في الأرض وأخرج من جعبته عدة أشياء مستديرة تشبه الكرة وكانت حمراء وأخذ يلعب بها، ثم أخرج ثلاث كرات أخرى مختلفة من جعبته وظل يلقيها بيده ويمسكها وأظهر مهارة وغرابة في لعبه.

ثم قام بدحرجة هذه الأشياء الدائرة أمام الحضور فمنهم من يمسكها ومنهم من ينظر إليها ومنهم من يلقيها بقدمه ثم تحول الساحر في الميدان وأخذ الكرة في يده وأخذ يلقيها في الهواء ويمسكها وكان قد ظهر من حافة الكرة حبل فقام الساحر بإعطاء طرف الحبل إلى أحد المشاهدين وقال له شد الحبل وكلما كان الرجل يشد الحبل يخرج معه حتى تجمع على الأرض أحبال كثيرة، والغريب هنا أنه كيف يخرج هذا الحبل من كرة في حجم رأس إنسان، إن الحبل الذى كان يخرج منها كان بمقدار حمل بعير. ثم قام الساحر بربط طرف الحبل في العصى التى ثبتها في الأرض وقذف الكرة لأعلى فظلت الكرة معلقة في الهواء وطرف من هذا الحبل مربوط في العصى والطرف الآخر في الكرة المعلقة ثم قام الساحر بلصق يده على الحبل وصاح قائلاً إنزلى أيتها الكرة الحمراء فلم تنزل الكرة، كرر ذلك ولم تنزل الكرة فنأدى على بعض الرجال الشجعان وخدامه وقال لهم شدوا الحبل حتى تنزل، وحاولوا جاهدين ولكن الكرة لم تنزل، فقام الرجل بمسك الحبل وسحبه رويداً رويداً ولم تنزل، فتعجب كل الموجودين وتحدث الساحر إلى الكرة بكلمات غير مفهومة وقال للحاضرين يا أمة محمد إن الكرة تقول لكم «لقد أظهرت

لكم الكثير، فلو قام كل واحد منكم بمنح الساحر پاره سوف أنزل وسأريكم الكثير والكثير إننا نتمنى من كل واحد منكم عملة واحدة فقام كل الأعيان الكبار بمنح الساحر الأموال حتى جمع عشرة آلاف پاره فقام الساحر بلمصق يده على الحبل وهزه وقال أيتها الكرة لقد حصل المراد ليبارك الله فيما أعطانا والآن أنزلى.

ولكن الكرة لم تنزل أيضاً فقال الساحر يا مسلمين إن الكرة لا تنزل لترجوها كلكم فصاح الصغير والكبير أنزلى أنزلى. وعلى الفور اتجهت الكرة يمينا ويسارا ثم نزلت على الأرض. فقام الساحر بوضع الكرة والخيط الحرير الرقيق فى جعبته بعد أن أظهر معارف كثيرة. يحتار العقل لكل منها. ولكنى قد أستطيع تفسير هذا يعقلى القاصر على أن تلك الكرة تكون مملوءة من الداخل بالندى وعندما يرى الندى الحرارة يتبخر فى الهواء ويقوم الساحر بإلقاء الكرة فى الهواء عندما يكون الحر شديداً، وبعد هذا الوقت من الكلام وتحصيل المال يكون الندى الموجود بالكرة قد تبخر فتزل الكرة، ولم يحط عقلى بغير هذا وقد قبل عقلى هذا، وعندما كنت فى مدينة ()^(١) الألمانية بعد فتح قلعة ليفار عام ١٠٧٣ هـ لعب الساحر بالكرة وأظهر فيها براعة كبرى، كما أظهر هذا الساحر أيضاً معرفته فى ميدان البدوى، ولو أننا حورنا كل ما شاهدناه لجاء فى كتاب كبير.

تتزين كل أركان طنطا فى ذلك اليوم بالألعاب التى تتأرجح فى الهواء، ويركها الصغير والكبير وذلك لأن يوم مولد البدوى يوم عيد. فهو بمثابة اللهاى المباركة، كما يوجد فى أركان الميدان خيام العاشقين الصادقين يذكرون الله على دقات الطبول والدفوف والسنقارات وبذلك تكون الاحتفالات فى كل ركن من أركان المدينة وتُطهى آلاف القدور من الطعام اللذيذ يأكل منه كل الزوار، ولحكمة الله أنه لو قام شخص بجلب الخمر إلى المولد فلأنها تتحول إلى خيل يسر السيد البدوى. ولكن توجد المشروبات اللذيذة مثل العرقسوس والتمر هندي والديس. وفى تلك الأثناء يقوم كل مشايخ الطرق والمريدون بالدق على الطبول والدفوف ويرفعون الأعلام والرايات ويصيحون بذكر الله فيقوم كل المريدين بالذكر وهم يدورون ويسيرون على هذا المنوال

(١) بياض فى الأصل.

حتى يصلوا إلى ضريح أحمد البدوي يذهبون أفواجاً أفواجاً. وتكون الطرق مزدحمة جداً حتى أن بعض النساء والصبايا يقعون تحت الأقدام ويموتون وأظن أن هذا الزحام لا يوجد بنفس الدرجة في زيارة مكة والمدينة وأثناء الطواف. ويستمر هذا الزحام لمدة عشرة أيام بلياليها عند زيارة البدوي ويكون جمعاً عظيماً كيوم الحشر فتتلاصق الاكتاف فيه وتصبح مدينة طنطا عبارة عن حلقة ذكر ما بين كلمة هو والحق القيوم وذكر الله ويصل صدى ذكر الله إلى عنان السماء.

ويقوم الأثرياء من الأعيان الكبار بفرش خيامهم بالسجاد والبريشم والقطيفة والأطلس والقماش الهندي ويفرشون أيضاً الأرائك والمقاعد المزينة؛ كما يزينون تلك الخيام بالبساط والأستلحة والأواني الفضية. ويضعون الاعلام والرايات أمام الخيام. ويشعلون آلاف القناديل والمصابيح ويتسامر أهل تلك الخيام ليلاً ونهاراً، ويدعون للسلطان بدوام دولته.

يزين كل المشايخ أيضاً خيامهم بمئات الآلاف من القناديل والاعلام والرايات ويقيمون فيها مشغليين بالعبادة والذكر. والحاصل أن كل مزغوب موجود في مولد البدوي. أما العارفون بالله فيفضلون الانزواء عن هذه الكثرة يأسون بالوحدة بعيداً عن أي عالم آخر حيث ينظرون إلى الدنيا بعين الإمعان ويجلون قلوبهم ويتطصلون إلى المنحة الدائمة فالدنيا فانية: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] ففى نفس الوقت الذى يكون فيه أهل الظاهر نائمون فى غفلتهم يكون أهل الباطن من العارفين بالله مشغولون بالتوحيد والتمجيد والذكر فى منتصف الليل ويطلق المولد الشريف فى آلاف الأماكن ويقوم الذاكرون الشاكرون ذوى النصوص العذبة بمدح الرسول ﷺ، فملاً صدى أصواتهم المكان، فيشمل الرجال من شدة الشوق. ولأن آلاف القناديل والمشاعل تضاء فى تلك الصحارى تجعل الليل هناك نهاراً وتكون بمثابة العلامة فى الصحراء. وينشغل كل شخص بشئ فى تلك الليالى: (نظم)

عندما يتجلى الخلاق إلى عالم الأزل يتسلى كل شخص بحاله
فطلق آلاف الطلقات النارية فى السماء على أشكال وصور كثيرة فتجعل ليل مدينة

طنطا نهارة. وبدأ إطلاق تلك الأعيرة لمدة ثلاثة أيام بلياليها. حيث ينفق كل واحد منهم ألفى قرش على تلك الأعيرة وتحترق خيام كثيرة من جرائها وتعد تلك الأعيرة من القوانين القديمة، فقد حدث أن أتى السلطان قايتباى إلى مولد البدوى وأنفق أموالاً كثيرة وأقيمت الاحتفالات الكثيرة لذلك.

وخلاصة الكلام أن الحقير سياج العالم أوليا ساح فى الأرض واحداً وأربعين سنة تجول فى أراضي ثمان عشرة سلطنة ولم يتيسر له مشاهدة هذا إلا فى مصر. وقد شاهد احتفالات كثيرة منها احتفالات قطع النيل المبارك بمصر واحتفالات الجيش الهمايونى فى إستانبول واحتفالات الباشا القبطان فى سراى بورنو والاحتفالات عند فتح القلاع ومولد الأمراء وعودة السلطان من الغزو. واحتفالات شهر رجب وشعبان احتفالات مصنع الورق فى إستانبول واحتفالات الفيزان واحتفالات آق بابا واحتفالات مصنع البارود فى إمالة بودين واحتفالات قونية واحتفالات ملاطية ومسيرة مدينة البصان فى بودستان واحتفالات حدائق صوفاق بكفة واحتفالات بندير حسن بالقرب من العراق واحتفالات كيلانى ببلاد المعجم واحتفالات مشهد الإمام على ويوم عاشوراء فى تبريز والتجمع فى يوم قتل الحسين واحتفالات سليمان بك فى بغداد، يسر الله للحقير رؤية كل تلك الاحتفالات والتجمعات ولكنها كلها بمثابة الجزء من احتفال البدوى بل إنها لا تساوى احتفال يوم أو ليلة من احتفال البدوى.

ويأتى عباد الله من بلاد العرب والمعجم والهند والسند تاركين أموالهم وأبناءهم قائلين: يا بدوى ويشدون الرحال إليه وينفقون كثيراً من الأموال ويأتون إلى البدوى ويمسحون وجوههم بتكيتة ويحتفلون به ولو قام شخص وجهه بتكية البدوى بنية خالصة لله فإنه يشفى من كل الأمراض والآلام واضطراب الأبدان بإذن الله ويكون ذلك بمثابة الحفظ له من كل الأمراض. وهذا مجرب والتجمع الكبير الذى يفوق تجمع البدوى هو اجتماع الحجاج فى منى بعد نزولهم من عرفات، حيث يكون عددهم سبعين ألفاً بخلاف الدواب والحيوانات، إنه تجمع كبير لا يُضَاهَى، وثمة فائدة فى تلك التجمعات الكبرى لا توجد فيما سواها زوال الحجاب فيما بين الله والعبد، فيتوب العبد توبة

نصوحاً لله فيعود كما ولدته أمه. والحديث الشريف دليل على ذلك: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)^(١) أى أن كل من يستأنس بربه فى هذا التجمع فى مكة والمدينة أو حتى عند البدوى فيجد ربه ويسأله التوبة يتوب عليه.

وقد قيل أن القطب الغوث يحضر كل عام فى مولد البدوى وقد شوهده عدة مرات. وفى اليوم الثامن من مولد البدوى ينادى المنادون بين كل الزوار بأن مولد الشيخ محمد بن زين يوم الجمعة فى مدينة النهارية. وعندما يسمع الزوار هذا النداء يقوم بعض الزوار والتجار بفك خيامهم ويرحلون إلى مدينة النهارية. وفى تلك الأيام يتم بيع ألف حمل جمل من الحمص فى سوق المولد كما يباع آلاف القناطر من الحلوى وهذا ليس مبالغه وذلك لأنه قد جرت العادة أن يأخذ كل الزوار الحمص لديارهم من مولد السيد البدوى تبركاً، والحمص لذيد للغاية وليس خاص ببلد معينة.

وفى اليوم التالى وهو يوم الجمعة يقوم الكاشفون والجند بالتجمع عند خيمة الكاشف وتقام لهم مائدة عظيمة يتناولون منها جميعاً ويُمنح كل جندى من الجنود الجورياجيه الموجودون فى محافظة الغربية جواداً أو ناقة وذلك لأن كل شخص منهم خدم ستة أشهر كاملة ثم يعودون إلى بلدانهم. ثم بعد ذلك تقام مائدة كاشف المنوفية، ويمنح كل جندى من الجورياجيه أيضاً جواداً وناقة وحجة شرعية بأدائهم الخدمة ثم يعودون إلى ديارهم. بعد ذلك يذهب كاشف الغربية والمنوفية مع جنودهم إلى ضريح البدوى، ويفتحون حجرة الخرقه ويقوم الكاشفان بالباس خرقه وعمامة البدوى لخليفته ويسيرون به فى موكب عظيم من داخل المدينة إلى جامع المدبولى ويؤدون صلاة الجمعة هناك وعندما يهيم الخليفة بالرجوع إلى الضريح يخرج كل الزوار لاستقباله ورؤيته. ويسير الخليفة بينهم حتى يصل إلى الضريح ويعيد الخرقه والعمامة مكانها. ويتسلم الحجة الشرعية التى تفيد أدائهما الخدمة أيضاً، ويقومان بزيارة الوداع ويتجهان إلى مصر، وبذلك يكون قد انتهى مولد البدوى، وفى هذا إعلان مولد البدوى ومن ثم تنتهى

(١) رواه الطبرانى بإسناد رجاله رجال الصحيح من حديث ابن مسعود - رضى الله عنه - .
انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ٢٠٠ / ١٠.

مسئولية الكاشفين في الحماية والحراسة، وتكون حيثنذ في يد المسلمين والقائم مقام لذا يبدأ لصوص العربان في أعمال السرقة.

بعد ذلك يبدأ بقية الزوار في حل خيامهم الكبيرة والصغيرة وتوضع الاحمال على مئات الآلاف من الجياد والبغال والإبل والحمر، وحيثنذ تكون ضجة كبيرة في صحراء طنطا فالكل يهيم بالرحيل ولا يبقى فرد واحد من الزوار هناك ولأن الحاكم قد أذن للكاشفين بالذهاب من هناك فإن الزوار والتجار يخشون على أنفسهم من تسلط العربان، إنه يوم عظيم الدهشة من شدة الاضطراب التي تعترى المكان في ذلك اليوم ويرحل الجميع من هذا الوادي ولا يبقى به أحد ويتجه هذا الجمع الغفير إلى أماكن متفرقة، كما يرحل خلفاء البدوى إلى مدينة طنطا لأنهم سيقومون بإحياء ليلة السبت في تكية البدوى حيث يكون المولد الشريف ويقولون أن أرواح كل الأولياء تحضر معهم حينذاك. ويقوم كل المشايخ والمريدين بتلاوة ما يزيد على ألف ختمة شريفة، وفي اليوم التالى يقوم المشايخ والمريدون بزيارة الوداع. ثم يعتزمون العودة إلى منازلهم ثم يقوم كل مشايخ التكية وخدامها وخادم الضريح بغسل التكية والضريح بماء الورد ويقومون بتنظيف كل أحجار الفناء ويفرشونه بالسجاد الإبريشم. وفي اليوم التالى يقوم الأهالى بفتح ترعة خليج القرنين الموجودة على أراضى منوف، فيسير ماء النيل المبارك بعظمة الله إلى تلك الأراضى التي كان بها المولد فتغرقها المياه تمامًا لدرجة تجعل أى شخص لا يستطيع وضع قدمه فيها.

لقد شاهد الحقير آلاف العجائب والغرائب في مدينة طنطا وقمنا بتوديع الشيخ سلامة والشيخ أحمد خليفة البدوى والشيخ جلى وكل الأئمة والخطباء والأحباء، وختمنا ختمة شريفة في تكية البدوى وطلبنا المدد من روحه وزرنا زيارة الوداع وقبلنا عتبته وعقدنا النية على المسير لمدينة النهارية.

أولاً خرجنا من مدينة طنطا وسرنا إلى ناحية الشمال لمسافة أربعة آلاف وخمسمائة خطوة في مكان فسيح حتى وصلنا محلة مرحوم. وسبب تسميتها بهذا الاسم ما يلي:

بعد دخول هولاء بغداد وتدميرها هرب أحد أمراء العباسيين إلى مصر واستقبله السلطان (١) من سلاطين مصر وأنعم عليه بتلك المحلة وكانت مدينة كبيرة عامرة. وشاءت حكمة الله أن يموت هذا الأمير ودُفن بفناء جامع هناك ووصل خبر وفاته إلى سلطان مصر. وفي اليوم الثالث من وفاته كان الأهالي يؤدون صلاة الجمعة فسمعوا فرحاً وجزعاً يأتي من قبر الأمير فذهبوا إلى القبر ليستطلعوا الأمر فإذا بالأمير يصرخ بالداخل وعلى الفور فتحوا القبر فوجدوا الأمير حياً ووجدوا حيواناً ينهش في كتفه والدماء تسيل منه فقاموا بإخراجه وذهبوا به إلى قصره وعاش بعدها سبع سنوات ثم توفي فنقلوا نعشه إلى مصر وتم دفنه بجوار السيدة نفيسة. ومكتوب على الضريح السلطان المرحوم عز الدين بالله. وقد قام المنجمون بتبشير الأمير وهو في حياته بأنه سوف يموت ويحيى لمدة سبع سنوات سيكون فيها خليفة. وقد أطلقوا على المحلة اسم محلة المرحوم. ومحلة المرحوم قصبة جميلة تتبع منوف بجزيرة الغربية وهي عاصمة كاشف منوف نظراً لوقوعها في وسطها ويقم بها الجند بصفة مستمرة. أما مدينة منوف نفسها فهي العاصمة القديمة، وأحياناً يقيم الجند بمنوف. ومحلة المرحوم قضاء شريف عبارة عن مائة وخمسين أقة ويتبعها سبعون قرية. والمكان الذي يقام فيه مولد البدوي يتبع محلة المرحوم. وفي أيام مولد البدوي يذهب حاكم محلة المرحوم وقاضيهما إلى هناك ويشرفون على المولد. ويتحصل من ذلك محاصيل كثيرة. ومحلة المرحوم مدينة مزينة بحدائق النخيل والبساتين تقع وسط صحراء فسيحة تبعد عن النيل ساعتين ولكن بحدائقها خليج متفرع من النيل يمر من أمام مدينة النهارية، توجد المياه بصفة مستمرة في هذا الخليج صيفاً وشتاء. وتبحر به المراكب وينتهي هذا الخليج عند محلة المرحوم وعند فيضان النيل تزيد فيه المياه فيصب في فرع دمياط. وبمحلة مروحوم ألفاً منزل مغطاة بالكلس وخمس محلات وأربعين محراباً اثنان منهما جوامع جامعة: الأول وهو جامع الخليفة المرحوم ويطلقون عليه جامع بغداد أو جامع المدرسة وهو مرتفع عن الأرض بمقدار ست درجات سلمية حجرية وللجامع بابان ومثناة رشيقة لها ثلاث طوابق والجامع بدون فناء أو أعمدة، ولأنه جامع صغير لا توجد زخارف أو

(١) بياض في الأصل.

زينات إلا تلك الزينات البنفسجية المذهبة على أركانه. والجامع الثانى موجود بالسوق وهو الجامع الكبير ويتسع لأعداد كبيرة من المصلين يبلغ طوله وعرضه مائة وعشرين قدماً للطول وأخرى للعرض وبه قبوات تستقر على ثمانية وثلاثين عموداً من المرمز. وسقفه بسيط ولا توجد به أى نقوش. ومنبره من الخشب وعلى الحائط الموجود فى الناحية اليسرى للمحراب يوجد هذا النظم لأحمد الخطيب الشافعى:

(سبع إن ترم تحريراً عن قدره فاسأل به خبيراً)

وهذان الجامعان هما جوامع الخطبة فى المدينة فقط والباقي زوايا. وبالمدينة سبع وكالات وثمان مكاتب للصبان وحمائم صغير بيدروم سراى الكاشف. وقد كان هذا الحمام قديماً حمام قصر الأمير البغدادى ولكنه حالياً حمام قصر الكاشف وبه نقوش مذهبة غاية فى الجمال، من صنع نقاش أعجمى. وبالمدينة مائتا حانوت وهى حوانيت على جانبى الطريق الرئيسى للذهاب من قصر الكاشف حتى الجامع الكبير، ويبلغ طول هذا الطريق ألف خطوة. والمياه كلها من الآبار ولكن لقربها من النيل يقوم بعض الأشخاص بسحب المياه من النيل على الإبل وتوجد سبل فى سبعة أماكن من المدينة. وأهلها محبوبون. وطقسها لطيف. وكل أجداد الأهالى بها من بغداد وبعض كتب تاريخ تسجلها على أنها محلة بغداد ومنوف، وبالمدينة حجر غريب ضخيم يقع خلف سراى الكاشف ويقف هذا الحجر فى وسط حوض عظيم، ولا تستطيع مائتا جاموسة سحبه إنه حجر طاحونة دائرية، يوجد بوسطه ثقب كانت هذه الطاحونة قديماً هى مصنع السكر الخاص بالأمير المرحوم. وطواحين السكر حالياً لا تدار بالحجر بل تدار بمجلات الوابور وكلما تدور العجلة يسيل شربات السكر من فم الوابور ويأخذون هذا السكر ويقلونه ويحولونه إلى سكر بعمل كثير يحتاج إلى تفصيل.

مزار محلة المرحوم

أولاً ضريح الشيخ عبد الوهاب الجوهري خليفة البدوى. وهو مدفون فى ضريح عالٍ يقع خارج المدينة فى جهتها الشرقية. وضريحه مرتفع عن الأرض بمقدار ست درجات سلمية حجرية، وهو تكية به روحانية. بجانبه زاوية، وكراماته مسجلة بالتفصيل فى مناقب الشعراوى، ولا داعى هنا لذكرها. وعلى مقربة منه يوجد ضريح الشيخ عبد

الله الواسطي وهو من بغداد. وعلى مقربة من مصطبة الجريد الواقعة أمام قصر الكاشف يوجد ضريح مدفون به شيخان هما الشيخ على العجمي والشيخ منصور الأندلسي وهذان الشيخان هما اللذان بشرّا الأمير بأنه سيموت ثم يحيى بعد سبعة أيام ثم يعيش سبع سنوات، وقد قام الأمير ببناء ضريح لهما، وقد تهدم الضريح، ولم يبقَ منه حاليًا إلا بعض أطلاله فقط، وهو مزار للعام والخاص، قُدّست أرواحهم.

وفى الجهة الجنوبية المقابلة لضريح الشيخ عبد الوهاب الجوهري يوجد ضريح أبيض مدفون به السيد عثمان الصيادي، وبالمدينة قبر الإخوة الثلاثة، وهم الشيخ علامة والشيخ ديان والشيخ عمر ولكل منهم ضريح بالقرب من بعضهم البعض، والمشهور عن تلك المحلة أن اللصوص لا يدخلونها، فابوابها دائمًا مفتوحة، والعجيب في ذلك أنه لو تجرأ لص على المرور من أمام تلك الأضرحة، فإن قدميه لا تتحرك، ويقع ضريح الشيخ السيد محمد العجمي بزاوية أبو حمزة بالسوق، وقد هذا الشيخ مع ابنه من بلاد العجم، وله مناقب كثيرة مدونة في مناقب الأولياء، وبالمدينة أيضًا ضريح الشيخ سيدي يوسف وهو من طائفة الجند، وبالسوق ضريح الشيخ السيد عبد الرحمن، وبالقرب من الجامع الكبير يقع ضريح الشيخ السيد عبد الرحمن السويدي، وهو سلطان عظيم وقد مع ابنه أيضًا من كردستان من بلدة سويد، وقرأنا الفاتحة لكل شيخ منهم، وطلبنا المدد من أرواحهم الطاهرة، بعد ذلك حصلنا على البراءة من ميرزا أغا كاشف منوف، ومنحنا خمسة آلاف عملة ذهبية، وخمسة خيالين، ثم سرنا شمالاً من تلك المحلة لمسافة ثلاث آلاف خطوة، فبلغنا قصبة الأبيار، وسبب تسميتها بهذا الاسم، أن تلك المنطقة كانت في عهد الملكة دلوكة بلا ماء، فقامت الملكة بحفر آلاف من آبار المياه، لذا سميت بمحلة الأبيار، ثم قامت الملكة بتسيير خليج من النيل إلى تلك المحلة، وهي مدينة عامرة، تقع في أراضي منوف، ولها ملتزم، وقضاء شريف مائة وخمسين أقة، ولها مائة وخمسين قرية تتبعها، يتحصل منها عشرة أكياس مصرية، وتقع تلك المحلة على ضفاف ترعة النيل، وبها الحدائق والبساتين، وقد أهملت بمرور الأيام، ولكن عندما كان الحقيق هناك في عام ١٠٨٣ هـ كان العمران في أربعين أو خمسين ناحية، عمرها الله، وبها تسع محلات، وأربعون محرابًا، ثلاثة منها جوامع جامعة، والباقي مساجد صغيرة، تلك الجوامع هي: الجامع الكبير ويقع بالقرافة الكبرى على مقربة من

النيل، في الجهة الشرقية للمدينة، وجماعته قليلة، وهو جامع كبير طوله وعرضه مائتي خطوة للطول والعرض، وبه ستون عموداً تستقر عليها القبوات التي تحمل السقف، وسقف الجامع مطلى بالكلس، وللجامع ثلاثة أبواب، ومثذنة ذات ثلاثة طوابق، وعلى يمين المنبر توجد لوحة بيضاء مرمرية مكتوب عليها (رسم أيام السلطان الملك الأشرف خلد الله ملكه)، وعلى يسار المنبر لوحة مرمرية أيضاً مكتوب عليها (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، هذا الجامع إنشاء الفقير إلى الله تعالى وإلى رحمته وغفرانه أبو الحسن بن علي بن أحمد الحسيني الحافظ جدد هذا الجامع المبارك العمارت في شهر شعبان المبارك المكرم سنة تسعين وتسعمائة) وعلى يسار المحراب كتبت عدة آيات من سورة الفتح بالخط الجلي على لوحة مرمرية أيضاً. خلاصة القول أنه جامع يجاب فيه الدعاء.

وبالمدينة جامع صغير آخر بدون فناء هو جامع الشيخ أحمد البجم، وله مثذنة ذات ثلاثة طوابق، لا يوجد مثلها في المدينة، وقد كتب على منبره ما يلي: (جدد هذا المنبر المبارك قطب الاقطاب أحمد البجم في ذي القعدة سنة ١٠٣٢)، وبالسوق جامع يسمى جامع الزاوية، كان هذا الجامع قديماً عبارة عن زاوية، وقد حولوه إلى جامع نظراً لكثرة جماعته، وما عدا تلك الجوامع الثلاثة فمساجد، وبالمدينة مدرستين، وثلاث تكايا؛ هي تكية الشيخ أحمد البجم، وهو مدفون بفنائها، وبها غرف للمريدين، ولها أوقاف عظيمة، والشيخ أحمد البجم من صلحاء الأمة وفد من بغداد إلى هذه المحلة، وبالمدينة ثلاثة أسبلة، وحمام معطل، ومائتي حانوت والطرق الرئيسية لتلك المدينة مرسومة على هيئة لوحة الشطرنج، وهي طرق ضيقة، ولوقوع المدينة على ضفاف ترعة النيل فإن طقسها لطيف، وتشتهر المدينة بشجر الجميز، وزيت البزر، حيث توجد أشجار الجميز على ضفاف النيل، ترعى تحت كل شجرة منها ألف نعجة، ومن الأشياء المشهورة بالمدينة أيضاً الكتان والليمون والأترج، ويقيم أصحاب تلك المدينة على الجورباجي وطويل الجورباجي ونقيب الاشراف الموائد للفقراء، رادهم الله تعالى.

في بيان أضرحة تلك المدينة

أولاً الواقعة داخل المدينة؛ ضريح الشيخ أحمد البجم وهو مدفون داخل جامع، وهو سلطان عظيم، ظهرت له كرامات كثيرة، وعندما كان الشيخ السيد على بك والياً على مصر، رأى كرامات كثيرة لأحمد البجم، فترك العرش والإمارة واستلم الطبل والطوغ من أحمد البجم وأصبح خليفة للمشيخة من بعده، وأنشأ هذا الجامع بالمال الحلال الزلال، وهو مدفون بجوار حضرة أحمد البجم، كان عاشقاً لله عظيمًا.

وقبر الشيخان رضوان وسيدى يوسف وهما من ممالك السيد على بك، أصبحوا مشايخ بعد تحريرهم من الرق، وقد ظهرت لهم كرامات كثيرة وكانوا أئمة للطريق وأضرحتهم بالقرب من قبر أحمد البجم، وبالجامع الكبير أضرحة كلا من الشيخ السيد أحمد العريان والشيخ السيد أبو الفتوح والشيخ على برجانى والشيخ السيد خليفة والشيخ السيد أحمد الحسينى رحمة الله عليهم أجمعين، وقد تجولنا فى تلك المدينة، ثم ودعنا كل الاحباء، وسرنا فى صحراء مستوية حتى وصلنا إلى المدينة القديمة مدينة نهاريّة.

أوصاف مدينة نهاريّة

كانت لمصر ملكة تدعى دلوكة، حكمت مصر قبل عشرين عاماً من فرعون موسى، أسست دلوكة هذه المدينة لروح والدها الملك ريباك ووقفتها له، وأسمتها مدينة ريباك، بعد ذلك تم فتح القدس الشريف فى خلافة عمر، وجاء عشرون ألفاً من الصحابة الكرام إلى مدينة ريباك وحاصروها عشرين يوماً، ولكنهم هُزموا بأمر الله وقتل منهم سبعة آلاف شخص، بعد ذلك أرسل عمر بن الخطاب عمرو بن العاص لفتح مصر والإسكندرية وريباك، وقدم عمرو بن العاص مع ثمانية آلاف جندي لفتح ريباك، وحاصر الجند المدينة وبعد سبعة أيام فتحها جند الإسلام، وقتلوا عشرين ألفاً من الكفار انتقاماً لروح الشهداء الذين قتلوا قبل ذلك، ولأن الدماء كانت تجري مثل النهر أطلق على المدينة اسم نهاريّة.

وفى رواية أخرى: أن يوم فتحها كان يوافق يوم النحر بعيد الأضحى فأطلقوا عليها نحرارية، ونهارية ينطق غلط من لفظ نحرارية.

وفى رواية ثالثة: أن الحاكم بأمر الله أحد خلفاء بنى العباس تجول بمدن مصر كلها حتى وصل إلى مدينة ريباك، وأصدر فرماناً بأن يكون الليل نهاراً والنهار ليلاً، وأنه لو خرج شخص من داره بالنهار سوف يشق بطنه، وامتلئ كل أهل مصر لذلك امتثالاً لمعنى حديث شريف مفاده: «وجوب طاعة ولى الأمر أو من ينوب عنه من الأمراء ولو كان عبداً حبشياً مجدعاً»^(١) فكان الأهالى لا يخرجون من منازلهم بالنهار، وعندما يحل المساء يكون بمثابة الصباح لهم، يخرج الجميع ويوقدون الفوانيس والقناديل ويبيعون ويشتررون على أضوائها، وظل هذا الحال عدة أيام فى مدينة ريباك، لهذا أطلق عليها نهارية، وهى كشوفية فى أراضى المنوفية تتبع كاشف منوف، وتُخرج سنوياً أربعين كيساً من المال وقضاءها مائة وخمسون أقبه وبها ()^(٢) قرية يخرج منها سنوياً ثلاثة أكياس، كان قضاءها ذا درجة عالية بين القضاء، حيث كانت مدينة عظيمة فى صحراء مستوية على ضفاف إحدى الترع التى انفصلت عن النيل المبارك، وتوجد حالياً آثار لآلاف المباني التى كانت موجودة بها، إلا أن المدينة هجرت بمرور الأيام حتى هجرها كل الأهالى وانتقلوا إلى مدينة الأبيار، لذا عُمِّرت مدينة الأبيار ولحق الخراب بمدينة النهارية منذ خمسين عاماً تقريباً، وانهارت مدارسها وجوامعها وحدائقها، ولم يتبقى بالمدينة سوى سبعمائة منزل أسقفها مغطاة بالتراب، وتبدو المدينة وكأنها كبيرة إلا

(١) أخرجه مسلم من طرق عن أبى ذر - رضى الله عنه - أحدها فى كتاب الصلاة، باب كراهية تأخير الصلاة عن وقتها المختار، حديث رقم (١٤٤٠). ويأتى طرقه فى كتاب المغازى حديث رقم (٤٦٧٣ - ٤٦٧٥)، باب وجود طاعة الأمراء فى غير معصية ولقظه: «أوصانى بخليلى (يعنى النبى ﷺ) أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف». ورواه من حديث أم الحصين حديث (٤٦٧٦ - ٤٦٨٠).
انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٦١/٦ - ٢٦٣) ط. دار الفقه العربى.
(٢) يياض فى الأصل.

أنها خربة، وبها أطلال كثيرة، ويوجد بها حالياً تسعة محلات وأربعون محراباً منها ثلاثة عشر مسجداً جامعاً العديد منها معطل، فقد تعطلت بسبب ضمها للأوقاف الأميرية على يد الكاشفين، وسنذكر الآن الجوامع العامرة بها، أولاً: الجامع الكبير في الجهة الشرقية للمدينة ويبلغ طوله مائة خطوة وعرضه سبعين خطوة ويناحية المحراب اثنان وثلاثون عموداً مرمياً وحول الصحن اثنان وخمسون عموداً تحمل السقف، وهو سقف خال من الزينة، وسطح الجامع مغطى بالكلس، وبفنائيه شجرتان من شجر السدر، وبوسط الفناء سبيل مياه، وفي الزاوية اليمنى للفناء المثانة وهي من أربعة طوابق، وللجامع سبعة أبواب، ويتم النزول إلى الجامع من الباب الموجود في الناحية اليمنى بواسطة سلم حجري من سبع درجات، أما بقية الأبواب الأخرى فسلمها خمس درجات فقط، ومنبر الجامع من الخشب القديم، وعلى الحائط الموجود يسار المحراب لوحة مربعة مرمية مكتوب عليها بالخط الجلي: (أمر ببناء هذا الجامع الشريف أبا بكر بن عبد الله العساكر المنصورة أعز الله أنصاره سنة سبع وستمائة) وبين المنبر والمحراب لوحة مربعة عليها كتابات لم نستطع قراءتها، ولكن عليها تاريخ سنة ثمانمائة وعلى الإطار العلوي للمنبر كتب ما يلي:

(أمر بتجديد هذا المنبر المبارك مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى فى شهر ذى القعدة سنة خمس وثمانين وستمائة).

وفي الناحية الشرقية للفناء ميقات شمسى على القبو فى غاية الجمال لا يستطيع أساتذة علم النجوم مثل بهرام وكوان وفيثاغورث وعلى قوشجى صنع ميقات مثله، إنه ميقات مشهور فى ديار مصر كلها، وهو مثل ربع الدائرة القطبية، محرر به القطر والميل، وقد كتب فوق هذا الميقات آية: ﴿رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، خلاصة الكلام إنه ميقات فى مرتبة السحر المبين، إن هذا الجامع جامع أنور يجاب فيه الدعاء.

وبالقرب من هذا الجامع جامع السيد ناصر الدين أبو العمايم، وجامع العجمى ويقع داخل السوق وهو جامع صغير وجامع الخنفي وهو جامع ذو مثانة، وجامع سيد أحمد

السواح على ضفاف النيل ومثذته في وسط الفناء، وجامع الحاج منصور المغربي وهو جامع صغير، وما عدا تلك الجوامع مساجد، ولكن زاويتا الست رقية وبلال الحبشى في غاية العمران، وبالمدينة وكالتان وسيلان وثلاثة مكاتب للصبيان، وسبع مقاهى ومائتا دكان، وتنتشر مئات الدكاكين في أيام المولد، وبالمدينة حمامان ولكنهما معطلان أيضاً.

وكل الأعمدة الحجرية الموجودة بالجوامع والمساجد والوكالات وأحجار العتبات من الأحجار تشبه المسلة الموجودة في «آت ميدانى»^(١) في إستانبول، وكانت بالمدينة بعض العلامات الحجرية، إلا أن الظاهر منها الآن أساسها فقط، وعندما بنت الملكة دلوكة تلك المدينة قام الكهنة بعمل ثلاث مائة وست وستون طلسمًا بالمدينة، وقام الملك سوريد ببناء جسر عظيم على النيل أمام مدينة زيالك، ولكنه هدم على يد بخت النصر وتظهر دعاماته عندما تنخفض المياه في نهر النيل، وهى عشرين دعامة قوية بين كل دعامة وأخرى خمسين ذراعًا مكية^(٢) وقد تيسر للحقير رؤية تلك الدعامات ذات مرة، وتعبير السفن الذاهبة إلى رشيد من تلك الدعامات بحيطه وحذر، وهذه المدينة القديمة أبنية غريبة وعجيبة، كما تظهر تصاوير عجيبة وغريبة على الأحجار المختلفة على الحوائط، وطرقها على هيئة لوحة الشطرنج لأنها بُنيت على علوم الحكماء في الزمن القديم، ولوقوع المدينة على نهر النيل فإن هواءها لطيف للغاية وبها قرى عامرة.

وحول المدينة سبعة آلاف فدان يتم زرعها، ونظرًا لهجرة الأهالى للمدينة فإن النسبة انخفضت حتى وصلت إلى ألفى فدان فقط يحصل منها خمسون كيسًا مصريًا وبقية الأراضى الأخرى خاوية، ويقام المولد بالمدينة مرة كل عام ويكون عشرة أيام بلياليها، يتجمع به رجال كثيرون، يبيعون ويشترون ليلاً نهارًا، حيث يُعمر كل ركن من أركان

(١) اسم ميدان أمام مسجد السلطان أحمد كان الرومان البيزنطيون يستخدمونه ميدانًا لسباق الخيل، عمره بعد خراب السلطان محمد الفاتح وأصبح ميدانًا لسباق الخيل ومباريات أخرى، وكان الإنكشارية يحتشدون فيه معلنين الثورة. وفي القرن التاسع سُمي بـ «ميدان السلطان أحمد».

(٢) الذراع المكي - ويقال الهاشمية - مقياس، طولها ٦٤ سنتيمترًا.

المدينة فى تلك الأيام، وتصطف الحوانيت على الطرقات، وتشتهر النهارية بكتانها الذى يفوق كتان الفيوم، لذا فالقمماش هناك رقيق للغاية، ولهم خبز أبيض خاص بهم وعندهم نوع من السمك يسمى شليه، كما توجد مصانع النشادر على ضفاف النيل فى مدينة النهارية، والنشادر التى تصنع هناك نظيفة خالية من الأوساخ والشوائب، ومن العجائب الموجودة بتلك المدينة أيضاً تلك التربة التى قامت الملكة دلوكة بحفرها من أمام قرية الفرزدق وهى خاصة بنقباء الأشراف، وهى تربة شقت من النيل تمر من أمام قرية النهارية، والعجيب فى تلك التربة أنها حفرت بشكل يجعلها تجري ناحية الجنوب بالرغم من أن النيل المبارك يجري صوب الشمال حتى يصب فى البحر الأبيض عند رشيد، وتمر تلك التربة من مدينة النهارية ثم مدينة الأبيار ثم محلة المرحوم وتنتهى فى بلد شيب، وإذا ما فاض النيل فإن المياه تزيد بها وتجري نحو الجنوب حتى تصب فى نيل دمياط، أما فى الأوقات العادية فتزيد المياه بها وتقل على حسب المد والجزر، ويقولون هناك أن المياه موجودة بها بصفة مستمرة ولا تجف خمسة أو ستة أشهر مثل بقية الترع الأخرى وذلك لأن الملكة دلوكة دفنت طلسمًا أمام النهارية، ويجرى النيل على عكس تياره من تأثير هذا الطلسم، وهى على هذه الحال إلى ما شاء الله.

أوصاف مزار الأولياء بمدينة النهارية

أولاً الموجودون وسط المدينة: ضريح الشيخ محمد بن زين وهو ضريح ذوقية منخفضة فى أحد أركان فناء جامع، والضريح من الداخل لا توجد به زينات وزخارف كثيرة، والجامع أيضاً جامع صغير، ولكن المصلين به كثير، وبابه يطل على ناحية الشرق، وله مثذنة بيضاء ذات طابق واحد، وقبة الضريح مكسوة بالكلس الأبيض، ولهذا الشيخ مناقب مشهورة عند العرب والعجم إحدى تلك المناقب ما يلى؛ عندما أراد الشيخ محمد بن زين التوجه لأداء فريضة الحج، قال بعض خلفائه: فى أى يوم ستخرج إلى الحج؟ وكم ناقة تحتاج يا مولانا؟ فقال لهم أنا يمكننى أن أحضر ناقة، أما

أنتم فدبروا حالكم، وفي الصباح جاء أعرابي بناقة بيضاء جميلة إلى الشيخ وأعطاهما له وقام الشيخ بتوديع الحضور في المجلس وبينما كان الشيخ منشغلاً بالذكر بقوله يا حي يا قيوم يا قوى يا متين أخذته الناقة على ظهرها وهولت به كريح الصبا حتى خرجت من المدينة، فتعجب المريدون من هذه الحال وأسرعوا خلف الناقة يبحثون عنها، وقد وجدوا الشيخ يؤدي صلاة الظهر والناقة باركة بجواره، وبعد الصلاة أرسل كل أحبائه إلى المدينة أما هو فجلس يذكر الله مع سبعة من الرجال، ثم ركب الناقة وعزم على المسير وعندما رأى كل الحجاج هذا تحيروا، حقاً إنه سلطان صاحب قوة خارقة.

وقد قطع هذا الشيخ المراحل وطوى المنازل حتى وصل المدينة المنورة في أربعين يوماً، وسارت به الناقة إلى باب السلام، فقام الشيخ بتقبيل ضريح حضرة صاحب الرسالة ومسح وجهه بالروضة المطهرة، ثم قال الرجل وهو يقف أمام روضة النبي ﷺ: (يا رسول الله لقد أحضرت لك جملاً هدية وأتيت أن تقبلها مني) وعلى الفور ظهر صدى من داخل القبر الشريف يقول: (يا محمد بن زين لقد قبلها الله أيضاً وشفاعتي لك، يا ابن زين إن ناقتك التي أحضرتها قد ماتت الآن لا تطعمها ولا تسقيها امتطيها واذهب إلى مكة وعرفات والمروة وبعد أربعين يوم سوف تذهب بك إلى النهارية لتدفنها هناك)، وعندما استمع ابن زين لهذا الصدى من القبر الشريف حمد الله وقال لقد قبلت هديتي، وعندما خرج وجد الدراويش الموجودين بجوار الصفة يصرخون ماتت الناقة، فقال الشيخ محمد أيتها الناقة لقد سرت بي وأنت حية وسوف تسيرين بي وأنت ميتة بإذن الله، فركب الناقة الميتة قائلاً باسم الله وقال: (يا جمل قم بإذن الله) فنهض الجمل على قدميه وسار وهو ميت وذهب في عشرة أيام إلى مكة وعرفات وأدى الشيخ الحج، وقطع المنازل وطوى المراحل، وفي اليوم الأربعين وصل إلى مدينة النهارية وهناك سكنت الناقة عن الحركة، فقام الشيخ بتغسيلها بيده المباركة ودفنها ثم أنشئت بعد ذلك قبة عليها أطلق عليها قبة ناقة الله ويزورها كثير من الناس، وقد شوهد ذلك كثير وشهد الذين ذهبوا إلى هناك بأنهم يسمعون ضجيج الإبل يخرج من القبر، وفي تلك السنة توفي الشيخ ليحشر تحت لواء صاحب الرسالة قدس سره العزيز.

وهذه المناقب قرية العهد وأحمد الله أن الحقيير تسنى له زيارة الضريح ومسح وجهه به وقرأ الختمة الشريفة هناك مرتين ووهب ثوابها لروح الشيخ، وقد رجوت شفاعته.

وضريح الشيخ السيد حسن القصرى بالقرب من جامع عطية البية، وفى قبالة ضريح الشيخ حسين وهو فى زاوية صغيرة، وفى ضريح صغير يبعد عن قبلة باب الجامع بمائة خطوة قبر الشيخ إبراهيم قرائجة وفى مقابلته ضريح الشيخ ناصر الدين أبو العمايم، وهو مدفون بجانب جامع الذى يشبه حدائق إرم، والضريح مزار للعلم والخاص، وقد مدحت أوصافه فى طبقات الشعراوى، قدس سره، وقبر الشيخ سيد على وحيش وهو مدفون فى ضريح صغير داخل جامع صغير يقع بالسوق.

ضريح الشيخ حسين العجمى، وقد هذا الشيخ مع ابنه إلى محلة المرحوم من ديار العجم وهو سلطان عظيم، وقبر الشيخ عثمان الحنفى بفناء جامع على ضفاف النيل وهو ضريح صغير داخل الجامع، وبالقرب منه ضريح الشيخ بلال الأنصارى وهو من الصحابة الكرام وهو ليس بلالاً الحبشى، فبالل الحبشى مدفون بالشام عند باب النعجة، أما بلال الأنصارى فهو مدفون بزاوية صغيرة بمدينة النهارية، ثم ضريح الست رقية ويقع فى زاويتها، وأكثر زواره من النساء، ثم ضريح الشيخ أحمد السواح وهو ضريح صغير فى الناحية اليسرى من جامع.

ثانياً: أما الأضرحة الموجودة خارج المدينة فهى: ضريح الشيخ نصر الدين أبو العلا، وهو شيخ كبير له مناقب فى طبقات الشعراوى وضريحه أبيض اللون يقع خارج المدينة فى ناحية القبلة وله جامع فخم مزين، وبالناحية الشمالية للمدينة ضريح الاولياء السبعة ويطلقون عليه مزار الاولياء السبعة لأن سبعة من الاولياء مدفونون به، وكلهم من نسل النبى يوسف، وعلى ضفاف النيل ضريح صغير للشيخ يوسف العجمى.

وعلى ضفاف الترعة الموجودة بمدينة النهارية على مقربة من المقهى ضريح على رفيعى وهو ضريح صغير وقد شاء المولى القدير أنه أثناء زيارة الحقيير لهذا الضريح تهدم

جزء منه، وتم ترميمه على الفور بواسطة سبعة بنائين وعشرة عمال وعشرة قناطير من الجبس والكرج، ثم تلى الحقيير ختمة شريفة فى ثلاث ليال بالضريح ووهب ثوابها لروح الشيخ ليتقبل الله، وبفساء الضريح شجرة سدر، ويعتقد التجار المغاربة الذين يأتون للنهارية لشراء الكتان فى الشيخ لأقصى درجة، ودائماً ما يقومون بزيارته فلا يرون ضرراً فى رحلتهم، إنه سلطان عظيم.

ثم ضريح الشيخ عبد الله وهو ضريح صغير تحت شجرة سدر أمام باب وكالة الكاشف الواقعة على ضفاف النيل، وبالقرب منه ضريح الشيخ محمد الحجازى وهو خال الشيخ أحمد البدوى، سلطان عظيم من كبار الأولياء، وبمدينة النهارية آلاف الأضرحة لكبار الأولياء ولكن ما ذكرناه هو ما ذهبنا إليه فقط.

وركبنا مع رفقاتنا القارب ومررنا ببلدة قلية المقابلة لمدينة النهارية وهى بلدة عامرة بها مائة منزل على ضفاف النيل، وتقع تحت حكم عبد الرحمن أفندى أما قضاءها فثمانية أكياس، وبها جامع كبير بزواية من روايا فناءه ضريح الشيخ عبد السلام قلىى وهو سلطان عظيم، وهو عم الشيخ محى الدين بن العربى المدفون بالصاحية بالشام الشريف، أتى هذا الشيخ من المغرب ودفن فى هذه البلدة؛ وقد قمنا بزيارته وقرأنا القرآن عنده، وبالقرب من ضريح الشيخ السيد عبد الواحد، ضريح صغير فى فناء الجامع الذى أنشأه الشيخ عبد الواحد من ماله الخاص، ثم عدنا بالمركب إلى الناحية الأخرى من النهارية.

فى بيان مولد النهارية

يجتمع فى هذا المولد خلق كثير مثل مولد الشيخ أحمد البدوى؛ إلا أنه لا يضافى ذلك التجمع الموجود بمدينة طنطا، ويوجد به كل العاشقين والصادقين ويجتمع التجار والزوار وأهل الصناعات والحرف فى هذا المولد بخيامهم الكبيرة والصغيرة، وينصب التجار والصناع الخيام كحوانيت لهم، ولا شك فى أن وجود تلك الحوانيت فى مدينة النهارية ينفعها، وفى أيام هذا المولد تنشر أيضاً مئات الخيام والحوانيت والمقاهى على ضفاف النيل تحت ظلال الأشجار حيث يبيعون ويشتررون لمدة عشرة أيام بلياليها، ولكون

هذا المولد على ضفاف النيل، فإن كل زواره وتجاره يأتون بالمراكب ويشكلون جمعاً غفيراً يعجز اللسان عن وصفه، وفي اليوم العاشر اعتزم كاشف منوف العودة إلى مصر مع جنوده ودقت طبول العودة أما كل الزوار والتجار فقد عزموا على التوجه إلى مولد إبراهيم الدسوقي.

وقد ركب الحقير زورقاً مع مجموعة من خدمه، وسرنا أربعين ميلاً في ترعة النهارية وشاهدنا على جانبي التربة مئات القرى العامرة ذات حدائق النخيل والورد، ثم دخلنا نهر النيل الرئيسي من عند نهاية تلك التربة عند بلدة الفرردق، وقد شقت الملكة دلوكة ترعة النهارية من هذا المكان وبذلك جلبت الملكة مياه النيل إلى النهارية.

تقع بلدة الفرردق في أراضي الغربية بها مائتا منزل وجامع، وهي قرية نقيب أشرف مصر برهان الدين أفندي، عبرنا بلدة الفرصدق وسرنا نحو ثلاثين ميلاً فوصلنا إلى قصبة محلة صا ويطلقونها في تلك النواحي محلة على القصبة، ومحلة صا تقع في أراضي البحيرة بها مائتا منزل وجامع جديد بمئذنة وراوية وعشرة دكاكين ومقهى، ودار للضيافة ويقيم الملتزم والأمين في تلك الدار ويطلقون عليها المسافر خانة، ويقوم كل الأهالي هناك بتقديم بعض محاصيلهم ليتناول منها الضيوف والمسافرون، إنها خيرات عجيبة وقد أقام الحقير ليلة في هذه الدار.

وفي الصباح ركبنا المراكب وسرنا نحو عشرين ميلاً فوصلنا إلى محلة أبو على وتقع على النيل في أراضي الغربية ملتزمها هو عمر الجوريجي وهي قصبة عامرة يُحصل منها سبعة أكياس مصرية، قضاءها مائة وخمسون أقبعة ويتبعها خمسة وأربعون قرية أهلة يحصل لقاضيها كل سنة ثلاثة أكياس، وهذه القصبة قصبة لطيفة وعامرة على ضفاف النيل تمتد من الشرق إلى الغرب، وبها ثمانمائة منزل أسقفها مغطاة بالتراب وهي للفلاحين، وبها تسعة محارب من بينها جامعان؛ الأول منهما يقع بالقرب من المحكمة الواقعة على ضفاف النيل وهو جامع قديم به أربعون عموداً من الرمر، وبفائه شجرة سدر كبيرة مرتفعة جداً تدلى منها الأغصان، أما الجامع الصغير الموجود بالسوق فتقام به جماعات كثيرة، وما عدا تلك المحارب فهي زوايا، وبالمحلة خمسون حانوتاً ودكان

وثلاثة أسبله ومكتبان للصبيان ولا يوجد بها حمام، وبها دار ملتزمها عمر الجوريجي وهي مثل القصر المنيف، تمتلئ بالغرف والقاعات.

ومن هناك ركبنا الخيول وذهبنا إلى بلدة المجنون وهي بلدة عامرة على ضفاف النيل بها مائة منزل، في التزام مصطفى أغا أغا الانكشارية في مصر، عبرناها ثم اتجهنا ناحية الغرب في أراضي الغربية، فوصلنا إلى قصبة إبراهيم الدسوقي.

أوصاف قصبة إبراهيم الدسوقي

سُميت هذه القصبة على اسم الشيخ إبراهيم الدسوقي لأنه كان يقيم بها، وهي من أراضي الغربية وتبعد عن النيل بمقدار خمسمائة خطوة، ملتزمها هو قيطاس أغا الشركسي وهي قصبة عامرة بها خمسمائة منزل وبها دار ضيافة ويحكمها شيخ العرب، ويمتلك ألف جواد ويوجد مشايخ من أبناء الشيخ الدسوقي الآن في تكية الدسوقي، بها حدائق وبساتين كثيرة وستة جوامع وجامع من آثار السلطان قايتباي من سلاطين مصر يبلغ طول هذا الجامع من باب القبلة حتى المحراب مائة وعشرون خطوة، وعرضه مائة وثلاثون خطوة وبالجامع خمسون عموداً مرمياً تحمل الكمرات التي تحمل السقف، وهو سقف خالٍ من الزينة، المنبر ومحفل المؤذن من الخشب أيضاً، والمحراب قديم خالٍ من الزينة، نقش فوقه بالخط الجلي عبارة: (أمر بإنشاء هذا الجامع الشريف السلطان قايتباي عز نصره).

والغرفة الموجودة أمام المحراب مدفون بها كبار الأولياء، ودائماً ما يسطع منها النور، وللجامع أربعة أبواب اثنان منهما يطلان على القبلة والآخران يطلان على ناحية الغرب واحد منها باب للعمارة والثاني باب الميضاة، أما الباب الصغير المكشوف على حوض الشافعي فهو باب صغير ويدخل منه من يريدون تجديد الوضوء، والمكان من منتصف الجامع وحتى المحراب مرتفع يصعد إليه من مكانين بواسطة سلالم حجرية ترتفع ليست خطوات، وعند الباب الموجود في الناحية اليسرى من البابين المطليين على القبلة توجد مثذنة موزونة غاية في الجمال صنعت بدقة ومهارة تجعلها لا يوجد مثلها في مصر وبقيّة

الديار الأخرى، ترتفع هذه المئذنة لمائة وخمسة أقدام وهي ثلاثة طوابق، إنها مئذنة تثير العجب، وأسفلها باب يتم الدخول منه إلى ضريح قطب الأقطاب الشيخ إبراهيم الدسوقي قدس سره العزيز حيث يرقد في هذا الضريح مستغرقاً في نور الله مرشد الناس السلطان العارف بالله الشيخ إبراهيم الدسوقي، ولم تكن قبة الشيخ إبراهيم الدسوقي مزينة بنفس الزينة الموجودة في ضريح السيد أحمد البدوي وتوجد بعض المعلقات فقط بالضريح من الداخل لم يكن بها تكلف.

على أية حال لم يكن لضريح إبراهيم الدسوقي هذا الحظ من الزينة، وعلى الجوانب الأربعة للضريح مجموعة من القناديل ومئات الشموع والأعلام البرهانية، أما أرضية الضريح فهي أرضية من الممر ليست مفروشة، ويطل باب الضريح على ناحية الشمال ويدخل منه الزوار إلى الضريح ويؤدون ركعتين بجوار المحراب ثم يذهبون، وبوسط تلك القبة قفص خشبي بداخله صندوق الضريح وهو مغطى بالصوف الأخضر كما توجد عمامة خضراء عند رأسه فهو حبيب النسب من العرق الطاهر والسادات الكرام، كان الشيخ إبراهيم الدسوقي معاصراً للبدوي وهم أبناء عمومة والبدوي كان من الدراويش الأميين، أما إبراهيم الدسوقي فكان سلطاناً مصنفًا مؤلفاً وله الآن مئات المجلدات والمؤلفات كلها كتب قيمة عن العلم اللدني، وله أشعار بليغة وفصيحة وهي أبيات في التصوف تقرأ بين المتصوفة، وله مئات الكرامات والمناقب المذكورة في بعض مناقب الأولياء وطبقات الشعراوي، لم يشتغل الدسوقي باللهو واللعب مع الصبيان في زمن صباه فقد كان يقوم الليل ويصوم النهار وأصبح صاحب سجادة لآلاف المشايخ وأرشد آلاف الرجال، ولا يستمع أي شخص تارك للصلاة أو شارب للخمر من أهل الهوى إلى أبيات الشيخ الدسوقي إلا ويتوب على الفور ويصبح من أهل السلوك، وقبة ضريح الدسوقي مغطاة بالكلس الأبيض يعلوها علم كبير من النحاس الأخضر، لو حدثت أي مصيبة كبرى أو مات أي سلطان فإن هذا العلم النحاس الأخضر يميل ناحية الشرق أو الغرب من ناحية القبلة وبذلك يعلم جميع طوائف العربان الموجودين هناك أنه

قد حدثت مصيبة بتلك الديار التي مال العلم ناحيتها لذا يقول طائفة العربان وهم يصيحون يا دسوقي يا مولى النحاس.

وفى اليوم الذى استشهد فيه السلطان إبراهيم فى الروم مال هذا العلم نحو الغرب ولا يستطيع أحد أن يضع يده على هذا العلم، ودوران هذا العلم هكذا كرامة، وتلك كرامة أخرى حدثت فى ضريح الدسوقي عندما كان الحقيير يقوم بزيارة إبراهيم الدسوقي رأى رجلاً يصيح داخل الضريح، إنه رجل من حجاج الروم وضع ألف عملة ذهبية فى حافظته وذهب لزيارة إبراهيم الدسوقي وبينما هو فى هذا الخضم العجيب من البشر قام لص محتزف بسرقة الألف عملة ذهبية منه فصاح الرجل يا دسوقي هل هذا يليق بك؟ لقد ررتك وقلت فى نفسى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولكن سرقت منى أموالى الذهبية التى أنوى الذهاب بها إلى الحج الشريف، سرقت منى على أعتابك هل هذا يصح؟ والله سأشتكى منك لله، وعلى الفور تجمع الناس عند باب الضريح حيث كان هناك رجل يرتدى عباءة سوداء وعيونه مكحلة ويمسك فى يده المسبحة، كان الرجل قد أصابته نوبة صرع سقط فى الضريح لا يستطيع التحرك ولكن لسان حاله كان يشير على بنطاله، حاول أحد خدام الضريح وأحد خدام الحقيير إخراج جسد الرجل من الضريح ولكنهم لم يستطيعوا ذلك واستخرجوا من جيب بنطاله الألف قطعة ذهبية وردوها لصاحبها، فصعد الرجل على الفور إلى حرم الجامع وأعطى لكل حافظ من الحفاظ العشرة عملة ذهبية وذلك ليقراؤا ختمة شريفة لروح إبراهيم الدسوقي، كما تصدق بمائة عملة ذهبية على الفقراء الموجودين فى حرم الجامع، أما اللص فقد قضى ليلته فى فناء الجامع وهو جريح فقام بعض المشايخ بقراءة حزب البحر وبعض التعازيم عليه حتى شفى إلا أن يديه كانتا فى حكم المشلولتين وذهب الرجل على ذلك، وقد رأينا هذا الشخص فى الإسكندرية عندما ذهبنا إليها بعد ذلك فكانت يدها معوجتين.

خلاصة القول أن إبراهيم الدسوقي سلطان. وقد شاهد تلك الكرامة المارة الذكر مئات البشر عندما حدثت قدس سره العزيز.

وفى الناحية اليمنى لهذا الضريح يوجد لوح من المرمر عليه أثر قدم النبى ﷺ على أحد الحجارة، ومكان قدم النبى وضع ماء الورد يقوم كل الزوار بالأخذ منه ويمسحون به وجوههم ثم يقبلون الحجر الموجود عليه أثر قدم النبى ويطلبون الشفاعة وعند رأس الشيخ إبراهيم الدسوقى نقشت عبارة: (أمر بتجديد هذه الشبكة المباركة بهرام أغا ابن شيخ محمد) بالخط الجلى على لوحة مرمرية، وفى الناحية اليسرى لمحراب الضريح باب صغير يتم الدخول منه إلى حجرة صغيرة بها ضريح الشيخ سيد موسى بن الشيخ إبراهيم الدسوقى وليس بها أى زينة تذكر، بالإضافة إلى قبتين صغيرتين فى فناء الجامع، أما القبة الموجودة فى ناحية باب العمارة فمدفون بها بهرام أغا الذى قام بتعمير وترميم ضريح إبراهيم الدسوقى، والصفة الخارجية والسطح والقبة الموجودة على يسار هذه القبة مدفون بها حفيد إبراهيم الدسوقى وهو الشيخ عبد الله أبو الطيور ابن الشيخ موسى كان هذا الشيخ خليفة للدسوقى بعد وفاته.

وأبواب هذه القباب الصغيرة كلها مكشوفة ناحية الشمال، وبكل قبة منها نافذة أو نافذتان تطل على الحرم، وبعمارة هذه التكية أوعية كبيرة للغاية يوضع فى كل واحدة منها أيام المولد ثلاثة أو أربع من الجاموس أو عشر نعاج، ويطبخ فى أحد تلك الأوعية شوربة القمح كما يتم صنع عشرين ألف رغيف خبز وتقدم كل تلك الأطعمة للفقراء والمساكين ويقدم الطعام على هذا المنوال عشرة أيام لبلياليها. أما فى الأوقات المعتادة فيتم طهى إناء واحد فقط من شوربة العدس والقمح وثلاثة آلاف رغيف وتقدم للفقراء والمساكين والطلاب، وذلك لأن غرف الطلاب والمريدين وهى تزيد على مائة غرفة تصطف على الجهات الأربعة حول فناء الجامع بها أناس يشتغلون بالعلم والطاعة والذكر وناسر تلك الأوقاف هو السيد يحيى من أبناء إبراهيم الدسوقى وابنه الشيخ سيد شريف الدين دائماً ما يقوم بالإتيان على المريدين والمساكين ومنازل المذكورين تقع فى فناء الجامع.

وبتلك القصبة خانان وعشرة حوانيت ولا يوجد بها حمام أو مدرسة، وبها سبيل للمياه، بفناء الجامع، يشرب منه كل الزوار إنه ماء الحياة، عبارة عن صهريج مثل البحر

لا ينقص قطرة، والخوانيت المذكورة موقوفة على هذا السبيل وفى أيام المولد تُنصب آلاف الخوانيت والدكاكين من الخوص والغاب والكليم والخيام فى مكان المولد وبطول ساحل النيل ولا يعلم عدد تلك الخوانيت سوى الله حيث يأتى تجار الأقمشة من الهند واليمن ويستمر البيع والشراء عشرة أيام بلياليها، ويقدر هذا البيع والشراء بمئات الآلاف من القروش، وبخلاف الخوانيت فإن الطريق الرئيسى قد رين من على جانبيه بالمقاهى ويأتى الخبز وهو ما يضافى الجمال على الطريق بأكمله، وبكل مقهى من تلك المقاهى توجد الرافصات وأهل الغناء ومن يعزف الرباب، كما تنتشر الأسواق فى فناء جامع إبراهيم الدسوقي وخارج الفناء وتباع فيها الأشياء القيمة.

وهذا المكان مكان جيد للبيع والشراء لأنه داخل المدينة ويزيد مولد إبراهيم الدسوقي على مولد البدوى بأنه يأتىه أناس كثيرون وذلك لوجود المدينة على ساحل النيل فيأتى الزوار فى ألفى مركب وسفينة وصندل وزورق من كل المناطق الواقعة على نهر النيل من الإسكندرية وحتى الصعيد وبذلك يجتمع أناس كثيرون فى مولد الدسوقي ويكون هذا الجمع كاليم، وترسو تلك السفن والمراكب على شاطئ النيل وقد تزين كل مركب منها بأربعين أو خمسين أو مائة أو مائتى راية وعلم كما يوجد بها آلاف القناديل، وبكل سفينة من السفن الجريم والعقبة الآلات والأسلحة، ويتم تجهيز المقاعد للضيوف القادمين، ويضاء كل ليلة مئات الآلاف من القناديل حتى وقت السحر وتطلق الأعيمة النارية والفشك، وتندق الطبول فى كل النواحي، فتكون كل ليلة ونهار من تلك الأيام بمثابة عيد الأضحى.

كما يقوم أصحاب الخيام والخوانيت برش المياه أمام الخيام والخوانيت مما لا يسمح بوجود ذرة غبار واحدة، ويطيب النسيم فيحى العاشقين، ويخرج العاشقون من المراكب والسفن وينتشرون على ضفاف النيل وينصبون خيامهم تحت أشجار النخيل ويطهون الأطعمة النفيسة، ويعيشون على ذلك ليلاً ونهاراً ويصبح مجلسهم مثل مجلس حسين بيقارا بسبب المطربين والعارفين فى كل ناحية وزاوية تجد جماعة تجلس مع

بعضها يتسامرون أحياناً ويذكرون تارة أخرى وبالرغم من ذلك يكون عدد الخيام في مولد أحمد البدوي أكبر من عدد الخيام في مولد إبراهيم الدسوقي، وذلك لأن حوالى أربعين أو خمسين ألف من الفلاحين والملاحين يرقدون في السفن والمراكب، أما بالنسبة لعدد الرجال فمولد الدسوقي أكبر من حيث العدد والجمع به يكون مثل البحر، حيث يختلط الكتف بالكتف من شدة الزحام وتأتى السفن من كل البلدان بالطعام والشراب، وينصب مشايخ الطرق خيامهم في أحد أطراف تلك المدينة على المراعى والأراضى الخضراء وينشغلون بالذكر في كل ليلة حتى الصباح، ويصل صدى ذكرهم إلى عنان السماء.

وفرة أخرى تركب السفن ليلاً وتصل حتى محلة أبو على ويطلقون الأعيرة النارية والفشنك وهم يهتفون باسم السلطان محمد خان، ويدقون الطبول ويسیرون مع النيل ثم يأتون إلى مركزهم ويستقرون به، أما طائفة العربان فإنهم يصفقون ويقولون: (الله ينصر السلطان) وتصبح خيامهم وأسواقهم بذلك أشبه بضجيج الهند كما يبقى في كل سفينة ومركب ألفى رجل يقومون بالدعاء بالخير للسلطان وكل سفن المشايخ في مولد الدسوقي مثل سفن المشايخ في مولد البدوي أربع طبقات.

وفي اليوم الثامن من مولد الدسوقي وهو يوم الأربعاء يتنادى الدلالون في قصبة دمنهور بولاية البحيرة بالمولد الشريف فيذهب موكب عظيم به سبعمائة من المشايخ وعشرين ألف من الدراويش والمريدين بالكسوة الشريفة الخاصة بالشيخ الدسوقي ويضعونها على صندوق ضريحه وفي يوم الجمعة يخرج الموكب العظيم على دقات الطبول والتوحيد بوضع الكسوة على ضريح الشيخ إبراهيم الدسوقي، ويكون بهذا الموكب سبعمائة من المشايخ وأربعين ألف مريد ودرويش من مريدى الطرق البرهانية والرفاعية والجيلانية ويقومون بتجديد الكسوة على الضريح ثم يدعون للسلطان وكل سلاطين آل عثمان ولأصحاب الخيرات بالخير.

وفي ذلك اليوم يؤدى كاشف الغربة خدمة أيضاً، حيث يذهب كل الزوار والتجار

إلى أوطانهم بعد انتهاء المولد، وتفترق كل الجماعات عن بعضها البعض ويصبح ميدان دسوق وهو يضطرب بين ساعة وأخرى ولكن يبقى من هذا الجمع الفقير سبعمائة شيخ من الخلفاء، وبعد رحيل كل الزوار وانتهاء الضوضاء وسكون المكان، يذهب هؤلاء المشايخ ليلة السبت إلى جامع إبراهيم الدسوقي ويجتمع الصلحاء والمشايخ والدرائش فيكون المولد الشريف فى تلك الليلة المباركة ويحرقون العود والعنبر والبخور، وينثرون ماء الورد فى تكية الدسوقي، ويتناولون الأرز باللبن والسكر ويشربون المشروبات الممزوجة بالمسك، وهذه العادة من كل حسانات سيد مصطفى أغا مندلى زاده فى رشيد، ويقوم كل المريدين بإحياء تلك الليلة حتى الصباح فيختم مئات حفاظ القرآن الكريم ويجلسون جماعات جماعات يذكرون الله بذكر لا يخص أى طريقة، وبهذا التجمع روحانية وأسرار شوق لا يشعر بها سوى العاشقين فقط ولو استمع أى جناح أو صاحب قلب متحجر لهذا الذكر فإنه سيتوب على الفور، إنه الطريق البرهاني وهو مشهور بين طرق أهل التوحيد.

ولا يستطيع أى مريد من أى طريق آخر القيام بهذا التوحيد الخاص بالطريق البرهاني، ويتحمله فقط القادري والمطاوعى، وتعد تلك الليلة بمثابة ليلة الإسراء، بعد ذلك وفى صباح اليوم التالى يقومون بزيارة الوداع، ويستأذن كل المريدين من الخليفة وبذلك لا يبقى شخص واحد فى ميدان دسوق، حيث يركب كل المشايخ المراكب ويذهبون إلى ديارهم، وقد أدى الحقيق زيارة الوداع هذه وختم القرآن وأهدى ثوابه لروح الدسوقي وطلب منه الشفاعة ليتقبل الله، ثم قبلنا يد الشيخ شرف الدين وسرنا لمسافة ثلاثة أميال فى نهر النيل فوصلنا إلى بلد مرقاص وهى فى أراضى البحيرة على ساحل النيل وهى عبارة عن قرية عامرة بها مائة منزل وحدائق النخيل، وينزل كل المشايخ فى تلك القرية حيث يحتفلون بمولد الشيخ أبو المجد بن الشيخ إبراهيم الدسوقي وهو مدفون فى ضريح عالٍ يقع فى حديقة نخيل وورود بجوار الجامع الكبير الموجود بالقرية حيث يحتفلون به ليلة واحدة، وللشيخ أبو المجد مئات المتابع والكرامات منها أنه أدى الحج ماشيًا سبعين مرة.

توفى عام ()^(١) أما الشيخ إبراهيم الدسوقي فقد ولد عام ()^(٢) ومدة عمره ()^(٣) وتوفى فى عهد ()^(٤)، ويجمع فى تكية الشيخ أبو المجد آلاف العاشقين الصادقين العارفين ويتسامرون يوماً وليلة، يقرأون فيها المولد، وتتلّى فى تلك الليلة مئات الختمات الشريفة، ثم يركب الجميع المراكب، ويذهبون إلى بلادهم وقد قام الحقيّر بتوديع الشيخ الشناوى والشيخ شرف الدين وحصل منهم على الدعوات بالخير وركب المركب وأبحر فى النيل حتى وصلنا إلى بلد الرحمانية المقابلة لمدينة إبراهيم الدسوقي وتقع بلدة الرحمانية فى أراضى البحيرة وهى فى التزام قيطاس أغا الشركسى وهى قرية عامرة بها خمسمائة منزل وستة حوانيت وثلاثة جوامع ومثدنة واحدة ومصنع سكر وستة مقاهٍ ودار الضيافة بها عامرة للغاية وكانها القصر العالى المنيّف، وتشتهر تلك القرية بمزارع قصب السكر وتحصل للملتزم منها سنوياً من محصول السكر والمحاصيل الأخرى عشرة أكياس، وأحد الجوامع الثلاثة المذكورة من بناء السيد نفيس ويوجد أمام محراب الجامع أربعة أضرحة مدفون بها أربعة من أبناء الشيخ سيد نفيس وهم الابن الأكبر الشيخ سيد محمد يليه الشيخ سيد سليمان يليه الشيخ سيد محمود وكلهم من السادة الكرام وبخلاف تلك الأضرحة توجد أضرحة أخرى لكننا لا نعلم لمن كانت تلك الأضرحة وكلهم خلفاء للطريقة البرهانية، والجامع جديد وعامر قبه مطلية بالكلس الأبيض وبه مثدنة وعلى منبره آية: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] وقد قرأ الحقيّر فى هذا الجامع ختمة شريفة لروح كل واحد من المدفونين فى هذا الجامع، ثم ذهبنا إلى قصر قيطاس أغا وركبنا الخيول الكحيلانية مع حضرة الشيخ الشناوى وسرنا على دقات الطبول والدفوف إلى مدينة دمنهور لحضور مولد الشيخ أبو الريش.

المنازل التي مررنا بها في طريقنا إلى دمنهور

عبرنا غرباً من بلدة الرحمانية حتى وصلنا إلى بلدة الداودية وهي قرية عامرة بها مائة منزل وجامع وبها ضريح الشيخ عطا الله السهوري وهو بين الأشجار على الطريق العام وقد قرأنا الفاتحة لروحه ثم سرنا ناحية الغرب في صحراء كبيرة فوصلنا إلى بلدة السهورية وهي قرية تقع في أراضي البحيرة في وسط الصحراء بها ثلاثمائة وعشر منازل وجامع على هضبة مرتفعة ثم سرنا غرباً في الصحراء على ضفاف ترعة الملك الأشرف فوصلنا إلى دمنهور.

أوصاف المدينة القديمة دمنهور

يطلقون عليها خطأ دمنهور من كلمة دم نهور وسبب تسميتها بهذا الاسم أنه عندما فتح عمرو بن العاص مصر في عهد عمر بن الخطاب وبعدها بسبع سنوات أرسل عمرو ثلاثة آلاف جندي للبحيرة لتأمين مسيرة الحجاج المغاربة فقام الملك قوطيس القبطي أخو الملك المقوقس بحصار البحيرة ودارت الحرب بينه وبين جند المسلمين لمدة سبعة أيام صارت الدماء فيها مثل الأنهار فاطلق عليها بعد الفتح دم نهور وأصبح يقال عليها خطأ دمنهور، ولا توجد حكومة تملك إيالات كثيرة أكثر من دمنهور في أقاليم مصر فتتد حدودها حتى الجنوب إلى الصعيد وإلى طرابلس وإلى الجبل الأخضر وإلى الواحات ويلزم لها كاشفون ذوى جرأة وشجاعة يعملون على الضبط والربط لشتى صنوف الأهلالي الموجودين في تلك البقعة الواسعة.

ويحصل منها مائتي كيس وبها ثلاثمائة وستون قرية تابعة لها ولحاكمها خمسمائة جندي من الخيالة وخمسمائة مسلح بالبنادق وهذا أقل ما يكون بجانب حاكم إيالة دمنهور والسبب في ذلك العربان العصاة الذين يأتون من الجبل الأخضر وهم قبائل الجندارى وهم يمتلكون عشرة آلاف جندي وقبائل بهجة ويمتلكون نفس العدد وقبائل البدو ولا يعلم عددهم إلا الله، وقبائل أولاد رجيم ابن سيدنا سليمان وبها ثمانية آلاف بدوى، وقبائل بنى عون، وعندهم سبعة آلاف جندي وقبائل بنى نخمة وعددهم

ثلاثة آلاف، ويتصفون بالشجاعة، وقبائل الضعفا وهم ثلاثة آلاف رجل يقيمون في أراضي البحيرة والفيوم حيث ينتقلون من مكان إلى مكان وهم قوم مطيعون، وقبائل أفراد وجوابي وربانسه وطرحونه طرفه وأولاد حسن ونداره وسمه لوس وطويلي وسعادي وجلامى وبنى قمامطة وبنى هدهد وعربان محارب وعربان زرق وأولاد بنى وفا وهؤلاء وفدوا من المغرب واستقروا هناك وعندهم من الجند خمسة آلاف، وبخلاف هؤلاء يوجد مئات القبائل من العربان ولكن لاختلاطهم اكتفينا بذكر المذكورين فقط وهم عربان غرباء يحتاجون للغلال، وإذا ما جاء موسم الحصاد ينهبون الغلال بالرماح فينهبون القرى ويسغيرون عليها ويأخذون ما فيها مجاناً، ثم بعد ذلك يذهبون إلى الصحارى التى يقيمون بها، لذا يجب أن يكون كاشف البحيرة حاكماً ذا جرأة وشجاعة ومعه من الجند ما يكفيه، ولمدينة البحيرة محافظ على ألف جندى من جنود البلوكات السبعة لجند مصر وقائد للإنكشارية ورئيس لجنود العزب ونقيب للأشراف، ويوجد كاشف آخر تحت الكاشف الرئيسى للإيالة، أولاً كاشف روم بيه ويقيم فى مدينة حوش عيسى وكاشف طرانه وكاشف صيف درج وكاشف مجيلة وكاشف البحيرة المألحة، وقد استطاع أشقياء طرابلس الغرب أن يَغْصِبُوا الذهب بالقوة لمدة ستة وعشرين سنة.

وكل كاشف من الكاشفين المذكورين له خمسمائة أو ستمائة جندى وله راية وكلهم يمنحون الخلع من كاشف إيالة البحيرة وليس من ديوان مصر، والحاصل أن كشوفية البحيرة عبارة عن حكومة لدى قضاء البحيرة ويحصل سنوياً ثلاثة آلاف قرش، حيث يوجد بقضاء البحيرة ثلاثمائة وست وستين قرية وستة نواح هى نواحى طرانه والرحمانية وحوش بنى عيسى وصيف درج وناحية المدينة ومعظم أهالى تلك النواحى عصاة غير مطيعين، أما مدينة دمنهور فتقع على ضفاف ترعة الملك الأشرف فى وسط صحراء البحيرة على الناحية الشرقية لها وتبعد عن النيل بمقدار أربع ساعات وهى ناحية الرحمانية، أما الناحية الشمالية فتقع على ضفاف بحيرة مألحة يطلقون عليها ترعة الناصرية تبعد نصف ساعة عن النيل وعلى مسافة عشر ساعات بعد عبور عدة قرى عامرة توجد مدينة الإسكندرية، وطول مدينة دمنهور من الشرق إلى الغرب ثلاثة آلاف

خطوة وبها خمسة آلاف وخمسمائة منزل مسقوفة بأسقف بنيت من الطين، كما توجد بها منازل للفقراء، وعشرين محلة وسبع وسبعين مصلى بالتفصيل على ما يلي: جامع الأمير عامر بمحلة المنيل الواقعة بالجهة الشرقية لدمنهو وهو جامع كبير وقديم وتقام به جماعات كثيرة وهو جامع فسيح يبلغ بالخطوة المتوسطة مائة خطوة بالتمام طولاً وعرضاً، وبه اثنان وثلاثون عموداً من المرمر تحمل السقف المنقوش أما سطح الجامع فهو مغطى بالكلس، وللمسجد ثلاثة أبواب باب القبلة وينزل منه للجامع بواسطة أربع درجات سلمية والبابان الجانبيان أيضاً لكل باب منهم سلم يبلغ أربع درجات سلمية وتوجد مثذنة مربعة ذات ثلاث طوابق تقع خارج الجامع وهي بعيدة عن باب القبلة، وهي مثذنة مرتفعة بنيت بمهارة أظهر فيها صانعها مهارته وخبرته.

وبوسط فناء الجامع توجد شجرة سدر قديمة ولكنها تثمر نبقاً عجيباً، ومحراب الجامع على الطراز القديم أما المنبر فهو من الخشب المحفور وعليه لوحة خطية وعلى باب المنبر توجد لوحة منقوش عليها بالخط الجلى المحفور على الخشب عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم إنشاء هذا المنبر المبارك والجناىبى العالى الأمراء الكبير عامر بن المرحوم الرابى إسماعيل بن عامر غفر الله والديه والمسلمين وكان الفراغ من هذا المكان سنة اثنين وسبعمئة).

وعلى الحائط الأيمن لهذا المنبر توجد لوحة بطول الحائط من المرمر الأبيض نقش عليها بالخط الجلى عبارة:

(تعمر هذا الجامع سنة أربع وخمسين وثمانمئة).

وعلى مقربة من هذا الجامع يوجد جامع صغير ذو مثذنة من طابق واحد هو جامع أبو السعود، وبالسوق جامع به عشرون عموداً من المرمر يطلقون عليه جامع التوبة وجامع العرب، وهو جامع مزين من على حوائطه بالأحاديث النبوية المكتوبة على الحوائط بين المصاييح والمشاريق وله باب يطل على السوق ومثذنة موزونة ذات ثلاث طوابق، وله باب أيضاً على يسار المحراب وباب آخر للحرم أما محفل المؤذن فهو محفل فى غاية المهارة من حيث الصنع مرفوع على أربعة أعمدة مرمية محيطة مقدار ذراع أى

أن العمود مثل الذراع لذا يخاف أى شخص يصعد إليه ومحراب الجامع قديم، على جانبيه عمودان مرمريان قى غاية الجمال، ويدخل المحراب نقش خطى بخط الثلث مكتوب على أرضية مرمرية وهو لآية قرآنية: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ {النور: ٣٦}.

وأمام قصر الكاشف جامع المرحوم وهو جامع عتيق، وقد سمي بجامع المرحوم نظراً لأن كل صلوات الجنائز تؤدى فيه، طوله وعرضه مائة خطوة، بديع البناء للغاية، وبه اثنين وثلاثين كمره تشبه الأعمدة تحمل السقف، وليس بالجامع قبة، وللجامع ثلاثة أبواب اثنان جانبيين وواحد للقبلة، وبوسط فناء الجامع شجرتى نخيل وشجرة سدر، تحت تلك الأشجار توجد صنادير على حجر أرقى يقوم أصحاب المذهب الحنفى بتجديد وضوئهم منها، ولهذا الحجر قصة وهى أنه كان قديماً قبراً لأحد ملوك القبط وعندما استولى العربان عليه ألغوا التابوت خارجاً واستخدموا مكانه كمحراض (بيت خلاء) وعلى الجوانب الأربعة للحوض توجد نقوش خطية للكهنة القدامى وقد تجولت فى أقاليم مصر ثمانى سنوات ولم أرَ مثل تلك النقوش فى إسنا أو أسوان فهو حجر ملىء بالفرائب والعجائب، ويقول بعض أصحاب الحرف أنهم يعجبون هذا الحجر ويستخدمونه فى بعض الخزف والصناعات، ولا يوجد بهذا الجامع أى طلاعات بالكلس وليس له مثذنة.

وتوجد ثمانية أعمدة مرمرية على الجهة الجبلية على جانبي باب القبلة، أعمدة فى غاية الجمال لا يشبهها أعمدة، ولكن نظراً لتوقف أوقاف الجامع فقد بقى الجامع معطلاً، وعلى منبره نقوش محفورة على الخشب نقوش عربية ونجوم وقطع القيشانى وأفرع نباتية، إنه منبر عجيب وغريب كاللوحة الفنية حتى أن بعض الرسامين سرقوا الصنعة منه، وعلى باب هذا المنبر لوحة بها نقش خطى مكتوب بالخط المحفور كتب بها عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين جدد هذا

الجامع المبارك العبد الحقير إلى الله تعالى الأمير الكبير الشريف عيسى بن الجنب العالي المرحوم المخدم إسماعيل المرحوم الزينى أمير عامر عربان إقليم البحيرة أعز الله أنصاره ورحمه وكان الفراغ من ذلك فى شهر محرم الحرام سنة ٦٣ وسبعمائة بعد الهجرة النبوية).

وعلى مسافة خمسين خطوة من الناحية الشمالية لهذا الجامع جامع السلطان قايتباى ومرقوم عليه أنه جامع سيدى شعبان وهو جامع أنور له روحانية به جماعات كثيرة وله مثذنة ذات طبقة واحدة وبالجامع عشرة أعمدة مرمية تحمل السقف المزين وعلى باب منبره الخشبى نقش خطى بالخط البنفسجى المذهب عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك فى أيام مولانا السلطان مالك الممالك الأشرف أبو النصر قايتباى أعز الله أنصاره فى شهر ذى الحجة الحرام سنة أربع وستين وثمانمائة بعد الهجرة).

وبالسوق جامع صغير هو جامع الشيخ أحمد الداوى وبه مثذنة طويلة ذات ثلاث طوابق، وعلى مسافة سبعمائة خطوة خارج مدينة دمنهور من الناحية الشرقية جامع صغير ذو مثذنة منخفضة هو جامع أبو الريش وبفناءه شجرة سدر كبيرة وبالجبانة التى تقع خارج المدينة جامع العباس وبه مزار خالٍ ولكنه مزار للخاص والعام ويتم الآن بناء الجامع الجديد الذى أمر ببنائه أحمد أغا رئيس جنود العزب فى الميناء الواقع على ترعة الملك الأشرف وهو جامع صغير بنى بمهارة وإبداع ظاهرين وملحق به مثذنة مبهجة للقلوب اللهم يسر إتمامه بالخير.

وبمدينة دمنهور عشرة مآذن وهى العشر مساجد التى ذكرناها آنفاً، وباقى الجوامع الموجودة بالمدينة عبارة عن مساجد صغيرة، وبالمدينة سبع تكايا وأربعين مكتباً للصبيان وأحد عشر سبيلاً وفى بعض زوايا المدينة توجد قباب لأسبله صغيرة، وبالمدينة ثلاث مدارس وحمامان، أحدهما يقع فى فناء جامع المولى وهو حمام قديم وبنائه وهواءه لطيف أما الحمام الموجود بالسوق فهو حمام منخفض وهو حمام الشيخ أبو السعود وهو حمام صغير وبالمدينة ستمائة وثمانون حانوتاً وبها ثمان خانات وسبع مقاهٍ وسبعة

وأربعون مغزلاً لنسيج الأقمشة وماتى حانوت لأعمال الطلاء وسبعة مصانع للطلاء أميرية.

هذا السوق السلطاني مغطى من أوله إلى آخره من أعلى والطريق العام بالمدينة واسع، وكل منازلها سواء كانت للفقراء أو الأغنياء منازل عامرة ذات طابقين، وكل مياهها من الآبار وبها نسبة ملحوة وهناك مياه خاصة يستخدمونها للشرب ويوجد بئر على طريق أبو الريش يشرب منه أعيان وكبار المدينة مياهه لذيدة وهى عبارة عن ماء البرد وطقس المدينة ليس مرغوباً فيه.

ولا يوجد بالمدينة حدائق أو بساتين إلا أن أشجار النخيل تحيط بجوانبها الأربعة وتأتى معظم فاكهة تلك المدينة من بلدة صف درج وبالمدينة نوع من العنب أجود من عنب الفيوم، ولأن أرض تلك المدينة مالحة إلى حد ما فإن محصولها من القمح قليل، ولون بشرة الأهالى هناك قمحية، ويتزاوج عربان بهيجة وضارى من بعضهم البعض وتزين معظم النساء والفتيات هناك بالوشم الأزرق على أيديهن وأذرعهن وأيضاً بالكردان والخلخال^(١) الفضى والذهبي وترتدى النساء الأثرياء هناك البرقع الأسود ويرتدين الأقمصة الحريرية، ويرتدى الأعيان من الرجال الملابس الصوفية، أما فقراءهم فيرتدون الفرجية^(٢) المصرية. والقماش فى دمنهور من أكثر الصناعات هناك شهرة خاصة الأزرق والأحمر الفاتح منه والكليم من أشهر صناعات القماش فى دمنهور فهم يصنعون كليماً بطول أربعين أو خمسين ذراعاً ويمكن أن تستعمل أربعين أو خمسين عاماً، كما تشتهر المدينة بالزيت الحار أى زيت بذور الكتان والخبز الأبيض والباذنجان الكبير التى تبلغ الواحدة منه مثل حجم رأس الإنسان والملح والحصير المتعدد الألوان، كما يوجد ببجيرة المدينة أنواع مختلفة من الأسماك، وبقرية صفد أنواع كثيرة من الثمار والعنب الجيد، والحاصل أنها مدينة كبيرة ولكن لوجود اللصوص بها لا يستطيع

(١) الكردان: حلى تزين الصدر وتلبس فى الرقة كالفلاند، والخلخال: تلبسه النساء فوق الكعبين وكلاهما مشهور معروف.

(٢) ثوب واسع من الصوف طويل الكمين.

الاهالى النوم فى راحة خشية اللصوص حيث يقوم الاهالى بحراسة المنازل ليلاً بالتناوب وهم مسلحون.

حتى أنه عندما كان الحقيقير هناك هجم اللصوص على منزل رئيس جنود العزب ودارت معركة كبيرة وسقط سبعة من اللصوص وفر الباقون ولكن بعد أن سرقت ناقة من النوق الموجودة بالفناء الخارجى للقصر، ويقوم مائتى غفير بحماية وحراسة المدينة كل ليلة حيث يحيطون بأطراف المدينة، ويجمع لهم سنويًا من الاهالى ألفى قرش، والحاصل أنه لو كان هناك حاكم شديد وجريء فإن هؤلاء اللصوص لن يستطيعوا دخول المدينة، والسلام.

فى بيان الأولياء المدفونين داخل وخارج دمنهور

أولاً: بلدة الشيخ أبو الريش وتقع شرق مدينة دمنهور على مسافة سبعمائة خطوة، وبها مائتا منزل معظم ساكنوها من أبناء وأحفاد الشيخ أبو الريش وهم من السادات الكرام وبالبدة جامع به منارة منخفضة ذات طبقة واحدة ويفنائ شجرة سدر كبيرة وفى فناء هذا الجامع دفن بعض أعيان وأشرف البلدة وأحد أبواب الفناء يطل على القبلة والآخر يطل على جهة الشرق والجامع ليس مزينًا وكبيرًا إلا أن جماعته كثيرة لأنه لا يخلو من الزوار فى معظم الأوقات وبالناحية اليمنى للجامع يوجد ضريح متصل به وهو ضريح مقبب قبته متصلة بسطح الجامع مدفون فى هذا الضريح الشيخ القطب والغوث الأعظم على الإطلاق مرشد الطريقة وعين الشريعة الشيخ عطاء الله أبو الريش وهو من سلالة آل عباس قدس سره العزيز وهو مدفون فى هذا الضريح وجميع متعلقاته موجودة معه فى هذا الضريح أيضاً حول الفسقية، وقد وصل الحقيقير إلى هناك فى اليوم السادس من شهر جمادى الآخرة عام ١٠٨٣ هـ وكان يوافق يوم مولد الشيخ أبو الريش حيث ذهبنا عند الشيخ الشناوى إلى منزل صاحب السجادة الشيخ شمس الدين الدمنهورى وهو من أبناء الشيخ أبو الريش وكان شيخًا معمرًا يبلغ عمره ١٣٦ سنة له وجه منير، فقمنا بتقبيل يديه ونلنا من دعواته بالخير.

والشيخ شمس الدين من الزهاد عاش تلك الفترة كلها يحافظ على صيام داود ولم يتناول خلال المائة وستة وثلاثين سنة أى لحوم قط ولم يأكل خبز القمح بل كان يزرع الشعير فى فدان أرض كان يمتلكه ويحصده بيده ويطحنه بيده على مطحنة يدوية ويأكل منه، كان من أهل الحال قضى عمره كله منزوياً فى ركن من أركان الوحدة منشغلاً بالتعبد والطاعة، وكان الشيخ شمس الدين يمنح كل شخص يأتى إليه رغيغ خبز من الشعير تبركاً وتيمناً وكان الرغيغ الواحد بعشرين درهماً، وعندما ذهب الحقيير إليه أعطى له أربعة أرغفة فتناول الحقيير واحداً والشيخ الشناوى ثلاثة لبسقية الحاضرين بالمجلس لكل شخص واحد أو اثنين، وقال الشيخ للحضور: يا إخوان إن لنا صلاة قضاء دين علينا لم نصلها منذ عهد طفولتنا، إن شاء الله غداً وفى مولد جدنا الشيخ أبو الريش نأخذونى إلى المولد وليصلى معى ثلاثمائة شخص صلاة القضاء وهذه هى كل أموالى وهى حلال وهى ألف أقة وتكن عند الشيخ الشناوى لأنه رجل يعتمد عليه.

ثم قام الشيخ بتسليم ألف أقة إلى الشيخ الشناوى وقال للحضور يا إخوان لتأتوا جميعاً غداً صباحاً ولتجتمع كلنا ثم نذهب إلى مولد جدنا ونحن نذكر الله، فرد عليه كل الحضور بالمجلس: على الرأس والعين السمع والطاعة، ثم ذهبوا إلى منازلهم، وفى صباح اليوم التالى ذهب الحقيير والشيخ الشناوى إلى منزل الشيخ شمس الدين ولكن الشيخ لم يخرج من الحرمك، وأرسل لنا مع أهل البيت القهوة وخبز شعير وبينما كنا نتناول الخبز والقهوة سمعنا أصوات نحيب وعويل من الحرمك، يا لهذا الفزع والجزع وقد خرج علينا الشيخ من الحرم بصعوبة بالغة وقد احمرت عيناه وكان العرق يتصبب منه ألقى علينا السلام فرددنا عليه السلام وقال: ليس هذا ما يدعو إلى الانفعال أو الحيرة فإنى لما دخلت الحمام واغتسلت قلت لهم إنى ذاهب إلى جدى ظنوا أننى سوف أتركهم وأرحل عن الدنيا إلى الآخرة لنا فزعوا وجزعوا، أما نحن الآن فسوف نذهب إلى جدنا ونحتفل بمولده وسوف نصلى مع كل الأحباب صلاة القضاء ثم ابستم

الشيخ، فقال الشيخ الشناوى: يا سلطاننا إن كل مرديكم وأجائكم ينتظرون بالخارج بالدفوف والطبول، كما ينتظر كاشف البحيرة مع جنوده بالسلاح، فقال: لقد استعد الجميع ويجب علىّ أنا أيضاً أن أستعد بالتقوى وأمر بدخول ثلاثمائة درويش إليه يتشغلوا بالتوحيد والذكر، وكان للشيخ شمس الدين ناموسية فى أحد أركان المنزل دخل فيها وبدأ الذكر وبعد ساعة خرج الشيخ من الناموسية، والله أعلم أن الشيخ قد وصل إلى توجر وهو بتلك الناموسية لأنه عندما قال حتى سقطت خيوط الناموسية على رأسه وعلى الفور قام الشيخ الشناوى وخليفته يرفعها من عليه فوجدوا الشيخ قد أسلم الروح لربه امتثالاً لقوله: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ {الفجر: ٢٨} ومن العجب أن الشيخ توفى وهو يتسم وجبينه ووجته كحمرة الورد، فصاح كل المريدين وانتقل هذا الصباح إلى الحريم وتجدد الماتم لهم من جديد وأمر بتجهيز ثلاثة مواعين من الماء الساخن والكفن وماء الورد والبخور وجهزوا له كل الأشياء الخاصة بالموتى وقد خرج أهله وعياله وكريمته إلى الخارج، وقام الشيخ الشناوى بإعطاء ألف أقة التى كانت أمانة عنده من الشيخ شمس الدين إلى ثلاثمائة رجل على حسب الوصية لإسقاط صلاة القضاء عنه، وقام الشيخ الشناوى بتغسيله وكان الحقير يصب الماء عليه وقد أطلق ابن الشيخ الشناوى البخور.

وتم تكفين الشيخ ووضع فى نعشه وسار مع جنازته ما يقرب من ألف شخص من الجنود وهم ينتحبون حتى وصلوا بالجنازة إلى جامع الشيخ أبو الريش وصلى عليه هناك قرابة الأربعين ألف أو الخمسين ألف جندى وهبوا ثواب الصلاة لروحه، ثم دفن الشيخ الشناوى الشيخ شمس الدين فى فسقية الشيخ أبو الريش، وحتى الآن تفوح الرائحة العطرة من تلك الفسقية فتعطر رءوس العاشقين ولم يذهب كل الزوار إلى أى مكان فى ذلك اليوم بل ظلوا فى الجامع وفنائه وقد قرأوا الختمة الشريفة ثلاثمائة مرة وهبوا ثوابها لروح شمس الدين كما قام الأهالى وأصحاب الخيرات بطهى الحلوى والفظائر ووزعوها على الزوار وأهل المولد على روح الشيخ شمس الدين، والحمد لله أنه قد ظهرت تلك الكرامات ورآها الحقير وأنه تقابل مع الشيخ قبل وفاته وخدمه، وإنما هذا

من فضل ربي، وفي ذلك اليوم أيضاً شرعت في قراءة ختمة شريفة على روح الشيخ أبو الريش وانتهيت منها اليوم التالي بعد العصر وكان في حضور كل الصادقين ووهبنا ثواب الختمة لروحه تقبل الله، رحمة الله عليهم أجمعين.

ولا يوجد حصر ولا حد لمناقب الشيخ أبو الريش، والروح المشتاقة لمعرفة تلك المناقب ترجع إلى طبقات الشعراوى وسترى إلى أى حد كان الشيخ أبو الريش سلطاناً عظيماً، والشيخ أبو الريش والشيخ إبراهيم الدسوقي والشيخ أحمد الرفاعي من كبار سلاطين الطريق البرهاني، كان الشيخ أبو الريش عاشقاً لله مثل عمر بن الفارض لم يعمل للدنيا مقدار ذرة واحدة، لذا فإن قبورهم ليست مزينة ويوجد بضريح الشيخ أبو الريش باب يطل على الناحية الشمالية.

وبناء ضريح أبو الريش يوجد ضريح الشيخ عاصم بن الشيخ أبو الريش وله كرامات كثيرة فقد أصبح خليفة صاحب سجادة بعد وفاة جده وبإيعاز أربعون ألف رجل وكان الشيخ عاصم مرشداً للطريق، والشيخ عاصم مثل جده قبره ليس مزيناً دائماً هو عبارة عن صندوق مغطى بقماش أخضر وباب هذا الضريح أيضاً يطل ناحية الشمال.

وعلى مسافة ثلاثمائة خطوة في الجانب الشمالى خارج ضريح أبو الريش يوجد ضريح الشيخ سيد عطية وهو أيضاً سلطان عظيم على الطريقة البرهانية وهو مدفون في ضريح عالٍ، حوائطه مثل حوائط القلعة، وله كرامات كثيرة.

وتحت ظلال شجرة النخيل الموجودة بالسوق يوجد قبر الشيخ أبو هوات وهو ضريح صغير ولا توجد أى آثار أخرى بجانبه، ولو قمنا بتحديد كل أضرحة الأولياء والصحاب الكرام كل على حدة سوف نكتب كتاباً مطولاً فيه.

ولكننا سنكتفى بذكر أضرحة الأولياء المشهورين وهم الذين قمنا بزيارتهم: أولاً الشيخ محمد الأديب وهو سلطان كبير، وجامع الجبانة الموجودة بجوار ضريح الشيخ محمد الأديب يوجد ضريح الشيخ السيد أحمد أبو العباس الشاطر قدس سره وهو مدفون في ضريح مقبب، وبجواره يوجد ضريح صغير للحاج محمد السيوفى وهو من الصحابة الكرام وهو رئيس صناع السيوف للرسول ﷺ، وبضريح متصل به يوجد

الشيخ على السقطى وهو خليفة الشيخ سُريّر السَّقَطى، وبالقرب منه ضريح الشيخ على الطَّنْجى، مسقط رأسه قلعة طنجة ويقال إنه أخبر الأهالى بطنجة أن كفار الأسبان سوف يستولون على القلعة ويقتلون كل من بها لذا جاء الشيخ إلى مصر. وبعد ذلك بعشرة أيام قام كفار أسبانيا بالهجوم على قلعة طنجة وقتلوا كل من بها.

وعلى مقربة منه يوجد ضريح الشيخ ناصر الدين الفاسى وقد أتى هذا الشيخ إلى القاهرة المعز من مدينة فاس بالمغرب، واشترك فى فتح مصر ضد الإخشيديين، ثم انتقل إلى دمنهور وتوفى بها وهو مدفون بجبانته فى ضريح صغير.

ثم الشيخ الأمير محبى الدين بن السلطان ناصر الدين سلطان مصر، ترك هذا الأمير العرش والمُلْك وارتدى عباءة الفناء فى الله وقد عاش فى الجبل الأخضر حتى ألفتة الطيور الجارحة والسباع وكل الوحوش الموجودة فى الجبل الأخضر، حيث سكن فى وادى هامون، بعد ذلك ثم أصبح قطباً وضريحه الآن مزار للخاص والعام، وعلى مقربة منه ضريح الشيخ العجمى وبجانبه ضريح الشیخة السيدة أم الشيخ إسماعيل فى ضريح متصل بضريحها مدفون الشيخ خضر، وبجوارهم ضريح الشيخ برهان الدين.

وكل الأولياء المذكورين فى أفنية الجوامع: أولاً ضريح الشيخ محمد الانصارى وهو من الصحابة الكرام وضريحه بجوار الباب الأيسر لجامع المنى وهو ضريح صغير، وقد وفد هذا الصحابى سفيراً من سيدنا أبى بكر إلى ملوك القبط وتوفى بالمدينة ودفن فيها ويوجد تاريخ على مشهد القبر القديم.

وضريح الشيخ أبو السعود الدمنهورى ويقع داخل المدينة على يسار محراب جامع الشيخ الدمنهورى.

وضريح الشيخ مجاهد.

ثم ضريح الشيخ شعبان الواقع بالقرب من سوق الخشب وهو ضريح صغير فى الزاوية اليمنى لجامع الشيخ شعبان والجامع من آثار السلطان قايتباى، ولأن الشيخ شعبان مدفون به سمى على اسمه، إنه سلطان عظيم.

ثم ضريح الشيخ أحمد الداودي ويقع على يسار محراب جامع المحكمة بجوار سوق الخفاف إنه سلطان عظيم حتى لو كان هناك حق لشخص عند شخص آخر ولا توجد نية للوفاء بهذا الحق فيهب الاثنان إلى ضريح الشيخ داود ويحلف المدين وهو يطرق باب الضريح بيده بأنه ليس في ذمته أى دين لهذا الشخص، والحقيقة أنه لو كان هناك أى سارق أو مديون لا يستطيع أن يحلف اليمين ويضرب الباب بيده، بل يعترف على الفور بجريمته، ومشهور فى مدينة دمنهور أنه لو حلف شخص ما بالباطل وتجراً على طرق الباب فإنه يهلك فى لحظتها، وفى كل سنة يتم إحقاق الحق لآلاف الرجال فى هذا الضريح، فيأتى آلاف الرجال من النواحي والقرى المجاورة لإظهار حقوقهم عند هذا الضريح إنه ضريح عظيم، قدس سره.

ومزار جامع قرقر وضريح الشيخ أبو شعبة بالمدينة وعلى مقربة منه ضريح الشيخ صاحب الأنوار الشيخ أبو يعقوب وهو على الطريقة البرهانية وخليفة للشيخ الدسوقي وأحمد الله أننى ذهبت إلى كل تلك الأضرحة ومسحت وجهى بها وقرأت الفاتحة أو حزب وختمه شريفة لكل واحد منهم ورجونا البركة منهم، رحمة الله عليهم أجمعين، وقد أتمنا زيارتها.

وفى اليوم الأول من شهر جمادى الآخرة عام ١٠٨٣ هـ ذهبنا لمشاهدة مولد الشيخ أبو الريش ولو أننا كتبنا ما شاهدنا كله فلن يكفيننا هنا مجلد آخر، وهو مولد عظيم مثل مولد البدوي والدسوقي والشيخ محمد بن زين بالنهارية، والمولد الأقل منه من حيث التجمع فى دمنهور هو مولد الشيخ شمس الدين، ولا تقام فى هذا المولد احتفالات كبيرة مثل الموالد الأخرى نظراً لقرب المنطقة من الصحراء ولكن يفد إليه رجال لا يحصى عددهم من البلدان المختلفة من فاس ومراكش وطرابلس والجزائر وإدفو وإسنا وأسوان والسودان، وتحضر قبائل بعليجة وسليمانى وحنارى إلى هذا المولد كما تقوم مئات القبائل الأخرى بجلب البضائع من البلدان المذكورة للبيع والشراء فى هذا المولد، ويمكثون فى صحراء دمنهور يخيامهم، ويجتمع أناس كثيرون ويكونون كالبحر لا يعجز اللسان عن وصف تجمعهم، وتباع هناك مئات الآلاف من أحمال الزيوت والنعاج

والماشية والحملان والصبيان السود وكل جنسية من تلك الاجناس المختلفة لها شكل ولون مختلف عن الآخر فقوم ماى بورنو عيونهم حمراء، وأفنو عيونهم صفراء ولكن بشرتهم تميل إلى الحمرة ومعظم هؤلاء يحضرون تبر الذهب ويشترون قماش الاقمصة، أما اقوام نجه نشكى فعيونهم بيضاء وبشرتهم سمراء جداً، وكان يوجد فى خيامهم رجل كل جسده مغطى بالشعر وقد ذهب الجميع ليشاهدوه، وقد تقدم الحقيير وشاهد هذا الرجل، وكانت أسنانه وأنفه مثل أسنان وأنف الكلب كان يبدو وكأنه كلب أصفر اللون، عندما كنا نتكلم كان يتسم ولم ير الحقيير بنى آدم على تلك الهيئة، فسألت عن أهله وهو يعرف لغتهم حيث كان يوجد رجال من الواحات، فأجابوا قائلين وهم يقسمون على ذلك: أن هذا الرجل ابن أحد القروء ويقولون فى ذلك أن والده هذا الرجل كانت تقوم بتكسير وتقطع أشجار السنبداد فى الجبل فخرج عليها قرد وجامعها وبعد عام ولد هذا الرجل بإذن الله وقد تحير الحقيير جداً وقال آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩] وسأل الحقيير أيضاً مرة أخرى أيها القوم هل يكون هناك قرد بهذا الحجم فقالوا يوجد قروء فى حجم الحمار فينزلون إلى الطريق من على الجبل ويتعاركون معنا، يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته ولكن كل هؤلاء القوم عرايا ولا توجد عليهم أى سترة سوى سترة بسيطة عند مكان العورة، ولكنهم لو تحركوا تظهر عورتهم إنهم مثل الحيوانات، ومنهم رجال لم يشربوا المياه طوال حياتهم، وكلهم يشربون لبن الإبل ويأكلون خبز الذرة، أما قبائل بهيجة وجنادى والضعفا فيأكلون الخبز الأبيض (القمح) يشتهرون بالجمال فعيونهم مكحلة وكلامهم حسن ولكنهم اللهم عافنا يذهبون إلى سوق البغايا، وتنصب الأسواق فى هذا المولد ويتم البيع والشراء لمدة عشرة أيام بلياليها ثم يقوم الكاشف وكل جنده بالمشير على دقات الدفوف وبذلك يكون قد انتهى المولد ويحل كل الزوار والتجار الخيام ويقومون بزيارة أبو الريش زيارة الوداع ثم يذهب كل شخص إلى قصبته وقريته، وقد قام الحقيير أيضاً بزيارة الوداع وأخذ من الكاشف عشرة رجال مسلحين وسرنا بهم إلى اتجاه الغرب لمدة خمس ساعات من دمنهور فى صحراء كبيرة فوصلنا إلى مدينة حوش عيسى القديمة ويطلقون على الحوش

(١) لفظ حديث في اللغة العربية، كانت هذه المدينة قديماً مدينة عظيمة ولكنها غرقت تحت بحر الإسكندرية فخربت قراها.

والمدينة حالياً ليست مدينة وفي أراضي البحيرة كاشف يطلقون عليه روم بيه، يُمنح الخلعة من كاشف البحيرة وعنده خمسمائة جندي من الخيالة وحكم هذا الكاشف يمتد حتى سبعين منزلاً أى حتى خليج كبريت ويتحصل لكاشفها ثمانية عشر كيساً من الأموال المصرية، وقضاء مائة وخمسين أقة ولكن نظراً لعدم تحصيل أى شيء منها في الوقت الحالي ألحقت بقضاء البحيرة، ويتحصل منها سنوياً ألف قرش، تقع مدينة حوش عيسى في وسط صحراء مستوية، ففي عام ٧٢١ جاء أحد أمراء العربان ويدعى حوت عيسى إلى تلك المنطقة فأعجبه هواءها ومياهها فأسس تلك المدينة.

وكان هذا الأمير يمتلك عشرة آلاف ناقة ومئات الآلاف من الأغنام والجاموس والثيران ودائماً ما كان يقوم بالاستيلاء على التبر الموجود بالمنطقة، وكان يحج كل عام بألف ناقة وكان يبذل النعم على الحجاج، ونظراً لهذا فقد عمرت مدينة حوش عيسى وأقبل الناس عليها نظراً لكثرة إنعام أميرها عليها ويمكن القول بأن أهل المدينة أصبحوا أثرياء ولم يبق بمنزلها أرض خراب، فقد كانت تلك الأرض أرض الإبل والغنم.

وفي عصر ابن عيسى المذكور قام كفار أسبانيا بهدم طريق ترعة الإسكندرية فلم يصل النيل إلى الإسكندرية، وبالتالي مات أهل المدينة من العطش وقد وجد الكفار في هذا إعانة لهم على إسقاط المدينة تحت وطأنهم؛ فحاصروها. ولكن مئات الآلاف من عربان حوش عيسى هبوا لنجدة الإسكندرية ووصل المدد إلى القلعة، وألقوا فريقاً من الكفار في البحر، أما الباقيون فقد ركبوا سفنهم وفروا هاربين وفي أثناء إصلاح الترعة كان ابن عيسى يقدم لأهالي الإسكندرية كل يوم ثلاثة جمال محملة بالمياه وبذلك أنقذ أهالي الإسكندرية من هذا العطش والهلاك المحقق، وبذلك ازدانت مدينة حوش عيسى بالعمران بمرور الأيام لقوة حاكمها الأمير عيسى ولكنها أهملت بعد ذلك نظراً لظلم الكاشفين وكيد العربان وجورهم على الأهالي، وعندما زرنا هذا المكان كان بالمدينة ألفا (١) بياض في الأصل.

منزل بالطوب اللبن تقع بين أشجار النخيل وهى بيوت فلاحين ويسكن بها المغاربة، كما يسكنها بعض من قبائل بهيجة وضارى والحضرى، وقد كان يوجد بها قديماً ألف وخمسمائة محراب للصلاة لم يبقَ منها الآن سوى أحد عشر محراباً فقط ولكن بوسط المدينة يوجد جامع ابن عيسى لا يوجد فى أقاليم مصر مثله لقد شيد على قدر كبير من المهارة والحرفة وتأسس هذا المسجد من الحجارة المنحوتة فى غاية الإبداع كأنها مصنوعة بأيدي أمهر صناع فى حرفة الحفر، ولا يوجد جامع بخلاف هذا، وللجامع مئذنة عالية من ثلاث طوابق، وبالمدينة حمام هو حمام الأمير عيسى لا يوجد نظيره إلا حمام الأمير عثمان فى مدينة منفلوط، وبها خمسون حانوتاً ولكن كل شخص يقوم بالبيع والشراء فى منزله، لذا فكل الحوانيت الموجودة بها ثلاثمائة وستون حانوتاً وخلاصة الكلام أن معظم عمران مدينة حوش عيسى من خيرات الأمير ابن عيسى المذكور، ولا توجد بمدينة حوش عيسى حدائق أو بساتين إلا أشجار النخيل، وكل مياهها مياه آبار لذيدة الطعم لأن كل تلك الآبار بيضاء وتوجد ثلاثة آلاف منزل مبنية بالخصوص والتراب والكليم والخيام بين غابات النخيل، كل أهالى تلك المنازل مسلحين ولا يستطيع أشقياء قبائل بهيجة وضارى التغلب عليهم أبداً فهم قوم فى غاية الشجاعة ولامتلاكهم إبل وغنم بأعداد كبيرة فإنهم يشتغلون بمهنة نسيج الصوف والوبر، والناحية الجنوبية والغربية لهذه المدينة لا يوجد بها عمران ولم تكن عامرة أساساً، وامتداد تلك الأماكن حتى طرابلس وفاس ومراكش والمغرب صحراء ولكن بالجبل الأخضر توجد بعض الأراضى الموجود بها أشجار، ومياهها وطقسها لطيف لا يمكن وصفه، ويقيم بتلك المناطق آلاف من عربان القبائل.

مناقب المجاذيب

من المجاذيب المشهورين فى مدينة حوش عيسى الشيخ على البشيشى والشيخة مباركة خاتون وهما شخصان لهما كرامات ويقال أنهم كانوا يشاهدون الشيخة مباركة فى الجزائر وتونس وأنه كلما يذهب الشيخ البشيشى إلى أى مكان كانت تذهب

الشيخة مباركة إليه إن الخيل لا تستطيع أن تلتحق بها بل أنها كانت تذهب مع الجند في الحملات.

فى بيان مدينة العقاب

سرنا خمس أيام بلياليها غرب مدينة حوش عيسى مع تجريدة من جند قبيلتى بهيجة وحنادى فوصلنا إلى مدينة خاوية، إنها مدينة تثير الدهشة والحيرة بها آثار كثيرة لاقية وقباب لا يعلم عددها إلا الله إنها حقيقة مدينة العقاب فكلها يوم وغربان وفى شدة الشتاء يقيم بها المجاذيب والضعفاء والمغاربة، وهذه المدينة من بناء الملك خربتا بناها بعد الطوفان، ويقال إن معز الدين من ملوك الفاطميين قام بتخريب المغرب عام ٣٤٧هـ ويوجد بأطلالها حالياً آلاف الأشياء والأحجار الكريمة، وتبعد مدينة أوجليه التى يستخرج منها تبر الذهب بمقدار خمسة مراحل عن مدينة عقاب، ولكن الحقيق لم يصل إليها وذلك لأن عربان الخناوى انهزموا ودخلنا مصر مرة أخرى سالمين غانمين وقد شاهد الحقيق هذه المدينة ورجع الحقيق مع سبعة أو ثمانية من فصافة إلى دمنهور، فى أربع ساعات، وأقمنا فى قصر الكاشف وفى اليوم التالى اتجهنا صوب الشمال من مدينة دمنهور مع جنود الفرقة السابعة وكل أعيان المدينة وكاشف البحيرة محمد أغا فوصلنا إلى بلد جبل قاسم بك، ومنها إلى بلدة بصطره وهى لمصطفى أغا الدمنهورى ومنها إلى بلد زرقون، ومنها إلى بلد زاوية الغزال، ومنها سرنا ساعتين فى قرى عامرة حتى وصلنا إلى بلد الناصرية، وبها مائتان وخمسين منزلاً وجامع ولها قرية عامرة من أوقاف السلطان الناصر، ومكثنا فى هذا المكان مع كل الجنود، وبدأ الجنود والرجال فى إصلاح ترعة الإسكندرية، وقد ظل الجند وآلاف الرجال يعملون لمدة أسبوع كامل حتى تم إصلاح الترعة وبدأت مياه النيل تصل إلى مدينة الإسكندرية مرة أخرى، وأقام الكاشف لذلك احتفالات عظيمة حيث ذبح أربعين شاة وخمسة من الإبل وذلك لأن وصول مياه النيل إلى الإسكندرية كان يعنى إحياء بندر مدينة الإسكندرية وبندر الإسكندرية يحصل سنوياً ثلاثمائة كيس مصرى وإذا تعطل الجمرى فإنه يؤمر بقتل كاشف البحيرة لذا يؤمر كاشف البحيرة بتعمير تلك الترعة، ويسجل لتلك النفقات أربعين كيساً مصرياً سنوياً،

ويتم تسجيل ذلك فى محكمة قصبة قوّه، وأول من حفر هذه التربة الناصرية هو الملك القبطى فلبطر فى عهد إبراهيم عليه السلام وقد تعرض هذا الملك للسيدة سارة مرتين فسلّت يده وتاب واستغفر وآمن بسيدنا إبراهيم، وهذه التربة من إنشاء هذا الملك، وقد شقت تلك التربة من قرية دراور بأرض البحيرة بالقرب من قصبة قوّه الموجودة على ضفاف النيل وتسير التربة لمسافة منزلين ثم تصل إلى الإسكندرية وهو عمل شاق ليس فى مقدور البشر وتسير السفن فيها منذ ستة أشهر، وبمرور الأيام تعطلت التربة ورددت فقام السلطان الناصر بجرف ما ردم منها وسير فيها المياه من جديد، لذا يطلقون عليها تربة الناصرية. وعلى جانبى تلك التربة يوجد بحر البحيرة، ويجرى النيل المبارك من بينهما وفى بعض الأماكن يزيد تلاطم البحر فتفسد جسور تلك التربة الأمر الذى يجعلها تحتاج إلى خلق كثيرة لترميمها وتعميرها، عندما قام الملك «فلبطير» بإنشاء تلك التربة فرشها كلها أولاً عن آخر بالمرمر الخام، ويظهر هذا الممر حالياً فى بعض الأماكن. حقاً إن همة الرجال تقلع الجبال، ويوجد خليج يطلقون عليه خليج الإسكندرية، لو لم يتم حفر هذا الخليج كل عام تقوم الأمواج المتلاطمة للبحيرات المرة الموجودة على جانبيه بقطع الجسور وبالتالي تغرق مئات القرى فى ولاية البحيرة، لذا تتم محاسبة كاشف البحيرة عن تطهير هذا الخليج كل عام، وبعد ترميم التربة قام كاشف البحيرة بمنحنا عشرة آلاف بارة وبراءة نظير خدماتنا، وأرفق معنا عشرة رجال مسلحين، ومنحنا سفينة وجميع اللوازم، وسرنا فى تلك التربة قاصدين مدينة الإسكندرية. وحاصل القرى والمنازل التى مررنا بها حتى مدينة الإسكندرية، بلد سنتاو وتقع على ضفاف تلك التربة وبها مائتا منزل وجامع وهى قرى عامرة، ويوجد بها ملتزم فى أراضى البحيرة، وبهذا البلد ضريح الشيخ أبو بكر الشتاوى وهو ضريح صغير فى فناء الجامع الموجود على ضفاف هذه التربة، وهو من كبار الأولياء المشهورين، واستكملنا سيرنا فى التربة فوصلنا إلى بلد برسيق، وهى قرى عامرة بها مائة منزل وجامع وحدائق النخيل ومنها إلى بلد نخل وهى قرى عامرة بها مائتا منزل وبتلك الناحية توجد تربة الأشرفية. وهى تربة كبيرة انفصلت عن قرى الرحمانية

الموجودة على ضفاف نهر النيل، وهى من خيرات السلطان الأشرف من سلاطين مصر لذا يطلق عليها التربة الأشرفية وتروى تلك التربة مئات القرى فى أراضي البحيرة وتمر بمدينة دمنهور، عبرنا تلك التربة وصرنا إلى الأمام وتختلط تلك التربة بتربة الناصرية عند بلد أبو خضر وتسير الترعتان حتى تصلان إلى الإسكندرية، وهما أيضاً من الخيرات العظيمة.

وعلى مقربة من بلد أبو خضر توجد بلد القراوى وهى عامرة للغاية وبها جامع ومن هناك إلى بلد القافلة وهى عبارة عن قرى عامرة بها خمسمائة منزل وجامع وأسفل منها بلد وسوس. وبها أيضاً جامع وثلاثمائة منزل وهى بلدة عامرة وأسفل منها بلد بركة وهى قرى عامرة تضم خمسمائة منزل وجامع. وبها ضريح يعد مزاراً لم نعلم عنه شيئاً ولكننا قرأنا الفاتحة لروحه وعبرنا تلك البلدة وصرنا مع مياه النيل حتى وصلنا إلى البلدة الكبيرة روهب وتقع فى أراضي البحيرة وبها ألف وسبعمائة منزل وجامع سلطاني ومساجد وخان وأسواق ومقهى، ويقيم على ترعة الناصرية أمين للجمر ك يُعين من قبل أمين الخوردة وتكون مدة إقامته ستة أشهر ويعدها تحف التربة وتظل أعمال الجمر ك معطلة ستة أشهر أخرى وتأتى كل سنة ألف مركب وسفينة لشراء البضائع من قرية الروهب.

أوصاف بضاعة بلدة الروهب

إنها بضاعة من صنع الله القادر على كل شىء الذى لا نظير لصنعه والتى يبقى العقل حيراناً أمام صنعه عز وجل، من ذلك نبات الغاسول الذى يُنطق خطأ قاسول وهو نبات قصير أصفر اللون ينبت فى صحارى قرية الرويب وهو نبات ذو مشروط مثل نبات أم غيلان ينبت فى شهر يوليو فيقوم الأهالى بالخروج إلى هذا الوادى، لهذا النبات أوراق مثل مخالب الطيور الجارحة فيقومون بقطف الغاسول من تلك الأوراق، ويستخدمونه فى الاغتسال كالصابون ويقوم الأهالى بصب هذا الغاسول فى أوانى ثم يقطعونه أجزاء صغيرة، ويوجد تراب خاص بتلك القرية يقوم الأهالى بعجن هذا التراب ويقومون بوضع الغاسول فيه ويجعلونه كالخميرة، ثم يصنعونه على أشكال دائرية ويتركونه فى الشمس حتى يجف ثم بعد ذلك يأتى التجار ويشترون منه آلاف من

أحمال الإبل ويؤخذ منه إلى إسنا وأسوان وبلاد العرب بالسفن حيث يستعمله معظم الأهالى فى الاغتسال فإذا ما وضع هذا الغاسول فى إناء وأضيف إليه الماء يصبح كالصابون لذا يطلقون عليه غاسول من لفظ الاغتسال.

وللغاسول خاصية أخرى كبرى بخلاف الاغتسال وهى تنظيف الثياب.

والميزة الثانية للغاسول هى: أنه يمكن حرقه وأخذ الرماد الذى يخرج منه ويتم بيعه أيضاً حيث يقوم الأهالى بأخذ العشب إلى مكان مثل الجبل وينثرونه عليه ثم يحرقونه بالنار ويأخذون الرماد الذى ينتج منه ويجمعونه على بعضه البعض مثل الكرة ثم يقومون بنثره أكوام أكوام إما فى المخازن أو على الأرض ثم يأتى التجار ويشترى منه بالقطار حيث يباع منه مئات الآلاف من القناطير ويذهبون به إلى كل ديار مصر حيث يقوم التجار بطحنه فى المطاحن ثم يشعلون النار عليه مع وضع مادة النطرون عليه ويصنعون منه الزجاج والقناديل والزجاجات، وزجاج نبات الغاسول من أجود أنواع الزجاج من حيث الشفافية والجودة.

والميزة الثالثة للغاسول هى: استخدامه فى استخراج الذهب حيث يقوم التجار القادمون من بلاد الفرجة بالذهاب إلى الرويصب ويشترى رماد نبات الغاسول ويذهبون به إلى بلادهم وعندما كان الحقيق فى ألمانيا سأل مارجلين أمين دَارِ سَكُ الذهب بمدينة انكروس عن هذا الغبار فأجاب مارجلين: إنه غبار نبات يسمى الغاسول ينبت فى أراضى البحيرة من ديار مصر نحضره إلى هنا ونستخرج منه المياه الصافية ونستخرج منها الذهب، بعد ذلك نصفيه ونحصل منه على مياه الذهب الخالصة، حقاً إنه غبار ثقیل مثل الذهب.

والميزة الرابعة للغاسول: إنك لو أطعمت تلك النباتات للأغنام فإن أسنانها تصبح مثل الذهب.

والميزة الخامسة: أن تجار الفرجة يأتون إلى الإسكندرية عندما يكون هذا النبات أخضر ويشترى ويوصلونه إلى بلاد الفرجة حيث يبيعونه إلى الساعاتى وصانع الأشياء الثمينة حيث يقومون بغلى الأشياء التى يستخدمونها فى صناعاتهم فى الكوكورد (الكبريت) ونبات الغاسول يطلون به الذهب وتزين به الساعات والتحف التى تصنع من الذهب والفضة.

الميزة السادسة وهي: خاصية تخص قرية الرويصب الموجود بها الشيخ الشاذلى باليمن وقد سمع الشيخ سيد عيسى أن الله قد منح الشيخ الشاذلى باليمن نبات القهوة فدعا الشيخ سيد الله بأن يمنحه هو الآخر نباتاً يدفع عنه الجوع ويقويه على العبادة وقد استجاب الله لدعائه حيث أنبت فى تلك الصحراء نبات الغاسول وملا النبات كُلُّ الاراضى الصحراوية هناك وكانت رائحته تفوح فتعطر الرأس، وقد عاش الشيخ عيسى بعد ذلك مائة سنة كان يعيش فيها على نبات الغاسول، وكان قد عاش قبل ذلك مائة وخمس سنوات وبذلك يكون الشيخ قد عمّر مائتين وخمس سنوات، وقد فتح الشيخ عيسى طرابلس الشام مع السلطان برقوق ثم عاد إلى الرويصب مسقط رأسه وتوفى بها وقد أنشأ السلطان برقوق على قبره ضريحاً وتكية ويوجد الآن فى تكيته ما يزيد على مائتى مريد، كلهم يتعيشون على نبات الغاسول حيث يقومون بتخفيفه وطحنه ثم يصنعون منه الخبز وقد تناول الحقيق منه قطعة خبز تبركاً، إنه خبز لذيذ الطعم يمنع الجوع.

والميزة السابعة: وهى خاصة ببذور الغاسول إذا ما أكلت فإنها تمنع الرشح والدم كما أنها مفيدة لمرض الذخير، ولكن خبزه أسمر وله طعم القصرة، ولم يتناول الشيخ عيسى طوال مائة سنة غير هذا النبات وله العديد من الكرامات إنه سلطان عظيم، كما يأكل أغلب أهالى هذه القرية هذا النبات حين الضرورة.

وحاصل الكلام أنه يتحصل لمصر جمرك كبير من هذا النبات، ولا يوجد هذا النبات فى أى مكان على وجه الارض سوى فى البحيرة، وقد سرنا فى تلك المنطقة وشاهدنا فيها كل عجيب وغريب، وسرنا مع الترعة فوصلنا إلى لوقون وبركة وهما قرى عامرة بهما مائة منزل وجامع، ومنها إلى كربون ومنها إلى معلق ومنها إلى عكريش البستلقون البيضاء وقد كانت هذه البلدة مدينة عظيمة فى عهد القباضة وآثارهم باقية بها حالياً لا يمكن التعبير عنها باللسان، خرجنا منها وسرنا مع الترعة فوصلنا إلى الجنان وقد سميت ببلد الجنان لكثرة وجود الحدائق والبساتين بها قديماً، وحالياً هى عبارة عن قرى عامرة بها ثلاثمائة منزل وحدائق النخيل تزينها، وكل القرى التى ذكرت تقع فى اراضى البحيرة على ضفتى ترعة الناصرية لمسافة عشر ساعات.

أوصاف البلد القديم دار الكهنة والحصن الحصين

ومد الإسكندر المتين الخاتم المجوهر

قلعة الإسكندرية

مدينة عظيمة وقيمة وقد حرر آلاف المؤرخون أوصاف قلعة الإسكندرية التي تشبه سد ياجوج، ولكن تواريخ القباطة هي أوثق ما كتب فيها، فقد منح الله العلم لإدريس بعد هبوط آدم إلى الأرض، والقطب من ذلك الوقت وحتى يومنا هذا يحرقون الوقائع والأحداث، وبالرغم من أنهم كفار إلا أنهم لم يصدر عنهم أكاذيب أو إرهابات في كل الأزمنة لذا فإن كتب تاريخهم هي أوثق التواريخ التي يعتمد عليها، وقد أتى الخليفة المأمون العباسي إلى مصر لشغفه بالتاريخ، ونقب في جبال الأهرام وأخرج منها آلاف القطع من كتاب إدريس وكتاب دانيال وترجمها إلى العربية، كما قام بترجمة مئات التواريخ القبطية إلى اللغة العربية، وتذكر معظم تلك التواريخ أن مدينة الإسكندرية هذه أول الأمر بنيت بعد الطوفان حيث كان سيدنا نوح يميل إلى يبظر بن حام من أبنائه فدعا له بالكثرة والملك فقبل الله دعاء نوح وأنعم على يبظر بالذرية الكثيرة وملكه ملك مصر، وقام ببناء مدينة الإسكندرية، واتخذ مدينة منوف عاصمة له، وكانت الإسكندرية في تلك الأوقات تسمى رقودة، والألمان حتى الآن يقولون على الإسكندرية رقودة أما في اللغة اليونانية فيطلقون عليها الكساندره ويقولون على يبظر أبو القباطة لأن معظم القبط من نسله، فقد كان له ثلاثون ولداً أكبرهم مصرام، كان مصرام هذا ملكاً على مصر من العريش وحتى أسوان والسودان، ثم توفي يبظر وهو أول من توفي في مصر بعد الطوفان ودفنوه في الهرم بجوار الملك هرمس وهو أيشا أول من دفن في مصر بعد الطوفان وقد استقل مصرام بملك مصر بعد وفاة والده وزاد من عمران مدينة الإسكندرية التي كانت من منشآت والده لجه لطقسها ومائها وعندما أصبحت زلتاسنيث مأموم ملكة على مصر، قدم العمالقة إلى مصر واستولوا عليها والعمالقة من أولاد حام بن نوح ولكنهم نسل بليد، قاموا بتخريب مملكة القبط وعلى النقيض قاموا بتوسعة وإعمار مدينة الإسكندرية، وهم الذين أنشأوا الأحجار الكبيرة في الإسكندرية

نظراً لأنهم كانوا ضخام الجثة، وقد خلفهم فى بناء الإسكندرية يعمر بن شداد وقد أنشأ يعمر المباني بالأحجار القوية الكبيرة لذا يقولون بناء شدادى على المباني القوية، ثم بعد أن أتى جارود المؤتسكى وهو بعد عهد سليمان عليه السلام أنشأ أعمدة كثيرة فى كل طرقات الإسكندرية ولا تزال آثار تلك الأعمدة والمغارات ظاهرة للعيان، وقد حكمت مصر بعد ذلك الملكة دلوكة بنت زيبك وكانت قبل فرعون موسى بعشرين عاماً، وقد اتخذت تلك الملكة منوف عاصمة لها، وقد عمرت مدينة الإسكندرية أيضاً لأنها كانت تنتقل إليها لتغير الجو، وآثارها من على بعد مائة ميل فى البحر.

وطبقاً لما ذكره المؤرخ العالم محمد بن إسحاق فإن الإسكندر الأكبر قام بتعمير مدينة الإسكندرية ووسع فيها وعمرها وزينها بالعلامات والطلاسم قبل ميلاد النبي ﷺ بشمائئة واثنتين وثمانين سنة، وقد أصبحت الإسكندرية فى عهده مدينة عظيمة لم يُرَ مثلها على وجه الأرض، ويتفق هذا رأى مع رأى كل الأمم وأن الإسكندر الأكبر المذكور هو الإسكندر ذو القرنين ونسبه هو الإسكندر بن بنطى بن نعمان بن تارخ بن يافث بن نوح عليه السلام وعلى قول آخر هو الإسكندر بن داراب بن بهمن بن اسفنديار، ويقال والله أعلم أن الخضر عليه السلام كان من جند الإسكندر حتى إنه ذهب معه ليأجوج ومأجوج ثم ذهب معه إلى الإسكندرية والمكان الذى التقى فيه الخضر مع سيدنا موسى هو مكان التقاء النيل المبارك بالبحر المتوسط بالقرب من الإسكندرية والآية الشريفة: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ بَتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] خير دليل على المكان الذى افترق فيه الخضر عن موسى، ويطلقون على المكان الذى افترق فيه موسى عن الخضر محطة مرج البحرين وهى مضيق بندر رشيد وهو مكان اختلاط النيل بالبحر، والمسافة بين هذا المكان والإسكندرية برّاً اثنا عشر ساعة وبحراً () (١) ميل، أما الإسكندرية فكان ملك على اليونانيين وقد عمر ألف سنة وعلى قول ستمائة سنة وإنه حكم من القاف إلى القاف وأقام سد يأجوج ومأجوج،

(١) بياض فى الأصل.

وقيل إنه نبى وهو ابن الملك مرزبا من أبناء يافت اسمه مرزبا ولقبه الإسكندر، وعلى قول آخر أنه بنى الإسكندرية بعد أن قام بخت النصر بتخريب مدينة منوف بمائة وعشرين سنة وكان اسمه الإسكندر بن فيش المخزومى، وقد سميت الإسكندرية على اسمه ونظراً لوجود أربعة أشخاص باسم الإسكندر فتوجد اختلافات كثيرة بسبب ذلك، كما أن الأربعة عمروا الإسكندرية ومرقوم على أبراج الإسكندرية تاريخ تعمير كل واحد منهم ويقال أن الإسكندر توفى عام ٨٨١ قبل ميلاد النبى ﷺ وهو عائد من بناء سد يأجوج ومأجوج وكانت وفاته فى ديار العجم، ونقل نعشه إلى الإسكندرية وهو الآن مدفون بدير مرقاب، والتواريخ اليونانية أيضاً من التواريخ المعتمدة، وذلك لأنهم دائماً ما يهتمون بأمور الدنيا، وعلى قول اليونانيين أن الإسكندر هو بن الحكيم فيقلوس وقد ولد فى مدينة قوله بالقرب من سلانيك قبل هجرة النبى بثلاثمائة وخمس سنوات، وأنه أصبح ملكاً على الروم واستطاع أن يسخر لسلطانه الروم والعجم والعرب والهند والسند وقد استطاع أن يستولى أيضاً على إيران بعد هزيمة شاه العجم دارا على يديه فى منطقة قره دره بالقرب من قلعة نصيبين المجاورة لبغداد، وأمر الإسكندر بإسكان الشاه دارا وأهله وعياله فى سهول داراهيه بسنجد منتشه، وقد توجه الإسكندر بعد ذلك بألفى سفينة إلى الإسكندرية واستطاع الإستيلاء عليها من يد الملك سوريد من ملوك القباضة وسار إلى مصر واستولى عليها أيضاً، وخضع القبط لطائفة العربان الأشرار لسلطانه وكان العربان يميلون له عن القبط، وقد أوقف الإسكندر مصر لدير ياصومنيه الموجود بالقسطنطينية، فقد كان يتم جمع ستة عشر مليون قطعة ذهبية سنوياً من مصر وذهب إلى الرهبان فى أيا صوفيا فى عهد عمر بن الخطاب كانت القدس وطرابلس وصيدا وبيروت وعكا والرملة وغزة وتيه ودمياط ورشيد والإسكندرية وكل مصر تحت قبضة كفار الروم الإفرنج، بعد ذلك قام الملك الضال نقلديانوس أوتقيانوس بالقضاء على كل المسيحيين الموجودين فى مصر والشام وحلب وإنطاكية وخرب آلاف الكنائس وهذا الملك الضال الجبار هو آخر شخص من عباد الأصنام من قياصر الروم.

بعد ذلك أتى إلى الإسكندرية بالمال الذي غنمه من النصارى وقتله وزيره ويدعى جيلة وبذلك أصبحت الإسكندرية في يديه ثم استولى على مصر وسار منها إلى بلاد العجم حيث تحارب مع شاه العجم شابور حرباً عظيمة انهزم فيها شابور وانتقلت كل خزائنه وأمواله إلى تيقانوس الذي نقلها إلى الإسكندرية وعمرها، استمر حكم تيقانوس عشرين عاماً، وقد رأى جزاء ما اقترفه من مظالم، فقد تناثر لحمه وأسنانه بدون سبب، ولما هلك تولى بعده ابنه دانيال، وعندما هلك هو الآخر تولى الملك قسطنطين الأكبر وشاء المولى القدير أن يعلو شأن دين الله فقد فتح النبي مكة سنة ٨ هجرية وقد سير خالد بن الوليد في عشرين ألف جندي من الصحابة الكرام إلى الشام إبان حكم القيصر حزقيل وبأمر الله استطاع أن يُسخر الشام له، وقد ذهبت البشرية إلى رسول الله فقام بإرسال عشرة آلاف جندي إليهم وماروا إلى القدس وكانت حيثشذ في يد الكفار والروم، وعندما وصلت الجنود إلى الشام كان عمرو بن العاص في القدس يشتغل بالتجارة، وبينما كان عمرو يستريح تحت ظل شجرة ظهر ثعبان فجأة وكان ثعباناً ضخماً وكان هناك رجل ينام بجانب عمرو هجم الثعبان عليه فقام عمرو فقتل الثعبان بفرع شجرة، فقال له الرجل لماذا قتلت الثعبان؟ فقال عمرو: لقد كاد أن يقتلك وأنت نائم وعندما رأيته قتلته وأيقظتك من النوم، فهَمَّ الرجل بثقييل يد وقدم عمرو بن العاص، وسأله الرجل: من أي البلاد أنت؟ فقال له: أنا مكّي أتيت للقدس للتجارة، وجميع أوقاتي مع ناقتي الصغيرة، فقال له الرجل: أنا أسكن في الإسكندرية في ديار مصر وقد أتيت للقدس للزيارة مع الخواجة شماس والحمد لله أنك أنقذتني من شر هذا الثعبان سوف أمنحك أموالاً وفيرة لذلك، لتذهب معي إلى الإسكندرية وسوف أمنحك ألفين عملة ذهبية وخيام كبيرة وصغيرة وسوف تعود إلى بلادك من مصر.

وقد ذهب عمرو إلى الإسكندرية بعد عشرة أيام ونزل ضيفاً عند الخواجة شماس ولم يخلف الخواجة وعده مع عمرو فقد منحه عدة لبدات فاخرة، وشاهد عمرو المدينة مع الخواجة شماس وبينما كان يسير في شوارع المدينة معه كان بعض الأهالي يلعبون لعبة

الكرة وقد جرت حكمة الخالق أن تسقط الكرة على رأس عمرو وتستقر عليه، وقد تعجب كل الحاضرين من ذلك جدًا، فقد كان أهالي الإسكندرية يؤمنون بتقليد قديم عندهم وهو أنه أثناء لعب تلك اللعبة من تستقر على رأسه تلك الكرة يصبح ملكًا على الإسكندرية، فابتسم الأهالي وقالوا: هل يكون هذا العربي المكي ملكًا على الإسكندرية، وعلى الفور قام شماس بأخذ عمرو إلى منزله وبدأ يبحث عن طالع عمرو يعلم الإسطرلاب فوجد أن عمرو سيكون ملكًا على مصر، وفي النهاية أكرمه بأن أعطى له الأموال الكثيرة ومنحه عشرة من الإبل محملة بالمتاع وودعه إلى الحجاز، وصل عمرو إلى مكة بعد أن قطع المنازل وطوى المراحل والتقى بأهله هناك وأعطى رسول الله الهدايا التي معه وأعلن إسلامه وقد ذهب عمرو إلى رسول الله وقد بشره الرسول بأنه سيكون أحد العمرين الذين سيفتحوا مصر والإسكندرية، وأخذ عمرو يذكر للرسول والصحابة مدح مدينة الإسكندرية وجمال مائها وهوائها، وقد ذكر الرسول في عدة أحاديث له ترغيبًا للصحابة في فتح مصر والقدس والإسكندرية، وقد قام الرسول ﷺ بإرسال الرسائل إلى المقوقس ملك مصر مع الصحابي أبو حاطب بن أبي بلتعة وذلك بعد غزوة الحديبية عام ٦ هـ، ودعا الرسول ﷺ المقوقس إلى دين الإسلام، ويقال إن المقوقس امتثل للدعوة وأعلن إسلامه، وقد أرسل المقوقس رسالة إلى النبي ﷺ مع ذى النون المصري وأرسل مع الرسالة السبغة دلدل، والسيف ذو الفقار، والجارية مارية، وثلاث جوارٍ من السبط، وعندما ذهب ذو النون إلى مكة وشاهد الرسول ﷺ أعلن إسلامه وأصبح طيب النبي ﷺ.

فى بيان فتح قلعة الإسكندرية

بناء على قول المؤرخين أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قام بفتح القدس الشريف من يد الروم الكفار فى سنة ١٨ هجرية، ثم قام بعد ذلك بإرسال أربعة آلاف وخمسمائة فارس وأربعة آلاف جندي مشاة بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر، فقطع ذلك الجيش المنازل وطوى المراحل حتى وصلوا إلى المنطقة الواقعة بين رفح والعريش

فوصلهم هناك رسالة من عمر بن الخطاب يقول لهم فيها: «إذا كنتم قد دخلتم أرض مصر فسيروا على بركة الله وإن لم تكونوا قد وصلتكم بعد فعودوا حتى تلاقوا الخوارج في عمان» وعلى الفور قام عمرو بن العاص بسؤال الأهالي هل هذه المدينة - يقصد العريش - من أرض مصر، فقالوا نعم، فأرسل عمرو رسالة إلى ابن الخطاب يقول له فيها أنهم وصلوا أرض مصر وأنهم يعتزمون فتحها، وقام عمرو بن العاص بفتح عدة قلاع ثم حاصر قلعة الإسكندرية واستمر الحصار تسعة أشهر كانت حرباً عظيمة، وعندما توفي الملك حزقيل في عام ١٩هـ وجد الكفار أنفسهم محاصرون في القلعة من ناحية البحر فأرسلوا الرسائل إلى الروم يستنجدون بهم في تلك اللحظة كان جنود الإسلام يدخلون القلعة من الأماكن التي تهدمت من أسوارها بفعل المنجنيق، وتم فتح تلك القلعة الحصينة يوم الجمعة من شهر المحرم عام ٢٠هـ وكانت الغنائم تنقل بالإبل فقد كان نصيب كل جندي أربعين ألف عملة ذهبية أما الأسرى وسائر الغنائم الأخرى فلم يكن يعلم حسابها إلا الله، وقد أرسل عمرو بن العاص الرسائل إلى عمر بن الخطاب بالمدينة يشره بهذا الفتح العظيم، فقام عمر بن الخطاب بإرسال عشرين ألف جندي إلى عمرو مدداً له وقام عمرو بحصار مصر القديمة وقد ذكر ذلك بالتفصيل قبل ذلك.

في بيان سبب دمار منارة الإسكندرية

دخلت الإسكندرية تحت حكم ملوك كثيرين، ثم دخلت الحكم الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب وأكلت من بعد الخلفاء الراشدين إلى الأمويين وكانت الإسكندرية في عهدهم في غاية العمران فقد أصبحت كل الأمم المسيحية في ذلك الوقت ضعيفة لضعف ملوكهم وتكالبهم على الدنيا وحرصهم عليها، لذا فتح الأمويون بلداناً كثيرة، حتى أنهم أرسلوا الجيوش للقسطنطينية وأسبانيا وتسنى لهم فتح غالاطة في استانبول ورومانيا وأسبانيا، إلا أن آخر ملوك الكفار سلك طريق الحيلة ضد عبد الملك بن مروان فقد أرسل هذا الملك رسالة إلى الشام إلى عبد الملك مع سفير من سفرائه، وبينما كان

عبد الملك يقرأ الرسالة أعلن هذا السفير إسلامه ورفع يده بالشهادة. وأصبح من المقبولين المحبين لدى عبد الملك وكان لا يترك عبد الملك أبداً، وذات يوم قال هذا السفير لعبد الملك بن مروان إن مدينة الإسكندرية مدينة عظيمة وبها كنوز كثيرة لا يمكن وصفها فقد حكمها مئات السلاطين وأقام فيها آلاف الكهنة الذين كانوا يعلمون شتى علوم الكهانة ودفنوا الكنوز بالطلاسم، فلو أنك اعتمدت علىّ بما أعلمه فسوف أستخرج تلك الكنوز وقد ذكر له أنه بتلك الكنوز الكثيرة يمكنه فتح البلدان ويصبح أعظم سلاطين الدنيا.

كان عبد الملك بن مروان طماعاً للغاية، كان لا يعلم أنه بهذا يُسلم مدينة الإسكندرية ليد الكفار لأنه لم يكن يعرف شيئاً في فن الحيلة، فقد اعتمد على إسلام هذا السفير الأسباني وأعطاه ألف رجل ليذهب إلى الإسكندرية، وعندما ذهب إلى هناك قام بهدم منارة الإسكندرية وأخذ امرأة الإسكندرية التي كانت طلسمًا عظيمًا من آثار الإسكندر موضوعة بالماء إذا ما دخلت أي سفينة من سفن الأعداء إلى ميناء الإسكندرية فإنها تحترق من تلك المرأة، وأساس هذه المرأة لا يزال موجوداً وظاهراً عند مضيق القليون الذي يطلقون عليه شاطئ القرد الصغير.

ولوقوع هذا الميناء في مكان معاكس فإن أي سفينة تفضل الطريق وتصل إليه تتدمر تماماً، ولو لزم الذهاب خلف القلعة يجب الاحتراس جداً، بعد ذلك قام هذا اللعين باستخراج أربعين مليون عملة من المنار والخلاصة أنه خلال أربعين يوماً استخرج مئات الكنوز المدفونة، وملأ سفينته بتلك الخزائن وركب هو وجنوده وتركوا الإسكندرية خراباً وفروا هاربين إلى ديار أسبانيا.

وقد وصل هذا الخبر إلى عبد الملك بن مروان في الشام، فحزن حزناً شديداً وأخذ يلوم نفسه على ذلك، وأصدر الفرمانات بترميم وتعمير الأماكن التي هُدمت في مدينة الإسكندرية وأنفق على ذلك الأموال الكثيرة، وبالرغم مما فعله الأعداء جعل عبد الملك بن مروان مدينة الإسكندرية أحسن مما كانت.

ولكن مع الأسف لم يكن موجود بها آثار الإسكندر أو طلاسـم دلوكة أو علامات سوريد أو كنوز مصرإيم ولم يعد هناك أثر لمرآة الإسكندر، واستمر الحال على ذلك ثلاث سنوات، وفى السنة الرابعة تمكن هذا السفير اللعين من جمع كل الكفار وخرج من أسبانيا بثلاثمائة ألف جندى وسفن لا تحصى قاصداً مدينة الإسكندرية ونزلوا بها واستولوا على قلعة الإسكندرية وأقاموا بها سنة ونهبوا بقية الكنوز التى كانوا قد استولوا عليها قبل ذلك، وملكوا بذلك أموالاً لا تحصى، وعندما تمكن من ذلك أمر بتحميل كل الكنوز والأموال على السفن بعد أن هدم كل الآثار العجيبة والطلاسم الغريبة الموجودة فى الإسكندرية وفر هارباً بالسفن إلى أسبانيا وقام بنهب كل الأماكن التى كانت فى طريقه إلى أسبانيا.

وقد عمرت أسبانيا بهذا المال، ويطلقون على المدينة الكبيرة هناك المدينة الكبرى ويطلقون اسم قرطبه وطنجه على مدينتين تقعان فى المغرب، وقد عُمرت تلك المدن على أطلال مدينة الإسكندرية أى أن عمرانها كان على حساب خراب مدينة الإسكندرية، أما الآن فتوجد بالإسكندرية آلاف العلامات والآثار الظاهرة التى تدعو للعبرة، وعندما دخل عبد الملك بن مروان مدينة الإسكندرية هذه المرة أعلن أنها ستكون مدينة العرش لمدة سبع سنوات، وأعلن أنه اعتزم الانتقام من الأعداء، وفى غضون سنة جمع جنده وكانوا فى كثرة مثل البحر وسار بهم فى ألفى سفينة شراعية إلى أسبانيا وقام بفتح المدينة الكبرى بها وفتح مدينتى قرطبة وطنجة بالمغرب ومثات المدن الأخرى وغنم من الأموال الذهبية ثلاثة آلاف صندوق وبنى منها جامع بنى أمية فى مدينة الإسكندرية والشام الشريف وهو يشبه الجنة.

والطائفة المسلمة الموجودة بأسبانيا حالياً هم أبناء جنود عبد الملك، كما فتح عبد الملك مدينة القسطنطينية بهؤلاء الجند وتصلح مع أهلها على أن يدفعوا خراجاً سنوياً يقدر بخمسمائة ألف قطعة ذهبية كل عام، ودخل جند الإسلام مدينة الإسكندرية سالمين غانمين بعد أن انتقموا من الكفار الظالمين، واستقر عبد الملك وسائر جند الإسلام سبع

سنوات كاملة بمدينة الإسكندرية، وبعد أن آلت الإسكندرية إلى عدد من الملوك استولى عليها الكفار في خلافة الظاهر بيبرس، لكنه استخلصها منهم، وكم من مرة وهبها الله لعدد من الملوك ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فهذا يأخذها وذاك تؤخذ منه، وذلك ينهزم، والعقل قاصر وحائر أمام ما يجرى، الله سبحانه وتعالى الفاعل المختار، ولا يسأل عما يفعل، هذا ما جرت عليه إرادته الأزلية تعالى شأنه وعم نواله ولا إله غيره:

كم من معوج استوى	كم من عمل التوى
والبناء برهان ذلك	إنه المعجب العجاب

في عام ٥٦٢ هجرى حينما كان المتقى خليفة للعباسيين تغلب عضد الدولة الفاطمي على قلعة الإسكندرية، أما الخليفة المتقى فسير إليه جنداً تحت إمرة أسد الدين شيركوه، وأمر ابن عم شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب على جيوش قصدت الإسكندرية، فاحتشد جيش مصر والشام في موضع واحد واستردوا الإسكندرية من يدى عضد الدولة صلحاً فزفوا بذلك البشرى إلى نور الدين فى دمشق، وأصبح صلاح الدين الأيوبي حاكم الإسكندرية، وفي العام نفسه اتحد عضد الدولة مع الفرنجة وضرب الحصار على صلاح الدين فى الإسكندرية، وشاور وزيره فى الصلح مع صلاح الدين على أن يدفع لصلاح الدين خمسين ألف دينار ذهباً، فأعطى صلاح الدين الإسكندرية لعضد الدولة، كما أعطى عضد الدولة الفرنجة الذين قدموا إليه المدد نصف الإسكندرية، وفي هذا العام تم استيلاء الفرنجة على مصر، وإلى عام ٥٦٣ هـ ظلت مصر فى حوزة الفرنجة.

وَاتَّصَلَ السُّلْطَانُ الْغُورِيُّ بِالشَّاهِ إِسْمَاعِيلِ الصَّفْوِيِّ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الْغُورِيُّ مَدَدًا قَوَامَهُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ جُنْدٍ مِنَ الْمُشَاةِ، وَفِي وَادِي (جَلْدَر) ^(١) لَاقَى السُّلْطَانُ سَلِيمَ بِهَذَا الْعَسْكَرِ فَكَانَتْ الْقُلُوبَةُ فِي الْوَهْلَةِ الْأُولَى لِعَسْكَرِ الْعِجَمِ. وَبَيْنَمَا كَانَتْ الدَّائِرَةُ تَدُورُ عَلَى الْعُثْمَانِيِّينَ، أَطْلَقَ إِيَّاسُ بَاشَا وَهُوَ قَائِدُ الْإِنْكَشَارِيَةِ ثَلَاثُمِائَةَ مَدْفِعٍ دَفْعَةً وَاحِدَةً وَأَعْمَلَ الْعُثْمَانِيُّونَ السَّيْفَ فِي الْعِجَمِ.

وَبَعْدَ أَنْ حُمِيَ وَطِيسُ الْمَعْرَكَةِ سَبْعَ سَاعَاتٍ تَعَلَّقَ الشَّاهُ إِسْمَاعِيلُ بِأَذْيَالِ الْفَرَارِ وَفِي مَعِيَتِهِ سَبْعَ رِجَالٍ وَنَهَبَ الْعُثْمَانِيُّونَ مَا فِي الْخَزِينَةِ مِنَ الْمَالِ، وَوَقَعَتْ تَاجِلِي خَاتُونُ زَوْجَةُ الشَّاهِ إِسْمَاعِيلَ فِي الْأَسْرِ، وَقَدْ قَدَّمُوها أَمَانَةً إِلَى جَعْفَرِ جَلْبِي، وَلَمَّا رَأَى السُّلْطَانُ سَلِيمَ الْجُنْدَ الْمَصْرِيِّينَ مُجْتَدِلِينَ فِي سَهْلِ جَلْدَرِ قَالَ: (بِسْمِ اللَّهِ النِّيَّةُ عَلَى مُحَارَبَةِ الْغُورِيِّ)، وَعَادَ مَنْصُورًا مَظْفَرًا مِنْ جَلْدَرِ. وَانْطَلَقَ إِلَى قَيْصَرِيَّةَ، بَعَثَ جُنْدًا تَحْتَ إِمْرَةِ فَرْهَادِ بَاشَا إِلَى عِلَاءِ الدَّوْلَةِ حَاكِمِ مَرْعَشَ وَهُوَ مِنْ أَوْلَادِ ذُو الْقَدْرِ، فَوَاجَهَهُ فَحْشَدُ عِلَاءِ الدَّوْلَةِ مِائَةَ رَجُلٍ مِنَ التُّرْكَمَانِ وَاحْتَدَمَتِ الْمَعْرَكَةُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ سَبْعَ سَاعَاتٍ وَلَحِقَتْ الْهَزِيمَةُ بِعِلَاءِ الدَّوْلَةِ، وَقَدِمَ الْغَنَائِمُ إِلَى السُّلْطَانِ سَلِيمَ وَقَدْ تَدَحَّرَجَتْ أَمَامَ بَابِ الْقَصْرِ كَمَا تَدَحَّرَجُ الْكَرَاتُ إِذَا ضُرِبَتْ بِالصُّوُلْجَانِ فَأَرْسَلُوا رُءُوسَ أَبْنَاءِ عِلَاءِ الدَّوْلَةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى السُّلْطَانِ الْغُورِيِّ فِي مِصْرَ مَعَ رِسَالَةٍ جَاءَ فِيهَا: (نَحْنُ جُنْدُ الْإِسْلَامِ نَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ رَأَيْنَا وَجُوبَ الْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ عَلَى عِلَاءِ الدَّوْلَةِ حَاكِمِ مَرْعَشِ الَّذِي كَانَ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ وَيَسْلُبُ وَيَنْهَبُ، وَلَقَدْ عَمَلْنَا بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿فَقُطِّعْ دَايِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. وَلَقَدْ تَخَلَّصَ الْعِبَادُ مِنْ شُرْهِمَ، وَأَنْ مَعُونَتَكَ لِلْقَزْلِ بَاشَا ^(٢) لَا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ، وَعَلَى ذَلِكَ قَامَتِ الْحُجَّةُ فِي الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَلَدِينَا الْفَتَوَى وَسَوْفَ نَدْخُلُ مِصْرَ مُحَارِبِينَ فِي الرَّبِيعِ).

(١) وَهُوَ مَا يَعْرِفُ بِاسْمِ جَالْدِيرَانَ.

(٢) الْقَزْلُ بَاشَا: مَعْنَاهَا أَحْمَرُ الرَّاسِ. وَهُوَ اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى السُّنُونِ عَمُومًا عَلَى الشَّيْعَةِ مِنَ الْعُثْمَانِيِّينَ فِي الْأَنْصَاوِلِ هُمْ وَطَافِقَةُ مِنَ التُّرْكَمَانِ وَالْبُدُورِ، وَكَانُوا يَلْبَسُونَ حُمَرَ الْقَلَانِسِ وَكَانَتْ عِشَائِرُهُمْ عَلَى الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ. (يَتَصَرَّفُ وَاخْتِصَارًا) مَعْجَمُ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ص ١١١.

وفى عام ٩٢١ من القسطنطينية البلد الطيب خرج الجيش العثماني إلى اسكودار بعد طى المنازل والمراحل، بلغ سهل مرج دابق على مقربة من حلب حيث حارب جالوت داود - عليه السلام - وانهزم جالوت، ونزل قوله - تعالى - : ﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ {البقرة: ٢٥١}، ولحق السلطان سليم بثمانين ألف مقاتل بجيش الغورى الذى انهزم أمامه وفرّ الغورى إلى حلب ثم إلى دمشق وبعدها إلى مصر، ودخل سليم ظافراً إلى دمشق، وقضى الشتاء فيها، وفى الربيع انطلق إلى مصر وعبر بجيشه وادى أمّ الحسن وغلب على مدينة بلبس، وفى كمين أعدّه الغورى وفى جبال عباس انقضّ الغورى على جيش سليم بغتة فى السحر، ودارت المعركة إلى وقت غروب الشمس، وأسفرت المعركة فى النهاية عن قتل رموس عسكر الغورى، ووجدت جثة الغورى بلا رأس على سجادة وقالوا إن الغورى زایل دار الغرور إلى دار بوار.

* خلاصة القول أن سليم قد بلغنا به غايته على وجه الإيجاز فيما يختص بفتح السلطان سليم لمصر ولقد تم له الفتح لمصر بعد أن خاض ستين معركة، وعين خيره بك والياً لمصر وهو الذى استورزه الغورى من قبل، كما عين كمال زاده باشا قاضياً للعسكر، وأجرى فى النيل ألف سفينة وبهذه السفن بلغ مدينة رشيد وبعد ذلك ضرب الحصار على قلعة الإسكندرية براً وبحراً، أما ما كان فى القلعة من جند الشراكسة فطلبوا الأمان وآثروا النجاة وقدموا مفاتيح القلعة إلى السلطان سليم، وتم له هذا الفتح عام ٩٢٣هـ وجعل سليم مصر ولاية ذات إقليمين ومنح إقليماً لقبطان بحريته حسام باشا، وأمره بأن يحافظ على الموانئ المصرية بأربعة سفن حربية وأمر أن تقدم كل قرية كيسين فى كل شهر فى الديوان، وقد حكم القبطان حسام باشا مصر، وفى ميناء الإسكندرية سفيتان حربيتان له، وكان على كل سفينة ترسو فى ميناء الإسكندرية وأبو قير، والإسكندرية القديمة أن تدفع ديناراً ذهبياً وكان يتحصل من البلاد ثلاثون كيساً، ولم يكن فى الأقاليم تيمار^(١) ولا زعامات^(٢) ومن قبل وزير مصر رفيع المنزلة،

(١) أرض زراعية كان سلاطين العثمانيين يمنحونها لمن يتعهدون بتقديم عدد من الفرسان للدولة عند قيام الحرب، وذلك حسب ما تغل هذه الأرض.

(٢) الزعامت: أرض زراعية كانت تقطعها الدولة للمحاربين، هى أكبر من التيمار.

وكان يتولى أمانة الجمارك في الميناء، وكانت كل سفينة تدفع العشر الشرعى وكانت نتيجة المحاسبة مائة وخمسين كيساً، وكان كيسان يوزعان على الأئمة والخطباء، ولكن بعض الوزراء كانوا لا يدفعون هذا الجمر، وكان للجمرك حمالون من اليهود والروم والمسلمين وعددهم سبعون، وكان هؤلاء ينالون مرتباتهم من دخل الجمارك.

وفي قلاع الإسكندرية الخمس ألف جندي، وكانوا ينالون من الجمر علفة^(١) قدرها أربعون كيساً وباقيتها للوالى وكانت سفن للفرجة تأتى إلى الإسكندرية والمتحصل منها مائة كيس، وكان نصيب العلماء في العام خمساً وعشرين كيساً، وكان على شاطئ البحر قلعة أبو حور وكان يتحصل لها من ميناء الإسكندرية ومن سفن الإسكندرية ثلاثمائة أو أربعمائة پاره^(٢)، وكانت هذه السفن ترسو في ميناء الإسكندرية، وكانت تثير النزاع والخلاف على الدوام وسكن القلعة سنان باشا.

أوصاف قلعة أبو قير

ويقول العرب إن أبو قير بنيت على صخرة في البحر ولذلك تسمى بهذا الاسم، وفي إحدى الروايات أن أحد الأولياء هو أبو قير حمد الله مدفون فيها وسميت القلعة باسمه، ولكن يتردد على ألسنة الناس أنها تسمى أبو حور ولا وجود لآثر للقلعة القديمة. إن لها ميناءً عظيماً، وكان الكفار يجعلون من هذا المرفأ كميناً لسفنهم وكانت سفن المسافرين الآتية من رودس تلجأ إلى هذا الميناء، وآخر الأمر تحدث والى مصر الطواشى للسلطان سليمان، فأمر السلطان بأن تنفق الاموال من الخزانة فجدد بها القلعة خادماً سليمان باشا، وسليمان باشا هو من جعل ثلاثة قبور في مصر على طراز جوامع امتانبول وكان وزيراً مدبراً صنع ثلاث مائة سفينة حربية في السويس وجعل فيها عشرين ألف جندي مع خيولهم، وغادر السويس إلى بلاد الهند، وحارب مدن أحمد اباد وديو اباد وميناء حيدر اباد، وانتزعها من يد البرتغاليين واستولى على كثير من

(١) راتب كانت تدفعه الدولة كل ثلاثة أشهر قمرية.

(٢) پاره: بمعنى قطعة أو جزء في اللغة الفارسية وهي أقل عملة عثمانية.

الغنائم، وبعد سبعة أشهر وهب هذه الموانئ إلى ملك الهند، وأخذ من ملك الهند أموالاً كثيرة، وعادت السفن الحربية الإسلامية من الهند.

ومضى سليمان باشا إلى مكة المكرمة فأدى مناسك الحج، ثم زار قبر النبي ﷺ في المدينة، وشاع أن سفينة غادرت من جدة إلى ينبع وبعد ذلك بنى قلعة أبو قير وهي قلعة صغيرة محيط جدرانها الأربعة ستمائة خطوة وهي مستديرة الشكل، ولها باب حديدى، أمامها خندق عليه جسر وهذا الجسر يرفع فى كل ليلة، وعلى باب القلعة كتب بالخط الجلىّ (أمر بإنشاء هذه القلعة المباركة فى أيام مولانا السلطان ابن السلطان سليمان خان ابن سليم خان ابن با يزيد خان ابن محمد خان ابن مراد خان).

وبعد إنشاء القلعة بعام، أقيم فيها جامع صغير، وله منارة غير مرتفعة كما أن فى القلعة مخزنًا للأسلحة ومخازن للغلال وصهاريج للماء، وفيها ثلاث مائة جندي وفى داخل القلعة خمسة دكاكين، ولا وجود بداخلها لخان ولا حمام، وقد دفن فى القلعة أحد خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلانى وقد دفن فى غار ينزل إليه بسلم حجرى من عشر درجات، واسمه أبو قير حمد الله، ولذلك يسمون هذه القلعة قلعة أبو قير، وفيها سبعون مدفعًا، وبذلك لا يستطيع الفرنجة دخول الميناء، ويوقد مصباح فى داخل القلعة كل ليلة، وبها فانوس عظيم ويبدو على بعد مائة ميل، وخارج القلعة مائة بيت وعشرون دكانًا ومقهيان وثلاثة طواحين تديرها الخيل، ولكن لا وجود لحمام، وخارجها ميناء عظيم يحوى ألف سفينة وهذا الميناء يأمن عصف الرياح، وعلى بعد ميل من هذا الميناء جزيرة فى البحر وقد وصلتها بأمر إبراهيم باشا، وعلى هذه الجزيرة قلعة لحراستها، وقد بلغتْها فى معية أهل رشيد وأهل الإسكندرية، وقد اكتشفنا صخرة كبيرة فى البحر، وبين قلعة أبو حور والنيل أرض واسعة ولا تستطيع سفن الفرنجة أن تقترب وهي ترى جند المسلمين عن بعد، فكانت ترفع الأعلام البيض مستسلمة، ولما أطلقت المدافع من القلعة على سفن الأعداء اشتعلت فيها النار وغرقت بمن فيها وأصبحت مظهرًا للآية الشريفة فى السفينة خرقتها: ﴿قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]. وأحرقت السفن وغرق كل من عليها، وانتقلوا إلى دار السعير.

واتفق أن أصيبت سفينة بمدفع فتخرقت السفينة وجعلت تميل يمنة ويسرة وأطلق بعض الألبان المدافع ففرح بذلك عمر أغا ورفع صوته قائلاً الله الله، وكان اليوم يوم عيد الأضحى، وقال الناس لى إنسى أنا كنت سبب هذا النصر، وفى اليوم جاء رئيس الجند وقدم خلعة لحارس القلعة كما منح الخلعة لجنود المدفعية ومنح حارس القلعة عطاء جزيلاً.

وجملة القول أن ميناء أبو حور ميناء عظيم، وقلعة أبو حور تعد من الأقاليم التابعة للإسكندرية ويحكمها صاحب القلعة وهو يحاسب محاسبة صحيحة، والإسكندرية ناحيته وهو نائب التسجيل.

ومن الصجب:

أن فى هذه القلعة امرأة لها هيئة المجنونة وهى تبقى شهور الشتاء الست فى البحر وتضع رأسها على الشاطئ وكل جسدها فى الماء وبعض المواضع فتسيل منها الدماء، وبينما كان أحدهم يبحث عن الأسرى فى الشاطئ وجدوا هذه المرأة فقدموا إليها قطعة من خبز لتدفع به جوعها، ولكنها تخرج من البحر فى أيام الصيف وتنام على الرمال الحارة وقد تفرق شعرها، ومن يشاهدها يذهب عقله، إنها بدينة مفرطة البدانة وقد دامت على هذه الحال ستين عاماً، ويقال إنها لا تكلم أحداً قط، بل تظل صمماً بكماً وقد دعت لى فلما وصلت إليها أخرجت لى من جبتها رغيفاً أبيض وفى داخل هذا الرغيف عشر تمرات وثلاثة دنانير ذهبية فبأى لها من امرأة عجيبة، وسمع حاكم القلعة بعشرة من الجند حاملى البنادق وشاهدت الصيادين وهم يصيدون السمك على الشاطئ.

وفى الناحية القبلية للبحر، حتى لا يغرق إقليم البحيرة، أقام إبراهيم باشا سداً بين الإسكندرية ورشيد، كما توجد مساكن للعرب، وقد جزتها ولكن شاهدنا ثمانية من الفرسان العرب وجرت دماءهم وقدم أهل الإقليم ونائبه وحملوهم إلى القلعة حيث دفنوا، أما من جرح بالرماح فحملوا أيضاً إلى قلعة أبو حور، ووصلت مع رفقتى إلى:

خان معدية لشتوم

وركبنا فى سفينة وعبرنا إلى الجانب الآخر، فوجدنا خاناً عظيماً، وكان ثمة ضابط من قبل حاكم البحيرة يراقب السفن القادمة ويفتش القادمين والعائدين، وكان يقيد للصوص منهم، وكان يتولى هذه المهمة خمسون أو ستون من الجند، وهناك نزلنا ضيوفاً فى خان من أوقاف محمد باشا فى رشيد وهو خان عظيم وليس بجوار هذا الخان صهريج من الماء العذب.

ويجى الأغا من أصحاب الجمال والخيول والبغال والحمير ثلاثة أكياس يقدمها إلى كاشف إقليم البحيرة ولا تفضى هذه الطريق إلى الإسكندرية والسفينة هناك ملك لكاشف البحيرة وهو على الدوام يرعها ويعمرها. وثمة نهير إلى إقليم البحيرة حيث ينتهى ببحيرة وهى ببحيرة تحيط بها أربعة قصور وماؤها مالح، ولذلك سمى إقليم البحيرة بالبحيرة مائة وستين عاماً تغرق البحيرة ثمانين قرية، وفيها ألف قارب تصيد السمك، وقد أقاموا سداً متيناً أمام الإسكندرية حتى لا تصل مياه هذه البحيرة إليها. ويروى الإسكندرية التربة الناصرية، ومن الإسكندرية تمضى إلى هذه التربة آلاف السفن، واقتضت حكمة الله أن يقبض كاشف البحيرة على المجرمين العرب الذين أغاروا على مساكننا، وفى الصباح وضعوا على الخاروق سبعة منهم، ومضينا أربع ساعات فى أرض رملية حتى وصلنا شاطئ البحر كما تجولنا ساعة فى أرض ذات نخيل.

أوصاف إدكو

يقال لها فى العربية (^(١))، وتقع فى ناحية ميناء رشيد، تغل مائة أفج (٢)، ومحصولها السنوى ثلاثة أكياس، إنها على ضفة البحيرة فى مكان مرتفع، تضم أربعة آلاف بيت، سبعة عشر محلة، وعشرين محراباً، وستة جوامع إضافة إلى المساجد، وبها ثلاث وكالات، وثلاثمائة دكان، ولكن لا سوق ولا حمام فيها، وشوارعها غاية

(١) بياض فى الأصل.

(٢) عملة كانت تستخدم فى الدولة العثمانية منذ أول نشأتها سكّت من الفضة.

فى الضيق تتسع لمرور اثنين بصعوبة بالغة وكل بيوتها تطل من الناحية القبلية على البحيرة إنها قصبة جميلة ضيقة، وكل مياهها مياه آبار إلا أن بها بعض الملوحة، وكل أهلها من وجوههم غاية فى الثقل ولون وجوه أهلها يميل للصفرة، وليس بها جمال لنسائها ولا رجالها، والفقراء فيها كثير، وفى الجانب الجنوبى منها تفرق البيوت، ولذلك غادر بعض أصحاب البيوت بيوتهم، كما يفرق الناس آخر الأمر، ومن الحق أن قوم البحر تتفاوت أحوالهم من يوم إلى آخر، والطريق إلى رشيد طوله ساعتان وعرضه ساعة واحدة، وثمة بساتين للنعيل، ومنها نخلات طوال الواحدة منها بطول قامة الإنسان، وكل نخلة تثمر مائة آفة من التمر الأبيض والأصفر والأحمر والأسود، ولها تمر لذيق مختلف الأنواع، وهى بلد تكرم وفادة الغريب ولكنهم يملكون جامعاً أبيض جميلاً، وتبدو بها سبع منارات.

بيان من دفن فى أدكو من كبار الأولياء

فى غرب المدينة على شاطئ الخليج الشيخ سلامة، وأخوه الشيخ صنع الله والشيخ عبد الرؤوف والشيخ عبد الخالق وهم فى ضريح أبيض جميل، وبالقرب منهم على شاطئ الخليج فى ضريح مرتفع الشيخ عبد الله المغربى، وعلى شاطئ الخليج خمسة أضرحة بيضاء هى مرقد الشيخ سلامة ابن الشيخ مجيب الدين وفى هذه الأضرحة الخمسة دفن أبناءه وفى الناحية الشمالية دفن الشيخ خلف، والشيخ محمد حميدى.

وفى الناحية الشرقية الشيخ سيد محمد جليى وهو خليفة السلطان أحمد البدوى، وفى الناحية الغربية الشيخ محمود جليى، والشيخ منصور، وعلى مقربة من جامع كرد بك الشيخ سيد إبراهيم، وجامع سيدى على الجبترى، وهو مدفون كذلك فى الجامع، وفى ساحة الجامع الشرقى دفن الشيخ هارون نهاوى، وقبره يزار وبعضهم يقرأ على روحه (يس) وبعضهم يقرأ (الفاتحة)، وطلبنا المدد من روحهم الشريفة - رحمة الله عليهم أجمعين -، وعبرنا أرضاً ذات رمل إلى الشرق، وبلغنا ساحل البحر

الأبيض، وفي الرمال علامات تدل على طريق رشيد وتابعا السير. ووصلنا إلى رشيد من إدكو فى أربع ساعات.

أوصاف ميناء رشيد

وسبب تسمية المدينة برشيد أنه بعد الطوفان ملك مصر بـيظ بن حام وأخوه الأكبر سام وقد دعا نوح بالخير لحفيده، وبعث به إلى مصر، وكانت له فيها ذرية، وأنجب فى مصر ذرية من ثلاثين ولداً، ولذلك سمي بأبى الأقباط، وانتشر كل ولد منهم فى مصر وبنا له مدينة وكان لولد منهم اسم رشيد وبما أنه بنا هذه المدينة، لذلك سميت المدينة باسم رشيد، إن النيل يصب فى البحر الأبيض عندها وهى مدينة عظيمة إنها عروس مصر، ولها حكم الإقليم، وقدره فى كل عام من ديوان مصر اثنا عشر كيساً، ولرشيد قائم مقام يتولى إدارة شئونها، وجميع السفن والحمالين تحت حكمه، وهو يقدم إلى الوالى سنوياً مائة وخمسين كيساً وراتبه عشرة قروش فى اليوم، وتحت رياسته مائة وخمسون من خدم الجمر، وجميع القرى تخضع للالتزام، وفى المدينة أكثر من ألفى سوق، ولا وجود فيها لبيت حرب، وجميع بيوتها ذات أسطح وهى من طابقين أو ثلاثة أو أربعة، وكل بيوتها مخازن للأثاث. ويصعد إلى أبوابها بسلم من الحجر، وفى الطابق الثانى أبواب، وفى هذه المدينة خانات لنزول الضيوف، وفى الطوابق العالية، النوم، وعدد بيوتها تسعة آلاف بيت وستمائة، وهى للمسلمين، وفيها أربعون محلة ومائتى محراب، وسبع محلات لليهود، ولكن لا وجود فيها لمحلات للفرنجة والأرمن والغجر، إلا أن هؤلاء يغدون ويروحون للتجارة.

وثمة محلة للقبط واليهود، وأعيان مصر يعتمدون عليهم ككتاب لهم، مما سبق ذكره نتين أن البيوت فى رشيد اثنا عشر ألف بيت، وفى هذه المدينة تؤدى صلاة الجمعة، وفيها كثير من الجوامع، وفى الميناء جامع كبير يسمى جامع زغلول محمد، طوله مائة وسبعون خطوة، وداخل هذا الجامع مائتان وستون عموداً من المرمر على رؤوسها قباب، وفى أطراف حرم هذا الجامع مائة وخمسون قبراً، وفى داخل الجامع أربعة محارب للمذاهب الأربعة، وثلاثة محارب كبيرة وواحد منها صغير، كما أن له قبة ومنبر صغير

من خشب، وشرفتان للمؤذن وله حَرَمَان صغيران، وفي وسط الحرم الأيمن سبيل، وللجامع ستة أبواب وله منارتان وهما عاليتان، ومن ثلاثة طوابق، وفيه مقصورة دفن فيها محمد زغلول وأربعة من أوجه رجال الإفتاء، إنه جامع واسع كان في أول الأمر جامعاً صغيراً، وتاريخه مكتوب على أعلى بابه وهو:

(أمر بإنشاء هذا الجامع الجديد السيد محمود).

وجامع العطار يصعد إليه بسلم حجري يتألف من خمس درجات، وجامع (تق نهيمه) مبني على ثمانية أعمدة من الرخام، وهو صغير يتسع لمائتي مُصلٍّ، وله ثلاثة أبواب ومنارة، ويصعد إليه بسلم حجري يتألف من خمس درجات.

وجامع عبد الله يتسع لمائة مُصلٍّ، وهو غاية في الصغر وله منارة قصيرة، وجامع الخواجة وهو جامع مرتفع، وله منارة وبما أنه على المرفأ يؤمه ناس كثيرون، ويصعد إليه بسلم حجري يتألف من عشرين درجة.

وجامع الأمير أحمد أغا جامع مرتفع جميل وهو على شاطئ النيل وطرفاه على الطريق العام، ويصعد إليه من ناحيتين بسلم من الحجر، ويقع على شاطئ النيل ويدخله عشرة أعمدة من الرخام، وعلى باب قبلته:

(وعمر هذا الجامع الأمير أحمد أغا سنة اثنين وستين وألف).

وله منارة جميلة ومؤذن وإمام وخطيب، ويزدحم بالمصلين، وفي داخل الميناء جامع جمال الدين أغا، وهو جامع مرتفع ويصعد إليه من جانبيين بسلم حجري وهو جامع مرتفع.

وثمة سبعة مخازن ودكاكين على الطريق العام، وفي داخل الجامع اثنا عشر عموداً من الرخام عليها سقف مزخرف، وله قبتان، وعلى القبتين تاريخ هو:

(أن عين العلا على الفعال، خاتم الجود من سما بالجمال. قلت تاريخ أنشا على الجمال جامع لمن اللطيف محكمًا بالجمالي سنة ١٠٧٤).

وهذا الجامع ليس له حرم ولكنه يزدهم بالمصلين ليلاً ونهاراً، وله منارة قصيرة، وفي صُفَّته الداخلية قيشانى أرض المغرب فى بعض مواضع منها، وهو لصاحب الخيرات أحمد باشا وهو أحد الاثرياء، وقدم إلى رشيد من مسقط.

وجامع الزمين جامع تحتانى يزدهم بالمصلين له سقف منقوش مقام على أحد عشر عموداً، وله ثلاث قباب، ومنارته قصيرة وهو جامع صغير.

وجامع العراقى يصعد إليه بسلم يتألف من خمس درجات، وبه عشرة أعمدة تحمل سقفاً مزخرفاً، ومنبره من الخشب وله ثلاثة أبواب، ومنارته قصيرة ولا حرم له والعراقى مدفون على يسار المحراب قدس سره.

وجامع نسي يقوم على ثمانية أعمدة، وهو صغير، وثمة مساجد أخرى، وتبدو لها خمس وعشرون منارة.

ثمة سبعون من الخانات ومنها خان (قول قران) محمد باشا، وهو يشبه القلعة، ويتألف من طوابق، وخان أحمد باشا، وخان أليك، وخان قنا خان خواجه أحمد أغا، وخان قاسم بك، وخان مصطفى بك، وخان إسحاق أفندى، وخان سنان باشا، وخان على جمال الدين، وهى خانات مشهورة ويسكن كلا منها خمسين أو مائة أسرة، كما أن لها باباً من حديد، وبها سبع مدارس، وسبعون مكتباً للصبيان، وستة سبل وثلاثة آلاف وأربعون دكاناً، وسوقان، لها بابان من حديد، وفيها مائة دكان وكلها أبنية متينة، وفيها تباع الالبسة والأقمشة الفاخرة وفيها سوق لبائعى الجواهر، وسبعون مقهى ومائة طاحونة تديرها الخيل، وأربعون طاحونة زيت، وأربعون مصبغة وثلاثون مضرباً للأرز وستة آلاف وستون مخزناً، وسبعون حانة، وتقتلئ كل منها بدمنى الشراب وعشرة حانات للبوطة وخمسة حمامات وحمام الحاج نعمت الله نظيف طيب الهواء يأتى إليه ماء النيل بدولاب فيه، وخدام هذا الحمام ثيابهم نظيفة والدلاكون فيه ثيابهم نظيفة، وكذلك خدامهم، ولكن هذا الحمام جديد، ويقال إن الحمام القديم هو النافع وقد بنا السلطان سليم بها حماماً، وهو حمام عتيق، وإذا وضع فى حوضه مصاب بالجدام شفى

بإذن الله بعد أربعين يوماً، وحمام البوستانجي حمام كبير، أما حمام خواجه عبيدي وحمام قويدان باشا فحمامان للخواص والعوام، وجو هذه المدينة يشبه جو بلاد الروم، وفيها يهطل المطر بغزارة، وينزل الجليد والبرد لأن مدينة رشيد في أول الإقليم الثالث، ولذلك فيه من الفتيات والفتيان من العرب من يتصفون بالجمال، ويتكسب أهل رشيد من التجارة، ونصفهم من أهل الحرف؛ ولذا فإن أهل هذه المدينة في رَغَدٍ من العيش، ويقيم بعضهم للبعض الولايم في كل ليلة، ويقيمون المولد الشريف في الليلة خمس أو عشر مرات وفي الأسبوع يقيمون حفلات العرس أربع أو خمس مرات، ويباع خمسون رغيفاً من الخبز الأبيض ببارة واحدة، والرطل الإسكندراني من اللحم ببارة، كما يباع قنطار السكر بعشرة قروش، ويباع أردب الشعير بمائة، ويأتي إليها ألف سفينة في العام، وفي المدينة حدائق ذات بهجة وفيها تين وجميز وخوخ وليمون و نارنج، وعلى ضفتي النيل حدائق وبساتين وكل ما أنعم الله به على الإنسان موجود في هذه المدينة، ويلبس أعيان المدينة فرو السمور والجوخ والثياب الفاخرة، أما الطبقات المتوسطة من أهل المدينة، وهم أهل حرف، فيلبسون الثياب ذات الألوان. والأغنياء يلبسون حرير دمياط والفرسكور الملون، والفقراء يلبسون حولهم ثوب الإحرام وهم يعيشون في كفاف ويكدحون، وفي الجانب الغربي من هذه المدينة لهم بيوت صغيرة يقيمونها على الرمال، وليس فيها بعوض، أما نصف المدينة إلى شاطئ النيل ففيها بعوض يشرذم النوم، ولذلك ينام كل واحد منا في كَلَّة^(١) دفناً للبعوض، وأهل هذه المدينة يأمنون الذباب، وطول المدينة إلى تكية عبد القادر الجيلاني ألف وخمسمائة وعشرون خطوة، وعلى ضفة النيل قصور شامخة وفي النيل مرافئ يُنزلون فيها البضائع من السفن وجميع المنازل التي على ضفة النيل تطل نوافذها عليه، وشوارعها واسعة نظيفة وهي ستمائة وعشرة، أما أهلها

(١) الكَلَّة: ستر رقيق ذو ثقب يرفع فوق السرير ليتوقى به من البعوض وغيره. انظر: المعجم الوجيز،

فهم يحبون ويكرمون الغرباء ولا يخرج النساء إلى الطريق إلا إذا اضطرتن إلى ذلك ضرورة ملحة، والناس يشعلون المصابيح ليلاً ويوزرون ذوي قرباهم، وتحول النساء في السوق يعد عيباً كبيراً، وقد كتبت أوصاف هذه المدينة على حد علمي، ولو خفت في التفاصيل لاقتضى ذلك منى مجلداً فاكتفيت بما ذكرت.

قبور الأولياء داخل وخارج المدينة

في وسط السوق السلطاني بالمدينة قبر الشيخ سيد علي المحلاوي، وقد تحدث عنه الشيخ الشعراوي في كتابه (الطبقات)، إنه مدفون في موضع بالقرب من جامع الشيخ منصور، وله ضريح عظيم، وبجواره قبر الشيخ عبد الله الصانت وضريح الشيخ محمد البري والشيخ أحمد طوقا وقبر الشيخ أحمد المغربي والشيخ سيد عثمان برهاني وقبر الشيخ سعيد سعد الله وقبر سيد محمد الشندويلي، وفي رشيد القديمة على شاطئ النيل وفي الرمل قبر الشيخ سلطان بالقرب من جامع في كوم أفرح، وكل السفن التي تمر به يقرأ من بها له الفاتحة، لأنه قطب عظيم ومناقبه لا تدخل تحت حصر، وله تكية تزار وفي هذا الموضع كذلك دفن كبار الأولياء، وثمة نحو مائة قبر لم يتيسر لنا معرفة أسماء من فيها، وفي هذه الجهة مقبرة رشيد والله أحمد أني سألت عن هؤلاء الاقطاب فوجدتهم وقد مرغت وجهي على ضرائحهم وعرفتهم رحمة الله عليهم أجمعين، وفي غرب رشيد حدائق ونخيل، وتحولنا فيها ساعة وامستطينا خيولنا وكم من حديقة شاهدنا وفي بعض الحقول أكلنا ثماراً يانعة.

أوصاف قلعة رشيد

هي التي بناها الظاهر بيبرس خوفاً من الفرنجة، وتقع على شاطئ النيل، وبعد بناءه لها بعام واحد وسَّعها السلطان قايتباي، وعلى بابها هذا التاريخ:
(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البرج المتين السلطان المالك الممالك الأشرف أبو النصر قايتباي عزَّ نصره سنة ثمانمائة).

وفى داخل القلعة دار للمشرف عليها ومخزن للقمح وصهريج يستمد ماءه من النيل وجامع قايتباى وأربعون بيتاً للجند، ومحيطها مائة خطوة، وكل الأبنية التى فى داخل القلعة أقامها قايتباى، وأقام على باشا بناءً مربعاً خارجها وهو قلعة من طابق واحد وهذا البناء بناءً رصين، وفى كل ركن من أركانه الأربعة برج وكل برج من هذه البروج قلعة حصينة ومحيطها أربع مائة خطوة، وفى أرض كثيرة الوحول لا خندق فيها، ولها باب من حديد يطل على الجنوب، وعلى الباب تاريخ يأخذ منه أن بانى القلعة هو على باشا وزير الرى العادل، وداخل القلعة ستون بيتاً للجند، وفى ركن داخل القلعة دفن حسين كوردى وفى القلعة سبعون مدفعا، ومخزن أسلحتها عظيم، ولها مشرف، وفيها جنود، ينالون مرتباتهم من الجمر.

وثمة قلعة تجاه نهر النيل وهى قلعة أحمد باشا، وهى فى موضع كثير الرمال، وقد تخربت على مر الأيام، وبعض آثارها ما زالت ماثلة للعيان، ولها مشرف وجنود، وبيوتها بين النخيل، ولكن عشرين منها قد أنهدم، وبين النخيل بيت للمشرف فيها، وعشرون بيت للفقراء. وكانت قلعة معمورة قديماً، وكانت مع قلعة رشيد الواقعة فى مدخل ميناء رشيد، وضريح أحمد دده فى قبر أبيض بداخلها، وقد شاهدت هذا الموضع كذلك، والسفن تجرى منحدره فى النيل.

أوصاف بوغاز رشيد

وهناك يلتقى النيل بالبحر الأبيض، وهذا ما يسمونه موضع «مرج البحرين»، أما إذا عصفت الرياح فإن السفن لا تجرى، وتبقى السفن فى البوغاز مدة شهرين أو ثلاثة، وقد أصبح هذا البوغاز بحمد الله سداً فى وجه الكفار وتحمل السفن حمولتها، وإذا كانت حمولتها خفيفة خرجت من البوغاز وتدفع السفن الجمارك، ثم تنشر قلوها وتجري ويقول من عليها توكلنا على الله، وتدخل البحر ولو كان البوغاز هكذا على الدوام لخرب الكفار رشيد، وإذا رأت سفينة مدينة رشيد فينبغى أن تستأذن فى الخروج من رئيس الميناء إنه ميناء صعب وكم من سفينة تغرق فى كل سنة.

ورئيس الميناء يتقاضى من كل سفينة أربعين أو خمسين قرشاً، وكما يقدم رئيس الميناء للوالى ألف قرش كشوفية، وفى كل سنة يجرد ما لديه ورئيس الميناء من الرباينة. ولا يعرف البوغاز شخص آخر سواه، ففى موضع يكون الماء فيه ضحلاً وفى آخر يكون الماء عميقاً، وأما فى وسط البوغاز فطريق عام يحدده القرع العائم، وحينما يفيض النيل ويصبح كالبحر يدخل البحر الأبيض مائة ميل، ويتلَوْن ماء النيل بالخمرة ويعرف من فيها أن مدينة رشيد قريبة والدعاء مستجاب فى هذا البوغاز، ويمضى بعض أهل الحال والسلوك فى قواربهم إلى هذا البوغاز ويتعبدون، ولأن مرج البحرين ورد فى القرآن كما أن موسى - عليه السلام - فارق الخضر فى هذا الموضع قال: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، وفى البوغاز جزيرة بها ضريح موسى - عليه السلام - والخضر ولذلك يأتى إليها كثير من الشيوخ لزيارتها، وفى هذا الموضع تلتقى الرياح، وهذا الموضع يبعد عن النيل بمقدار خمسين ميلاً، وتعلم السفن فى النيل أن النيل يختلط بالبحر، وإذا ذاق من فى السفن ماء النيل ليلاً ووجدوا ماءه عذباً أدركوا أن البوغاز قريب، فلا تقترب السفن من الشاطئ، ولم أستطع عبور هذا البوغاز، ثم ركبنا خيولنا وبلغنا الإسكندرية بعد فى عشر ساعات.

وخلاصة القول أنه بحمد الله بلغنا الموضع الذى يختلط فيه ماء النيل بماء البحر وزرنا ضرائح كبار الأولياء وصلينا ركعتين فى القارب ودعوت الله أن يمكننى من زيارة مصر بأسرها لأنها جنة المأوى كما جاء فى الحديث الصحيح^(١).

وقلنا آمين يا معين بحق حرمة سيد المرسلين فعدت ثانية إلى ميناء رشيد وودعت جميع رفاقى خصوصاً شيخ زاده عبد الرحمن أفندى والحاج نعمت الله ومندل زاده مصطفى أغا وسائر أرباب الطريقة وركبنا السفينة، وحملنا فيها كل المأكول والمشروب

(١) حدثنى الله ﷻ أنه رأى أربعة أنهار تخرج من أصلها (يعنى سدرة المنتهى) نهران ظاهران ونهران باطنان، أما النهران الباطنان فههران فى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٩١٨/١) والبخارى فى المناقب (٣٨٨٧).

وهي سفينة تغدو وتروح وهي محمّلة بالعزب والمدافع، كما أن مَنْ فيها من المسافرين يحملون الأسلحة، ولأن جزر النيل بها سُفُنًا للصوص وهم يغيرون بغتة على السفن فيقتلون كل من فيها وينهبون أموالهم، فلا بد من أخذ الحذر منهم، فتوجهت إلى مصر في سفينة مسلحة.

الفصل السادس والستون

أوصاف القصببات والقرى على ضفتى النيل

فى السفر من رشيد إلى أم الدنيا

مضينا فى النيل بريح طيبة تجاه كوم أفرح.

قرية عزبة المصدى

وبها مائة بيت وجامع دفن فيه الشيخ عثمان الطشطوشى، وفى أرض رشيد.

بلدة (حدية)

وبها جامعان وعدة دكاكين ولكن ليس فيها حمام، ولا خان فيها، وفى الجانب المواجه للنيل أرض ذات نخيل بها قبر صغير للشيخ جابر، وبالقرب منها ترعة عظيمة وهى تجاه رشيد وفيها سفن تختلط بمياه بحيرة البرلس ومن هذه البحيرة تمضى السفن إلى قلعة برلس وسوف نتحدث عنها فى موضعها وفى:

محلة الأمير

جامعان وعدة دكاكين ولهما منارتان، وثلاث مقاهى عربية، وعبرنا إليها، وفى أرض الغربية:

قصبية شيوين برمبال

بها ألف بيت وأربعة جوامع وعشرون مسجدًا ومقهى وخمسون دكانًا وخانان وحمام، وفيها الكتان والحرير الفاخر، وجوُّها غاية فى اللطف، وتجاهها:

قصبية ديبى

وفيها ثلاثمائة وستون بيتًا وخان ومقهيان ولكن المقهيين غاية فى القذارة، وهما للفلاحين وليس فيها حمام، وفى إقليم البحيرة على شاطئ النيل:

قصبية أدشينه

وهي التزام، ولها ألف بيت وهي مدينة معمورة، ومنازلها عالية ومزينة، وبها جامعان لهما منارتان جميلتان وخمسون دكانًا وخانان وثلاث مقاه، وليس فيها حمام، وفي قبالتها في إقليم الغربية:

محلة مطويس

يتحصل منها في العام ستة أكياس.

وثمة سبعون قرية، إنها وقف مكة والمدينة، وليست كشوفية، وهي التزام الشيخ البكري، وبها ثلاثة آلاف بيت وخمسة جوامع وفي السوق جامع كبير يحمل سقفه اثنان وخمسون عمودًا من الرخام وسقفه مزخرف وطوله مائتا خطوة وعرضه مائة وخمسون، كما توجد بها سبعون راوية، وخمس منارات تظهر في الأفق وحمام وسبع وكالات، وسبل ومقاه، ومائتا دكان وأربعون طاحونة للزيت وعشرون طاحونة تديرها الخيل ولا وجود لسوق، وفيها قصر شامخ يسكنه الحاكم وأمامه قصر جميل على ضفة النيل ينزل به الضيوف والمجاورون، ويجمعون ثروة طائلة إنها بقعة جميلة وعلى ضفة النيل راوية مثل الجنة ولأرزها وسكرها ذائع الشهرة، وهذه البقعة على مرتفع من الأرض فهي لطيفة الهواء، وكل بيوتها تطل على النيل، وبعدها:

محلة جمشير

وهي التزام وبها مائتا بيت وجامع، وعدة دكاكين، ولكن ليس فيها حمام، وقبالتها في إقليم البحيرة:

محلة فزاده

وهي تتبع قصبه ديروط، وبها مائتا بيت، وبها كذلك جامع وعدة دكاكين ومقهى، ولكن ليس فيها حمام، والنيل فيها يجري متعرجًا.

أوصاف محلة ديروط

كان لفرعون فيها دير كبير لذلك سميت ديروت وهى تابعة لالتزام سندیون، وبها ألف بيت وأربع منارات وأربعون زاوية وحمام ووكالة وأربعة مقاه، وراقصات جميلات، وخمسون دكانًا وحقول غزيرة المحصول، وقبالتها فى إقليم الغربية:

محلة سندیون

وهى قضاء يسدر مائة وخمسين أقبجه ويتحصل منها فى العام ثمانية أكياس، وفى ناحيتها ثمانون قرية ويسكنها بنى حرام وبنى جزام، وينشب القتال بينهما على الدوام، وفى القرى ثلاثة آلاف بيت، ولها كاشف صاحب خلعة، ولها جامع ذو منارة جميلة وبها مائتا دكان، وخان، وليس فيها حمام وبعدها بميل فى إقليم البحيرة:

محلة عاطف

وهى التزام وبها ألف بيت، وبها جامع وعشرون مسجدًا وعدة أسواق صغيرة، وليس بها حمام، وبالقرب منها بلد داود ومن هذه البلد تجرى ترعة الناصرية إلى الإسكندرية.

أوصاف قصبة فوه

هى قضاء يغل مائة وخمسين أقبجه وبها مائة قرية وخمس من القرى العامرة، وهى كاشفيه يلبس كاشفها الخلعة من الغربية وبها أربعة آلاف بيت واثنى عشر جامعًا، وأربعون مسجدًا وأحد عشر جامعًا ذا منارة وحمامان وخمس وكالات وثمانية مكاتب للصبيان وستون دكانًا وأربع مقاه.

إنها مدينة عامرة تزدهم بالسكان وتجاهها جزيرة صغيرة يحيط بها النيل من جوانبها الأربعة، ويسمونها جزيرة الذهب ولأنها كثيرة المحاصيل سميت جزيرة الذهب، وعسلها أبيض لذيذ وكأنها جزيرة تشبه الجنة وفى حدائق نخيلها جامع جميل ذو منارة

وعلى مقربة منه قرية بها أربعون بيت وبعد هذه الجزيرة على مسافة ميل فى إقليم الغربية:

محلة شرف

وتضم نحو ألف بيت وجامع ومقهى وقبالتها فى إقليم البحيرة:

محلة شُرْم بك

وبها نحو ألف بيت وجامعان ومقهيان وهى قصبة كثيرة المحاصيل، وفى تجاهاها فى إقليم الغربية:

محلة السالمية

وهى التزام وبها ألف بيت وجامع ذو منارة وعلى بعد ميل وفى إقليم الغربية:

محلة مالك

وبها خمسمائة بيت وهى التزام وبها دار للضيافة عبارة عن قصر عال يسكنها صاحب القرية وفى كل ليلة يكرم صاحب القرية أربعين أو خمسين ضيفاً، ويعلف خيولهم لأنها محلة يمر بها كثير من الناس، وبها جامعان وأسواق صغيرة، ولكن ليس فيها حمامات والشيخ محرم والشيخ كنعان والشيخ رمضان دفنوا فى قبور بيض بها، وقد رسونا فيها بعشرين باره ونزلنا ضيوفاً ليلة وفى الصباح تابعنا سيرنا، وفى هذه المدينة وفى إقليم البحيرة:

محلة شموخذات

إنها قصبة صغيرة ملتزمها رشيدلى مندل زاده وبها ثلاثمائة بيت وجامع وبها قهوة وليس بها حمام ولا دكان، وعلى بعد ثلاثة أميال وفى إقليم البحيرة كذلك:

محلة الرحمانية

وهى فى التزام قيطاس أغا، وقد أوردنا أوصافها على التفصيل فيما كنا ذاهبين إلى البحيرة وتجاهاها فى إقليم الغربية:

محلة إبراهيم الدسوقي

وقد أوردنا أوصافها سلفاً وعلى بعد تسعة أميال منها فى إقليم الغربية:

بلدة مرقاص

وقد دفن فيها إبراهيم الدسوقي وقد وصفتها من قبل وعلى بعد ميلين فى إقليم الغربية محلة:

أبى على

وقد ذكرت من قبل وفى قبالتها فى إقليم البحيرة محلة:

ديبى كبير

وهى التزام وبها ثلاثة آلاف بيت معمور وبها جامعان لكل منهما منارة، وعشرون مسجداً وخان وعشرون دكاناً ومقهيان.

وقد تجولت فى النيل، وكنا ضد مهب الريح، فأنزلوا جميع الملاحين جانباً، وجذبوا السفن بالحبال فبذلوا فى ذلك جهداً عظيماً، وتجاه هذه المحلة:

محلة شبراخيت

وتحتوى على ألفى بيت وجامعان وعشرة مساجد، ووكالة، وعشرة دكاكين وثلاث مقاه، وعلى قرابة ميل بإقليم البحيرة:

محلة شبري ريش

وهى التزام، وبلد معمور جملة دورها خمسمائة بيت، وبها جامعان وسبع زوايا، ووكالة وعدة دكاكين، ولكن ليس فيها حمام، وتجاهها فى إقليم الغربية:

محلة ميت جناح

وهي التزام، وبها ألفا بيت وجامعان وعشرون مسجدًا، ولكن ليس بها دكاكين ولا حمام وتجاهها في إقليم البحيرة:

محلة مجالسه

وهي التزام، وبها جامع واثنان عشرة راوية ووكالة ومقهى، وألف ومائتا بيت ولكن ليس بها حمام ولا دكان، وتجاهها في إقليم الغربية:

محلة صالح

وهي التزام، ويقال إن بها قبر عليّ - كرم الله وجهه - وماؤها عذب وكان في هذا البلد قديمًا قلعة عظيمة تسمى في كتب التاريخ (ولاية صالح)، وهي الآن مقبرة في سجلات المحكمة، وأثارها القديمة ماثلة للعيان، وبها ألفا بيت معمور وجامعان وعشرون راوية ومقهيان ووكالة، وعلى بعد ميل منها وعلى ضفة النيل وفي إقليم البحيرة:

محلة كفر جديد

وهي التزام وبها مائتا بيت ليس إلا، وجامع ومقهى، وفي شمالها في إقليم البحيرة:

محلة نكله

وهي التزام، وبها ألفا بيت معمور جميل، وثلاثة جوامع معمورة جميلة، وعشرون من المساجد، ووكالتان، وقصر شامخ هو دار ضيافة، ولا يقل عدد الضيوف فيه عن مائة ضيف في كل ليلة كما أن فيها عشرون سوقًا صغيرة كما أن بها مقهى، ولكن ليس بها حمام، وتجاهها في كشوفية المنوفية:

محلة هرزدق

وتقع فى التزام نقيب الأشراف، وبذلك سبق وصفها من قبل.
وفى شمالها على بعد ميل وعلى ضفة التربة النهارية ولأنها فى إقليم المنوفية سبق
لنا وصفها، وهى على حدود إقليم الغربية، وعلى بعد ميل شمالا وفى إقليم البحيرة:

محلة إشليمية

وهى فى التزام سفر أغا، وبها خمس مائة بيت وجامع وست زوايا ومقهى وعدة
دكاكين وحمامات، وليس فيها وكالة، وفى إقليم البحيرة على بعد ميل منها:

محلة الطاهرية

وبها جامع وسبع مائة بيت، وهى قليلة العمران، وعلى بعد ثلاثة أميال وتجاه
الطاهرية وفى إقليم المنوفية:

محلة كفرزباد

وهى التزام وبها خمس مائة بيت جميل وجامع وخانان وعدة دكاكين، وليس فيها
حمام، إنها مرفق السيد أحمد البدوى، وعلى بعد ميل شمالا فى إقليم البحيرة:

محلة شابوز

وبها ألف بيت وهى التزام، وبها جامع واحد، وعلى بعد ميلين شمالا وفى
إقليم البحيرة:

محلة سلمون

وهى التزام سفر أغا وبها مائة بيت وجامع وثلاثون مسجداً وخانان ومقهى، وسبع
أسواق، وعلى بعد ميلين شمالا وفى إقليم المنوفية:

محلة كضرناحه

وهي التزام سياوش أغا وبها مقهى وألف بيت وجامع وليس فيها حمام ولا وكالة ولا دكاكين، وعلى بعد ميلين من جهة الشمال وفي إقليم البحيرة:

محلة أبو أحمد

وهي التزام وبها خمسمائة وخمسون بيتاً وجامع ومقهى وليس فيها حمامات ولا وكالات، وعلى بعد خمس درجات شمالاً منها في إقليم البحيرة:

محلة بحيرة

وهي في التزام ذو الفقار أغا وبها جامع ومقهى وأربعة دكاكين، وقبالتها في إقليم المنوفية على نهر النيل:

محلة زغيره

وبها جامع ومقهى، وسبعمئة بيت ولا وجود لما سوى ذلك، وعلى بعد ميل في إقليم المنوفية:

محلة طنوب

وهي في التزام رضوان أغا وبها ثلاثمائة بيت، وجامع بلا منارة، ووكالة ومقهى، وعلى بعد ميلين شمالاً وفي إقليم المنوفية:

محلة أمروز

وهي التزام مصطفى أفندي، وبها خمسمئة بيت وجامع ومقهى، وعلى بعد ميلين شمالاً منها وفي إقليم البحيرة:

محلة طَيْرَنَه

وهى التزام، وتروى من ترعة سلطان شرف التى تروى ولاية أبو جاموس، وأولها فى هذه المحلة، وبها خمسمائة بيت معمور، وبها جامع ولا عمران فيها بعد ذلك. ومضيئا شمالا ميلين، وفى إقليم البحيرة على ضفة النيل وجدنا:

محلة علقمة أبو الجاوى

وليس فيها سوى جامع، وبها ألفا بيت. وتجاهها، وفى إقليم المنوفية:

محلة تمالية

وبها ثمانمائة بيت معمور، وجامع، ومقهى تجاوزناها بمسافة ميلين شمالا وفى إقليم المنوفية:

محلة جزى

وهى واقعة فى التزام محمد أغا، وبها دار ضيافة عظيمة، وعلى بابها مدافع وبها ألف بيت وجامع ومقهى وليس يوجد شيء سوى ذلك ويجرى النيل شرق هذه المحلة وهذه المدينة مرفأ، وهى على مسيرة مرحلة^(١) من منوف وقبالتها فى إقليم البحيرة على ضفة النيل:

محلة طَرَآنَه

وصاحبها ذو خلعة وطبل وجند، وبها قبور من الجص، وليس فيها حدائق، وبها جامع بلا منارة ومقهى، وفى هذه الناحية قاضى البحيرة ولها ستون قرية تابعة لها.

بيان معادن النطرون الطبيعى

إن ما يسمونه النطرون هو محصول هذه الأرض، وهو يخرج من صحراء هذه الأرض إنهم يحفرون الآبار ويستعمقون بمقدار باع أو باعين، فيمتد عرقا عرقا فى

(١) المرحلة: المسافة التى يقطعها السائر ما بين المنزلين.

الأرض، وجميع سكان هذه المحلة مأمورون بأداء هذا العمل، فيستخرجون عدة قناطير من النطرون، وأمام كوخ أمين النطرون يذرون النطرون كأنه ملح، ويأتى من بلاد القرنجة التجار لشراء النطرون، فيشترون فى العام عدة آلاف من قناطير النطرون، ويتحصل منها فى العام سبعين كيساً وهى التزام وأكثر علماء مصر يشغلون مناصب فى إدارات خاصة به لأنه مال جذل، وفى جميع الدنيا يذيبونه ويجعلونه كالماء ويضعونه على الصخر فينمحي بإذن الله تلك هى خاصيته، كما يوضع فى مصر غالباً فى الطعام مثل الملح، وهو ينضج اللحم ولكنه من أكل منه تأذت عيناه وساءت نفسه وشحب وجهه وانتفخت بطنه كبطن الحامل، وفى مصر يضعون ذرة منه فى طعامهم لأنه ذو قيمة كالوقود، ولذلك فإن الطعام فى مصر يطهى سريعاً، أما أصحاب الأسر إذا طهوا به الطعام كالحطب طاب طعامهم.

وفى عصر الوالى قره مصطفى باشا ثار البكوات فنشبت الحرب واستشهد كثير من الجند وفى صحرائها دفن بالقرب منهم أتباعهم - رحمهم الله - وعلى بعد ميل شمالا وفى إقليم المنوفية:

محلة زاويه

بها سبعمائة بيت وجامع ومقهى، وفى شمالها فى إقليم البحيرة:

محلة أبو فشانه

وبها جامع ذو مناره وألف بيت جميل، وشمالها فى إقليم البحيرة سكن قبيلة بنى سلامة وبنى رجبان فى أرض رملية وهؤلاء القوم على ضفة النيل ويغيرون على السفن ولا يحاربهم إلا من كانوا يحملون السلاح، وهم شجعان، وقد بلغنا هذه المحلة وسمعنا نساء العرب وهن يضربن بالدفوف على رأس الجيش ويرقصن ويعزفن على الرباب، وقيل لى إن فى إقليم البحيرة أرض رملية لا أمان فيها، والعرب ينهبون السفن التى ترسو على هذه المنطقة، لأنها أرض خالية موحشة، والمجرمون يركبون السفن على

أنهم صيادون وهم يُغيرون على السفن، ولذلك يجب التحرر منهم. وقد تجاوزت هذه المنطقة سالماً والحمد لله، وشمال هذه المنطقة فى إقليم منوف:

محلة أشمون جريس

هى التزام كبير وبها جامعان وعشرون مسجداً ووكالتان ومقهيان وعشرون دكاناً وليس فيها حمام، وعلى بعد ميلين شمالاً منها وفى إقليم المنوفية:

كفر جركس

وهى ليست محلة وبها ثلاثمائة بيت وجامع واحد ولا يوجد عمران بعد ذلك، وسرنا أربعين ميلاً فى مهب ريح الجنوب تجاه كفر جركس وفى إقليم البحيرة وعلى شاطئ النيل:

محلة قُطَه

والحق أن القُطَط فيها كثيرة وهى التزام ولم يبقَ من القرى والقُصبات سواها فى إقليم البحيرة، وعلى بعد ميل منها الجسر الأسود وهو جسر له خندق، وشمالها فى حكم كاشفية الجيزة وعلى بعد أربعة أميال وفى إقليم الجيزة:

محلة أم دينار

وقد كشف السلطان يوسف صلاح الدين فيها عن كنزٍ عظيم، ولذلك سميت أم دينار؛ وبهذا المال الذى استخرجه من هذا الكنز بنى قلعة عظيمة داخل القلعة كما تصدق بمال كثير فعمر مصر، وبها جامع ومقهى وترعة عظيمة، وهذه الترعة تمتلئ عند فيضان النيل فتروى هذه الولاية، وتمر فيها سفن تحمل الغلال لأنها ترعة كبيرة، وفى هذه الترعة معدية أميرية، وبها يعبر أصحاب الحاجات من الجيزة إلى منوف ويؤدون الأجر وتجاهها فى إقليم المنوفية:

محلة شراوى ومحلة دراوى

وبالقرب منهما محلات تقع فى التزام نقيب الأشراف فى مصر برهان الدين أفندى، وهى محلة معمورة لأنها قرية من مصر وكثيرة المحاصيل فأهلها فى رَعْدٍ من العيش وبها جامعان ولكننا لا نعرف عمائر أخرى سواها وفى حدود منوف على شاطئ النيل بليدات وقصبات تتمم هذه المحلة، وعلى بعد ميل محلة تسمى:

بطن البقر

وهى فى نهاية جزيرة فى النيل، ويجرى النيل حولها، وهى جزيرة كبيرة وعظيمة، والنيل يجرى بين إقليم الغربية وإقليم المنوفية، وهى كشتيتان حكومتان، وبها ألف وستمئة بيت وقرى وقصبات ومدينة عظيمة تتمها هذه الجزيرة هى محلة بطن البقر والنيل ينعطف يمنة ليجرى إلى ولاية دمياط، وينعطف يسرة ليجرى إلى ولاية رشيد، وعلى ساحل النيل الأيسر محلات وقصبات مرورنا بها ولكنها رياض ونخيل وبين رشيد وبتن البقر خمسمائة ميل، وليس فى بتن البقر قرى، إنها أرض خالية سبخة وفيها أشجار ذات أشواك، وهى فى حكم جبه جى باشى، وفى تل يحرق أخشاب هذه الأشجار وتوضع هذه الأخشاب على الفحم والبارود الأسود، ولذلك فإن بارود مصر فى شدة بارود بغداد وأنجلترا، وفى بتن البقر أربعون ضريحاً وهناك، يستجاب الدعاء، وفى الجانب الشرقى من بتن البقر فى الضفة المقابلة للنيل كشفية قليوب، وفيها:

بلدة بيت البارود

وهى فى حكم جبه جى باشى وفيها يحفظون أخشاب أشجار الشوك والفحم، وفى منطقة على بعد أربعة أميال فى إقليم القليوبية:

محلة شبرا

وقد ذكرنا أوصافها من قبل، وفى الجهة المقابلة لها فى إقليم الجيزة:

محلة الوراق

وفيها جامع ولا تعرف بيوتها، وعلى بعد أربعة أميال جنوباً وفي أرض الجيزة مدينة امبابة.

أوصاف مدينة امبابة وهي عاصمة كشوفية الجيزة

ولكاشف امبابة ثلاثمائة جندي، وهو حاكمها، وهو يُحصّل مائة كيس وعشرة، وبها قاضى الجيزة ونائبه، وبها بيوت معمورة، كما أن بها ثمان جوامع وستون مسجداً ومائة وثمانون دكاناً ولكن ليس فيها سوق وبها سبع مقاه، وسبل ومدارس وتكايا وتكيتها معمورة، وفي محكمتها منح شيخ الإسلام مصطفى أفندى معاشاً مائة وخمسين أقبه، له ولنائبه الحكم فى هذه المحكمة العامرة، وكل هذه الناحية قرى منها:

أوسيم

إنها بلدة كحديقة إرم، ذات نخيل، ولهذه البلدة حاكم من العرب اسمه شجاع الدين سليل قبيلة خبير وهو خيرى العربان، وله ثلاثمائة فارس، وهم يتولون رعاية شئون الأمن فى تلك البلاد، فإذا ما تعلق مجرم بأذيال الفرار جاءوا به مقيداً، وجو هذه المدينة لطيف كما أن فتياتها وفتيانها يتميزون بروعة الحسن، ويجتمع فيها كل يوم سبت ألف إنسان فى سوق عظيمة، وأصحاب الحرف فيها كثير، ويصنعون المآزر والاقمشة ذات الألوان والعمائم والمروط، وفى كل عام يأتى إلى هذه المدينة من يزورون السيد البدوى ويجتمع فيها أربعون أو خمسون ألف إنسان فى ثلاثة ليال، ويقيمون مولداً عظيماً، ولا يتعلق به الوصف، كما يقيمون الخيام وحلقات الذكر يزورون الشيخ الامبابى، وهو مدفون فى جامع كبير على شاطئ النيل قدسنا الله بسره العزيز، وحول ضريحه حديقة من نخيل، وتكية فيها يريدون يسمى الواحد منهم الامبابى ويتهى نسبة إلى السيد أحمد البدوى، وهؤلاء المريدون زهاد منقطعون عن الدنيا متزوون فى ركن القناعة يعيشون على الصدقات، ولأن أهل الحرف فيها كثير ففضلاً عما فى الأسواق

يعرضون كذلك ما يصنعون في الدكاكين خارج المدينة في الخلاء، وسبعون داراً للصباغة أميرية، واثنان عشرة وكالة وحمام وعشرون مكتباً للصبيان وحدائق كثيرة، وأهلها يكرمون الضيف، ومقابل امبابه:

بولاق

وهي مرفأ مصر، وقد وصلنا إليها من رشيد في خمسة أيام، وهي مدينة كثيرة المحاسن، وركبنا خيولنا وجيادنا إلى القلعة الداخلية ومضينا مع نائب نيشلى على كتفنا، وتجولنا في أرجاء المدينة لقد ررنا رشيد ولكن بقى ميناء دمياط، وفي الصباح سوف نمضى إلى البرلس وقلعتها وقلعة دمياط وقلعة تيمه، وقد طوفنا في هذه الأجزاء، وفي اليوم التالى فى السحر ررنا جميع القلاع هنالك وصدر أمر من الكتخدا بأن يمنحنى الوالى خمسين ديناراً من ذهب نفقة الرحلة، فقبلت يده، ودعيت له بالخير، ومضيت وودعت الكتخدا، ونلت منه أربعين ديناراً من ذهب وقماش من الجوخ، وفي هذا اليوم مضيت إلى مدينة بولاق، وهيئت لنا حاجتنا من المأكولات والمشروبات مع خمسين فتى فى السفينة، وركبنا السفينة مع هؤلاء الخدم ومضينا فى طريقنا.



الفصل السابع والستون

بيان ما شاهدنا من قرى ومدن وقصبات فى طريقنا من مصر إلى قلاع دمياط والبرلس وتينه

خرجنا أول الأمر من بولاق ووصلنا بعد ثلاثة أيام فى طريقنا إلى رشيد، فوجدنا قبالة محلة الأمير ترعة عظيمة وهى ترعة البرلس، فوصلنا:

محلة عزبه

وفى سبعة أو ثمانون بيت كما أن فيها قبراً عالياً دفن فيه الشيخ على الكومى، فتجاوزناها وعلى ضفة الترعة:

عزبة الحج

وتألف من مائة وخمسين قرية، وبالقرب من جامعها مدفن الشيخ قشاشى، فتجاوزناها وفى الترعة سحب السفينة ملاحون من الضفتين فصادفتنا قرى تجاوزناها، وتقدمنا فى طريقنا وكان بحر البرلس على يميننا وسدت الترعة عند هذه المحلة إلا أنها تجرى فى بقعة أخرى فيها منبت للأرز، فخرجنا من السفينة وركبنا سفناً فى بحيرة البرلس، وعدنا إلى السفينة، وهذه الترعة تجرى عشرون ميلاً إلى جانب بحيرة البرلس، ودخلنا إلى البحيرة وهى عظيمة طولها خمسون ميلاً وعرضها ثمانون ميلاً إلا أنها بحر ضحل وفيها قارب للصيد، وفى نهاية بحيرة البرلس قلعتها ومن البوغاز يدخل إلى بحر واسع، وفى جنوبها فى إقليم الغربية البحر ليس شديد العمق، إنهم قدروا عمقه بقامة إنسان، وفيه علامات حتى لا تسير فيه السفن لأن فى البحر نخيل فتمر السفن بين هذا النخيل، وفيه السمك أنواع مختلفة، وبين بحيرة البرلس والبحر الأبيض رأس صغيرة، ومضيت فى البحيرة تدفعنا ريح تهب من الشمال الغربى إلى الشرق.

أوصاف قلعة البرلس القديمة

وهي بحيرة تقع في إقليم دمياط، وتتبع إداريًا لبلد دمياط، تؤدي سبعين كسًا وللقلعة حاكم وذلك طبقًا لقانون السلطان سليم، وحاكم آخر وهو قاضي، ويتحصل له في العام خمسة أكياس وفي ناحية منها سبعون قرية، وفي ناحية أخرى بلدة بلطيم، وقد بنى اسكندر اليونان قلعة البرلس، وفي العام الحادي والعشرين للهجرة، وفي خلافة عمر بن الخطاب كان عمرو بن العاص قائد جيش يتألف من ثمانين ألف رجل، وقد وجد في الفتح صعوبة وشدة، وبينما وقف عاجزًا اقتضت حكمة الله أن يشرف بالإسلام هاموك أوغلي حاكم البرلس.

وبفضل منه تم الفتح للقلعة، وعلى مر الأيام تخربت القلعة من تأثير تلاطم الأمواج بها وفي عام ٩٢٣هـ جدد بناءها السلطان سليم، وهذه القلعة تحرس البحر إنها قلعة صغيرة مربعة ومحيطها خمسمائة خطوة، وفي كل ركن من أركانها الأربعة قلعة خرية، وبها باب حديدى يشرف على البحر وفي القلعة ثمانون جنديًا، وجامع بناء السلطان سليم ومنارته على باب القلعة وهي منارة صغيرة وتصل رمال البحر إلى القلعة الآن، وهي تغرق من يوم إلى يوم، وقد رأيت مواضع الهدم في سورها وفيها أربعون مدفعًا وعتادها قليل ورئيس طوبجية القلعة من اللاط، وفي جهاتها القبليّة ثلاثمائة بيت وزاوية، ومقهى ودكان خبز، وليس فيها حمام ولا سوق، إنها أرض رملية تغيب القدم فيها ولكن جوها لطيف إلى أبعد غاية، والناس حولها ينعمون بتنسيم النسيم العليل وبطيخ البرلس مشهور في البلاد بجودته، وفيه نوع يسمى البطيخ الماوى وهو ممتلى في جوفه بماء الورد، وثمة نوع آخر من هذا البطيخ إذا شرب المريض ملئ فنجان منه تم الشفاء له من مرضه، ومن يدمنون شرب الخمر يكرهونها ويتصرفون عن شربها، ويشربون من مائه، ويخلطون ماء هذا البطيخ بملعقة من العسل ويشربونه شرابًا لذة للشاربين، ومن شرب قدحًا من هذا الماء صاح قائلًا آه يا برلس، إنها خمر عجيبة وقد كتب داود الحكيم عن فوائد هذا البطيخ في تذكرته، كما أن سمك البرلس وتمره المخلل مشهور بالجودة إنه على شاطئ الجزيرة، وفي الجانب الشرقى للقلعة وعلى بعد ثلاثمائة

قدم في أرض ذات رمل ست آبار ماؤها عذب فرات، وأهل البرلس قاطبة يُحْضِرُونَ ماء هذه الآبار، وبالقرب من هذه الآبار ضريح الشيخ عيسى بن نجم بن إبراهيم الدسوقي، إلا أن هذا الضريح غاص وسط الرمال وهو يزار ويرفع الزوار الرمال عن هذا الضريح، ولكن لما آلت الولاية في مصر إلى بولاد زاده أمر بنقل جثمانه جميع أهل رشيد ودمياط وسائر القرى والقصبات. وكانوا عدة آلاف كما جاء القاضي والأعيان والأشراف وتجمعوا وحملوا جثمانه وشاهد أولاده نقل جثمانه وسط ارتفاع الأصوات بـ «لا إله إلا الله»، وأطلق المريدون البخور مكبرين مهللين مما يذكر أن كفته أبيض طاهر بعد مرور ستمائة وستة وثلاثون عاماً عليه في القبر فأخذ العجب مأخذه من الناس أجمعين، وحمل تابوته إلى مرج مرتفع بالقرب من شاطئ البحيرة حيث دفنوه، والآن بنى له ضريح عظيم وجامع وتكية، وفضلاً عن ذلك فإن للناس فيه عقيدة راسخة فلا يخلو ضريحه ليل نهار من زوار، كما يقام له مولد في شهر شعبان من كل عام ويحتشد فيه مائة ألف إنسان، والله أحمد أن تيسرت لى زيارته، وقرأت سورة يس على روحه رحمة الله عليه، وقد نظمنا فيه شعراً، بيد أن هذه الأشعار ضاعت بين أوراق المتناثرة، ومن أجل زيارة القلعة تسلمنا من صاحبها مائتا قرش وجواداً ومعنا أربعون من الرجال يحملون البنادق، وحملنا مأكولاتنا ومشروباتنا، ومضينا إلى ساحل الجانب الشرقى من بحيرة البرلس، واجتزنا بأرض ذات نخيل وقرى معمورة.

أوصاف قصبة بلطيم

محلة تتألف من بيت معمور في أرض رملية، وهى التزام تتبع إقليم البرلس، ويسمون صاحب البلدة الحاج بلبل، وإنه رجل رفيع الشأن عامر القلب بالإيمان، وفي ناحية البرلس ثلاثة جوامع، وعلى ضفة البحيرة جامع كبير بناه السلطان منصور، ويقال إنه مدفون في ركن من حرم هذا الجامع، ومساحة هذا الجامع مائة وخمسون خطوة وله منارة تحتانية، وهو مبنى على خمسين عموداً، وبها عشرة دكاكين ومقهى، وليس فيها حمام ولا مدارس.

ضرائح قصبة بلطيم

فى جامع الشيخ أبى الفتح قبر دفن فيه هذا الشيخ، وفى ركن من أركان حرم هذا الجامع قبر الشيخ فتح بن عبد العزيز ابن الشيخ عيسى بن نجم، وقد سبق ذكر ذلك والشيخ عيسى وهو قطب عظيم له ما له من المناقب، إنه صاحب كشف وكرامات وطريقته وهى الطريقة البرهانية، وفى الجانب الشرقى لبلطيم وفى قبر صغير على ضفة البحيرة دفن الشيخ حسن الرفاعى، وقد ظهرت له الكرامات، وفى داخل المدينة على ربوة قبر الشيخ محمد العجمى وفى جانب البحيرة قبر الشيخ محمد البهلول، وبالقرب منه قبر الشيخ علام الله، وفى وسط المدينة قبر الشيخ أبو رواح الطويل قطب عظيم إلا أنه كان قصير القامة جداً، وهو مدفون فى قبر صغير بالقرب من الشيخ محمد الخشوعى وقبره يزوره الخواص والعوام وجميع أهل البلد يتناقلون ذكر مناقبه إنه كان قطباً عظيماً له منزلة السرى السقطى وإذا ما شرب المريض بذات الجنب ماء الورد بجانب قبره شفى هذا الشخص بإذن الله رحمة الله عليهم أجمعين، وتجولنا نشاهد ما فى هذه المدينة، وانعطفنا شرقاً وبلغنا شاطئ البحيرة فى ثلاث ساعات ورأينا غابة من نخيل بين البحيرة وبين البحر الأبيض المتوسط، واقتضت حكمة الله أن يكون لمصر تمر البرلس، والنخلة من هذه النخلات سامقة تحمل عشرين عثكولا وتؤتى عشرين أفة من التمر فهى محلة التمر بتمام المعنى.

واجتازنا حتى بلغنا شاطئ البحر الأبيض المتوسط، واتجهنا فى إقليم الغربية فواجهنا صحراء مترامية الأطراف أشبه شىء بمتاهة، وتسكنها فى الصيف قبيلة الحدية، أما فى الشتاء فتسكن هذه القبيلة فى تلك الأرض ذات النخيل إنهم قوم لانت عريكتهم وحسنت طباعهم ولو لم يكونوا على هذه الصفة لما استطاع أحد أن يمر فى أرضهم، ورأينا فى البحر سفينتين، تبادلان قذف المدافع وإطلاق البنادق فأغارت سفينة الكفار على الشاطئ ونزلوا منها ودخلوا على القرية، ووصلت إليهم بخمسين فارس لمعونتهم وشددنا عليهم فتقهقروا وقد أمطرونا وإبلاً من الرصاص، والله الحمد أننا لم نصب بأذى فتنفس الصعداء كل من كانوا على شاطئ البحر، وأقاموا المتاريس، ولكن الكفار قذفوا

وأطلقوا علينا مدفعاً فرقنا، وحاول الكفار أن يحرقوا السفينة إلا أنهم أخفقوا، ثم قدم من الصحراء سبعمائة أو ثمانمائة لنهب السفينة، فحملوا ما فى السفينة وانتشروا بما حملوا فى الجبال ودامت تلك الحال إلى وقت الغروب، وبعد المغرب أثار الكفار القناديل فى سفنهم، وأطلقوا المدافع حتى مستصف الليل، كما أطلقوا بنادقهم، وفى نصف الليل أحرق الكفار السفينة، فحزن كل من فى المحلة لذلك حزناً شديداً، وبعد ذلك تقهقرت صفوف المغيرين، أما الجرحى من المغيرين فقطعت رؤوسهم ووضعت ناحية، وقد هلك المسلمون لذلك وكبروا، ولكن الكفار أطلقوا النار على المسلمين فما أصيب منهم أحد وبعد مطلع الفجر اشتدت الرياح، فبسط الكفار قلع سفينتهم ونفخوا الأبواق، وعادوا أدراجهم بعد ما خسروا خسائر فادحة وخشينا وأحجمنا عن السير مخافة أن نتعرض لنهب العربان فبحثنا عن جاء لنا من دمياط بمدد ولو ثلاثمائة رجل وخمسة وسبعين قارباً صغيراً، ولم تصب هذه القوارب بأى ثقب والله الحمد وقد سر الناس جميعاً بمقدم هذه القوارب، وعبروا عن ذلك بإطلاق المدافع، ومضوا إلى ميناء دمياط، ومضينا إلى دمياط فى حمى من الجند، وعبرنا نهر يمنى وهذا النهر يجرى إلى المحلة الكبرى، إن نهر يمنى هذا نهر كبير مثل نهر النيل وهو يروى مئآت المدن، وفى هذه المحلة مصب النيل فى البحر الأبيض وتسير السفن فيه إلى حيث يخترق النيل بالقرب من سمنوط ونصف النيل يخلط ببحيرة البرلس بين البرلس ودمياط، ثم يجرى فى الصحراء من هناك وبعد خمس ساعات وباتجاه دمياط بلدة تسمى:

السنانية

وهى تقع على شاطئ النيل، وبها ثلاثمائة بيت معمور وثلاثة جوامع ومقهى، وكان فيها قلعة على عهد الكفار، وآثار مياديتها ظاهرة، وهى من أوقاف سنان باشا، وفيها أقام دلاور بك قصرًا، وجميع أهل دمياط يصطفون فيها. وركبنا سفينة، كما ركب الجند السفن وأطلقنا على أبراج الكفار بنادقنا وسررنا سروراً لا مزيد عليه، وبلغنا الجمرك، ودخلنا دمياط، وكان اليوم عيد الأضحى، وحررنا المحاضر وكتبت رسالة إلى والى مصر إبراهيم باشا.

أوصاف ميناء دمياط القديمة

أكثر المؤرخين الذين وصفوا هذه المدينة، فى أصح الأقوال لهم، أنه بعد طوفان نوح بنى هذه المدينة أحد أبناء أشمون بن مصرام وكان اسمه دمياط، ولذلك سميت هذه المدينة دمياط، ومعنى دمياط بالسريانية قوة وقدرة، أما فى التوراة فاسم دمياط أرلش، وأما فى الزبور فاسمها الدردميه والبيطه وفراغه، وفى الإنجيل اسمها الحضرة، وفى العزية كذلك الدردميه، وفى القبطية دمياط، وبعد الهجرة بثلاثين عاماً، وبينما كان عمرو بن العاص والياً على مصر، كان الأسود بن مقداد قائد ثلاثين ألف جندى، فضرب الحصار على الملك هاموكى فى قلعة دمياط، ودامت الحرب سبعة أشهر بتمامها، إلا أن العرب يثسّوا من فتح القلعة، وكان للملك هاموكى ابن يسمى شيطا رأى النبی ﷺ فى المنام، فهب من نومه فى التسو، فنزل من القلعة فى جوف الليل، ومضى إلى الأسود بن مقداد وأعلن إسلامه، ودله على المواضع التى يمكن الدخول منها إلى القلعة، فمضى إليها معسكر الإسلام ففتحت لهم القلعة بأمر الله - تعالى -، ووضع الملك هاموكى فى الأسر، واعتنق الإسلام أيضاً ابن آخر يسمى كوريجل، وغنم المسلمون كل ما فى القلعة من نفائس، وأصبحت على الدوام مدينة جميلة طاهرة، وأرسلوا من غنائمها إلى عمر بن الخطاب ثلاثمائة صندوق من المال، وبينما كان نور الدين الشهيد خليفة قدم الكفار الأسبان إلى دمياط بألف سفينة واستولوا عليها وسيطروا عليها سبعة أشهر ثم أرسل نور الدين الشهيد وزيره يوسف صلاح الدين على مائة ألف من الجند إلى دمياط وفتح القلعة وأعدم أسرى الكفار جميعاً، ثم عاد إلى دمشق مظفراً يحمل ما يحمل من غنائم، وفى عام ٩٢١ استولى الفرنجة على دمياط، وكان الظاهر بيبرس خليفة على مصر ففتح القلعة، وأعمل القتل فى الفرنجة، ومن بعده فتحها السلطان سليم الأول، إنها مدينة عظيمة من أقاليم مصر تقع فى الجانب الشرقى من النيل، وهى الآن دار إسلام بيد إياس باشا ويعجز اللسان عن وصفها وهى مسنجة لطيف فى إيالة مصر بمثابة الإقطاعية، ويقدم حاكمها إلى ديوان مصر عشرة أكياس فى العام، وائتى عشر كيساً من الغرامات ورسوم نقل البضائع والأسواق، وفى مينائها

سفيتان حريبتان يسافر بهما رئيس القبطان باشا وقد ألحق هذا الإقليم مدة من الزمان بإقليم رشيد، وحينما يغادرها القبطان باشا مسافراً يقوم مقامه فى حكمها مائة رجل، كما أن جمرکہا يحكمه حاكم من طرف الوالى وله أجر يومى قدره عشرة قروش، كما يأخذ من كل سفينة قادمة أو غادية قرش واحد ولكل سفينة عشرة قناطير من الحطب ويتحصل من جمرکہا فى العام مائتان أو مائتان وخمسون، لأن هذا النخل يتعرض للزيادة والنقصان من عام إلى عام، ولها حاكم شرعى يحصل على ثلاثمائة أقبه كراتب شهرياً، واتفق أن نال عشرين أو ثلاثين كيساً، وقد قدمت خمسمائة أقبه صدقة فى عدة أحيان، ويحكم المدينة نائبان الأول النائب الخارجى والثانى منوط به قضاء فارسكور، وتحت حكم قاضى دمياط ست عشرة قرية لأن جوانبها الأربعة بحيرة، أما قضاء فرسكور فحواليها قرى، ويتحصل منها فى العام سبعة أكياس ولدمياط شيخ للإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف وقائد الانكشارية، وعزب وأربعة فرق من الشورىجية، وكثير من الأعيان والأشراف والعلماء والصلحاء والائمة والخطباء والمشايخ والسادات والتجار، وهم كثرة، كما أن حفاظ القرآن لا يدخلون تحت حصر ولكن لا مكان لضرائح الجند بها. ويحرس هذه البقعة ثلاثمائة حارس فى كل ليلة إنها مدينة ذات مرفأ فيها الأمن وعلى شاطئ النيل فى الناحية القبلىة هى جانب ريع الشمال إلى جامع المتبولى ألف ومائة خطوة وهو طول هذه المدينة وعرضها ثمانمائة خطوة، وفى بعض الجوانب ستمائة خطوة ولا وجود لسور محيط بالقلعة من جهاتها الأربعة، والحرس يحرسون فى كل ليلة وعلى شاطئ النيل قلعة صلاح الدين الأيوبي وفى طرفها رباط محاط بسور منخفض، ومحيطه مائة خطوة، وداخلها بيوت خربة وداخلها مخازن للغلال، ومفتاحها فى يد صاحب القلعة وفى هذه المدينة حدائق وبيوت جميلة سطحها من الجص ولكن البيوت فى رشيد أجمل منها وبيوت دمياط مبنية بأحجار مختلفة الألوان، وفيها إدارة شيخ البلد وأربعون محلة ومائة وخمسون محراباً، وفى يوم الجمعة تتلى الخطبة، وفيها كذلك مساجد، وفيها جامع الفتحية وهو جامع كبير يستجاب فيه الدعاء، وهذا الجامع كان فى الأصل كنيسة فى قديم الزمان، وطوله تسعون خطوة

وعرضه أربعون خطوة، وفيه اثنان وتسعون عموداً، وستة منهم من حجر الصوماق وكأنها من العقيق اليمنى، ولا شبه لهذه الأعمدة فى البحر كل عمود منها يساوى خزانة مصر، وعلى هذه الأعمدة سقف حديدى مزخرف، وفى أطراف حرمه أربعة وستون عموداً وهى من الرخام الذى يشبه البللور، وفى حرمه سبيل وصهريج ماؤه عذب فرات، وماء المطر يجتمع فيه وفى الحرم كذلك شجرة نبق وهى دوحة عظيمة وللجامع أربعة أبواب تطل على الحرم اثنان منها يفضيان إلى القبلة والآخران مفتوحان على الجهة الغربية، ومحرا به يقع فى ركن منه، لأن هذا الجامع كان فى الأصل ديراً لليونان ولذلك يسمونه جامع الفتحية محرا به قديم الطراز ومنيره من الخشب وعلى باب منبره تاريخ هو آية شريفة هى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، أنشأ هذا الجامع الحاج شمس الدين بن محمد الطرابلسى المعروف فى شهر رجب الفرد سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، وله منارة من ثلاث طبقات وهى منارة جميلة، وعلى باب قبلته تاريخ تعميره سنة ١٠٨٣، وقد عمره دأور بك.

وامام المحكمة فى وسط سوق مزدحم جامع البدرية، وطوله مائة وخمسون خطوة وعرضه خمس وخمسون خطوة، وله سقف يحمله خمسون عموداً من الرخام، وفى وسط حرمه نخلة سامقة، وهى تساوى منارته فى الطول ومنارته من ثلاث طبقات وهى مزخرفة جميلة، وهذا الجامع تحتانى وله أربعة أبواب بابان للقبلة وبابان جانبيين، وفى حرمه حوض ذو صنوبر وعليه لوحة مكتوب فيها، وفى أطرافه صناير كتب على باب منبره: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣].

وعلى شاطئ النيل بالقرب من سوق الغلال جامع البحر، وطوله وعرضه مائة وثمانون خطوة، ويعلوه على أربعة وثمانين عموداً سقف ملون مزخرف باللوان مختلفة، وله سبعة أبواب ومنارة من ثلاث طبقات.

وفى سوق الأرز جامع كبير بناه خواجه أمين الدين المعينى، وله قبة عالية ويصعد إليه بسلم حجرى من ثمان درجات، ولا يخلو من المصلين ليل نهار وكأنه جامع السلطان برقوق فى العادلية فى مصر، خالٍ من الأعمدة وعلى جوانبه الأربعة قباب

تشبه طاق كسرى ووسط الجامع مكشوف، مرصوف بالرخام وفى كل ركن من أركانه صفة عظيمة إنه جامع وسيع ومحرا به مزين بالأحجار الملونة، ومنبره أيضاً، وجوامع دمايط فيها من جوامع الأقطاب أكثر مما فى رشيد، كما أن فيها كثير من الزوايا.

ومن هذه الزوايا زاوية الأربعين فى السوق، كما يوجد مسجد يسمى مسجد القباني، وقد بنى منذ فتح عمر لمصر، وفى الجانب الأيمن حول هذه الزاوية دفن أربعون من الصحابة وإلى جانب صناديقهم خشب منجوو كتب عليه بخط جلى هذا التاريخ: (برسم العبد الفقير إلى الله تعالى القاضى شهاب الدين سنة عشرين وثمانمائة).

وفى هذه المدينة سبع مدارس وإحدى عشرة تكية وثلاثمائة سبيل ومن هذه السبيل سبيل رضوان جورباجى، وهو فى الجمرى وقد بنى بالقيشانى، وكواته من النحاس الأصفر، ومشرته مقيدة بالسلاسل، ومشاربه مجلوة ومذهبة ولما كان صاحب هذا السبيل على قيد الحياة كان فى يوم عاشوراء يتصدق على أرواح شهداء كربلاء بالعلل فى ثلاثة أيام وبالسكرك فى ثلاثة أيام أخرى، وقد أقيم على هذا السبيل مكتب للصبيان كانه قصر عظيم وفيه ثلاثمائة صبي يتعلمون القراءة والكتابة، وفى كل سنة يتسلمون راتباً، وعلى كواته تاريخ هو (حبذا هذا السبيل الذى مائه كماء الحياة الذى أقامه إسماعيل رضوان سنة ١٠٨٦).

وفى داخل السبيل كتب تاريخ كذلك على القيشانى، وجاء فيه (بارك الله فى هذا السبيل فثمة ثمانون غيره).

كما يوجد أربعة حمامات وهى التى أقامها رضوان الشورباجى فى السوق، وثمة ثمانية عشر خاناً أولها خان مصطفى شورباجى وخان الحرمين، وخان مصطفى جلى وخان الحويلية وخانان لـ (بيرى جورباجى)، خانان أيضاً للأرناؤط. وخان بن راجع، وخان عنبرى زاده وخانان لتكلى شورباجى، وخان ذو الفقار كتحدا القديم، وخان عباس وخان جعدى وخان بن فار المسمى صبحان أوغلى، وخان طيناويه، وخان القفاصين، وخان القاضى، وعبد الرحمن باشا حينما كان متولى مصر بنى خاناً على ضفة النيل كانه القلعة بإذن من كورجى ذو الفقار كتحدا، وقد جلبت جميع الأحجار

التي بنى منها هذا الخان من مصر ولا يوجد في دمياط بناء من حجر ما عدا هذا الخان والجامع الكبير، وله بابان وبه مائة حجرة، كما يوجد اثنان وثلاثون مقهى فيها، أما في السوق فعدد المقاهي ست وهو خان كبير وفي حرمه حوض ذو نافورة، وعلى جانبيه مقاه فيها عارفون ومداخون وراقصون وفي هذه المدينة مائتان وستون شوارعاً وكلها شوارع واسعة نظيفة، وفي أطرافها أسواق سلطانية، وبها ألفان من الدكاكين، كما أن بها ثلاثمائة طاحونة تديرها الخيول، كما يوجد بها طواحين للزيت، كما يوجد ستمائة مصنع، كما أن فيها محلة لليهود ومحلة للقبط وسبع محلات للكفار، كما يروح الفرنجية والأرمن ويغدون ولا وجود فيها لسفراء الفرنجية كما أن بها سبع كنائس وأربعون حانة وستمائة بيت وبها مائة وأربعون مضرباً للأرز لأن دمياط أرض الأرز، أما الحبوب التي ترد من الصعيد غالية الثمن وبها ثلاثة آلاف مخزن وبها ثلاثة آلاف صياد يصيدون السمك من دمياط ويصدر السمك المملوح المكبوس والبطارخ من دمياط إلى بلاد الروم وإلى بلاد الفرنجية، لأن هذه المدينة فيها أنواع كثيرة من السمك، وفي إدارة شيخ هذه البلدة آلاف الموظفين وحملاء لله فليس فيها بيوت للدعارة كما هو الشأن في باب اللوق، كما أن النساء في هذه المدينة لا يخرجن إلى السوق وعندهن أن الخروج للسوق عيب كبير، وفي الليل توضع المصابيح في المنازل، والشرطة في النهار قليلون وأكثر الناس فلاحون، وهم كادحون قادرون على الكسب مقتدرون، والأعيان يلبسون الجوخ والحرير، والفقراء ومتوسطو الحال منهم يلبسون الثياب الملونة، والنساء يضعن على رؤوسهن قلانس من الذهب الأحمر والفضة كما أن النساء يضعن على وجوههن سود البراقع كما يتعلن نعالاً زرقاً وإذا ما خرجت امرأة إلى الشارع نهاراً قتلت كاتنة من كانت، ولكن يؤذن لهن في السعى في جنازة موتاهن من ذوى قرباهن.

إن أهل هذه المدينة أهل ذوق، ويقام حفل رفاه مرة في كل ليلة فيرتفع الضجيج وفي أطراف هذه المدينة الأربعة ستة وستون من البساتين وحدائق رضوان، وتور الليمون والسفرجل كثيف بحيث أن أحداً لو مر من بينها لتشم شذاها، وفي كل حديقة حوض وشادروان وحقيقة الأمر أن حدائق رضوان شورباجي رفو الفقار كتخدأ كأنها حديقة

إرم، وجو هذه المدينة لطيف للغاية كما أن فتياتها وفتياتها غاية في الحسن، كما أن أهلها يحبون الغرباء ويكرمون وفادة الضيف، وأهلها يتاجرون في السمك والأرز والسكر وغير ذلك، ويجرى إلى وسط المدينة خليج عظيم ينشعب من النيل وعلى جانبي المدينة قصور شامخة تطل على الخليج نوافذها، كما أن بعض أصحاب هذه القصور يقفون في النوافذ ويصيدون السمك كما أنهم يتصدقون على الفقراء كما أن الصبيان فيها يتردون ويسبحون في هذه التربة، ويتعاقبون في دابة، وفي هذا الجانب قصور جميلة شامخة متعددة الطبقات، وأثناء فيضان النيل تتدفق مياهه إلى بعض هذه القصور، وبعض المنازل فيها زوارق لمواجهة ذلك ويركبون فيها ليمضون بها إلى حيث يريدون، وترسو هذه الزوارق عند السفينة.

وفي الشمال من هذه المدينة على ربوة مقبرة وبرج مربع وهو برج مرتفع وفي زمان الكفار كانت جزيرة قبرص تبدو منه وإن كانت مشاهدة قبرص تمس الحاجة فيها إلى نظر جد حديد والأرز من أطيب المأكولات في دمياط، ويورد الأرز من دمياط إلى سلاطين آل عثمان، وأرز المنزلة وفرسكور لا وجود لمثله في العالم كما تشتهر دمياط بالسمك والبطارخ وإلى جانب ذلك الجميز والخيز الأبيض والحرير الملون والمور.

وفي بوغاز دمياط قلعة تشبه قلعة رشيد.

أوصاف قلعة دمياط العتيقة

بناها السلطان سليم الأول حين فتح مصر، وقد فتحها الأسود بن المقداد حينما فتح عمرو بن العاص مصر، ولم يبق أثر لهذه القلعة، وهي الآن مبنى متين تقع عند التقاء النيل بالبحر الأبيض، ومحيطها خمسمائة خطوة، وعلى جوانبها الأربعة بروج، ولها باب يطل على الجنوب، وفيها جامع السلطان سليم، وفيها رئيس من المتفرقة، وطبقاً للقانون، وفيها مخزن للأسلحة ومدافع وأربعون قذيفة، وخارجها في الجانب الأيمن مدفع، ولا وجود لمثله والله أعلم. وهذا المدفع يقذف قذيفة تزن أربعون أوقية، ولا خندق حول هذه القلعة لأن الأرض حولها منخفضة وهي قرية من الشاطئ، وسورها

منهدم فى كثير من المواضع، وقد ركبنا قاربًا ومضينا إلى حيث يلتقى النيل بالبحر، وضليت ركعتين ورفعت إلى الله كفى الدعاء، ويقول علماء دمياط إن هذا الموضع هو الذى ذكر فى القرآن بـ ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ (الرحمن ١٩)، هو الذى التقى فيه موسى - عليه السلام - بالخضر، ولكن ثمة جدال محتدم بين علماء رشيد فيما يتعلق بهذا الشأن، ولكن جاء فى تفسير السيوطى أن مرج البحرين المراد بالبحر فيه البحر الأسود، وبحر الخزر هو بحر كيلان، وبعضهم يقول أنه بحر الأبواب، وهو بحر ليس فيه مصب وهو ثلاثة أمثال البحر الأسود وهو بحر عظيم، ومرج البحرين المراد بهذين البحرين: هما البحر الأبيض الذى هو بحر الروم الذى يختلط بالنيل ولذلك يسمى بوغاز دمياط مرج البحرين، وبعضهم يذهب إلى أن بحرًا كبيرًا قد اختلط بنهر عظيم وهذا ما يسمى مرج البحرين، أما لقاء الخضر بموسى - عليه السلام - فكان على شاطئ النيل، وقد قدم الخضر فى سفينة، وفى هذا الشأن وقع الخلاف بين علماء دمياط ورشيد، أما قول علماء دمياط فهو القول الصحيح، وركبت بعد ذلك مع حاكم القلعة قاربًا وفى قبالة القلعة الشرقية القلعة الغربية.

أوصاف القلعة الغربية المقابلة للقلعة الشرقية

بناها فى عهد السلطان أحمد خان طواشى المتفرقة جعفر أغا حسيب الله، أما قلعة عبد الصمد فهى المشهورة إنها قلعة صغيرة، مستديرة، على شاطئ النيل، ومحيطها مائة خطوة وفيها برج متين، وقد ضمت إليها من بعد قلعة طاييه وهى أيضًا متينة الأركان وفيها خمسون مدفعًا، ولكن المدافع الكبيرة فى هذه القلعة، وهى تطل على البوغاز، ولها رئيسها وخمسون جنديًا وعملهم هو صيد السمك والحمام والسَّمان، وتقع فى أرض زملية ولها باب على الجهة القبلية، وفيها أربعون أو خمسون حجرة، وليس فيها متزوج وكل من فيها من العزب، وقد زرتها ووجدت أن عشرة من جنودها غير موجودين فسجلت أسماءهم وعرضتها على الباشا ومضيت إلى القلعة الشرقية من القلعة الغربية ودفعت أجرة انتقال عشرة قروش وركبت فى زورق إلى دمياط.

بيان الأولياء الذين عرفناهم فى زيارتنا فى مقبرة دمياط

عندما بعث الملك هاموك ابنه الشيخ لفتح قلعة دمياط وأسلم على يد الشيخ شطا والأسود بن مقداد، وبعد الفتح أمر الأسود بن مقداد الشيخ شطا بعشرة آلاف جندى وفتح قلعة شوم وقلعة البرلس وقلعة الدميره وفى العام نفسه حينما كان يفتح قلعة التينه أصيب بجرح وكلمة شطا شطا بمعنى قطعة قطعة ولذلك سعى الشيخ شطا، جاء فى رواية أن شطا موضع فيه رمل كثير كثير، وذلك لأنه دفن فى أرض ذات رمل وقد مات شهيد حرب، وصعدت روحه الشريفة إلى بارئها، وقد نقل جثمان الأسود بن مقداد إلى دمياط، ودفن فى ضريح على شاطئ بحيرة دمياط على مسيرة نصف ساعة من الجانب الشرقى إلى دمياط، ولأنه استشهد فى الخامس عشر من شهر شعبان يقيمون له مولداً فى هذا اليوم، ويأتى الناس من دمياط والقرى والقصبات الأخرى أربعون أو خمسون ألف رجل ويقيمون فى الخيام ويمكثون ثلاثة أيام بلياليها يزورون ضريحه، ويأتى كذلك قائم مقام دمياط وأعيانها لزيارة هذا الضريح ويمكثون فى الخيمة ويمد سماء عظيم لمن ينعمون بأطياب الطعام ثلاثة أيام بلياليها، وينفق على ذلك من مال مصر، ويخاسب الوالى على تلك النفقات، وهذا قانون قديم، وضريح الشيخ شطا مربع الشكل وكأنه قلعة ومحيطه ثلاثمائة خطوة.

ويسكن فى هذا الضريح إمام ومؤذن وحارس القبور، وبجانب الضريح زاوية، وفى حرمه صهريج، وفى كل عام يحمل الماء من النيل على ظهور الجمال ملء هذا الصهريج بالماء وإذا ما فاض منه الماء أصيبت الجمال بالجرب وإنها لحكمة عجيبة.

وجملة القول أن ثمة ضريحاً عظيماً يزوره الناس خواصهم وعوامهم، وقد دفن فيه الشيخ أبو المداين والشيخ درغام وفى جامع الشيخ متبولى دفن الشيخ متبولى والشيخ سيدى فاتح أبو العطا، وبالقرب من جامع الفتحة ضريح ذى الجناحين، وبالقرب من البوغار ضريح بين الموجتين، وبالقرب من المنظر بين الفرضين، وفى حديقة فى شمال المدينة ضريح للشيخ جمال الدين المولوى وفيه سماع خانة من عدة غرف ومطبخ،

وأرضها كأنها الجنة إنها تكية للقلندرية وفيها المريدون، وجميع أهل دمياط يأتون إلى هذه التكية لينعموا بالأنس والبهجة، وفي ركن من أركان هذه الحديقة قبر لأحد صلحاء خُرَّامان وهو مستجاب الدعوة وصاحب سجاده وله آلاف العشاق، وبالقرب منه الشيخ سيد فتح الأسمر، وبجواره الشيخ سيد أحمد ابن الشيخ عبد السلام، وهو مدفون في ضريح عال وبالقرب من السيد فتح ضريح الميدان الأخضر، وبالقرب منه مقام الشهداء، وبالقرب من خراط القنطرة رائد طريق الناس الشيخ أبو العباس، وهو قطب عظيم، ومزار صاحب الأديان وهو دار ضيافة للغادين والرائحين، وفي داخل التكية وَيَسْمُون كل متعلقاته بالأسود وفي زاويته جمع كبير، ولا ند للشيخ جليبي، إنه شيخ صالح عابد زاهد يلبس العمامة السوداء، وجميع المريدين فيها يلبسون السواد ويرفعون العلم العباسي الأسود، وبالقرب من الشريف عثمان الشربلزي والشيخ عباس والشيخ حسن الطويل وفي جامع قبر الشيخ علي العباسي وبالقرب منه الشيخ سيد محمد النعماني وبجواره الشيخ كرماني وبالقرب منه الشيخ علي السقا وفي شمال جامع المتبولى على شاطئ النيل تكية في حديقة كأنها حديقة إرم، وفي وسطها قبر دفن فيه الشيخ على نبيط، وهو قطب عظيم من زاره خمس مرات شفى من مرضه بإذن الله، وعلى شاطئ النيل حدائق كأنها الجنات في داخلها قصور وأحواض، وأشجار يجلس الأصدقاء في ظلها، إنها موضع يزوره أهل دمياط ويتنزهون فيه وبالقرب من هذه الحديقة الشيخ عبد الرحمن زلطي، وبالقرب من مسجد الفتح الشيخ منياوى وبجواره سيد أحمد شناوى، وهو من أقطاب الطريقة البرهانية وبجواره ستي الوالدة الستي استشهدت حين الفتح، وهى من النساء الصالحات، ويجتمع عندها حشد من النساء فى كل يوم سبت لزيارتها، وبالقرب منها الشيخة ست شامية، وبالقرب منها الشيخ سيد أصيل، وبالجوار منه سيد عبد الله الشريف، وفي سوق اللبن الشيخ خثعم، وفي سوق السمك الشيخ شانه، وبالقرب من حمام رضوان الجورياجى الشيخ الحيشى وفي حارة المنشى الشيخ عمرو أبو العباس، وبالقرب منه الشيخ العصفراتى والحيشى وبالقرب منه الشيخ أبو عصيبة وفي غيطان الشعراء سيدى محب الدين يقام له مولد عظيم كل عام.

وفى بلدة المنيا دفن الشيخ إبراهيم أكبر المنياوى، وقرية المنيا بها مائتا بيت وحدائق وبساتين ونخيل، وفى شهر رجب من كل عام يقام له مولد عظيم، وفيه يحتشد خلق كثير، والمريدون من جميع الطرق يقولون لا إله إلا الله ويقومون بالذكر فى الحدائق ولا يمنعهم أصحاب الحدائق من ذلك، وبالقرب من الشيخ إبراهيم الشيخ مظلوم، وعلى الطريق العام حديقة فيها تكية صغيرة بها قبر صغير دفن فيه الشيخ مظلوم، ويقام له مولد كذلك فى منتصف شهر رجب، وبالقرب من جامع المتبولى الشيخ مسلمى، وبالقرب من حارة البركة الشيخ أبو الطيب، وبجواره الشيخ على الحداد، وفى حارة سيد أبو الفتح الشيخ أبو يوسف، وجواره سيدى سعيد، وفى قرب القنطرة الشيخ أبو النصر، وعلى مقربة من المرقب السبع بنات وضريح الأربعين وفى السوق فى مسجد العبتانى، وفى حارة المرقب الشيخ سلطان وإلى جواره سيدى على لوفيه وفى جوار المنشية قبر الشيخ أبو قريه وبالقرب منه الشيخ حمام وعلى مقربة من خان الشيخ رضوان الشيخ عبد الغنى وبالقرب منه الشيخ شرباصى، وبالقرب منه الشيخ مفتاح وهو مدفون فى ضريح عظيم يقام له مولد عظيم كل عام، وبالقرب منه الشيخ خطاب وبالقرب منه قبر الشيخ زندان وبالقرب منه قبر الشيخ شربازى، وبالقرب منه قبر الشيخ محمد العراقى وقبالة دمياط على شاطئ النيل سيدى الشيخ شديد، وبالقرب منه سيدى عثمان الصياد - رحمة الله عليهم أجمعين - نفعنا الله ببركاتهم، وثمة قبور صغيرة وكبيرة لغيرهم ذلك أن أهل دمياط محبوبون للأولياء ولا وجود فى رشيد لضرائح مثل ضرائحهم لأن هذه المدينة مدينة قديمة، أما رشيد فأنشأت حديثاً، وقد غرق أهل رشيد القديمة فى كوم أفرح والله أحمد أنى رزت ضرائح مائة ولى من أولياء الله فى دمياط وقرأت لكل ولى سورة يس وسورة الفاتحة واستمددت من أرواحهم العون لى، ولكنى ذكرت هؤلاء الاقطاب فقط حتى لا يطول بى الكلام، أما إذا شئت أن أعدد مناقب كل منهم لاستوجب ذلك منى مجلداً ضخماً.

ثم أرمِلْ لنا الباشا فرقة من مَن يحملون البنادق وعددهم خمسون، ومضيئنا مع عشرين ملاحاً نحمل طعامنا وشرابنا من دمياط، ووصلنا إلى حدائق الجانب الشرقى، ونحوّلنا بها فوق صهوات جياندا نصف ساعة، ومضيئنا ثم انطلقنا إلى بحيرة تينة.

أوصاف قلعة تينة

مر بنا أن الشيخ شطا فتح قلعة تينة واستشهد فيها، إنها قرية مربعة الشكل فى كاشفية حاكم العريش. ومُحِيطُهَا خمسمائة خطوة. ولها باب تجاه القبلة، وبها أربعون بيت صغير، وجامع للسلطان سليم، وثلاثون مدفعاً ومخزن للذخيرة، ورئيسها من المتفرقة، كما أن بها مائة جندي، وليس لها حدائق على شاطئ البحر بل أرض رملية، ولا أمان فيها من اللصوص، اللهم عافنا، وقَلِّ الماء والخبز السلذان كنا نحتاج إليهما للمضى إلى دمياط وبحيرة المنزل بحيرة كبيرة يصل طرفها القبلى إلى العريش، وطرفها الغربى بدمياط والتزامها فى العام عشرة أحمال من الاقحجة، وبها أسماك جميلة الألوان. وفى هذه الليلة نزلنا ضيوفاً على رئيس القلعة ورأينا جماعة من الناس نحتل أجسامهم يقتاتون بسمك بلا خبز، ودفعنا عشرة قروش لمشاهدة القلعة ومضينا إلى ضريح الشيخ شطا، وركبنا السفينة ووصلنا إلى نهاية البحيرة بعد ساعة، وأرسلنا من قبلنا واحداً إلى دمياط فأحضر الخيل لنا فشاهدنا على الجانبين الحدائق المزهرة، ودخلنا دمياط، وأرسلنا إلى بيوتنا فى استانبول كثيراً من الأرز والعدس والبقول والحمص، وودعنا خليل شورباجى زاده ومحمد جليى وأمثالهم. ونلنا من الباشا ثلاثمائة قرش وعشرين ثوباً منقوشاً من ثياب دمياط ومائة منشفة، وحملنا طعامنا وأسلحتنا فى سفينة وتوكلنا على الله ومضينا إلى الكنانة.

الفصل الثامن والستون

وفى رحلتنا إلى مصر فى سفيتتنا شاهدنا على ضفتى النيل الحدائق المبهجة وخرجنا أولاً من دمياط ومضيئنا مسافة قدرها ستون ميلاً ومقابل دمياط أرض خالية سبخة، ولا وجود فيها لعمران ولكن فى طرف دمياط حدائق من قصب السكر، وفى هذه الديار يسمونها القرى وبيوتها أكواخ ولا وجود فيها لبيوت فخمة، لأن فى أرضهم ينبت الأرز، وأرضهم أرض مستنقعات ولا تحتل بناءً ثقيلاً، ولا تروى فيها أرض الأرز ولكن فيها القمح وليس فيها فول ولا حبوب لأنها أرض ذات ماء والأرز ينبت على الدوام فى الماء يا له من مشهد عجيب.

وفى هذه الأرض يفيض ماء النيل ولا ينقص وقد اجتزنا القرى التى فى أرض دمياط إلى فارسكور.

أوصاف منزل فرسكور فى مدينة فارس القديمة

إنه منزل بناه الملك فرسكور بن مصرام، وقد عمر ألف سنة وملك مائة بلد، وكان له مائة ألف فارس جوادهم أبلق وألف فارس جوادهم أشهب، وهى إقليم التزام دمياط وقضاء بدر مائة وخمسون أقبه إلا أن هذا المبلغ يمنح غالباً لقضاة دمياط وفى هذه الناحية قرى تزرع الأرز فيها كلها، وعلى ضفة النيل مدينة تبعد عنه مائتى خطوة وتقع على ربوة وبها ألف بيت وسبعة عشر محراباً وست منارات وثلاثمائة دكان، وثلاث مقاه وحمام، ولكنها تخلو من السوق والعمارات والمبرات والسبل والمدارس، ولكن فيها ثلاثة خانات عظيمة، ويقام فيها سوق مرة كل أسبوع، ويتكسب أهلها من حياكة الثياب المنقوشة ولكل منهم طرز، وبها ثلاثمائة دكان تقدم المال إلى الملتزم إنها مقر لمن يصنعون الثياب المنقوشة وأرز وثياب فرسكور واسعة الشهرة.

وتينه التى زرتها تقع شرق البحيرة المذكورة، وجوها لطيف وبها كثير من النخل والحدائق، وبين دمياط والنيل مدينة جميلة وفى قبالتها:

كفر سليمان أغا

فى إقليم الغربية وبها جامع ذو منارة وثلاثمائة بيت وتجاهها فى إقليم الشرقية:

بلدة شرياز

وبها مائة بيت وجامع ومنارة وقرى معمورة، وفيها قبر دفن فيه الشيخ شرياز، وبهذه المحلة تتم حدود دمياط، وهي تحت حكم حاكم الشرقية وقبالتها في أرض الغربية:

بلدة ميت أبو غالب

وبها جامع ذو منارة ومائة وخمسون بيتاً ومقهى، وعند هذه المحلة يتعرج النيل تارة ذات اليمين وتارة ذات اليسار وقبالتها في أرض الشرقية:

بلدة رأس الخليج

وهي التزام، وبها ثلاثمائة بيت، وبها جامعان، ووكالتان ومقهى وستة دكاكين، وقد دفن فيها الشيخ غزوان، والشيخ حسن أبو تقى الدين، والشيخ محمد عجمي وعلى بعد عشرين ميلاً جنوبها وفي إقليم الشرقية:

بلدة ميت أبو عبد الله

ويسمون القرية ميت وهي التزام وبها مائة بيت وجامع ذو منارة، وتجاهها في أرض الغربية:

بلدة طهره

وبها مائة وخمسون بيتاً وجامع وقبالتها في أرض الشرقية:

بوشاط

وعدد بيوتها مائتان، وبها جامع ذو منارة. وفي المقابل منها في أرض الغربية:

بلدة دنجى

وبها جامع وفي جانب المنصورة بلدة أبادان.

أوصاف محلة مشاق

إنها التزام الكتخدا القونداقجى مصطفى وبها ستمائة بيت وجامع ومقهى ووكالة، وفيها أسواق صغيرة، ولا وجود فيها لحمام ولا سبيل، وتجاهها في أرض الغربية:

مدينة المنصورة

وهي في الجانب الشرقى، وقد عبرنا إليها، وتجاوزناها خمسين ميلاً وبلغنا مدينة سرسنة.

أوصاف محلة شربين

إنها محلة كبيرة فى إقليم الغربية وهى قضاء كبير يدر مائة وخمسين أقجه ويمنح قاضيه مرتباً، وفيها أربعون قرية معمورة، ويتحصل منها أربعة أكياس وبها ألف بيت وسبعة وبها سبعة محاريب كما أن بها جامعاً كبيراً له منارة تتألف من ثلاثة طوابق، وبها كذلك خمسون مسجداً ومدرسة وخمسون دكاناً، وأربعة مقاه يجتمع يوم الجمعة خلق كثير فى السوق وبجوارها:

كفر شربين

وبه مائة بيت وهو التزام، وتجاهه فى النيل جزيرة صغيرة وفى الجهة المقابلة حدود كاشفة المنصورة، وهى كاشفة معمورة قضاءها يسمى قضاء مشاق، وقد سلف ذكر بلدة مشاق، وتقع هذه البلدة فى سهل منحرف فى شربين اجتزنا هذه المحلة إلى شربين، وقبالتها فى إقليم المنصورة:

بلدة بدرى

بها مائة بيت وجامع وهى التزام، وتجاهها فى إقليم الغربية:

بلدة بترا

وبها ثلاثمائة بيت وجامع ومقهى وهى التزام ويعدها وفى جنوبها فى إقليم المنصورة محلة برمبال.

أوصاف محلة برمبال

إنها التزام، وبها مائة بيت وقد سألنا شيخ البلدة عن مقدار ما تؤدى من مال للدولة فما عرف، وبها عدة جوامع ومقاه ومساجد وخانات ودكاكين، وإنها بلدة فى مهب الريح ولا أعرف حماماً بها، وفى تجاهها فى إقليم الغربية.

بلدة دياسط

وفيهما دفن الشيخ دياسط، وتجاهها فى إقليم الغربية:

بلدة الخيارية

وقد وجدت بها ثلاثمائة بيت وجامع ذو منارة جميلة وفى جانب الغربية:

بلدة تاش

وبها ثلاثمائة وخمسون بيتاً وجامع ومقهى، وفي شرقها ولاية دقهل.

أوصاف ولاية دقهل

مدينة المنصورة أول من بناها أحد أبناء نوح أبو القباط بيطر بن حام الأخ الأكبر لسام، وابن بيطر هذا يسمى دقهل، ولذلك تسمى ولاية إقليم المنصورة باسم دقهل، ومن بعد استطاب جوها من سلاطين مصر الصالح أيوب فزاد في عمرانها فأصبحت كأنها روضة الجنات، ثم قدم إليها الأسبان الملاعين بسفنهم فاستولوا عليها وأقاموا بها ثم أغار عليها الملك الصالح أيوب انطلق نحو غزة، ثم رجع فاستعاد مدينة دمياط، أول الأمر، ثم استولى على مائتي سفينة للكفار، وعسكر في المنصورة معسكراً للكفار، وطوال سبع ليالٍ لم ينجو الكفار من الهلاك وهذا مسطور في جميع التواريخ، ولذلك سميت مدينة دقهل بالمنصورة، وفي عام ٩٣٢ غادر الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب مصر الكنانة واتخذ المنصورة حاضرة لملكه، وعمرها ولم يبق الآن شيء مما شيده، وفي هذا العصر أقام له قصرًا على شاطئ النيل وبقي منه الآن قصر صغير أمام قصر كاشف المنصورة، وقد وافاه الأجل في المنصورة، ونقل جثمانه إلى مصر ودفن في جامع، وبعد ذلك بعام شب حريق في المنصورة وأتت النار عليها بأكملها حتى صار المعمور منها كذرة في الشمس أو قطرة في البحر، والآن يعمرها الناس والمخلوقات.

الحمد لله وحده علم بما في مدينة الصالح أيوب أي مدينة المنصورة من ولايات مصر المحروسة من المساجد والوكائل والمدرسة والحمامات والأسواق وضرائع الأولياء نفع الله تعالى المسلمين ببركاتهم في الدنيا والآخرة آمين يا معين، ولهذا ذكرنا ووصفنا مدينة المنصورة، إنها كاشفية أخرى في مصر لكن مع كونها حكومة كبيرة والعرب يغيرون عليها من وقت إلى آخر لذلك منحت لامراء مصر، وليس في قراها زعامة ولا تيمار ولكن فيها سبعمائة وسبع وثمانون من القرى والقصبات والمدن، وكلها التزام، وهذه القرى المذكورة تقدم في العام ثلاثمائة كيس إلى السلطان إنها قضاء شريف.

وفي هذا الإقليم:

قضاء ميت غمر

قدم مائة وخمسين أقبه، وهى قضاء شريف، وقد ضم هذا القضاء إلى المنصورة، ومنها يتحصل حوالى عشرة أكياس، وحاكم المنصورة يقدم المال الاميرى، وهو ملتزم يقدم فى الصيف والشتاء أربعين كيساً، ويفيض له عشرة أكياس، وقد يقدم عشرين كيساً ولهذه البلدة أربعة يفتون على المذاهب الأربعة ولها نقيب أشراف وقائد للانكشارية وعزب، ولكن الجند كثير، وعلى شاطئ النيل حدائق كثيرة وورود وريحان ورياض وتسعمائة بيت جميل وقصور فخمة وهى مدينة جميلة، ومن ظهر عليها على بعد ميل أظهر إعجابه بها، وبها ثلاثمائة محراب وفيها جوامع للسلطين والعظماء والأعيان وبين السوق السلطانية والمحكمة والجامع الكبير، وهو جامع السلطان الصالح، وطوله مائة وثمانون خطوة وكذلك عرضه، وله سقف منقوش مقام على ثمانين عموداً من الرخام، ومنارته من ثلاثة طوابق وله قبة، وعلى بابها الأيمن كتب عليه (تعمير رجب شورباجى سنة ١٠٨١)، إنه جامع عتيق، وعلى شاطئ النيل جامع الصغير وجامع المحمودية وجامع آخر على شاطئ النيل أيضاً طوله وعرضه مائة خطوة وعشرة، وله بابان جانبيان وباب للقبلة ومنارة على الطرز الرومى وهى من طابق واحد، وداخل الجامع خمسة عشر عموداً وليس له حرم، أما على شاطئ النيل فله موضع فى جوانبه الأربعة صفوف وهو موضع يستحق المشاهدة، ويجتمع الناس تحت ما به من أشجار الجميز والصفصاف وبعضهم يصيد السمك من إحدى مواضعه، وبعضهم يتوضأ وبعضهم يصلى، وبه دار شفا ومقهى يشرب فيها القهوة اليمنية، إنه مكان للراحة والمتعة وبعد الأذان والصلاة يشنون ويترحمون على محمود بانى هذا الجامع.

وعلى شاطئ النيل فى الطريق العام جامع يقال عنه «كاشف النيل»، وهو مرتفع أبيض وهو وقف متين وكان غاية فى العمران فى حياة صاحب الدويرات، وفى السوق جامع رضوانية، وجامع الحيدرية وجامع أمير على الفرحانى وجامع ريحانية وجامع الخطاى وجامع السادة الكنانية يقع على شاطئ النيل، بل فى جنوب المدينة وعلى شاطئ النيل والطريق العام جامع إدريس وجامع ابن قانصو، وجامع جعفر أغا كان فى الأصل

زاوية ثم أعيد بناءها لتكون جامعاً. وفي نهاية الناحية الشرقية للمدينة جامع مصطفى أغا الجديد، وهذه الجوامع سالفه الذكر عامرة بالمصلين، ولا نعرف جوامع أخرى.

الزوايا

أما الزوايا فمئها زاوية الشيخ الملباوى وزاوية منية الدولة وزاوية الأمير حسن وزاوية ابن جعفر، وزاوية الغرابى، وفي السوق زاوية المعلقى وزاوية ابن ياسين وزاوية الشيخ ابن عامر وزاوية مقدم فرهاد والزواوية الحمراء، وقد صلينا فى تلك المساجد التى سبق لنا ذكرها، ولا نعرف غيرها وعلى شاطئ النيل ست مدارس وسبعون مكتباً للصبيان، وأربعون سبيلاً وحمّامان ولا يوجد سواهما، كما يوجد ثمانى عشرة وكالة أولاً خان أمير دلاور وخان الأمير مصطفى وخان المحمودية وخان الكنانية وخان الأمير أحمد وخان عورت وخان مالكى وخان ابن ياسين وخان الشيخ عبد الوهاب وخان مسلماني وخان القاضى أحمد وخان النيل وخان القفاصين وخان خشب وخان حطيبة وهذه الخانات وكالات معمورة، ولا وجود لمبانٍ أخرى واثنتان وأربعون ربّعا فيها غرف للمريدين المتزوجين، وثمة أربعون أو خمسون خاناً يسمى كلّ واحدٍ منها الربع، وسبع معاصر أى طواحين زيت، وخمسة وسبعون طاحونة تديرها الجياد، وفيها من المقاهى أربعون مقهى ومائة وخمسون دكاناً ولكن ليس فيها سوق قائمة بذاتها، ولكن لكل شىء، ويقام سوق عظيمة مرة فى كل أسبوع يحتشد فيها أربعون ألف أو خمسون ألف إنسان، إنها سوق القمح وسوق السمك، وسوق الخيل وسوق الغنم وسوق الفاكهة وسوق الثيران، وهذه الأسواق توجد فى أماكن أخرى وعورت بأزارى تقع على شاطئ النيل إنها سوق عجيبه، وطرق هذه الأسواق غير نظيفة أما بقية طرق الأسواق فطرق واسعة نظيفة، وتظلّل جميع الأسواق نخلات، فيتألف منها سقف عليها، وبذلك تكون الأسواق طيبة الهواء عند اشتداد الحر وطول هذه المدينة على النيل ألف ومائة خطوة، ولجمالها وجمال جوها يتميز فتيانها وفتياتها بالجمال، وأهلها يكرمون وفادة الغرباء، وفيها عظماء الأعيان، فهم يبدلون القرى للمجاورين والمسافرين فأمام باب دلاور الكاشف يطعم الفقراء ليل نهار، كما أن قوجه

مصطفى أغا يكرم المسافرين والمساكين، وفي المدينة ما لا يدخل تحت حصر من العلماء والمريدين والصالحين.

بيان بزيارتنا لكبار الأولياء

هذه ضرائح الصالحين الشيخ شرف الدين أقصرى والشيخ الطمهي مدفونان في زاوية الشيخ ريحان كما دفن الشيخ سيدي على الأسمر في الجامع الكبير، وثمة شيخ آخر سألت عنه فما وجدت جواباً، وخارج المدينة في جنوبها قبر عظيم للشيخ كنانة، وقد دفن أربعون من الأولياء في مكان واحد، كانوا قديماً من اللصوص ولكن الله هداهم وأصبحوا جميعاً أولياء وعلى رأسهم قطب الأقطاب شيخ الطريقة الكنانة، ويقام له مولد مرة في كل عام، ويجتمع في مولده حوالي أربعون ألف إنسان، وفي خيامهم يقام عشرة أيام وعشر ليال، وقد أغار لصوص العرب على ميدان ملقه أثناء انعقاد مولده، وقد نهبوا السوق واستشهد كثير من الناس، وفي التو والحال ظهر في المدينة أربعون على رؤسهم العمامات الخضراء يركبون الخيول الشهب ويحملون الرماح، فقتلوا هؤلاء اللصوص عن آخرهم، ثم غابوا عن العيون.

هذه مناقب قرية العهد لم يمض عليها سوى سبعين سنة، ومنذ هذا الزمان لم يحضر أحد المولد، هذا ما مر بسمعي هذا ما أمر (طورنا مصطفى بك) كاشف المنصورة واجتمع في المنصورة حشد كبير من الناس، وقد حضرت معهم والله الحمد وقد دفن الشيخ عبد الجليل الملباوي في ضريح عظيم، وبالقرب من ضريح الشيخ الملباوي ضريح الشيخ زبيبة والشيخ الخواص وإلى جانب المحكمة السيدة آسية والشيخ عريان والشيخ كلياني، ومداح رسول الله الشيخ سيدي محمد كميلي والشيخ منية الدولة وقد دفنا بجوار جامع إدريس كما دفن الشيخ طاهر والشيخ نصار والشيخ سند في الجهة القبيلة من المدينة بالقرب من جامع الأمير مصطفى، والشيخ سعد والشيخ حسن دفنا في جامع الخطائي ودفن بجوار قبر الشيخ بهلول الشيخ الموالي كيرلي محمود أفندي، وهو من علماء الروم المشاهير فهؤلاء العلماء منهم من دفن في ضريح ومنهم من دفن في تكية، وقد زرت ضرائحهم ومررت وجهي الأسود على ضرائحهم رحمة الله عليهم أجمعين،

وقد تجولت فى هذه المدينة وشاهدت كل ما فيها وعقدت نيتى أن أروى مدينة المنزل،
فركبت سفينة وانطلقنا إلى المنزل.

وصف ما مررنا به من منازل فى طريقنا إلى المنزل

أينا ترعة عظيمة فى جنوب مدينة المنصورة وبالقرب من جامع مصطفى أغا،
ومضينا بالسفينة فى ترعة صلاح الدين، وعلى جانبيها ست وسبعون قرية معمورة.
ورأينا عزبة نزلنا عليها ضيوفاً.

أوصاف مدينة المنزل القديمة

نزلنا فى دار الملتزم وتجولنا فيها لمشاهدتها، ويتفرع من هذه الترعة خليج على جانبيه
بيوت معمورة، على جانبي الترعة حدائق وبساتين، وعبرها جسر من الخشب على
الترعة وعلى ضفتيها بساتين، وكل حديقة مساحتها عشرة أو خمسة عشر فداناً، وفى
كل منها يطيب الليمون والتمر والرمان والتين، ولكن لا وجود فيها للقمح، والأرز
الذى فى المنزل لا نظير له فى العالم بأسره، إنه أبيض ولذيذ، والبحيرة على مسيرة ربع
ساعة من شمال المدينة، والترعة التى تروى هذه المدينة تصب فى هذه البحيرة، وهى
التزام تابع للمنصورة، ويحكمها أى من قبل كاشف المنصورة حيناً والباشا أغا حيناً
ويقدم الباشا فى كل عام كشوفية قدرها ست أكياس، وهى قضاء يدر مائة وخمسين
أقبحه ولقاضيها فى كل عام خمسة أكياس، وفى ناحية منها قرى للأرز، ويحصل من
جميع القرى ست وخمسون كيساً، كما أن الصيادين يصيدون كل عام مبيعة أحمال من
السماك وبها ألف بيت وعشرة محلات وسبعون محراباً، وفيها ثمان خطب وفيما عدا
ذلك مساجد، والجامع الكبير فيها يكشر فيه المصلون، وكان معبداً قديماً، وقد أنشأ هذا
الجامع وزير صلاح الدين يوسف، وهو القعقاع التميمي، عندما فتح هذه المدينة، ولا
تعرف جوامع أخرى بهذه المدينة، وزاوية الشيخ إبراهيم السلمونى زاوية معمورة وفى
هذه المدينة ثلاث منارات، ومدرسة وستة مكاتب للصبيان وسبعة سبل وخمس
وكالات، ومائة دكان منها ثمانون مفتوحة وبقيتها موصدة، ولا سوق فيها وبها ثمانية
مقاه، وسوق للعطارين فيها جميل، وتقام سوق كل سبعة أيام وهى سوق الخيل والغنم

والجمال، ولا وجود لسوق سواها لأنها ليست مدينة عظيمة، وأهلها فقراء إنهم يأكلون السمك ويتكسبون بصيده، وفيها سمك عجيب، وفي الشتاء تأتي الوحوش والطيور إلى الحدائق فيصيدوها أهل هذه المدينة، وتشتهر المدينة بالقمصان البيض، وأهلها مشهورون بالجمال.

ضرائح المنزلة

دفن الشيخ محمد العقابي في زاويته، ودفن إبراهيم السلموني في زاويته وبالقرب من القرافة الكبرى قبر الشيخ طاهر، وبالقرب منه دفن القعقاع الوزير، وبالقرب من قبر الوزير القعقاع التميمي دفنت الست صالحة رحمة الله عليهم أجمعين ولها مناقب كثيرة كأنها رابعة العدوية، والشيخ شهاب الدين الأنصارى من الصحابة الكرام، وهو مدفون بالقرب من زاوية الحياطين، وقبر الشيخ محمد الشامي بالقرب من سوق العطارين رحمة الله عليهم أجمعين، وما أكثر مناقب الأولياء، ولكننا نزلنا ضيوفاً في هذه المدينة مدة يوم وليلة.

ثم بعد ذلك ركبنا السفينة، وعدنا إلى التربة التي جئنا فيها وقد بذل الملاحون الجهد الجهد فبلغنا مدينة المنصورة، ثم ودعنا الأعيان في تلك المدينة، وركبنا السفينة وقبالة هذه المدينة:

مدينة طلخا

وبها ثلاثمائة بيت وعلى ضفة النيل جامع ذو منارة، وفيها شيخ انهدمت مقبرته عند فيضان النيل فوضعه في تابوت على مرأى من الناس، ومضينا إلى:

بلدة الشيخ رمضان

وبها مائة بيت وهي بلدة صغيرة وناحية المنصورة:

بلدة ميت خميس

وبها مائة بيت وجامع، وتجاهها على حدود إقليم الغربية:

بلدة ميت الغرقا

وبها مائتا بيت وجامع، وفي إقليم المنصورة:

بلدة ميت ويش

وبها ثلاثمائة بيت وجامع، وفي إقليم الغربية:

بلدة ميت حساس

وإلى جانب إقليم المنصورة:

بلدة نوه سى

وكذلك في حدود المنصورة:

بلدة ميت شعبانيه

وفي جنوبها:

ميت المنية

وتجاهها في إقليم الغربية:

مدينة لوط.

أوصاف مدينة لوط

إنها مدينة معمورة، وهي مرفأ لسمنوط، وهي على شاطئ النيل وتحوى ثلاثمائة بيت وهي قصبة جميلة والتمزام، وكانت في قديم الزمان مدينة قديمة وفيها آثار لقوم جالوط، وهي قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، ولقاضيها مرتب يقدم صدقة، وهو نائب الحاكم، وهذه المدينة تدر في كل عام خمسة أكياس، وقرى نواحيها تحوى اثنين وأربعين بيتاً وفيها ستة محاريب وثلاث خطب وفي مرفأها جامع علوى به أربعة عشر عموداً عليها سقف، وله ثلاثة أبواب ومنارة منهذمة، وخان وحمام وستة مقاهٍ وخمسون دكاناً وسبعة سبل واثنان عشر مكتباً للصبيان وعلى ضفة النيل محكمة.

وصف ضرائحها

الشيخ إسماعيل العدوى وسيدى عبد الله الخلف وهما مدفونان في مسجد الغدوى، ثم امتطينا خيولنا فبلغنا ضريح:

بلدة أبو على

وهى التزام الأمير مُصلى أغا، وفيها نخيل وحدائق وثلاثمائة بيت وقرى معمورة، تجاوزناها فبلغنا:

بلدة قيطاس أغا

وبها مائتا بيت وجامع إنها قرية عامرة ولكن يسكنها قبيلة بنى حرام وهم أشرار. وتجاوزناها إلى الشمال واجتزنا بقرى لا نعرف لها اسماً، كما عبرنا مروراً ببلاد على شاطئ الترعة، وفى هذه البلاد كثير من البساتين، وعلى مسيرة ساعة من سمنوط:

محلة الكبير

وهى العاصمة الثانية لإقليم الغربية، وهى مدينة عظيمة، واسمها باللسان القبطى ريحان لوقوعها فى إقليم الغربية الذى يقع غرب إقليم الشرقية سماها الروم الغربية ومحلة الكبير جزيرة تقع فى النيل بين إقليم الشرقية والبحيرة، وهى كنانة الله ابتداء من مصر، ثم المحلة، ثم رشيد، ثم دمياط، ثم منية ومنفلوط وهذه مدن كثيرة، ولكن هذه المحلة ليست معمورة فى يومنا هذا، ولكن فى سبعين موضع من أرضها طلاس، وعلى حد قول المقرئى إنها من بناء مصريين بعد طوفان نوح وبناء على علم النجوم استطاب هذه المدينة مصريين لطيب هوائها، وهذا ما حفره على إنشائها، ولقد استولى عليها كثير من الملوك على مر العصور، وبينما كان الظاهر بيبرس كاشفاً لهذه المدينة استطاب جوها، وفى زمان ملكه جعل من هذه المدينة الحاضرة الثانية للكل، وكان يسكنها، وتجرى إلى الآن ترعة إلى وسطها، وبالقرب من قصر الكاشف عليها ثلاث قناطر، وعند العشاء تعزف فرقة موسيقية عند هذه القناطر وذلك طبق القانون السلطانى للظاهر بيبرس، وينال أفراد هذه الفرقة الموسيقية رواتبهم من الكاشف، إن هذه الفرقة الموسيقية تعزف على الدوام لأن هذه المدينة هى حاضرة البلاد الثانية.

وأمرأ مصر الذين فى درجة ميرميران وأتباعهم ألف وسبع فرق من المستحقين وعليهم فى التزامهم أن يقدموا مائتى كيس، وديوان مصر يختم بها حسابه، كما يحصل مائتين وخمسين كيساً بعد المصاريف، وحاكمها صاحب منصب عال وهو يرأس الأمراء

ما عدا أمير الحج والدفتر دار، ويتقدم في سيره الأمراء والكاشفين لأنه حاكم العاصمة الثانية للبلاد، ويصبح بعد ذلك أمير الحج.

وفي إقليم الغربية ثلاثمائة وسبعون قرية معمورة وبها قاض شرعي، ولا منصب في مصر أعلى من منصبه، وقد تصدق مراراً بمبلغ خمسمائة أقبه على رجال الدين، وطبق القانون يجب أن يتصدق بأربعمائة وتسعة وتسعون أقبه، وثمة محكمة في كل من سمنوط، وشربين وهذه المحاكم داخل هذه المدن وخارجها، إنها مدينة كبيرة، وفيها شيخ الإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف والأعيان والانكشارية والعزب والسردار والجاوش، وليس فيها قبو قولو سردار ولا سباه كتخدا، ولا آلاي بيكي ولا جرى باشي ولا أصحاب زعامت، إن كل قرأها تدر المال السلطاني، إنها مدينة معمورة تجرى من تحتها الأنهار، وهى فى منزلتها بعد مصر، وبها قصور عالية كثيرة الطوابق، وبها بيوت كبيرة وصغيرة قديمة الطراز مُجَصَّصَة، وعلى ضفة الخليج قصور كبار الأعيان تطل نوافذها على الخليج.

وفيها بساتين وفيها سبعون محلة، ومائة وأربعون محراباً، سبعون منها تؤدي صلاة الجمعة فيها، وبها جوامع للسلطين والأولياء، وبالقرب من مالك بك جامع بالى بك، وهو جامع على ضفة النيل، أربعة أعمدة له فى النيل، وقد بنى على هذه الأعمدة، وهو جامع علوى ويصعد إليه بسلم من اثنتى عشرة درجة، وله ثلاثة أبواب أحدها فى جدار القبلة، وهو يطل على الطريق المواجه لقصر البك، وله باب يفتح على حوض وليس فى داخل الجامع أعمدة، وجوانب السقف مزخرفة ومذهبة، وهذا الجامع العلوى، تحته ستة دكاكين وله منارة تتألف من ثلاثة طوابق، وقد كتب على باب منبره بالخط الجلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ.....﴾ {الاحزاب: ٥٦}.

وبعده على ضفة النيل جامع (الصفاء) وهو غاية فى الحسن ومنظره الجميل غاية فى الروعة، وعلى ضفة النيل كذلك تجاه قصر البك جامع خواجه عطار وله سقف منقوش بشتى الألوان ويقوم على ثلاثة وثلاثين عموداً، ومحرابه من الرخام، ومنبره من الخشب المنقوش، وله ثلاثة أبواب أحدها للقبلة وهو يطل على السوق وله بابان جانبيان يفضيان

إلى السوق وفى جانبه الأيسر منارة من ثلاثة طوابق وفى أعلاه تعتش الطيور وتفرخ بها، وفى السوق بناء جديد هو جامع مراد الشورباجى وسقفه على ثمانية أعمدة من الرخام، وقد دفن فى هذا الجامع من أولاد الصحابة مثل عبد الله بن الزبير، ولهذا الغرض بنى الجامع، ويعتقد أن من يزوره يحقق مراده، وجامع الصمصصات مقام على عشرة أعمدة وله منبر صغير من الرخام، ولا وجود لمثله فى البلاد وله منارة عالية طولها مائة وسبع عشرة خطوة، وكل خطوة تعادل ذراعاً، والصعود إليها عسير، وقد صعدت هذه المنارة وأشرفت ببصرى على المدينة فرأيت مدينة إرم ذات العماد، وقد بدت فيها أربعون منارة، وفى سوق العطارين الجامع الكبير، وقد بناه الشيخ أبو بكر طرغى ووسعه من بعد الملك الظاهر، وبذلك صار جامعاً كبيراً وطوله وعرضه مائة خطوة، ومنبر هذا الجامع ومحرابه من الطرز القديم، وفى حرمه الكبير قبة وسبيل، وفى داخل الجامع وخارجه مائة عمود رخامى عليها سقف منقوش، وفى الركن الأيسر لحرمه منارتان كأنهما برجان، وعلى باب منبره الخشبى كتب بالخط الكوفى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ومقعد المؤذن على ستة قوائم رقيقة من الرخام، وهو من الخشب يشبه المقصورة.

ولا وجود لجامع أكبر من هذا الجامع فى هذه البلدة ويقام مولد فى كل عام بها يجتمع فيه مائة ألف إنسان، ومساحة الجامع طويلاً وعرضاً مائة وثمانية وخمسون خطوة، وله سقف على ثلاث وثمانين عموداً وصحن الجامع غير مسقوف، والشيخ عبد الله مدفون فى ذلك الصحن الواسع، وبما أنه مدفون داخل الجامع فليس ضريحاً، ولكنه فى تابوت وفى هذا المكان شجرة نبق وقد ورفت ظلالتها على حرم الجامع وخارجه، وهى تثمر أربع مرات فى العام الواحد منه فى حجم العين، وفى المدينة كذلك جامع الوزير يجتمع فيه جمع غفير من المصلين، وكذلك جامع ابن عباس الغمرى، وطوله وعرضه مائة وخمسون خطوة، ومنبره من خشب، وعلى يسرة محرابه كتابة، ويقول البعض إن هذه الكتابة من الزبور وتحتها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ١٨]، وسقفه ذو ألوان يقوم على سبعة وثلاثين عموداً وله ثلاثة أبواب، ومنارة

من ثلاث طوابق، صحنه بلا سقف، وفى الجانب الأيسر من جدار محرابه دفن الشيخ عباس غمرى، وجامع (تَعْبَرُهَا) جامع صغير، وجامع الشيخ إبراهيم سقفه مقام على سبعة أعمدة، وهو جامع صغير مكشوف الصحن، وقد دفن فى حرمه الشيخ إبراهيم وعلى مقربة من هذا الجامع جامع الشيخ ديار وهو جامع صغير منارته قصيرة، وثمة جوامع كثيرة خلاف ما ذكرنا. ولقد رأينا كثيراً من الجوامع الجميلة، كما أن الزوايا لا تقع تحت حصر وفى هذا البلد تسع مدارس وسبعة دور من دور الحديث، وسبعون تكية، لأن جميع أصحاب الطرق الصوفية فى هذه البلدة، وجميع أهل هذا الإقليم من أهل السنة، ومن التكايا تكية الشيخ عبد الرحمن المالكى، وتكية عبد الله درغام وإحدى عشرة تكية من تكايا السيد البدوى، والتكية البرهانية، وتكية صفافى، وتكية كملى وهى تكايا معمورة، ومنها تكايا توزع فيها الصدقات ويذل أصحابها فيها الصدقات وهم على قيد الحياة، وفيها مائة وعشرون مكتباً للصبيان، وتوزع ثياب العيد على اليتامى، وبها مائتا سبيل، وبعض هذه المكاتب تقع فوق هذه السبل، وهذا هو قانون مصر. وبها خمسة حمامات، وبها صهاريج، ويوجد حمام للنصارى، لا يدخله المسلمون قط، وحمام بالى بك حمام لطيف، كما أن سبعة حمامات موصدة أما حمام الوفا فضريح، وبناءه جميل وجوه معتدل، وحمامات القصور يزيد عددها على الألف، ويخرج المريدون مع الفجر إلى الخليج يستحمون فيه، وفيها سبعون خاناً، فى سبع عشرة منها يباع القمح والشعير والفول، وفى هذه البلدة تباع جميع الغلال، وبها ألفان وثلاثمائة وخمسة وأربعون دكاناً، وجميع أسواقها مغطاة، وكل السلع موجودة فى هذه البلدة. وبها ثمانية وأربعون مقهى وهذه المقاهى مفتوحة ليلاً ونهاراً وفيها المطربون والمداحون وفيها يجلس أهل العلم ليل نهار.

وفى هذه البلدة مائتا طاحونة زيت وثلاثمائة وثمانون طاحونة تديرها الخيل وبها عشرة مخابز وكل بيت فى البلدة مخبز معين لها. ولا حاجة بأهل هذه البيوت إلى الأسواق، ولكن للغرباء والمسافرين عشرة مخابز وشوارع السوق السلطانية واسعة

نظيفة، لأن النيل يجرى فى وسط هذه البلدة ومعظم قصورها وبيوتها الجميلة على ضفة الخليج، وأعيان الإقليم يلقى بعضهم على بعض السلام من قصورهم ويصيدون السمك من الكرات، ويسبح الفتيان فى النيل، وكل بيوت هذه البلدة مبنية بالحجر، ولها جدران وأبوابها ذات مصراعين، وسطوحها مجصصة وليس فى المدينة أحجار بناء وإذا مست الحاجة إليها فى هذه البلدة حملتها إليهم من مصر السفن عند وقت فيضان النيل، لأن النيل فى فيضانه يغمر أقاليم مصر كلها وتصبح أراضى مصر فى ماء الفيضان جزراً، وثمة فرقة موسيقية تعزف فى دكان على الحجر، ونوافذ هذه الدكاكين تطل على النيل، وفى مصر ثلثمائة جسر بالقرب من سوق الغلال، وثمة دكاكين أخرى تطل نوافذها على التربة وفى هذه المحلة مرفأ تأتى إليه السفن والقوارب بالغلال وثمة جسر فى جنوب البلدة على ترعة الصابونية يسمى جسر جعفر أفا إنه جسر عظيم من الحجر، وفى وسط صراطه كتب على لوحة مربعة من الرخام:

تأمل ترى ما شاده ألدن جعفر .: هو القاسمى مات إلى الخير يقصد

لقنطرة فيها يقول مؤرخ .: ثناء له فخر وعز يؤيد

سنة ١٠٧٣ .

ولاعتدال جو هذه البلدة اشتهرت نساؤها بروعة جمالهن. كما أن الجند يلبسون فيها ثياباً فاخرة. ويضع نساءها على رؤوسهن قلانص من ذهب وفضة. كما يلبسن الحرير ويسرن. وتشتهر هذه المدينة بالخبز الأبيض والطحينة والخبز أما صنعهم للسجاجيد الحريرية لا نظير لها فى العالم. إلا ما يصنع فى أصفهان كما يصنع المناشف وأنواع من الاقمشة الحريرية وفى هذه البلدة محلة لليهود ومحلتان للأقباط وبها ألف بيت وسبع كنائس. وفى سجل شيخ البلد أن تعداد أهل هذه البلدة سبعة آلاف وهى تصدر القطن وهو من أهم حاصلاتها. إن ذكر ما لا قيمة له مملول. ولذلك اكتفينا بما ذكرنا. فخير الكلام ما قل ودل.

أوصاف ضرائح المحلة الكبرى

وقد ذكرنا من قبل كبار الأولياء الذين دفنوا في الجوامع وعند باب المحلة عند نهاية الطرف الغربي للمحلة دفن الشيخ عبد المجيد الشامولى وضريحه تطل نوافذة على الطريق العام، وقد كتب على عتبة بالخط الجلى: (أنشأ السيد بن الحسين سيدى عبد الوهاب وسيدى عبد المؤمن أخيه سيد عبد المنعم).

زيارة ضريح المولى عبد الباقي بن محمود بن عطاء الدين حمالى زاده

هو متولى مدينة مصر، وكانت له هذه المحلة الكبرى ومات وهو مدفون عند رأس الجسر الذى على ترعة الصابونية في ضريح على الطراز الرومى وقد كتب عليه تاريخ؛ ولأنه على الطريق العام يزار ضريحه، وكان فصيحاً ناصع البيان لذلك وردت ترجمته في تاريخ المقرئى، وعلى مقربة منه على رأس الجسر ضريح الملا على بن سنان، وقد من مدينة أسبارطه، وكان من علماء السلطان أحمد وعلى ضريحه تاريخ هو في سنة ١٠٢٩ قدسنا الله بصره العزيز رحمة الله عليهم أجمعين، وعلاوة على ذلك آلاف من الضرائح، وقد مرغت وجهى على عتيته، والضرائح التى ررتها في هذه البلدة سبعة وأربعون وقد شرفت بزيارتها والله أحمد أنى نلت من حسن أغا الكاشف عشرة قروش وجوداً، وبعض ما يصنع فى المحلة، وودعت أحبى وخلانى وبعد ساعتين، بلغنا قصبة سمنوط، وعبرنا النيل إلى إقليم الشرقية فبلغنا:

ميت أبو الحارث

وتجاهها فى إقليم الغربية:

ميت أبو صير

وفى المنصورة:

ميت بورو

وتجاهها بلدة بنيا، وفى المنصورة كذلك بلدة المنطرة، وفى الغربية بلدة ميت بدر وفى المنصورة أيضاً ميت دميس، وفى الغربية بلدة شوبران، وفى المنصورة كذلك ميت أشنى.

أوصاف قصبة شنياط^(١) الكبيرة

تقع فى إقليم الغربية، وبها مائتا بيت وعدة جوامع ومساجد وأسواق صغيرة ومقاه، وهى مدينة كثير رجالها ونساؤها، وقد نزلت ضيفاً على دار ضيافة فيها ذات ليلة، وفى الصباح مضينا إلى المنصورة فبلغنا بلدة:

شرفجى

وقبالتها فى الغربية بلدة:

دهنور

وفى المنصورة مدينة ميت غمر العظيمة وقد أسلفت ذكرها، وتجاهها فى إقليم الغربية
قصة:

زفته

والتي سلف ذكرها وفى جنوبها فى إقليم المنصورة بلدة:

معصره

وفى الغربية قبالتها فى بلدة:

مسيد

وبجوارها بلدة:

وصيد

وفى المنصورة بلدة:

ميت العز

وفى الغربية:

ميت الحارون

وفى المنصورة بلدة:

الصفين

وقبالتها فى الغربية بلدة:

تفهني

وللشيخ داود العزب فيها ضريح عظيم، والذي ظهرت له كرامات ومعجزات ذكرت في الكتب وفي كتاب طبقات الشعرائي أنه قطب عظيم له منزلة عبد القادر الجيلاني، وجنيد البغدادي وأحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي. ومضينا إلى هند يمنة، وفي إقليم المنصورة بلدة:

سندی

وقبالتها في إقليم الغربية بلدة:

ميت بری

وفي المنصورة بلدة:

اشبون

وفي المنصورة كذلك:

كفر مويش

وقبالتها في إقليم الغربية بلدة:

مللو

وفي المنصورة بلدة:

بنهي

وتجاهها في الغربية بلدة بطاي وفي المنصورة بلدة رملی، وتجاهها غرباً:

كفر ابو الطواقي

وفي إقليم القليوبية:

ميت عطار

وهي بلدة عظيمة كأنها قصبة وفيها تجمع حدود أربعة سناجق وهي سنجق الغربية وسنجق المنصورة وسنجق المنوفية وسنجق القليوبية. والسناجق الأربعة تسمع آذان ميت عطار لأن حدود كل منها متقاربة، وفي آخر إقليم الغربية بلدة:

سيندى خضر

وفى أول حدود المنوفية بلدة:

المطاف

وأخر حدود الشرقية بلدة:

طحلة

وفى أول حدود إقليم القليوبية بلدة:

دجوى

وهى التزام أوزبك بك، واقتضت حكمة الله أن تكون قرى الحدود هذه مجتمعة فى أرض واحدة ودخلنا الحد الأيمن لإقليم المنوفية، ودخلنا الحد الأيمن لإقليم القليوبية، وفى إقليم منوف بلدة:

ميت عفيف

وهى تجاهها بلدة دجوى.

ويلدة طنط

تتبع قليوب، وتجاهها فى المنوفية:

بلدة برشمس

وفى إقليم القليوبية بلدة:

برشوم

وتجاهها فى المنوفية بلدة:

أبوشعرا

وتجاهها على ضفة النيل بقية القليوبية.

أوصاف قصبة القليوبية

وقد كتب عنها المؤرخ أبو المال كثيرًا، وجاء فى تواريخ القبط أن أول من بناها هامان وزير فرعون، وقد تبقى فيها أساس قصره وبستان، وباب من أبواب بستانه، ويسمونه بئر هامان وماؤه عزب والسواقي تدور فى اثنى عشر موضعًا فيها، وهذه السواقي تروى ما فيها من مزارع قصب السكر، ويزعم القبط أن فى مائها شفاء المريض، وقليوب

كاشفية، وقد سبق أن قلنا إن مائتي كيس تتحصل منها، ويتبعها مائتان وثمانون قرية ويحصل من هذه القرى بعد المصروفات مائة كيس، إنها قضاء يدر مائة وخمسين أقبه، وكانت تغل مدة من الزمن عشرة أكياس ستة وسبعون من قراها، ولقرىها من مصر ليس لها من يتولون الإفتاء على المذاهب الأربعة كما تخلو من نقيب للأشراف، ولكن فيها قائد للانكشارية والعزب، وقديماً كان يوجد فيها ألف حديقة، والآن فيها ثلاثمائة بستان كما أن فيها ألفى بيت وأربعون محراباً، وسبع خطب، وبالقرب من السوق السلطانية جامع قديم ويتسع لآلاف المصلين، وله سقف يقوم على أربعين عموداً، ومنارة تتألف من ثلاث طوابق، ولم نشاهد جامعاً آخر، وفيها عشرون مكتباً للصبيان وثمانية خانات وسبعة مقاه، ومائتا دكان. وركبنا وورقنا الذى جرى بنا فى النيل، وبعد سبعة أميال بلغنا بلدة شبرا التى سبق ذكرها، وهى فى نهاية حدود إقليم القليوبية، وبعدها حدود مصر وتجاهها فى إقليم المنوفية محلة تسمى بحر، وبها تتم حدود المنوفية، وآخر حدّها:

بلدة السروى

وهى على بعد أربعمائة ميل من دمياط وعلى شاطئ النيل تقع مدن صغيرة معمورة وقد شاهدت معظم الجوامع المشهورة والكبيرة، والزوايا والمدارس والوكالات المعمورة والمزينة والحدائق والترع واستمعت إلى ألحان البلابل الجميلة فى البساتين، ووصفت مزارع النخيل والحدائق، واكتفيت بذلك حتى لا يطول بنا الكلام وليس على نيل دمياط قرى مثل ما على نيل رشيد، وعلى نيل رشيد توجد مدن كثيرة ولا وجود لعمران فى إقليم البحيرة وأكثره صحراء. ثم مضينا إلى محلة شبرا. وفى الشهر الثالث دخلنا مصر والتقيت مع الكتبخدا إبراهيم باشا. وقدمت إليه ما استطعت تقديمه من هداياى فتقبلها منى. وتجولت وشاهدت الديار وتعرفت أحوال الرعايا والبرايا. وسألت ملتزمى الكاشف. ومضينا إلى صحراء البرلس وطعمنا. ونلنا من خضر بك خلعة حسنة وجواداً. والله عالم السر والحقيا، وخضر بك وزير منير الضمير وسخى جواد وقد تشرفت بالتحدث معه فى الليل والنهار، وقال ذات ليلة أثناء حديثى معه إنه تجول فى البلاد شبراً شبراً وسوف أبعث بك إلى حاكم جرجه فقال لى لا تنسى دعاءنا لك بالخير وأمر رفعت أفندى رئيس الديوان أن يكتب لحاكم جرجه أن أوليا جلى صديق حميم وأخ كريم فإذا وصل إليك وأراد التجول فى البلاد فهى له السبيل.

وأمام مدينة أسيوط غرقت سفينة أميرية تحمل ألف أردب من الغلال. وقد كتب أمراً بالتحقيق فى هذا وأصدرت الأوامر إلى جميع الكاشفين والملتزمين بذلك. وانتهزت هذه الفرصة وخرجت بعد أن قبلت يده. ورجوت إليه أن يكتب رسائل إلى حاكم الفونج. وسألت من رجال الديوان فى مصر: هل فى الإمكان أن أمضى. فقالوا نعم هذا فى الإمكان ولكن الحرّ كان شديداً والطريق غير آمنة. وقالوا إن هذه السفرة صعبة شديدة ولكن سوف تمضى فى خير وأمان بمشيئة الله. وكتبت الرسالة لى فكانت أمراً إلى حاكم جرجة.

إن ملك الفونج كان راسخ العقيدة فى الشيخ البكرى، والشيخ محمد، وولنا منه سبعة رسائل لتتال بها الهدايا، فنلنا جواداً وبساطاً طاهراً، وعشرة كؤوس وثلاثة قسي وكانت ترسل الهدايا ورسائل الصداقة من مصر إلى الجزائر وتونس وفاس ومراكش وبلاد البربر وبلاد الفونج والسودان وبلاد الحبشة واليمن ومكة والمدينة والبادية العربية وكذلك بلاد المغرب.

فقد وصل إلى سفير اليمن فرمان كما أعطى لى رسائل ورسائل مودة، ومنذ عهد السلطان سليم الأول قدم مصر سبعون وزيراً، لأن الحل والعقد كان فى يد الكتخدا لأنه كان وكيلاً يحكم كل شىء برأيه السيد، إلا أنه مع وفور عقله كان يتشاور مع من تقدمت بهم سنهم ليأنس برأيهم، ويعمل به، وكان يكرم كلاً منهم حسب مرتبته، وقد أعطانى أوراقاً لأسلمها لحاكم جرجة وبلاد الفونج، كما أعطانى مصاريق السفر وجواداً، ووصلت إلى الباشا فى اليوم الثالث، فأبلغت حاكم جرجة خبر غرق سفينة الغلال، وبلغت أوامره للكاشفين وغيرهم، ونلت من ملك الفونج رسالة وهدايا، فنلت منه نقوداً وجواداً وتخت شباب وقد أعطيت خدامه عشرة قروش، ودعوت له بالخير وقبلت يده وقلت إلى الملتقى بمشيئة الله، وقرأت الفاتحة، وخرجت وودعت كل الأصدقاء والأحباب ومضينا متوكلين على الله.

الفصل التاسع والستون

ما أصدر والى مصر إبراهيم باشا وما كتب من رسائل
ألف وواحد وثمانون رسالة إلى حاكم الصعيد أوزيك بك
والى كاشف الواحات وكاشف ولاية أبريم وحاكم ولاية بربرستان
وملك بلاد الضونج وملك قاقان، وما زرنا من قرى وقصبات
يسر الله لنا زيارتها

وإذا أراد الله شيئاً يَسِّرْ أسبابه فركبنا خيولنا المطهّمة وبدأنا سياحتنا وتحركنا من مصر
أم الدنيا، وبعد أن قطعنا فى الصحراء ساعتين جنوباً بلغنا بلدة البساتين وكانت تابعة
لإلتزام نقيب الأشراف فيها سبعمائة بيت، وثمانية محارب وثلاث خطب، ووكالة
وعشرون دكاناً، ويحيطها من جوانبها الأربعة البساتين، ويقدم إليها الأعيان من مصر
للزّمة، إنها جميلة بها الورود والرياحين وفى وسطها قصر يوسف، والمتنزهون يتعمون
بالمتعة على حانة حوضها.

ومضينا إلى الجنوب مدة نصف ساعة وهناك على النيل مرفأ قديم وبعيد عنه جميع
أهل الصعيد، وثمة موظف للدولة يحصل رسوم الجمرك من شاطئ النيل، فبلغنا:

قصبة موخنان

وتقع على مسيرة ربع ساعة من النيل فى الصحراء، وبها حدائق وبساتين وهى تابعة
لكاشفية الجيزة وبها خمسمائة بيت وجامع ومقهيان وعشرة دكاكين، ولا يوجد فيها
الحمام إنما قصبة معمورة، ويحكمها نائب الجيزة منذ عهد السلطان سليم تتبع هذه
القصبة شيخ العرب خير أوغلو وهى أرض ذات بساتين ونخيل: وقصر خير أوغلو دار
ضيافة، ويطعم فيها الغادى والرائح، ومن سلموا قايتباى وكرت باى مقيدين للسلطان
سليم من هذا البلد، وقد عبر أحد عشر ألف النيل ومضوا إلى السلطان سليم، وظلوا
فى خدمته ولذلك أعفوا من الضرائب، وهم الآن مطيعون متقادون فلما أغار على مدن
إقليم البحيرة ألف وأربعون ألفاً من مجرمى عرب بهيجة والهندى منهم أربعون ألفاً
للنهب والسلب، ولما علم بذلك وزير مصر ألف جيشاً من خمسة آلاف فارس وانطلقوا

إلى إقليم البحيرة، وفي أول الأمر واجه كل جندي جندياً فمزق عرب خبير أغلو، صفوف من واجهوهم، كما أن جنود مصر ألحقوا الهزيمة بعرب الهنادى فتم القضاء على ستين ألفاً منهم، واختلطت جثثهم بالرمال وتدرجت رؤوسهم من ضربات السيوف، وأصيبت منهم غنائم تفوق الحد والحصر، كما أن رجال خبير أوغلوا غنموا ألفى جمل وجاءوا بها فى يوم وليلة من الصحراء، وقدموها هدية إلى إبراهيم باشا فامتلات مصر بالجمال، ونال خبير أوغلو مكافأة له على ذلك خلعة آصف، وهى رمز للمقاتل الباسل، وقد أكرمه إبراهيم باشا وضيّفه ذات ليلة، وفى الصباح، أرسل إلينا خمسين فارساً، ومضينا سبع ساعات على النيل وبلغنا منزل:

قهوه خانه

وهو أرض واسعة فيها قلعة ذات باب كبير وفى نهاية بابها الكبير مقهى، وهى موضع لاستراحة المسافرين، وبها دكان، إنها دار ضيافة فى الطريق إلى الفيوم وبنى سيف ولا عمران فيها، ومضينا إلى الفيوم بعد سبع عشرة ساعة، وهى أرض ذات رمل كثيرة الأفاعى والحشرات، وليس بها أمان، إنها حدود خبير أوغلو زاده، وهى حد بلدة بنى سيف، ويجتمع أهل القرى فيها كل أسبوع، وهذه القهوة فى سوق عظيمة، وقد اجتزت هذا الموضع، وعلى شاطئ النيل فى الناحية القبلية أرض ذات نخيل وفيها قرى معمورة واجتزنا فى ست ساعات إلى:

منزل بلدة دلى حسين باشا

وتقع على شاطئ النيل على ربة فى حدود بنى سيف، وبها مائة بيت وجامع وساقية وآبار، فاستقبلنا حسين باشا زاده نوح وضيّفنا ليلة فنعمت بالراحة، وسرنا متجهين جنوباً نحو النيل، واجتزنا كثيراً من القرى المعمورة على شاطئ النيل، كما اجتزنا:

بلدة زاوية وبلدة قوما دير

وبعد سبع ساعات بلغنا:

بلدة ميمونة

وهي على حدود بلدة بنى سيف، وفي التزام كاتب تذكرة الوزير الأعظم إسحاق أفندي، وبها جامع وعدة أسواق وقصر عالٍ هو دار ضيافة فاجتزتها نحو الجنوب واجتزنا قرى عامرة.

أوصاف مدينة سيف بن ذى يزن

ولذا سميت المدينة ببنى سيف، وفي نواحيها تسكن قبيلة من عرب بنى سيف إنها كاشفية في أرض مصر، وهي الآن كشوفية، ويتبع كاشفها خمسمائة فارس وخمسمائة جندي مصري، وبها مائة وأربعون قرية، ويحصل من هذه القرى مائتا كيس وخمسة، و(١) أردب من الغلال وتودع ديوان مصر، وعين من قبل الباشا أغا للتحصيل، ويورع الباشا على كل أحد أردبين من القمح كما أن أغا يأتي من طرف الباشا للتحصيل سريعاً وبها قاض شرعى يحصل منها على مائة كيس في العام، وتحت حكمه مائة وأربعون قرية، وثمة انكشارية وقائد وعزب الشورباجي وشيخ الإسلام ونقيب وأعيان كبار، تقع المدينة في سهل في أرض تبعد عن النيل بخمسمائة خطوة وهي ذات بيوت جدرانها مثل جدران القلاع تحيط بها من كل جانب، وبها خمسة آلاف بيت، وهي بيوت ذات طوابق وفيها قصر الكاشف وبه سبعون حجرة وحمام وديوان وميدان، ويجوار بيت الشيخ على بيت الشيخ صالح وبالقرب من القصر قصور طاصلاق زاده أحمد أغا، كما توجد بها قصور شامخة، ولكن هذا ما عرفناه منها وشاهدناه، وفيها محلات للمسلمين وغير المسلمين، وفيها جوامع وروايا ولكن ستة منها جوامع تؤدي فيها صلاة الجمعة، وفي سوقها جامع قايتباي وجامع عز الدين لكل منهما حرم ومنارة، وبالقرب من قصر طاصلاق زاده أحمد أغا جامع لم يكتمل بناؤه ولكنه بدون حرم وله منارة على الطراز الرومي وله سبعة أعمدة من الرخام، وفوقها سقف لا نقوش فيه، وكان بانيه في كل يوم يبنى ملحقات تضاف إليه، وللجامع أوقاف عظيمة وغير منارته رومية الطرز له خمس منارات أخرى عربية الطرز، وتوجد مساجد علاوة على هذه

(١) بياض في الأصل.

الجوامع، وبها كذلك ثلاث مدارس وبها إلى جانب حجرات الدراسة جامع وبها أربعون مكتباً للصبيان وأربعون سيلاً وحمام، ولا توجد أبنية بقدر تلك المذكورة، والجامع طاصلاً زاده أحمد آغا مبرّة، وكان متولى الوقف يتفق عليها عشرين كيسان، وقد قرأت الفاتحة له، وبها عشرُ مقامٍ وعشرة بيوت للصباغة وعشر وكالات مشهورة وجملة ما فيها من الدكاكين خمسمائة دكان، ولكن ليس فيها سوق خاصة، وفيها من كل سلعة، ويسكن هذه البلدة عشرون ألف شخص، وجوها معتدل وفتيانها وفتياتها يتميزون بالجمال لاعتدال جوها، وبها كثيرون من العسكريين المدنيين، وبها سوق كبيرة تقام كل يوم جمعة، وماكولاتها ومصوغاتها وغنمها مشهورة كما تصنع سجاجيد صلاة بديعة فيها، وبها سجاجيد وبُسُطُ بديعة النقش، كما تصنع بها مقاعد عجيبة، وفيها حدائق الليمون والسفرجل والتمر، وفي بساينها الشَّمَامُ والبطيخ والخيار والعجور والقثاء والكربن والقرنييط والفلُقَاس.

بيان ضرائح الأولياء التى زرتها

ضريح شيخ الملة وقطب الدولة الشيخ على بطح ملت الذى كان من قبائل العرب التى فى وادى بطح بمكة ولذلك سمي بهذا الاسم، ويزور ضريحه الرجال والنساء، وبجانبه منبع الأسرار ومرجع الأبرار الشيخ صالح الطيار، وإلى جانب الحمام من صحابة رسول الله ﷺ الشيخ عبد الله بن عمرو بن العاص الذى جرح فى البهنية أثناء إغارة عمرو بن العاص عليها، وعلى ضريحه تاريخ إلا أنه كتب بخط غير واضح، لذلك لم أتمكن من ذكره، وعلى مقربة منه ضريح حاضر أسرار الطريقة وناظر أنوار الحقيقة الشيخ محمد الأنورى، وبجانب الوكالة البيضاء ضريح الشیخة الست حورية، وبالقرب منها الشيخ على كِبَارَى، وقد زرت ضرائح هؤلاء الأقطاب جميعاً، ولكن ثمة كثير من الأولياء والأتقياء مدفون فى هذه المدينة قدس الله روحهم. وقد مكثت فى هذه البلدة ثلاثة أيام ثم تجاوزت عشرين قرية على شاطئ النيل جنوباً، وبعد ست ساعات بلغت:

قصبة فشنة

وهى على حدود بنى سيف وفى التزامها.

أوصاف قصبة فشنة

وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقبه، ويتحصل منها فى العام أربعة أكياس، ويتبعها ستون قرية، وهى قصبة صغيرة وجميلة، لكنها معمورة تقع على رهوة بعيدة عن النيل وفى جوانبها الأربعة سبعة أبواب خشبية كأنها أبواب القلعة، وبها ثلاثة آلاف بيت، وفى كل بيت منها برج للحمام ويحيط بها من جوانبها الأربعة نخيل، وفيها سبع محلات وسبعة محاريب وثلاثة منها جوامع، وفى السوق جامع كبير الأمير، مقام على اثنتى عشرة زاوية عليها أعمدة تحمل سقفًا وله قبة ومنارة قصيرة، وبها أربعة خانات وسبعة مكاتب للصبيان وعشرون دكانًا وسبعة سبل وسبع مقاه وليس فيها سوق ولا حمام، وبها دار ضيافة فى أسفل الجامع، وبها يصرف الطعام للغادى والرائح كما يصرف العير والجياذ للمسافرين، وتقام فى يوم الجمعة سوق عظيمة بها، ويجتمع فيها خلق كثير وكل إنسان يبيع سلعة.

أوصاف ضرائح فشنة

ضريح الشيخ عبد الله قدوة الرجال ونقطة الكمال ابن الشيخ جلال، وكما أن هناك قبر للشيخ جودى، وبالقرب منها الشيخ الأمين سلطان الدنيا والدين، وبالقرب منه ضريح الشيخ أبو العال صاحب طريق الكمال والمجاهد بلا جدال، وبالقرب منه الشيخ رمضان قدس سره رحمة الله عليهم أجمعين، ولو وصفت سياحتى فى هذه القرى والبلدان والقصبات والضرائح، وبفصاحتى وبلاغتى لتألف منها مجلد ضخمة، ولكنى أصفها على وجه الإيجاز وهذا ما يسره الله لى، اللهم يسر لى إتمام ما أنا كاتبه.

ثم غادرت فشنة واجتزت اثنتى عشرة بلدة معمورة، وبلغت:

صفد أبو جرج

وهى أيضًا قرية وبعد سبع ساعات، مكثت فى:

بلدة قيس

لأن الجو كان شديد الحرارة، وهى التزام يتبع بنى سيف بعيدة عن النيل، وبها مائة بيت، وبها آبار عذبٌ ماؤها، ونزلت ضيقاً على شيخ البلد لأن دار الضيافة كانت خربة، وفى شمال هذه البلدة ضريح الشيخ إبراهيم عبد الرحيم، وله مناقب كثيرة ورد ذكرها فى كتاب الطبقات للشعراوى إنه قطب عظيم، وبجانبه شجرة غريبة وعجيبة، إنها شجرة لا نظير لمثلها، ويأتى إليها الغادى والرائح من الزوار والتجار ويندهشون لرؤيتها.

وصف هذه الشجرة القريبة العجيبة

إنها تبلغ فى الطول طول خمس قامات للإنسان، وثلاث خطوات، إنها دوحة عظيمة وجذعها يتألف من فصوص فى جوانبها الأربعة، ولمن ينظرون إليها من الوسط يبدو لهم أوراقاً وثماراً، وإذا بَخَرُوا مريضاً بالصرع بأوراقها شفى من مرضه بمشيئة الله، ولها ثمر حامض الطعم ذات قشرة إذا أكل منها مرتين فى الشهر مصاب بالإسهال شفى بأمر الله ويأتىها أرباب الحاجات أول كل شهر، إنها شجرة سَنتُ تَنَبْتُ فى وسط الحديقة، وهى شجرة لا ثمر لها تنبت فى بلاد العرب، وهى تشبه شجرة طوبا التى توجد فى الجنة، وهى تمد غصونها ويجلس تحتها الصبيان والظلال التى تمدّها تسع لآلف إنسان، يا لها من حكمة عجيبة إنها منكسة، وجذورها بارزة من الأرض، ويقول الشيوخ الذين طعنوا فى السن إن آباءنا وأجدادنا رأوا هذه الشجرة على هذه الصفات إن غصونها اتجهت إلى أسفل إنها تستحق المشاهدة لأنها خلق عجيب إن الله على كل شيء قدير، ويفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد ولا يسئل عما يفعل، ورأى بعض المتقدمين فى السن أنها من الكرامات للشيخ إبراهيم وقد أراد أهل البلدة أن يشاهدوا بها كرامات الشيخ إبراهيم فسجد فى الموضع الذى نبتت فيه الشجرة، فخلقها الله توكاً بأمر الله تعالى وإنها لم تنبت ولكن هبطت من السماء، وظلت معلقة فقدم جميع من أنكروا الإيمان، كما جاء فى تواريخ السيوطى عنها، وقد قرأت أنا فى تواريخ المقرئى أن فى جنوب مصر القاهرة بالصعيد العالى شجرة معلقة ولا وجود فى الأرض لمثلها، وفى

عصر بنى إسرائيل عمرت هذه الشجرة ألف سنة وقد عبد الله في ظلها سبعة أنبياء وأن سبعة من اليهود استشهدوا في ظلها وحينما دفنوا هناك بأمر الله ظهرت هذه الشجرة ونزلت أغصانها من السماء إلى الأرض، وقتلة اليهود أكلوا منها فهلكوا، وصار ساق الشجرة فصوصاً عندما جاء النبي آه واه، وقد دفن في ظلها هذا النبي، والآن يزورها الحواص والعوام لذلك فما كتب عنها صحيح، لأن ما جاء في الخطط يعتمد على مراجع صحيحة ولكني شاهدت الشجرة فلم أجد في ظلها دفيناً من الانبياء، وإنما دفن الشيخ إبراهيم في ظلها.

وتجولت سبع ساعات، نحو الجنوب على شاطئ النيل ومررت بقرى كثيرة وبلغت:

بلدة سمنوط^(١) بالصعيد

وهي تبعد عن النيل وبها ثلاثمائة بيت كما أنها التزام، وحاكمها الأسبق كان كاشفاً، وبها تتم حدود المنيا وإلى جوار ضريحه شجرة نبق عظيمة ولها نبق لذيد الطعم، وفي قبالة سمنوط على شاطئ النيل دير قبطى شديد الارتفاع وكنيسة كأنها قلعة عظيمة وفرعون بانيها ويجتمع القبط لزيارتها، والرهبان يجمعون المال لخزينة مصر، وثمة صخرة يجرى النيل من تحتها والرهبان من أعلى هذه الصخرة يغترفون من ماء النيل ويملئون الصهاريج، ويضيفون المسافرين، ويكرمونهم إكراماً عظيماً، ويقدمون إلى الضيوف ثياباً ويقومون على خدمتهم حتى الصباح، وقد شاهدت هذا كذلك ومضينا إلى سملوط في الجهة الغربية، وركبنا جياندا ومررنا بقرى المنيا على شاطئ النيل وبعد ثمان ساعات بلغنا بلدة المنيا.

أوصاف مدينة المنيا

مدينة جرجا عاصمة الصعيد العالى، وهي حكومة تابعة للوزير، وقد أصبح اثنان من بكواتها أميرين للحج مرتين، ويحصل منها سنوياً مائتا كيس (٢) ألف أردب من الغلال ويحرسها مائة جندي وسبع فرق من جند مصر، ويفيض لها مائة كيس وثمة حاكم من قبل الوزير يكلف أغا في تحصيل غلالها، ويحصل لمعرفته (٣) ألف

(١) يقال لها: سمالوط.

(٢، ٣) بياض في الأصل.

أردب من الحنطة والشعير والفول، ويقدم إلى الباشا ستة أكياس، ويفض له خمسة عشر كيساً ومركز الأغا أعلى رتبة ويأتى فى كل عام أغا ليستعجل تحصيل الغلال وينال على ذلك أجراً قدره كيس واحد على استعجاله للغلال، وهو ملزم كذلك بتحصيل الغلال، وبها قاضى يحصل على ثلاثمائة أقة، وشرىف القضا يتقاضى عشرين أقة، وفى نواحيها مائتان وعشرون بيتاً جميلاً، وفيها أربعة مفتين يقتون على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف وسبعة من القواد، وليس فيها عبيد ولا قائد ولا كتخدا سباهية ولا زعامت فى قراها ولا تيمارات ولا سيد فيها ولا رئيس للجند، أما طائفة الجند من المصريين فكثيرة؛ لأنها مدينة مزدحمة بالسكان، وعلى شاطئ النيل بيوت ذوات طوابق على ربوة يسكنها أسر كريمة وبها مائة وخمسون من الزوايا والمحارب والجوامع، جامع قديم لعمر بن الخطاب لأن عمرو فى خلافة عمر بن الخطاب فتحها بعد أن تغلب على القبط، لما أقام عمرو هذا الجامع كان معبداً قديماً، إلا أنه كان فى عهد الفراعنة ديراً وهو واضح على سد عال على شاطئ النيل وطوله تسعون خطوة، وعرضه ستون خطوة، وبداخله اثنان وخمسون عموداً من الرخام، وحرمة مكشوف، وله ثلاثة أبواب ومئذنة قصيرة وسقف منقوش، وتطل جميع نوافذه على النيل، ومحاربه منحرف نحو الركن، وهو من الخشب المنجور، ويزدحم فى الفجر بالمصلين لكنه مقر طلاب العلم، وتلقى فيه الدروس العامة، وفيه أربعون أو خمسون حلقة تلقى فيها شتى العلوم، ويختم القرآن من مائة إلى مائتى مرة فى اليوم واللييلة، وثمة من حفظة القرآن من هم أكملهم، وكأنما هذا الجامع هو جامع الأزهر فى مصر إنها مدينة طيبة الماء لها الشهرة عند العرب والعجم، وفيها يستجاب الدعاء، وبه مبرة أوقافها عظيمة وبه يضيّف العلماء والفقراء والمساكين عمر الله هذا الجامع إلى انقراض الدوران^(١).

وعلى ربوة على شاطئ النيل كذلك جامع الظاهر بيبرس، ويقوم على ستة وثلاثين عموداً من الرخام، وفى سقفه نقوش مذهبة بديعة، ومحاربه ومنبره من الطراز القديم، ولكن جدرانها الأربعة من الحجر المكسو، وكان كل جدار مرآة، ولا وجود لمشله فى

(١) يعنى: إلى قيام الساعة.

أرض مصر، وكل الرحالة الذين يقدمون مصر يعجبون لأساس هذا الجامع لأنه كان في الأصل صومعة قديمة، وفي نقوش بديعة من كل الأنواع ويعجز عن وصفه الواصفون، وفي مصر كثير من الجوامع التي أقامها السلاطين ولا وجود لمثلها في سائر أركان الأرض إلا أن جامع المنيا هذا يختلف عنها جميعاً لأنه في طوره عجيبٌ غريبٌ منقطع النظر، وعلى قبة كتب هذا التاريخ (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا المسجد المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر بيبرس خلد ملكه سنة عشرين وستمائة) وله بابان ومنارة وكل كواته تطل على النيل، ولكن لا وجود لما يشبه جامع عمرو.

ويقع شمال المدينة وفي السوق السلطانية جامع الشيخ مصرى، وهو تحتاني والمصلون فيه كثير، ويوجد كذلك جامعان لا علم لنا بهما فضلاً عن الزوايا.

وثمة ثلاث تكايا وإحدى عشرة وكالة وثلاثمائة دكان وحمامان، وعلى مقربة من جامع عمر بن الخطاب حمام منذ عهد فرعون بقي على ما هو عليه، إنه حمام قديم عجيب، وهو معلوم لدى العرب والعجم وإذا دخله مريض تم له بأمر الله الشفاء وإذا دخله مجزوم أربعون يوماً، فكأنما خرج من بطن أمه بيضة بيضاء حتى أن ابنة على بن أبى طالب العذراء قدمت مصر ودخلته فشفيت من مرضها، وهذا الحمام من بناء الحكماء القدماء وحوضه ذو صنوبر مرتفع بقدر قامته إنسان ويكون فيه الوقوف ويستحم واقفاً وإن لم يكن من الجص، وقد طلى بابه وجدرانه بالمسك والعنبر والزعفران، وجدرانه مبنية من الجبس الخالص والعبير ينعم بتنسمه كل من يستحمون فيه، وينبع من جدرانه ماء الورد والمسك والكافور يتنسمه المستحمون، وجوه معتدل لطيف لقربه من النيل وماؤه من النيل، وأرضيته مفروشة بالحجر الأبيض، وفي رمتنا لا يستطيع عامل ماهر فينا أن يضع حجراً مثله في موضعه، وغرفة الثياب فيه صغيرة وغاية في الصغر، أما الحمام الذى فى قصر آغا الغلال فحمام جديد إلا أن جوه ثقيل، وثمة أكثر من مائة سيل، وستون مكتباً للصبيان، ولا وجود لسوق فيها، وجميع أسواقها مغطاة لدفع الرمال والغبار وشدة الحر عنها، وفي الوسط قصورٌ فيها قصر الكاشف، وقصر آغا الغلال على ضفة النيل وهو قصر جميل، وكل قصورها وما فيها من شرفات ونوافذ

تطل على النيل، وهى قصور عالية يمتد منها البصر إلى الدنيا، وفى الجانب الغربى من هذه المدينة ستمائة قرية معمورة، وهى بلاد ذات بساتين كثيرة واسعة وجميلة لاعتدال جوها فأهلها يشتهرون بالجمال، وفتيانها حمر الخدود ومردانها يلبسون الحرير المنقوش، والجند فيها كثير، ويلبس فتيلها ونساؤها على رءوسهن حمر القلائس، ويربطون على خصورهن مناشف بيضاء ويضعون على وجوههن براقع من الشعر ويسمون الخبز المخبوز الأحمر بالريغ وهو أحمر اللون كلون الزردة الحمراء، ومناشفها مشهورة وما أكثر الحداثق فيها، وتجاه النيل فى هذه المدينة آثار فرعونية كأنها أطلال قلعة.

وجاء فى بعض التواريخ أن الشيخ المصرى مدفون فى جامع المصرى، ولم يتيسر لى أن أروى ضريح آخر سوى هذا الضريح فى هذه البلدة.

ومضيت من هناك وسرتُ على شاطئ النيل نحو الجنوب، وبعد خمس ساعات بلغت:

مدينة أشمونين القديمة

وقد بناها أشمون بن بيطر أبى القباط بن نوح، وفيها آثار وأطلال مغمورة فى الرمال، وإذا تعرضنا لوصفها لَمَسَّتِ الحاجةُ إلى مجلد كامل، وفى هذه البلدة ثلاثمائة بيت وجامعان وعدة دكاكين وهى تابعة لكشفية جرجا، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقبجه، وفى نهايتها أربعون قرية، وبها سوق تقام كل أسبوع هى قصبة صغيرة. وتجاوزتها، وبعد ثمان ساعات بلغت:

قصبة بداوى، أى بلدة ملوى

وهى تسبع حكم جرجا، وهى داخلة فى كشفية المنية وألحقت بها قضاء المنية، ويتحصل من قضائها مائة وخمسون أقبجه فى الأحياء وبها ستون قرية ويحصل غلالها آغا غلال المنيا ولها قائد من طائفة الانكشارية وعدد من الانكشارية والعزب أما نقيها فى المنيا وهى على شاطئ النيل على ربوة، وهى بلدة جميلة لأن النيل ينحرف جنوبها وقد عصفت الريح بكثير من بيوتها فهدمت وتخربت، فأقام أهلها بيوتاً لهم فى أرض واسعة بالقرب منها منذ خمسين عاماً، وهى بيوت جميلة وقصور شامخة، وهى أربعة آلاف وخمسمائة بيت ولا وجود فى الصعيد لمدينة جديدة جميلة مثلها، وجميع بيوتها

لها أبواب وجلدناها حمر وسود وبيض وكتب على كل منها اسم صاحب البيت، وتاريخ بنائه وفي هذه المحلة ست عشرة محلة وأربعون محراباً وخمس خطب، وفي السوق جامع يوسف بك يصعد إليه بسلم من ست درجات، وطوله وعرضه ستون خطوة وفي داخله ثلاثون عموداً من حجر أبيض تحمل سقفه، ومحرابه ومنبره خاليان من النقوش، وفي أطراف حرمه اثنان وعشرون عموداً، وله ثلاثة أبواب ومئذنة ولا وجود لمئذنة أخرى في تلك البلدة، وفي البلدة جامعان آخران علاوة على زاوية كما أن فيها حماماً وأربعمائة دكان على الطريق وصاحب هذا الجامع يوسف بك، وهذا الجامع وقف ليوسف بك، ومائة دكان تبرع بهما محمد بك حاكم جرجا، وكل الدكاكين مغطاة سطوحها، وشوارعها الرئيسية نظيفة يسقى به السقاءون ماء النيل وبها ثلاثة خانات وسبعة مكاتب للصبيان وسبع مقاه، وستة سبل وبيوت للعسكر وخمسون طاحونة مائية تديرها الخيول، وصبع طواحين للزيت، ولم أرَ فيها مخابز، إن جميع الأهالي في هذه البلدة يخبزون خبزهم في بيوتهم، يسكنها سبعة عشر ألف شخص، ولكنهم يحبون ويضيفون الغرباء، وفي جوانب المدينة الأربعة أبواب كأنها أبواب القلاع، وهي من الخشب، وعليها مزاغل، ومنها تطلق النار على المجرمين من العرب إذا أغاروا على المدينة، وفي كل ليلة يسد الحراس هذه الأبواب ويسلمون المفاتيح التي تخص أبواب المدينة إلى شيخ البلدة، إنها مدينة مستتب فيها الأمن وجوها معتدل، وأهل ملاوى مشهورون بالجمال، ومحصولاتها معروفة ومشهورة وصناعتها أعرقها السكر والسكر النبات، ولا وجود لمثله في أراضى مصر، ولكنه يأتي من الشام، وفي بساتينها عود قصب السكر يبلغ في الطول ثلاث قامات إنسان وهو في غلظ الذراع وكل أنبوبة فيه قدر شبر، وهو لذيد كثير الماء، وقد قطعت أنبوبة منه وعصرتها في كوب فكانت مثل ماء الورد فكانت شرباً يجدد الحياة وهو مفيد للجسم وقشره رقيق، ومجمل القول أنه لا وجود في أرض مصر لما في ملاوى من سكر وقصب السكر، وهذه البلدة واسعة الشهرة بذلك وفيها كذلك أشياء أخرى كثيرة، ولكن السكر هو أفضل ما فيها، ولكنى لم أرَ ضرائح كبار الأولياء فيها وإن كنت قرأت لهم سورة

يس، وتجاوزت مدينة ملاوى فى أرض ذات نخل، وانطلقت جنوباً على شاطئ النيل، وبعد ثلاث ساعات بلغت بلدة: دارود الشريف.

أوصاف قصبة دارود الشريف

إنها تابعة لحكم جرجا تتألف من ثمانمائة بيت وهى بلدة صغيرة معمورة، وناحية صنبو قضاء وغلالها مما أوقف فى مصر على الحرمين وهى فى التزام السادة الأشراف، وفيها جامعان وست زوايا ومقهيان وثمانية دكاكين وقد حفر فيها يوسف الصديق وأمه جبريل بالمصاييح ترعة، وذلك قبل أن تصبح هذه التى بالفيوم ترعة كانت جرجا وحوض يوسف وجميع ما فى مصر من ترع ومن خلجان تظهر فى كل عام بالجواميس والثيران ومائة ألف من الرجال، وترعة دارود التى فى مدينة الفيوم لم تكن جرجا ولكنها شوهدت فى موضعها، وهى تجرى نحو الغرب وتروى مئات القرى وتمر من مدينة بهنيسا كما تسقى بلداناً أخرى كثيرة، ورأيت فى جانب الفيوم بحر يوسف، وماؤه ملح إنه بحيرة عظيمة، وسوف نكتب عنها فى موضعها ثم عبرنا بلدة ترعة دارود، وتجولت ثلاث ساعات وبلغت قصبة صنبو.

أوصاف قصبة صنبو

إنها فى حكم جرجا، وفى التزام السادات، وفيها صوباشى تابع للوقف وبها مائة وخمسون قضاء، وبها سبع وستون قرية، ويتحصل لقاضيها ثلاثة أو أربعة أكياس فى العام، ونصيب البلدة عشرون ألف أردب من القمح والغلال، وتقع على ضفة النيل، بها ألف بيت وثلاثة جوامع وسبعة دكاكين وليس بها حمام، كما لا يوجد بها خان ولا حدائق إنها قصبة صغيرة، ولكن بها دار ضيافة للغادى والرائح، وفى قصر عظيم يقدم فيها للضيوف فطور وطعام مرتين فى اليوم، وللمسافرين بيت للشعير فقامت منها صباحاً ومضيت مدة أربع ساعات على شاطئ النيل شرقاً، ثم انعطفت على شاطئ النيل جنوباً أربع ساعات أخرى لأن النيل ينحرف فى هذا الموضع وكأنه رقبة البعير، وهناك فى النيل جزر ذات غابات وتماسيح ولصوص يركبون القوارب، وتجولت فى هذه المدينة ثمانى ساعات وبلغت مدينة منفلوط.

أوصاف بنائ لوط أى مدينة منفلوط

وهى من بناء أبناء لوط بن أبى القباط، ومدينة منفلوط مسطورة فى دفتر خانه جرجا والشائع خطأ على السنة العوام أن اسمها منفلوط وذلك سبب تسميتها بهذا الاسم وهى فى حكم جرجا باسم منفلوط، وهى مدينة قديمة ذات حكومة عظيمة، وقد منح وزير مصر حاكمها خلعة فاخرة، حتى فى يومنا هذا مصاحب أحمد بك يقدم هذه الخلعة وبها سبعة فرق مصرية من جنود مصر يحافظون على الأمن فى سبعمائة وعشر من قراها ويحصل منها مائتا كيس من مال السلطان وعدة من الأرباب من الغلال ويتصدق بمائة كيس بعد المصاريف، لأن من الواحات وبلاد الفونج والسودان يأتى النحاسون بمائة ألف جمل وآلاف الخصيان السود والبيض من السودان، ويمنح كل أسير ديناراً ذهبياً ويمنح كل جمل قرش واحد، ويحصل من ذلك مال كثير، إنها مدينة يمر بها ناس كثيرة وكان قبل الباشا يحصل غلالها أغا الغلال، وكان يحكم البلاد ستة أشهر، وكان يتقاضى من الكاشف كيسين فى العام وحصانين وعدد عشرة من الخصيان الممالك هو مبيتهم عشرة قروش، وهؤلاء يحصلون الغلال، ويأتى أغا كذلك يستعجل تحصيل الغلال وينال من الكاشف كيساً أجراً على مقدمه فيلج على تحصيل الغلال، وعلى كل أردب يحصل يأخذ الباشا أغا بارتين ويورد للوالى سبعة أكياس، ويبقى بعد ذلك فائض قدره سبعة أكياس إنها قضاء يدر ثلاثمائة كيس، ومن ثلاثمائة قرية يحصل القاضى افندى عشرين كيساً، وثمة قائد ونقيب وأعيان كبار، وعلى بعد ألف خطوة غرب النيل وعلى ضفة ترعة عظيمة ثمانية آلاف وستمائة بيت وهى من طوابق وهى جميلة مزينة، وفيها كثير من الفقراء المساكين وليس الأعيان بهذه الكثرة، ولكن التجار كثير، وفيها ثلاثون محلة وثمانية وثلاثون محراباً وثمانى خطب منها الجامع الفوقانى للسعيد الشهيد: محمد بك ويصعد إليه بسلم من عشرين درجة إنه جامع لم يتم بناءه، ولكن المصلين فيه كثير وليس له مثذنة ولا حرم، وتحت الجامع دكاكين ولكل سوق بابان، وفى وكالة محمد بك جامعه وقد بنى على زاوية كانت من قبل وقد أقيم هذا الجامع فى وسط السوق المزدهمة، ويصعد إليه بسلم من حجر، وجامع عثمان بك جامع عتيق

كبير، وطوله وعرضه خمسون خطوة وله سقف منقوش وله باب للقبلة وبابان في ناحيته وله منارة وخطبة ويسمى الشيخ جمال الدين ويقولون إنه من أولياء الله، وقد صام صوماً داوياً وقد تلقيت منه الدعاء لى، وفى وسط السوق الجامع اليتيم، والجامع العتيق وجامع الكاشف محمد أغا، وهو جامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من ثمان درجات، ولذلك يسمونه الجامع المعلق إنه جامع صغير، وليس به منبر ولا مدرسة ولكن رواياه كثيرة، وله ستون سيلاً وسبعة وأربعون مكتباً للصبيان، ودار للحديث وثمانية خانات، وفى داخل السوق حمام إمام خان وفى السوق كذلك حمام ويوجد مثله فى ديار مصر، وعلى نهر النيل فى دمياط حمام، وهو جميل البناء إلى أبعد غاية وفى المدينة ألف دكان، وكلها مغطاة، وهذا خاص بديار المعجم ولا وجود لسوق وإنما لخان تباع فيه السلع النادرة، وثمة سوق للغلال وسوق للغنم وخارج المدينة أحد عشر سوقاً، وعلاوة عليها سوق للنساء، وأسواق هذه البلد كلها تقع على ربوة، لأنها مرتفعة منظر منها إلى أسفل دار رأسه وقد كتب على معظم الأبواب وأعلامها الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وسألت ما أصل هذه النقوش فقبل لى بعد إيتاء الزكاة من يخرجون لأداء فريضة الحج ثم يعودون فينقش النقاشون على بابه هذه النقوش والآيات، وكثير من هذه الأبواب يوضع عليها جلد التمساح خوفاً من اللصوص، وهذه الأبواب مثل أبواب القلعة عجيبة وغريبة، وجو هذه المدينة جميل ويبدو الشبان بوسامتهم هنا وهناك وحدائقها وبساتينها لا تحصى كثرة وعندما يفيض ماء النيل وتجرى مياهه فى التربة يجتمع على ضفتها جموع من الشباب للهو والمتعة فى العصر حتى مغيب الشمس، ووجوه أهلها وردية اللون، وهم يتاجرون فى الحرير والمناشف كما يباع على شاطئ النيل حرير القمصان وأشياء أخرى ويتعيشون من ذلك، وفيها سبعون طاحونة زيت ومائة وعشرون طاحونة قمح وعشرون مقهى وحانة، وبها محلة لليهود وأخرى للقبط وللمسيحيين واليهود ثلاثمائة بيت، وللأرمن والأوربيين بيوت فيها وهم يأكلون الخبز فيه الينسون، والجبن القريش والزبد الأبيض والكعك وفطائر الجوريك، والعسل الأبيض المصفى والليمون والسفرجل والرمان والنبق وغير ذلك كثير، ولكن ليس هناك جميز ولا مور وهم يكرمون الضيف.

بيان بالضرائح فيها

ضريح الشيخ محمد زعفران، وهو إلى جوار الأسواق السلطانية، وضريح الشيخ محمد أنفاس المغربى، وهو بالقرب من المسجد، وضريح الشيخ محمد القبيح وهو بالقرب من جامع اليتيم، وبالقرب منه ضريح الشيخ عبد الكريم وفى الجانب الغربى ضريح الشيخ عباس وفى الجهة القبلىة ضريح الشيخ سليمان سلمانى، وبالقرب من قصر الكاشف مدفن الشيخ عثمان، وفى وسط المدينة الشيخ أبو الحسن، وعلاوة على ذلك توجد آلاف القبور وقد مرغت وجهى على هذه الضرائح وسألتهم البركات والعون، قدسنا الله بسرهم العزيز، ومن صلحاء الأمة أصحاب الكرامات الشيخ على سنارى، والشيخ محمد المنفلوطى كما وجدت قبور للطرارين والعيارين والمضحكين، ولكنا عرفنا الحافظين وأصحاب الكرامات ومن هؤلاء الذى حدد ميقات فتح القلعة بالساعة والدقيقة، وقبل أن تفتح بشمانية وخمسين يومًا، وقد روى فى الطريق يبشر به وهو من المجاذيب، وغادرت هذه المدينة بعد ثلاثة أيام، ومضيت جنوبًا ست ساعات حتى بلغت مدينة أسيوط القديمة.

أوصاف مدينة أسيوط القديمة

أسيوط فى اللسان القبطى اسم كاهن عُمَر طويلا وكان له حَقٌّ من جميع العلوم لأنه أدرك نبى الله إدريس - عليه السلام - وهذا الاسم فى أفواه العوام هو سيوط وفى الزمان الماضى كانت أسيوط قلعة قديمة ضرب عمرو عليها الحصار سبعة أشهر ثم فتحها فتحطمت أسوارها وبرجها، وآثارها ظاهرة للعيان كأنها شمس الضحى وهى مدينة حول جهاتها الأربعة أرض منخفضة، وهى كاشفية تتبع جرجا، وفيها ثلاثمائة جندى وثلاثمائة جندى مصرى من أربع فرق، ويتحصل من أربعمئة وعشرين قرية خمسة وثمانون كيسًا وألف أردب من الغلال، ويحاسب عليها فى ديوان مصر ولها موظفان لاستعجالها وتحصيلها، وتجمع الغلال فى فترة تتراوح بين ستة وسبعة أشهر، وترسل إلى مصر فى السفن، كما أن الموظفين يحصل كل منهم على ثلاثة أكياس، وما يفيض من ذلك لا يرسل إلى الباشا، وهى قضاء يُدرُّ مائة وخمسين أقبه، وحواليها مائة قرية

وخمسة، ويحصل منها ثمانية أو تسعة أكياس، وفيها مفتى على المذاهب الأربعة وشيخ إسلام، وسبع طوائف للقواد والأعيان الكبار، وهى مدينة قديمة تقع على بعد ألفى قدم من شاطئ النيل وعلى ريوه عالية فى حدائق ونخيل وفيها ستة وعشرون محراباً وتسعة جوامع يخطب لصلاة الجمعة فيها علاوة على المساجد، ولها جامع جديد بناه مير يوسف بك وطوله وعرضه خمسون خطوة، وفيه ستة وعشرون عموداً، وعليه سقف غير منقوش ومنارته من ثلاثة طوابق، وجامع أمية وهو جامع عتيق فى جانبىه الأيسر باب ينزل منه بسلم من الحجر وطوله وعرضه ثمانون خطوة، وفى داخل الجامع ثمانون عموداً من الرخام وفى حرمة أربع شجرات نبق وأربع نخلات، ومنبره من الخشب المزين وعلى بابه كتب عليه بالخط الكوفى البسملة وآية الكرسي، وصاحب الخيرات الخليفة عمر وقت الفتح.

وقد عمر عام خمسائة، وهو جامع عتيق ويقول البعض إن عمر لم يبنه إن بانيه عمر من الخلفاء الفاطميين الذى كان له الملك على مصر عام خمسائة، والعهدة على الراوى، وفى السوق جامع الحمصى وهو يقوم على ثمانى عشرة قاعدة من الرخام وله سقف منقوش وبابان جانبيان ومنارة جميلة من طابقين وجامع القاضى صدر الدين يقوم على اثنى عشر عموداً وهو جامع جديد مسقوف، وله بابان ومنارة وليس له حرم، وثمة روايا إضافة إلى هذه الجوامع، توجد كذلك تكية وست مدارس، وسبعون سبيلاً وأربعون مكتباً للصبيان، ودار للقرآن وداران للحديث، وستة وكالات وحمام وهو حمام جميل معتدل الجو كما يوجد ثلاثمائة وستون دكاناً، ولا وجود لمحال للقماش فيها والصاغة فيها كثير، وفيها سبع عشرة مقهى، وأربعون طاحونة وخمسمائة طاحونة تديرها الخيل ولا وجود لطواحين فى خارج المدينة لأن فى هذه المدينة خلقاً كثيراً، والقرى التى خارج المدينة فى حاجة إلى الطواحين، وكل هذه الطواحين تيمارات وزعامات، وفى سجلات شيخ البلد أن عدد سكان هذه المدينة مائة وستة وأربعون ألف شخص، وشوارعها وأزقتها مزدحمة بالناس، وقديماً كان بها قلعة ما زالت آثارها باقية، وقبل مجيء العثمانيين إلى مصر، كان حكام جرجا يحكمون هذا الإقليم مع وزيرهم

وفي هذا الزمان كان بها سبعة وعشرون ألف بيت وأربعة عشر حماماً، وقد رأيت زواياها، وحماماتها القديمة، وحول هذه المدينة رأيت سوراً له أبواب كأبواب القلاع، وكان لهذه الأبواب حراس ليلاً ونهاراً لأن حولها في الجانب الغربي كان يسكن مجرمون من العرب وكان هؤلاء العربان يسكنون في المغارات، ولهم حظائر لخيولهم وكان فيها يسكن قوم لوط وفي هذه المدينة كهوف دفن فيها بعض الموتى، وفي هذه المدينة محلة للقطب ولا وجود لأحد من أديان أخرى إن هؤلاء يغدون ويروحون للتجارة ليس إلا، وتوجد فيها كنستان، وجو هذه المدينة معتدل وفيها فتيان وقتيات يتسمون بالجمال، إنهم جميعاً يكرمون الغرباء ويحبونهم وهم من أهل التقوى، والدكاكين في هذه المدينة تقع في شارع واسع، ولا وجود لدكاكين في طريق إلا في الطريق العام، وفيها سوق سلطانية مغطاة لدفع شدة الحر، ولها الشهرة بالحرير الأبيض والمناشف والبن والغلات ومعظم الحرفيين فيها ناسجون، ويأتى إليها كثير من أهل المغرب، ويحملون معهم أحمالاً من الحرير والكتان، ويحملونها إلى بلاد المغرب منهم.

بيان الضرائح التي في هذه المدينة

في الناحية الجنوبية لهذه المدينة، مقبرتان كبيرتان منهما ما يسمونها الجبانة الكبرى ويصنع أهل هذه المدينة لموتاهم توابيت من الجص الأبيض، ويكتبون عليها التاريخ، ويزرعون حولها الأشجار ويبيت كثير من الفقراء في هذه الجبانة ليدفعوا عنها الحيوانات، وعلى الطريق العام يوجد كثير من السبل، وآلاف القبور للصحابه الكرام، ويشهد أهل المدينة على أنه عند محاصرتها استشهد سبعمائة من الصحابة الكرام وأبنائهم ذوى الاحترام وقبورهم معلومة للجميع، وإذا ما كتبنا في هذا طال بنا الكلام، إنها قبور عظيمة وهى لهم، وفي داخل المدينة قبر الشيخ اسكندر، وجانب الجسر قبر الشيخ محمد المجذوب وبجواره الشيخ روى، وهم من السادات الكرام رحمة الله عليهم أجمعين، ثم غادرنا أسنوط مع رفقاتنا وعبرنا الجسر السلطاني الواقع في الجهة الجنوبية، ومضينا في الصحراء.

بلدة شطب

وهي على حد قضاء أسيرط، وفيها ثلاثمائة بيت للمسلمين وقرى للأقباط، إنها بلدة قديمة تقع على جبل أحمر، وكان على قمة هذا الجبل في ماضى الزمان قلعة وتبدو آثارها، وإلى الجانب الشرقى من الجبل مغارات وأرض خربة إذا بلغها الإنسان اعتراه الخوف الشديد، ويسمون تلك البلدة التى على رأس الجبل وادى طير.

أوصاف جبل الطير

ويسمونه كذلك جبل طيليمون، إنه عجيب وغريب جدير بالمشاهدة إنه جبل عظيم يحار فيه الوصف، ويأتى إليه أنواع من الطيور من الروم فى فصل الربيع، ومكثنا على هذا الجبل، ونزلنا ضيوفاً على أهله ولكن ليس فيه طيور اللقلق والبجع، وتحت الجبل أرض صحراوية، وكانت الطيور تصيح طوال الليل إلى حد أنه يتأذى بأصواتها المستمعون إليها، ويعرف ذلك أهل تلك المدينة، وثمة مقبرة فوق هذا الجبل، وفى كل قبر طيور مدفونة فى كفن، وأكثرها طيور اللقلق المكفنة، وتأتى جميع الطيور إلى هذه المقبرة وهى ترفع أصواتها بالنواح، وتقوم حول هذه المقبرة وتزورها، كما أنها تمكث فى هذا الجبل، ومعظم هذه الطيور التى فى الأكفان تبدو من القبور وأجسامها لا تبلى فى أكفانها، ولا يعرف أحد شيئاً عن هذه الطيور المدفونة، وقد حملت طائرين مكفينين حديثاً إلى الكتخدا إبراهيم باشا فأرهما، وعند الفجر ارتفع صوتهما بالصياح، وكان صياحهما يثير الفزع ويتوهم من يسمعهما أن الوقت وقت السحر.

وفى هذا الجبل غار عظيم، وتصيح الطيور عنده، وبعد أن تصيح سيع صيحات تحوم حول الغار ثم تمكث فى هذا الغار كأنها تتشاور فيما بينها، ثم يدخل طائر من كل جنس من الطيور هذا الغار ولا تخرج من هذا الغار المظلم بل تموت فيه وإذا لم تمت هذه الطيور فى الغار امتنعت بقية الطيور عن الطيران، وإذا خرجت بعض الطيور من الغار فإن الطيور الأخرى تنفرها وتقتلها، ويضعون غيرها فى الغار، وبعد أن تطلع الشمس، تغادر جميع الطيور هذا الجبل، وتصعد صيحة حزينة وتدور حول قمة هذا الجبل حتى مغيب الشمس، ثم تعبر النيل إلى بلاد الفونج، وتخرج من جزيرة مصر

هذه وتمضى نحو البحر المحيط جنوباً، وقد رآها البرتغاليون والهنود فى سفنهم ولا يعلم إلى أين تمضى بعد عبورها البحر المحيط، ولا يخرج من جزيرة مصر طائر اللقلق، ولكنها لا تفرخ على الساحل، لأن بيضها ينضج فى الحر، ولقد شهدت فى طريقى إلى مكة بيضة نعامة ذات مرة، وقد ثقتها وأفرغت ما فيها لإحضارها إلى بلاد الروم إلا أن هذا الفرخ الذى خرج من البيضة طار من شدة الحر وقد رزت مقبرة الطيور ذات الأكفان، ومضيت إلى الغار المذكور، وكان غاراً عظيماً ولم يكن ظلامه دامساً، ولكن من جثث الطيور تصاعدت رائحة تفقد الإنسان وعيه، ورأيت جميع أنواع الطيور فى هذا الغار، وفى كل عام تأتى الطيور من جميع الأجناس إلى هذا الغار وتمضى هذه الطيور إلى أسوان والسودان وتعبّر البحر المحيط، وتعود إلى السواحل فى الربيع وتقوم حول هذا الجبل سبع مرات وهذه الطيور لا تنام ليلاً بل تمضى وتتهافت على هذا الغار، والله يعلم عدد هذه الطيور، وفى كل عام تبدى منظراً عجيباً ويأتى أهل هذا الإقليم، ويمضون إلى هذا الغار ويذبحون كل طائر وهم يصنعون فى ذلك مثلما كان عليه آبائهم بحيث لا يبقى فى الغار طائر، وهم يعلمون أن الطائر منها إذا وقع فتلك أمانة على القحط، وكل إنسان يخزن متاعه على أن قحطاً عظيماً سوف يقع، وإذا صلب طائر سهل صيده وإذا صلب طائران أخذوا بيضهما، وإذا صلب ثلاثة طيور كانوا غنيمة، وإذا اقتربت من النيل بمقدار ستة عشر ذراعاً تحصل مال للدولة وإذا صلب أربعة طيور أترى جميع الملتزمين، وإذا صلب خمسة طيور أصبحت أفراد الرعية جميعها أمراء، وإذا صلب ستة طيور ارتفع النيل ستة وعشرين ذراعاً وكان فى كل سنبله مائة حبة، ويعجز الفلاحون عن حمل محصولاتهم من بيادهم وهذا معتقد الفلاحين فى الصعيد ويعجز الرعايا والامناء والكاشفون أيضاً عن حمل محصولاتهم من البيادر، وتلك حكمة عجيبة وطلاسم قديمة وسحر، والحمد لله أننا رأينا هذا المنظر العجيب فى سياحتنا وتجاوزنا هذه المحلة وانطلقنا جنوباً وبعد ست ساعات بلغنا قصبة أبو تيج.

أوصاف قصبة أبو تيج

إنها كاشفية تابعة لحكم جرجا، وبها مائتا قرية يتحصل منها سبعون كيسان وعشرون ألف أردب من الغلال، ويحاسب عليها فى ديوان جرجا، ويقيم أغا استعجال الغلال

فى جرجا، وليس فيها عسكر ولا مفتى ولا نقيب، وهى قضاء يغل مائة وخمسين آقجه، وفى ناحيتها ثمانون قرية، وهذه القرى تلحق بقاضيتها ويتحصل منها على خمسة أكياس فى العام، وبها ألف بيت وسبعة محاريب وثلاثة جوامع وستة مكاتب للصبيان وخمسون سوقاً صغيرة إنها قصبة صغيرة اقتضت حكمة الله أن أنزل ضيفاً على دار ضيافة كاشفها، وفى الضفة المقابلة للنيل قبيلة أبى يحيى بها ستة آلاف فارس وجند يركبون الجمال وقد حاصروا دار الضيافة التى كنت بها ونشب القتال وبدأوا فى إطلاق رصاص بنادقهم وفى دار ضيافتنا هذه وقف عشرة من الجند التابعون لإبراهيم باشا وثلاثة وعشرون من جند الكاشف وسبعة جنود ممن معنا ووقفوا جميعاً وراء ثقوب المزاغل وأطلق الرصاص عليهم فقتل ستة عشر من العرب وسبعة جياد وقدم فرسانهم إلى قصبتنا، وكان معنا سبعون فارساً فخرجنا من دار الضيافة ووقعت مناوشات بين الطرفين وقد قتل من العرب ستة وعشرون كما قتل فى دار الضيافة اثنان وأربعون من العرب وقد تدرجت رؤوسهم، وتعلق بقيتهم بأذيال الفرار وكثير منهم غرقوا فى النيل وغنمنا منهم سبعين جواداً وسبعة حُجُور^(١) وأحد عشر هجيناً ووقع فى الأسر ثلاثة عشر عربياً واستشهد منا سبعة من العرب ونفق جوادان وقتل جندى من جنود الباشا وثلاثة من رجال الكاشف وأمام دار الضيافة وضع اثنان من العرب على الخاروق ووضعت رأسهما على رمح وحشى جلدتهما بالقش وبعث بهما فى موكب إلى جرجا، وقد وهبى الكاشف ثلاثة حجور وهجيناً، وقد مضيت مع الجند إلى جرجا فى الموكب وتجاوزناها إلى:

بلدة شيخ ابن عابد

وهو من المشايخ المطيعين للسلطان سليم، وتسمى هذه القبيلة قبيلة الهوارة وخيول مصر فى هذه القبائل إنهم عشرة عشائر وقبائل، ورجالها شجعان ولهم ثمانية آلاف جندى وأرضهم كثيرة المحاصيل ولهم خمسمائة بيت وجامع ودار ضيافة، وللشيخ عابد بها قصر عظيم، وثمة ضريح للشيخ ابن منجا وفى كل ليلة جمعة يزور الشيخ ابن عابد ضريح الشيخ ابن منجا ويقيم له المولد الشريف، ويضيف الفقراء والمساكين ومنحتنى

(١) الحِجْر: أنش الحبل، والجمع: حُجُور وأحجار انظر: المعجم الوجيز ص ١٣٦.

قبيلة الهوارة مهراً ومضيت إلى شاطئ النيل ثانية، والنيل فى تلك الناحية واسع وفيه جزر، وفى كل جزيرة غابة وهناك فى النيل تماسيح وأفراس النهر، وإذا فاض النيل انشعب من النيل ترعة فى الرمل وهى ترعة عظيمة، وفيها تجرى مياه النيل، وبهذا الماء ترتوى آلاف القرى وفى هذه الترعة عمود عليه طلسم ضد التماسيح ولذلك تخاف التماسيح دخول هذه الترعة. فإذا دخلها تمساح نفق وانقلب على ظهره على وجه الماء، وهناك التماسيح تأكل الجثث التى فى الطين وصغار الأحجار وتصعد من قاع النيل جثث التماسيح بين الجزر بعد أربعين يوماً ويمضى أهل تلك القرى وأولادهم إلى شاطئ النيل وهم آمنون لا يخافون شيئاً، ويشربون من مائه، ويمضى الرجال والنساء إلى ساحل النيل، ويضربون ماء النيل بعضى غلاظ.

والتماسيح تحطف خيولهم وجمالهم وتصعد الجزر وتأكلها، إنه حيوان لعين ويذاه وقدماء ضعيفة وهو يتلع الرجال والأطفال، أما إذا دخل التماسيح ترعة الرمل نفق فى التو من أثر الطلاس التى فى الترعة، والفلاحون يخلون جسمه من جلده ويصنعون من جلده قوارب يعبرون بها الترعة ومضينا سبع ساعات جنوباً وعلى بعد من النيل قصبة تمه.

أوصاف قصبة تمه (طما)

إنها التزام تابع لرجاء، وبها خمسمائة بيت وجامعان ومقهى وبها سوق عظيمة ودار ضيافتها قصر كبير، وفيها حدائق هنا وهناك وبها ساقية وزاوية، وتجاوزناها إلى أرض ذات نخيل وبعد خمس ساعات بلغنا قصبة تحت (طهطا).

أوصاف قصبة تحت (طهطا)

بنت فى عهد العباسيين إنها تابعة لرجاء وتحصل منها ثلاثون كيساً وثلاثة آلاف أردب من الغلال وفيها من الجند ثلاثمائة. إنها كاشفية بوليس فيها طوائف عسكرية ولا شيخ إسلام ولا نقيب أشرف ولا قواد، وهى قضاء يدوم مائة وخمسين أقبه، ومسبق أن تحصل من مائة وخمسين قرية فيها عشرة أكياس، وأغا استعجال الغلال بها مقيم فى رجاء.

وهى تقع على ربوة بالقرب من شاطئ النيل، وهى ليست قصبة كثيرة السكان أما

قديمًا فكانت معمورة وآثار مبانيها ظاهرة، وفيها الآن ألفى بيت وعشرون محلة وسبعون محرابًا وتسع خطب وتكيتان وحمام مظلم قذر ومائة سوق صغيرة وثلاث وكالات وثلاث مقاه، وعشرون سبيلًا، وفيها ثلاث منارات ظاهرة إضافة إلى الزوايا التي ليس لها منارات، وهذه البلدة ثقيل وخمٌ جوها، وأهلها فقراء، وبالقرب من البلدة في النيل جزر، ويَضِلُّ الإنسان في شوارعها كما أن فيها كثير من التماسيح، وبعض الفتيان يقتلون هذه التماسيح وينصبون جلودها على الأبواب دفنًا للصمص، وأكثر الأبواب فيها عليها جلود التماسيح، وقد دفن في أرضها أولياء.

الأولياء المدفونون في أرض تلك البلدة

في خارج المدينة قدوة الرجال ونقطة الكمال الشيخ أحمد الفرغل ولقد أظهر من كراماته الكثير، إنه قطب عظيم، كما زرت الضرائح التي في المقبرة التي تتجاوز ضريحه ومضيت في البستان القريب منه، وهو كثير النخيل، وكان الجو شديد الحرارة.

أوصاف حكومة بلدة الجزيرة

إنها في جرجا ولها ثلاثمائة تابع، تغل مائتي كيس، ويتحصل من قراها عشرون كيسًا وعشرة آلاف أردب من الغلال، وحسابها في ديوان جرجا، وهي قضاء يدر مائة وخمسين أقبه في كل مدة ثلاثمائة كيس يحصلها وليس لها عسكر من سبع فرق، ولا يوجد بها أغا للغلال ولا نقيب ولا مفتي إنها قصبه يسكنها الكاشف، وليس فيها إلا جامع ومقهى ومبرة وسوق ولكن فيها كثير من الضرائح، وأسماء أصحابها لا ترد على خاطري، ولقد قرأت لأرواحهم سورة يس، ووهبت ثوابها لأرواحهم الطاهرة، تقبلها الله تعالى، ثم ركنت إلى الراحة ساعتين وبعد زوال الحر في وقت الزوال قمنا ومضينا لمدة ثلاث ساعات وبلغنا سوهاج.

أوصاف قصبه سوهاج

إنها في حكم جرجا، ويتحصل منها خمسون كيسًا وألف أردب من الغلال، وتضم ثلاثمائة قرية، وهي عمد جرجا بالغلال وأغا غلالها يقيم في جرجا، ولقراها الستين

قاضي شرعي، ويتحصل منها عشرة أكياس في العام، ولقربها من جرجا ليس لها عسكر من سبع فرق ولا مفتى ولا نقيب إنها قصبة جميلة قائمة على ربوة رملية بها بيوت ذات أسوار كأنها أسوار القلاع، وبيوتها ألفان ومائة وستون بيتاً من كبير وصغير وهي بيوت متعددة الطوابق وبها ست عشرة محلة، وستة جوامع، وخارج هذه البلدة من الناحية القبليّة جامع السلطان أكراد وطوله وعرضه خمسون خطوة، وبه اثنان وثلاثون عموداً وعلى يسرة هذا الجامع على بعد عشرة خُطى منارة عالية جميلة، وللجامع بابان جانبيان وباب للقبلة، وبالقرب من قصر الكاشف جامع السلطان أيك التركماني، وفيه سبعة أعمدة منقوشة تحمل سقفاً منقوشاً ومنارة مُنهدمة، إنه جامع قديم، وهي عجيبة الشكل، ولم نشاهد جوامع أخرى، وبها خمسون محراباً مع الزوايا وثلاث تكايا بدوية وسبعة عُلوية وثمانية برهانية، وفي سبع زوايا مدارس، وبها عشرون سبيلاً عذبة الماء واثنان عشر مكتباً للصبيان وست وكالات وستة خانات منها خان سليم الكاشف وخان كشك أوغلي، كما أن فيها حمام ومائة دكان ولا وجود فيها لسوق للحريز، وبيوتها بهذا القدر وهي قليلة العمران وليس بها قصور عظيمة، والفقراء فيها كثير، ومئات النخيل، والحدائق فيها قليلة وإذا ما اشتدت بها الريح ثار الغبار، وخبزها جيد كما أن شمامها طيب وبساتينها كثيرة وأرضها خصبة وإن الكيلة تغل خمسين كيلة من الغلال وفولها وفير.

بيان زيارتنا لقطبها العظيم

هو الفاضل العالم أبو القاسم، وقبره يزوره الناس ليل نهار، وخرجنا من هذه البلدة وعبرنا النيل ومضيئنا شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وذلك لأن تخطى الثرع والخلجان كان مستحيلًا، لذلك اتجهنا في الطريق يمينًا وشمالاً، وتحملنا مشقة شديدة طوال سبع ساعات وبلغنا قصبة المنشية.

أوصاف قصبة المنشية

يحكمها كاشف وبها مائتا قرية ويتحصل منها ستون كيساً واحد عشر أردباً من الغلال، ولها من التوابع مائة، وليس بها عسكر من فرق أربع ولا مفتى ولا نقيب

وأعيان أشراف وأغا الغلال يسكن جرجا، وهى تضم سبعا وستين قرية، وعلى بعد خمسمائة خطوة من النيل ألفا بيت وسبعة عشر محرابا وثلاثة خطب إنها قصبة جميلة، وفى سوقها جامع السلطان محمد أكراد وطوله وعرضه أربعون خطوة، وفى أركان حرمه الأربعة أعمدة وفى داخل الجامع اثنان وثلاثون عمودا تحمل سقفا مزخرفا وبه ثلاثة محاريب وعلى باب منبره الخشبى كتب تاريخ هو:

(أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك محمد بن أبى بكر فى شهر رجب سنة أربع وثلاثين وسبعمائة)

هذا هو محمد أكراد الذى أقام على قبر الإمام الشافعى فى مصر قبة وهو مدفون إلى جانب الإمام الشافعى، وليس فى هذه البلدة جامع كبير سوى هذا الجامع علاوة على المساجد المعمورة فيها كما أن فيها حماما وخانين وسبعة أسبله، وثلاثة مكاتب للصبيان وماتى دكان وسبعة مقاه، وجمال جرجا يشبه جو حدائق أرض الروم، وأهلها يحبون الغرباء ويكرمونهم، وغادرتها وانطلقنا جنوبا على ضفة النيل واجتازنا مزارع وبساتين الشام، ويبعد عن النيل أرض ذات نخيل، وقرى وحدائق وساقية، وعبرنا زوايا بها أشجار وارفة.

أوصاف مدينة عظيمة هى عاصمة الصعيد القديمة وهى مدينة جرجا

اسمها مدينة دهليز حبش ويانها هو طوطش بن أبى القباطة بعد الطوفان وهى مدينة عامرة عظيمة، ثم آل الحكم بعده إلى ابنه جرجيس وقد أنشأ مدينة جرجا وكان شداد هو بانيتها لقد كانت حديقة إرم، ولذلك وقع الخطأ فى اسم هذه المدينة فقالوا جرجا والصواب أن يقال جرجيس وهى تغل ستة أحمال من المال للسلطان وهى ملحقة بالخدمة السلطانية مع مكة والمدينة وأستانة، ومنها أمير الحاج، وله منصب عظيم وكل قرى جرجا عامرة ولكن ألفا وخمسة وسبعين من قراها خاصة بغلال الدولة، وهذه القرى تغل فى العام ثمانين ألف أردب من الغلال، ولكن جرجا تدر مائة وستة وثلاثين ألف أردب من الغلال، ويفيض لوالى مصر مائة وثمانون ألف أردب علاوة على ما يدخل تحت حكم جرجا، أما من القرى التى فى الإقليم فيحصل منها مائة وأربعون باره

إنها بلدة وفيرة الغلال، ويحصلها ضابط الحاكم وهي وقف، ويجرى منها الرواتب على جامع الأزهر وغيره من السلاطين، وأمير ميران جرجا يضع يده على هذه الأوقاف أما إذا ما ظلم ففي اليوم الثالث يعترض على ظلمه علماء مصر ليمنعوا الظلم، وليس في إقليم جرجا تيمارات ولا رعامات، إنها قرى سلطانية وأوقاف، ويبقى لحاكم جرجا بعد المصروفات ثلاثمائة كيس ولكن حاكم جرجا المغفور له على بك تحصل لنفسه على مئات الآلاف من القروش لنفسه فرضها على الأهالي، وهذا صحيح لأننا نظرنا في دفتر خانه جرجا وفي الإيرادات والمصروفات، لأن في إقليم جرجا سبعة وثلاثون كاشفاً وفي إقليم جرجا واحد وثلاثون قضاء، وبها ستة آلاف ومائة وسبعون قرية عامرة، ولكن حسب حساب قرى الأوقاف، ويأتي مشايخ العرب إلى ديوان جرجا مرة في العام ويجددون بيعتهم لحاكم جرجا، ويلبسون الخلع والثياب الحريرية، ويحصلون المال السلطاني الخاص بالعسكر، ويتال شيوخ العرب هؤلاء من هذه القرى أحد عشر ألف رأس من الغنم ومائة ألف أردب من الشعير وخمسين ألف أردب من القمح وأربعين ألف أردب من البقلة، كما يقدمون إلى الحاكم الهدايا.

وقد تجمع للحاكم عشرون ألف أردب من القمح وأربعون ألف أردب من الشعير وزعها على الجند، أما ما تبقى من هذه الغلال فقد باعها، وطبق قانون السلف يقدم خمسمائة جواد من إقليمه، ويرسل كذلك من الهدايا ألف وخمسمائة جواد وسبعمائة أو ثمانمائة قافلة من الجمال ولتحصيل هذه الغلال يأتي في كل عام خمسة آلاف حمار، ولجرف الترع والخلدجان يأتي ألفا ثور، ومائتان من الخصيان وألف من المماليك غير السود كما ترد هدايا لا حصر لها، ورؤساء القبائل وشيوخ العرب وشيوخ البلدان، وجميع الكاشفين وبقية الأعيان يأخذون هذه الهدايا، وفي كل عام يأتي مال وفير بلا حساب، أما المصروفات فهي خارجة عن الحساب ويتسلم باشا مصر كل عام سبعين كيساً وأربعين من الخيل ومن هذه الخيول ما هو مُحلَّى بالذهب وذهبي السلاسل وأربعين مملوكاً أسود وعشرة من الأحباش وهؤلاء المماليك جميعاً في ثياب فاخرة، ويأتي مع هؤلاء الهدايا من ماء السورد والمسك والعنبر والكافور ومن الفيل وجلد التمساح، وآلة

الحرب، هذا كله ما يأتى على الترتيب لهؤلاء الغلمان السود ولهم كذلك عشرون جارية من بلاد الفونج إنهم يأتون فقراء خالين الوفاض ولكنهم يثرون بتلك الهدايا ومائة جمل بلدى وألف أردب من القمح، وألف أردب من عدس وألف أردب من قريك، وألف أردب من شعير، ويسلم هذا كله إلى باشا الغلال، وألف رأس من الغنم، وألف رأس من الحملان تصل إلى وكيل الخراج، ولو كيل الباشا فى كل عام عشرون كيساً، وعشرة خيول، وعشرة من العرب، وخمسة من الطواشى، وخمسة جمال، وكلها تحمل السكر والعدس والبن، كما تصل هدايا لا حصر لها إلى افندى الديوان ووزير مصر وسبعة عشر قائداً، والحكام باشى والمشعل باشى، هؤلاء ينالون هدايا لا تدخل تحت حصر، وفضلاً عن هذه الهدايا يتسلمون العيدية، كما تصرف رواتب وتعيينات إلى أصحاب المناصب ورجال الديوان والقواد وطوائف الجند المصرين فى جرجا ومن يتبعهم من جند الحراسة والأئمة والخطباء والمشايخ وتصل فى كل عام إليهم أربعة آلاف رأس من الغنم وعشرون ألف أردب من حنطة وأربعون ألف أردب من شعير، وفى كل يوم لهم عشرون ألف رغيف، يزن كل رغيف تسعة دراهم، وألف قنطار من الزيت وسبعون قنطاراً من العسل ومائتا حقية من البن ومائة سفينة خشبية، وآلاف من أحمال الجمال وهذه القرى هى التى تقدم هذه التعيينات وينال الجندى ثلاثمائة كيس علوفة، والجندى ينال مرتباً شهرياً قدره مائة قرش وحامل البندقية خمسة قروش مرتباً شهرياً، ورئيس الفرقة يتقاضى ألفى قرش وخمسة جياذ فى العام، وعشرون من رؤساء الفرق ينالون ألف قرش وجوادين، أما الأوده باشية فيصرف لهم خمسمائة قرش وجواد واحد، كما يبذل العطاء للخدم وبناء على ذلك فإن نفقات وزير مصر ربما زاد عليها نفقات حاكم من الحكام، وهذا مقيد فى دهليز جرجا، وهو ديوان عظيم، وكل ما فى مصر من أرباب الديوان قدرهم فى ديوان جرجا وفيه أصحاب المناصب ولكن جميع كتاب الديوان من القبط لأن لهم عقل أرسطو، إنهم يشقون الشعرة دقة منهم ويحسبون أصغر الجزئيات فى الحساب فى قدرة ومهارة، وخلاصة القول طبق قانون السلطان سليم فلحاكم جرجا هذه الكيفية فى تدبير الأمور، ويكون الحساب قيراطاً قيراطاً ولكن هذا

المال الوفير يحصله الجند بالعنف، لأن الإقليم الكبير قد يكون أهله متمردين، والأموال التي في ذمة العرب يحصلها منهم جيوش جرجا، والجند يطلعون على شأن كل بيت من بيوت القرى، وهم يحصلون منهم الغلال دون خوف منهم، ولا خشية ولا اكتراث بهم فبين هؤلاء العرب فتیان شجعان أولو بأس شديد ويسمون هؤلاء العرب الصبيان، وفي ديارهم مال كثير لأن بلادهم على حدود بلاد الفونج وعلى الجانب الشرقي من هذه البلاد يكون المسير على شاطئ النيل إلى بلاد الحبيشة وعلى مسيرة شهرين جنوباً بلاد البربر إن آخر قلعة على حدود مصر على مسيرة ثلاثة أشهر في الصحراء بلاد الفونج، وثمة ولاية قرمانقه ومنها وعلى مسيرة شهر بلاد السودان، وفي الجانب الغربي على مسيرة ثلاثة أشهر بلاد فاس ومرانكوش وهذه البلاد خاضعة لحكم جرجا وأرض ملاصقة لحدود المغرب وطرابلس، والحاصل أن ولاية جرجا في الإقليم الأول وله علاقة بالإقليم الثاني، إنها واسعة مترامية الأرجاء وغلاتها وفيرة وأهلها محبوبون وخيراتهما وبركاتهما كثيرة، ونهر النيل في جرجا يجري في ترعها ماؤه عذب فرات، إنها أرض ملكية ما يسميه الغرب دهليز الحبش، ومعناه العرش الصغير لبلاد الحبيشة، والعرب يملكون هذه الأرض الصحراوية، وقد حررنا هذا في قضاء بنى سيف وسنحرر الباقي عند سياحتنا في بلاد أخرى، ولوزير جرجا أغا عالي المنصب، وهو يأتي لتحصيل الغلال، ويسكن قصرًا شامخًا في جرجا، وهو يلح في طلب هذه الغلال، ثم تخزن هذه الغلال بعد تحصيلها في مخازن على شاطئ النيل، ويأتي من مصر أغا المخزن لينحصلها في ألف سفينة، وفي مصر العتيقة توضع في مخزن يسمى مخزن يوسف، وأكوامها كأنها الجبال وينال منها جميع الجند جرايتهم وطوال ثلاثة أشهر، ومخزن يوسف هذا مر إلهي وللأغا محصل الغلال حمام وجوادان والأغا ينال على كل أردب بارتين ويأخذ عشرين كيسًا في السنة ويسلم الباقي للبasha وهو خمسة أكياس ويمنع الكتبخدا ويأخذ الكتبخدا ثلاثمائة قرش ويأخذ الكتبخدا من البasha جوادًا على كل ثلاثة جياذ وخصيا على كل ثلاثة من الخصيان، وهذا الأغا يأتي كذلك لاستعجال تحصيل الغلال، ويأخذ على ذلك كيسًا من المال وغلامًا أسود؛ وذلك لتحصيله للغلال ولا يأتي

جنود من استانبول إلى جرجا ولكن يأتي إليها من مصر الجند المعروفون بقبولهم أي جند الباب وقائد الانكشارية وقائد العزب وجند من الخمس فرق لحراستها وتنظيمها، ولا وجود فيها لقائد انكشارية استانبول ولا نائبه، بل يرسلون جندياً غير مرضى عنه من استانبول إلى مصر وفيها شيخ الإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف، ومحصولها في العام عشرة أكياس ويتبعها مائة وثمانون قرية وفيها كثير من الأعيان والأشراف والتجار والملاحين والتجارين.

وثة مرفق يسمونه مرفق القصير خلف الجبال على أنه ميناء مكة والمدينة في السفن ولذلك كان معظم أهل جرجا من التجار والفلاحين.

وبما أن جرجا تقع في وسط الإقليم الثاني فأرضها على عشرين درجة وسبعة وعشرين دقيقة وطول نهارها ثلاث عشرة ساعة وخمس عشرة دقيقة، وثة أرض واسعة خالية بين جرجا وبين قلعة طولها ألف خطوة بعيدة عن غرب النيل وفي جوانبها الأربعة عشرون باباً من خشب ولا خندق لها وعلى كل باب حارس ويوصد كل باب ليلاً، وبها قصور مكسوة بالجص وحدائق وساقية وحوض وشاذروان وجدران القصور مزينة وبها عشرة آلاف وثمانية وسبعون بيتاً بين كبير وصغير، وبها تسع محلات وثلاثة وخمسون محراباً وأحد عشر جامعاً تؤدي فيه صلاة الجمعة إضافة إلى جوامع السلاطين جامع الميرميران، وفي السوق جامع طولاه وعرضه ستون خطوة وهو يسمى جقور جامع، وبه ثمانية عشر عموداً في أطراف حرمه، عليها سقف منقوش وليس له قبة وعلى باب منبره وهو من الخشب كتبت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ {الأحزاب: ٥٦}.

وفي السوق جامع السلطان، وطوله وعرضه ستون خطوة ويصعد إليه بسلم من ثلاث درجات، وبه خمسون عموداً منقوشاً وسقفه منقوش ومزين ومنصب وله ثلاثة محارب وثلاثة أبواب ويصعد إليه وينزل منه بثلاثة سلالم، وتحت ستون دكاناً، وفي حرمه دكاكين للحريم والأقمشة وفي هذه المدينة تباع سلع قيّمة، ومحلات بيع الأقمشة

لها أبواب متينة، وتوصد في كل ليلة وعلى يمين هذا الجامع منارة ذات ثلاثة طوابق ولا يستطيع أن يصعد المنارة كل أحد لأنها منحرفة ولوجود هذا الجامع في السوق، والسوق مزدحمة فإذا انهارت - لا قدر الله - هذه المنارة هلك خلق كثير، إن الذي بناها ماهر، وحرم هذا الجامع مرصوف بالرخام وجدار القبلة من الرخام ومكسو بأحجار مختلفة جميلة، ومنبره من خشب مزخرف.

وفي السوق أيضاً جامع الأمير عثمان طوله وعرضه أربعون خطوة وليس له حرم، وله بابان جانبيان.

وفي غرب قصر البك وفي ميدان واسع جامع الشهيد سعيد محمد بك وهو جامع فوقاني وله ثلاثة أبواب ويصعد إلى كل باب منها بسلم يتألف من عشرين درجة إنه جامع جميل، إنه يشبه جامع رستم باشا في استانبول وداخله مكسو بالقيشاني ومنقوش بنقوش مذهبة، وفي جوانبه الأربعة نوافذ من بللور، وله ثلاثة محاريب مزينة ومنبره ودكة مؤذنه من الخشب، وفي داخله أعمدة رقيقة، وفي الجانب الأيمن منه دهليز يفضى إلى دار ضيافة، فيها يستريح البعض كما يشتغل البعض بالعبادة وبما أنه جامع علوي فليس له حرم وصحنه مكشوف وفي داخله ثلاثون عموداً منقوشاً مصنوعة من شجر الدلب، فهي ليست حجرية وعلى يمين المحراب كتب على لوحة من القيشاني:

{إن هذه حجرة الانكشاري محمد أوده باشي والسلطان مراد الرابع وقد صنعه عام ألف وثلاثة وأربعون}.

وفي السقف كتب بالخط الجلي آية:

{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} {التوبة: ١٨}.

وكتبت أيضاً أربعون آية تحيط بأركان الجامع الأربعة وعلى يسرة الجامع منارة جميلة وفي أسفله حوض وبه صنابير مذهبة وفي الجامع ستة مخازن، يضع فيها التجار سلعهم ودهاليز الجامع الستة تفضى إلى الطريق العام، وإن اللسان ليقصر عن وصف هذا الجامع ولا وجود في مصر ولا في الصعيد لمثله، وهناك أيضاً جامع اليوسفية وجامع

الفقراء وجامع الشيخ عبد السلام وجامع القائم مقام وحمد بك وجامع المقدم عبد الرحمن وهذه الجوامع قليلة الزينة إنها لا تعدو أن تكون على الطرز القديم وهذه الجوامع يؤمها كثير من المصلين وفي وسط المدينة، جامع على بك الجرجى طوله وعرضه، خمسة وأربعون خطوة، وفي داخله ثلاثون عموداً من الرخام على يسرة المحراب المزخرف كتب على لوحة من الورق المقوى تاريخاً هو:

(ولأن حاكم جرجا أسد الله أهل الكرم) (١) رلفقار الأمير العالي صاحب الطبل والعلم، وقال كاتبه أن هذا البناء تم في عام ألف وستمائة).

ومنبه من خشب مزين، وعلى الباب الأيمن للجامع كتب تاريخ بالخط الجلى هو سنة إحدى وستين وألف، وعلى الجامع منارة من ثلاثة طوابق، وفيه خمس منارات أخرى وإلى جانب الجوامع المذكورة مدارس وثلاثة دور لتخفيظ القرآن وداران للحديث ومثمانية عشر مكتباً للصبيان وسبعة أسبله وتسع تكايا وألف ومائتا ساقية وألفا بئر وحمامان وأحدهما للفلاحين، وهو وبيل الجو، وضيق، وحمام غير ضيق، وفي السوق حمام على بك الميرميران وهو حمام ينشرح له الصدر لما فيه من مناشف وطاساته المذهبة وكل ما فيه نظيف وأرضه مفروشة بالرخام وفي قبته زجاج وخدامه صباح الوجوه يخفون لخدمة كل أحد فيه ولهم نواظر وكأنها الخناجر، وفي هذه المدينة عدة خانات وضيفان هذه الخانات من التجار والمسافرين، وهى خان على بك وخان يازجى وخان موسى جاووش، وخان ملى كتبخدا وخان السكرى، وفيها أكثر من عشرين ريعاً وهذه الربوع مساكن للأسر وفي المدينة ثمانمائة وستون دكاناً ولكن ليس فيها من يبيع الأقمشة بالجملة وفيها سلع هندية وعجمية ورومية وكل الدكاكين التى أمام قصر على بك الجرجى مزينة وفي سوق على بك طريق رئيسى على جانبيه مائة دكان مبنية بالحجارة ومسقوفة وفيها سراجون (٢) ولا وجود لسراجين فى غيرها، وللسوق بابان من حديد كأنهما بابا قلعة يغلقهما البوابون فى كل ليلة وليس فيها سوق للبز ولأن هذه السوق

(١) بياض بالأصل.

(٢) صانعو الروج. واحده سرج، وهو رَحْلُ الدابة. انظر: المعجم الوجيز، ص ٣٠٨.

واسعة ففي سقفيها منافذ للهواء، ويرش فيها الماء في شدة القيظ وفيها استراحات ويستريح فيها الأعيان وهم يزجون الفراغ بلعب الترد والشطرنج، وعلى بك وهو فاعل خير يسقى دواب الراتحين والغادين من التجار والزوار ولذلك أنشأ أربعين ساقية، وهي تدور كما يدور الفلك. كما تروى هذه السواقي الرياض والبساتين، وهذه السواقي تأتي بالماء من الآبار وإلى جانب هذه الآبار في جوانب المدينة الأربعة ثلاثة آلاف بئر، وفي جوانب المدينة الأربع حدائق وبساتين، كأنها إرم ذات العماد.

وفي أرض جرجا كنوز ودفائن وخبايا كثيرة، وفيها الخبز الأسمر الأقة منه بباره واحدة، والأردب من القمح بقرش واحد، وأردب الشعير بعشر بارات وثمان الخروف بخمس بارات وفي رمضان بعشرين باره، وغنم جرجا مشهورة وكل خروف يزن من أربعين إلى خمسين أقة، وثمان العجل مائة بارة، وثمان الحصان مائتا باره وثمان الجمل ثلاثمائة بارة، أما الممالك البيضاء والأواني النحاسية فغالية الثمن، أما في تركيا فثمان العبد الحبشي بخمسة عشر قرشاً أو خمسة وعشرون قرشاً، وكبار أعيان هذه المدينة وأرباب الديوان يلبسون فيها السمر والاقمشة الفاخرة والجوخ، أما متوسطي الحال فيلبسون ثياباً قصاراً مبطنة، والفقراء يلبسون بز أسبوط، وأهل هذه المدينة مسنون معمرون، ومنهم من تجاوز مائة وسبعين عاماً وهم فصحاء بلغاء، كما أن شبابها يتميزون برجاحة العقل وفتيانها وفتياتها يتميزون بالجمال لا اعتدال جوها ولهم لهجة خاصة بهم، أما النساء يتميزن بصحة العقل ولهن أسنان كأنها الدر وغدائهن منتشرات وكان وجوههن بدر التمام، وكل من شاهدهن تعلق قلبه بهن، كما أنهن رشيقات القوام وإن وجد كذلك عجائز دميمات وساحرات خبيثات يستوجبن القتل وهن يسحرن الغرباء ويؤذنين بسحرهن، وذلك أن السحر كان شائعاً في هذه الديار منذ عهد الفراعين.

منتجات ومصنوعات هذا الإقليم

يوجد بها الخبز الأبيض كالورد الأبيض وفطائر والكحك واللبن والقشدة، وفريك القمح والسمن والعسل والتمر والليمون والسفرجل والعنب والرمان والخوخ، والتين

الأيض فيها ليس له مثيل في بلد آخر ولكن إذا ما حملوا التين الطارج في سلة إلى خارج المدينة فقد لذة طعمه، وهو سريع الهضم وهو مقو، وتنتج ثلاث مرات في العام، وفيها الغنم والحملان كما أن دجاجها سمين كما تشتهر بخيولها وجمالها وسمكها، ومن مصنوعات الوسائد المصنوعة من الجلد كما يصنع فيها الأبنوس وسن الفيل والشطرنج ووبر الجمال وصوف الغنم وسجاجيد الصلاة والسفن، وفي جوانبها الأربعة مصاطب السوق تستحق المشاهدة وأمام قصر البك يحتشد جمع غفير من الرعاع والعرب وفي الديوان عديد من القاعات والحجرات وفي حديقة الديوان حوض ونافورات وسبل، كما أن ثمة طيور تصدح بأنغام عذاب.

بيان من دفن في تراب هذه البلدة من الأولياء

أولا بالقرب من جامع على بك وفي نهاية دهليز بابه الأيمن قبر صغير للشيخ المكي وهو من أهل الطريقة البكرية، وحينما كان يحفر أساس هذا الجامع عثر على حجر مربع كتب عليه بالخط الكوفي:

(هذا قبر الشيخ محمد المكي سنة ١٠٤١، إن هذا العبد العاصي غادر تراب المذلة هذا وانتقل إلى أرض أخرى إنه مقامنا هو بيت الله ونحن نسكن بيت الله إلى أن تفتي هذه الدنيا).

وقد ظهر قبر هذا القطب أثناء بناء جامع على بك فنقل جثمانه من موضعه ودفن إلى جانب أساس الجامع ومنذ وفاته إلى بناء هذا الجامع ثمانمائة وتسعون عاماً وما زال جثمانه غصاً وقد شهد على ذلك ألف وستون من الناس والكل يعرف كرامات هذا الولي ويقرأ عنها في الكتب وهؤلاء المشاهدون كانوا يلتزمون منه البركات، كما دفن هناك الشيخ المجذوب دهيش بن محمد، وخارج البلدة الشيخ عثمان الصنافيري وبالقرب منه ابن تميم الداري، والشيخ عبيد قطب العالم الروحاني وحكمت المعدن الرباني الشيخ عبد السلام المقرئ، والعالم النصيح ذو اللسان الفصيح الشيخ صبيح، والشيخ عباس، والشيخ بياض، وكذلك الشيخ عمر الحلواني، وفي جامع الفقراء الشيخ

منصور العالم، ويجواره الشيخ حسن السعدى ومحمد أغا وفى الزاوية مقام الأربعين والشيخ عبد السلام ويجواره الشيخ عمر الحورانى ويجواره زاوية مقام الأربعين رحمة الله عليهم أجمعين.

ولله أحمد أنى قرأت الفاتحة لهم جميعاً وطلبت البركة من أرواحهم الشريفة وقد قضيت عشرة أيام هناك فى بهجة وسرور وقد حملت فرمان إبراهيم باشا إلى حاكم جرجا وفيه ذكر لغرق سفينة الغلال وحملته إلى الديوان وبناء على شهادة الأهالى أخبرتهم بأن سفينة الغلال غرقت وأثناء أخذنا من ربان السفينة خمسمائة قرش، وقدمنا للباشا خمسة أكياس ولننا من حاكم جرجا أوزبك بك كيساً وقماشاً من المخمل وجواداً وهجينين، وفرو سمور كما نال كل خادم منا مائتى قرش ومعنا عشرين من حَمَلَة البنادق فودعنا أعيان البلاد جميعاً وأرسلنا إلى الباشا جواداً وعشرة قروش.

بيان القرى والقصبات من جرجا إلى إسنا وأسوان والشلالات

وقد لقينا مشقة شديدة من شدة القيظ فى رحلتنا من جرجا إلى إسنا وأسوان والشلالات وأبريم وصاى وبربرستان وفونجستان، وقد مررنا فى طريقنا على منازل وقرى وقصبات أولاً فى شهر صفر من عام ألف وأثنين وثمانين فى اليوم الأول من شهر صفر وفى معيتنا فرسان وعبيد اشتريناهم ومضيئنا لطيأتنا وركبنا سفينة فى النيل ودخلنا ولاية شرقستان وفيها يسمون جرجا غربستان، وإقليم شرقستان فى حكم أبى يحيى، وله عشرة آلاف فارس يحملون الحراب وبلغنا مدينة:

أبو خالد

ونزلنا فيها ضيوفاً ليلة، وهى بلدة صغيرة بها مائة بيت، ومضيئنا فيها إلى شيخها أبى يحيى وشرفنا بصحبته، وهو من أبناء الشيخ خالد، وإذا لم تضع امرأة حملها وغطت رأسها بسرراويل الشيخ وضعت، ويقول بعضهم إن هذه السرراويل المذكورة ليس للشيخ إنها خاصة بخالد بن الوليد، وقد آلت إلى الشيخ بالوراثه - والعهدة على الراوى - لأن هذه السرراويل وما لها من خاصية معروفة مجربة أحضرت هذه السرراويل من التكية فوجدتها سرراويل حمراء ملفوفة، ويقال لقوم الشيخ يحيى بنى خيالد إنهم قوم فى نعمة

ورغد كما أنهم مطيعون متقادون، وخبولهم عجيبة، وفي الجهة الشمالية من إقليمهم مساحة واسعة من الأرض، وفي الجهة القبلية السويس، وعلى شاطئ بحرهما قلعة ميناء القصير وفي الجنوب مدينة مشا والشمال قضاء أخميم، وهي حدود صغيرة إلا أن قراها غامرة كثيرة المحاصيل فيقع هذا الإقليم بين بحر القلزم والنيل وهو إقليم واسع ومن الصباح اتجهنا إلى الشيخ يحيى بكيس كان قد أرسل معنا أمانة من أغا غلال جرجا إلى الشيخ يحيى، ومضينا مسيرة خمس ساعات على شاطئ النيل فبلغنا:

بلدة حمادى

وهي على ضفة النيل وتحوى مائتى بيت وجامعاً، ويسكنها أولاد الشيخ حمادى وهو من ذوى قربا الشيخ يحيى، وهم يسكنون هنالك كذلك وفيها ألف فارس وأبو يحيى من الهوارة واجترناها وبلغنا:

بلدة مزادى

وبها ستون بيتاً وليس بها جامع ومضينا على ضفة النيل سبع ساعات وبلغنا قصبة بلاش.

أوصاف قصبة بلاش

إنها فى حكم جرجا وكاشفة قوص ويتبعها مائة وسبعون قرية تدر أربعين كيساً من المال وألف أردب من الغلال، وكلها عسكر وهي قضاء فوه، ويأتيها مرة فى الأسبوع نائب يحكمها، وبها جامع ودار ضيافة وستون بيتاً ولا آثار لعمران سوى ذلك وهي كثيرة المحاصيل، وهم يزرعون نباتاً يشبه شجرة ذات سوق ويعلو حتى يبلغ قمة الإنسان وله نور أصفر مثل النرجس، وله رائحة طيبة، ويجمع فى الربيع ويصدر إلى فرنسا ليصنع منه الصبغة، ويشتري التجار القنطار منه بمبلغ ستين قرشاً، ثم يكتمل نوره ويمتلئ بالبذور وتجمع هذه البذور ويبيع الأردب من هذه البذور بثلاث قروش ويستخرجون منها فى مصر وغير مصر الزيت، وزيت السمسم زيت لذيق المذاق وله رائحة طيبة مثل الكافور والمسك والعنبر وإذا وضع فى القناديل انبثقت منه شمعة مضيئة.

وتجاورنا هذه القرية، وفي الجنوب على ضفة النيل رأينا جبلاً على ساحله قرى عامرة وفي هذه القرى رأينا نوعاً من الدوم، وفي الطريق إلى الشمال رأينا بلدة تسمى بلد الدوم، وفيها أخشاب ترتفع في السماء معوجة وغير معوجة لكنها أشجار دوم، ولكن هذا النوع من الدوم كل عذق منه يزن قنطاراً أو قنطارين، وكل دومة فيها تزن أربعين أو خمسين درهماً، وهو دوم أحمر اللون وحجمها في حجم القبضة وهم يتأصلون من الدوم شوكها ويضعونها في حق فيه الفلفل الهندي والتبغ فيصبح هذا الدوم لذيق المذاق والفلاحون غالباً ما يأكلونه.

أوصاف قصبة فوه العليا

هي قصبة معمورة بعيدة عن النيل فيها ثلاثمائة بيت وهي تحت حكم جرجا، وهي مع توابع قوص، وبها مائتان من الجند المعروفين، بـ (سكان) ويتبعها تسعون قرية تدر أربعين كيساً ويتحصل منها على ثمانمائة أردب من الغلال، وليس فيها جند من الفرق الأربعة ولا قائد وبها دار ضيافة عظيمة، وبها جامعان كبيران وسبع زوايا ومقهيان، وليس فيها حمام ولا خان ولا سبيل ولا سوق، ولكن فيها مكتبتين للصبيان، والكاشفون يقيمون بها في خيام وحتى الخيام التي يقيم فيها الكاشفون تقام في الرمال، وفيها أعمدة قديمة منقوشة، وعلى حد قول المقریزی كانت هذه آثار قصور يسكنها الفراعنة في الزمان الخالي، أما في يومنا الحاضر فليست سوى صحراء لا أثر فيها للعمران ولا وجود لروضة ولا بستان، وكثير من أهلها مفاليس، ووجوههم شاحبة أميل إلى الصفرة، وجوها ثقيل وفيها ضريح الشيخ إبراهيم نوري، وله قبر صغير إلى جانب جامع كبير، وله مناقب مذكورة في كتاب الطبقات للشعراوي وتحولنا بعد ذلك بين قرى وفيرة المحاصيل بالقرب من النيل حتى اقتربنا من السويس وبينهما مسيرة ثمان ساعات ونصف، وكما عبرنا أكواخاً من القصب يسكنها العرب وبعد سبع ساعات بلغنا قنا.

أوصاف مدينة قنا

مدينة قنا فتحها عمرو بن العاص وبعد عمرو وفي خلافة عثمان وحين كان محمد ابن أبي بكر والياً على مصر قدم قنا، وجعلها عاصمة ثلاثة أعوام، وقد أصبحت هذه المدينة بعمارتها مصر الثانية، وأقيمت بها قلعة بالقرب من ميناء القصير في تلك الفترة

ومنها كانت ترسل الغلال إلى جدة، وهى ميناء مكة، وينبع وهى ميناء المدينة المنورة، ومنذ هذا العصر وأهل قنا يشتغلون بالتجارة، وفيها تجار عظام وأكثرهم من أشراف مكة والمدينة، ولأن قنا ميناء صغير فهى كاشفية تتبع قوص وهى التزام يدر مائة كيس، ليس فيها جنود من الفرق الأربع ولكن فيها انكشارية وعزب من مصر.

ولهذه المدينة مفتى على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف لأنها مليئة بأشراف مكة وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجة ليس إلا ولتجارها مخازن على شاطئ النيل وتتكدس فى هذه المخازن شتى أنواع السلع لأنها ميناء مكة والمدينة والحبشة واليمن وعدن، ويأتى الأشراف من الحجاج ويقضون فيها أربعة أو خمسة أيام، وهم فيها يسرون على الأقدام أو يركبون الحُمُرَ أو الجمال، ومنها يصلون إلى ميناء القصير، وكراء^(١) الحمار خمسة قروش، ويركبون منها السفن ليصلوا فى ليلة أو ليلتين إلى ميناء ينبع، وبعد ذلك يصلون مكة فى خمسة أو عشرة أيام بإذن الله، ويكلفهم الحج ديناراً واحداً وهناك يلتقى جموع غفيرة من الناس، ولكن الطريق وعمر عسر.

وفى جنوب قنا على ساحل النيل على مسيرة خمسمائة خطوة أرض رملية بها قصور شامخة ومسافة تبعد جنوباً عن النيل قدرها ثلاثة آلاف وستمائة خطوة وهى مدينة جميلة وجوانبها الأربعة لها أبواب، وعليها حراس، ويغلقونها ليل نهار وفيها عشرون جامعاً، وسبع منها خطبة علاوة على كثير من الزوايا وفيها الجامع الكبير يؤمُّه كثير من المصلين ويسمونه كذلك جامع أمير المؤمنين لأن عمرو بن العاص حينما فتح هذه المدينة أقام هذا الجامع للخليفة عمر بن الخطاب، وطوله وعرضه ستون خطوة، وفى داخل الجامع خمسون عموداً من الرخام يحمل سقفاً وفى وسط حرمه خمس نخلات نبتت من جذر واحد، لقد زرع عمرو هذه النخلات بيده ومحاربه ليس خالياً من النقوش ومنيره من خشب وعلى منبره تاريخ هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذا المعمرات المباركة والجامع الأمير حسن أغا فى تاريخ السابع عشر محرم سنة ١٠٧٩).

(١) كراء: أجره.

وقد تخرب هذا الجامع على مر الأيام وقد أنفق حسن أغا وهو ملتزم مدينة قنا من صلب ماله عشرة آلاف قرش لتعميره وترميمه ولا وجود لجامع كبير في تلك المدينة سوى هذا الجامع، وبالمدينة سبع تكايا ومدرستان وعشرة مكاتب للصبيان وعديد من الوكالات وسبع مقاه ومائة وخمسون دكانًا وحمام وسوق للغلال وميدان، ويقام في كل أسبوع في هذه المدينة سوق يأتى إليها جمع غفير من الناس من سبعين قرية بجوارها فيبيعون ويشتررون.

ولا اعتدال جوها نساؤها سمرات جميلات ولقربها من الحبشة فإنهن من نسل الجوارى الحبشيات، وإنهن يتحلين بالأساور والخلاخيل كما يلبسن القمصان الحريرية، ولهن عيون كميون الطباء، وهن يلففن قوامهن بالحرير الأسود، وبعضهن خليعات يرقصن في المقاهى وليس هذا عيبًا عندهن، أما السيدات العفيفات منهن فيختلفن عنهن وهن لا يغادرن من منازلهن إلا إلى المقابر في يوم الجمعة، والرجال يلبسون العباءة وتشتهر المدينة بكرومها وعنبها المسكى وعناقيده تتدلى من السقوف وعنب قنا ينضج قبل عنب مصر والفيوم بخمسين يومًا، وذلك أنه في أرض رملية وجوها شديد الحرارة، أما الخوخ فتزن الواحدة منه مائة درهم، وفيها المشمش طيب وحمامها مشهور ويأتى التجار من مكة ويأخذون الحمام من التجار ويضعونه في أقفاص ليأخذوه، ويطيرونه وهو مقيد الجناحين فيطير ويبلغ في مدة تتراوح بين ساعة إلى خمس ساعات ثم يعود مرة ثانية إلى قنا ويضرب به التجار للناس المثل في من يمضى إلى حيث يريد في طرفه عين، ويقولون أنت حمام قنا، وفي قنا يطيب عبد اللاوى، وهو نوع من الشامم وأكل لبه وبذره مدر للبول كما يطيب البطيخ والشمام والخيار والعجور في هذا البلد.

بيان ما فى هذه المدينة من قبور الأولياء

فى الجهة القبلىة من المدينة وفى الحدائق قبر الشيخ عبد الرحيم القناوى وهو الملقب بين الأولياء والصلحاء بشفيح الملة وقد ذكرت مناقبه على التفصيل فى كتب تراجم الأولياء وطبقات الشعراوى وله باب يفضى إلى الجهة الغربية وعلى صندوقه الشريف زجاج رقيق وعليه سقف منقوش كما أن صندوقه مستور بستر أحمر وعلى عمود رخامى أمامه تاريخ مكتوب هو: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَبْشِرُهُم رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ...﴾ إلى آخر هذه الآية الكريمة رقم ٢١ من سورة التوبة، وبعدها (انتقل العبد الفقير إلى عفو ربه القدير الشيخ الإمام الحسينى، النسيب علم الأعلام، وبركة الإسلام وغيث الأنام، قطب الدين عبد الرحيم الحسينى، وتوفى يوم الجمعة بعد صلاة الصبح فى يوم ()^(١) من شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة هجرية قدسنا الله بره العزيز.

وعند قدمه المباركة الشيخ أبو الحسن وبجانبه الشيخ سيد محمد اسكندرانى وبجواره الشيخ عبد الله القریشى وفى ركنى الشيخ عبد الرحيم من خلفاء الغار الشيخ إبراهيم أبو الدنيا أما سبب تسميته بأبى الدنيا أن ابناً له عندما انتقل إلى رحمة الله، ولم يكن معهم درهم واحد لتجهيزه وتكفينه فانشقت الأرض عن كثر عظيم، وحمل الأهالى ما فى الكنز من مال طوال ثلاثة أيام، فاستغنوا بهذا المال ولذلك لقبوه بأبى الدنيا وقد عمرت قنا بهذا المال المستخرج من ذلك الكثر وبجانب هذا الشيخ العظيم ابنه الشيخ على الصابرى ابن الشيخ إبراهيم أبو الدنيا، وأبوه كذلك قطب عظيم، ولم يضع يده على هذا المال، إنه كان رجلاً نزيهاً، إنه من ذوى قرابة الشيخ الزبيرى وقد توفى أيام الفتح ومن الصحابة الكرام، والشيخ عبد النبى والشيخ سيد محمد والشيخ محمد الحسينى والشيخ سيد يونس، وفى المدينة الشيخ عمر النسيم إنه قطب عارف بالله وله مناقب لا تدخل تحت حصر وخلف جامع عمر فى الركن الأيسر يرقد فى قبر متصل بجوار الجامع الشيخ محمد الأساسى وقد اعتزل أربعين عاماً فى ركن وكان يغادر هذا

(١) يياض فى الأصل.

الركن للتبول والتغوط ليس إلا، وكان ينام ساعة واحدة، ولم يشاهد ماشياً، وقضى عمره أصم أبكم، وقد شغلته الطاعة والعبادة عن كل شيء فى الدنيا وقد حكى البكوات الذين اختلطت بهم قالوا، إنهم كانوا يزورونه كَسِيفِى البال ولكن المَسْرَةَ كانت تدخل قلوبهم بزيارته وقد دفن فى هذه المدينة آلاف من الصحابة رحمة الله عليهم أجمعين، وفى هذه المدينة يسمون العرب العباددة، وهم يشكلون قبيلة تسكن تلك المدينة، إنهم قومٌ يعيشون فى نعيم وهم شجعان وعددهم ستة آلاف، وهم على الدوام يحملون الغلال إلى ميناء القصير وهم يمشون فى أرض رملية حيث يقطعون مسافة فى الصحراء والجبال وتحت حرارة الشمس وفى القرى يتناولون الإفطار، وتجاوزناها بعشر ساعات فبلغنا القصير.

أوصاف قلعة ميناء القصير

إنها على البحر الأحمر وهى بناء صغير وحصين، ومحيطها خمسمائة خطوة، وأول من بناها محمد بن أبى بكر، وبعده الظاهر بيبرس والسلطان قايتباى وقد عمرها، وهى قائمة على صخرة وليس لها خندق وبابها يتجه نحو الغرب ولها رئيس ومائتان من الجند وعتاد سبعة عشر مدفعاً صغيراً وجامع وعشرون غرفة ومخزن للقمح وغرف للضيافة، ولا وجود فيها لحمام وليس فيها خان ولا سوق، ولا أثر فيها لحديقة، إنها أرض جزيرة ولها مرفأ عظيم ومرفأها يأمن الرياح جميعاً، وفى الجهة المقابلة ميناء ينبع، والوصول منها إلى المدينة فى يومين وميناء مكة توجد على مسيرة ثلاثمائة وستين ميل ومن جدة إلى مكة ثمانية أو تسع ساعات، وتأتى السفن من الحجاز على الدوام إلى القصير، وهذه السفن تبحث عن الغلال والعبادة يبيعون الماء بالقطرة الواحدة وعندما قدمت هذه القلعة شكى لى أهلها من شدة الظما، وبالقرب من القلعة دليل على وجود الماء، ثم ركبنا جيادنا وقد بلغنا مكاناً يسمى جيرك وحقيقة الأمر أنه مكان فيه ماء وعرضت شكوتهم على إبراهيم باشا وزير مصر وأوصلت أعيان القلعة إلى إبراهيم باشا فرصد عشرة أكياس، ومع أغا موثوق به فأمر هذا الأغا المعتمد عليه بحفر بئر، وأقام عنده مصطبة وقصرًا فنبع منها ماء عذب، والله الحمد أن هذا تم بمسمى من هذا الرجل،

وبذلك تخلص من الظمأ الغادون والرائحون والحجاج والمقيمون فى تلك القلعة والدال على الخير كفاعله، وقد جاء فى أحد التواريخ ذكر قلعة القصير والبئر والقصر الذى فى جانبها وتاريخ بناء هذا القصر هو عام ١٠٨٣ .

ومضينا تسع ساعات فى طريق دلنا عليه العبادة وصلينا الصبح على شاطئ النيل وتناولنا طعام الإفطار فى بلدة تسمى :

انبوطه

واسترحنا ثلاث ساعات، وهى بلدة على بعد ثمانى ساعات من قنا بها خمسون بيتاً، واجتازنا على شاطئ النيل قرى بيوتها مبنية بالقصب وفى خيام العبادة شربنا لبن النوق، وبعد ثلاث ساعات بلغنا مدينة قوص.

أوصاف مدينة قوص القديمة

أقامها شداد بن عديم بن يود فى عهد شيرين قفطريم، ومن أبناء قفط من يسمى قوص وهو الذى بنى المدينة لما آل إليه الملك، وفى عام ١٤١٤ استبحر العمران فى مدينة قوص، وفى هذا الزمان كان بالقرب من قوص مدينة خربة ومنها فر أهلها من خشية مرض الطاعون إلا أنهم لم ينجو من الطاعون وهلكوا مع أهل قوص، ومنذ هذا العصر لم تعمر قوص، ويقول بعض المؤرخين إن شداد بناها وكانت حديقة إرم، وقد اختلف العلماء داخل مصر وخارجها فى بناء هذه المدينة. وعلى حد قول كعب الأحبار لم يجتمع العلماء على رأى فى من هو باني قوص إنها مدينة طيبة الهواء يعجز الوصف عن عظمتها إن جوها هو جو حَلَب أو جو مَعَرَّة النعمان، وقبل فتح مصر استولى عليها الأسود بن مقداد من القبط، وبعد الفتح بحثوا فى أرضها عن كنوز ووجدوا عموداً منهدماً، ولوجود العقارب بها فرَّ العسكر وظلت المدينة خربة إلى أيام عبد الملك بن مروان من خلفاء بنى أمية، وسبب خراب هذه المدينة طوال تلك الفترة هو كثرة العقارب ولكن العقارب لا تصيب أهل هذه المدينة بضرر ولقد شاهدت أنا هذا العمود المنهدم، وقد رسم عليه صورة عقرب وقد كتب أسفل العمود سطور، ويراه كل من يمضون فى

الطريق لأنه على الطريق العام، وهذه المدينة في حكم جرجا ولها كاشف له مائتا جندي، كما تحوى ستين قرية ويتحصل منها أربعون كيساً ألف أردب من الغلال ولكن ليس بها مستحفظون ومفتى ولا نقيب أشرف وإنما قضاء به ستون قرية ويتحصل منها في كل عام ثلاثة أكياس وهي مدينة تبعد عن النيل بمسافة بعيدة وبها ثمانمائة بيت واسع ولكن ليس فيها كثير من القصور ولا البيوت الجميلة، وبها ستة محارب وأربع خطب وبالقرب من السوق جامع بناء المستكفى بالله حين نفى في هذه المدينة إنه جامع بالغ الغاية في الكبير وطوله وعرضه مائة خطوة، وبه سقف قديم يقوم على مائتي عمود، كما أن بها جامعين آخرين لا علم لى بهما إضافة إلى الزوايا، وبها وكالتان وخمس مقاه وستة مكاتب للصبيان وثلاثون سوقاً صغيرة وعشرون سبيلاً ولكن ليس فيها حمام ولا مدرسة وأغلب ما في حدائقها نخيل الدوم، ونتيجة لذلك فإنها ليست مدينة عامرة كما أن جوها ليس مقبولاً ولذلك فاهلها صفر الوجوه.

بيان ضرائح هذه المدينة

لما آلت الخلافة في مصر للمستكفى بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله العباسي بنى بها جامعاً كبيراً كما أن أتباعه من العباسيين سكنوا قلعة الكيش، وكان الحل والعقد في يد الظاهر بيبرس، ولكن اسم المستكفى كان يضرب على العملة ويذكر اسمه في الخطبة وقد وقع الصراع والنزاع بين ذوى قرباه كما وقع التفاسق بينه وبين الظاهر بيبرس، فنفى الظاهر بيبرس أهل المستكفى وأقاربه إلى تلك القلعة، وأمر المستكفى جميع المغاربة والهنود الخبراء بالكشف عن كنوز، فاستخرجوا مطلسمات مختلفة من عهد شداد بن عاد ولكن المستكفى توفي في عام ٧٠٣، فدفن في قبر صغير، ودامت خلافته تسعاً وثلاثين سنة، وعمره خمسون سنة وهذا مسطور على قبره، وأخو الحاكم بأمر الله هو إبراهيم الوائق بالله وبيجانبه محمد عطاء الله بن إبراهيم الوائق بالله، قد نفاهما الملك الصالح إلى قوص وهما مدفونان بجانب قبر المستكفى بالله، ولحكمته الله أنهما نفيا إلى قوص معاً، فقد نفاهما الملك الصالح بن الملك الناصر إلى قوص وهؤلاء هم آل عباس

المدفونون فى هذه المدينة، وهذا ما قيل فى شأنهم وفى المقبرة التى بجانب ضرائحهم الشيخ ظاهر والشيخ كاظمى والشيخ نور الدين الشيرازى والشيخ علام الدين البصراوى وهؤلاء الأعيان كانوا من حاشية المستكفى الذين هاجروا معه من بغداد إلى مصر وبلغ مدينة قوص، رحمة الله عليه، وقد عبرنا على شاطئ النيل أراضى رملية وأراضى صخرية وأراضى خربة لمسيرة ست ساعات، وبلغنا ولاية أشمون.

أوصاف ولاية أشمون (الأقصر)

إن بيطر بن حام بنى مدينة قديمة تسمى أقصرين بعد الطوفان وهو الأخ الأكبر لسام ويقال إن بيطر هذا أبو القبط، ومن نسله ولد توأمان أحدهما أشمون ريف، وآخر أشمون جاو وقد ولدا فى مكان واحد وأرسلهما بيطر أبوهما إلى إقليم مصر، ولذلك سمى الإقليم أشمون وقد عمرت هذه المدينة، وقد بنى الأخوان قصرين على شاطئ النيل، وبعد بناء هذين القصرين سميت المدينة القصرين، أى المدينة التى تحوى قصرين والكلام على هذه المدينة أولى به أن يكون جيزاً، وهى تتبع كاشفة جرجا، وبها مائتا جندى ويتحصل منها أربعون كيساً، ولا يوجد بها مستحفظان ولا شورباجى ولا مفتى ولا نقيب أشراف ولا أعيان وقد كانت مدينة عظيمة على شاطئ النيل تحوى ألف ومائتى بيت، وبها كثير من الأبنية العالية وكثير من القبور، ولذلك تبقى منها أعمدة مطمورة فى الرمال، وهذه الأعمدة بقايا لعناصر أقامها سلاطين مصر القدامى، وفى جامع السلمانية أعمدة من هذه المدينة نقلها ريان الإسكندرية إلى جلاص السلمانية فى استانبول وقد أنعم عليه بخلمة وألف دينار، وقد نقلت هذه الأعمدة فى سفن فى البحر إلى استانبول، وقد علمت أن أعمدة جىء بها إلى ميدان الطوفاء وهذا ما سمعناه من والدنا رحمه الله عليه، ولكن هذه المدينة ليست معمورة وبها عشرون محراباً وثلاث خنط، وبها أسواق صغيرة وجامع فى وسط السوق فيه جمع غفير من الناس كما أن بها خائناً وحماماً والعديد من الزوايا المعمورة ومكتباً للصبيان وسبيلاً ومقامى، وجوها غاية فى اللطف وأما أهلها ففى غاية الفقر.

زيارة ضريح الشيخ أبي الحجاج

إنه مدفون في مغارة بالقرب من جامع، وله كرامات كثيرة، وإنه قطب عظيم وليست لمناقبه نهاية، وهو الأخ الأصغر للشيخ عبد الرحيم القناوى الذى دفن في مدينة قنا وله ملك خير الدنيا والآخرة، وقد قرأت الفاتحة في الضريح وقد وهبت ثوابها إلى روح الشيخ أبى الحجاج، إنه قطب ذو مكانة وشهرة واسعة في تلك المدينة، وهو قريب الشيخ رمضان الفرغلى، وهو كذلك قطب عظيم واسع الشهرة، وغادرت هذه المدينة، ومضيت جنوبًا على شاطئ النيل في أرض خالية وعلى مسيرة سبع ساعات شاهدت على ضفة النيل تماسيح وبلغت:

بلدة طوت

وهى بلدة معمورة تقع على أكمة في ناحية من الأقصر وتضم مائة بيت، تجاوزناها ومضينا وعلى يسرتنا النيل وقطعنا طريقًا مدة ست ساعات وهو طريق في وسط الصخور فبلغنا بلدة:

شحات

تتبع إقليم أقصرين وهى على شاطئ النيل، وبها مائة بيت وجامع، وهى بلدة عامرة، ومضينا على شاطئ النيل مدة ست ساعات، وبلغنا بلدة:

ديرام على

وبها كنيسة عظيمة ولذلك يسمونها الدير، ورهبان هذه الكنيسة جميعًا من القبط ويقولون إن هذا الدير بنى قبل ثلاثة آلاف سنة.

واتجهنا هذه المرة إلى الجانب الشرقى من النيل، فبلغنا مرجًا مخضوضرًا وفيه قبر صغير للشيخ عبد الدايم وهو من أبناء الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - وقرأت الفاتحة لروحه ومضينا ست ساعات على شاطئ النيل، ونزلنا ضيوفاً على خيمة شيخ العرب لقبائل الحجيزة، واسمه الشيخ ناصر الدولة وفى هذه الليلة تناولنا لحم الجمل وشربنا لبن الناقة وأكلنا حلوى التمر كما أعلفت خيولنا ورجال هذه القبيلة من الفرسان

البواسل، وقمنا فى الفجر وعبرنا أراضى حجرية وبعد ست ساعات كان الوقت الغروب قبلغنا:

ديار عشايرده

وهم كذلك شجعان وهم عيارون وشجعان يمشون إلى بلاد الحبشة ومكثنا فى خيمة شيخهم أبو عصيب، وتناولنا لحم الجمل وشربنا لبن الناقة، وحمدنا الله، وأعلفت خيولنا الذرة، وقوم رده هؤلاء لا يدينون بالطاعة إلى والى الحبشة ولا كاشف إبريم فهم جبابرة فى الأرض، ومضينا على شاطئ النيل واجتازنا مدناً خربة وقطعنا المروج فى ثمانى ساعات قبلغنا قوم:

عربان الشبيكة

وهم ستة آلاف مقاتل من العرب وهم شجعان، وشيخهم يسمى شجاع الدين، وعندهم كثير من الذرة ولحم الغنم وخبز الذرة ولا وجود للقمح عندهم، ولأنهم قوم عصاة متمردون لا يدفعون مال الغلال الذى على ما يزرعون، فقمنا من عندهم ومضينا عنهم وولينا وجهنا قبل الجنوب ومضينا على شاطئ النيل، وهو يأتى فى هذه الجهة من بلاد الحبشة، وفى هذه البقاع عرب عصاة وفقراء ليس لهم إيمان كأنهم الحيوان، وليسوا يتبعون ملك الحبشة ولا إبريم ولا بلاد الفونج إنهم رعاع عراة وقدمنا إليهم بعض الهدايا فغادروناهم سالمين، وبعد أربع ساعات وصلنا إلى جبل السلسلة.

أوصاف قلعة السلسلة

إنها جبال شامخة توقع من ينظر إليها فى الحشية، وفى هذه الجبال مئآت من المغارات ولا يعلم عندها إلا الله، حفرها قوم عاد وثمود وكانوا يسكنونها، وسخرت لهم صخور الصوان وكأنما طحنتها وبنوا بها قاعاتهم وحجراتهم وكل حجرة ترتفع أربعين أو خمسين ذراعاً، وفيها عجائب وغرائب كأنها حية، وفيها تماثيل وتساوير غريبة وفى كنفها تحل العقول، وفيها صور تنظر إلى مشاهدتها وهى باسمه كأنها تبتسم، وخلاصة القول أن جبل السلسلة هذا عجيبة من عجائب الزمان، وعلى سطح هذه الصخور حصن حصين، كما توجد قلعة قبالة النيل هى قلعة أنفود.

قلعة أتفود

وأمامها يجرى النيل، وفي زمان كانوا يجرون هاتين القلعتين إلى النيل بسلسلة ولذلك يسمون هاتين القلعتين قلعة السلسلة ويعدهما شلال بوغازى وشلال الولاية، إنهم سبعة مضايق والنيل بعدهما يمتلئ بالجزر العامرة وليس فى هاتين القلعتين رئيس لهما ولا قواد ولا جنود، ولكن يسكنها فوج من قبائل الجعفرية، وقبالة هذه القلعة فى جزيرة قبر الشيخ كوم صياح.

زيارة قبر الشيخ كوم صياح

حينما يفيض النيل ويغمر هذه الجزيرة يصيح، وهو يصيح موحدًا بالله ولذلك يسمونها جزيرة الصياح.

ويلدة كليج

معمورة ويتبعها مائة قرية وجميع أهلها ملاحون ويسمونهم قبيلة بصلى وبها ثلاثة آلاف إنسان وقد أتوا من قوم السهواره، واستوطنوها، وبعد ذلك مضينا خمس ساعات جنوبًا على ضفة النيل إلى قلوبو.

أوصاف قلعة قلوبو

إنها من بناء شداد بن عاد، وهى قلعة كانت للموك بعد ملوك ثم استولى عليها سيف بن ذى اليزن من القبط ثم اجتزنا صخور شلال بوغازى ويجرى النيل إلى صحراء نصف المغرب وفى مقابل جزيرة كريد يخلط ماؤه بماء البحر الأبيض وطريق جريانه خندق عظيم وفى عهد عثمان بن عفان استولى أبو عبيدة بن الجراح على هذه القلعة من القبط، ولكن بعد أن استشهد عثمان استردها القبط، وكل القلاع التى على النيل تحت حكم إيريىم وفى قضاء أسوان، وفى داخل القلعة ثلاثمائة بيت من حصير يسكنها بنو جعفر، إنهم مسلمون ولكنهم على المذهب الجعفرى، وإنهم يسكنون فى القلعة وفى الصحراء خارجها، إنهم ستون ألف إنسان وهم قوم يعيشون فى رغد من العيش، وفى الجانب الشمالى للقلعة ضاحية عظيمة، ومضينا على النيل ثلاث ساعات، ومررنا بأراضى صلبة كالحديد، وفيها كل صخرة فى حجم الفيل وقد أصبحت سدًا فى النيل،

ويسمى العرب هذا السد بخيط العجور، وفي الجهة الشرقية للقلعة مغارات بها ألف تمساح مكفن وقد تراكمت هذه التماسيح بعضها على البعض وأكفانها من قشور الدوم، ومن العجب أن البلى لم يصيبها، ولكن لا تتبعث رائحة خبيثة من رملها كتسائر الحيوانات، وهذا أمر صعب، وهذه التماسيح يسمونها جبل التماسح، وقد فتح ذو اليزن في الصخر طريقاً، والسفن تمر في هذا المضيق، وهذه السفن سفن صغار وتمضى إلى أسوان، ثم تحمل الجمال أحمال السفن، وفي هذا المكان سبع مضايق وشلالات من بعيد تتدفق مياهها وتمر في جبال شوامخ وبين صخور، وثمة بوغار والنيل ترعى مياهه في هوة في طول الماذنة.

ومن عجب أن بعض السفن تطير فوق هذه الصخور ثم تجرى ويجرى النيل في هذه المنطقة وبين صفتين عليهما جبال كأنها الجودي وتشعب النيل في هذه المنطقة وبين كل شعبة وشعبة جزيرة والجزر المعمورة تقع في الجانب المقابل، وسوف نتحدث عن هذا في موضعه بمشيئة الله.

ومن يمضون من قلوبو إلى الحبشة يبدأون السير من هذا الموضع وبعض وزراء الحبشة يقدمون إلى هذه القلعة، ومنها يجمعون الجند ويحملون المؤن على الجمال ويقطعون الصحراء إلى الحبشة، وليس لهم طريق سوى هذا الطريق، وهذا الطريق طريق حجري والطريق إلى إبريم على ضفة النيل ويمضى جنوباً وطريق إلى الحبشة في الجهة الجنوبية، وقد مضيت مع جماعة من قلعة قلوبو في الطريق إلى إبريم وسرنا ثلاث ساعات حتى وصلنا:

مدينة صين باس

كانت مدينة عظيمة في قديم الزمان ومضينا بين خرائبها يوماً بتمامه وفيها غرائب وعجائب وأعمدة ومطلسمات، وفيها ما في (آت ميداني) في استانبول من أحجار مربعة وعليها علامات غريبة، إنها كانت قديماً مدينة قوم عاد، وقد خرج من الحبشة أبرهة في سبعين ألف قيل ومضى إلى هذه المدينة فخرّبها وأهلك أهلها، وهي الآن مدينة خربة ليس فيها سوى اليوم والأقاعي.

وعلى ضفة النيل مدينة بها مائتا بيت من الحصير وهى بلدة تشبه القرية وفيها جامع بلا مثذنة، وبجانب هذا الجامع ضريح الشيخ رجاى، وهو قطب عظيم، وهذا الضريح فى غابة من أشجار الدوم وثمة ضرائح ثمانية وسبعين قطباً من الأولياء، ولكن أجهدنا القبط فلم نستطع زيارتها وإن كنا قرأنا سورة يس ومضينا لطيتنا ومضينا بين الصخور فى طريق ضيق من المرتفعات والمنخفضات ولقينا من سفرنا هذا نصبا حتى وصلنا أسوان.

أوصاف قلعة أسوان

يذهب المؤرخون المحققون إلى أن قلعة أسوان بناها عاد بن شداد بعد الطوفان لأنهم يسمونها دير عرياق وأنها دير عظيم، والمملك عرياق مدفون فى هذا الدير فى تابوت من النحاس وعلى الجوانب الأربعة لهذا التابوت كتابات بالعبرية ويسميه القبط عرياق بن عيوام ويقولون إن إدريس - عليه السلام - رفع إلى السماء فى عهد هذا الملك وفى زمان هذا الملك سجن هاروت وماروت فى بئر بمدينة بابل، وخلف عرياق فى الملك ابنه ألوخيم وكذلك ألوخيم مدفون فى هذا الدير، وخلف ألوخيم فى الملك ابنه خصيليم، وهو أول من بنى المقياس فى النيل عند أسوان وآثاره باقية إلى اليوم.

ثم قدم مصر الخليفة المأمون العباسى من بغداد وبنى المقياس فى مصر وخرّب المقياس الذى فى أسوان حتى لا يكون هناك مقياس بناء أحد سواه، وخصيليم هذا فرع النيل ترعاً، وفرش هذه الترع بالرخام وأمام مدينة أسوان هذه المنطقة من النيل أحجار فى حجم جثة الفيل، وقد سوى هذه الصخور وصنع منها سداً فى بلاد النوبة اثنتى عشرة قنطرة، ولم يبق من هذه القناطر اليوم سوى واحدة، وقد دمرتها الزلازل، وأسسها ظاهرة فى النيل، وظهر نوح فى عهد خصيليم هذا وقد ركب خصيليم هذا فى سفينة نوح عند الطوفان، وقد عمّر ثمانمائة سنة، ولذلك قال المؤرخون إن مدينة أسوان كانت قبل الطوفان لأن فيها آثار لخصيليم وأبيه ألوخيم وجده عرياق، وهذا بالعبرية مسطور على الصخور، ثم عمرها عاد ولكن خربها أبرهة بعد الطوفان وقد جاء ذلك على التفصيل فى كتب الخطط ومحمد بن إسحاق وتواريخ الشهابى رحمة الله عليهما،

ولكنى أحقق هذا فى يقين فالتقوى ما مجملته أنها بقيت بعد زوال دول ودول وهى مدينة قديمة، وقد فتحها عمرو بن العاص وهى التزام تابع لجرجا، ويتحصل منها أربعون كيسان كما أنها كاشفية تابعة لكاشف قوص ويتبعها ستون قرية يتحصل منها ومن توابعها المائة والخمسين مائة أردب من القللك ولكن ليس فيها جند مستحفظون من أربع فرق وهى قضاة يدر مائة وخمسون كيسان ورابعها الستون ثلاثمائة قرش ويبقى لكاشفها يعد المصروفات خمسة أكياس، ولها قلعة عظيمة على ساحل النيل، وهى سامقة مشمة الشكل بناها شداد ومحيطها ثلاثة آلاف وستمئة خطوة، ولها ثلاثة أبواب وفى داخلها حدائق وخمسة بيت صغير للفقراء ولرئيس هذه القلعة ملقة وخمسون جندياً، وفيها فرقة موسيقية ومخزن للأسلحة وعشرون مدقاً، وهى الآن حد عظيم لأن حولها عرب عصاة، وبها جامع وسبع زوايا وثلاث مقلد، وستمئة بيت وليس فيها حمام ولا خان ولا مكتب للصبيان ولا سيل ولا أسواق ولا دكاكين ولكن تقام فيها سوق عظيمة كل أسبوع، ويجتمع فيها خلق كثير من جميع الأجناس يبيعون ويشتررون ويوجد فيها ما ليس له من وجود، وخارج القلعة صاحبة بها حدائق وثلثين وسبعمئة بيت وبعض هذه البيوت خربة ولكنها رمت وسكنت، كما أن فيها جوامع وزوايا ولكن ليس فيها سوق وبها بعض المقاهى المصنوعة من الخشب والأكواخ والدكاكين، وكانت بها فى ماضى الزمان على مسيرة ثلاث ساعات على ضفة النيل أبنية كأنها قصر الخورنق، وأعمدة لا حصر لها وضرائع عالية وخان وحمام ومسوق للبرّ وعمائر كتبت عليها طلاسم، وكان هذه الطلاسم قد كتبت منذ هنية، وقد اعتشت فى هذه العمائر الغربان والحمام والغربان فيها تنعق، وفى الشتاء تغادرها كل الطيور، ويأتى العرب ويسكنون هذه الخرائب، وجو أسوان لا بأس به، وفيها الأسلحة لا تصدأ وتبقى مصقولة ووجوه أهلها وردية ولا اعتدال جوها كان الجمال فى فتياتها وفتيانها، أما شراب البوزه فيها فيبعث القوة فى الروح وشراب البوزه هذا مرغوب طيب.

باب الأبواب

إنها جزيرة خربة فى بوغاز الشلالات بأسوان، ويسمونها باب الأبواب وبما أن النيل يتشعب سبع شعب فثمة عدة جزر، وفى كل من هذه الجزر يؤكد الكشفيون على وجود معادن جديدة ففيها النفط والقطران والكبريت والرصاص والكبريت المائي، وفيها حمم ماؤها حار يستشفى به، ولكن ليس فيها أثر للعمزان، وعند فيضان النيل تغرق هذه الجزائر جميعاً ولا يبقى أثر لما فيها من معادن وحمم، ولا يستطيع استخراج هذه المعادن منها وفيض النيل وتخضوض الأرض فى مصر، وأهل الطب من أهل مصر لا يشربون من ماء النيل وإنما يحضرون الماء من بئر فى المطرية ويشربونه وإذا شرب الناس من النيل فى وقت الفيضان وهو أخضر تورمت أرجلهم مثل الطلوبة وارتعشت أجسامهم نعوذ بالله، وأصل اخضرار ماء النيل واحمراره هو ما تجمع أمام تلك الجزر من النفط والكبريت والقطران ويتلون ماء النيل بألوان مختلفة ومنها تهلك الحشرات ولكنها تأتى ثانية، وتختفى فى الترع وهذا هو سبب اخضرار ماء النيل وجنوب أسوان تسمى:

ولاية علوى

إنها ولاية واسعة تمتد حتى الحبشة ودُمِسْتَان ولاعتدال جَوَ هذه الولاية يتصف فتياتها وفتياتها بالجمال فلهن عيون كعيون الغزلان ويتزوج أعيان أسوان من عذارى ولاية علوى، ومن عذارى علوى من لم يلبغن المحيض ولكن يحملن وغالباً ما يمتن عند وضع حملهن، والعهد على رواية أهل أسوان، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن لقمان - عليه السلام - نبى وقيل إنه نبى أسمر اللون، ولد فى أسوان، كما أن ذا النون المصرى من أسوان وأصبح من صحابة الرسول ﷺ كما أن النبى إدريس - عليه السلام - ولد فى هذه المدينة، وقد زرت قبره وهو مدفون فى مغارة وقد مرغت وجهى الشاحب على أثر قدمه فى الأرض حين عرج فى السماء، وكل أثر لقدمه يبلغ ثمانية أشبار طولاً وعرض الأثر ثلاثة أشبار، وكان هذا الأثر حفرة كالصندوق، وعندما ينزل المطر فإن حفرة أثر قدمه تمتلئ بمطر الرحمة والرحوش والطيور تشرب منه، ويجواره غار لقمان ومنه تفوح رائحة العقاقير، وهى رائحة طيبة ولم تنقطع هذه الرائحة من ألف سنة، فما من ريب

فى أنه نبيؑ، وذا النون المصرى من ذريته وكان طبيب النبى ﷺ، وأجيال الأطباء تنتهى إليه، وفى جنوب أسوان ولاية النوبة العظيمة ويسمونها باب النوبة.

ولاية النوبة

إنها أرض غنية ومعدن الزمرد فى جبالها، وتستخرج المعادن والزمرد منها ولذلك أهلها أثرياء منعمون وقد أمر حاكم جرجا باستخراج الزمرد، وأمر أن يصنع منه الكؤوس والأقداح وقبضات الخناجر ودبوس من قطعة واحدة، وكثرة ما استخرج من الزمرد أصبح على بك عريض الثراء واسع الدنيا، وإن كان استخراج الزمرد يتكلف نفقات باهظة، وفى أرض أسوان أربعون نوعاً من المعادن ولكنهم لا يعرفون كيف يستخرجونها، وجنوب النوبة أرض خربة، وبالقرب من أسوان شاة تلد فى السنة ثلاث مرات، وفى كل مرة تلد حملين وهذا بسبب لطافة الجو: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ {البقرة: ٢٠}.

عجبية

وفى شمال أسوان شجرة منقطعة النظير وهى قائمة منذ عهد بنى إسرائيل وهى تسمى صيفاً وشتاء ويسقط ورقها كل سبع سنوات ثم تورق من جديد، وتسمى شجرة الخط، وهى شجرة لها الشهرة فى بلاد أسنة وأسوان وسودان وفولجستان ونوبة ودومية وعلوى وحيش ويحتضن جذعها عشرة رجال ولها أربعون فرع يحتضن كل شعبة منها خمسة رجال، إنها دوحة عظيمة عالية، يمكن أن تظل أربعين ألفاً من الغنم واتفق ذات مرة أن أحد الزنادقة استظل بها فسقطت عليه ورقة خضراء منها فأخذها الزنديق، فأخذ العجب منه كل ما أخذ من ذا الذى أنبت الورق على الشجرة فسقطت من الشجرة عليه ورقة أخرى بأمر الله، وقد كتب على هذه الورقة من أنبت الورق على الشجر هو الذى شق السمع والبصر فى وجه البشر، وفى التو نطق الزنديق بالشهادة ثم رفر رفرة وفاضت روحه وله قبر فى ظل هذه الشجرة ويسمى قبر الشيخ الزنديق، ويزور الشجرة الخواص والعوام والآن أوراقها مخضوضة، وهى كذلك إلى ما شاء الله، ولكن لا وجود لكتابة على أوراقها، وهى فى الطريق من أسوان إلى النوبة فى مرج واسع الأرجاء وهى تبعد عن أسوان بربع ساعة.

وقدم السلطان تقي الدين من مصر فامر بترميم قبر الشيخ الزنديق وأنشأ صفة ومحراباً له، وكتب على عتبته تاريخ هذا الترميم.

وفي أسوان يستخرج أربعون معدلاً، علاوة على الملح والنطرون وشمع العسل والصابون، والصابون كلمة عريية، وتطلق على ما يصنع من الأعشاب والنباتات، ويوضع في الأكياس، وإذا غسل به الثياب أصبحت بيضاء، إنهم يأكلون شمع العسل من شدة الحر، وإن التحل يصنع للعسل، وإذا ما نزل غيث الرحمة تسد خلجان التحل، وينمحي العسل بالمطر ويخرج شمع للعسل ويجمع ليباع، إنه أكثر بياضاً من الكافور، وله رائحة كرائحة العنبر ولهذا الشمع أربعون فائدة، وإنه ينفع في ألم الوسط والصداع والمغص، وإذا تناوله أحد فلن شمع للعسل يساعد في هضم الطعام، ويصلح المعدة ويخلص من غلاتها، وهو مقو ويزيد في قوة البصر ومن تناوله أربعين يوماً لم يبق في جسمه أخلاط، ويتروى وجهه، ويصح بدنه وشمع أسوان كثير في سوق الفحامين في مصر تلك هي خواصه.

ومن الصجائب

أن عموداً يوجد على رابية من الرغل في شرق أسوان على مسيرة ربع ساعة شرقاً ويرتفع مائة ذراع، وعند قمته صورة إدريس - عليه السلام -، وكانما يجلس حبشي على قمته وكأنه حي ويتسم وهو يرفع أصبح الشهادة كأنما يشير إلى السماء، وقد ولد إدريس في أسوان، وبعت فيها ثم عرج به إلى السماء منها، فدخل أمته الحزن وجعلوا يبكون ويتجولون في ذهول وحيرة إن إبليس اللعين ظهر لهم في صورة شيخ، وإنهم يبكون ويتحبون لفراق إدريس وفي التو أمرهم الشيطان بأن يرسموا صورة إدريس، وعلمهم أن يسجدوا وبذلك كفوا عن النواح والنحيب ومرة كل عام يأتي إلى هذا العمود جميع الخلائق ويسجدون عنده، وإن إبليس الشيطان اللعين يثقل تلك الصورة ومن هذه الصورة كان يتنبأ لهم عما في الغيب وكانت هذه حالهم إلى أن ظهر النبي ﷺ، ثم انتهى هذا الأمر، والآن يسمونه رجال الصنم، ويتجه القبط نحو الشرق، ويركعون عند هذه الصورة.

ومن العجب

أنه إذا ما دفن أحد في هذه الربوة من الرمال أصبحت عظامه حجراً بعد سبعة أيام، وهذا من عجيب صنع الله يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقلة أسوان هذه على شاطئ النيل لها سور عظيم.

حادث العجوز الساهرة

كل حجر في هذا الحائط حجمه من أربعين إلى خمسين ذراعاً، وكأنه سد الإسكندر، إنه من قطعة واحدة، وفي أسوان علاوة على هذا البناء في خرائب أسوان آثارٌ لعمائر يحار عقل من يشاهدها وعليها كلام النبي ﷺ عن شهادة على - رضى الله عنه، وكرم الله وجهه - كما أن كلاماً لعل في الجفر.

وقد أخذت ذلك من مختصر كتاب مفتاح الجفر للشيخ العلامة كمال الدين أبو سالم محمد بن طلحة غفر الله له، وقد ذكر على - رضى الله عنه -: (أن أشراط قيام الساعة عند اقتراب آخر الزمان أن أسوان سوف تتخرب بعد أن عمرت من قبل) وهذا كلام على - رضى الله عنه -، ومن قوله أيضاً: (إذا عمرت أسوان من قطر مصر في آخر الزمان بالياء ثم العين يظهر بمصر الخصيان، وتحكم النسوان، وتفسد عليه السلطان، وتكثر الغربان، ويختل نظام صاحب الديوان، وتقوى شوكة الجيم، وذلك إذا حصل القران في برج الهواء، وبعثر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وصار الأمر مأموراً) وسبب هذه الإشارات ما نقل في تاريخ ابن مهدويه أن عمرو بن العاص وهو عامل مصر عند فتوحها كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يشره بفتح مصر وذكر له صفتها وعدة حصونها المشهورة، وأن من جملة حصونها بالوجه الجنوبي قلعة تسمى أسوان على قرب نيلها حصينة مانعة رأينا وجه الصواب في هدمها حتى تنقطع أطماع الكفار منها فهدمتها حجراً حجراً فلما بلغ الكتاب إلى أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه - فقراه واستوفاه ثم قال حضرت على - رضى الله عنه - نعم بذلك أخبرني رسول الله ﷺ وعندى خبر هذا مستمر في آخر الزمان عمارة حصينة على يد

ياء ونكره ثم عين، ولم يصرح باسم أحد غير أنه - رضى الله عنه - أشار إلى حرفين صديقين لا منافرة بينهما وهما الياء والعين فالياء حرف ترابى والعين حرف مائى، ومن المعلوم أن الماء والتراب صديقان، وهما أعظم آلات العمارة، فإنه يفهم من قوله بالياء ثم العين أن مراده تعريف اسم من يتولى أمر عمارتها صدق على الرضى السخى.

وفى أسوان كثير من رموز لكنوز، لأن أسوان بلد من سبعة بلاد على وجه الأرض، لقد شاهدت أسوان ولكنى لم أجد فيها وقتاً لراحتى لأن فى أرضها مئات الآلاف من كبار الأولياء والشهداء والصحابه الكرام الذين قدموا من مصر مع الفتح، ولهم قبور لا سبيل إلى حصرها لكثرتها، وقد قرأت سورة يس لأرواحهم الشريفة، وشاهدت فى جنوب أسوان على ضفة النيل سيدود خيط العجور ورأيت التماسيح فى جزر الشلالات، وبعد أربع ساعات وصلنا إلى شلال المضيق.

أوصاف شلالات المضيق

إنه لشلال عظيم، وهو مشهور لدى العرب والعجم والروم، وقد سبق أن وصفناه، وهذا الشلال به صخور يضرب لونها إلى الشبّهة. وفى هذه المحلة أعشاش الصقور والنسور والغربان، وهناك جبل مهيب مخوف، ويعبر التجار هذا المضيق ويذهبون إلى القرى، والصخور فى هذا المضيق متقاربة، وتلاطم مياه النيل يصم الأذان، ورشاش ماء النيل يجعل الجو ممطراً ويصاب من على مقربة منه بالبللى، وإذا جل الشتاء وغاص ماء النيل ظهرت أحجار كأنها قباب الحمامات، ويدفع الماء الإنسان من صخرة إلى صخرة ويستطيع أن يعبر بين الضفتين، وفى سالف الدهر حينما كان هذا المضيق مسدوداً، كان النيل ينشعب إلى رافدين فيجرى فى ترعة إلى إقليم الحبشة وفى الأخرى إلى إقليم علوى واختلط ماؤه بماء البحر الأحمر بواسطة السواقي على التربة التى تتجه إلى إقليم الحبشة وآثار ذلك اليوم باقية فى موضعها.

وبعد الطوفان أحاط سيف بن ذى يزن بعلم الهندسة وشتى العلوم والفنون، وأنس برأى الكاهنين صفوايم ومحرايم؛ فشق فى الجبال شقاً، أما سبب جريان النيل إلى مصر الآن فهو مردود إلى سيف بن ذى اليزن، وكان جريان النيل إلى مصر سبباً فى

عمرانها وخصوبة أرضها وأصبحت الحبشة والمغرب صحراء، وقد اجتمع المؤرخون على القول بهذا، وقد رأيت أثر جريان النيل في سالف الدهر حفراً في الأرض، وكانت منطقة الشلال قديماً معمورة فكان في أسوان حدائق وجنات ألفافاً، وفيها كذلك أثر للعمائر.

وقد دعا موسى - عليه السلام - الله على الفراعنة والكهنة والسحرة في هذا المكان ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ {القصص: ٨٨}، فتخربت عليهم مائتا بيت.

وثمة جامعان عظيمان قديمان بها، ولكنهما مع ذلك لا يخلوان من المصلين، وليس لهما بهاء سائر الجوامع، ومنهما جامع سيف بن ذى اليزن والآخر جامع عمر - رضى الله عنه - ولا وجود لسوق ولا خان ولا حمام، وخرير النيل هناك من الشدة بحيث لا يمكن السكنى إلى جانبه كما أن الواحد لا يسمع كلام الآخر، ولكى يمكن للإنسان أن يكلم آخر كلاماً يسمعه فينبغى أن يرفع صوته مثل الجاوش، ويقال إن سبب هذه الجلبة هو أن للنيل رعداً، وقد غادر السكان هذه المنطقة لأن رشاش النيل يهبط عليهم كأنه الرزاز ويصيب ثيابهم بالبلل.

أوصاف قلعة أبواب

بناها ذو اليزن إنها رباط حصين مستدير على المضيق في الجانب الشرقى من النيل في أسوان، وفيها يسكن قبائل القرح وفيها خمسمائة بيت بعضها من الحصير وبها جامع قديم، وليس للقلعة رئيس ولا جنود، وقديماً على الصخور التى أمام هذه القلعة كانت تحصى الرسوم من السفن الرائحة والغادية، وتلك السفن كانت تقف أمام السلسلة التى بين القلعتين حتى تدفع الرسوم المستحقة عليها، وغاقرت قلعة أبواب وانطلقت جنوباً على ضفة النيل، ومضيت في طريق كثير الأحجار وسرت فيه ست ساعات، حتى وصلنا:

قبائل كنوزين

نزلنا ضيوفاً فيها على الشيخ على الواسطى، أما أصل تسمية هذه القبائل بهذا الاسم

فهو أنهم عثروا على كنزين في أراضي أسوان الخربة، وقد قسموا الكنزين بالسوية عليهم، وجاءت قبيلة عربية من بعد على أثرهم وطلبت نصيبها إلا أنهم لم يعطوها من الكنزين شيئاً؛ فنشبت الحرب بينهم عبوساً شعواء، إلا أن رجال القبيلة الذين طلبوا نصيبهم أعملت السيوف والرماح فيهم فسميت القبائل المنهزمة بقبائل القرح وسكنوا جزيرة الشلال وهم الآن على مذهب الإمام مالك، ويدعون أنهم من ذرية ابن ذى اليزن ولهم سبعة آلاف محارب، وفي أول ليلة لنا هناك ضيفونا وقدموا إلينا الذرة ولحم الإبل ولبن النوق فطعمنا وشربنا، وهذه القبائل تمضي إلى الحبيشة في الربيع، لأن منطقة الشلال جبلية متقاربة والزرع بها قليلة نادرة وهؤلاء القوم لديهم كثير من الأنعام فلذلك يمضون إلى الحبيشة طلباً للمرعى، ثم مضينا خمس ساعات وبلغنا قبيلة مهريّة.

قبيلة مهريّة

وحللنا ضيوفاً على الشيخ حامد مهري، وبها ألف وخمسمائة فقير من سمر البشرة وثوبهم لا يعدو أن يكون ما يستر عورتهم، وهم على مذهب المهريه وهم ينكرون الحشر والنشر، ومضينا على ضفة النيل في طرق ذات أحجار لا تتسع إلا لمرور رجل واحد وسرناً بينما يتبعنا الخدام، وقطعنا هذه الطرق سيراً على الأقدام، وقد شق هذا الطريق بن ذى اليزن ولا طريق سواء وبعد ساعتين بلغنا قبائل كلافيش.

قبائل كلافيش

ومعنى كلافيش: الشيء القليل، وليس لهم خيام، إنهم جميعاً يسكنون الكهوف، وقد دلنا شيخهم على غار فمضينا بخيولنا إليه وانصرف عنا شدة القيظ، إنه غار بارد النسيم، وفي هذه المنطقة الصخرية ثلاثة آلاف من العرب المتمردين، ولهم كثير من المعز وليس لديهم أنعام أخرى وطعامهم الذرة ولحم الجمل والتمشيش وهو كباب التماسيح والمعز، وهم يجامعون أنثى التمساح ويقولون إنهم حين يجامعون أنثى التمساح يتحلب ريقهم وأنهم قوم جبابرة أشداء من أكل لحم التمساح ويستخرجون من مرارة التمساح حجراً، وإذا أمسكوا بهذا الحجر استطاع الواحد منهم أن يجامع زوجته أربعين أو خمسين مرة، وإذا كان هذا الحجر كذلك عند نسائهم فإنهن كذلك لا تهدأ شهوتهن،

وهذه البقعة لا وجود للترع فيها ولذلك ليس لديهم إلا البرسيم والتمر، وعندهم من نبات الذرة ما هو أحمر اللون وهم قوم صيادون يمشون إلى جبال الحبشة، ليصطادوا القيلة، وليجمعوا سن الفيل ووحيد القرن ليأخذوا قرنه لبيعوه، ذلك ومضينا عنهم على ضفة النيل جنوباً وشاهدنا جبالا شامخة وصخوراً ضخمة وبعد عشر ساعات بلغنا عشائر أبو حور.

عشائر أبو حور

إنهم قوم من العرب سود البشرة وزنوج وفقراء ولا يعرفون ديناً ولا حشراً ولا نشراً، وقد تجاوزنا هذه العشائر، ومضينا خمس ساعات وبلغنا قبيلة سنّيال.

قبيلة سنّيال

لهذه القبيلة في الصحراء متراخية الأرجاء أخية وخيام، وهم ألفا رجل من المسلمين ولأنهم من العرب فإن وجوه نسائهم مكشوفة ومكثنا في خيمة شيخ العرب عبد المجيد وقدموا إلينا الانفحة، ثم ذبحوا لنا ثلاثة خراف، وأكرمونا إكراماً عظيماً، وأعلفوا خيولنا الذرة البيضاء، ورأينا جندياً مصرياً يلبس حمر السراويل فاطمأنت قلوبنا لعله كان جندياً من إبريم وقدم إلينا بعض رغفان فاكلناها لأن ما كان لدينا من خبز نفذ فاكلنا الزبد بالخبز فكانما ردت علينا روحنا، والنيل في هذه المحلة ينقسم إلى مضائق، ثم دخلنا في إقليم إبريم في طريق حجري ومضينا فيه سبع ساعات جنوباً بين الصخور حتى وصلنا:

بلدة كوشتامينه

بها مائتا بيت من قصب، وأهلها مطيعون منقادون، وبها زاوية ومقهى وفيها قبيلة من عرب كنوز تسكن الخيام، ومضينا جنوباً خمس ساعات فوصلنا:

بلدة كنورت

وفيها ثمانية وسبعون بيتاً من قصب وزاوية، وليس بها مقاه ولا حانة للبوزة، وبها أيضاً قبيلة من عرب كنوز تسكن الخيام، وهذا الموضع هو حد عرب كنوز وهم لا يمشون إلى إبريم لأن النيل في هذه المحلة على ضفتيه مروج تزرع بها اللوباء والبطيخ وبعد خمس ساعات بلغنا بلدة سبوع.

بلدة سَبُوع

نزلنا عن خيولنا لنشاهدها، وسقنا الخيول إلى الصحراء وتجولنا ساعة فيها لنشاهدها وعلى ضفة النيل آثار فيلة من الصخر، وأسود نحتت من الحجر إذا شاهدها الإنسان دخله الخوف الشديد ويظن أن هذه الأسود أسوداً حية، إنها تماثيل متقنة الصنع وعلى ضفة النيل كذلك جمال من الحجر الأسود وتنانين لها سبعة رؤوس منها المنكس وبعضها ما ساخ في الرمال إنها تنانين عجيبة وثمة أصاجيب أخرى، ولكن ليس فى المكان ذكرها وربما تحارب موسى - عليه السلام - مع فرعون فى هذه المنطقة، وقد صنع سحرته من سحرهم هذه العجائب، وقد أوحى إلى موسى آية: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الشعراء: ٣٢)، وألقى موسى عصاه المتعددة الرؤوس فإذا هى حية تسمى فابتلعت الحية ما صنع السحرة والكهنة بسحرهم من أسود ولمور وتنانين؛ فهزم فرعون وتعلق بأذيال الفرار، ولعل ما رأينا من هذه التماثيل هى بقايا هذه الوحوش التى صنعها سحرة فرعون، وهى التى أصبحت من بعد حجراً بأمر الله؛ ويسمون هذه البقعة (سَبُوع) لوجود الأسود بها وفى العريية مائة وثمانون اسم للأسد منها (سَبُوع) وقد شاهدنا هذه البقعة وتجاوزناها ومضينا أربع ساعات جنوباً، على شاطئ النيل واجتزنا الصحارى حتى وصلنا:

وادی العرب

اسم محلة واسعة، وهى سهل ذو مروج، ويجتمع جميع العرب فيه مرة كل عام، وفيه يدوم البيع والشراء سبعة أيام وسبع ليال، ولذلك يسمى وادى العرب، وعبرنا أراضى خصبة فى الجنوب وبعد أربع ساعات بلغنا تحت أزرق جادو.

أوصاف مدينة تحت أزرق جادو

بناها فرعون أزرق جادو وبعده فتحها ذو النون ثم استولى عليها القبط ودامت فى حوزتهم مئات السنين، ثم فتحها الأسود بن مقداد قائد عمرو بن العاص، ثم استولى عليها أهل بربرستان وفرنجستان، وفى عهد السلطان سليمان كان والى مصر الطواشى سليمان باشا فاتح الهند واليمن وأخذ ميناء ديوباد الهندى من البرتغاليين والفرنجية

وقدمها إلى ملك الهند، ومضى إلى الحبشة في أسطول وجعل على رأسه أوردمر باشا وأمره أن يفتح الحبشة ومنها عاد إلى مصر، ومن مصر خرج أوردمر باشا في جيش كموج البحر ففتح هذه المدينة، وقلعة إبريم، واستولى عليها ملك القونغستان، وفي هذا العصر ظلت هذه المدينة في حوزة آل عثمان، وهي تابعة لحكم جرجا وكاشف لإبريم الآن مقيم بها، ولكنها كانت تحت حكومة أخرى عند فتحها تحكمها، وكان فيها منذ أربعين عامًا في حكم جرجه ثلاثمائة جندي وخمسمائة جندي من الفرق السبع ويتبعها جميع القرى وهي التزام يدر مالا وغلالا، وكان يقوم بجمع المال والغلال ويقدمه لجنود القلعة والمستحفظين.

وهي قضاء يتحصل منه مائة وخمسون أقة، وبها مفتى على المذاهب الأربعة ونقيب أشراف، ولكن ليس بها أعيان، وعلى شاطئ النيل ألف ومائة بيت صغير، ولا وجود فيها لقصور وأعلى الأبنية بها بيت قائد الفرق السبع والجورياجى وشكرباره خاتون والمصاحب على أغا وبيوت للحراس هنا وهناك، وبها عشرون محرابًا تؤدي فيها صلاة الجمعة علاوة على الزوايا، وليس في هذه المدينة خان ولا حمام ولا سوق للبز، ولكن فيها ست مكاتب للصبيان وسبعة سبل وخمسة عشر دكانًا وثلاث مقاه وستة حانات للبوره، لأن جو هذه البلدة مناسب ففى شدة الحر تطرب البوره الجسم كما تدفع الجوع والعطش لشربها ويصنعون فيها بوزة الذرة كأنها ماء الورد ويشرب البوره الكبار والصغار، ولكن أكثرهم ضيق النفس وهم سمر البشرة لأن الحر فيها شديد، وماكولات ومشروبات هذه المدينة البوره والذرة وماء النيل وشراب البلح وما سوى ذلك من مأكولات ومشروبات فيأتى إليها من جرجه، وكانت هذه المدينة مدينة عظيمة فى قديم الايام، ولذلك فإن بها آثارًا تدل على عظمتها، وداخل وخارج هذه المدينة كثير من الضرائح، لأولياء مشهورين وقد ررنا ضريح الشيخ (هو) ولأن هذه المدينة تابعة لولاية أررق جادو، فنسأوها يشتغلن بالسحر ويسحرن الرجل حمارًا، وقد ابتلى بهذا كثير من الرجال، وقد سحرن حتى أحد متفرقة الباشا فإذا هو بين الرجال فى المقاهى وحانات البوره حمار، وقد مكثت فى قصر الكاشف يومين، ثم مضيت لمجىء كاشف أبريم، ومضيت جنوبًا على شاطئ النيل فسرْتُ لمدة ساعتين وبلغت قلعة إبريم القديمة.

أوصاف قلعة أبريم القديمة

بناها المقوقس ملك القبط، وقد حاصرها وفتحها عمرو بن العاص وكعب الأحمري وأبو عبيدة بن الجراح وجابر الأنصاري وأبو هريرة وسارية الجبل وأسود بن مقداد وأمثالهم من الصحابة الكرام، إنها قلعة حصينة متينة وقد بناها شداد على ربوة مشرفة على النيل وهي صغيرة وحصينة وخماسية الشكل ومحيطها ثمانمائة خطوة، ولها باب واحد مفتوح على الجهة الشرقية، وفي داخلها ثمانون بيتاً صغيراً وكبيراً، وفي وسطها جامع قديم الطرز ذو منارة، إنها لسليمان خان، لأن في عهد سليمان تم الاتفاق مع البربر والفونج على حيلة للاستيلاء على هذه القلعة، ودخلت في حوزته ومن بعد صار الطواشي سليمان باشا والياً على مصر؛ فجعل أوزدمر باشا قائداً له، ففتح القلعة قهراً في عشرة أيام، وقطع رؤوس من فيها من البربر والفونج فأصبح لونهم أسود، وفي هذه القلعة أقيم جامع سليمان خان، وليس فيها سوق ولا حمام ولا خان، ولكن للقلعة رئيس ومائة جندي وفرقة موسيقية ورئيس القلعة طبق قانون سليمان لا بد أن يكون من طائفة المتفرقة، ويأتى من مصر في كل عام ثلاثمائة جندي كما يأتى إلى الكاشف ثلاثمائة مستحفظاً، وهم يحصلون على مال الدولة والغلال ولهم أقلام وأفراد ويأخذون علوفة قدرها أربعون كيساً سنوياً من حاكم جرجه إنهم قوم شجعان، إنهم يتحاربون ليل نهار كما يحاربون مجرمى فوجستان، ومخزن الأسلحة في القلعة مخزن عظيم ولهم أربعون مدفع وليس للقلعة خندق لأنها قائمة على أرض صخرية إن جوها لطيف، ولكن في جنوب هذه المحلة تحرق شدة الحر بيوتاً للفقراء من القصب والحصير، ولكن بحمد الله أن شدة الحر لا تؤثر على الإنسان، ويجب التحرز من البرد في وقت السحر، وعلى الرغم من أن جميع الناس يأكلون من خبز الذرة إلا أنه في هذه الديار ينفعهم كثيراً، ويقيهم من مرض يصيبهم بالإسهال ثم الموت، وليس في هذه الديار طاعون، وأكل خبز الذرة يشفى من الإسهال، وأعيانهم يلبسون قميصاً عليه شال أما متوسطو الحال فيلقون حول وسطهم مئزرًا، وعليه مئزر آخر، أما الفقراء فيلقون حول وسطهم فوطاة زرقاء ويمضون عراة أما نساؤهم فيأترزن بإزار أبيض وأسود وعلى

رءوسهن خمار أسود وليس فى تلك الديار جميل ولا جميلة لأن بشرة أهلها شديدة السمرة والبعض كثير إلى حد أنه يقلق راحة النوم ليلاً، ولذلك ينامون فى شال رقيق اللهم عافنا، وإذا ما تجاوز أحد حدود ممتلكات الدولة العثمانية استوجب القتل أو نفى إلى إبريم، وصيف هذه المدينة معتدل ولشدة القيظ ينفون إليها المجرمين. وأبريم تقع فى نهاية حدود ممتلكات الدولة العثمانية، وفى الجانب الشمالى من تلك الحدود قلعة أراق، أما فى الجهة الشرقية فنهاية حد تلك الممتلكات العراق أما فى الجهة الغربية فحدودها مدينة بلغراد. وثمة قلعة تسمى:

قلعة جاوغه

ولكنها فى ولاية لطيفة جوها كأنها حديقة إرم فليس فى أبريم حدائق ولا خلائق، ولكن فيها جبالا سوداء، وإن وجد فى هذه الولاية حدائق يكثر فيها الشمام والبطيخ، وكل كيله من الذرة فيها تنبت مائة وخمسين كيله، ولذلك لا يزرعون إلا الغلال، إنهم يزرعون الذرة البيضاء وحيواناتهم تعتلف الذرة، وهذه البلدة تقع فى نهاية الإقليم الأول، إنه على حد قول بطليموس على عشرين درجة وسبع وعشرين دقيقة ويطول النهار فيه ثلاث عشرة ساعة وثلاثين دقيقة أما طول الإقليم الثانى من الشرق إلى الغرب على حد قول الجغرافيين فهو ألفان وأربعمائة فرسخ، وعرضه مائة وستة وثلاثون فرسخاً وفى هذا الإقليم سبعة جبال عظام، وهى مقاليد الأرض كما أن فيه ست وثلاثين صحراء لا يسكنها إلا قلة من الناس، وأرضها ممتلئة بالحشرات، وفيها ألفا مدينة، خمسون منها مدناً عظيمة، وفى جانبها الشرقى أولاً بلاد الهند والسند ومنصورة وهيزة وكندة وجزيرة العرب، ونجد وتهامة ويثرب والحجاز وديار فلزمك، وفى الجانب المقابل من بحر القلزم الحبشة وزيلع وسواكن وفى أرض بربرستان قلعة إبريم ومدينتها ومدينة دونقلا تحت بربره، وبها تنتهى الأرض الأفريقية والمصرية والبقليّة ومقابل المغرب كفار البرتغال وهم على شاطئ البحر المحيط، وقد طوفت بكل هذه البلاد قدماء الحكماء طيلة عمرهم واستخدموا علم الإسطrolاب وعرفوا نعم الله وألفوا كتبهم وهى

أطلس، ومينور، وجوغرافية وباريه وقولونيه وكتبوا عن أشكال الدنيا وقد طوفت أنا كذلك في البلاد والقرى التى فى الممالك المحروسة ووصفت قراها وقصبتها ومدنها العظيمة وجبالها وأنهارها ومنازلها شمالا وجنوبا ولم أذكر إلا ما تمس الحاجة لذكره ونقلت المقال إلى الحال، وذكرت أوصافها وأشكالها ونسجت على منوال أستاذنا نقاش حكيمى زاده على بك ولم يتيسر لنا زيارة بلاد الفونجستان بعد فما استطعنا الوصف عنها وأقاليم إيريم هذه تميل سبع درجات عن جهة الشمال.

وقد مكثنا فى قصر الكاشف أياما ثلاثة، وشاهدنا القلعة والمدينة ومن أجل السفر إلى فونجستان تزودنا بالزاد والنوق وخمسة عشر جوادا يحملون الشعير وسائر ما هو لازم للسفر، وقد تبادل الكاشف ورئيس القلعة والقائد والأعيان رسائل المودة مع ملك فونجستان وأمراءها وفى هذه المحلة تجار فونجستان وكانوا فى رفقتنا، وركبوا ثلاثمائة حمار، ومن جند القلعة سايرنا كذلك سبعون جنديا يحملون البنادق، وألحق بنا الكاشف أربعين رجلا، وجملين وهجينا وفرسا، وودعنا جميع أحبائنا فى إيريم، وخرجنا من إيريم قاصدين فونجستان مشاة وركبانا، وبعضنا يركب الجمال والبعض يركب الخيل والبعض الثالث يركب الحمير، وكان معنا من إيريم ثمانمائة رجل يحملون السلاح.

الفصل الحادى والسبعون

بعد توديع ولاية إبريم توكلنا على الله فتوجهنا صوب فونجستان

بيان بمنازل وقلاع وبلاد وقصبات فونجستان

مضينا على شاطئ النيل فى أول الأمر ولكن النيل فى هذه المحلة يعضى متعرجاً، وبعد ثمانى ساعات بلغنا بلدة وادى حلفه، وقد أقمنا خياماً هناك مع ثمانمائة رجل، وكنا ضيوفاً تلك الليلة فى هذا الوادى إن وادى حلفه سهل معشوشب، وعلى شاطئ النيل فى ظل شجرة جلست أنعم بالراحة، وعلى ضفتى النيل فيها صخر أملس، ومنها رأينا شلالات لا تمكن السفن من العبور، ثم رأينا فى يوم آخر سفناً كبيرة وهى تجرى، وغادرنا وادى حلفا هذا وعلى شاطئ النيل فى الشرق والغرب جبال وأدغال وأحراش مخوفة، فطوينا مراحل فى أرض كثيرة الأشجار وكثيرة الوحوش، وقضينا فى ذلك ثمانى عشرة ساعة، ولم نشاهد الشمس ستة أيام، لأننا كنا فى غابة أشجارها مثمرة وبها أشجار متقاربة من السنديان والسنت فهذه الأشجار حجبت عنا الشمس ولكن ليس فيها أثر لأشجار بلاد الروم، وفى اليوم السابع بلغنا قلعة صاى.

أوصاف قلعة صاى

هى آخر حدود ممالك آل عثمان، وينساها أبرهة فى جزيرة واسعة بنهر النيل، وقد توارثها ملوك بعد ملوك، وقد فتحها عمرو بن العاص عام ٢٢هـ بقيادة الأسود بن مقداد، ثم استولى عليها الفونج وفى عام ٩٣٥ وفى عهد سليمان فتحها أوزدمر بك، وهى قلعة حدود بناء على معاهدة أبرمت مع الفونج، وقد وفا ملك فونجستان بعهدة إلى يومنا هذا فما استولى عليها مخالفاً لما تم الاتفاق عليه، وبما أنها واقعة على نهاية الحدود فإن المتمردى من فونجستان وبربرستان لا يكفوا عن مناوشاتهم، وفى هذه البقعة يبدو النيل كأنه بحيرة واسعة، وهى تبدو حصناً حصيماً من الحجر الأسود مربع الشكل بناء شداد، وفى البداية بعد طوفان نوح بناها الملك صاى بن مصرام بن نقراوش وعمرها من بعده كثير من الملوك وبها الآن باب من الحديد يطل على النيل، وقد أحضر أوزدمر باشا

هذا الباب من بلاد الحبشة، وعلى عتبة هذا الباب صورة على الحجر الأسود لأبرهة، وكأنه حي ولما دخلت هذه القلعة حييت بإطلاق طلقة من مدفع، وقد رددت الجبال دوى طلقة ذلك المدفع التي حييت بها، ومضوا بسى إلى رئيس القلعة فجلست معه والله أحمد أنى رأيت رجلاً رومياً، وقال إن أعيان الولاية أكرموك، وبعد ذلك قدمت إلى رئيس القلعة وقائد الفرق المصرية السبع كما قدمت إلى أعيان القلعة رسائل كاشف إيريم، ورسائل حاكم جرجا، وفرمانات الباشا فزادونى تعظيماً إلى تعظيم، ثم تجولت سيراً على الأقدام لأشاهد القلعة والمدينة، ورئيس هذه القلعة هو من متفرقة مصر وله مائة وخمسون جندياً وثلاثمائة مستحفظ من فرق مصر السبع وفرقة موسيقية، وفى كل عام تأتى مؤنتهم ورواتبهم من جرجه، ولهم بارود أسود ومدافع، وليس فى القلعة شيخ إسلام ولا نقيب للأشراف، ولها قضاء يدر ستمائة أفجة. وبعض المحلات ألحقت بقضاء إيريم، ويأتى نائب فى سفينة تحمل المؤن كل خمسة أشهر، وفى القلعة خمسمائة بيت صغير من القصب والحصير، كما أن بها جامع السلطان سليمان خان، ومسجد أوردمر، وليس بها خان ولا حمام ولا مدارس ولا روايا ولا مكاتب للصبيان ولا سبيل، وفيها عشرة دكاكين وبها ثلاث مقاه وثمانى حانات للبوزه، ولكن فيها بوره مصفاة نقيه وخارج القلعة مائة وخمسون بيتاً من حصير ليس فيها حدائق، ولكن فيها كثير من البساتين، وفيها لذينذ من الشامم والبطيخ والخيار وعبد اللاوى وفيها نخيل هنا وهناك، وفى هذه الولاية تنشعب من النيل ترع وفى الصحراء يقيم عرب حلفا وهم يزرعون الذرة والكيله تنبت عندهم مائتى كيله وترتبتها خصبة، وعرب حلفا هؤلاء قوم قبيحة وجوههم عابسون لا مذهب لهم وفى بعض الجهات يغلبون عصيانهم وتمردهم، ويحاربون عسكر قلعة صاى.

وفى كل المواقع صحراء فيها الأسد والنمر والفيل ووحيد القرن والغزال ونيس الجبل والعقاب والثعبان وأنواع الحُمُر، إنها مقعمة بالوحوش للخيبة حتى إنه يوجد داخل القلعة ثلاثة أسود وكل منها كان أسداً أسود له جثة الفيل، وأنا لم أشاهد السباع، وأثناء انحسار ماء النيل يعبره العرب بالجمال، إلا أن ما فى جوانب القلعة الأربعة عميق ولا

يمكن عبوره على الأقدام، إن جو هذه البلدة جميل صيفها وشتاءها معتدلان، وإذا ما نام الإنسان ليلاً وجد العمر الطويل لأن ريح النسيم لا تأتي إلى هذه البلدة حتى أرض حاسانكه ومدينة بلبس والعريش ومنها لا يهب نسيم الصبا ولكن تهب ريح تياب وعلى. ولكن لا يؤثر في هذه القلعة ريح النسيم، وللنباتات والرياحين ريح طيبة تفوح وترد على متنسمها روحه، كان فيها الفتيات والفتيان متميزين بروعة الجمال، وإذا ما وقعت عليهما عين إنسان سَوَتْ الرَّجْفَةَ في جسده، ولطيب هواء هذه البلدة لا يصدأ فيها الحديد وساحرات صحاريها كهن شهرة تطبق الأفق، وكم من غريب رومي سحرته، والساحرات في إبريم أقل منهن في بلدة أزرق جادو اللهم عافنا إنهن في هذه المدينة يسحرن الرجال حميراً وكلايياً ويطيرن الجرار والأوتى في الهواء وحاكم قلعة صاى تحت حكم فونجستان وليس فيها غلمان من الروم إلا ما يجلبه النحاسون، وودعنا المستحفظون الباقون في القلعة ولما عقدنا العزم على الرحيل قدم إلينا الشباب والشيوخ وقالوا لنا إذا ذهبتم إلى فونجستان فإن جيلادكم سوف تهلك من الحر والجوع ولا تأمنون هادية للصروح من الزنوج، وبسطوا إلينا الرجااء ألا نغضى فقلت إن الخوف لا يدخلني مطلقاً، لأن الله - تعالى - قال: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]. وقد حفظت منذ أربعين عاماً وقد ختمت للقرآن الكريم في كل يوم جمعة منذ فجر شبابه، وبذلك كنت أختمه في كل عام ثمانية وأربعين مرة، وأنا مقتنع بذلك كل الاقتناع وأنا لا أنثنى عن عزمي، وقالوا لى وإذا ما ذهبت إلى إبراهيم بلتسا وأنت لا تحمل هدية فأنا لا أرد جهواً، وماذا أصنع بالهدايا التي لملك فونجستان وفي الموضع الذي يصب فيه النيل عند دمياط ورشيد صليت ركعتي الحاجة، ودَعَوْتُ الله أن ييسر لى زيارة منابع النيل ومقابر الأولياء هناك فأحمد الله تقبل دعائى، لقد جئت إلى بلدة صاى وعودتى إلى مصر غير محتملة، اللهم هبني رفيقاً لأرحل، وألحمت فى الدعاء فقالوا لى لا تنسانا من دعواتك وكلفت أن أقدم إلى حاكم الفونج رسائل المودة فقالوا لى على الملأ: إذا دخلت للقلعة فإن جنودها من الروم سوف يقتلونك، ونحن لن نعطيك رسالة ولا رفاقاً البتة، وقرروا أن ذهابى لغير إياب، فدخلنى من ذلك خوف شديد، وتصورت ما سوف

يتزل بي من شدائد وبلاء ولكن لا بد من الذهب فحملت خمسين هجيناً بالمتاع ومعى اثنين من حاملى البنادق الشجعان، وحملت أربعة جمال بالمؤن وهبنى أعيان القلعة ذلك كله، وقد أوصى شيخ النخاسين فى بربرستان وتجار الفونج على، وأنى من طرف الباشا أغا وإذا ما أصابنى سوء فسوف يكون ذلك وخيم العاقبة كما أنهم حذرونى من أن أثق فيهم وحذرونى من الغفلة حتى فى وقت أداء الصلاة فلا بد أن يكون حولى جنود للحراسة وأن يحملوا السلاح ليل نهار.

جاء فى جميع التواريخ العربية وتواريخ الصابئة أن مدينة صاى مدينة تقع فى حدود أسوان وبعد الطوفان أنشأها كاهن يسمى رَهْوَان هِنْدَى وأثار أبنتها ما رالت مائلة للعيان، وهذه الآثار تثير دهشة مشاهديها وكأنها ليست من عمل البشر، وفى هذه المدينة مرآة صنعت من عدة معادن فمن قصد هذه المدينة من الأعداء أحرقتهم، ومن أجل ذلك لم يفر على هذه المدينة أعداء بغاة طغاة.

مدح حديقة إرم رَهْوَان الهِنْدَى

وبالقرب من هذه المدينة بجزيرة فى النيل حديقة تسمى حديقة رَهْوَان هِنْدَى، وكأنها جنة رضوان وقد نبت نباتها دون زرع، وبه أشجار غريبة وثمار عجيبة وأطياف تغرد وفى السحر ترفع كل الطيور أصواتها الحزينة فيدخل السرور قلب الإنسان، كما أن فيها حيوانات أليفة لا يعلم عددها إلا الله، فيا عجباً لهذه الحكمة، وكانت تابعة لأربعة حكماء اثنان منهم من ولاية بربرستان والآخران من ولاية الحبشة وبها أربعة ترع اثنان ماؤهما له مذاق التمر الهِنْدَى وماؤهما مفيد ومسهل للهضم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]. وفى طرف مدينة صاى أحجار صفراء اللون مستديرة فى الجبال ويسمون الحجر منها عين الصنم. وهى أحجار مصقولة مجلوة ويقولون إنها عيون أصنام رَهْوَان الهِنْدَى. والعرب يضعون هذه الأحجار فى الماء ويشربونه وفى طريقة العين يسكرون وهؤلاء هم قوم كنوز، ولكن على حد قول أهل هذه الديار فإن حجر عين الصنم موجود فى جبال مدينة تنيس فى الحبشة والبرتغاليون يشربونه بالماء فيصير شراباً خاصاً لهم ويقدمونه هدايا فى ولاياتهم، إن شراب الذرة لا يتخمر ولكنه مسكر، وقد

خرجنا من قلعة صاى فى رفقة من أخذ عشر رجلاً من الفونج والبربر ورافقنا أهل القلعة ساعتين، ثم ودعناهم وقد حذرونا من مرض يصيبنا هناك ثم غادوا إلى القلعة، ومضينا فى صحراء على شاطئ النيل، فى طريق مستقيم مع الجند وعبرنا بقاعاً لا ماء فيها حتى وصلنا ماغرات:

أوصاف ولاية فونجستان وقلعة ماغرات زاغستان

إن هذه القلعة تحت حكم حسين خان ويسمونه فى هذه الديار الوزير وقد فتح هذه القلعة أوزدمر بك على عهد الطواشى سليمان باشا والى مصر، ثم استولى عليها أهل الفونج بعد أربعين يوماً وما زالت إلى اليوم فى حوزتهم، وحسين بك من عرب كلاش، ومن أتباعه سبعة عشر ألفاً من المحاربين وهم يسكنون خارج هذه القلعة وتحت حكمه سبعة عشر قلعة ويسمى حاكم فونجستان ذلكير، وهو يتبع وزير مصر، ولكنها الآن تابعة لمن يسمى يرار بك ويحكم تلك المدينة الآن من قبل حسين بك عطاء الله خان، ولدى حسين بك خان رسائل من قبلنا، وقد قدمنا إليه من طرف حاكم إيريم وصاى هذه الرسائل التى من أعيان إيريم وأعيان قلعة صاى وقد قبلها ووضعها على رأسه، وأرسلنا إلى خان القلعة، وأهدى إلينا سِنِّين من سن الفيل، وقدم معنا من قلعة صاى مائتان من من يركبون الجمال فسلمناهم سن الفيل، وقد عاد هؤلاء إلى القلعة بما يحملون.

وقلعة ماغرات قلعة صغيرة مربعة الشكل تقع على الشاطئ الشرقى للنيل، وفيها أربعون أو خمسون بيتاً من حصير، ولهذه القلعة باب من خشب يفتح على الجنوب وليس فيها سوق، وفيها سبع أو ثمانى حانات للبوزة، وجامع صغير المئذنة، وقد أدينا صلاة الجمعة فيه، وقد ذكروا فى المخطبة اسم ملك الفونج، وأهل الفونج مسلمون على مذهب مالك وأرسل الحاكم فى الصباح إلى مائة زقيق مسلحين بالحراش ويركبون الجمال، وكثير من خبز الذرة، والحراف المطهورة، وبطيخاً، وتمراً، ومضينا على شاطئ النيل فى غابات أشجارها السنديان والابنوس وهى أرض جبلية كثيرة الأحجار حتى تناره:

أوصاف قلعة تبارّه

وهي تحت حكم حسين بك حاكم الفونج، ولها قضاة من الزوج، وكانت مدينة عظيمة في سالف الزمان، وقد تركنا جميع رفقاتنا عند جزيرة قريبة من الشاطئ الغربي للنيل وهم الذين كانوا على الضفة الشرقية للنيل فعبرنا إلى القلعة في سفينة، وبلغنا حاكمها وهو رجل صالح أسمر الوجه واسمه صالح كذلك، وسلمنا إليه رسالة رئيس قلعة صاي فسر لذلك وأرسل لنا المؤنة وكذلك العلف لحيولنا، وفيها قلعة حصينة قائمة على الصخور بناها شداد وهي قريبة من الشاطئ الغربي للنيل، وتقدمنا في سيرتنا، وبدأت القلعة كأنها جزيرة على الصخور، ولها باب يفتح على الجهة الشرقية وعليه صورة أسد وحاكم القلعة له ثمانمائة من الرجال المحاربين، أما رعاياه فأربعون أو خمسون ألف من العرب سود الشعر، وهم جميعاً مسلمون من أهل التقوى يؤدون الصلاة ومذهبهم هو المذهب المالكي، وثمة جامعان ومحكمة ومقهى ومسبح حانات للبوزة، وهم لشدة الحر عراة ومنهم من يلفون قوطة حول خصورهم أو يضعون إزاراً على ظهورهم، ويلبس حاكمهم قميصاً أبيض البطقة وفي هذه المدينة يكثر من الفيل وقرن وحيد القرن ويصيدهم الصيادون، وفي الجانب الشرقي من النيل زوج سود يأكلون لحم الجمال ويشربون لبن النوق، وبعد مرور تسع ساعات بلغنا قلعة سه سه.

أوصاف قلعة سه سه

هي قلعة حصينة تقع على الشاطئ الغربي للنيل، ومكث رفقاتي في هذا الشاطئ وعبرت النيل في قارب ووصلت إلى الحاكم وهو أسمر البشرة يسمى حسين بك وقدمت إليه الرسائل، وقد عظمنا وكرمنا، وهذه القلعة قائمة على الصخور وقد بناها شداد وبدأخلها مائة بيت من قصب، وليس فيها مدافع ولكن فيها مجانيق وقد رجوت أن يسمح لي بمشاهدة هذه المجانيق، إنها تقذف أحجاراً يزن الواحد منها ثلاثة قناطير فوطير في الهواء كأنه النسر، ولقد أطلق منجانيق حجراً فسقط الحجر المقذوف في بستان في المدينة، وارتفع ثانية فبلغ الجانب الآخر للنيل، ولهذه القلعة قاعدتان عظيمتان، وعليهما نخلتان شامختان وقد علقوا فيها أربعة جبال من جلد الفيل، وفي أعياد الروم يصنعون

الأراجيح للصبيان على هذه الجبال، وبهذه الحجارة فى تلك الجبال يهلك الأعداء، وقد وضعوا على أعمدة المجانيق كثيراً من الجبال وهم يدفعون الحجارة المعلقة فى الجبال فتصدم العدو صدمة عنيفة يكون بها من الهالكين، وفى خارج القلعة أشجار الدوم ويحملون المجانيق على ظهور الجبال إذا خرجوا محاربين وهذا يعدّ مشهداً عجباً، وفضلاً عن ذلك لهم أسلحة أخرى هى السهم والقوس والسيف والمقلع والمزراق والخربة متعددة الأسنة، كما يستخدمون التروس من جلد الفيل ولهم خيول قصار وفيلة، ولكن جمالهم كثيرة والرجلان أو الثلاثة يركبان المدفع، وليس لهم بندق، ويتبع هذه القلعة أربعون أو خمسون ألفاً من الزنوج سود الوجوه والشعور، والرجال عرايا أما النساء فمستورات، ولكنهم يواظبون على أداء الصلوات فى أوقاتها ولهم جامعان وسبع زوايا وستة مقاه وستة حانات للبوزه، ولا أثر فيها للأسواق ولكنهم يقيمون سوقاً عظيمة خارج القلعة فى كل أسبوع، وهذه القلعة قريبة من الحبشة وشرق القلعة أرض جرداء يغمرها ماء النيل وبذلك تبدو فى الماء جزر وجزر، كما تبدو فيها قلاع وكلها تحت حكم كور حسين خان ولهذه القلعة من العرب خمسمائة وخمسون جندياً مسلحين بالحراب وتجهز النيل فى الضفة الأخرى قلعة مستديرة الشكل هى قلعة نازنارنته.

أوصاف قلعة نازنارنته

إنها قلعة منيرة مستديرة فى جزيرة فى النيل بناها شداد وهى كذلك فى حكم حسين خان وهو يملك خمسمائة جندي، وقد تجاوزنا هذه القلعة ومضينا على شاطئ النيل خمس ساعات وتجاوزنا خط الاستواء وسرنا فى أرض شديدة الحر ولا وجود فيها للأشجار ومضينا بمقدار سبع درجات.

أوصاف معدية خفير الصغيرة

إنها حصن صغير فى غرب النيل والسفن التى تعبر إليها تدفع رسوماً وفيها مدافع وعندما تنحسر مياه فيضان النيل يمضى العرب إلى جزيرة سه سه على الجبال ثم يمضون منها إلى قلعة المعدية، ولم نَمضِ إليها ولكن مضينا على شاطئ النيل واجتزنا بأكواخ من القصب، ومضينا فى الطريق ثمانى ساعات وبلغنا قلعة خفير.

بيان قلعة حفير العاصمة الكبيرة

وأرسلنا طليعة رجالنا إلى رئيسها الخان دائم الدين فخرج إلينا واستقبلنا بألف فارس ثم عبرنا بمائة سفينة إلى الجانب المقابل من الشرق إلى الغرب، فقصفت القلعة بالمدافع، ومكثنا في قصر صاحب القلعة كور حسين بك، وفي الجانب الغربي من هذه القلعة بناء مثلث الشكل وهذه القلعة منيعة، إنها مقر كور حسين بك، ويقولون إن أول من بناها هو عترة فعلى بابها المقروح على النيل صورة زغبي على ظهر فيل ويقول أهل البلدة إنها صورة عترة، إنها صورة صنعت قديماً وداخل القلعة بيوت صغيرة وكبيرة من القصب وفيها عشرون محراباً، وأهلها جميعاً من المسلمين المتقين على المذهب الشافعي، وفي سوقها جامع الملك سيف الدين خاقان، وجامع الملك حارث خاقان وجامع الملك تبع خاقان وجامع حسين بك الذي بُني حديثاً، إنها جوامع صغيرة، ومنايرها قصار وليست مزخرفة، ويذكر في الخطبة اسم الملك الخاقان ثم اسم خادم الحرمين ثم قيصر محمد، وفيها خمسون زاوية ومبرة، ووكالتان صغيرتان وستة مكاتب، وعشرون سيلاً وحمام صغير، ومائة دكان وعشرة مقاه، وعشرون حانة للبوزة، وكل الدكاكين مفتوحة ليلاً ونهاراً، وفيها الأمن والأمان، ولهذه القلعة سيمائة جندي وخمسون ألف بربري وأهلها يشتغلون بالزراعة، وقد رأينا في هذه المدينة خبز القمح، ويورع علينا الحاكم دائم الدين خان في كل شهر مائتي رغيف وخروفاً وسمناً وجرة من العسل ولحماً وشعيراً وأكثر محاصيلها هو الذرة والتمر وفي بساتينها يكثر البطيخ والشمام ولهم خيول صغار الحجم، وقطعان الإبل في صحاريها لا تقع تحت حصر وغنمها وعزاتها وعجولها كذلك كثيرة لا تحصى وكان في القلعة فيل صغير وكان أليفاً للغاية يلعب كل أحد.

وصف حفير

وخارج المدينة في المقبرة ضريح القطب الشيخ ناجز الدين ابن الشيخ نصرت وقد وزنا ضريحه، ولا اعتدال جو هذه المدينة تكثر فيها الحلائق والنخيل، ولكن ليس فيها جميز ولا نبق، وهذه المدينة تقع على بعد ميل شمالي خط الاستواء وترتفع عن مصر بمقدار ربع دائرة، ولشدة الحر فيها رجالها ونساؤها سود البشرة، وثيابهم فوطة وأعيانهم

يلبسون شال إحرام ورموسهم عارية وقد مكثنا فى هذه المدينة ثلاثة أيام، واستراحت خيولنا وجمالنا وقدم سبعة من النجباء على الجمال ومضوا إلى المحكمة ثم لحق بهم القائمقام دائم الدين وتليت رسائل النجباء فمضى بأمر كور حسين بك إلى ملك الفونج المتعرد مائة ألف جندى وخمسين منجنيقاً وأربعين ألف جمل مع أسلحتهم وأحمال سبعين فيل من الخيام، ولأن هذا لم يكن كافياً كتب إلى أعيان المدينة يطلب المزيد من الذخيرة ففى خلال يومين جمع ذخيرة مقدارها ثلاثة آلاف جمل وثلاثة آلاف جندى وقد صعدت بنفسى إلى قلعة حفير.

وصف قلعة قاندى

إنها قلعة صغيرة على الضفة الشرقية للنيل بناها وزراء ملك الفونجستان لذلك سميت قان، ولها ثلاثمائة حمل جمل من الذخيرة وثلاثة آلاف جندى فاختلفوا بعسكرنا وفى الصباح بعد أن مضينا سبع ساعات بلغنا قلعة ناورى.

وصف قلعة ناورى

إنها قلعة على الضفة الشرقية للنيل أقامها حسين بك وهى فى حكمه، وهى فى شكل مستطيل، ومساحتها ألف خطوة، ولها باب يفتح على الجهة الشرقية ولكن أسوارها منخفضة وبها ثلاثة جوامع وست منائر قصيرة، وأسواقها صغيرة وبها حمام صغير، وداخل القلعة مائة بيت من القصب، وألف عسكرى وأربعون ألف من الأهالى وقد ورع قائم المقام كمال الدين بك على جندنا ألف حمل جمل من الطعام وستة آلاف جندى. ومضينا فى تلك الليلة عشر ساعات على شاطئ النيل وفى الصباح بلغنا قلعة سندی.

وصف قلعة سندی الحصن المتين

إنها فى شرق النيل على شكل مثلث وهى قلعة حصينة، وفى القلعة سبع مائة بيت من قصب وسبعة جوامع، وأما غير ذلك من المباني فخربة، وكل أهلها مسلمون متقون على المذهب الشافعى، وبها تتم حدود حسين بك، وهى فى حكم دفتر دار ملك الفونج، وثمة سوق ومحاريب وفى السوق سن القيل وقرن وحيد القرن وجلد الضب

وشجر الأبنوس كأنها جبال مغمورة بالرمال، وهي موجودة ولكن لا قيمة لها، وحاكم هذه القلعة على بك، وقد انطلق في الطريق ومعه مؤنة يحملها ألف فيل والفان من الجند أما العظمة لله، أصبحنا عددًا كبيرًا وكان الجند من الزنوج يملأون الصحراء والسهل وقد سألتني الحاكم عما إذا كان قيصر الروم لديه هذا العدد من الجند فأجبتني ليس لنا من الجمل ولا هذا العدد من الجند العراة ولكن لآل عثمان مدافع كالبحر ولهم عسكر يحملون البنادق وما تسميهم العسكر عراة أكبادهم محترقة يتناولون كسرة من الخبز، وإنهم يمشون كأنهم قطعان من الحمير السود وإنهم غاية في التحول والضعف، إلى حد أن عظامهم تبدو من جلودهم، ولكن حركتهم خفيفة، وجيرانهم لا يأمنونهم وبلغنا صحراء دانقة.

منزل صحراء دانقة

إنها صحراء مترامية الأطراف وفيها كثير من النباتات، وقد مكثنا فيها وأقاموا خيامهم فيها، وفي وقت العصر ظهرت لنا آلاف من الأعلام في الغرب واقتربوا من عسكرنا ببطء، ولعلمهم من بربرستان ومذهبهم هو المذهب الشافعي، وقد مضى منهم أربعون ألف جندي مع مائة ألف جمل ليكونوا مددًا لحسين خان وبدأوا في السير من الصباح حتى الليل، وقد مكث عسكرنا عند بحيرة وامستطينا صهوات جيادنا التي قدمها لنا صاحب القلعة، كما استقبلني ملك البربرستان، وقد أكرمنا الملك بأن أتحنفنا بشال أسود، وخمس عشرة وسادة من الجلد وسجاجيد سود ولما استقبلناه وقف وعظمناه فقدموا إلينا لحوم الإبل والتمر وخبز الذرة، وأمام خيمته أحرق النفت والقطران، وبعد الطعام لم يغسل يديه إنه رجل مكشوف الرأس وشعره عقائص وله خدام سمر البشرة سبجان الخلاق ثم أحضروا لنا حلوى التمر والشراب وقد شربنا الشراب في كأسات من الخشب، وقد عظمناه برفع أيدينا وبينما كنا نشرب سألنا عن أحوالنا، فقلنا إننا قد أتينا من قبل وزير مصر إلى ملك فونجستان، فقال لا يأتي من قبل وزير مصر إلى فونجستان، رجل أبيض البشرة، فقلنا لنصل إلى ملك فونجستان، وعدنا إلى خيامنا، وفي السحر قرعت الطبول وغننا في الصحراء يومًا وليلة، ومضينا بعيدًا عن النيل، وفي اليوم الثالث بلغنا شاطئ النيل ثانية، وبلغنا قلعة إردان.

فى مدح قلعة اردان

إنها قلعة جميلة حصينة على الضفة الشرقية للنيل إنها تحت حكم ملك فونجستان وعاصمته وهى مدينة معمورة جميلة للغاية، وبها سبعة عشر ألف جندى من سمر البشرة مائتا ألف من الزنوج والبربر والفونج من حملة الرايات، وهم مسلمون مؤمنون على المذهب الشافعى، وبها سبعة جوامع وأربعون زاوية وخان وحمام وسبع وكالات وستمائة دكان ومكتب للصبيان وسبل، ولكن ليس فيها أبنية على طرز أبنية الروم والعرب، وليست هذه المباني مزينة، وفيها حدائق هنا وهناك وفيها بساتين كثيرة، ومن شدة حرها تشوى الإنسان، وجملة أهلها من التجار، ومتى بلغوا بلدًا حملوا السلع على ظهور الجمال والفيلة وعند السير إلى الجهة القبلىة تطلع الشمس من خلف الكتف اليمنى، وتقع هذه المدينة عند خط الاستواء فى الحبشة، وعلى الضفة الغربية للنيل أرض مخوفة؛ ولا يسكنها من أحد، إنها صحراء قاحلة وفيها فيلة، وعقبان ووحيد القرن فسرنا بمحازاة القلعة، وصدنا الفيل ووحيد القرن وبعض الحيوانات الأخرى فى الكمائن بالأوهاق^(١) والحراب.

وقد ألحق حاكم اردان حمل ألفى جمل من المؤنة وعشرة آلاف جندى مع جندنا، ولم تلبث^(٢) بهذه الصحراء وقد رأينا بشاعة ما فيها وسرنا ثلاثة أيام بلياليها وبعد أن أخذ منا التعب مأخذه بلغنا ساحل النيل.

صحراء هانقوج العظيمة

إنها تحت حكم ملك فونجستان، وهناك مكث عسكرنا وسمعنا فى الصباح صوت يقول الله كأن جيش كور حسين خان كان فى انتظارنا، وكأن خيولنا وجمالنا مهياة للتقدم، وقد جاءنى خطاب يأمرنا بالتقدم سريعاً فمضينا فى الصحراء ثلاث ساعات، فوجدنا أنفسنا وسط كثرة من الرجال والجمال، وهم يحملون الحراب والسهام والقسي، والمزاريق ولا يعلم عددهم إلا الله، وتجاوزناهم، ووجدنا أنفسنا فى جيش تفوح من

(١) الأوهاق: الحبال ومفردها: وهق.

(٢) تلبث بالمكان: ترقف فيه وأقام.

رموسهم رائحة ذكية، وهم قوم سمر البشرة في وجوههم مسحة من الجمال، وقدم للملئد من ملك قزمانقه مائة ألف جندي وتجاوزنا خيامهم، ثم وجدنا أنفسنا في جنود، وفيهم من يشبهون جنود المصريين والعثمانيين، ورأينا لهم خياماً تشبه خيام العرب فدخلنا السرور ومضينا إليهم ولهم ألفى خيمة من الحرير الملون وقد انعكست أشعة الشمس على مدافعهم فكان لها بريق يسهر عيوننا، وقد مضيت إليهم غير خائف ولا وجل وتحدثت إليهم بكل أدب وقد استقبلوني عند الباب، وبعد أن تصافحنا وعظمت وركعت على ركبتى وقال لى بلسان تركى فصيح مرحباً بك، فاطمأنت روحى، وكأنه كان يعرف التركية الفصحى فبالقرب من أسوان كانت قبيلة من العرب مقيمة ففرحت بذلك، وقلت: إننا قدمنا دون طعام فقدم لنا الشاي فشرب كل منا فنجاناً من الشاي، وقبل كل من قَدِم معنا من القلعة يده.

كما أنه قر ملك بربرستان كل التوقير فى البداية عند مقدمه، وقبل يد ملك الفونج الذى كان واقفاً على يمينته، والتقيتا به طبق القانون المرعى ومنح من معنا من الجند المؤن، وقال سوف نغضى لمواجهة العدو فى الصباح بإذن الله، وقلت قدموا لنا الطعام كذلك فقال مرحباً، وقد قدمت رسائل وزير مصر ورسائل أعيان جرجا ودراو، وصاى وإبريم، وقرأها ملك الفونج بلسان عربى بليغ ففهموا ما تضمنته هذه الرسائل، فوقف فى التو واللحظة وأراد أن يقبل يدي، وأمر وكيله بأن يهيم خيمة بكل ما يلزم فيها فأقمنا بها، كما أنه كان يحمل عنزاً فى يده فقدمه إلينا كما كنت أحمل إزاراً مزركشاً فقدمته إليه، فلفه حول رأسه فقال لله نحمد أننا تسلمنا هدايا الروم فوقفت ومضيت إلى الخيمة واسترحت فيها ساعة، وقدم إلى خيمتنا بعد أن أصلحها العسكر والخدم، فرفعنا من التراب وأكلت بعض الحلوى التى أحضرها وشريت كوباً من الشراب وسرّ كثيراً لما أحضر إلينا من حلوى وشراب، وأهدينا إليه الحلوى والشراب المعطر فسر لذلك سروراً لا غاية بعده، وقدمنا جميع المؤن على الجند، وصاح العسكر طالين إلى أن أتقدم، وفى جوف الليل قرعوا الطبول، وقودوا كل الخيام، وكانوا على تمام الأبهة، ولما أصبح نفخ فى البوق، وانطلقوا فى طريقهم وطلبوا إلى أن أركب فيلاً فصعدت سلماً لأركب على ظهره

فتلوت المعوذتين، ومضيئنا في الطريق وفي طليعتنا ملك البربرستان ودعا ثلاثة عشر منا لركوب الفيل وعلى ظهر الفيل تناولنا فطورنا وطوينا المراحل وبعد الطعام سِرْنَا طاوينا مراحل بعيدة وقد امتلأ طريقنا بالعرب، وكانوا يمضون أمامنا زرافات زرافات، وعلى ألف فيل حملت الأسلحة والمجانيق، كما حملت المدافع ألف فيل وحملت الأسلحة والعتاد على ظهور مئآت من الجمال، كما أن المشاة كانوا لا يحصون كثرة ومضيئنا في صحراء على النيل سبع ساعات.

أوصاف قلعة طومبو

إنها في جزيرة عظيمة في النيل وهي قلعة حصينة مربعة الشكل وفيها ألفان من الجنود وعشرون ألف من الرعايا الزوج، وفي القلعة جامع وقد مكثنا قبالة هذه القلعة وقد قدم إلينا حاكم القلعة حمل خصماتة جمل من الذخائر، ولما أصبح الصباح ألحق بنا عشرة آلاف جندي من العرب وقد أهدى إلى حسين خان فيلاً لأركبه في رحلتنا، فركبنا جميعاً، وقد بلغنا القصر واسترحنا من شدة الحر، وصلينا، ومضيئنا على ضفة النيل تسع ساعات.

في تعريف قلعة جلته شوكزاوي

بما أن الشيخ شوكزاوي مدفون في هذه القلعة لذلك سميت القلعة بقلعة شوكزاوي، إنها على الضفة الشرقية للنيل وهي قلعة حصينة وعامل الفونج له من الرعية خمسون ألفاً وفي القلعة جامع، ومنها يأتي المدد والذخائر، ولما أصبح الصباح سِرْنَا على ضفة النيل عشر ساعات.

أوصاف قلعة حفير فونجستان

إنها بناء على الضفة الشرقية للنيل، وفيها جامع وأسواق صغيرة وحانة للبورة، وللقلعة رئيس ويقيم بها ستون ألف من الرعايا، وقد قدمت إلينا كذلك الأطعمة ومضيئنا على ضفة النيل جنوباً وكان الحر غاية في الشدة وفي الساعة الحادية عشرة بلغنا قلعة مشو.

أوصاف قلعة مشو

إنها قلعة على الضفة الغربية للنيل وهي تحت حكم الفونج، وفيها جامع ولها قاض

وعدة مقاه وحانة للبوزه، وقبالة هذه القلعة قلعة طومبول، وبها جامع بلا مثذنة، وحاكمها هو ناصر بن طومبول، وطومبول اسم قوم عظام وقد شاهدناها، وعبرنا إلى الضفة الغربية، ومكثنا فيها ثلاثة أيام بلياليها، وقد وزعت الأسلحة على جميع الجنود، وأخذوا أهبتهم للحرب، وفي اليوم الرابع مضينا إلى الجانب الغربي في جنود لا يقعون تحت حصر، وقد مكثنا عند بحيرة فيله، ويحمل من البحيرة في كل يوم حمل مائة ألف جمل من الماء، وفي الصباح مضينا، وجملة القول أننا طوينا مرحلة بعد مرحلة في مدة يومين وثلاث ليال.

صحراء ادريسك

فيها أربع قرى وفيها دارت رحى القتال وفي الصباح كانت المجانيق تنطلق من فوق ظهور الفيلة والمدافع أيضاً تنطلق من فوق ظهور الفيلة وزحفنا نحو العدو، وتلوت الفاتحة وأنا إلى جانب حسين بك، ومضينا في الصحراء أربع ساعات، وهناك رأينا جند من الكفرة هبطوا علينا من الجبال وكانوا جنداً كموج البحر، وواجهوا جنودنا، ولكننا لم نتقهقر حتى تقهقر العدو إلى الجبال، وتفرقوا في الصحراء، أما جنودنا فصاحوا جميعاً في صوت واحد قائلين الله الله، وهاجمونا بالخيول والجمال والفيلة، وقد أطلقوا المجانيق وقد اختلط جنودنا بجنودهم فواجه الجندي جندياً.

وخلصة القول أن المعركة دامت سبع ساعات وكانت غاية في شدتها وضراوتها. وفي وقت العصر عندما قيل انهدم بيره مخاف اطمأنت قلوب جنود الإسلام وقرت عيونهم أخبر حسين بك بقية جند الكفاح بالمجيء فقدموا وقت الغروب فمضيت إلى حسين بك وقدمت إليه التهنتة قائلاً بارك الله في غزواتك فرد بقوله هذا من فضل ربي، ولفرط سروره بذل الاموال لنا جميعاً، وفي الصباح ارتحل عن هذا المكان وأمر الجند بالإغارة على عبدة النار، أما غير الجند فبقوا تحت:

قلعة فردانية

ومضى الجند أفواجاً لتخريب ديار عبدة النار ووجدوا في قلعة الفردانية جميع

الأموال والأرزاق، ودخل القلائد المعظم حسين خان مع جنوده القلعة، واستولى على كل ما فى القلعة من خزائن وأمر جنده بالرحيل إلى القلعة، وأقام فى قلعة عبدة النار، ومضيت إلى قصر رئيس عبدة النار ولكن هؤلاء القوم حفروا داخل وخارج القلعة وخربوا هذه القلعة، فأخرجوا ما لا يحصى كثرة من الفؤوس، أى أنهم وجدوا أرض الذهب، كما عثروا على من الفيل وقرن وحيد القرن والمسك والعنبر والذهب والأقمشة الفاخرة فهى نادرة فى هذه الديار، وأموالهم هى الفيل والفرس والجمال والكبش والعجل والجاموسة وهى كثيرة عندهم لا تعد ولا تحصى، أما ما يستحسنه أهل هذه البلاد فهو ما يأتى إليهم من مصر من كتان ومن حرير، وقس ورماح وسيوف وقد بناها كنعان بن نوح الذى ارتد عن دين أبيه ولم يركب معه السفينة، وهذا على حد قول عبدة النار، إن هذه القلعة على ربوة تطل على بحيرة وكل حجر فى بنائها يبلغ فى الطول والعرض خمسين أو ستين شبراً، وقد بنيت على شكل سدس، وتتألف من طابقين ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، ولها باب يفضى إلى الشرق وفى داخلها بيوت مبنية بالحجر، وفيها عدة بيوت تحت الأرض وكأنها غار الجحيم، وفيها قوم ليسوا من عبدة النار، لأنهم من عبدة الشمس وقد أغرنا على هذه البيوت وقد أخرجنا منها كثيراً من الغنائم، وليس فى هذه القلعة أثر يدل على أنها كانت كنيسة من قبل، وفى وسطها ميدان ويجتمع عبدة النار فى هذا الميدان كل صباح فى ظل أشجار السنط والسنديان والأبتوس ويسجدون وفى جوانب هذا الميدان الأربعة أشجار كأنها الجبال ويحضر من الحطب يحملونه على ظهور الفيلة والخيول، ولكن فى بيت النار هذا طائفة الفونج والقزماقنى والققانى أطفئوا النار وتبولوا وتغوطوا عليها، وقد رأينا بعض الأسرى يصيحون ويكفون وقد عرفنا أن بيت النار هذا لم تنطفئ فيه النار منذ ثلاثمائة عام، وفى روعهم أن هذه النار هى النور الإلهى ولكنها لا تدوم وتنتهى، وهذه هى حال بيت عبادتهم، وهذا ما أحزنهم، أما عبدة النار الذين يسكنون تحت الأرض، فليس لهم كنيسة ولا بيت للنار، ولكن على غارهم بحيرة واسعة يطل عليها عمود، وقد حفر فى هذا العمود محراب متجهاً إلى الغرب، وجميع عبدة النار يجتمعون ويسجدون للشمس حينما

تشرق الشمس وترسل أشعتها على شرق هذا المحراب، ثم يرقصون وينصرفون ويفعلون مثلما فعلوا عند غروب الشمس، فهم يقيمون شعائهم هذه كل يوم، وقد أبطل حسين خان هذه الشعائر، وجعله القول أننا مكثنا في هذه القلعة شهراً بتمامه، وقد أغرنا ليلاً إلى أسوان على عبدة النار وعبدة العجل وعبدة الفيل وعبدة الشمس وقد غنمنا كثيراً من الغنائم في كل يوم، وانطلق جنودنا وعادوا بالغنائم من فيل ووحيد القرن وفرس وجمل وحمار وجاموسة وثور وكبش، وعلى كل فيل عشرون أو ثلاثون أميراً وعلى كل جمل خمسة أو ستة أميري كما جاءوا بخيول وحيوانات ومن كل ولاية جاءوا بفتيات وفتيان وزنوج، وبعد ذلك في أحد الأيام من عام ألف وثلاثة وثمانين خربوا قلعة فرداني وكان المسير على شاطئ النيل فسيرنا نحو الشرق إحدى عشرة ساعة ومكثنا على ضفة البحيرة، ثم قمنا ومضينا شرقاً فسيرنا سبع ساعات على شاطئ النيل وقد سبق لنا أن عرفنا قلعة مشو ومكث الجند مع غنائمهم على ضفة النيل، وبعد إحدى عشرة ساعة أمرنا بالبقاء في هذه القلعة على ساحل النيل لمدة ثلاثة أيام، والتفت كل منا إلى غنائمه، ثم مضيت إلى حسين خان وقلت له الله أحمد أنك نلت النصيب الأوفى من هذه الغنائم، ووصلنا إلى مملكتنا سالمين غانمين، ونحمد الله على أنك كنت سيياً في نيل هذه الغنائم ولقد خدمنا شهرين، فأذن لنا أن نمضي إلى ملك فونغستان حتى نسلمه الرسائل والهدايا، وقد تفكر طويلاً في هذا مما قلنا له؛ فقال لقد سررت كثيراً لمجالستك ومحادثتك ومصاحبتك ولقد تعشقناك ولكن لنا نصيحة فاقبلها منا، فأنت من قوم الروم وغريب الديار وأنت الآن ضيف لنا وأنتم مسلمون، ولقد جعلنا ديار عبدة النار خراباً يباباً وقد غنمنا من ديارهم الأنعام والأسرى وأخذنا منهم الأسرى ولقد مَنَّ الله علينا بذلك بلا حدود ولا حساب، وقضينا على عبدة النار إلى آخرهم، وسلكنا طريق الفونغستان والبربرستان إنهم قطاع الطريق، وأعداؤنا في جميع الأرجاء تم لنا قهرهم، فارجعوا إلى ولايتكم وسنرسلكم إلى فونغستان في الموسم في السفن، ولتبقى جميع خيولكم وجمالكم عندنا وهذه هي نصيحتي لك وسوف يتيسر أمركم بمشيئة الله ولكن هذه النصيحة لم تصادف رضا وقبولاً، وقد استأثرت لهذه النصيحة، وصبرت على

تكراره لهذه النصيحة، فقدم رجل ومعه ستار أبيض واضح اللون فألقاه أمام حسين بك وسجد عليه، وقال يا مولاي إن ملك بربرستان قادم فقال له: ليقدّم، وسرعان ما فتح باب الحجرة فقدم بربر رموسهم عارية وقد جلس ملكهم إلى جانب الخان وتعانقا وبعد ذلك حيناهم وقلنا فلنمض إلى ولايتكم، لأننا لا ننسى تسلط العدو علينا، وقد طلبوا من حسين خان المدد لولايتهم فقال لهم على السمع والطاعة ووجهوا الكلام إلى قائلين، ولقد يسر الله لك عملك ها هو ذا ملك الفونجستان يمضى فى مائة ألف جندى إلى ولايته، وهو يمضى معهم إلى بربرستان وسوف نسر كثيراً إذا ما أطلعت ملك فونجستان على مطلبه وامدده بما طلب من الجند فقال الملك على السمع والطاعة، وقام من مجلسه وأراد أن يقبل يدي ولكنى لم أكنه من ذلك فجذبت يدي، وكأنما كان المحبة لهم دأباً قديماً، وكانوا يشترطون لتعظيم أضيافهم تقبيل يدهم، والله أحمد أنى وجدت رفيقاً عظيماً، فشكرت الله وقد خاطبنى ملك من ملوك الأرض، فقال فى الصباح امضوا إلى طراود، وقد ودع حسين خان ثم مضى، وذهبت إلى خيمتى واسترحت فيها ساعة فرأيت الخان قادماً، فوثبت قائماً لاستقبله وصافحته فأتى إلى خيمتنا وخلفه قافلتان من الجمال تحملان ليف التخيّل وفى غرائر سن الفيل وعشرون من العذارى الجميلات الحسناوات السمراوات، وعشرة جمال عليها عشرون من غلمان عبدة النار وهم سمر البشرة حمر الوجوه وقد وهبنا هذا كله كما وهبنا أنيالا وجمالا، وعدداً من الزوج الأسرى وقد قيدنا الأسرى حتى لا يفروا وقد نصحنّا بأن نحذرهم ونحرسهم فى الليل كما منحنا فاساً من الذهب وعشرة قرون من قرون الثيران وعشرة أقفاص فيها بيغاوات ناعقة وصندوق من المسك وآخر من العنبر وحمل جمل من الكاكاو وبعد كل هذه الهدايا حيّانا بأحسن تحية وقال وفى عودتكم بخير مروا بقلعتنا، ثم مضى إلى مسكنه، وفى الصباح هيأنا أحمالنا ومضينا إلى جند بربرستان وقد أرسل إلينا حسين خان ألف جندى لتوديعنا ثم مضينا سبع ساعات وبلغنا قلعة دفنا.

قلعة دفنا

إنها قلعة صغيرة مربعة الشكل فى جزيرة عظيمة فى النيل وبها كثير من المدافع والفيلة وبها خندق وسوق ولا عمران فيها سوى ذلك وإن كان فيها جامع صغير بلا

مئذنة وهذه تحت حكم ملك بربرستان ووصلنا بكل هذا القدر من الهدايا التي كانت معنا إلى هذه القلعة التي ليس فيها شيء يذكر، إنها في الصعيد العالي والقوم هناك هزيلو الأجسام لا يزرعون وعلى ضفة النيل ينبت القطن والكتان والبرسيم والسمسم والقول والأرز والعدس، وفي أرضهم الذهب إلا أنهم قوم عبيد متمردون، وفي الصباح خصنا رئيس قائم مقام القلعة بخمسماية جندي لأن في هذه الليلة فرّ منا رنجيان من عبدة النار ثم بعد ذلك مضينا جنوباً وسرنا على شاطئ النيل وبعد مسيرة عشر ساعات على ضفة النيل بلغنا قلعة أمداج أرقو.

قلعة أمداج أرقو

وهي قلعة واسعة في جزيرة في نهر النيل قريبة من الجانب الشرقي وهذه الجزيرة قليلة السكان، وفي الجزيرة غابات أشجار الأبنوس وقدمنا إلى حاكمها الهدايا وسرنا جنوباً تسع ساعات وبلغنا قلعة بنى.

إنها كذلك قلعة في جزيرة في النيل تحت حكم البربر، إنها بناء مربع مرتفع، وقلعة جميلة، وقد أتى إليها الإمام مالك في سياحة له، وقد شرفوا بالإسلام، وبعد أن اعتنقوا الدين الخفيف وبناء على اقتراح الإمام مالك أقاموا هذه القلعة، وعلى باب القلعة كتابات للإمام مالك بالخط الكوفي، ومقدم الإمام مالك إلى هذه القلعة لأن قطب الاقطاب الشيخ عز الدين كان على قيد الحياة فالتقى به فأصبح فريد زمانه، والشيخ عز الدين مدفون في هذه القلعة، ولخوفهم من هذا القطب سكن جميع سكان الجزيرة خارج هذه القلعة ولا وجود لإنسان داخل القلعة ومن يدخلها من بابها يخلع نعليه، ولا يستطيع أحد أن يتبول أو يتغوط وهو فيها، ولقضاء حاجتهم يخرجون إلى ضفة النيل فقد بقى بداخله ثلاثة بلا تغوط ولا تبول وهم لا يربون من الأنعام إلا الحصان والجمال لأن نجاسة باقى الحيوانات نجاسة غليظة، ولأنه قطب عظيم ولا يجرؤ أحد في تلك الجزيرة على أن يفعل السوء أو يرتكب إثماً أو يظلم أحداً فهو قطب طبق صيته الآفاق، وقومه من الموحيدين، ومؤمنون من أهل التقوى، ويقصده المرضى والصغار ليشفوا من مرضهم؛ فيزول عنهم ما بهم قبل أن يصلوا إلى ضفة النيل، وسرنا ثمان ساعات على ضفة النيل وبلغنا قلعة أرتد.

فى وصف قلعة أرتد

إنها تقع على الضفة الغربية للنيل إنها مربعة الشكل، وحاكمها زنجى وهو يقدم الهدايا إلى حاكم بربرستان، وهو من أهل القلعة، وسرنا على شاطئ النيل لشدة حرارة الجو فبلغنا قلعة أرنش.

وصف قلعة أرنش

إنها قلعة فيها جامع، وبها من الرعايا خمسون ألف إنسان وألف جندي، وهى قلعة معمورة وحاكمها فرجون فهو بربرى ولا يوجد فيها سوق وبعد أن تجاوزناها بخمس ساعات بلغنا قلعة جبرية.

قلعة جبرية

إنها قلعة جميلة ويدخلها ثلاثمائة بيت من قصب، وبها جامع بلا مثذنة كما يسكنها خمسمائة إنسان، ولكن خارج هذه القلعة فى الصحراء وحولها تسكن الصحراء قبائل الجبرية، وكلهم على مذهب الجبر، وليسوا على المذهب المالكى، وهم لا يؤدون الصلاة فى أوقاتها الخمسة، ويؤخرون الأذان عن أوقاته الخمسة وأذان الصلاة عندهم بكيفية خاصة بهم أما نحن فنقول حى على الصلاة مرتين، وحى على الفلاح مرتين أما هم فيقولونها فى أوله وآخره، أما نحن فنقولها مرة واحدة فى الأذان وليسوا أصحاب سنة إنهم يصلون خمس مرات فى أربع وعشرين ساعة ولكن أى وقت كان وبعضهم يجمع الصلاتين بالقصر، ويصلون الصلوات الخمس بإقامة واحدة، فهم لا يكررون الإقامة، وهم قوم أكثر العدد على المذهب الجبرى، وعلى مسيرة اثنتى عشرة ساعة قلعة حناق.

قلعة حناق

إنها قلعة كبيرة مخمسة الشكل فى داخلها سبعمائة بيت من قصب وكل فرد فيها له منزل، وبها جامع وحول القلعة فى الصحراء بدو على المذهب المالكى إنهم قوم زنوج على المذهب الجبرى وعددهم مائة ألف من الرعايا إنهم فى إقليم الفونج وهم أشداء شجعان وليس فيهم من يركب الخيل ولا الفيلة، وخانهم الشيخ عشاب ابن ملك الحاقان، أما القلعة فحاكمها هو حسين الفونجى البربرى فقد أتى إلى الملك ومعه الهدايا، وبعد سبع ساعات بلغنا قلعة خندق.

قلعة خندق

إنها قلعة صغيرة على الضفة الغربية للسيل بها جامع ومن بين مدافعها مدفع من الذهب وهي قلعة تشبه الخندق الصغير في خارجها خندق عميق في الأرض، ولذلك سميت القلعة بقلعة الخندق، وبداخلها مائتا بيت من قصب ولا يسمح للجبرية بدخولها، ويمشطون شعورهم على جانبيه، وهم يحلقون آفتيتهم، وبذلك يعرف أنهم من الجبرية، وأنهم بدو، وقد قدم حسين بك إلى حاكم القلعة هدية من مائة قرية من البوره وقد أتى علينا عيد الاضحى ونحن في ضيافة البربر، وبعد اثنتي عشرة ساعة بلغنا قلعة قولى.

قلعة قولى

قلعة على الضفة الغربية للنيل، وبها جامع وثلاثمائة بيت يسكنها البربر ورئيسها سليمان بن بشير، وقد قدم لنا مائة خروف وخمسة جمال صغيرة وسبعون قرية من لبن النوق المجبن وعشرة جمال محملة بخبز الذرة ومنها بلغنا قلعة بقر.

قلعة بقر

إنها قلعة تقع على الضفة الغربية للنيل والجانب الشرقى منها منهدم ويسكنها فقراء من البربر، وحاكمها حسين الفونجى، وقد أهدى إلى ملك البرابرة جوادًا وثلاثة جمال وما غنم ملك البرابرة من فيلة وجمال وما لا يلزم من أنعام أطلقها إلى صحراء قلعة بقر مع الجمالة والفيالة لترعى النباتات والأعشاب وبذلك ردت عليها الروح، وأهالى دونقله خرجوا جميعًا لاستقبال الملك زرافات زرافات قائلين بارك الله لكم فى غزوتكم وقدموا الهدايا كما ورع على العلماء من مال الغنائم لكل فرد منهم خمسة أو عشرة خراف وقد عرفت من ذلك أن ملك البربر شحيح لقلعة ما أهدى إلى العلماء فى هذه الديار يقدمون عشرة خراف ثمنًا للذراع من الحرير أما الحرير فى جرجه فالذراع منه ثمنه منقرتين، وفى خيمته كان يأكل لبن النوق. وخبز الذرة، وعلى الدوام يطلب المتعة، فيطعم ويشرب، ويدمن شرب البوزه فما التفت إلى إلا أننى كنت أحسن العشرة.

وفى الصباح لبس جميع الجند البربر ثيابهم النظيفة وقد تزينا بأسلحتهم ولملك بربرستان جنود يحملون الحراب يحيطون به، وهم يؤلفون جناحًا أمين وآخر أيسر، فى

انتظام كما كان طليعة جنده خمسين ممن يحملون السهام وقد تغنوا بلغتهم وانطلقوا فى طريقهم، وقرع أتباع الملك الطبول وعلى هذه الحال مضينا سبع ساعات على ضفة النيل.

أوصاف بلاد السودان

وصف قلعة دنقله المدينة العظيمة والعاصمة القديمة لبربرستان

على حد ما ورد فى تواريخ القبط أن أول من بنى هذه المدينة هو نقول بن حام بن نوح - عليه السلام -، ونوح نبى عاش ألف سنة وبعد أن ألجأه الله من الطوفان جعل يتجول وقد استوطن هذه البلاد، ثم زوج ابنه حام فتاة فولدت له ولدًا اسمه فى العربية دنقل وعلى مر الأيام كثر أولاد حام ونزل نوح وأولاده وقومه ذات يوم ضيوقًا على حام والحكمة يعلمها وجد الراحة عنده، وانكشفت عورة نوح وهو نائم فقدم ابنه حام فرأى عورة أبيه قد انكشفت فجعل يقهقه. ومضى بعيدًا. ودلّ على ذلك سام وياث فآخذهما الخجل لما شاهدوا عورة أبيهم وخرّا مغشياً عليهما من فرط الخجل، وبينما كانا يستران عورة أبيهما بإزار أفاق من نوميه وجعل حام الغرير يضحك، ونظر حام الغرير إلى أبيه فسأله نوح عما يضحكه؟ فقال: إن ياث وسام حدثاه عن انكشاف عورته.

وطلب نوح من الله الملك، وأن يعمر ابنه سام، كما دعا الله أن تملأ ذريته الدنيا، ودعا الله أن يعمر ابنه يافث وأن يكون ملوك الأرض جميعًا من ذريته، ولا تنقرض ذريته إلى قيام الساعة، كما استجاب الله دعاءه بأن يكونوا مرفوعى الهامة فى الدنيا والآخرة، وأن ينتهى نسب جميع ملوك وسلاطين الأرض إلى نوح، وأن نسب جميع العرب والمعجم وجميع المرسلين والأنبياء إلى سام ابنه وأن يعمر ابنه حام فى هذه الأرض الشديد قبطها، وأن يكون أولاده فى جزيرة مصر وأنعامه لا تدخل تحت حصر وقد دعوت الله أن يجعل أبناءك فى هذه الأرض يمشون عراة لأنك ضحكت ولم تستر عورتى، وأن يمشوا عراة سود الوجوه إلى أن تقوم الساعة، كما دعوت الله أن يجعل وجه حام أبيض فى الآخرة فأمر الله أن يستقر حام فى دنقل، وأن من ذكر انكشاف عورة أبيه اسود وجهه، وجميع العرب ينتهى نسبهم إلى حام، وقدم نوح مع غير هؤلاء من أولاده إلى مصر وبقي حام المذكور

فى منطقة خط الاستواء وكان له من الأبناء مائة ألف وكانوا سود الوجوه ثم مات حام الأسود وأفضى حكم دنقل إلى أولاده ولأنه بنى قلعة دنقل أثناء حكمه، سميت هذه القلعة ولاية أسوان باسم دنقل ولتخفيف الكلام حذفت الألف فأصبحت أسودان فى سودان وكانت بلاداً عظيمة فى الزمان الخالى، وأساس عمائرها ما زالت ماثلة، ولقد خربها كذلك أبرهة اللعين ولكن تبقى بعد ذلك جزء من قلاعها وبيوتها وعمائرها وقلعتها مبنية بالآجر الأحمر وتقع على الضفة الشرقية للنيل إنها قلعة قديمة لا خندق لها، ولها ثلاثة أبواب منها باب يطل على النيل، وفى داخلها بيوت من الجص تبلغ ستمائة وخمسين بيتاً وهى من الحجر المحروق يسكنها البربر وفيها سبع جوامع وتسع مساجد وستة مكاتب للصبيان، ولا أبنية فيها غير ذلك، إنها تقع على صخرة قائمة، كما أن قصر الملك قلعة، وليس فى هذا البلد بيوت عامرة، ولكن خارجها ثلاثة آلاف بيت للبربر، وبعضها من اللبن وبعضها الآخر من القصب، وفيها عشرة جوامع يدعى فيها لسلطان العثمانيين ثم يدعى بعد ذلك لملك الفونج لأن السلطان العثماني خادم الحرمين؛ إنهم قوم أتقياء على المذهب المالكي، ولا يعرفون الغيبة ولا النيمة ولا سوء الظن ولا استقامتهم وحسن أخلاقهم فيجمع خدم التجار من البرابرة، ويسمون الجندي بالبربرى، وهم ستون ألف، أما البرابرة فعددهم ثلاثمائة ألف رجل والبرابرة يشتغلون بالزراعة والتجارة فيزرعون الشعير والذرة ويحصدونها وطعامهم خبز الشعير والذرة ولحم الطير ولحم الجمل ولبن النوق، وبيوتهم جيدة للغاية، ويأكلون لحم القطط فهو عندهم مباح فهم يقولون: (جدى قطه) أى: القط اللذيذ، وإنهم يأكلونه عند الضرورة ويشربون ماء النيل، ويصيدون فى الصحراء الفيل والزرافة ووحيد القرن والغزال وأظافرهم كالمخالب وبها يتناولون الطعام.

وصف الزرافة

إن خدام صاحب بيتنا يحترفون صيد الزرافة، ويصنعون منها الكباب ولكن لحمها دسم للغاية، وطلبوا إلى أن آكله وقالوا إنه حلال إن شاء الله فلم نر لها ذكراً فى القرآن الكريم، ولا وصف لشكلها ولا جسدها فجعلها مثل جلد العجل ولها عنق طويل كعنق الجمل، ورأسها كراس العنزة إلا أنه أكبر، وهى تفاحية العين، وأذنها كأذنى الجمل

وعلى ظهرها خطوط سوداء وذيلها كذيل العجل وقوائمها طويلة وحوافها من شطرين، وعنقها كالثدنة تبلغ به الشجر العالى، فتأكل من الاغصان كما أنها ترعى أنواع شتى من الاعشاب فى الارض، إنها حيوان جميل ولحمها لذ طعمًا من لحم العجل، والبربر يصيدونها بالحيلة ولحم الخراف فى هذه الديار رائحة كرائحة المسك لأن الماء عذب فترات ولذلك تنمو به الزروع المختلفة التى ترعاها ولا يشبهها علف فى بلاد أخرى، كما أن طيب الهواء سبب فى جمال النساء فى تلك الديار، ولهن عيون الغزال وسمر الوجوه كأن ثغورهن البراعم، إنهم حقًا من نسل نوح، ولكن الناس لا يلبسون ثيابًا، وإنهم يكتفون بإزار عليهم ويتلففون به ويفرقون شعورهم، ولشدة القيظ كأنهم فى جهنم، وأجسامهم نحيلة، ولكنهم يتصفون بالجرأة والشجاعة، ويتصفون بالبخل والطمع والجشع وهم يتجولون وهم جياع، ويطعمون ما يجدون، إنهم حفاة لا يستررون رءوسهم وحاكمهم هو رفيقنا محمد بن حسين، وهو تابع لملك الفونج، وكان معنا فى محاربتنا لعبدة النار، ولكن بلادهم يسود فيها الأمن والأمان، وإذا ظهر فيها قطاع للطريق بادروا إلى قتلهم، ولا وجود للنقود فى هذه الديار، كما لا وجود لسوق ولا خان ولا حمام ولا مبرّة ولا سبيل ولا مدرسة، ولكن يوجد بها حانات للبوزة، ومقهى، ولا وجود لحداثق والقردة كثيرة، ولا وجود للفاكهة، ويكثر الشامام والبطيخ فى البساتين ولا وجود فيها للمآذن، وفى أيام الجمعة يحتشد الرعاع، وتقام سوق فى ميدان وسيع ويشتري كل ما يريد من سلعة ويشاهد النخيل فى جهات متفرقة وبين هذه البلاد وبلاد النوبة مسافة طويلة، وفى غرب هذه البلاد مدينة:

مدينة زهاوه

تقع هذه المدينة فى الإقليم الاول، وقد كانت مدينة عظيمة فى قديم الزمان، وكنت فى دنقل أتحدث مع الملك طيلة ثلاثة أيام وأخذت من الغنائم التى غنمها حسين خان حاكم حفير وهى ما أقدمه هدية إلى ملك الفونجة، والتى أحضرتها إليه، ومن أمواله قدمت ألف جمل وسبعين فيلاً وألف عجل وستة آلاف خروف وخمسمائة أسير من

عبد النار، ومضيت إلى ما فى المدينة من المزارات ففى المقبرة ضريح الشيخ بن عيسى وعلى ضريحه يهبط فى لىالى الجمعة نور، وفيها كذلك ضريح الشيخ أعوا كما أن هناك ضريح الشيخ أبو بكر والشيخ أبى القاسم.

وفى نفس المقبرة ضريح الشيخ بلبل والشيخ غلام الله، وقد زرت هذه الضرائح وعندما عدنا إلى بيتنا قدم علينا ملك بربرستان، فشرفتنا بزيارته لنا فمنحنا اثنى عشر جملاً وقيلاً أسود، وعشرة من الجمالة، وعشرين عبداً أسود، وست نساء وشمعدان من الفضة، وحقاً كبيراً فيه حجر سيلان الثمين وكان كل حجر منه ياقوت بدخشان، كما منح كل خادم من خدامنا ثلاثة جمال، وطلب المعذرة، كما عين جندياً من جنود القلعة لحراستا فى مسيرنا إلى فونجستان كما قدم إلينا وسادة مخططة وعمامتين وإزارين وقد رقصوا من فرط السرور لأنهم لم يجدوا مثل هذا فى بلاد الروم وقد تقبلنا هذا، ثم مضى إلى قصره فأرسل لنا بعد ساعة خمس من العذارى الجميلات وحمل جميلين من سن الفيل وقد أمر القاضى بأن يحمل هذه الهدايا إلى ملك الفونج، وفى الصباح ودعنا الملك وعزمنا على الرحيل، ومضينا على الضفة الشرقية للنيل ثمانى ساعات حتى بلغنا سور طوشى.

أوصاف سور طوشى

إنها قلعة فى جزيرة فى النيل فى الجانب الغربى من الجزيرة وقد سألت عن بانى هذه القلعة فما عرفوه، وهى كذلك كقلعة دنقل لها ثلاثة أبواب، ولكنها ليست قائمة على صخرة كقلعة دنقل، إنها قلعة عظيمة مربعة الشكل، إنها تحت حكم فونجستان وبدخلها بيوت للبربر وحولها حانة للبوزه، وجوامع ولا عمران فيها غير ذلك، ولحاكمها ثلاثة آلاف من الجند وسبعة آلاف من الرعايا البرابرة، وكان أكثرهم معنا فى حربنا فى الفردانية، وفى هذه الجزيرة كثير من التماسيح، إنها تختطف الخراف والغجول والجمال وتجذبها إلى الماء فتغرقها، إنها تماسيح أسوان اللعينة، وطول الواحد منها من أربعين إلى خمسين ذراعاً، وسرنا على شاطئ النيل فى غاية القبط لمدة ثمان ساعات.

وادي الغفاريات

مكثنا في صحراء مترامية الأرجاء وفيها من أشكال الغفاريات كل عجيب وغريب، إن هذه الأشكال الغريبة على ربوة مرتفعة في ميدان واسع، وفي جوانب هذا الميدان الأربعة كراسي، وفي الجانب الغربي من هذا الميدان سبعة أعمدة، وعلى ذروة هذه الأعمدة حجر كبير يصل بين هذه الأعمدة ويغطي هذه الأعمدة السبعة، وهو يحمل فوق الأعمدة، ويقوم على هذا الحجر تمثال لامرأة من النحاس الأصفر وإذا ما شاهدتها إنسان انشقت مرارته وقد ارتفع رأسها ارتفاعاً عظيماً كما أن غداثها منتشرة متفرقة، وقد حدثت بعينها في الشمس فكان لهما بريق شديد، وفي حضنها طفل من النحاس الأصفر كذلك تجلسه على ركبتيها، وكأنها تحتضنه، يا له من تمثال عجيب يلقي الرعب في القلوب إنها كبيرة الشدين وقد رفعت ذراعها اليمنى وهي تشير بها إلى الجانب الجنوبي من النيل بإحدى أصابعها، والتمثال مصقول، وكأنه من الذهب الخالص، وأمام قدمي التمثال حوض عظيم وقد نحت في الحجر الصلد مساحته عشر في عشر، وفي الإمكان أن تجرى فيه سفينة إنه عجيب المنظر، وهذا التمثال الذي يقوم على الأعمدة من عجب أن تسيل دموع من الدم على ركبتيه ويجرى الماء من أظافرها كأنه مذاب منذ ألف عام، وهذه الدموع الدامية إذا سقطت نزلت في الحوض وأصبحت ماء بعد أن كانت دماً أحمر، والماء يتغير لونه في هذا الحوض في شهر تموز ويصبح طعمه كطعم الكبريت والمرضى يشربون منه مرة في العام فيتم لهم الشفاء، فيشفون من جميع الأخلاط التحتانية ويحمر وجه من يشربون من هذا الماء، وبعد انقضاء شهر تموز يصبح ماءً عذباً نيراً، وقد أكب على هذا الماء من من معنا وشربوا منه لشدة القيظ حتى أفرغوا ما في الحوض من الماء، وقد شربت منه فنجاناً، حقاً إنه ماء زلال وكفار البرتغال يملأون الجرار من هذا الماء في مدينة ريلع ويقدمنها هدية ويحضرونها إلى الهند وأوربا، ويسقون هذا الماء المصابين بالجذام ومرض الزهري، وهو نافع من هذين المرضين.

أما الأعمدة التي في الجنوب فقد كتبت آيات شريفة، والكتابة هي: ﴿يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ولم يكتب تحتها تاريخ، وقد خطت علامة تحت هذه

الآية وفي الصباح شددنا الرحال، وسرنا إحدى عشرة ساعة على ضفة النيل إلى الجنوب، وكان القيظ غاية في شدته.

وصف حصار كنيسة

على الضفة الغربية للنيل قلعة عظيمة كأنها سد يأجوج، وبانيها هو أزرق جادو وليس في مبنائها حصص إنها مبنية على الطراز القديم، ولكنها حصينة إلى أبعد غاية ولها بابان أحدهما غربي والآخر يفتح على النيل، إنها مربعة الشكل، ويدخلها مائتا بيت وجامع، وخارجها ألف بيت وفيها سبعة جوامع وزاوية وأربعون حانة للبوze وأسفل أبواب هذه القلعة قناطر عليها جلد تمساح، والقوم هناك سمر البشرة من البربر وسبب تسمية هذه القلعة بالكنيسة أنه غرب هذه القلعة على مسيرة ثلاث ساعات بنى جامع يشبه الكنيسة لسليمان بن داود، ومحاربه في جهة الرياح الشمالية ويتجه إلى القدس الشريف ولهذا سميت هذه القلعة بهذا الاسم.

في وصف الجامع القديم

بجانب هذا الجامع بحيرة عذبة الماء، إذا ألقيت فيها جثة الميت سرت فيها الحياة، وقد حكم سليمان الإنس والجن والوحوش والطيور، ولما كانت تطير رأت في طيرانها هذه البحيرة فسأل سليمان وزيره آصف عن هذه البحيرة فأجابه يا سليمان إن اسمها «قرجلائقه زيد درسان»، وهي تعنى: بحيرة تخرج من باب الجنة، فأمر نبي الله في التو الرياح بأن تنزل جميع مخلوقات الله ومكثوا في هذا الوادي وتجولوا في جوانبه الأربعة، وشربوا من مائها العذب، فكأنما ارتدت إليهم روحهم وأمر الشياطين بأن يقيموا له قصرًا شامخًا في ذلك الموضع وجامعًا عظيمًا، فبنوا هذا الجامع الذي يعجز عن وصفه القلم واللسان، وقد شرف هؤلاء القوم باعتراف الإسلام بعد الهجرة، ولوا القبلة شطر المسجد الحرام بعد القدس.

وخلاصة القول أنه جامع منقطع النظير في جماله، وكأنما أنشأت يد القدرة أعمدته وجدرانها الأربعة، وفي استانبول آيا صوفيا ذو القبة العالية من طابقين وست قباب

صغيرة، وفي وسطه قبة بيضاء تحيط بها القباب من حولها، وفي الليلة التي ولد فيها النبي ﷺ وكانت ليلة الاثنين انهدم «طاق كسرى» «وقرل ألعاً» وهذه القبة العالية، وفي زمان كفاح النبي ﷺ كان هذا الجامع معبد صنم وظل بناء بعيداً عدة قرون وفي جوانبه الأربعة نزلت صحف كانت فيها إشارات كتبت بالعبرية عن الأنبياء، ونزلت صومعتهم، وفي داخل الجامع عدد ألف وسبعمائة عمود أحمر اللون ومرتفع مصقول إنه مثل ياقوت بدخشان، ولا وجود لشجرة بين عمود وآخر، ولا نظير لهذه الأعمدة في المقدس ولا دمشق ولا مصر، ولكنها منها كثير في الإسكندرية واستانبول وأثينا ولأن سليمان أقامها من أجل بلقيس فهي غاية في الجمال، وكم من عمود راقد في الرمال، ومساحة هذا الجامع خمسمائة خطوة طولاً وعرضاً فهذا الجامع في السودان أكبر من جامع الغبق في مكة، وجامع إبراهيم في جبل عرفات، وجامع المزدلفة أي المشعر الحرام في جبل مزج بين عرفات ومنى وأكبر من جامع عمرو بن العاص في مصر وجامع أمية في دمشق وجامع آيا صوفيا في استانبول، لأن هذا بناء الإنس والجن ولذا ما شاهد معمار واسع العلم بالهندسة هذا الجامع إلا وأدرك أن سليمان النبي كان بارعاً كل البراعة فأظهر معجزاته ولقد تحولت ما تحولت في البلاد فلم تقع عيني على مثل هذا الجامع إنه مكسو في الداخل والخارج بالرخام وفرش بالصدف الهندي وفي بسطه اللؤلؤ واللازورد والعقيق والصدف والفيروز، وجدرانه فيها نقوش ملونة وأحجار الجدران مصقولة كأنها ورق الصين، وعلى الجدران أيضاً كتابات شتى وهذه الأحجار مصقولة وكأنها مراية، وفي أطراف محرابه آيات من الزبور وهي بخط الوزير آصف بن برخيا وهذه الكتابات على الرخام وداخل قبابه الست أحجار منقوشة، أما منبره فهو يشبه كرسى يصعد إليه من مسافة قدرها ثلاثة خطوات، ولا وجود لمنارة له، ويصعد فيه الأذان على الدوام والأحجار التي خارج الجامع كل حجر منها حجمه أربعون أو خمسون ذراعاً، حقاً إنه من عمل الشياطين لأن هذه الأحجار يعجز عن حملها الإنسان لثقلها ولو وجد هذا الجامع في أرض عامرة لكان جنة ولكن هذا دُرُيْتِم، ولكن يجتمع على هذه البحيرة من مصر مئات الآلاف من الناس والحيوان، ويقيمون مئات الآلاف من الخيام على

ضفافها وقيمون سوقاً أربعين يوماً بلياليها، وحول هذه البحيرة يلتف جمع غفير من الناس والكائنات إنهم يتبركون بالشراب من مائها لأن سليمان - عليه السلام - شرب منها، وإذا شرب منها المرضى تم لهم الشفاء بمشيئة الله وفي اليوم الأربعين لهذه السوق المقامة عند البحيرة يحمل الماء على ظهور الفيلة والإبل والحمير في قرب لا يعلم عددها إلا الله وتحمل إلى بلاد الكفر وبلاد العرب، ولا يبقى في البحيرة قطرة من ماء ولكنها تمتلئ في العام المقبل بأمر الله، إنه جامع عظيم، أما في داخل الجامع فالخدم والشيوخ على المذهب المالكي.

أما قصر سليمان فقد تخرب ومكانه مبرّة، ولكن القوم ليسوا بنى آدم، وقد شاهدت ذلك وصليت في الجامع ومضيت في حملة على الكنيسة، وفي مضيئنا على الضفة الغربية للنيل مررنا بضريح الشيخ دليوب وتجاوزناه ثم سرنا ثمانى عشرة ساعة في شدة القيظ ثم استرحنا في ظلال غابة من أشجار الأبنوس والسنديان، وبعد مغيب الشمس، بلغنا على الضفة الشرقية للنيل حصن اتقور الحصين.

وصف حصن اتقور

إنه قلعة مربعة الشكل على الضفة الشرقية للنيل، وفي داخله مائتا بيت وجامع وحاكم الحصن يسمى كورجه وهو من قبل حاكم فونجستان، وللقلعة بابان ولا وجود فيها لدكاكين ولا حمام ولا وكالة، وهم قوم غلاظ شداد وليس في قلوبهم رحمة، وهم سمر البشرة حمر الوجوه فتجاوزناها وبعد ثلاث ساعات بلغنا بلدة أرقى.

بلدة أرقى

ليس لها قلعة، ولكن بها بيوت كثيرة وجامع شديد الضيق وثمة ضريح الشيخ كرام الله الركابى على مقربة منه ضريح الشيخ حاجى ماجد وإلى جانبه ضريح الشيخ حاجى محمود وعلى مقربة منه الشيخ حاجى نَقُور إنهم جميعاً يرقدون في قبورهم الصغيرة، وقد قرأت الفاتحة لأرواحهم الشريفة ومررنا على ضفة النيل بسبع قلاع خربة. ومضيئنا في الصحراء إحدى عشرة ساعة في طريق يخلو من الفيلة والقردة

ووحيد القرن والزراف.

وصف رياض دقاره

إنها قلعة جديدة على الضفة الشرقية للنيل على هيئة الأوزة وقد تظلم أهل فونجستان من حاكمهم إلى سلطان مصر فى ذلك الوقت أيبك التركمانى فأمر سلطان مصر ببناء هذه القلعة ليتحصن فيها ملك الفونج لما كان بينه وبين ملك الفونج من صداقة ومحيطها ألف خطوة وبداخلها جامع وفيها ثلاثمائة بيت للبربر ولها باب من الخشب يتجه نحو الشمال وعليه جلد تمساح ولا وجود على الباب لتاريخ بناء القلعة، وسرنا ست عشرة ساعة حتى بلغنا قلعة الملك إدريس.

أشكال قلعة الملك إدريس

إنها قلعة صغيرة الشكل على الضفة الشرقية للنيل فى صحراء واسعة وفيها جامع وسبعمائة بيت وبابها يتجه إلى الشرق وأهلها بربر سمر البشرة وهم على المذهب المالكي، وهم غاية فى التقوى ولم تصدر منهم فتنه ولا عصيان ولا كذب أو طغيان ولا بهتان وهم يمضون إلى مصر للخدمة وهم أهل ثقة، وقد تجاوزناها وبعد تسع ساعات بلغنا قلعة غرى.

قلعة غرى

إنها قلعة صغيرة على الضفة الشرقية للنيل وهى خربة ومحيطها ألف خطوة وفيها جامع ولا أبنية سواه فيها، وفى الصباح سرنا على شاطئ النيل ست ساعات وعبرنا سهولاً ذات زروع وبلغنا قلعة خلفاهى.

المدينة العظيمة قلعة خلفاهى

إنها أيضاً على الضفة الشرقية للنيل وبها بيوت وجامع ولا وجود لأبنية أخرى، وجملة أهلها من الزنوج غلاظ الشفاه وهم قوم جبابرة أشداء، ومضيئنا عنها، وبعد ثمان ساعات، بلغنا ايلغون دنقله.

أوصاف مدينة ايلغون دنقله العظيمة

كانت هذه المدينة فى الزمان الخالى تحت حكم ملك بربرستان ثم تولى عليها سلطان الفونج وجميع أبنيتها من عمل البربر، إنها مدينة غاية فى الجمال، وعندما فتحها الفونج

تهدمت أماكن فيها، ويقول أهلها إن دنقلة جنتنا في الدنيا فإن كان لنا جنة فهي جنتنا ولا حاجة لنا بالجنة، إن جوها ليس بحار ولا بارد فكانها إرم ذات العماد، وفي الزمن الماضي كان مَنْ يشاهد أسواقها وقصورها الشامخة يأخذ منه العجب كل مأخذ، وفيها غرائب وعجائب كأنها أسوان، ولاعتدال هوائها في بساتينها الليمون والسفرجل والتمر وأنواع شتى من الفاكهة، وأهلها مع ضآلة جسمهم وسواد بشرتهم إلا أنهم في صحة جيدة، ولاعتدال جوها يلد نساؤهم وأنعامهم التوائم على الدوام ولكن شياهم تلد في العام ثلاثة حملان إلا أنها غاية في ضآلتها، وفتياتها يَبْلُغْنَ مَبْلَغَ النساء في سن العاشرة، وتلد المرأة في شهرها السابع والثامن، وهم يزرعون الذرة، ولهم كثير من البساتين والإبل والعجول، ولا وجود في أرضهم للمعادن، ولديهم حمامات المياه الحارة ويأتى إليها أهل الممالك المحروسة، ويدخلونها فتشفى أمراضهم فيصبحون كما ولدوا لذلك فالقوم في أسوان وفونجستان وایلغون يتسمون بالجمال، وهذه المدينة تحت حكم ملك بربرستان ولكن زالت دولته فأصبحت تابعة للفونجستان، ومضينا عن هذه المدينة وسرنا في أرض كثيرة الاحجار والصخور جنوبا، وبعد مضي ثمانى عشرة ساعة بلغنا مدينة قوثرای.

في مدح مدينة قوثرای العظيمة

كانت هذه المدينة على الضفة الشرقية للنيل وقد ذاعت شهرة مبانيها في الآفاق ولم يبقَ منها إلا سبعمائة بيت، وجامع وثلاث شجرات للدوم، وبعد أن سرنا إحدى عشرة ساعة بلغنا مدينة عدی.

مدينة عدی

إنها في حكم الفونج وركبنا سفينة وعبرنا من الشرق إلى الغرب، وشاهدنا مدينة عظيمة وكانت كذلك في العصور القديمة، ولقد تبقى من عمارتها القديمة بعض آثار. ولقد كانت مدينة عدی تزدان بالقصور، وفيها اليوم الفا بيت للبربر، إن أهلها على المذهب المالكي ومنهم على المذهب الجبّرى، وقد عمرها ملك الفونج، إنهم قوم فيهم

قِحَّةٌ^(١)، وشيخهم هو الشيخ سعيد جبرى، ويتبعه أربعون ألف من الجبرية ومغظهم من العيارين، وعلى الضفة الغربية للنيل سبعة محاريب، وبعض الدكاكين ولا وجود للخانات، ولا وجود فيها لحدائق ولا بساتين ولا تمر ولا برسيم، والناس يأكلون الذرة والتمساح والقطط والثعلب وقط الزباد وسمك النيل ولاكلهم لحم التمساح أصبحوا شجعان، إنهم يحاربون بربرستان فينتصرون، ومضيئنا على ضفة النيل ثمان ساعات فوصلنا:

قلعة حلت الملك

إنها قلعة خشبية على الضفة الشرقية للنيل وبها جامع وستمائة بيت من القصب، فتجاوزناها وبعد خمس ساعات بلغنا قلعة نوجى.

قلعة نوجى

إنها على حدود الفونج، إنها قلعة عظيمة من خشب السنط ولها باب واحد وجامع ومائة كوخ وفى الصباح مضيئنا عنها وسرنا عشر ساعات.

وصف قلعة مدينة أرياجى

قلعة بنيت على الضفة الشرقية للنيل فى فضاء واسع وفى مساحة واسعة، فيها زروع إنها مدينة جميلة، إنها قلعة مثينة الجدران ومرتفعة وارتفاعها ارتفاع الشجر ففى هذه البلدة أشجار عمرها ألفى عام أو ثلاثة آلاف، إنها قلعة خشبية بنيت من خشب الدوم والسنط والسنديان والزقوم إنها مستطيلة الشكل ومحيطها ألف خطوة، وفيها سبعمائة بيت من القصب، وفيها جامع ولها باب يتجه إلى الشرق، وقناطر بابها من خشب شجر الدوم، ولا أثر للحجر فى بناء هذه القلعة، وفى المدينة ثلاثة آلاف بيت من الحصير والقصب وسبعة جوامع وأحد عشر دكاناً للبوزه وليس فيها حدائق ولا حمام ولا خان ولا سبيل ولا مدرسة، ولكن فيها كثير من البساتين، وكان يسكن فيها قديماً وزير ملك الفونج، والآن يسكن فيها جرجيس خان أخو ملك الفونج إن له أربعين ألف جندى

(١) قِحَّةٌ: وَقَحٌ يَوْقَحُ. وَوَقَحٌ يَوْقَحُ وَوَقَحًا وَوَقَاحَةً وَقِحَّةٌ قَلَّ حَيَاءُ. وَاجْتَرَأَ عَلَى اقْتِرَافِ الْقَبَائِحِ وَلَمْ يَعْأَ بِهَا. وَيَقَالُ: رَجُلٌ وَقِيعٌ وَامْرَأَةٌ وَقَاحٌ، وَهُوَ وَقِيعٌ وَهِيَ وَقِحَّةٌ أَيْضًا. وَالْجَمْعُ وَقِيعٌ.

وستمائة ألف من الرعايا، وهو ملك على البرابرة، وقد شرفت بلقائه، وقد قدمت الغنائم التى أرسلها كور حسين وكانت فى موقعة فردانية، وبعد السلام عليه سأل عن حسين خان ولقد نقلت الأنباء وسجدت شاكرًا، كما حملت له هدايا ملك البربرستان فسرَّ لذلك كما أهدى إلى قارورة من الشراب المعطر، وقميص وسراويل إلا أنه غاية فى البله، وقد أتينا جرجيس خان فلما شاهدنا قام واختبأ فى ركن ونادى الترجمان فقال لى الترجمان (يقول جرجيس خان لماذا هؤلاء بيض البشرة هكذا لعلهم جاءوا يشتكون من بيض وجوههم لأنصفهم منه؟) وقد نقل إلى الترجمان هذه البلاهة، فوقعت فى حيرة شديدة، فقدمت على تجولى فى بلد فيها ثمانية عشر ملكًا وقرى لا حصر لها لأنى سمعت هذا الكلام، ولكنى بدأت أتكلم فقلت للترجمان (نحن من عبيد سلطان مكة والمدينة وملك ملوك العرب والعجم والروم والقسطنطينية القيصرية السلطان محمد خان، ونحن تحت حكمه ونسكن فوق ترابه وبأمر الله تعالى نعود إلى بلادنا ولذلك فوجوهنا بيض أما أنت وأنتم أولاد حام بن نوح فى بربرستان وفونجستان وسودان وبغى نسقستان وجزيرة مصر، إنهم سود الوجوه والشعور والعيون، فالله خلقكم سودًا كما خلقنا بيضًا، وإلا فإن جلد وجوهنا إن سلخ فإنه سيسيل منه الدم ثم قلت إن الله تبارك وتعالى هو الذى بيض وجوهنا إنه على كل شيء قدير، وقلت ما قلت واعظًا، وقد أخذ العجب كل مأخذ من ترجمان جرجيس خان واتجه بالخطاب إلى من بجانبه قائلاً: (أرايت قومًا بهذه الغرّة، رادك الله عمرًا يا خان جرجيس لقد رأيت فى مصر كذلك بلهاء، وفى هذه الديار تبدو الشمس فلا قيظ لديهم) فشرد عنى عقلى، ونحمد الله على أنه لم يتحرك وهو ذاهب العقل ثم قام وقدم على فقمت ووقفت ثابت القدم، ولكن كنت أنظر إلى الخدم وهم مسلحون، وقال لى «أى ثياب تلبس؟» وقال لى «حلّ سراويلك»، وألح فى ذلك إلحاحًا شديدًا، وقال: «فلتحل سراويلك لنشاهد إن كان جسدك مثل وجهك»؛ فطاش صوابى وحسرت عن ذراعى ليشاهدما؛ إلا أنه لم يقنع بذلك وقال: «لا بد أن تحل حزامك»؛ فكلفنى ما لا يطاق، فامتلات غضبًا ونخفت أن يطهونى فى الشمس، فجعلت أصيح وأقول أنا من الروم، وقد أتيت من دنقلة، وكلهم لم يقنعوا بهذا وحلوا

حزامي وعروني من ثيابي، وقالوا: «سوف نستولي على ما لك من مال»؛ ثم قالوا: «كنا نظن أنك تحمل سلاحاً في حزامك»، ثم لم يلبث أخو الخان ببنت شفة، وجلس في مكانه وابتسم ثم ألحَّ في الرجاء طالباً مني أن أبقى، وتكلم بكلام ونطق ببعض كلمات، وطلب المعذرة، وقال إننا طيلة عمرنا لم نشاهد رجلاً غريباً مثلك، وطلب مني أن أقبل يده، وقال فلترفع العمامة عن رأسك لنرى علامة في رأسك للجنون، فقلت إن عمامتنا هكذا فتحن مجاهدون في سبيل الله، وفي رأسنا علامة لذلك ندفن بها فنحن لا نحل عمامتنا، وكان هذا من جوابي، فأخرج من منطقتة عطرًا وأهداه لي، وقدم إلي عودًا وعقيقتين ومرجان كما أهدى إلى فتاتين سمرائين، وثمانية من السعيد السود كما أهديت إليه فيلاً عظيمًا فسُرَّ لذلك سرورًا عظيمًا، أما أنا فكنت أعظم منه سرورًا، فإن هذه الفيلة تعتلف كل يوم حمل مائة من الإبل وكأنها تشرب نصف ماء النيل، ثم في اليوم الثالث ودَّعته ثم ارتحلنا على شاطئ النيل إلى فونجستان، وسرنا اثنتي عشرة ساعة، وبلغنا قلعة عطشان.

وصف قلعة عطشان

إنها تقع على الضفة الغربية للنيل وهي مستديرة الشكل، وبها جامع وستمائة بيت من القصب، أما حاكم هذه القلعة فرومى اسمه قره على جلبي، وهو ولد لأم حبشية وبينما كان يمضي إلى مدينة ريلع من الحبشة وقع أسيرًا لدى الفونج وهو في صباه، ولم يطلق سراحه من الأسر منذ خمسين عامًا، وهو رب أسرة، وعلى خلق عظيم ومتصوف، ولقد شاهدنا جامع المدينة وأسواقها السبع والمغنيات والموسيقيين في حانات البوزة، وفي البساتين التي في خارج هذه المدينة، الشامم والبطيخ ثم مضينا بعد ذلك. لقد تجولت في كل البلاد وتجولت في بلاد الزنوج خصوصًا، وجزت خلال الطرقات، وبينما كنت في بستان هذه المدينة كان الفصل فصل البطيخ ولم نشاهد هناك جيادًا، ولكننا سمعنا زمزمة بكتاشي، ووقفت وقدم على اثنان من البكتاشية لهما سحنة القلندرية وهما كما ظهر أمامنا بعض الصوفية، وبالسؤال دللنا على الطريق، وبعد أن سلمنا أسلح خدامنا من البربر بلجم خيولنا، وجلسوا، فأمسكت بلجام خيول هؤلاء الصوفية ثم مضينا.

فى وصف وحيد القرن

للوراء فى الروم جيداً مثل دابة الأرض، وهى جيداً ضخمة الجثة كثيرة اللحم والشحم، وأما وحيد القرن فجده يشبه جلد العجل ولكن من أذنيه إلى ذيله شعر أسود ورأسه كراس الحصان، وعينه كالنفاخ، ومستديرة وكحيلة، وله أذنان كالحصان، وفى مقدمته قرن وهو غاية فى الغلظ وهو مستدير الطرف، وطول جسمه خمسة أشبار وأذناه واسعتان وأسمانه كأسنان الحصان، ولكن له ستان على الجانبين بارزتان تبدوان كأنهما سنّ رمح، وعنقه قصير للغاية، وعنقه وكتفاه يشكّلان كتلة واحدة، وله شعرٌ موفور على كتفيه وقوائمه تشبه قوائم الجاموس، وهى قصار كما أن حوافره مشقوقة وذيله فى غلظ ثلاثة أذيال للفرس، وشعره معقوص، وقرنه قوى وهو من القوة بحيث أنه إذا نطح به الفيل بقى فى جثة الفيل لأنه قرن منحرف أنه ينطح الفيل فى عينيه وقوته تكمن فى قوائمه.

التعريف بدابة الأرض

تسمى فى العربية البغل فلا فرق بينها وبين البغل، ولكن فى أعلى أذنيها قرنان أسودان معقدان، وطرفهما كالمبضع وحوافرها مشقوقة وفى المذاهب الأربعة حلال أكلها، وهى سريعة العدو إلى حد بعيد، وكأنها غزال وتلد مرتين فى العام، والمولعون بها يركبونها ويجعلون لها لجاماً، ويضعون الإكاف على ظهورها، فلما رأيناها دخلنا سرور عظيم، ووجدنا لحم الإبل ولحم الدجاج، وقلنا إن خير الطعام ما حضر، وسألنا عن أصل وجودها فقيل لنا: كنا ثلاثة إخوة فى سفينة تسير بنا من الهند إلى الحبشة، وبينما كانت سفينتنا تسير بنا استولى كفار البرتغال على سفينتنا، وأوقعونا فى الأسر وجبسوننا فى مخزن السفينة، وجرى القضاء بأن يموت أخ لنا فشوا لحم جثته وأطعمونا منه، فأكلنا من لحم أختنا طوال شهر واتفق أن تلاطمت أمواج البحر ودفعت السفينة إلى الشاطئ فتحطمت السفينة وقررتنا إلى جبل مرتفع، واغتسلنا فى ماء حار وصلينا ركعتين لله شكراً، وتوبنى أخى من أكل لحم ذى روح، ولما ذكر هذا السبب أجهشنا بالبكاء، ومن الغد جاء هذا الحيوان إلينا، فأنسنا به، وقال بلسان الحال أركبا، فوصلنا بسلامة الله

على ظهر هذا الحيوان بعد سبع سنوات وبقينا بين الزوج فسخر منا هؤلاء الحمقى، واكلنا قليلاً من الخبز وخبز الذرة وشمام وبطيخ، وشكرنا الله ولما دخلنا المدينة لم نأكل من طعامها، وقد فضحونا، فسألتهم في جرة، لم نأكل من ثمار حديقتهم ولم تقدموا لنا شرباً من ماء نهرهم، فأى البلاد مسقط رأسكم؟ فقالوا: إن بلادنا بلاد الروم، وبالقرب من مدينة قونية، فقلت لقد رأيت بلدكم، وزرت جامع والددة مولانا، وشاهدت مدرسة يعقوب وإبراهيم بك فسرا لذلك، ثم قلت لهما: يا إخوان الوفاء إذا أردتم الخروج بسلام فاتبعوني واقبلوا رفقتي لأمضى بكم إلى مصر بسلامة الله، يدي في يديكم، فجددوا البيعة لى وقدموا لخدمنا كسرة خبز، وأصبحنا أخوة في الدنيا والآخرة، وتكلموا معي كثيراً، وانشرحت صلووهم بحديثي معهم، وغادروا البستان وبينما كنا في سيرنا جاء رجل من قلعة عطشان ودلنا على الطريق وشرفنا بصحبتهم، وسألت عن اسمهما الشريف، فقال أحدهما إن اسمه نعمت الله والآخر سيد جار الله، وقالوا: إننا لا نقبل جيفة الدنيا، ولم يقبلوا أى شيء، وقالوا خذ الرفيق قبل الطريق وقطعنا المراحل في شدة القيظ، وبعد عشر ساعات سِرناها بلغنا قلعة بقيت.

قلعة بقيت

هى قلعة على الشاطئ الغربى للنيل، وهى من الخشب كما أن البيوت فيها من خشب، وبها جامع صغير مكثنا به، وسِرنا في شدة القيظ وقطعنا المراحل سبع ساعات وبلغنا قلعة حلة الركابى.

قلعة حلة الركابى

تقع على الضفة الشرقية للنيل وهى من الخشب، وليس فيها جامع ولا أبنية، وسِرنا على ضفة النيل تسع ساعات وبلغنا قلعة حلة الجندى ثور.

قلعة حلة الجندى ثور

يسمى حاكمها جندى ثور، وهى قلعة من الخشب، وبها ألف بيت للبربر من خشب وقصب، وبها جامع، ولا وجود فيها لثمر، وأرضها سبخة، ومن القلعة مضيئنا برجالنا إلى ملك الفونج، وفى هذه الليلة أحضرنا كل هدايانا ورسائلنا وفى الصباح سِرنا إلى

سنار، وقد أعطانا والى مصر كتحدا إبراهيم باشا جواداً وعبداً لنقدمه لملك الفونج، وهو جواد من المخمل المزركش وثلاثة قسي ملفوفة وإزار من الحرير، وقدمتها إلى خدمنا وقد تزين جميع الخدام بأحسن ثيابهم كما زينت الجياد والإبل، وقد وضعت الرسائل فى حقيبة مزينة وسرنا على ضفة النيل ست ساعات وثار الغبار علينا من عصف الرياح، وقد استقبلنا من يركبون الفيلة والإبل والحميز، وجاء ملك الفونج فى جمع وهو على ظهر فيل أبيض، وبعد السلام عزمنا على الرحيل، فبدت لنا ثمانون خيمة على ضفة النيل ومن انعكاس الشمس على المدافع بهرت عيوننا، فقال إن الملك خرج لاستقبالكم، وهو فى انتظاركم وقدّم له جميع الهدايا، ومضينا إلى قاضى بربرستان، ووقفنا أمامه ويدانا على الصدر تأديباً، وقلت له السلام عليك يا سلطان السودان فى خشوع فقال لى السلام عليكم يا خدام آل عثمان فسلمت يداً بيد وبعد ذلك مضينا إلى سباط، فطعمنا طعام الفونج وغسلنا أيدينا بالماء والصابون فى وعاء، وبعد ذلك قدم عبد أسود فى يده حق، فأخذه ومسح به يديه كما مسح وجهه ففاحت رائحة العطر فانتعشنا، وقدم إلينا العبد حقاً وفيه مسحوق أبيض ولكن رائحته ساطعة فواحة، ورائحته أشد نفاذاً من رائحة المسك والكافور فأخذنى العجب، فناديت ترجمان الفونج، وسألته عن نوع هذا العطر فذكره لى فأسرّ الترجمان بشئ فى أذن الملك، فرد الملك علينا قائلاً ليقرأ من معكم الرسائل التى أحضرتموها معكم، وفى نفس اللحظة قرعت الطبول فى الجوانب الأربعة، فقال أنا أقدم فيلاً كأنه دابة الأرض وفى القصر كان سبعة فيالين، وعشرون عبداً، وخرجنا أفواجاً كالجند، ومضينا تسع ساعات على مقربة من مدينة سنار فى الطريق العام ورأينا رجال الملك وهم يسجدون لنا، وبناء على ظهور سنار أطلقت المدافع، وفى دخولنا فى القلعة قرعت الطبول ونفخ فى الأبواق، وحضر جميع أعيان الفونج وكان الملك جالساً على عرشه فقدمت إليه فى البداية الرسائل، وقرأ رئيس الديوان الرسائل التى بالعربية فجعل يشئ علينا الشئاء، ثناء تجاور فيه كل حد، وقام فيه من عرشه ووضع كفى فى كفه، وطلب إلى أن أجلس على العرش فتقبل الرسائل وورع الهدايا أمامى ونال كثيراً من القسى والسهام والكؤوس وأعجب بالسهام والقسى والكؤوس، وقال هل يرشق

أحد عدوه بمثل هذه الأشياء النفيسة فأجبه بقولى يا مولاي إن هذه النفائس تليق بك، ولأنها فى الغزوة تقضى على العدو، ولقد أدركت من ذلك أنه شجاع، فأحضرت بعد ذلك جواداً عليه بساط فُسرَّ به كثيراً، ولقد فهمت لسان الحال وجعل الملك يتأمل هذا الحصان وعليه البساط مدة ساعتين فخرجنا من عنده ومنحنا داراً وبستاناً فيه الليمون والتارنج على شاطئ النيل ودخل معنا جميع خدامنا مدينة سنار فى العشرين من شهر شعبان عام ألف وثلاثة وثمانين.

وصف ولاية السودان وقلعة سنار

ومن الغد فى الصباح اجتمع المجلس ثانية، وقد سلمت الهدايا التى أرسلها معى كور حسين بك، وتناولنا الطعام بعد المجلس وكان الطعام طعامهم المعتاد والزعتر، ولديهم الكثير من النعم منها الكباب والضأن ولحم الغزال ولحم الإبل ولبن النوق بالذرة وهم لا يعرفون طعاماً غير هذا، والأرز والعدس والفول إذا أتت من مصر وجرجا ولكن حين حل شهر رمضان طبخوا الأرز والقرع والقلقاس والقرنايط ويقدمون فى كل يوم ألف قدر من الطعام، كما قدموا إلى خدامنا طعاماً خمسة أيام، وفى كل يوم مائتى طبق من الطعام السودانى، كما قدموا أربعمائة رغيف من خبز الذرة، ولخيولنا مائتى ربيع من الذرة فى كل يوم، وفى هؤلاء القوم رأينا شاباً فقيهاً حلو الكلام أسمر اللون وجهه المنظر ومعتدل القامة وعلى رأسه عمامة بيضاء، ويرتدى قميصاً أبيض كان دائم العبادة مشغولاً بها يحضر الديوان، ويسمع للشاكرين وهو يكلمهم فمه وأنفه، ثم يأتى وهو يستر فمه وأنفه، ثم يأتى المدعى عليه ويقف إلى جانبه، وهو يسجد ويقدم فروض الطاعة أمام الملك والقضاة، إلا أنهم على المذهب المالكى، لأن جميع أهل بربرستان والسودان على المذهب المالكى وقاضيههم يسمى شفيح الدين، ووزيرهم يسمى فين خان، والدفتر دار يسمى دابر خان والكاتب براى خان وحاكم المدينة يسمى سرمن، وتسمى طائفة الجند عندهم سلام وهم يملكون ثلاثمائة ألف من الزنوج المحاربين وليست لهم رواتب والله يعلم عدد الرعايا، والبرايا، وفى مصر كثير من العرايا والجيايع، ولا يعرفون المرض، وهم معمرين ولهم شيخ إسلام على المذاهب الأربعة، ولهم من أهل

الإفتاء أربعة على المذهب المالكي والحنبلية، ولا وجود لمفتى على المذهب الحنفى، ولهم نقيب أشراف، ولأن بينهم سادات كرام، فإنهم يحضرون على الدوام فى ديوان الملك، ولكنهم لا يبدون رأياً فى الديوان ولا يلبسون ثياب الحرير، والأعيان يلبسون القمصان والعمائم البيضاء والفقراء منهم يمشون حفاة الأقدام، وإذا ما استحق شخص ما القتل تشاور الأعيان فى أمره إما قتله وإما تبرئته، وإذا جاء النساء إلى الديوان فللملك حجرة متصلة بالديوان فيقفن وراء حاجز من القصب وهن يعرضن مظلمتهن وفى هذه البلاد يحرم على النساء أن يخرجن من بيوتهن وإذا كنَّ سبعاً أو ثمانى فلهن دار ضيافة خاصة بهن، ويقدم إليهن الطعام والشراب من قبل الملك ويكرمهن تكريماً عظيماً، وولايتهم واسعة الأرجاء، وهى ستمائة وأربعون مدينة وألف وخمسمائة قلعة وأربعون ألف وسبعون جبل كبير وثلاثمائة صحراء وأربعون بحيرة عذبة وخمسون بحيرة أخرى مالحة، وفى أرضهم معادن كثيرة وفى صحاريهم ذهب تحت الأرض، ولديهم طعام يشبه الشعابن وهو سم زعاف، وعندما يجمعون الذهب تقفز جميع الشعابن والحيات وتبدو الفضة ومعادن النحاس والحديد والرصاص والنفط والقطران وغبائر الزجاج والكبريت، ولا وجود لمثل هذه فى بلاد أخرى، كما توجد كنوز لكثير من هذه المعادن وكلها يحصل عليها مجاناً، ولكن لوجودها عند طائفة من الأغنياء، فلا يقتدر على استخراجها، والكلام على هؤلاء القوم يطول ويطول، ولهم كثير من الأحوال تشبه أحوال الخيول، ولا يمكن ذكرها وبعد ذلك بلغنا السودان.

فى بيان حد السودان

فى الشمال على بُعد أربعين مرحلة من الحبشة، ومن الشرق عشرة مراحل إلى (سلطانه برود مبيه)، وإلى الجنوب مسيرة شهرين إلى قرمانقه. والنيل ينبع من جبل القمر فى قرمانقه. وعلى مسيرة ثلاثة أشهر غربًا إلى بغه نسكى، وفى الشمال على مسيرة ست مراحل إلى حدود بلاد البربر، وأهله يختلطون بالثرايره. وعلى الجانب الشرقى للنيل على مسرى رياح الشمال على حدود مملكة علوى، إن هذه البلاد المتراحة الأرجاء فيها عجائب وعجائب، وما يلفت إليه النظر، يعجز أقلام البلغاء عن وصفها، إلا أنا نحاول ذلك جهد المستطاع وفى البلاد يهود، وقبط، وروم، ولا وجود فيها للفرنجية والقرنل باش وأهل السند والهند، ولكن فيه قومًا من عبدة النار، وهم يذهبون إلى الحبشة ويعودون منها فى تجارتهم، وقد حضرنا فتح ولاية فروانكه، وفيها قوم من المجوس، وهم فى حكم السودان. وهم سمر البشرة وحمرها وصفرها، وأجسامهم نحيلة ما رأيت فيهم أحدًا عليه لحمًا وشحمًا، إن فيهم نشاط كما يحتملون شدة الحر. وهم يمشون عراة الأجسام، ولا وجود فى هذه الديار للجوخ والحريير والمخمل، ولا وجود للعملة الذهبية وقد رأوا آباءهم وأجدادهم على تلك الحال. أما ما يجلبه تجارهم فهو الإبل والغنم والعجول والجاموس وسن الفيل وقرن وحيد القرن، وتروس الفيل وخشب الساج الفونجى والصقنقور والبيغاوات، والأبنوس، والسنط، والتجارة عندهم بالمقايضة، إنهم يبيعون ويشتررون بلا مال يدفع ثمنًا للسلمعة، والذهب عندهم كثير، ولكنهم يصهرونه ولا وجود عندهم لسكة لأنهم لا يعرفونها، وفى جوامعهم الكثير من الخطباء على المنابر يعظون الناس باللغة العربية، ثم بعد الخطبة يدعون لسلطان البلاد الواسعة سلطان السودان السلطان بن الخاقان بن غلام محمد خاقان ابن إدريس خاقان، ثم يدعون لمولانا السلطان محمد خان صاحب الحرمين أيد الله ملكه إلى انقراض الدوران، ويتلون آيتين وإنَّ الله وملائكته يصلون على النبى، ثم يؤذن المؤذن بأذان قيام الصلاة، ثم يصلون ركعتى الجمعة، ويخرجون من الجامع وهم لا يصلون ركعتى السنة، وهذا دأبهم منذ الزمان الطويل، ولا يمكن الزواج إلا بعلم الملك، وهم يؤذن

لهم بالرحيل إلى جميع البلاد، وهم يعدون ملكهم في منزلة النبي، وبينما يذهبون إلى الجامع أو يخرجون إلى الصيد يسلمون على الملك ويسجدون له سجود تعظيم وتكريم، ويغضون حاملين نعالهم في أيديهم عندما يذهبون إلى الجامع مما يدل على تواضعهم الجمل.

أوصاف قلعة مدينة سنار عاصمة السودان

إنها مدينة عظيمة وقلعة قديمة على الضفة الغربية للنيل في السودان وأول من بناها الملك خلحا خاقان، إنها قلعة مبنية من الحجر على شكل مربع ولكن ليس لها خندق، وفي خارجها سور من الخشب المحشو، وما شاهدناه في ولاية إيسريم من قلاع صغيرة وكبيرة فما شاهدنا أكبر من هذه القلعة في شكلها وصفاتها، إنها معمورة، ومزينة لأنها عاصمة فونجستان، ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، ولها ثلاثة أبواب وفي داخلها جامع الخاقان إدريس، وله منارة واحدة، وفي معظم القلاع التي اجتزناها جوامع بلا منائر، وبها قصر الملك وقصور الوزراء، وبها بيوت مبنية من الحجر واللبن المصنوع من طين النيل وعددها ألفا بيت من القصب وبها بيوت ذات حدائق وأخرى بلا حدائق وقصر يطل على النيل وفي القلعة حمام، وقصر الملك فيه بساتين الليمون والنانج والبلح وحدائق الورد والرياحين وبها يزدان القصر.

ولا وجود في هذه القلعة لسوق، ولكن في خارج القلعة جهة الغرب بيوتاً من القصب والحجر والخشب والحصير عددها ستة آلاف بيت، وخارجها كثير من ساكني الصحراء وهم زنوج عددهم مائة ألف، ويأمرون هؤلاء القوم بتريم القلعة إذا وجب ذلك ويحضرون لما في جزر النيل من الكرز والسنط وخشب الساج. ويعمل ذلك على ظهور الإبل، ولكن ليس لهذه القلعة حاكم مثل ما لقلع الروم من حاكم وجنود، ولكن فيها مخزن للسلاح والبارود الأسود وخمسون مدفعاً وبعض حملة البنادق، ولكنهم لا يجزؤون على استخدامها، إنهم قوم جنباء للغاية، وعلى أبواب القلعة إطارات من الحديد للدافع في حجم الفيل، وإذا أخرجوا إلى القتال استخدموا هذه المدافع الضخمة بعد حملها فوق ظهور الإبل، وفي يوم رؤية الهلال ويوم العيد يطلقون هذه المدافع، وتزدان الدنيا بمصاييح النفط ودوى الطبول وهم يصعدون ولولة كأنهم في احتفال ملكي.

والزئوج من الحبشة والمنشية حينما يقدمون للإغارة على تلك المدينة تقصف المدافع معلنة بمقدمهم، وفى القلعة ثمانية وسبعون ألفاً من الزئوج يقون فى القلعة ليكونوا مدداً للجيش، والمنشية تنخلع قلوبهم رعباً من ذلك، إنهم ليسوا مسلمين يتكروا الحشر والنشر، وخارج القلعة سبعة جوامع من الحجر، وأربعون مسجداً وثلاثمائة دكان، وهى من الدكاكين الصغيرة، والمقاهى وحانات للبوزه لا تحصى كثرة، وهى معمورة مثل أبنية الروم والعرب والعجم وحلب، وليس فيها خان ولا حَمَّام ولا سوق للبن ولا مبرة ولا سبيل ولا مكتب للصبيان ولا مدارس. ففى هذه المدينة لا يوجد فيها بقلة فى حجم الحجارة وترابها لطيف إلى حد أنه صنع كاسات للعين خزفية منه، كما أن تربتها خصبة حيث الكيلة من الذرة تنتج خمسمائة كيلة، كما أن محصول القمح موفور، ولاعتدال جوها زرعت حدائق فيها هنا وهناك، وفيها الليمون والتارنج ولا وجود فيها للحدائق ولكن بساكنها كثيرة للغاية وجمال نساها وفتياتها فى سواد بشرتهم، ولكنهم ليسوا غلاظ الشفاء ولا عابسى الوجوه كالزئوج، وفيهم عذارى لهن من الجمال والدلال ما يتيم القلوب، سبحان الخلاق الباقي، فلهن عيون الغزلان الكحيلية والكلام الرقيق والقوام المشوق من رآهن أخذ منه العجب مأخذه. وأهلها يتزوجون على المذهب المالكى وهذا جائز، أما نكاح المتعة فممنوع إلا أن علماءهم يبيحون ذلك فهم فى كل أسبوع يتزوجون زواج المتعة، ويدفعون المهر ذراعاً عن اليد، وفتياتهم يسرن عراة وإذا أعطوا مرتباً قاموا بالخدمة ثلاثة أو أربعة أيام، وبعضهم يخدمون دفعاً للجوع ومعيشتهم ضئيلة ولكن إذا أخذهم الغضب أصبحوا شرارة من نار وفيهم عناد، وليسوا بلا أصل فهؤلاء قوم بنقلا ودنقله، وأولئك أفتر وهورنوه وقرمانقه وبغه نسكى وهكذا. إنهم ليسوا غلاظ الشفاء، وليست لهم أرجل الفيلة وجسم الغول، ولا عمالقة إن كلامهم رقيق ووجوههم جميلة وسمر البشرة وأفواههم صغيرة وأنفهم كالشمرة وأسنانهم مُنَضَّة بيضاء بين شفتين حمراوين ولهم نساء لهن عيون الغزلان وهذا من جمالهن يوقع الرجال فى غرامهن ويزدانون بالخمر، والخمر عندهم جميل كما أنهم يلبسون الإزار المصرى والإسكندرى، ويلبسون ذلك من شدة البرد فى الشتاء، ولكنهم

عراة فى غير فصل الشتاء، أما نساؤهم فيلبسن إزار الصعيد العالى والمرط القطنى المنقش كما يضعن فى أذرعهن الدمالج وفى أرجلهن الخلاخيل، وكلامهم بالعبرية منذ عهد إدريس.

اللغة العبرية

الأعداد فى اللغة العبرية:

تلو: واحد	اندى: اثنان	ياصقى: ثلاثة	داقى: أربعة
اووقو: خمسة	أرصىقى: ستة	لقاز: سبعة	طلور: ثمانية
تافى: تسعة	راقى: عشرة.		

ومن الشعر الرائع للخاقان:

المصرع الاول:

جيجلقداتى ابله تتانى اجلى قنار قابلى جدان جنام بولاشى
(الجميل سل القوم عنه أنه روح روى إذا ما رأيته قبلته)

المصرع الثانى وهذا يكون بيت:

قاسقلى جمناج دال بلادى ييله بادى بقبلى مصناح
(وإذا ما احتضنته، وامتصت شحمة أذنه وعانقت ذراعه الأسود)

البيت الثانى: المصرع الاول:

اجم جى تمناح بلمجى جلطات
(فلا تظن أنى غبى أخذنى النعاس)

المصرع الثانى:

ججلى قيطان للل لتى
(ملكك الدنيا وإذا قال لعبت بها)

البيت الثالث: المصرع الاول:

مزامى لبتى قراجى جبتى صبح بولانى قوس جلامى سلحتلى بتى
(تعشقتة وهبته فوادى أكفرت لذلك عشقت منذ زمان بعيد)

المصرع الثاني:

ققان شاهى قليت جاهى خنزيله جاج باتيله حاج تتلتى شاهى
 (الملك الخاقان قلت ذلك فى لوم إنه يسكن روحى إنها له قريان إننى بعشقه ثَمِلُ)
 وقد لحن هذا فى نغمة البياتى، وغنيت على أصول السماعى وتغنى الرجال والنساء
 بالأناشيد، وقرعوا الطبول وضربوا الدفوف وملثوا القرع بالحصى ودام سرورهم ليل
 نهار، وأكلوا البصل والثوم وشربوا البوزه وأنشدوا المريع.

أسماء أهل فونجستان

من أسمائهم إدريس وجرجيس وحمد، وهى أسماء محبوبة ومألوفة وكذلك ناصر
 وفونقسو وأنشومبو بمعنى سيد، فرما وعدلان بمعنى جندى، وسرهاج وبشير ودانيال
 ومدللا وحدللا وسلى يعنى سليمان وعبد رى بمعنى عبد الرحمن وفيسان بمعنى معلم.

أسماء شاه فونجستان

طاغليته، وحجى جى، وقوره وجوضه يعنى حَفَظَه، ونوره حه وارابه وحوشه وغنيه
 وحليمه وماقنى وأمنى ونفيسه وشمامه ومشيقه وآشيه وسبيقه وحجه وباره وشو، وجاره
 يعنى جاريه وحته ومدينه واسانى وحنقه وسما ولغلم أن هذه الكلمات السابقة بمعنى
 أمهاتنا وأخواتنا ولكن هؤلاء النساء فقيرات للغاية، وتستر هؤلاء النساء عوراتهن بجلد
 الغزال والسنم والماعز، وهن يميزن هذه الجلود قطعة قطعة كما أنهن يزين حلاتهن
 بالخرز، وبقية أجسامهن عارية وهن لا يلبسن ثياباً لشدة الحر، وقد جئن من دعاء نوح
 عليه السلام عليهن، وأنعامهم كثيرة للغاية ولكن لا وجود بينها للبغل إنهم يشربون ماء
 النيل وبوزه الذرة، وثمة نوع آخر من البوزه مسكر للغاية، أنهم يأكلون الذرة، كما أنهم
 يربون ويأكلون الغنم والمعز والجاموس والبقر والإبل والفيول ووحيد القرن والغزال وبيض
 النعام والسقطط والنعام والأسد والنمر، وهذه الحيوانات تأتى إلى بيوتهم ويساتينهم
 ويصنعون من جلود الغزال والحملان وسائد لهم، والنساء يزين بيوتهن ببيض النعام،
 ويشربون لبن النوق المسكر خمسة أو ستة أيام، وأنه يسكر أكثر مما تسكر البوزه، ولكن

بما أن العنب لا وجود له في بساتينهم ليس لديهم شراب مسكر كالعرق الذي يصنع من العنب، وليس لديهم من المسكرات غير البوزه واللبن والسبب في أن لبن النوق لا يسكر إسكاراً شديداً أنهم يضعون فيه جذر نبات الحلفاء فيزداد اللبن سكرًا، إن هذه المشروبات المسكرة تناسب جوههم الحار ولكن شدة الحر لا تؤثر فيهم وأحمد الله أنى لم أتأثر بها، ونحن نمشي فيها كما نمشي في أيام الإحرام عراة الرؤوس حفاة الأقدام ونحن بذلك نتبع أهل الفونج، ولم نحزن ذات يوم مع أتباعنا لأن نسيم الصبا هب فأنعش أرواحنا.

وماء النيل في هذه البقعة ماء رلال، لأنها تقع على مسيرة شهر جنوباً وفيها من المعادن في الأرض السبخة النفط والقطران والكبريت والحديد والزرنيخ وفي القنوات مئات الآلاف من الأفاعى والحيات والحيوانات السامة غارقة فيها ويملئون بماء النيل القرب من جلد الغزال، فيبرد ويصبح قطعة من الثلج، إلا أنهم إذا أكثروا من شرب الماء أصيبوا بالإسهال، وفي هذه الديار لا وجود للبراغيث ولا القمل ولا البق لأن جميع أهل هذه البلاد يدهنون أجسامهم بالزيت ويرقدون في الشمس كأنهم الجاموس، والبراغيث والقمل والبق لا تبقى في الأماكن التي فيها دهن، وهم لا يعرفون المآثم والمحارم والزنا واللواط والنميمة، وأمراضهم الطاعون وذات الجنب والفالج والرعدة الجنسية والجزام والجحمة والبرص، والحاصل أنهم لا يعرفون ما الطاعون، وهم يعدونه مرضاً عارضاً إنه في أول أمره ضعف يصيب المريض ثم ينقطع عن الطعام والشراب ثم يموت فيدفن، إنهم لا يبكون ولا يتأهون، ولكنهم يضحكون، وقد سألت عن ذلك لماذا لا يبكون، نحن إذا أصبنا بذلك لم نر عيباً في البكاء، فقالوا: إننا نموت جميعاً قضاءً وقدرًا.

وخلاصة القول أنهم قوم يتوكلون على الله إنهم من لم يجد عشاءه ووجد أكله، وإلا فإنه يمضى جائعاً، إنهم يصيدون سمك النيل وبه يسدون جوعتهم، وإذا وصفنا أحوال وأوضاع السودان كلها تطلب منا ذلك كتاباً بذاته.

علم الهيئة والإسطرلاب وربع الدائرة

وبيان ارتفاع البلاد وانخفاضها وطول أنهارها

أولاً خط الاستواء فى الإقليم الأول ويبلغ ولايات بربرستان وعلوستان ودميستان وخط الاستواء عنده يتساوى الليل والنهار، لأنه الإقليم الأول، ولكتنا وصلنا إلى السودان وهو على مسيرة ثلاثين مرحلة من منطقة خط الاستواء وإقليم فى حكم مدار الجدى. وقال الحكيم بطليموس إن هذا الإقليم هو الإقليم الأول، وخط الاستواء هو الإقليم الثانى لأن فى فونجستان الليل والنهار يتساويان وإنما على مسيرة ثلاثين مرحلة منها فمضيئنا إلى وراء خط الاستواء فوجدنا ست عشرة درجة وخمساً وأربعون دقيقة ومدار يمر فى وسط أسوان، وإلى ما بعد المدار فلم يذكره قدماء العلماء، ولأن هذا الإقليم يخلو من العمران ولشدة الحر وأثر السرطان، وقد استولى كفار البرتغال على نهاية جنوب جزيرة مصر، وبناو القلاع على ضفة النيل كما بنوا المدن ومارسوا البيع والشراء فيها وكانت لهم ولاية بين مدار الجدى والإقليم الأوسط، ولكن لا يستحق هذا الإقليم الكتابة عنه، وعلى طرفى مصر للبحر المحيط، والباقى تراب على مسيرة خمسة آلاف ميل من البحر المحيط أرضاً خالية ولكن الطيور تطير فوقه، وتعبه ونرى أناس من طين فيه لأن الأقبونوس والمحيط يحولان دون ذلك.

ذكر الإقليم الأول

على حد قول قدماء العلماء إنه خط على الأرض من الشرق إلى الغرب وسموه الإقليم الأول ولكنه من عند الله، ولقد تحول إدريس وداثيال فى الأرض من الشرق إلى الغرب فأطلقوا على هذا الإقليم الإقليم الأول، ولما مضوا من الشرق إلى الغرب وجدوا أن عرضه اثنتى عشرة درجة وأربعين دقيقة، فقالوا إنه الإقليم الأول، ثم أطلقوا الأسماء على الأقاليم الثانى والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، ولشدة الحر لم يصلوا إلى إقليم آخر لنذكره. فبقيا عند الإقليم السابع، ولكن إقليم فونجستان وسط خط الاستواء توجد ولاية عمران وولاية الزنج وديار الحبشة وبعض المدن القريبة، ولشدة الحر

فيها لا يسكنها الإنسان فما سميها إقليماً، ولكن كان ولاية عمران وولاية الزنج كانتا معمرتين من قديم الزمان وسنذكرهما في موضعهما إن شاء الله.

وعلى حد قول سقراط إن الإقليم الأول الذي عبرناه هو ولاية بربرستان وعرضه أربع عشرة درجة وسبع وثلاثون دقيقة، وأطول نهار فيها ثلاث عشرة ساعة وطول الإقليم الأول هذا من الشرق إلى الغرب ألف ومائتا وخمسين فرسخاً، وعرضه مائة وأربعون فرسخاً وفيه ألف مدينة وخمسون منها زنج أهلها.

أولاً: جزيرة سرنديب وهند وصغانه وطرغار وحرش وفرج آباد وأحمد آباد وديوبا ووختن في جزيرة الحبشة ريلع ومدينة مقدشو ومدينة زنج وسودان وبربرستان وفي أرض المغرب فاس، ومرانكوش وطنجه وسبته إنها رأس الاقيونوس.

وعلى حد قول بدر وقولون أن في هذا الإقليم الأول أربعين جبلاً شامخاً وثلاثين نهراً عظيماً، وكل نهر فيها كنهر النيل ومضيئاً في الإقليم الثاني وفي نهاية مدينتي ديباط ورشيد اللتان تطلان على بحر الروم.

زيارة ضرائح سنار عاصمة فونجستان

أولاً في المقبرة ضريح الشيخ عيسى، والشيخ بلال وحاجي فوندان، والشيخ ستوان وحاجي ملايه، والشيخ على وحاجي إدريس، والشيخ فرج عاصم، وعلى كرم الدين عدنى، والشيخ جندى ابن خاقان، وجميع الملوك مدفونون في هذه المحلة، إلا أن قبورهم ليست مزينة، وهم يزورون قبورهم على أنهم ملوكهم القدامى، وقد قرأت الفاتحة لهم، ورجوت منهم البركات والله أحمد أن دعاءنا قد كان مستجاباً، ومكثنا في مدينة فونجستان أربعين يوماً وكان رمضان هذا هو الثالث والثمانون على تولى الملك وقد منحنا في العيد عيدية ثياباً مزركشة وثياباً قطنية ومبخرة من الخنزف وغرارة من العود وقارورة من ماء الورد وجارينين حبشيتين، كما منح هدايا لمن معنا وقد أرسلنا إليه فيلين وجواداً وزوجين من الأكياس بها قمصان وسراويل ودستين من الصوف وعمامة وثلاثة مآزر مزركشة، ثم جاء الملك إلى بيتنا، وتناول الطعام معنا فقد كان لنا مملوكان يجيدان

طهو الطعام، وكنا نقدم إليه فى كل ليلة من ليالى رمضان عشرات الأصناف من الطعام، وكان يطيب نفساً بتناولها كما كان يحسن إلى غلماننا وكان يفضل الكباب على غيره من ألوان الطعام، بعد ذلك جالب الطعام للإنكشارية وتُجَار الحبشة وأذن للأحباش فطلبوا المدد من الجند، وقالوا سمعاً وطاعة فجاء بألف فارس وألف راكب إيل وألفان من المشاة يحملون الحراب فتحينت الفرصة وطلبت الإذن لى لأكون رفيقاً لهم فاستجيب لطلبى، فقيل لى عَلَى السمع والطاعة نحن لا نستغنى عنك لحظة فقد أفتاك للغاية، وذلك لحמיד سجاياك وبمشيئة الله سوف تتجول فى بلادنا مع هؤلاء الجنود، ومن الغد قدمنا الهدايا وهى عشرون زوجاً من قرون وحيد القرن وعشرون حمل جمل من الشعير والذرة وخبز وخمسون حربة من خشب السنديان وعشرون من تروس الفيل وعشرون زوجاً من سن الفيل وغرارة من المسك وعشر فتيات وعشرة غلمان أحباش وفى يد كل منهم صندوق وفى كل صندوق عنبر ومسك وعقيق وزبرجد وأحجار عين السمكة، وطاووس، ودفعنا الرسوم لحاكم القلعة على ذلك وقلنا إن وزير مصر سوف يقدم من الهدايا غير ذلك.

وقد قدمنا إلى كل واحد إزاراً وعمامة وحملًا من القمصان ومن الغد وصلتنا الهدايا وهى عشرون طاووساً وخمسون من الممالك السود، وخمسون فتاة سمراء، وخمسون حمل جمل من سن الفيل، وقرون وحيد القرن وعشرون ترساً للفيلى وألف زوج من السهام ومائة زوج من جلد النمر ومائة زوج من جلد الغرائق، وحمل من الذرة، ومائة حمل من مسك جلد قطة الزباد وعشرة أحمال من الأبنوس، وعشرة أحمال من خشب السنديان وحملان من الذهب وصندوق من المسك وستون شمامة من العنبر وصندوق من نبات ذكى الرائحة وصندوق من عطر البنفسج، وصندوق من دهن السكسبان وحُق من دهن الكبريت، وقد تقبلنا هذا كله، وفى الظهيرة وصلت هدايا كُل من الكتخدا والبوابين للكتخدا والخازندار والمهردار والشيخ العزيز بكرى زاده، وقد سلم الملك ذلك كله إلى أحد الرجال وقد استشرت فى ذلك واشترك الملك كذلك فى هذه المشورة وقيل

لنا إننا سنحمل كل هذه الهدايا في سفينة سنمضي بها إلى التلال وسوف تلاحظ ذلك لأننا نشق فيك، وسنكمل برأيك وتدييرك، ومن الغد وصلت مائة سفينة من سفن النيل، وقد امتلأت في كل مرحلة بماكولات ومشروبات، فتوكلنا على الله ومضوا لانتظارنا في قلعة إبريم، وفي يوم سابق على هذا قدم إلينا نحن والباشا كل من حملة الهدايا وراكبو الإبل ورجال الملك وثلاثة رجال من البربر من قبلنا وقد احتفظنا عندنا بما خف حملة وغلا ثمنه، وخرجنا إلى الصيد مع الملك وفي معيتنا ثلاثة وخمسون رجلاً لخدمة الملك وفي ظهيرة الغد خرج ثمانية آلاف فارس وعشرة آلاف من راكبي الإبل مع الملك من فونجستان للصيد.

الفصل الثانى والسبعون

بيان عودتنا من مدينة سنار حاصمة فونجستان

فى معية الملك إلى مدينة رملية الحمال التى شاهدناها وذلك فى اليوم الخامس لعيد الفطر المبارك عام ألف وثلاثة وثمانين.

عرف الاحباش الخبر فحملوا أمتعتهم ألف حمل على الفيلة وقد سبقنا فرقة من الجيش تتألف من عشرين ألف جندى خرجنا من المدينة واتجهنا شمالا وغادرنا من مدينة سنار ومضينا على ضفة النيل جنوبًا ووجه الملك السؤال قائلاً: إن طريق سلطانتنا فى الروم من الشمال ونحن نغضى إلى الجنوب فما الحكمة فى ذلك فقلت إن فى ولاية السودان أراضٍ عامرة وطلاسم تستحق المشاهدة ولذلك نغضى إلى هناك وقطعنا عشر مراحل من فونجستان جنوبًا، وقلنا سوف نعود إلى ولايتنا وقطعنا مراحل ومراحل فى تسع ساعات.

بناء قلعة ابسوقه القديمة

كانت فى مالف الزمان مدينة عظيمة، واسمها ما زالت ظاهرة للعيان أما التى على الضفة الغربية للنيل فبناء قوى من خشب السنديان والسنط والصباح ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، وهى على شكل مربع وقد أقمنا خيامًا فى مرج إلى جانبها وشاهدنا فى ذلك اليوم عجائب فى ديوان الملك.

أوصاف الصجائب فى الديوان

دعانى الملك إلى خيمته، وجلسنا على سرير هندى فرأينا الديوان الذى فيه كثير من الناس، فجلسوا ركبة إلى ركبة، وكان فى وسطه ميدان عظيم فرأيناه ورأينا فرقة موسيقية تعزف بلهجة وتغنى بلهجة خاصة أمام ستار الملك كما رأينا سبعة من الغلمان الهنود يرقصون وأمام الملك دار أربعة منهم وأذيال ثيابهم مزركشة وكانوا يدورون كأنهم الفلك الدوار، ولكن لم يكن منهم أحد من العرب والعجم ولا الروم، وكانت فى أيديهم من الفيل وبه يرقصون ويدورون وكان رقصهم ليس فى قدرة البشر.

وجملة القول أن جميع الأوضاع الخاصة بالبربر قد ذكرتها، ولما أتممت الفصل الخاص بهم ظهر لى رجل فيل الجسم وهو حافى القدم ولكنه يستر عورته بكسره وهو فى ثوب بهلوان وعلامة بهلوان وبينما كان يسير فى ميدان المعركة وطأت قدمه غلة فمضى إلى الملك وقال: يا حى ووثب عاليًا وارتفع مقدار خمس خطوات فى الهواء وقال: إن هذه آداب البهلوان، وقبّل الأرض بين يدى الملك، ودعا للملك لى وتراجع موليًا لنا وجهه. وقال: يا سلطان السودان عدت من ديار الهند ومضيت إلى ديار البرتغال والله أشكر أنى شاهدت جمالك ولكنى غريب عن بلادى وعارى الجسد والآن وقت السحر وأشعر بالبرد فقلت للملك مرهم بإيقاد نار لتستدفئ، فأشعلوا النار فى كومة من حطب السنط والصباح حمل عشرة أفيال، وكانت مثل نار النمرود، فاندلعت السنة النار عاليًا، وتتطاير شرارها إلى جانب هذا الرجل فاستدفا فوثب فى التو وقدم إلى الملك وقال له: يا سلطان الإحسان لقد وجدت الدفء من النار بحمد الله، ولكنى جوعان فأحضروا جملًا بدينًا وأمر بذبحه وشى لحمه على النار وقال لأكل من هذا اللحم، ودعا للملك وبعد ذلك أحضروا جملًا جسيمًا آخر، وكأنما هو دابة الأرض وذبح الجمل وشرب البهلوان كل دم الجمل، ثم سلخ جلده، وقطع جسمه قطعة قطعة وقدموا لحم الجمل للملك فقال: الإذن يا سلطان، لقد قطع قطعة من اللحم ووضعها فى النار وشواها ولكن لم يبق شيء من لحم الجمل وحطم بالفأس عظامه وتناولها، وأخذ بعض أتباع الملك رأسه وقدموها له فأكلها وبقي ذلك أسطورة عند الناس وقال: إن هذا تسبب فى نجاسة تمنعه من أن يصلى إمامًا ثم وقف الرجل ومشى، ولما سمع الغناء قَدِمَ إلى الملك وقال: يا سلطان إن بطنى لم يشبع فأنا أملك اللحم النئى وأنت تملك النار فأرجو أن تمنحنى إياها ولما قال ذلك ابتسم الملك ثم مضى وخلع سترته بجانب النار وجلس وسط النار وهو يقول بسم الله، أما أنا فتأملت النار والستها تلتفع وكانت النار مثل عقيق اليمن، ولكنى ذهلت وجعلت أتأمل، وقال: النار فاكهة الشتاء ثم حك بيده جسمه وظهر منه دخان ثم خرج من النار وقبّل الأرض بين يدى الملك،

وقد تصبب عرقاً، وفي ساعة تناول الجمل وهذا القدر من النار فبقيت في حيرة والناس من حوله مصطفين يتأملون، وهربوا في سفينة، ومضى البهلوان إلى أهله وعشيرته وقلت أطل الله في عمرك أيها الملك وجعل رهوس أعدائك رقاباً لك، ومنحني حصاناً وخمسة أحمال جمال من سن الفيل وإزاراً وخمسة من صغار المماليك ولما عدت لمدينة أبشوقه فقبلت رجاء الملك ونهت إلى ذلك وزيره؛ فقال الوزير: على الرأس والعين. وجعل البهلوان يعرض ألعابه في الميدان على قرع الطبول ونفخ المزامير وأحضر خطباً محمولاً على عشرة من القبيلة وأشعل النار في الخطب وعلى أرواح شهداء كربلاء ملئت عشر قرب من ماء النيل، فجاء ليشرب منها ناس كثير منهم رجل بدين.

من الصجائب والفرائب

ومضى الرجل البدين إلى الملك فقال: يا سلطان السودان أعطني خمس قرب من ماء النيل وأعطه خمساً فلقد ظللت سبعة أيام صائماً وسبع ليالٍ قائماً لم أذق فيها قطرة ماء، وأقسم على ذلك وكانت هذه الرياضة التي أزاولها، فقال الملك: لنعد لك فطوراً فأليك هذه القرب الخمس، فأمر الملك بتقديم هذه القرب الخمس له، وكان ثمة سماع للمولوية ألقينا السمع إليها نصف ساعة وتعاليت السنة اللهب كان شرر النار يتطاير هنا وهناك، فقال: لم أجد ماء طيلة أيام صيامي ولذلك أريد عشرة قِرب من الماء، وقال: إذا زادت نار في نارى فإن هذه القرب العشر تكون من حقى، وكان هذا رأياً صواباً، وفي البداية أكل لحم الجمل وقالوا للبهلوان أكل النار: لقد عرفوك جليلة الأمر، فوضع البهلوان كلتا يديه على رأسه وبدأ الغناء وأخرج دم الجمل من فيه قطعة قطعة وتحلق حوله جمع غفير، ومضى إلى الملك وأمامه قاء لحم الجمل على عشرين دفقة كما قاء بين ذلك النار مراراً حتى أن غلاماً صغيراً لى أخرج من فم البهلوان قطعة من لحم الجمل ولكن لم يخرج من فيه كثير من النار، هذا الرجل أكل اللحم راجياً الملك وقال: يا سلطان الفونج لقد غلبت على النار والرغبة فى أن أقيء لحم الجمل تملكتنى فقال الملك ومن معه من المشاهدين: ينبغي أن يجيبه إلى رجائه وحكم الملك بذلك لقد أكل

عظام الجمل ونجاسته، فشرب خمسة قرب من الماء دفعة واحدة فصاح البهلوان أن حرارته سكنت ولكن رغبته في قىء لحم الجمل لم تسكن، فقالوا: أعطوه شراباً يجعله يقىء وقال أنا لا أعلم أى سحر فعله بى الماء ولذلك لم أتخلص من ناره، وصاح قائلاً: أنا هالك لا محالة، واعتزل في ركن وهو يتألم فلم يرحمه أحد فما نال قطرة ماء فشرب ما قدمه إليه السلطان من ماء القرب وكان راقصاً ثم وقف فعطس وسعل وحمد الله على انخفاض حرارته ثم قدم على الملك قائلاً: أيها السلطان العادل لقد منحتني خمس قرب للماء في البداية فدفعت بها عطشى والماء لمن طلب.

لقد أشفى البهلوان على الهلاك من آلامه وحرارته وعطشه إنه آدمى ضعيف وعلى كل الأحوال فإن البهلوان كان سيهلك وهذا على حد قولهم فنظر الملك إلى وكان مستاء فقد هلك عطشاً لعدم تقديم الماء إليه ولكنه لام البهلوان على أكثر ما أكل من لحم الجمل وما أكل من النار وأردت أن أطيب خاطره فقلت له: إن هؤلاء يلعبون بأرواحهم وهذا دأبهم على الدوام، ولما دخل البهلوان الميدان قال رجل: أيها السلطان إن ما يعمله هذا البهلوان سحر مبین إنه لعين من عبدة النار وإنى أبرئ من ذلك والله أحمد أنا رجل تقى على المذهب المالكي اسمى أبو الذهب أقوم بصيام وقيام ورياضات ومجاهدات، فقال الملك: ولكنك أنت كنت بهلوان وأخشى أن أكون قد قتلته يا أيها السلطان إذا كنت تحبه كثيراً فأنا أسلخ جلده في حضورك فتمهد الملك بأن يهب مائة من الإبل.

من المضحك الصجيب

مضيت إلى جثة البهلوان المرحوم وعقلنا حبل من ذيل الحصان وربطنا عنق جثة البهلوان بهذا الحبل، وركبت الحصان وضربت الحصان بالسوط مراراً إلى حد فأنطلق الحصان في الصحراء والجثة المعلقة في ذيله اختلطت بالرمال وتسليخ جلد الجثة في مواضع فظهر لحمها أحمر اللون، وجررت هذه الجثة حتى بلغت بها الملك، وقال الملك: لقد حقرتم هذه الجثة بما فعلت بها فتسلخت وبان لحمها، وأغلظ على اللائمة، فقال البهلوان الثاني: أماناً أيها السلطان اصبرن قليلاً، وقال: لقد مزقت كل أعضاء

الجثة من أنفه وفمه وغيرهما ومثلت بنجثة إنسان، إن أول جرعة شربها كانت خمس قرب فانتفخ بطنه كالقربة. وقال البهلوان للملك: انظر ماذا سأفعل إنى سأحیی عابد النار هذا يبولى، ثم قال بعض اللطائف، فقال السلطان: لا أعرف غيرك يُحیی هذا الرجل فإن لم تحیه قتلتك، فقال: على السمع والطاعة فدق الطبول ونفخ فى المزامير فجاء الملك إلى السلطان وقال له: أيها السلطان إن هذا عابد نار إن عابد النار هذا كان بجانب النار التى أوقدتها جثة نحيلة وأصبحت جثة مختلفة الألوان وأصبح الدم ينبعث من جثته كأنه ينبعث من جراح مقاتل.

والحاصل أن هذا الميت بقى فى ميدان المحبة وأمره الملك بعرض العاب أخرى.

منزل عابد النار

ارتفعت السنة النار وتصاعدت رائحة كريهة تأذى بها جميع المشاهدين فأخبروا السلطان هذا الخبر وقرّ خدام البهلوان وأحضروا إلى السلطان ثلاثة من الخدام مقبلين وضرب رأس البهلوان فتدحرج رأسه أمام الملك فوقف البهلوان من وسط النار وجاء ثلاث بهلوانات وقبلوا الأرض أمام الملك فأخذ من الملك العجب كل مأخذ، ولما قدم البهلوانات لتقيل يد الملك كانت أجسامهم مغطاة بالدهن، والحق أن البهلوان أبدى معجزات، وبعد ذلك أمر الملك للبهلوان بمائة من الإبل ومائة من الغنم ومائة من العجول ومائة عنزة وخمسة وستين من من الفيل وثلاثة جوارى حبشيات فدعوا للسلطان بالخير.

الدعاء الهندى

بعد أن دعا البهلوان للسلطان بالهندية قبل الأرض بين يديه، ولقد تعجبت، ولكن السلطان سر لذلك ولقد تجولت فى البلاد اثنين وأربعين عاماً ورأيت ثمانية عشرة مملكة، ورأيت من الألعاب السحرية ما رأيت وما أرى فى فونجستان ونقولستان من عجائب السحر، وتحدثت عن ذلك حديثاً مختصراً ثم مضيت إلى قلعة أسوقه مع الملك وفى طريقنا صادفنا خندق عظيم على ضفة النيل عمقه خمسون ذراعاً، وكأنما جرى النيل منه

بعد الطوفان وينصب غرباً في المحيط، وقد فعله سيف بن ذى اليزن بعد الطوفان وقد حطم صخور الشلالات وجرى إلى مصر في النيل وقد ظل هذا يابساً فعبناه وبعد اثنتى عشرة ساعة بلغنا بلدة أوتمر.

بلدة أوتمر

إنها مدينة عظيمة وإن لم يكن لها قلعة تسمى بلدة ولكن حوالها ما يشبه قلعة خشب ولها خندق ورأينا في بداية هذه البلدة هذا الخندق وعلى شاطئ النيل بيوت من اللبن وفيها نحو أربعين أو خمسين دكاناً ودار ضيافة وست مقاه وعشر حانات للبوزة وسبعة جوامع والقوم على المذهب المالكي وقد قدموا إلى الهدايا واجتزنا قرى كثيرة هناك على شاطئ النيل وبعد عشر ساعات بلغنا مدينة بوروشش.

مدينة بوروشش

يحكمها وزير السودان وله مائة ألف من الجنود وألفان من الفيلة وخمسمائة ألف من الرعايا، وأنعام لا تعد ولا تحصى سبحان الذي لا يُستل عما يفعل ولكن كيف خلقني، فلما سمعت المصراع ولما مضينا للقاء الوزير أحضر فيلين عظيمين أحدهما أبيض والآخر أسود، وهما فيلان مسنان يقال أن عمرهما ألف سنة، ويصعد إليهما بسلم مقداره عشرون مرقاة، ولم أرى مثلهما قط، وهما أليفان وفي الروم يسمى الفيل (أكول) والفيل هناك ضخم الجثة جداً وللفيل خرطوم يتنفس منه وله صوت كصوت عنزاء حزينة، ويركب الفيل الممالك وقد جاء الفيلان للملك هدية، ومضينا على ضفة النيل سبع ساعات حتى بلغنا قلعة بوروسته.

أوصاف قلعة بوروسته قلعة مدينة وعدستان

حينما دخلت هذه المدينة قرعت الطبول وفي كل سوق استقبلنا جمع غفير من الناس كما أن النساء السمر رفعن أصواتهن بالتهليل، وكانوا ينظرون إلينا على أننا بيض البشرة، وهم يقولون سبحان الله لما رأنا بعضهم لاذوا بالفرار، وفي القلعة ستة جوامع وألف بيت من القصب، وفيها دكاكين هنا وهناك، وحانات للبوزة، وهم قوم من رعايا

فونجستان وهم سمر الوجوه، وستمائة رنجي، وهم يتحدثون العبرية وهذه هي أعدادهم العبرية:

واحد: را. اثنان: رى. ثلاثة: رو. أربعة: كا. خمسة: كى.
 ستة: كو. سبعة: چا. ثمانية: چى. تسعة: چو. عشرة: چه.

ووجدنا شعراً بالفارسية للنبي قفاح عليه السلام، ويقال أنه كان يعرف العروض الفارسي واللفة الدهلوية تشبه اللغة العبرية. قال رسول الله ﷺ: «من طعن حركة الأظى فهو كافر بالله»، وحروف اللسان العبرى كحروف اللسان العربى، ولكن العربى لسان واضح وهو فصيح بليغ، أما اللسان الفارسى فهو حلو ظريف لطيف فيقال العربى فصاحة والعجمى ظرافة والتركى قباحة، وكل لسان آخر نجاسة وفى ديار فونجستان كثير من الألسنة المختلفة ولكن ذكرنا ما نعرفه منها واللسان الذى يتكلم به أهل بورسته يندش له من يسمعهم لأنه لسان مغلق أنهم فى بداية كل كلام يعظمون السلطان، وأكثرية القوم يعبدون الشمس، ويؤدون الخراج للملك، ولهم أسواق عظيمة وهم يعبرون النيل بسلعهم، وهم يصلون بها إلى بلاد البرتغال عن طريق البحر ويتم لهم البيع والشراء فى بلاد الفرنجية، ولا يأخذون نقوداً بل بالمقايضة ونزلنا ضيوفاً يومين على هذه القلعة وحاربنا وتآلفنا مع أهلها وكتبنا بعض ألفاظهم، إنهم على خلق عظيم، واتفق فى الليلة الثانية أن نجماً ظهر فى الشرق والآخر فى الغرب، ونزلا على المدينة، وبقياً معلقين، وقد اهتز أحدهما واتصل أحدهما بالآخر وقد تلاقيا فاهتزت الأرض والسماء وانبتقت نجومًا من هذين النجمين، وغادرا مدينة بورسته، وأتيا الصحراء فأحرقا الزروع، وظهر النجم الأكبر منهم. ومضى إلى الموضع الذى ظهر منه وعاد ثانية إلى المدينة وانبثق منهما الشرر ونفق الحيوانات من فيلة وإبل من ذلك ثم تفرقا.

وخلاصة القول أن هذين النجمين تحاربا فوق المدينة لمدة ست ساعات، ولم يبق شيء أمام خيامنا، إنه عذاب من الله قد نزل وقد تضرع الناس إلى الله على أن هذا كان

من أشرط الساعة، ولمح النجم الشرقى فى وقت السحر ومضيت كواكب نحو الشرق وأخرى نحو الغرب، ثم أفلت ولذلك تلبثنا يوماً، وقد سقنا أنعامنا ناحية وتعودنا بالله أن هذا كان من علامات القيامة، وفى الصباح سرنا على ضفة النيل وعبرنا مناطق كثيرة العشب والزروع وبعد عشر ساعات بلغنا قلعة دنقده.

قلعة دنقده

أقيمت بناءً على تعاليم آصف بن برخيا أنها كانت مدينة عظيمة قديمة والآن فيها ستة آلاف بيت وتقع غرب القلعة، وبها جامع عظيم القبة وأسواق صغيرة ولكنها كثيرة السكان، وفيها من الطغاة والبلغاة، وحاكمها رحيم الدين خان وقد استقبلنا وزيره فى معية ألف جندى، وقدم إلينا كثيراً من الهدايا، إنهم على المذهب المالكى، وهم يأكلون الغزال والعجل والقرود والفار والأرنب، ويأكلون فاكهة ذات بذور تشبه الشاه بلوط، ويأكلون كذلك فاكهة تشبه السمكة، وهى ثمرة شجر قصير ولذيذ الطعم والعبرانيون يدهنون رءوسهم بزيت هذه الفاكهة، وبذلك تخلو شعورهم من القمل، ولكن الأكثر منها يذهب البصر وقد حصلت على حق منها وهم يزرعون الذرة أكثر ما يزرعون، ولا وجود عندهم لقمح وشعير وعدس وحمص وفول وكتان ولا برسيم وقد أمر الملك برجم رجل اغتصب فتاة، ولا وجود لديهم لتخيل وغادرنا هذه المدينة على ضفة النيل فرأينا تماسيح ضخمة وسرنا فى الرمال والتراب والجبال وبعد تسع ساعات بلغنا جبل سندس.

أوصاف عجائب جبل سندس

إن إدريس عليه السلام أقام فى سفح هذا الجبل، تناولنا الفطور مع الملك وركبنا مع ألف منهم الإبل والخيول، وعلى امتداد البصر رأينا جبلاً شامخاً من الحجر الأحمر المصقول ولهذا الجبل باب يطل على جهة الشرق، ولكن أقيم بناء عظيم سد هذا الباب، وهناك حوض منحوت فى الصخر، وفيه يذبح سبعة جمال وسبعة خراف وبيع عترات وسبعة ديك وسبعة من القطط، فيسيل دمها فى منحرج الحوض، ويغمر الناس جميعاً

يدهم فى هذا الدم ثم يمسحون بأيديهم الصخر فسألتهم لماذا يفعلون ذلك، فقالوا: إن هذا أصبح لنا طليماً وهم يتعرفون من ذلك ما قدر لهم فى الغيب وما لم يقدر، وغمنا يدنا كذلك فى هذه الدماء ومسحنا الصخر لنرى العجائب، ولكن احذروا من أن يستولى عليكم الخوف ولو قليلاً هذا ما أوصانا به الملك، وقد أعملنا الفؤوس فى هذا الجدار الذى سد الباب فانفتح الباب، فكبر كل من قاضى سنار والملك والإمام وواظظ دونقده، ودخلوا وبعدهم الوزراء وفعل السلطان ذلك ودخل فراوا أن المغارة فيها حجر بها دولاب وضع فيها الديك وغاب عن نظر الحاضرين فحمدوا وهللوا وكبروا، وفى جوانب المغارة الأربعة جلس الناس على كراسى وجلسوا على المصطبة مائة إنسان وقد خيم الصمت عليهم جميعاً وزلزل ركن من أركان المغارة فسمعنا صوتاً يقضى بصوت حزين بمصاحبة المزمار والعود والقانون والسنطور والطنبور والرباب وكانت هذه النغمة هى نغمة الرست من فصل الحسينى فأخذت منى الدهشة كل مأخذ ثم سمعنا ضياء ولكننا لم نفهم الفاظه لأنها منقطعة النظير ولكن هذه الأنغام كانت على أصولها فسمعنا أصوات طبول وقدم ومزامير وكانت هذه الأنغام من مقام الحسينى، وقد ترددت أصداؤه هذه الأنغام فى الكهف كأنها هزيم الرعد فكان الصمم لأذاننا وخرج شيخ من الغار واتجه نحو الفرقة الموسيقية وأشار إلينا بالوقوف ثم ركب جملة فارتفع صوت من الصخر قائلاً السلام عليك يا سلطان الجان فرد صوت امرأة من الصخر قائلاً: وعليكم السلام يا أولاد حام وقال قاضى سنار: السلام عليكم يا سلطان الجان، وقال الصوت: وعليكم السلام يا قاضى سنار بن طاهر بن يعقوب، وقال للملك: اذكر ما تريد، وجاء وزراء وعلماء وألقوا السلام ورد كل منهم السلام باسمه، ثم مضى الملك إلى الصخرة فقال: السلام عليكم يا سلطان الجان، وفيما هو يرد التحية قيل له: وعليكم السلام يا ظالم خاقان بن سارند خاقان بن إدريس خاقان بن لاوند خاقان، أقم العدل فى الناس فإن نجوماً أخرى هوت، يأتى إلى بلادك من بلاد الزنج ومن عصاة بغاة من الجند فلا تغفل

وخذ حذرک، وأنت منصور مظفر فعليك أن تقدم إلى هنا فى كل عام وتقدم القرايين وتسجد شاكرًا خمس أو ست سجعات، وكان هذا الكلام بلسان الفونج وولد له ولد فقال لى الملك: قل السلام عليكم يا سلطان الجان فقيل لى بصوت مرتفع بصوت رومى فصيح: وعليكم السلام يا جباب العالم ونديم بنى آدم ومصاحب السلطان وحمة القرآن أوليا جليى بن درويش محمد ظللى بن قره أحمد بن دمرجى زاده قره مصطفى باشا الشهيد بن دروحيان بك بن يساو وزار بن أجه يعقوب بن عبد الله وردى آقاي بن محمد كرماني بن توركان خواجه أحمد يسوى بن محمد حنفى رضى الله عليهم أجمعين، وإلى شجرة نسبنا وهى أن أجدادنا الإمام الحسين والإمام على وفاطمة الزهراء والنبي ﷺ فذكر أجدادنا قاطبة وبذلك دخل السرور على قلوبنا، وقد تحدث طويلاً فى مصر عن الوزراء والوزارة فى مصر لإبراهيم باشا، ويسود الهرج والمرج فى مصر ويأتى أحمد باشا الدفتردار ويعود وهو ابن كوبرلى والوزارة لقره ويعرض فى مصر وإذا مات فمضى إلى مكة ثم تعود إلى مصر فحزنت لهذا من قوله وأمضى إلى الحيشة فأخذ العجب مأخذه من جميع الحضور فى المجلس وأخذتنى الدهشة، وعندما ألقى عليه السلام كل من رفقاى وهم على خلخالى ودرويش غدى ودرويش لمى ودرويش نعمت الله رد عليهم السلام بصوت عال ذاكرًا أوصافهم والقرى والقصبات والمدن التى يتتمون إليها وأسماء أفراد أسرهم وذوى قرياهم ولكن قال أن درويش على خلخالى تارك الصلاة جبرى فابتسمنا جميعاً فخرجل درويش على ولكنه أدى فريضة الصلاة من بعد ثم جاء خدامنا فاتى بهرام وألقى السلام فرد عليه يا خائن المولى ثم أتى حيدر وألقى السلام فرد قائلاً: يا خائن ولى النعم، وأتى العبد خسرو وألقى السلام فرد عليه عليكم السلام يا مخدم البلاد.

وخلصة القول أنه أخبر السلطان ومعيته فردًا فردًا عما فى نيته وطيب خاطره ولم يدع سائلاً دون أن يجيبه ثم سمعت أحيان الحرب فى الميدان فطابت بها النفوس، فخرج

الناس جميعاً، ومكنوا في الصحراء ثلاث ليال وثلاثة أيام، وفي كل يوم يأتي الناس أفواجاً أفواجاً ويسلمون وهم يسألون عما يتطلعون إلى معرفته إلا أن المغنيات الخمسة لم تعرف، وفي اليوم الثالث قدم إلى السلطان وكبار الأعيان فقدموا القرايين وسدوا باب الكهف ورفعوا الدعوات وقدموا الشكر والثناء، وفي شهر يونيه في كل عام يجتمع في هذا الموضع أهل فونجستان وأهل بربرستان وغيرهم ويشكلون جمعاً غفيراً منهم في ثلاثة أيام وثلاث ليال ويسألون عما يريدون إن هذا الغار غار عظيم منحوت في الصخر وهو مطلى ولكن الموضع الذي يخرج منه الصوت مفتوح وبقيّة الصخر مصمت وليس فيه موضع يدخل منه إنسان ويسمع أصوات أنغام وصوت قرع طبول ونفخ المزامير مما يحار العقل فيه، وقد سألت السلطان وبعض ندمائه من الشيوخ فجاءوا بأخبار شتى عن هذا الكهف والذي يسمى خروس بو غازلين ولكن حكى خدام هذا الكهف أن هذا الجبل هو جبل إدريس عليه السلام، وكان إدريس النبي يلقي دروسه على الملائكة في الكهف لذلك سمى إدريس، وكان الملائكة الكروبيون يأتونه على الدوام في الكهف، وانتوى إدريس النبي أن يعرج في السماء وذلك من الآية: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧] وقد دعا الله له الكروبيون وهذه الآية دليل على أن عروج إدريس النبي كان في أسوان، ومنذ هذا الزمان تصدح الألحان في هذا الكهف، وهذه الألحان تسمع ليل نهار وسواء قدم أحد أو لم يقدم فهذه الألحان تسمع، وقد رأينا آباءً وأجداداً على هذا القول، وكانوا جميعاً يقدمون القرايين وهذا على حد ما قال خدام السلطان، وقد شاهدت هذا الكهف دون أن أتكلم ببنت شفة وتناولت الطعام وتعجب الحاضرون لذلك منى وضحكوا ثم غادرنا هذا المكان ثم انطلقنا على ضفة النيل جنوباً ستة أيام وست ليال، وكنا نغضى كذلك في ضوء القمر ونصيد في الصباح وبلغنا وادي شلجلاه.

وادي شلجلاه

يعنى ذلك صحراء ذو الجلال، وهى واسعة لا حدود لها خصبة، إنها كثيرة الغابات ومياهها جارية وبها بحيرات وذات نخيل وبساتين، وفى جانبها الغربى على بعد عشرة فراسخ قلعة أقامها البرتغاليون على ساحل البحر المحيط فى مدينة سيختره أنها كانت مدينة عظيمة وفى أرض سنجله تصيدنا ثلاثة أيام وبلغ صيدنا سبعين فيلاً وستة عشر من وحيد القرن وكثيراً من النمر وكثيراً من الأرنب والحمر الوحشية والزراف وتيوس الجبل، وجملته القول أننا تصيدنا ما لا يحصى كثرة من الحيوانات والطيور فهذه الأرض تمتلئ بالملحوقات، وليس فى مصر أرض طيبة الهواء مثلها وفى اليوم الرابع ظهرنا، ولقد أهدانا حاكم الروم سبعين أو ثمانين ألف من الجند وألف فيل ومائتى عبد وجارية فى موكب عظيم.

أوصاف مدينة رومية الجمال العظيمة

مدينة بناها آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام وكانت فى أول الأمر على هيئة قرية، وقد ولد آصف فى هذه البلدة، ولأنها مسقط رأسه شيد المدينة وبعد أن أتم بناءها دعا سليمان عليه السلام إليها، وبنى قصوراً عالية ولكل قوم ملك ولقد دعاهم سليمان إليها، وجعل لكل منهم قصراً شامخاً ومقصورة على ساحل النيل، كما أقام قصوراً مختلفة فى شمال هذه المدينة وبنى قصوراً فى جنوبها تبعد عنها مسيرة سبع ساعات، ورسوم على جدران هذه القصور صوراً لهم وزين هذه القصور بتمائيل اثني عشر ملكاً وكانت لهذه التماثيل صورة مهية وكانت من المرمر والرخام، وكانت شعورهم تدلى على جانبهم وأجسامهم هى أجسام الأدميين، وفى أحد القصور أشكال للشياطين ورأسهم كالرجل وأذانهم كأنفى ثور وعيونهم مستديرة وفى أيديهم وأقدامهم خمسة مخالب كما للأسد، ورأينا عقبان وحمائم تطير وفيه تماثيل للفيول ووحيد القرن والجمال ولها ذبول كثيرة الشبايا وأجسامهم تشهد لصانعها الفنان بالبراعة، وفى القصر أشكال لطائر السمندر وليس كبيراً، ولكنه طائر جميل وكأنه النعام المنقوش فى الصحراء

إلا أن عتقه قصير، وهذه التماثيل مصنوعة من الحجر الصلب وقد مدت جناحيها ونفى القصر تمثال لغول الصحراء وهو من الرخام الأبيض وله جسم إنسان ولكن له رأسان أحدهما رأس شيطان والآخر رأس عقاب وأقدامهم كأقدام الإبل وأذناها أذان حمار، إنه مخلوق عجيب، وهناك نقوش صور حشرات مثل النملة وكذلك الضفدعة والحلزون والجرادة والعقرب والحية، والحاصل أن جميع حشرات الأرض هناك، ولكنى أقول حاشا أن يكون الإنسان صنع هذه الأشكال لأن ذلك ليس فى مقدور البشر ولا يمكن أن تكون معجزات لأنها تماثيل عجيبة إنها لم توجد منذ ألف سنة وكأنها ذات بروج وأنها أناس غضب الله عليها فسخطها أحجاراً لأن الإنسان يعجز عن خلقها ولو عاش ألف سنة ولكن فى وسط هذه المخلوقات ومن قصور الملوك كان قصر عرش سليمان الذى ليس له شبيه ولكن ثمة صورة لسليمان النبى إنه قصر يقوم على ألف قاعدة وفيه صورة لغلمان كأنهن الحور بعضهم واقف والبعض الآخر جالس، وبعضهم مستند إلى عصا، وبعضهم راقص وبعضهم يشدو، إنها أشكال عجيبة غريبة وكلها مصنوعة من الحجر الأحمر وإلا فإنها لا يمكن رسمها بالقلم ولا حفرها فى الصخر، ولكن فى داخل قصر سليمان رأيت كثيراً من الأشكال العجيبة، رأيت غلاماً ثائر الشعر وفى يده اليمنى صقر وهذا الصقر مصنوع من الرخام وحائط على خشبة مبنية، وقد جعله الفنان ينظر لفتى وميم، ولا رسم مسانى ولا بهزاد رسم مثل هذا الصقر على الورق، وقد شاهد الملك كل هذه الصور ثم مضينا إلى مدينة رميله الجمال.

أوصاف مدينة رميله

لقد بنى هذه المدينة آصف بن برخيا فى مساتى عام وعمرها ثم فاض ماء النيل وبلغ ماءه جبل للقمر، وفى هذه الديار امرأة تسمى رميلة، وقد سكنتها بعد أن بنيت ولحكمة يعلمها الله كانت هذه المرأة عاقراً، ولكنها حملت فى هذه المدينة وأطلق أهل المدينة عليها اسم هذه المرأة وهو رميله، وعندما حملت هذه المرأة سميت المدينة باسم رميله الحمال نسبة إلى هذه المرأة، ولكن كان اسمها فى البداية مدينة برخيا وهى مدينة

عظيمة ذات قباب عالية بلغت النجم في علوها، وفيها آثار وكنوز تستحق المشاهدة ولكن يوجد في هذه المدينة ألف بيت من الجص وسبع جوامع بلا منارة ومائة دكان وخان وعشرون حانة للبوزة، ولكن ليس بها حمام ولا مدرسة، ولقد أعطينا إلى حاكم هذه المدينة الهدايا، وكان طليعتنا عشرة آلاف جندي مع السلطان وسرنا جنوباً من هذه المدينة على ضفة النيل وبعد خمس ساعات وصلنا جبل دابة الأرض.

جبل دابة الأرض

وبلغنا سفح هذا الجبل ومكثنا هنالك في أرض معشوشبة وليس فيها أماراة على العمران ولكن فيها صخور قائمة بيضاء.

أشكال اعجوبة الأرض دابة الأرض

وثمة تمثال لفيل له أربعة أرجل ذو جثة ضخمة من الرخام الأبيض وفي عنقه قرن وجلده كجلد النمر وذيله متفرق الشعر وأقدامه شبه خفاف الإبل، وفي ثلاثة من أقدامه أظافر، وعلى كتفه عظام كأنها فأس فرهاد وكأنه هو حيوان تهيأ للطيران، وفي الجانب الشمالي من هذا التمثال تمثال الحمار الدجال اللعين، إنه حمار منحوت من الصخر الأسود، وعلى ظهره رجل بدين وهو له عين واحدة وعلى رأسه عمامة من الرخام الأبيض ومن حوله نساء وصبيان ويهود على رأسهم قبعات، وفي أيدي القوم دقوف وزباب وصنيج وكل من في هذه الأرض يعزف على آلة من آلات الطرب وقد تجمعوا حول رأس الدجال، يا له من منظر عجيب يستحق المشاهدة، ثم مضينا في تلك الأرض مع الملك ساعة.

تمثال عوج بن عنوق

إنه تمثال من الرخام الأبيض يرتفع إلى أوج السماء وظهره وكتفاه تتصل بالصخر لتكمل صورة عوج إنه واقف، هذا في الأحوال العادية، أما في وقت السحر فرأسه في السحب وشعره متفرق إنه رجل وقدماه تشبهان الرخام، أما عنقه فملطف ويمكن أن يحتضنها خمسون رجلاً إنه في قدر قبة جامع السلیمانية، وذراعه كأنهما عمودان وفي

يده تمثال لتمساح، وقد شاهدته كذلك، ومضيت مع الجند فى ربح الجنوب ومكثنا فى أرض معشوشبة نتصيد، ثم ركبنا خيولنا مع الملك وبلغنا جبل ثور الدنيا.

جبل ثور الدنيا

العظمة لله إنه لشامخ وصعدنا فى هذا الجبل ساعة فلقينا من ذلك مشقة ونصباً ورأينا فى الصخر الأحمر تمثالاً لثور «حامل الدنيا» سبحانه صانع القدرة إن الله يظهر عجائب صنعه لعباده، وعلى عمود أحمر يقدر بثلاثة آلاف عمود فى آيا صوفيا أقيم تمثال لثور «حامل الدنيا»، وله بطن كأنها جبل عظيم وعلى رأسه قرن وله قرون لا تدخل تحت حصر مما أثار دهشتنا ومضينا بخيولنا حوله ساعتين ولكن بمشقة، وفى وقت الغروب عدنا إلى خيائنا، وعند بزوغ الفجر قمنا مع الجند، ومضينا ثلاث ساعات ومكثنا فى أرض معشوشبة وهناك رأينا تماثيل الحوت العظيم حامل الدنيا، وفى هذا الجبل تماثيل كأنها تمساح البحر المحيط الواحد منها فى طول ألف وستين رجلاً، إنه يشبه جبل دماوند وقد رين جسده بالقشور، وهو بجانب بحيرة، وقال من صنعها أنه صنع شيئاً منقطع النظير فى الدنيا بأسرها وتجاوزنا هذا الموضع وفى الغرب منه تماثيل الملائكة المقربين.

تماثيل الملائكة المقربين

وفى واديين هناك أربعة تماثيل قد نحتت فى الصخر الأبيض، هذه التماثيل (وهى بلا تشبيه) لجبرائيل على صخرة وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، إنها أجسام بلا أيد ولا أقدام ولا رؤوس، ولا وجود لأعضاء الحواس ولها وجوه مستديرة، ولهم صور مختلفة الألوان، وهى سحر إعجاز وقد شاهدناها، وبالقرب منهم وادى نار الجحيم.

وادى نار الجحيم

على جانبى هذا الوادى تماثيل من الصخر لثعابين وحيات وعقارب وحيوانات عجيبة كما يوجد تمثال لساحرة إذا رآها الإنسان انخلع قلبه رعباً، إنه واد يسمى وادى جهنم وكدنا نهلك بين صخرتين، والله يعلم عددها، وفيها الثعابين والعقارب وكل جندى

يشاهدها يصيح: شعبان وبه روح، أما الذين لا روح لهم إذا ما خرجوا من الوادي ردت عليها أرواحها، وبالقرب من هذا الوادي وادي المأوى.

وادي المأوى

إن هذا الوادي هو درة الجنة وكأنها إرم ذات العماد ولقد ازدانت بأنواع الأشجار، وفيها أنهار جارية وعلى جانبيها مقاصير من الرخام سكنها غلامان وجوار وليس فيها تماثيل لإنسان، وقد سكن هذا الوادي في شهر يوليه حيث فيضان النيل أهل رميله لمدة ثلاثة أشهر وعاشوا في نعيم، وبينما السلطان يتناول طعام الإفطار فيها والبلابل تغرد تغريداً تطرب له القلوب، وغادرنا وادي المأوى ومضيئنا في الصحراء غرباً.

تماثيل الشعبان العجيبة

هناك تين له سبعة رؤوس، وكل رأس من رؤوسه يرتفع في السماء، ولكن كلا منها متصل بالآخر، وهذا التمثال من الحجر وكل قدم من أقدامه يتسع لعشرة رجال ولكل منها أظافر منفرجة، أما جسمه فهو بتمامه من الحجر الأحمر، أما قدماه الخلفيتان فيتسع كل منهما لعشرة رجال ولها مخالب متفرقة، وكل مخلب يشبه سنان رمح وفمه واسع كأنه الغار، إن جسمه كأنه جبل أما ذيله فيتصل بظهره والمسافة بين قدميه الاماميتين والخلفيتين بمقدار سبعمئة خطوة، وقد رأى غلام لي فمه من الداخل فقال: إنه مثل غار الجحيم ولكن قال الملك أن قصة موسى وفرعون مسطورة في جميع الكتب وكان في مدينة رميله ساحر، فبعث إليه فرعون قائلًا: (وأنت أيضاً أظهر معجزة وأحضر لتكون في عوننا وأنت أظهر اليد الطولى وأنت بشعبان ذي سبعة رؤوس)، وهذا الشعبان من الحجر الأحمر وليكن ذيله مثل قوس قزح، وليتحرك إلى موضعه في الجبل وإذا ما تجاوره ومضى إلى المرج أصبح من حجر، وشاهدنا العجائب والغرائب في هذا الموضع ففيها آثار لعاد بن شداد وقوم ثمود ولقوم جان بن جان علامات عجيبة وإذا ما دونتها في كتاب فلقد شاهدناها وعلمناها علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين وتصيدنا في الصحراء وبعد خمس ساعات بلغنا جبل شوام.

جبل شوام

فى لاسفل هذا الجبل ماء جار وأنه ينبع منه ويجرى شمالا نحو مصر وقد عرفت مقدار ارتفاع هذا الجبل، وسرنا النهار بطوله وقطعنا سبعين مرحلة وبلغنا عند خط الاستواء، ولم نصل فى ذلك الموضع، ومن مصر حتى بلغنا جبل شوام على مدى مائة وثمانين مرحلة على ضفة النيل شاهدا المدن والقصباء والقلاع، وعدنا إلى مدينة فرانیه ومكثنا مدة شهرين بها وشهر ونصف فى السودان وفى بعض مواضع فى سنار توقفنا، وبلغنا جبل شوام وبعد ثمانية أشهر، وفى الثالث من ذى القعدة عدنا بحمد الله سالمين معافين إلى السودان، ولكن فى هذه المنطقة ينهمر المطر انهماكاً بحيث تجرف السيول الفيلة، وستة أشهر أيام الخريف يصبح الجو كأنه جو تركيا فغادرنا جبل شوام وانتقلنا شمالا لمدة خمس ساعات.

أوصاف ولاية مدينة جرسينقه

وبيان منابع النيل

إنها ولاية عظيمة، ولها ملك بربرستان وفى قديم الزمان كان لها ملك مشهور، ولكن دولته دالت، فتبعت فوجستان، إنهم قوم مسلمون على المذهب المالكي واسم ملكها الآن سان الله خان وقد استقبلنا فى معيته مائة ألف جندي ولسلطان القونج من الهدايا حمل أربعين فيل وحمل مائة بعير، ولقد ضيفنا الملك ثلاثة أيام وقدموا لنا وللخان الهدايا وغاب جنودنا وما أكثرهم فى بلدة جرسينقه لأن جميع السيوت هناك كهوف فى الجبل من الرخام الأبيض، وهم ينشئون الكهوف فى الصحراء والجبال، وليس فى هذه المنطقة زروع ولا نباتات إنها جميعاً جبال وصحارى وطبق الآية الكريمة: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] يتربى فتيانها وهذه الآية تبين حكمة الله عز وجل تلك، وقبل شهر يوليو فى كل عام تحمر السماء وتمطر تراباً كالعنبير، ولكن ترابها بعد ذلك يصبح صخوراً فى تلك الأرض ويصبح كل اثنين أو ثلاثة صخور أرضاً يملكها الناس ويزرعونها ليل نهار وأكثر ما يزرعون الذرة، لأن

محصول الذرة محصول وافر وينزل من السماء مطر فتصبح الصحراء أرضاً ذات ررع، وتسقى جميع الحدائق بأمر الله، وفي اليوم الأربعين ينضج المحصول ويجمعونه ويضعونه في مغاراتهم وينال كل منهم نصيبه منها ويستخرجون منه زيت الذرة، ويوزنونه ثم يضعونه في المغارات ويسدون عليه الأبواب بحجر واحد ولا يبدو بين الحجرين قطرة ماء، وتسد أبواب الكهوف ولكنها تذوب في شهر وتنهمر الأمطار ثلاثة أشهر ويجرف السيل أكوام من التراب من هذه الولاية ويصب السيل في النيل، ولكنه يجري ويفيض من جديد، ويعود يحمل التراب الأحمر في ماء النيل ويغمر أرض مصر بهذا الطين مدة ثلاثة أشهر، وإذا ما انحسر ماء النيل ررع المفلحون أرض مصر، وبذلك يتحينون الفرصة لما يعود بالنفع وتنحسر المياه في شهر يوليه وتزيد في النيل والطين الأحمر الآتي من ولاية جرسينقه الممتزج بماء المطر هو سبب حمرة أرض مصر، ويبعد نبع النيل عن ولاية جرسينقه جنوباً مسافة طويلة وهذا ما مر بسمعي بيد أنسى لم أستطع الذهاب إلى هناك، والله أحمد أني شاهدت ما على ضفة النيل من عمائر وقلاع ومدن عامرة وآثار غريبة وعجيبة، وبذلك أتممت السياحة، وعند نبع النيل قوم يفدون على مدينة جرسينقه ويحضرون معهم سلع مثل البن ومثل البز الخاص بالقمصان وبطانة الثياب، والقطران، ولقد أخذت بأطراف الأحاديث فحكوا لي ذلك، وقالوا أنهم حين يتوجهون من نبع النيل إلى مصر لا يأتون براً لأن الطريق جد مخوف، ففي الطريق ثعابين سمها زعاف، كما أن بها الثعابين والحيات والعقارب والفيلة ووحيد القرن والأسود والتمور والفهود والعقاب وغير ذلك من الضواري، وهي أرض حجرية جبالية، وليست عامرة ولذلك يستحيل السير فيها.

وثمة محلة تسمى سنجره، وأهلها لا يعرفون الدين ما هو، وإذا رأوا إنساناً غيرهم قبضوا عليه وشووا لحمه وأكلوه. والنيل ينبع من جبل القمر ويبلغ هذه المحلة حتى إذا يختلط بماء البحر الأبيض، وبذلك يختلط النيل بالبحر العظيم ولا وجود لانهار أخرى هناك، وينشعب من النيل روافد وروافد ويجري في ولايات ويرويهها، وإذا ما خرج

النيل من جبل القمر جرى شمالا وينشعب فرعين أحد فرعيه يمشى إلى قوم سنجره العصاه ويمضى الفرع الغربى إلى البقاع التى يحكمها البرتغاليون ويقولون نحن نسكن البقاع التى يحكمها البرتغاليون، ونحن على ذلك منذ سبعين عامًا، لقد أتوا بمدافعهم وينادقهم إلى ولايتنا واستعمروا، ونحن نؤدى الضرائب والخراج إلى الملك.

وخرجنا من هذا الموضع بعد أن استولوا على ديارنا وخوفًا من الحيوانات السامة ركبنا القوارب فى النيل الذى جرى فرعه ومر بمدينة لاجنه وتجمع ماءه فى بحيرة عظيمة عذبة الماء، وفى جوانبها الأربعة قوم من سبع أجناس والبرتغاليون لم يستولوا عليها، ويجرى النيل ثم يلتقى فى مجرى واحد، وقالوا نحن نتمضى إلى هذه الديار، فقلت: أنتم تبلغون نبع النيل فسألته عما شاهدوا هناك فقال: ذهبت إلى هناك ثلاث مرات، فقال: الطريق إلى مدينة لاجنه يقطع فى عشرة أيام، وفى البحيرة قوارب تبجر إلى مدينة القمر وقد وقع يردكجن ابن عمى فى أسر البرتغاليين، وأحضرت لإطلاق سراحه سن الفيل، وأن مدينة القمر مدينة عظيمة، وقد بنى سليمان فى هذه المدينة على جبل القمر عند نبع النيل ضريحين وقصرين وشيد المدينة على سفح الجبل، ويقولون أن آثار ما أقامه من أبنية ماثل للعيان وللآن نبع النيل فى حوزة البرتغاليين وينبع النيل من جنوب جبل القمر، إنه جبل شامخ مخوف وعلى بعد سبع مراحل من جبل القمر جنوب البحر المحيط والبرتغاليون لقربه من البحر استولوا على مدينة وجبل القمر، ولقد أطلقت سراح ابن عمى من أسر البرتغاليين، ومن مدينة لاجنه خرجت فى تجارتي إلى مدينة جرسينقه ورأيت سلطان الفونج كما رأيتم، ومضى إلى حضرة الملك وقبل الأرض بين يديه فقال من مع الملك: نعلم أن هذا الرجل من تلك الديار وهو مسلم صدوق القول، وقد سافر إلى تلك البلاد طولاً وعرضاً، ويأتى ويذهب فى تجارته كل عام إلى فونجستان، وقالوا: أنه رجل موضع ثقة، وقد استولى البرتغاليون فى غرب مصر من مضيق سبته إلى منبع النيل فى أرض عند زيلع، وكانت سواحل مصر فى حوزتهم وعلاوة على الهند استولوا على ستة آلاف جزيرة، وقد عرفت من هذا الرجل

أن عند منبع النيل مواضع يقيم فيها الكفار ومخاطر كثيرة وأراضى لا عمران فيها ولذلك زهدت في الذهاب إلى نبع النيل وسوف تكون وجهتنا في ولاية جرسينقه إلى الشمال، ولأن ما أمكن الوصول إليه من الإقليم الأول تسع وعشرون درجة من الجنوب، وشاهدنا مدينة جرسينقه ورأينا أن فيها المعجائب والغرائب وأنها نهاية حدود السودان، وفي الجانب الجنوبي منها ولاية لاجنه، وفي الجانب الشرقي ولاية دونق، وفي الشمال حدود سلطنة دوميه، والجانب الشمالي أيضاً حدود الحبشة، ويجاورها شمالاً بربستان، وفي الغرب ولاية فردان ويسكنها عبدة النار.

وعدت من ولاية جرسينقه إلى فونجستان، ووجوت ملكها وقلت إننا كنا نريد أن نبلغ نبع النيل بيد أننا لم نحقق رغبتنا واعتارنا اليأس والله أدعو أن يتيح لنا المضي في مائة رجل إلى مراكش وإلى فاس ومدينة قرطبة ومدينة طنجة ومنها إلى الجزائر وتونس وولاية طرابلس ومنها إلى مصر، وأن نحمل معنا الهدايا لنزور أرجاء مصر كلها وأظهرنا ملك فونجستان على رغبتنا هذه وطلبنا منه الإذن بتحقيقها، وألححت في الرجاء، فوقف الملك وقبل يدي وقال قد كتبت لك إلى سلطان مصر رسالة فيها الإذن لكم بمشاهدة كل الولايات، وأن تشاهدوا جميع الآثار ولتبعثوا بأخيها العزيز أوليا معزراً مكرماً إلى مصر إن تريدوا الذهاب إلى مراكش وفاس وهذه الأطراف ليس في حكمي، وهي لا ماء فيها وينعدم فيها الأمان، ويقولون لكم إن رجلاً أبيض البشرة مثلكم لم يقدم هذه البلاد ولم تقع على مثله عيننا فتقع في الأسر، وسيعجبون لرؤيتكم وسوف يوجهون إليكم الكثير من الأسئلة في كل يوم، فذهابكم إلى هناك غير ممكن إن فاس ومراكش هي نهاية حدود جزيرة مصر وطريقكم مسدود وبيننا وبينها مراحل تقطع في خمسة أشهر وهي طرق صحراوية وكل من في معيتكم وخدامكم سوف يتأذون من شدة الحر فساءنى ذلك كثيراً، وفي ذلك دعوت الله واستخرته فأخذتني النوم فجأة فرأيت فيما يرى النائم جملًا صغيراً وعليه رجل يلتفت يمنة ويسرة وهو يسير بين فيل ووحيد القرن ورأيت في غابة عظيمة جملًا كبيراً ففَرَ الجمل الصغير فدخلني فزع شديد، وورد على خاطري قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ {الطلاق: ٣} فتلوتها فقرّ الجمل من فوقى وعادت إلى روحى وأمسكت بالجمل مع رفقائى ثم استيقظت من منامى وبالإلهام فسرت هذا الحلم؛ فعرفت أن من الخير ذهابى إلى مصر، وصرفت فكرة الذهاب إلى مراكش وقاس، وفى الصباح تناولت الفطور مع الملك ودقت الطبول وشد الرحال فغادرنا مدينة جرسينقه واتجهنا شمالا بعيدا عن النيل لمدة ست ساعات، وبلغنا وقت السحر فى صحراءه خلاصه وشمالها على مسيرة ثلاث عشرة ساعة مدينة جنجفه.

مدينة جنجفه

قد بنيت فى عهد سليمان عليه السلام وآثارها دارسه، وبها بيوت من قصب وثلاثة جوامع ودكاكين وحاكمها سدان لديه عشرة آلاف جندى وغادرناها فى منتصف اليوم بعد عشر ساعات وبلغنا مدينة رميلت الجمال، وهناك مكثنا يوما ومنها انطلقنا شمالا على ضفة النيل وانتقلنا من قلعة إلى قلعة ومن مدينة إلى مدينة، ولنا الهدايا من حكام القلاع والخانات وأعيان الولايات والسلاطين، وخرجنا للصيد وبعد خمسة وأربعين يوما دخلنا مدينة سنار عاصمة فونغمستان وخرج أهلها لاستقبالنا وأطلقت المدافع من القلعة ترحيبًا بمقدمنا، وبقيت فى دارنا أسبوعًا كاملاً ثم طلبنا الإذن بالرحيل إلى مصر، فاحتفى الملك بنا وقال على الرأس والعين، وأمر السلطان لنا بخمسة جياذ ومن فونغمستان عشرة طواويس وعشرة غلمان وعشر جاريات سود وعشرة أحمال جمال من المؤن وعشرة صناديق من المرجان والعقيق وحجر سيلان الثمين وجوهر عين الهر ومسك وعنبر وحبات سبعة من اللؤلؤ وسيف من سيوف الصحابة وخيمة منقوشة ومائتا صحن من صحن سنار وكؤوس، ودعا لنا بكل خير وأمر بإحضار السيف والوزير فى معية ألف جندى حتى قلعة أرياجى لأخى السلطان وأعطانا الرسائل، وفى الصباح غادرنا سنار ورافقنا الملك مرحلة كاملة وعانقنا الملك وودعنا وعزمنا على متابعة السير شمالا حتى الفونج وتلوت الفاتحة وسرنا ثمان ساعات وبلغنا مدينة بقيث.

مدينة بقيث

سبق وصف هذه المدينة كما سبق ذكر قلعة عطشان كما أسلفنا وصف قلعة مدينة أرياجي، وفي تلك المدينة قال لنا أخو سلطان فونجستان: مَنْ ذا الذي سُلخ جلد وجوهكم وعيونكم، وأنتم ضيوفنا، وقَدَّم إلينا رفيقًا وكَلَّفه بالقيام لخدمتنا وعاد، ومن حكمة الله أنه إذا أراد شيئًا هبَّ أسبابه إذن لكل شيء لا بد من سبب ودليل ذلك من الآية: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتَّبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥] وكأنما شاءت قدرة الله أن نغضى إلى ديار أخرى، وقَدَّم على الخان الذي كنا فيه خمسة أو ستة من الزنوج يجيدون التكلم بالتركية فدار بيننا وبينهم كلام طويل، ربما كانوا من جند الحبشة ثلاثة منهم من رجال ملك الحبشة، ومنهم مَنْ كان وكيل محمد آغا وهؤلاء قدموا تلك الديار للتجارة، وقد كررنا تكميمًا، وسألت كم يومًا يستغرق من الحبشة إلى تلك المدينة فقال: يستغرق الطريق عشرين يومًا، فتحمست لذلك إلا أني أخفيت عنهم الرغبة في المضي إلى الحبشة، إلى أن شاء الله لنا أن نرحل إلى الحبشة، وقلت إن شاء الله سيكون ذلك يوم الخميس فقلت: يَسِّرَ الله لنا أمرنا فركبنا في السفن ومضى ما نحمل من هدايا للملك ومع خمسة من رجالنا فأدرك التعب اثنين منهم، فقلبتنا في مدينة أرياجي وقد أصيب أحدهم بالسحر، ولم يستطع المضي إلى السفن لركوبها ومضت أربعون يومًا على ذلك، وفي اليوم الثالث سمعنا أنه قادم إلينا وقدم القلعة وهو يزحف زحفًا لضعفه، فبقى وقد اشتد بنا التعب وقلت لأخري أن يحضروا ومن الغد قَدَّم إلينا أخو الملك ثلاثة جياد وعشرة من الإبل ومؤنة وخمس جوارٍ وخمسة عبيد من الزنوج وست أرواج من سن القيل، وخمسة أرواج من سن وحيد القرن، وخيمة وقط مسك وجلد غر ونهياً ذلك في الغد فارتحلنا إلى الحبشة.

الفصل الثالث والسبعون

بيان المنازل التي قطعناها

من السودان من مدينة أرياجى إلى الحبشة

من مدينة أرياجى مضيئاً فى ثمانية آلاف جندى من جند الإسلام فاجتزنا خلال ثمانية أيام، غابات وأرضاً ذات أحجار وغابات شجر الأبنوس وأحياناً غابات شجر السنط، واتجهنا نحو الشمال الشرقى فبلغنا وادى قوز.

أوصاف وادى قوز

إنه أرض خصبة تقع بين ضفة النيل الشرقية والصحراء، وهذا الجانب من الحبشة يقع تحت حكم ملك السودان ولكن الحبشة ودنقلا ودميه وزنجيه لا تقع تحت حكم السودان إنها حدود فونجستان وتقع تحت حكم قوز وزير قوز على الضفة الغربية للنيل يسمونه وزير خان، وعلى الضفة الشرقية للنيل من وراء قوز الوزير صاغ قول، ويسمونه قوز، وله ثلاثمائة ألف جندى وألف ألف من رعايا قوز وكلهم مؤمنون على المذهب المالكي، وهم يسمون باسم قوز كذلك إنهم قوم قوز وإنهم شجعان بواصل وكلهم من العرب وهم يسترون عورتهم بجلد الغزال والأسد والنمر، وفى هذه البقعة لهم أربعون ألف بيت من القصب أما حاكمهم فيسكن قصرًا من الحجر والخشب، إلا أنه متين حصين، وهذا القصر هو قلعة ويزينون ديارهم بربش وبيض النعام، وفى حدائقهم أنواع من الثمار والذرة عندهم وفيرة ولا يزرعون القمح ولا الشعير ولا البرسيم، وفى جبالهم الحجر الصماقى، والرصاص والكبريت والذهب والفضة، ولا يعرفون الماس، وفى جوانب هذه الأرض الأربعة أودية، وفى وادٍ من أودية الجهة الغربية من هذا المضيق فى يوليه يمتلئ بالماء عند فيضان النيل فتغرق تلك الأرض ثلاثة أشهر وتصبح هذه المياه بحيرة، ويشرب من هذه البحيرة الناس جميعاً وفى تلك البحيرة قوارب صيادون ويصيدون منها أنواع السمك ويسكن أهل قوز على جوانب هذا الخليج الأربعة، وقد قدم حاكم قوز هدية، وهى ثلاثة من الإبل وعبد ومائة مرافق، ومن الغد وبينما كنا

نجتاز الصحراء الشمالية ظهر لنا غبار أسود يرتفع إلى عنان السماء وتقدمنا في سيرنا إليه فكان نسر صاد فيلاً صغيراً وبينما هو يمزقه وينهشه جاءت أم الفيل فنشب الصراع بينهما، وهذا هو سبب الغبار الذي ثار ولكن النسر تغلب على أم الفيل وحطت على رأسها، ومزقت لحم أنثى الفيل وشاءت أن تهمى الفيل الصغير بخرطومها ولكن بلا جدوى، فأشفق رفقائي عليه فارتفع صوتهم بقولهم الله الله، وأطلقوا على النسر بنادقهم فطار وقد أظل بجناحه الأرض فستر شعاع الشمس واكفهر الجو وفرت أنثى الفيل ووصلنا إلى الفيل الصغير، فإذا عيناه قد فقتعت من منقار النسر وجعل الفيل يأكل من حوله ومضيئنا، فإذا بالنسر يطير خلفنا وظل في موضعه وحط عليه النسر وجعل ينهش لحمه، وتجاوزناهم في وقت الغروب، وبلغنا جبل ترجاش.

جبل ترجاش

ومضيئنا في غابة من شجر الأبنوس وحططنا أشجار تلك الغابة ومضيئنا طوال الليل في نوز القمر وخلدنا إلى الراحة في سهل في الغابة، وأعلفنا جيادنا وبلغنا حدود دومييه وطلب إلينا قائد القافلة ونائب الكتخدا أن نحمل أسلحتنا ونمضي متفرقين، وبلغنا أرضاً فيها مجرمو دومييه وأرض كثيرة القرود وبها وحوش ضارية كما قيل لنا: خذوا حذرکم من ذلك الخطر الذي يتهددکم، ولم نضع أحمالنا مدة ستة أيام وست ليال ومضيئنا شمالاً نطوي المراحل واجتزنا بعض قرى دومييه، وجعلنا نأكل لحم الإبل ووحيد القرن ونشرب لبن النوق والبور وبلغنا حدود دومييه فبلغنا مدينة بورغه الواقعة بين الصخور السود، ورأينا جثث بعض النور وذبول الأفاعى وقد نشب الصراع بينهما، وقد هلك النور من سم الأفاعى وكذلك هلك الأفاعى من مناقير النور ولكن لا يمكن الاقتراب من هذه الجثث لحبث رائحتها، إن رائحتها الخبيثة تشبه السم، وكان في تلك الصخور التي وقفنا بها أوكار للنور، وكانت ليل نهار تصعد أصدااء أصواتها وكل نسر يطير وإذا ما مد جناحيه فكانه شراع وهذا هو حجم تلك النور، وكل نسر يصيد في كل يوم فيلاً أو وحيد قرن ويحمل ما يصيد إلى الجو ثم يسقطه على الأرض وينهشه أما إذا وقع ظل

جناحه على طائفة من الجند العثمانيين لم تمس حاجتهم إلى مظلة ولا خيمة، وقد انتظرنا حاكم بورغه ذات ليلة كما قدم إلينا بعض الرعايا هدايا، وكان ذلك من حكمة الله تعالى، ولهم بيوت من الحصير والقصب ولهم جامعان ومثات من البيوت، وقد عين كل منهم فى داره قدر من مسك الهر.

أنواع مسك الهر

هؤلاء القوم فى كل صباح يخرجون القمامة من بيوتهم فلا وجود لديهم من نجاسة ولا قذارة ويعرقون بقدر ما يعرق الهر، ومخالب هذا الهر فى أرجله الأربع فليس مخالب هذا الهر مثل مخالب الكلب وليست لحيوان مفترس، إن هذا الهر صغير الرأس ورأسه وأنفه يشبه أنف كلب الصيد إنه وحشى وليس أليف كالهرة، ويربونه فى قفص على سطح البيت ويقدمون إليه الطعام، وقد أهدى إلى حاكم قوز قفصين من هذا النوع من الهرة أحدهم أبيض والآخر أسود، ولا يحتمل أن يكون هذه الهرة لون آخر غير الأبيض والأسود، ولكن رائحة هذا الهر عطره ولما غادرنا مدينة بورغه فى اليوم التالى وسلكنا وادياً واسعاً فقابلنا أحد عشر فيلاً ومضت الفيلة على يميننا ويسارنا ووقف أمامنا فيل ضخيم ولم يتحرك، واقترب مراراً من الجنة وكأنه يحدثهم عن نفسه أنه حيوان وقاد الذكاء، وكل رجل من أرجله كأنها ماذنة وكل سن له كأنه عمود وخرطوميه مثل دخان الحجر وبطنه مثل طبل أصفهان أما أذنه مثل مائدة الخلفاء ورأسه مثل خم الملوك وجلده مثل سباط الغرباء، وفيه فم موقد الحمام، وعينه مثل جسم الغزلان وذيله مثل عصا الشيوخ، وبعد ثمانى ساعات بلغنا ريسده.

منزل ريسده

هذه المحلة فى حكم دوميه، إنها أرض جبلية سوداء، وإذا ما حفرنا فى أرضها بمقدار ثلاثة أو أربعة أشبار انبعث ماء عذب كما توجد آبار، هذه الآبار يشرب منها الفيلة وحركت الفيلة فى هذه الأرض، وفى مدينة بوريد بيوت من القصب وجامع من القصب كذلك وكل أهلها زنوج مثل أهل دوميه والجميلات بها كثير، وغادرنا هذه

المدينة ومضيئنا إلى مرج على شاطئ بحيرة فيه قردة ضحكنا منها.

أوصاف قلعة نازدى

إن هذه القلعة كذلك فى حكم دوميه ولها حاكم زنجى يسمى جرجاج ولها أربعون ألف جندى عراة، وهى قلعة مرتفعة، إلا أننا لم نستطع دخولها لمشاهدتها ولكن حولها، ألقى بيت من القصب وبيوت من الطين كما أن أمامها جامعان وحائتين للبره ودكاكين وأمامها أشجار سنط وسنديان والأبنوس وغادرناها صباحاً.

ومضيئنا فوجدنا قطعان من الفيلة ووحيد القرن والغزال والعجول والحُمُر الوحشية والخنازير الوحشية، ولا يعلم عدد تلك الحيوانات إلا الله، إنها أرض كثيرة الأشجار والزرع، كما تسمع فيها تغريد الطيور بصوت حزين، وهذا ما يشرح صدر من يشاهد هذه المدينة ولذلك يأتى إليها ملك دوميه ليصيد فيها، وله هنا وهناك خيمة ومصطبة ومطبخ، وقد شاهدنا كل ما فى هذه الأرض، وفيها غابات بها قردة يركب بعضها بعض كالحمير أنها قردة متعددة الألوان منها ما هو أبيض وأزرق وأحمر وأسود وعلم عددها عند الله، وبعضها يجرى كأنما يريد أن ينجز أمراً والحاصل أن القردة كثيرة إلى حد يحار العقل فى كثرتها، وأنها مخلوقات ممسوخة، وقد وجدت ثلاثة من صغارها فى طريقى، وقد حملتها فى قفص وبهذه الصحراء تكون حدود دوميه.

ودخلنا الإقليم الأول فى ولاية الحبشة، فنحننا الذبائح ابتهاجاً بسلامتنا ولكن هذا الحر لا يصيبنا بشيء بإذن الله وتقدمنا عشرة من رجالنا رواداً وبينما نحن ننظر رأينا أول من تقدمنا فى سيرنا يسقط من على صهوات جواده، وعاد جواده نحونا كما أن رفيقاً آخر من رفقاتنا سقط من على عنق جواده، وإذا نحن بهذا الحيوان اللعين وفرّ الجواد منا ثم صعد تلاً وهلك وفرت كل جيادنا وقد انفجر الجواد، وهذا الحيوان اللعين الذى سبق ذكره يشبه الغزال وفى طول قامته وفى جثته أما ذيله فينتهى بما يشبه العناقيد، وصعدنا الجبل، ومضيئنا فوصلنا إلى هذا الرجل، وقد هلك فتركناه وانطلقنا فى طريقنا وقال بعض رجالنا إن ذلك الرجل الذى فاضت روحه كان يحمل سبعمائة دينار

من ذهب فأخذنا الأسف وقلنا الحكم لله ثم سرنا فى أرض فيها أسود وغور وغيلة
ووحيد القرن وجبل أسود وصخور سود ودام سيرنا فى هذه الأرض ستة أيام وست ليال
وبلغنا وادى ابرایش .

وادی ابرایش

إنه فى أرض الحبشة، وعلى جوانبه الأربعة آثار العمران وتنبعث منه رائحة طيبة فنزلنا
فى هذه البقعة توكاً، وقد حفرنا الأرض فانبعث منها ماء عذب فمئذ سبعة أيام قلّ ما
نحمل من ماء فشربنا من هذا الماء ولذلك ردت الروح على الجند والدواب وتألقت الحياة
فى الوجوه، وقد وجدنا آباراً كثيرة حفرت فربما كان التجار المرتحلين من الحبشة إلى مصر
كانوا يسلكون هذا الطريق فحفروا تلك الآبار، ونحمد الله أننا بلغنا الطريق الواسع،
وكان العبادة يأتون من قنا سالكين هذا الطريق، وغادرنا هذه البقعة وسرنا ثلاثة أيام فى
أرض حجارتها سود وجبالها سود وأرضها سوداء وقد تأذينا كثيراً من شدة القيظ ولما
دخلنا الغابات تنسنا رائحة كرائحة المسك وكأنا وجدنا من هذه الرائحة حياة الخلود،
وقد سألت بعض التجار عن مبعث هذه الرائحة الطيبة التى تنسناها فى الغابات فقالوا
إنها رائحة تنبعث من الجبال التى تمتلئ برائحة المسك وثعابين المسك، واجتازنا هذه الغابات
وفى اليوم الثالث وفى نهاية الصحراء بلغنا جبل عزلون .

جبل عزلون

نزلنا سفح هذا الجبل، إنه فى حكم الحبشة وفى يسرة هذا الوادى عرب لهم عشرة
آلاف خيمة وهم زنوج، وعلى المذهب الجعفرى، وتجاوزنا هذه الأرض وحفرنا الآبار،
فخرج ماء عذب، ومضينا شمالاً حتى بلغنا البحر المحيط وطوبنا مراحل على ساحل
هذا البحر وبلغنا أرض القردة وفى شتى جبالها وأحجارها شتى أنواع القردة والنسانيس
 وأنواع أخرى من القردة، ولقد شاهدنا هذه القردة من فوق الأشجار التى تسلقتها
وكانت تطلق أصواتها كأنها تضحك، وكانت تلعب وبذلك نسينا ما تكبدناه من نصب
ومشقة فى سيرنا، وجملة القول أنه لا وجود فى عالم الحيوان كالقردة فى ذكائها

وإضحاكها، ولكنها ممسوخة وإن كانت مشاهدتها تذهب عن الإنسان ما به من حزن ولكن تربيتها وتعليمها مما يورث الفقر والفيل كذلك حيوان ذكي، وعبرنا أرض القردة ومضينا ستة أيام في أرض ذات أحجار وأرض جبلية وأرض رملية ومضينا على شاطئ البحر ثم بلغنا وادي دنقلاب.

وادي دنقلاب

وتلبشنا في ذلك الوادي، وحفرنا آباراً فخرج الماء العذب، إن هذا الوادي في إقليم الحبيشة في قضاء سواكن سنجاغى وهو قريب من ساحل البحر، ويسكن عرب في هذه البقعة إنهم مائة ألف من الزنوج العراة، وعلى مسافة قدرها مائة وخمسون ميلاً شمال ميناء ينسج وهو ميناء المدينة المنورة وهو شمال هذه البقعة على الشاطئ والمدينة على ثلاث مراحل منها، ودنقلاب ميناء عظيم ولكن في البحر جزيرة تسمى لولو، وهي تبدو من الميناء وفي هذه الجزيرة بيوت من قصب وفيها جامع وحانات للبوزة، وليس فيها أرض تزرع، وكل سكانها غواصون، وهم يستخرجون اللؤلؤ من البحر، وهو لؤلؤ نادر لا مثيل له، واللؤلؤة في حجم البندقة، ويحكم هذه الجزيرة أغا من فرق الوالي الحبشى، وله عشر ما يستخرج من اللؤلؤ ويعاسب الباشا، كما أن السفن التي ترسو على ميناء دنقلاب تدفع جمركا، وغادرنا دنقلاب واتجهنا شمالاً وبينما نحن على ساحل البحر رأينا جبلاً فيه دجاج ريشه مختلف الألوان والدجاج الحبشى يشبه الطواويس ومن الغد بلغنا أتله.

أرض أتله

هي تحت حكم سواكن وهي أرض رملية ويسكنها عرب زنوج وهم أربعون ألف يسكنون في الخيام، وهم يمنحون الباشا الحق في المراعى وفيها يتابع ماء عذب وتهاوونا هذه الأرض فشهدنا قطعان الفيلة في الجبال السوداء وقطعان العجول السوداء ثم بلغنا قوم المرفأ.

قوم المرفأ

على بحر القلزم وهو بحر السويس مرفأً عظيم ولكنه ليس معموراً وعلى شاطئ البحر ملأنا القرب من ماء عذب وغادرناها صباحاً وصرنا على شاطئ بحر السويس أياماً ثلاثة، وشاهدنا أصداف اللؤلؤ وأنواع السمك وسمك له مشات الآلاف من الألوان وهناك عجائب على شاطئ البحر سبحان الخالق وله الحكمة يحار العقل فيها فثمة أشجار لا لوراق لها في هذا البحر إلا أنها كثيرة الأغصان ولكن جذورها مغمورة في البحر وبعض السفن تمر بهذه الأشجار فتحطم أما إذا كانت السفينة ضخمة فإنها تجتار وتمر بين هذه الأشجار محطمة أغصانها، واللؤلؤ في هذه الشعاب المرجانية، وهذه الشعب المرجانية غابة عظيمة وفيها سمك القرش ولا يمكن عادةً من يستخرجون اللؤلؤ ولا من يفرقون مع السفن لأنه يتلعمهم، وفي اليوم الثالث بلغنا جزيرة مدينة سواكن.

أوصاف جزيرة مدينة سواكن

في قديم الزمان سكنت هذه المدينة والدلة لندها واسمها سواكن وقد أقيمت فيها الابنية، وعلى مر الأيام بينما كانت المدينة تحت سلطان دوميه، وفي عصر السلطان سليمان وكان وزير مصر طواشى سليمان باشا مضى في ثلاثمائة سفينة إليها وإلى مدينة ديو آباد وأحمد آباد في الهند، وانتزعها من البرتغاليين فهابه ملك الهند وعاد منصوراً مظفراً، كما فتح عدن وصفا وموحي وهي سوانى كانت في حورة البرتغاليين، ومر الاسطول السلطاني بالحشة وألقت مراسيها أربعون ألف سفينة بما تحمل من الجند، وأقام في مدينة سواكن وأصبح أورد مر باشا وزيراً فهاجم إقليم الحشة، وكان من أقرباء السلطان الغورى وهو جركسى الأصل ورجل مدبر وشجاع، وكان يبيع ويشترى ومكثنا فيها يوماً وقد بعث أربعين جملاً بخمسمائة قرش كما بعث خمسين سن فيل بخمسمائة قرش، ووقفت على أحوال هذه المدينة وبذلت همتى في مشاهدتها، ويقابلها على شاطئ البحر الأحمر على بعد ثلاثمائة ميل مدينة جدة، وبينها وبين مكة المكرمة مسيرة اثنتى عشرة ساعة، إن سواكن في الإقليم الأول وهي تواجه القبله، وجزيرة سواكن صغيرة تمتد غرباً ثلاثة أميال، وهذه الجزيرة أيضاً تحت حكم الحشة ولكن الوالى لا يقيم فيها. وينوب عنه من يتولى أمورها، ويقدم للباشا في العام مائة كيس، ويسمون قصر

الباشا فى الميناء خرده، ومن يستلمون الجمر ك يسكنون هناك وأن بانيه هو أوردرم باشا، إنه قصر عظيم شامخ وإذا ما اقتربت منه السفن القادمة من الهند والسند واليمن والحبيشة دفعت عشراً، ولهذه المدينة قضاء قدره مائة وخمسون. إنها قضاء عجيب وفى هذه الجزيرة مائتان وستون بيتاً من القصب والحصير كما أن فيها بيوتاً صغيرة جميلة من اللبن ولاوردرم باشا جامع ذو ماذنة وهو مبنى بالحجارة كما توجد فيها المساجد وعشرون دكاناً من الحصير، وعلى رأس الميناء، مخازن لعبدة النار وهذه المخازن بها شتى السلع ومبرات وجمامات وخانات ومدارس وحدائق ولا يوجد شئ غير ذلك ولكن سواكن ميناء الفونج وزنجستان ودمبستان وفى إحدى جوانبها يسمع دوى الأذان، وفى هذا الجانب من الميناء ثلاث قلاع قديمة، وهى متقاربة ولا وجود للماء فى سواكن لذلك بنيت هذه لحفظ الماء فيها، وتجر بها القوافل القادمة والنلبة ولولا هذه القلاع لما وجد أهل سواكن قطرة ماء وهلك أهل سواكن عطشاً والسفن القادمة إليها من الأرض المقدسة تسأل الماء وسفن جدة واليمن تطلب الماء من أجل ذلك يحفظ الماء دائماً فى هذه القلاع، وفى بعض البيوت يوجد صهريج ماء، وهذه القلاع معمورة وهى قلعة باشا وقلعة أورنه والثالثة قلعة بوغار وفيها من الجند خمسون أو ستون، وينالون علوتهم من الباشا كل شهر، وإذا مضى الباشا مع كثير من الجند إلى الحبيشة ناب عنه بعض أتباعه فيها، وفى هذه القلاع مدافع وذخيرة، وهذه القلاع قوية حصينة، وتحتها أبواب ذات مصاريع تطل على البحر وفى جوانبها الأربعة مزاغل ومن فى القلعة على تمام الأهمية دائماً.

أوصاف مدينة كيف القديمة

إنها فتحت على يد أوردرم باشا فى عهد السلطان سليم خان الثانى، وكانت فى ماضى الزمان تحت حكم سلطان دوميه إنها عظيمة ولكن ليست معمورة، وفى جوانبها الأربعة آثار أبنية قديمة، ونائب كاشف فى هذه الديار ورجال حكومتها مائتان والصوباشى يتسلم من السفن القادمة الجمر ك، وفيها ثلاثمائة بيت مكسوة بالطين،

وبعضها من الحجر وبعضها من الحصير والقصب وليس فيها عمران سوى حمام وخان وسوق للبز ومدرسة ومبرة، ولكن فيها عدة مقاه وحانات للبوزة، وليس فيها حدائق، وإن كان هناك بسايتين جميلة بعيد عن الساحل، وآبارها عذب ماءها، ولاعتدال جوها تحمل المرأة وعمرها مائة سنة، ولقد شاهدنا هذه المدينة ثم عدنا إلى جزيرة سواكن، وركبت مع نائب الكتبخدا محمد أغا، ورفقائى سفينة وتلونا ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١] وتوكلنا على الله وأبحرنا إلى جزيرة دهلك وبلغنا شاطئها ورأيت شراع هذه السفينة وقد جلس ربان السفينة وملاحوها وكانوا ينظرون إلى البحر على الدوام، وهناك من ينظر بمنة ومن ينظر يسرة ويبلغ الربان بذلك، وإذا ما اشتغل قبطان السفينة بغير ذلك فإن البحر يتعالى موجه، وكل من فى السفينة يقرأ الفاتحة مراراً، ولو لم تقرأ الفاتحة فى السفينة لا تجرى لأن شراعيها من حصير ومرساتها من حجر، ومساميرها حبال من حصير وتحت السفينة دهن البعير كما أنها تمتلئ بدقيق الشعير، ومضت السفينة فى البحر الأحمر وقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ومررنا بكثير من الجزر وبلغنا جزيرة دهلك.

أوصاف جزيرة دهلك

كانت عاصمة النجاشى، وقد فتحها عثمان بن عفان بعد أن أرسل من جدة مائة سفينة ثم استولى عليها النجاشى من بعد إلى أن فتحت فى عهد السلطان سليم الثانى إنها جزيرة واسعة، حينما كان القائم مقام أوردمر باشا فى الحبيشة حاصرها ويستخرج اللؤلؤ عند هذه الجزيرة، وكان بها قلعة صغيرة إلا أنها انهدمت وأثار المباني فيها ماثلة للعيان، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، وفيها ستمائة بيت ونصف أساسها من الحجر ويكسو سطوحها تراب كما يوجد بها عدة دكاكين ومخازن وجامع ومساجد، إلا أن بيوتها ضيقة، ولا وجود فيها للحدائق، وعند المرفأ قصر القائم مقام وفيها أربعون أو خمسون مخزناً، وهى تمتلئ بسلع التجار ولا وجود فيها لابنية أخرى، وفى كل خان صهريج للماء، أما الماء الذى يزيد على الحاجة فيبيعه بعضهم للسفن، وهواءها لطيف معتدل، ويكثر فيها

الجميلات من النساء، والفتيان سُمر البشرة ويوزع في هذه الجزيرة في بقع مختلفة الفترة، وفيها بساتين وبها كثير من المعز، ومن عجب أن المعز في تلك الجزيرة تأكل اللحم الذي يوجد في صدف اللؤلؤ كما تأكل السمك المملوح ولحمها وشحمها رائحته ذكية كرائحة العنبر، ولما فتح عثمان بن عفان هذه الجزيرة قَدِمَهَا عدة آلاف من المهاجرين والأنصار وأرباب الصُفَّة والصحابه، ودفنوا فيها ولكن ليس لهم قبور تدل عليهم ولا وجود لما يرشد إلى تاريخ موتهم، وقد شاهدنا جزيرة دهلك، ورأينا ما يحارَى الشاطئ من صخور، وبعد قطع ستة أميال في يوم واحد بلغنا جزيرة قلعة موص أووا.

أوصاف جزيرة قلعة موص أووا

كانت عاصمة للملك الحبشة في قديم الزمان، ولقد فتحها عثمان بن عفان كذلك ثم فتحها آل عثمان في عهد السلطان سليم الثاني على يد أوزدمر باشا وهي الآن عاصمة وإلى الحبشة، وتحت حكمه سبعة سلاطين، وللخاصة السلطانية اثنا عشر حملاً من أقمحة، ولكن لا يوجد في هذه الولاية شعار ولا زعامة ولا علوفة ولكن بها الدفتر دار والروزنامجى، والمحاسبجى، والمقاطعجى طبق القانون، ورواتب مائة من جند القلعة وعشر خاصة بإدارة الدفتر دار والمغفور له الموصدارلى مصطفى باشا كان يربى مائتى جندي من حملة البنادق، وكان يحصل في كل عام ألف كيس وفي المقابيل كانت تأتيه هدايا على ألف كيس ويقوته القاهرة إذا ما شاء أن يفتح العالم لاستولى على العالم، وعلى وجه النعدالة بعد الخراج والمصاريف يحصل ألف كيس، وإذا ظهر بيسف لسود الوجوه مائة أو مائتا رجل سيطروا عليهم، وإذا ما أرسل الهدايا إلى ملك فونجستان وملك دمبستان وملك الزنج وملك علوى وملك زيلعستان ويحصل مال وفير من التجار القادمين من اليمن والهند، وكانت الحبشة مولوية، وهؤلاء القوم لا يعرفون الحقيقة ولا الشريعة، إنهم زنوج طغاة بغاة وحشوا جهنم، ولا مذهب لهم ولا دين، إنهم يسكنون الحبشة، إن القبط غاية في الشدة وقد يكون مهلكاً إلا أن شدة الحر لا تؤثر عندهم في إنسان ولا حيوان، ولكن الجو يعتدل من بعد العصر إلى الصباح في اليوم التالى، ويب

نسيم الصبا، فيهب الإنسان حياة الخلود، وقصر الوالى فى هذه الجزيرة على شاطئ البحر. وقد بنى هذا القصر كذلك أوزدمر باشا إلا أنه ليس واسعاً ولا مزيئاً، وهو يتألف من غرف صغيرة وفيه غرف يكسو سطحها الرصاص ويسمون الجمرى هناك خورده، وهو قصر الباشا، وتشتري عشر سلع التجار فى قصر الباشا هذا وتقرب من قصر الباشا هذا السفن القادمة من البرتغال والإنجليز والفلمنك والهند والسند والصين واليمن وعدن وتوم فوطه وموحه ولوحيه وجدة وينبع وطبور والسويس، لأنه مرفأ جميل، وتقع فى الإقليم الأول وبينها وبين مرفأ اللوحيه فى اليمن على البحر الأحمر مسافة قدرها مائتا ميل، ومدينة قرشية وتأتى إليه السفن من اليمن فى ثلاثة أيام، إن أبنية هذه المدينة صغيرة ولأنها جزيرة لا تحمل الأبنية الكبيرة، وأبنيتها تنحصر فى الطين، ويوتها بعضها من الحجر وبعضها من القش، وبعضها من القصب، وأما قصر الباشا فعلى وفيه محارب وفي السوق جامع أقلمه أوزدمر باشا، وهو على الطرز القديم وله مثانة صغيرة، وله بابان أحدهما يقضى إلى الساحل، والآخر يقضى إلى السوق، وابن أوزدمر باشا ومصطفى باشا البوسنى مدفونان فى ضريح على يمة الجامع وثمة جامع الشيخ الجمالى، والشيخ الجمالى مدفون فى هذا الجامع كما أن هناك ست زوايا، ومنها مسجد قره بك ولا يوجد أثر آخرى لحمام ولا خان ولا مدرسة ولا مبرة ولا سبيل، ولا وجود لسوق للبز وعند المرفأ مخزن للسلع، وفى هذه المخازن كل شيء ثمين حتى أكياس المسك واللبن، وهذه المخازن بناءها من الحجر ولا يوجد فى الجزيرة حدائق ولا بساتين ولكن الدنانير الفضية والقروش كثيرة، وأكياس الجواهر فى أكواب بهذه المخازن والقوم ذنوب سود البشرة ومن أهلها الأسمر والأبيض، إنهم جميعاً من عبدة النار وإذا مات منهم أحد أحرقوا جثته، ويلبسون الثياب البيضاء الهندية ويحمون رؤوسهم بيض العمامة وعندهم دفاتر بمصروفات وجرم الحبة، وهم يعملون حساباتهم بدقة متناهية وإنهم يقيدون مصروفاتهم تقييداً دقيقاً، وتعتمد الحبة عليهم فى الحسابات، ولا يقولون الكذب ولا البهتان، ولا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير، وإذا أكلوا ياكلونه

فرادى ولا يأكل أحد مع غيره ولا يطعمون إلا إذا نزل عليهم ضيف من سفر ويتاجرون مع الهند والسند ودمبستان وفونجستان، وإنهم قوم على خلق عظيم يحبون الغرباء حباً جماً، ولقد ساعدوني فى حمل متاعى الثقل ولقد جئت من مدينة كيف فى فونجستان فى أربعين يوماً فى حدود دومبستان وعبرت الصحراء، وقد تبينت أن لهم ألف جندى لهم علوفه، كما أن رعاياهم عشرة ملايين وهذا ما قيل لى على لسان قوم بانيان والباشا، وبما أن بلادهم خالية من الطاعون يعمر الإنسان فيهم من مائة إلى مائة وخمسين عاماً، وباشا الحبشة يرسل إلى سلطان دومبيه رسول من قبله يحمل معه اللؤلؤ والعقيق والقصى، والسهام والحراب والبنادق والرصاص والبارود والنفط والقطران والبندق والفسق والجوز الرومى والصحون النحاسية والقمصان والراويل والكتان والبز، والحرير والخيط وهذه الأشياء سابقة الذكر هناك نادرة، وقد صحبنا هذا الرسول فى طريقنا وأسلم هذه الهدايا التى فى معيته للسلطان، وقد أكرمه السلطان كما أن السلطان بعث مع الرسل إلى والى الحبشة أربعين أو خمسين غلاماً حبشياً وأربعين أو خمسين جارية والزباد وسن الفيل وقرون وحيد القرن وقط الزباد والعنبر الحام، وترس الفيل والسياط، وقد أرسل جميع التجار إلى الباشا ما لديهم من سلع فأخذ منهم الباشا الجمر، ويرد من ولاية دومبيه إلى الحبشة القمح والشعير والذرة والسمن والعسل، وشمع العسل والدقيق والزباد وخشب الأبنوس، وما سوى ذلك، وكذلك الغنم والجمال والمعجول والغزلان والمعز وجميع الأطعمة والأشربة، وقد شئت أن أمضى إلى السلطان، ولكن فى ذلك الوقت كانت الحبشة تموج بالعصيان والتمرد، وأشفق فورتاجى أحمد باشا من بطش الثوار فركب من الليل فى باخرة أبحرت به إلى اليمن، ولقد بقيت غريباً، ولم أستطع الرحيل إلى بلاد أخرى، وبذلك كانت هذه الجزيرة وبالأحط على رموسنا فركبنا زورقاً وبلغنا جرار باشى.

أوصاف جرار باشى

غادرنا بالزورق مع خيولنا، ودخلنا إلى جرار باشى، وجرار باشى التى دخلناها هى مدينة

قديمة يفد إليها الناس والسلع بالسفن، ولكنها الآن خربة وفيها هنا وهناك أشجار وبساتين وأنعام أهل الجزيرة ترى هناك وثمة آبار ماءها عذب، وليس في جزيرة موص أووا ماء وامتنينا صهوات جيانا من جرار باشى وبعد مضى ساعتين دخلنا أرضاً سهلة وبلغنا قلعة خرق.

أوصاف قلعة خرق

عندما دخلنا هذه القلعة رحب بنا رئيسها، ووضع في يده منشقة ولما أردنا أن نقبل يده قال: عفوا أنتم إخواننا الأحبة وكنتم رفاقاً لملك في طريقه من فونجستان ولكنكم ركبتم السفينة من دهلكت ليبحر بكم إلى موص أووا، والباشا فورطجى قد تمرد وعصى وبغى إنه تمذهب بالمذهب الزيدى وتعلق بأذيال الفرار إلى اليمن وقد وقفت على هذا الأمر، وإذا ما مضيت إلى مصر أظهرت وزيرها على هذا الأمر ثم أمضى إلى الآستانة، واسترحنا بضعة أيام ونزلنا ضيوفاً عليهم، وقال لنا: اعلّموا حقيقة الأمر، وأقمت في حجرة خاصة بى ورُدّت علىّ روحى، فاستدعى رجاله فى الترو واستولى على أموال وخياد وأرزاق أحمد باشا، وشاهدت المدينة، إن قلعة خرق قلعة قديمة سوداء وقد فتحت على يد أوزدمر باشا وإن كانت قلعة قديمة عظيمة من الحجر على ساحل البحر الأحمر لكنها ليست ركيّة ولا معمورة، ومحيطها أربعة آلاف خطوة وهى مربعة الشكل ولها سبعة بروج وستة أبواب باب البرج الرئيسى وباب المرفأ وباب جبل جدا وباب الشيخ مظلوم وباب الماء وفى الركن القريب من الشاطئ داخل القلعة وهو الجزء المعمور داخلها ومساحته تبلغ مئاة خطوة وقد رعمه درويش أغا وصار جزءاً معموراً داخلها وتبلغ مساحته مئاة خطوة أما ما خارج القلعة ففى حاجة إلى الترميم والتعمير، وفى القلعة بضعة مدافع وينوب عن الباشا مع مائتين من رجاله قائم مقام، ويحاسب فى كل عام مائة كيس ويفيض له بعد ذلك خمسون كيساً، وقضاء مائة وخمسون أقة والباشا يحكم الائمة وللقلعة رئيس وأغاوات، وهم يبالغون راتباً معيناً من الباشا كل شهر، ويعظم أغاوات الباشا يسكنون فيها لأن موص أووا وبريس أووا جزر لأن السفن تبحر من قلعة خرق أووا وفى جوانب القلعة الأربعة آبار كلها عذب ماءها وقد بنيت هذه

القلع للحفاظ على هذا الماء ولذلك فتحت هذه الولاية وتم الاستيلاء عليها، وكان السلب والنهب في أركانها الأربعة، ومن هذه القلعة غنموا ما غنموا وتحصنوا بها وأصبحوا في عيشة رغدة، وحول القلعة كثير من الزنوج البغاة الطغاة وفي هذه القلعة سبعمائة بيت من القصب والقش، وسطحها مسكوة بالتراب وفيها عشرون سوقاً صغيرة وسبع مقاه وحنات للبوره وخان وجامع لاوردمر وسبع زوايا ولا عمران فيها سوى ذلك ولا حاجة إلى وجود حَمَامَ فيها لأن أهلها يتجولون عراة ليل نهار وتعرق أجسامهم كأنهم في حَمَامَ إنها مدينة غريبة وعجيبة وحاكمهم رجل شديد عنيد وإذا ما قامت الحرب استطاع أن يجمع حوله مائة ألف مقاتل، وهم جميعاً عبيد للوالى إله فورطجي أحمد باشا وزير مستقل وإنه الوزير الأول وقد ضاقت به الأرض بما رحبت ففر إلى إمام اليمن، والنائب قره يسكن قلعة خرق أودا إنه كريم أحمر الوجه واسع العينين وهو على علم بالتركية وبذل لسا الدجاج وحساء القمع وخبز الذرة، ويصدع بما يأمر هذا الرجل قوم الحبشة وفونجستان ودومبستان وعلوستان والعبابدة وسلاطينهم، ولهؤلاء السلاطين جند ولكن إذا ما رموا بحجر هربوا وتفرقوا لأنهم جيوش جياح وضعاف البنية، والنائب قره يحكمهم ونحت رياسته أمين الجمرك، وله خمسة آلاف جندي من حملة البنادق يغذوهم ويكسوهم، وإنهم جنود لهم قوة الإنكشارية ويلفون وسظلم بمنشفة وفي إحدى أيديهم بتدقية وفي يدهم الأخرى مشقة مبتلة بالعرق، إنهم يتجولون في الصحراء، وإنهم يغيرون على كثير من البلاد فيقتلوا وينهبوا ويجمعون من ذلك ما لا كثيراً وتأنيهم الهدايا من كل الأرجاء وهي هدايا لا تدخل تحت حصر ويقدم للباشا كل عام هدية قدرها ألف كيس من المال المتحصل وهو يقدم مائة وخمسين كيساً لأخوات القلعة كعلوفة لأن هذا مطلوب من الباشا، كما أنه يقدم علوفة إلى أخواته، وفي آيات لا وجود للخدمات كما في سائر البلاد ولكن فيها عشرون قائم مقام إنه يقدم إليهم كذلك علوفة، كما أن لن في القلعة وخدامها علوفة خاصة بهم، ويقدم للنائب ولمسلم المدينة والقائد وكتخدا الباشا ونائب البوابين والإمام والأمين في كل شهر

منهم علوفة قدرها ثلاثة وثلاثون قرشاً، كما ينال خمسة قروش كل من رئيس البوابين ورئيس من يسيرون الخيل وغيرهم والجلشنكير وأمير الأسطبل، أما أغوات الفاخل خمسة عشر قرشاً، وهم يأخذون علوفة غير علوفة القلعة ومن خدعة الامانة في المرفأ فلهم عوائد وفوائد أكثر من ذلك وإذا ما تعلق الأمر بالتجارة فلا بد من الزيادة.

وركبنا خيولنا من قلعة خرق أووا ومضينا جنوباً ربع ساعة ففى مضيق زرنا ضريح الشيخ مظلوم القطب العظيم، ولقد ظهرت له كرامات وكرامات أما مناقبه فلا تدخل تحت حصر ولم يقبل أن يقام له ضريح وإنما اكتفى برحمة الله، وقدم إلينا الباشا وأعيان الولاية الحيام والمطيع، وكنا لم نزل فى طريقنا وقد صدنا الغزلان والارائب وتناولناها.

وفى قول أن أربعين أو خمسين فلاحاً يجتمعون فى مكان وييقون فى الجبال خمسة أو عشرة أيام ليصيدوا الفيل ووحيد القرن والنمر فيحضرون جلد الفيل وسنّه وقرن وحيد القرن، ويأخذونها للإتجار فيها.

إنها ولاية عجيبة لقد شاهدت مدينة خرق أووا بتمامها وكان ذلك فى عيد الاضحى من عام ألف وثلاثة وثمانين، تم ذلك فى يوم واحد وقد تسلمت الإذن مع محمد أغا بمغادرة مدينة خرق أووا وسلكننا طريقاً على الساحل الشرقى للبحر الاحمر، وفى الصحراء أرض ذات أحجار واستغرق ذلك منا يومين، والعرب يسكنون فى جبل ووله فى الحبشة إنه أرض واسعة خصبة وهؤلاء القوم يسمون القوم القديسين، إنهم سبعة آلاف من الزوج إنهم عراة وفيها من الفتيات جميلات سمر البشرة ومن الفتيان لأن فى هذه الأرض مياه وغلدرنا هذه الأرض واتجهنا شرقاً.

أوصاف قلعة هندية

قدّم هذه الأرض قديماً ملوك الهند وأقاموا هذه القلعة إلا أنهم لم يبنوها محكمة متينة إنها من الحجر ومربعة الشكل، ومحيطها سبعمائة خطوة ولأنها مقامة على ساحل

البحر الأحمر فمياه البحر تتسرب إلى أساسها ولها باب خشبي يفضى إلى المرفأ وباب آخر يفضى إلى الجنوب ولها حاكم يحكم هذه الآيالة مع مائتين من أتباعه ويقدمون إليه أربعين كيساً في كل عام، لها قضاء قدر مائة وخمسين قرشاً ولكن نائب الباشا إمام قاض، وقد تم فتح هذه القلعة على يد أوزدمر باشا وله جامع صغير بلا منارة ومسجدان وبها بيوت، ورئيس القلعة ومن معه أتباع للباشا فيها وبها مخزن للأسلحة وعشرة مدافع ويسكن خارجها عرب وهم يجمعون بعض النباتات العطرية والفاكهة ويربون في كل خيمة من خيامهم خمسة من هررة المسك ثم غادرنا قلعة هندية وانطلقنا شرقاً وقطعنا ثلاث مراحل في أرض ذات أحجار وفي وقت الظهيرة بلغنا برج طوزله.

برج طوزله

إنه برج عظيم على ساحل البحر أقامها أوزدمر باشا، وبها نائب للباشا وبها ثلاث أسواق ومبرة وجامع ولا عمران غير ذلك والملح يرد إلى الحبشة منها، والتزامها في العام أربعون كيساً ويتحصل منها في كل عام حمل مائة ألف جمل من الملح وإذا انحسر ماء البحر بالجزر ظهر الملح الأبيض، وفي هذه البقعة مسكن قبيلة الرونجيه وعدد أفرادها عشرة آلاف، إنهم يجمعون الملح في التو والساعة ويصفون الملح أسفل البرج، ونجملوزنا هذه البقعة وانطلقنا شرقاً على ساحل البحر وشاهدنا خارج البرية، وفي شدة الحر لمدة ستة أيام شاهدنا الجبل الأسود.

أوصاف مدينة بهلوله الخرية

كانت مدينة عظيمة على ساحل البحر، بينما كان أوزدمر باشا يفتحها استولى عليها البرتغاليون فجعلوها خراباً يباباً وآثار أسسها ما زالت ماثلة وكان أهلها يسمون عبيره إنهم مائة وخمسون ألفاً، إنهم في نظافة تامة ولهم عبير العنبر ولكنهم قوم لا علم لهم بالمذاهب الأربعة وليس لهم ولا يعرفون الحشر والنشر ولا يعرفون الحديث ولا يعرفون ما ينهى عنه الشرع، إنهم يقيمون جميعاً في خيام بالصحراء ولا يعرف عددهم إلا الباري، ولكنهم على خلق عظيم كما أنهم عراة يسترون عورتهم بجلد، وفي هذه البقعة ميناء

عظيم يتسع لآلف سفينة، وليس فيها أثر للرياح ولا أثر فيها لليل، وهؤلاء القوم يطعمون الفرة ولحم الغنم والمعز والغزال والسجبل ويشربون لبن الخوق والبوزة ولا وجود في أرضهم للحصان ولا الحمار ولا وحيد القرن، إنها أرض ذات غابات، ولذلك يكثر فيها الأسد والنمر والفهد، إن هؤلاء القوم يشكون كثيراً من القردة، قائلين: هم يقاتلوننا على الدوام، ونحن عاجزون عن قطع شجر السنط والزقوم والأبنوس، وأنت القردة وأسرتنا ومضت بنا إلى الجبال، ولا خلاص من أيديها، فبعضها ينام وبعضها يتولى الحراسة، وقد وجدنا الفرصة لكن لم نستطع الخلاص، ومحاولات رجالنا أهلكت كثيراً من رجالنا فما لدينا أسلحة، وقالوا تقرر أن لا تغادروا هذه الأرض إنهم قردة ضخمة شديدة القوة، وإذا دخل الليل أغاروا على خيامنا وخطفوا الغلمان والبنات والنساء.

وخلاصة القول إننا عاجزون.

ونصحونا بمغادرة هذه الأرض فزايئناها في السحر، فانطلقنا شرقاً، وإن هذه القردة تركب نيس الجبل وعجل الجبل وتمضى بهم وكأنهم سادة وجميع الحيوانات تهاب وتخضع لهذه القردة، وقد رأينا من القردة ما تحمل حررة الجبل تحت إبطها وتطعمها، وكما رأينا منها ما يحمل صغارها فوق بطنها وتطوف بها في الجبال، ومنها قردة بيض أشبه بالعنزة البيضاء ذات الزغب تحت ذقنها إنها قردة جميلة وقد شاهدناها ثم مضينا لمدة ستة أيام في الجبال وفي الخلاء وعلى ساحل البحر وبلغنا زيلع.

أوصاف مدينة زيلع القديمة

أقامها ملوك الهند في الزمان الخالي، وفي عام ٩٣٨ استولى عليها أوزدمر باشا من البرتغاليين، إنها قلعة عظيمة ومرفأ قديم، وهذه القلعة تقع على صخرة في الجانب الشرقي للنيل، ومحيطها خمسة آلاف وسبعمائة خطوة إنها قلعة حصينة خماسية الشكل، وأنها مرفأ منقطع النظير ترسو فيه السفن والسفن تأمن عصف الرياح فيها، ولهذه القلعة بابان أحدهما من حديد وأحدهما يفضى إلى البحر والآخر يفضى إلى البر، ولها رئيس وسبعمائة من أتباعه وليس في الحبشة كثير من مثل هذه القلعة، وبها مخزن

للاسلحة وسبعون مديناً لأنها آخر حدود الحبشة وقد تجولنا من الحبشة إلى مدينة ريلع عند البوغاز حتى النيل، وجميع المدن على ساحل البحر في المغرب حتى مضيق سبته وجزيرة مصر في حورة البرتغاليين، وفي القلعة ثلاثمائة تابع، وفي كل عام تقدم إليه أربعون كيساً، أما إذا دخل مرقاً ريلع خضس أو عشر سفن هندية، وخمس أو عشر سفن برتغالية فيبلغ الجمرك خمسمائة كيس، وإذا انعقدت الصداقة والمودة والالفة مع الياشا تقدم إليهم اللؤلؤ والزبد والأبنوس. ومن الفيل وقرن وحيد القرن وبذلك يدفعون الجمرك عن رخصا وطواعية، وعندما وصلت كان نائب الكتخدا القائم مقام محمد آغا، وقدمت إليه سبع سفن برتغالية وألقت مراساتها تحت القلعة، ودفعوا أربعون ألف قرش جمركاً وكانت سفنهم تحمل الحرير والكتان والقطران والقطن، وفي هذه الديار يقدمون الماء المغلى للمريض ويطعمونهم القطران، ويدلكون به أجسادهم مرة في العام. وبذلك يتم لهم الشفاء، ويضعون في حيونهم للتوتياء ويسمون القلعة جبل قدرى، وقوم قدرى عندهم عظيم إنهم زنوج ولكن وجوههم كوجوه للتار وشعرهم متفرق لأنهم بواسل شديد يزرعون أرضهم وحدائقهم كثيرة للحصول وهم يبيعونه كما يصيدون الغنم والغزال والوحش وتبوس الجبل والجاموس الحبشى وهم يملحون لحم ما يصيدون ويبيعونه للفرغية في بواخرهم ولذلك يأتي كثير من البرتغاليين إلى هذه القلعة، وأهل هذه القلعة على المذهب القادرى ونساء ورجال خارج القلعة سبعون أو ثمانون ألف وهم يلبسون للثياب البيض الهندية، إنهم يعبدون النار ويحرقون جثث موتاهم ويعبدون النار ولا يعرفون الخالق ويقولون هذا ما رأينا آبائنا وأجدادنا عليه وهم لا يمشون وهم جتب بل يبلدون إلى الاغتسال، كما يغتسلون إذا طعموا أو قضوا حاجتهم، وأجسامهم وثيابهم لها رائحة العنبر والزبد والمسك، حسانهم حمر الوجوه وبيض وسود الوجوه، وفي الحبشة خستاء ريلع بعيدة الصيت وأستانهن كالبالكى ولهن نونه جميلة وبغضب جميله وهم نساء ظريقات لطيفات نظيفات طاهرات الذبول وهؤلاء القوم يتبادلون المبيع والشراء مع تجار الهند واليمن والبرتغال، والمخازن عند المرقا مفعمة بالنفائس، ولكن الترسانة خربة،

وهذا المرفأ ممتلئ بسفن جدة وسفن يتبع ومويلح وهذه السفن محملة بالبن من اليمن وحجاج المسلمين والسلع الأخرى، ولما شاهدنا هؤلاء الحجاج صاحوا، كأنما ارتدت إليهم أرواحهم كما أننا شعرنا بحياة خالدة تسرى في أجسامنا وهؤلاء في هذا المرفأ كلنوا جوعاً وحاجتهم إلى حبة واحدة، ولقد استراحوا أول ليلة في خيامنا ولقد قدمنا لهم ما استطعنا من نعم ومن الغد سار ستمائة رجل معنا لأننا كنا في صحراء وكلنوا معنا أحسن رفاق وقالوا لنمض، وفي يد كل منهم عصا وقد ساروا الهويثا وتبعناهم في سيرهم، وفي اليوم السادس بلغنا مرفأ جرزه.

مرفأ جرزه

لقد ظلت فيه سفينة ثلاثة أشهر وغرقت، ولقد خرج منها مائتا رجل وأصبحوا رفاقاً لنا، وبقوا من الغد إلى وقت العصر ثم مضوا وأركبوني ومحمد آغا جملين لهم وطوبنا المراحل حتى بلغنا منزل وادى حنفظه.

منزل وادى حنفظه

وفي هذه البقعة بالقرب من إريم يقيم عرب من قبيلة كنوز، فنادى محمد آغا نائب الكتبخدا شيخ عرب الكنوز واشترى هؤلاء الحجاج من عرب كنوز ألف جمل ومن الغد طوبنا المراحل معهم إلى وقت الغروب معنا ثم مضينا وبلغنا منزل سهريج.

منزل سهريج

إنها مدينة على ساحل البحر الأحمر خربة، وبها بركة عظيمة ولقد نزلنا ضيوفاً عليهم ليلة هطل فيها مطر الرحمة فملأنا قربنا من هذا الماء ومن الغد مضينا في الصحراء وبلغنا منزل وادى جانيج.

منزل وادي جانيج

كان البحر على يمتتنا ثم اتجهنا غرباً في صحراء وادي حلفه وفي جانبها الغربي أرض رملية وحجرية، وفي اليوم الخامس بلغنا قلعة إبريم بحمد الله سالمين فنحنرنا بعيراً وتصدقنا بلحمه، ولقد وصلنا من الحبشة في غرة جمادى الآخرة، ونزلنا ضيوفاً على رئيس القلعة بكر أغا وكانت إبريم في نظرننا جنة الخلد قياساً ببلاد أخرى كانها جهنم، ورأينا قوماً بيض الوجوه فشعرنا ببرد الراحة وأكلت خيلنا الشعير وأكلنا خبز القمح وقد حملنا الهدايا من السفن وهي التي أرسلها حاكم فونجستان إلى الباشا، وسلمناها إلى رئيس القلعة بكر أغا وقد أحسن المحافظة عليها ورعت خيولنا في الحقول، وأتى رفاقنا، ومنذ أتيت من ثمانية أيام، لم أستطع أن أنزل النيل كما أن الآخرين لقوا كل المشقة في الطريق ودخلوا مدينة إبريم، والله نحمد أننا جمعنا كل ما نحمل من أشياء في مكان واحد، واسترحنا في مدينة إبريم ثلاثة أيام، ووضعنا ما ثقل من أحمالنا في السفن وأرسلناها إلى جرجا ولقد كتبت مسودات رحلتى ولعلم من يطلعون عليها أن العلم الذي يشمل العالم لذوى النهى ليس مخفياً وليعلموا أن ما في رحلتنا هذه من أخبار وأحداث مستمدة من خرائط علوم الهيئة والأطلس والجغرافيا، وتواريخ القبط وتواريخ اليونان وعلم النجوم وبعض العلماء ذوى العقول الراجحة، إن سياحتنا في فونجستان والسودان وبربرستان وسودان كانت شاقة، ولكن عناية الله عمتنا، فما أبرئُ نفسى من تقصير، إنها موهبة إلهية، وفي عام ثلاثة وسبعين خرجت في حرب أويوار وبعد الفتح بعام تيسر فتح قلعتين، وبعد ذلك كانت هزيمة نهر راب ثم مضيت مع السفير قره محمد باشا إلى ألمانيا ثم إلى النمسا ومنها إلى ملك دونقارقيز ومنها إلى ملك الدنمارك، ومنها إلى ملك هولندا في أمستردام، ومنها إلى ملك بوهيميا ومنها إلى ملك دانصقه ده له، ومنها إلى ملك قراقو، وبعد عامين ونصف بلغت السلطان محمد كراى سلطان القرم، ومكثت عنده شهراً، وقد عزله آل عثمان عن خانية القرم وأحل محله ابنه جويان كراى، وقد عبرت مع محمد كراى جركستانه فبقى محمد كراى خان في ديار ملك داغستان،

وبناء على أمر أصدره السلطان محمود ركبت من دَمَرِ قَبُو في سفينة فارسية، ومضيت إلى قلعة ترك في ولاية موسكو وشاهدت في ولاية موسكو ستاً وسبعين قلعة، وصل محمد باشا إلى قلعة أراق في اليوم الأربعين من شدة زمهرير الشتاء، وقد عزل كذلك عن قلعة أراق في هذا الأسبوع فدخل القرم، ومع آق محمد باشا فتح أدرنة، ومعى دخل مورية، ومع قبلان باشا دخلنا قلعة نبولى، ومضينا في جزيرة كريت إلى قلعة خانیه ومع الوزير فاضل أحمد باشا فتحنا قلعة قنديه فى ثلاث سنوات، وتيسر لى فتح أراق ثم فتحت ولاية عمانیه على يد قبودان كوسه على باشا، ثم مضينا إلى سبوت ثم استانبول ومنها إلى مكة المكرمة ثم مصر وبرسالة وزير مصر إلى فونجستان ثم إلى الحبشة ثم دخلت البريمه، ووالله أنى طوفت فى ممالك تسع ملوك فى أحد عشر عاماً، وهذا من فضل ربى رب العزة أنى وصلت إلى فونجستان وبربرستان وما ضقت ذرعاً لحظة بهذه الرحلة، وكنت فى صحة وعافية، ومن مدينة إيريم ثم ودعت خيلانى وأحبابى وركبت السفينة فى النيل إلى الجانب المواجه لأن فى ذهابى إلى فونجستان شاهدت الضفة الشرقية للنيل ولذلك شئت أن أشاهد الضفة الغربية.

بيان بالقرى والقصبات والمدن التى شاهدتها

فى رحلتى من إيريم إلى مصر

وبينما سرنا على ضفة النيل الغربية فشاهدنا سبع قلاع خربة فتجاوزناها فرأينا على شاطئ النيل بلدة سبوع وقد بناها كهنة فرعون بالسحر وفيها تماثيل من حجر أسود، وهى تحت حكم إيريم وفيها مائتا بيت من قصب وجامع، وعلى ضفة النيل طوينا ست مراحل وفى قبائل كنوز العربية كنا نشرب ماء النيل ونأكل لحم الجمل ونشرب لبن النوق ونطعم خبز الذرة، فطوينا المراحل وإن قبيلة كنوز تتألف من عشرة آلاف مسلم عربى أبيض البشرة، وهم يتحدثون بالعربية وهؤلاء القوم على علم بالحشر والنشر وعلوم الشرع والحديث الشريف، ومنهم قبيلة أخرى تسكن الضفة الشرقية للنيل وعددهم قليل ومرعاهم ضيق ولكن من يسكنون الضفة الغربية منهم بلادهم نهايتها المغرب وهم كثير

ولهذه القبيلة على ضفة النيل على ستة مراحل خمس وعشرون قلعة خربة ولكنها لو رمت لكانت قلاعاً عظيمة، وهذه القلاع لكهنة فرعون ولهم أيضاً قلاع ولاية إلى، وبينما كان هارون أخو موسى - عليه السلام - وزيراً له قدم إليها مع جند الإسلام^(١)، وفتح كل تلك القلاع وهزم الفراعين وسوى قلاعهم بالأرض هدمًا، وفي هذه الأرض عجائب وغرائب الآثار، ولو كتبنا عنها لاقتضى ذلك منا طوماراً كبيراً، وفي اليوم السابع شاهدنا قلعة طومانس.

قلعة طومانس

ليس لها رئيس ولا أتباع وقد أقامها عرب كنوز وبما أنهم لا يستطيعون الهجرة فإنهم يسكنونها، وهذه البقعة هي حد لكاشفية إيريم وهي قضاء إسنا وبعد تسع ساعات بلغنا بلدة رقة.

بلدة رقة

تقع على الضفة الغربية للنيل، وبها ستمائة بيت من حصير وجامع قديم بلا منارة، وغادرناها شمالاً على ضفة النيل، وبلغنا قبيلة عربية هي قبيلة قارح وهم ستة آلاف من العرب بيض البشرة، إنهم رُحَّلٌ يقيمون الخيام، وكلهم مسلمون موحدون، ومضينا عنهم وبعد ست ساعات بلغنا بلدة حمام فرعون على ضفة النيل، وهي في حكم إسنا وبها ستمائة بيت من الحصير وجامع، ولها حمام كان فرعون بداخله على الدوام ثم ابتلى من بعد ملك القبط بمرض الجذام، ولما كان يداوم على دخول هذا الحمام شفى من مرضه، إن هذا الحمام يشبه طاق كسرى، وهو حمام مشهور في جميع الآفاق ومن جدرانها تفوح رائحة المسك والعنبر، ومضينا عنها وبعد ست ساعات بلغنا جزيرة باجه.

جزيرة باجه

إنها جزيرة عظيمة في النيل وهي كثيرة الأشجار، وفيها جماعة من العرب هم بنو حمام كما أن في الجزيرة معادن مختلفة، ولكن لا يعرفون كيف يستخرجونها، وهذه

الجزيرة تسمى جزيرة الشلالات، وقد سبق التعريف بها، وسرنا أربع ساعات من بعد على ضفة النيل.

بيان قلعة اتزو

إنها فى حكم إسنا وهى بناء قديم على ضفة النيل وليس لها رئيس ولا أتباع له وهى بناء محكم ركين، ولها باب، وهى مربعة الشكل ومحيطها ألفى خطوة فيها مائتا جندي وثلاثمائة بيت من قصب وجامعان وثلاثة مساجد إنها تقع فى التزام إسنا وليس بها سوق ولا حمام ولا خان، ولكن حدائقها كثيرة، وغادرناها وبلغنا قبائل هجيزة العربية.

قبائل هجيزة العربية

إنها ثلاثمائة من العرب على المذهب الشافعى وهم يقيمون خيامهم فى هذه البقعة ويرتحلون، وهم قبائل مشهورة وقدم لنا شيخها ناصر على طعاماً ومضيئاً عنها وفى وقت العصر بلغنا قبيلة العرب الجعفرية.

إن عدد أفرادها تسعة آلاف وهم يقيمون فى تلك البقعة وشيخهم يسمى شمير الدين وفى عينه فتيل وعندما يخرجونه يضعون فتيلاً آخر فى موضعه ويقولون إن عينه أخرجت من قفاه فهى مثقوبة إنها جرح من رمح، يا له من شيخ عظيم بعيد الصيت بأسل، لقد نزلنا عليه ضيوفاً ذات ليلة، ثم انطلقنا ست ساعات على ضفة النيل وبلغنا بلدة كلج.

بلدة كلج

بها مائة وخمسون بيتاً وجامع، ومضيئاً تسع مراحل شمالاً على ضفة النيل فبلغنا قبيلة بصلى العربية، عدد أفرادها ثلاثة آلاف وكل عملهم أن يزرعوا البصل، لذلك أطلق عليهم هذا الاسم، إنهم مسلمون عيونهم تدمع على الدوام لأنهم يكثرون من أكل البصل ويضعونه فى غابات النخيل ويرحلون، وقبيلة هواره على عداء معهم، ولهؤلاء القوم طائفة فى جزيرة الشلالات، والشيخ صيَّاح يسكن عندهم، وهو قطب عظيم، وغادرناها وسرنا ست ساعات فبلغنا أسنا.

أوصاف قلعة أسنا

إنها كاشفية أخرى لجرجا وتقدم إليها في كل عام أكياس المال والغلال ومحاسبتها في ديوان جرجا ولكاشفها مائة تابع، وله سبع فرق ولهم غلال من الباشا في كل عام، وقضاؤها مائة وخمسون أقبه وتتبعها ست وسبعون قرية يتحصل منها كل عام ألف قرش ولها قلعة مربعة عظيمة على شاطئ النيل، كما أن بها خمسمائة بيت وأحد عشر مسجداً، وقد أقام هذه القلعة عمرو بن العاص عندما فتح مصر، ثم أقام جامع عمر، وهى على غرار جامع عمر في قنا، وليس بها خان ولا مدرسة ولكن بها بضعة دكاكين وحانة للبره، ومقهى، ويقع في غرب أسنا أرض خصبة وهناك يسكن قبائل الهجيزة، وقبائل الجعفرية وقبائل مطحنة، وإذا ما اشتد زمهرير الشتاء رحلوا إلى جبل الزمرد، وأهلها يتميزون بالجمال لا اعتدال جوها، وفيها ضريح يزار منذ قديم الزمان، وقد ضرب الحصار عليها عمرو بن العاص بخمسين ألف جندي حين فتح مصر ودام هذا الحصار سبعة شهور وقد تم فتحها بعد حرب ضروس، والخطيب في جامعها يعتلى درجات المنبر ومعه سيف، وقد استشهد في تلك الحرب ستمائة من الصحابة الكرام وقبورهم معروفة وعليها أسماءهم، ولكن ليس في الإمكان أن نذكرها لأن ذلك شرحه يطول، ومضينا على ضفة النيل وبلغنا ضريح الشيخ صنيع.

هذا الضريح يتردد الناس عليه لزيارته، وفي غرب مدينة أسنا على مسيرة نصف ساعة ضريح حمزة وفيه ثلاثة قبور، ومن في هذه القبور من أبناء حمزة، ولا نعرف أسماءهم، وعلى مسيرة ثلاث ساعات شمالاً بلغنا بلدة أسفون.

بلدة أسفون

إنها بلدة في أرض أسنا وفيها مائتا بيت وحدائق ونخيل وجامع، وعليها أوقاف للسادات في مصر، ومضينا شمالاً ومررنا بقبيلة مطعه، بعد أربع ساعات بلغنا:

بلدة زيق

وبها مائة وخمسون بيتاً وفيها حدائق ونخيل، وبها ركن من وقف الإسكندرية وبها جامع معمور، ومضينا خمس ساعات شمالاً وبلغنا بلدة أرمن.

بلدة أرمن

إنها قرية من النيل بها مائة بيت وجامع، وأهالي هذه البلدة مواظبون على الصلاة وهم على المذهب الشافعي، وكانت مدينة غاية في العظمة وقد كتب عنها كثير من المؤرخين، وفيها ولد موسى - عليه السلام -، وخوفاً من بطش فرعون ثبت موسى في لوح وألقى في اليم، وكان من حكمة الله عندما مرّ موسى أمام قصر فرعون أن اتخذت آسيا زوجة فرعون موسى ولداً، ورأى فرعون موسى وأعجبه من موسى حركته؛ فصمت. ولذلك تواريخ وقصص كثيرة، في تفاسير الطبري وغيره فلا حاجة بنا هنا إلى ذكر ذلك، وسبب تسمية هذه المدينة أرمن أن جد موسى لأبيه اسمه أرمن ويسكن هذه المنطقة الآن اليهود والقبط، ويزورون ضريحه في الكهف وبذلك سميت المدينة بأرمن، وكان لأرمن ابن يسمى هرم ولابنه ولد يسمى حنام فمضى حنام هذا إلى ديار ماهان، وهناك أصبح له الملك فيها وولد له ابن فسمى ولده أرمن على اسم جده، وأصبح أرمن هذا ملكاً مستقلاً للأرمن ولذلك نسب الأرمن إلى موسى وأرمن، ثم جاوزناها ومضينا على ضفة النيل نظوى المراحل بين القرى المعمورة على جانبي النيل لمسيرة ثمانى ساعات، وبلغنا بلدة قورنا.

بلدة قورنا

هذه البلدة هي حدود أسنا كما أنها حد جرجا، وأهلها جميعاً يسكنون الكهوف إنهم قوم بيض الوجوه، وهؤلاء القوم استشهدوا على يدي هولاء في زمن المستنصر، وبعد أن خرب هولاء مدينة بغداد، ولما استولى هولاء على المدينة فر المستكفي بالله منها إلى مصر، فجعل له الظاهر بيبرس بالقرب من أسنا موطناً له؛ ولذلك تسمى البلدة قورنا، وقد قدم أهل قورنا إلى المدينة الجديدة وسكنوها وقد قدموا بأموالهم وأوراقهم، وزرعوا الأرض وعمروا البلدة، وكل مغاراتها من بناء سيف بن ذى اليزن، ومن دخل هذه الكهوف أخذه كل العجب، إنها من حجر، وفيها مقرنصات بدیعة، إنها من عجائب الدهر، وفيها قصور وقاعات ومطابخ واسطبلات من شاهدها أخذه كل

العجب، لقد كانت جميع الأحجار طوع هؤلاء القوم منذ الزمان الخالي، وبعض هذه الكهوف يسكنها العرب كما أن أغنامهم وعجولهم تأوى إلى هذه الكهوف، ثم مضينا على ساحل النيل خمس مراحل، وبعد ست ساعات بلغنا بلدة نقاده.

بلدة نقاده

بناها مصريين، من فراعنة مصر ويسمونه أبا القبط وهو حفيد نوح، وهو الذى بناها بعد الطوفان، وأصبحت مدينة متراجبة الأرجاء، وآثار أبينتها للآن، بها من الخراب ما يتجاوز ثلاثة أمثال ما فى مصر، وبهذه الأرض خمسمائة بيت هى وقف وجامع وزاويتان وهذه المدينة نصف مسلمون والنصف الآخر قبط، وشددنا رحالتنا على شاطئ النيل لنجتاز فى صحراء متراجبة الأرجاء، وبعد ثمانى ساعات بلغنا بلدة دندره.

بلدة دندره

إنها فى حكم جرجا وفى ناحية فرشوط، وهى بلدة معمورة كأنها إرم ذات العماد، بها ألف بيت وجامع وتجاوزناها فى أرض رملية حجرية وبعد سبع ساعات بلغنا قسبة به هو.

أوصاف قسبة به هو

إنها كاشفية أخرى لجرجا وليس فيها جند ولا قائد ولكن كاشفها يحصل فى كل عام للسلطان عشرين كيساً من المال و (١) أردب من الغلال، وبها باشا لاستعجال الغلال، إنها قضاء فرشوط، ولها حدائق جميلة تشبه حديقة إرم، كما أن بها ألف بيت وسبعة مساجد وجامع ذو منارة وسوق ومقهى وحانة للبيرة وداران للضيافة، وليس فيها حمام ولا سوق للبز، والتمر فيها وفير من عجائب هذه المدينة أن فيها شجرة فى غرب المدينة هى شجرة سبط وقد تحطم جذع هذه الشجرة، وسقطت بعض أغصانها على الأرض، ولكن بنيت من جديد هذه الأغصان، فأورقت هذه الأغصان وأثمرت ما ليس له مثيل، وإذا جاء الخريف وهطل المطر سقطت هذه الأغصان على الأرض وإذا جاء الربيع تبدأ تورق غصونها ثانية وما وجد على ظهر الأرض شجرة لها مثل صفاتها

(١) بياض على الأصل.

ويقول الشيوخ من أهل تلك المدينة إن هذه الشجرة وجدت منذ ألف عام إن رجلاً جنباً حمل غامساً وأراد أن يقطع هذه الشجرة، وأصبحت أوراقها مثل أوراق الخريف وتسقط بعض أوراقها من الخوف، وفي التو تبقى أخصانها على حالها، وأهل الصعيد لا خبر لهم عن هذه الشجرة، بيد أن الأقباط يعرفون هذا من أخبارها، بل إن بعضهم هم الذين مضوا معي كي أشاهدها، إنها دليل على بديع وغريب صنعه عز وجل، ولقد شاهدتها فإنها تستحق المشاهدة، وغادرنا هذا الموضع وسرنا خمس ساعات على شاطئ النيل وبلغنا قصبة فرشوط.

أوصاف قصبة فرشوط

إنها في حكم جرجا إنها كاشفية أخرى تؤدي مالا وأكياساً أخرى ويحصل مائتان من سكانها الأموال، ولهذا جند من الطوائف السبع وقضاؤها مائة وخمسون أفقه وتؤدي في العام خمسمائة قرش، لأن أهلها من عرب الهوارة الطيعين، ولشيخهم ولد واحد اسمه على، وله ثلاثة آلاف من الفرسان من الهوارة، وعلى شاطئ النيل ثمانمائة بيت بين الحدائق والنخيل، ولها أحد عشر مسجداً، وجامع كما أن فيها بضع أسواق صغيرة ومقاه، وحانات للبوزة، ولكن ليس فيها مدارس ولا حمام، أما علماء فرشوط فهم كثرة، ومنهم المفسرون والمحدثون وأكثر من ألف مصنف كما أن منهم مؤلفون من صالحى الأمة، وفي مصر شهرة واسعة للعلماء الغمراويين والفرشوطيين والاسيوطيين، ولاعتدال الجو فإن الشيوخ والشبان راجحة عقولهم كما أن الصبيان الذين يتعلمون في المكاتب أذكىاء مجتهدون، وأصل تسمية فرشوط أن نوحاً - عليه السلام - قدمها بعد الطوفان، وقد وهب هذه الأرض إلى فرشوط بن مصرايم بن بيطار بن حام بن نوح، وقد عُمِّرَ فرشوط هذا ألفاً ومائة سنة وعندما مضى إلى بلاد فونغهستان، بنى مائة وأربعين مدينة ومن هذه المدن مدينة فرشوط وكيانت قديماً مدينة جميلة، وما زالت آثار أبنيتها ماثلة للعيان، وغادرنا هذه المدينة ومضينا على ساحل النيل خمس ساعات وبلغنا قصبة سمتهوط.

أوصاف قصبة سمنهوط

إنها مدينة عظيمة بناها سمنهوط وهو حفيد نوح لابنه بيطر، إلا أن هذه المدينة على مر الأيام تلاعب بالاستيلاء عليها أبناءه فأصبحت مقراً لأعشاش البوم، والحمام، إنها كاشفية تابعة لالتزام جرجا وتقدم عشيرة أكياس من المال وستمئة أردب من الغلال ولها أغا لاستعجال الغلال، ولكن ليس لها جند من سبع طوائف إلا أن كاشفاً يحكمها مع مائة من رجاله، ويحصل المال، ولها قضاء في ناحيتها، والمدينة على ضفة النيل إن فيها حدائق ونخيلاً وكأنها جنة عدن، وفيها ألفا بيت وسبع محلات وعشرون مسجداً وثلاث جوامع كما أن فيها كثيراً من الأسواق الصغيرة ومقهى وحانة للبوزة، وليس فيها مدرسة ولا حمام، وكلهم من الهواره، ونواحي هذه المدينة الثلاث أرض كثيرة الزرع ففيها القمح والفلول والشعير لأن جوها لطيف، وبها خيول فارة والمغارات التي في جانبها الشرقي بينها مغارة عظيمة.

أوصاف هذه المغارة

ومن عجب أن في تلك المغارة بذور كتان تكوم من ألف عام وحجم هذه البذور كحجم حبة الفول في يومنا هذا، إنها بذور كبيرة للكتان، ولم يوجد من مضى على هذه المغارة من أجل بذور الكتان، وإذا ما رآها خرج سالماً، أما إذا قصد أن يأخذ بذرة من هذه البذور جاءت حشرات فأكلت جسده، ولم يبق منه إلا العظام، ولما كنا في هذه المغارة أتت جاموسة إلى الغار فلما بدأت تأكل بذور الكتان قدم صاحب هذه الجاموسة، فرأى أجتاساً من المخلوقات قد دنت عليها والتهمتها بتمامها، فخرج من الجاموسة إنسان وسد باب المغارة عدة مرات ثم بنى جداراً كأنه ترس، يا له من منظر عجب وما أكثر العجائب والغرائب في هذه المدينة لقد شاهدت هذا فمضيت أربع ساعات في أرض مستوية على ضفة النيل مع نائب الكتخدا محمد أغا، وبلغنا قصبة برديس.

أوصاف قصبة برديس

إنها نيابة جرجا يحصل غلالها أغا جرجا، وهي كاشفية يحكمها كاشف مع خعسين من رجاله، ويجمعون الغلال من أربعين قرية ويبقى منها عشرة أكياس، وليس فيها

جنود مستحفظون، إنها قصبة على شاطئ النيل كثيرة الحداثق والبساتين وبها جوامع ومساجد وأسواق صغيرة، ولكن ليس فيها خان ولا حَمَام، وجميع أهلها من قبيلة الهوارة وشيخها ابن أبى مؤذن بينما كنا عنده نحارب ابن الشيخ على ابن المؤذن مع أخيه حرباً ضروساً أمام أعيننا، فقتل سبعة مائة رجل وفى التو واللحظة تعانق أهل القيلتين، وتصلحوا وانصرف عن القبيلة الفزع والجزع فحملوا القتلى على الخيل والإبل، يا له من منظر عجيب، ولا سئلَ عن هذا الحاكم، وكأنما هذه الحرب كانت قانوناً قديماً، ولم يتشاوروا فيه وغادرنا قصبة برديس وعبرنا حوالى مائة بلد من قبيلة الهوارة، وفى الساعة الخامسة بلغنا مدينة جرجا.

أوصاف جرجا المدينة العظيمة

نزلنا فى قصر البك، والتقينا بأصدقائنا وأحبائنا، وأحضرنا الهدايا على الجمال والخيل، وقدمناها إلى العرب لتربيتها وبسطنا إلى بك جرجا رجاءنا بالسماح لنا بالمضى إلى ولاية الواحة، فقال على الرأس والعين وكان معنا خمسون رجلاً تحمل المؤن.

طوبنا المنازل من جرجا إلى ولاية الواحات، فغادرنا جرجا واخترقنا الصحراء غرباً وسرنا فى أرض غير ذات زرع، ولا ماء فيها، وطوبنا منازل وسرنا فى خمسة أيام بلياليها وبلغنا الواح.

أوصاف (الواح) تلك المدينة القديمة

يقال إن أول من بنى هذه المدينة قبل طوفان نوح حاكم مصر نقراوش، وأنه كاهن عظيم بنى سبع مدن تسمى أمسوس، وقد عمر مائة وثمانين عاماً، وبعد وفاته خلفه ولده انتراش وكان كأييه ساحراً ماهراً، وعمر ثلاثمائة عام، إنه أول من بنى مدينة الواح وتولى الملك من بعده أخوه مصرام، وكان كاهناً عظيماً حكيماً وقد عمر مدينة الواح حتى أصبحت أعظم من مدينة أمسوس، وبعد الطوفان أصبحت خراباً يباباً، وبعد الطوفان وجد ابن كنعان بن نوح جثة أبيه كنعان فى مدينة الواح فدفنه فى أرضها، وقد

عمرها بولجان بن كنعان بن نوح، وفي غرب مدينة ألواح جبالاً حمر، ويسمونها جبل كنعان، وكنعان مدفون في صخرة بها، ويتردد كثير من القبط على قبره لزيارته، أما المسلمون فيمتنعون من زيارة قبره لأن كنعان الابن الرابع لنوح إلا أنه لم يركب السفينة مع أبيه نوح النجى وارتد، وغرق في الطوفان ومات كافراً، إنه مدفون في مدينة ألواح ولذلك منعت زيارة قبره، إن مدينة ألواح تقع في صحراء مترامية الأطراف إنها لطيفة الجو وفيها ماء وفير ونخيل وحدائق، وفيها ألف بيت صغير كما أن فيها جامعين وستة مساجد، ومقهى وحانات للبوزه ولكن ليس فيها خان ولا حمام وسوق كبيرة، ولكن يجتمع خلق كثير في ألواح كل أسبوع ويبسعون ويشترون بالعملة الذهبية والمقروش، إنهم يؤلفون جماعة عظيمة وحاكم ألواح هو الكاشف الكبير، وله قائم مقام، ولألواح قاض ونائب يحكم، وليس لهذه المدينة قلعة ولكن حولها خندق يحميها كما أن لها سوراً فيه سبعة أبواب، يوصل البوابون هذه الأبواب ليلاً، وأبوابها من خشب النخيل، والبوابون والحراس يغلقون هذه الأبواب، لأنهم يخشون عادية عرب الصحراء غير أن بوابي هذه الأبواب حراس مهرة، وبلغ الأمر من شهرتهم وبراعتهم أنهم يختارون كذلك بوابين وحراساً في مصر لقصور مصر وقصر الكتخدا والديوان والقلعة، حتى أن عمرو بن العاص حين فتح مصر أحسن إلى هؤلاء البوابين بل إن السلطان سليم حين فتح مصر اختار بوابي ألواح حراساً لأبواب مطبخ القلعة وباب ساقية القصر، وقد تولوا حراسة القلعة، ولما دخل العثمانيون مصر كل ذلك وقت المغرب رفع الأذان ورفعت الأعلام البيض على سبعة وسبعين برجاً من أبراج القلعة وقرعت طبول آل عثمان هنا وهناك، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها امتلأت القلعة، لذلك تم فتح قلعة مصر وثمة فرمانات لسليم خاصة بهؤلاء البوابين لأنهم منذ قديم كانوا بوابين وكانوا يتولون ذلك كإبراً عن كابر، وكان هؤلاء البوابون يتقاضون رواتب من الحكام والكاشفين، وكان ذلك طبق قانون سليم، وتقاريره تشهد بأن خمسين ألفاً منهم كانوا يقومون بالخدمة وكان يأتي البوابون من ألواح مرة كل ستة أشهر ويمضي القدماء منهم، وهم إلى يومنا

هذا يؤدون خدمتهم، إنهم معروفون باستقامتهم وتقواهم وحيد سجاياهم، وسبعة من الواحات في حكم جرجا إلا أنهم كانوا قبل ذلك في حكم منفلوط وكانوا يلبيسون الخلع من قبله ومنهم من كان يصبح كاشفاً لأنه كان في منفلوط جمر عظيم، وفي كل عام كانت مئات الآلاف من الإبل والغنم والبقر تأتي من الواحات ويحملها العرب ويعلم بذلك كاشف الواحة، فمع ألف من العرب وحاملي البنادق يقابلون القوافل القادمة من الولايات، يقضون عليها ويأخذون كل شيء من أمتعتهم ويسجلونه في دفتر ويقدمون هذا الدفتر إلى كاشف منفلوط ويعلمون ذلك فينال التجار بناء على ما جاء في دفتر كاشف الواح ينالون العشر، فيجمع المال ولذلك كانوا تحت حكم كاشف منفلوط، ولكن ذلك كان في إيالة جرجا وكان لحاكم جرجا العشر من القوافل الآتية إلى جرجا وذلك طبق القانون القديم، لقد شاهدت مدينة الواح وتناولت الغذاء مع قائم مقام الكاشف فأرسلت خمسمائة قرية ماء إلى الغرب من الواح، وفي اليوم الأول ونحن نهرب الصحراء عصفت ريح السموم فغطينا طعامنا بقرب الماء فحفظناها فرأينا بعد أن نحض فنظرنا فلم نجد قطرة ماء في قرية، وقال رفاقنا شكراً لله أن مدينة الواح الكبرى قريبة ولو أن ريح السموم هبت علينا عند خروجنا من مدينة جرجا وقطعنا المراحل ستة أيام لما بقى شيء من الماء لدينا ووردنا موارد الهلاك جميعاً، فقالوا الحمد لله أن مدينة الواح الكبرى قريبة وفي وقت العصر بلغنا مدينة قليمون.

أوصاف مدينة قليمون

بأنها هو كاهن من كهان قليمون؛ ولذلك يسمون هذه المدينة باسم قليمون الحكيم، هذا وبعد الطوفان كان لبيطر بن حام أبو القبابط ثلاثون ولداً كان أكبرهم مصر، وأبو مصر وهو لبيطر بن حام مات في الطوفان فدفنوه في جبل بجانب الهرم فاستقل ابنه مصر بمصر ملكاً، وكان له تسعة وعشرون من الأخوة فوزعهم على أقاليم مصر فعمروها، وبعد الطوفان بألفين وستة مئة هلك ملكهم مصر وأدرك مصر الموت، ودفن إلى جانب أبيه لبيطر في جبال الهرم، وكانت جبال الأهرام هذه إلى عهد إبراهيم -

عليه السلام - مزاراً للخاص والعام، وبعده ملك مصر الملك قفط ولم يكن من ذريته، فظهرت لغة القبط، وقدم هود - عليه السلام - في عهد قفط هذا وبناء على تعاليم هود - عليه السلام - بنى قفط مدينة ألواح وجعلها مدينة مثل إرم ذات العماد وقد حكم الملك قفط أربع مائة وثمانين عاماً ثم مات فدفنه هود في الهرم وبني كذلك في وادي القري بالقرب من المدينة بالقرب من صخرة ناقة صالح مدينة سكنها، ولذلك فإن حجاج الشام يسمون هذه المدينة مدينة هود ثم نقل الملك قفط ملكه إلى أشمون، وقد بنى أخوه مدينتي ألواح الكبرى وأشمون وعمرها وما زالت في خرائب ألواح الكبرى أبنية للملك قفط والملك أشمون وهناك تواريخ لها بالخط القبطي.

إن هذا الشيخ الفاني رأى عديداً من عرس الدنيا.

وبعد أن فتح مصر عمرو بن العاص واستولى العثمانيون على مصر من يد الشراكسة والآن يوجد من قبل خيره بك المنفلوط كاشف آخر وهو يؤدي في كل عام سبعين كيساً، ولكن ليس ثمة أغا للغلال ولهذا الكاشف من مستحفظي الطوائف السبع مائة فارس وألف فارس من العرب وله سبع مدن في الواحات، وذكر هذا في موضعه، وغير هذه الواحات السبع لا وجود لقري ولا قصبات وفيها أرض زراعية وحدائق كثيرة ويفيض للكاشف في العام مائة كيس وإذا قدم التجار وكان الطالع طالع نحس ولم يأت الجلابه يتحصل من جميع الحدائق عشرة أكياس، وهذه الواحات قضاءها مائة وخمسين أقبه، ولها شيخ إسلام ونقيب أشراف وشيوخ على المذاهب الأربعة، ولكن ليس فيها أعيان ولا أشراف والفقراء فيها كثير، في داخل هذه المدينة وخارجها في الصحراء آثار كثيرة، وبها آلاف الطلاس كما دفنت فيها كنوز وكنوز، وعلى الأحجار والصخور علامات متعددة وإلى يومنا هذا يستخرج المغاربة هذه الكنوز الدفينة وليس ثمة من يمنع ذلك وعلى كل كنز يهلك آلاف مؤلفة من أهل الهند والسند يهلكون وترقد جثثهم تحت الرمال، إن المعادن في تلك الأرض لا يعلم كثرتها إلا الله - سبحانه وتعالى - ومن هذه المعادن حجر الشب الأحمر والتراب الأحمر والزاج والزرنيخ وحجر الكلس وحجر

الفرح وحجر اليرقان، والحجر البلغمي وحجر البلاط وهو حجر لين، وينشر بالمنشار قطعاً قطعاً وهم يتضدّون به أرض البيوت والحمامات وبعد أن يمر عليه الهواء يصبح صلباً وكذلك معدن الرصاص والذهب والفضة والكبريت والنفط والقطران غير أن القوم لا يعرفون كيف يستخرجون المعادن ولكن لهم محاصيل أخرى كثيرة، ولا وجود للحديد ولا النحاس فيها ولكن لديهم مياه كثيرة، وإذا ما طلب أحد ماء حفر الأرض فيخرج منها ماء عذب ويسقط الماء من فم الغنم، وإذا حفرت الأرض وظهر الماء حمل إلى الحدائق ليرويها، إن الماء العذب غزير وفير، وبعض هذه المياه مسهل وبعضها قابض وبعض هذه المياه مثل الخل يضعونه في الحساء، وهو حامض في غاية الحموضة، ومن المياه ما هو ماء ملح وهم يضيفونه إلى الطعام، ومنها ماء أحمر اللون ومنه يخرج سمك النيل وإذا مسحت الجراح ببعض المياه اندملت وشفيت، ومن حكمة الله أن هذه المياه متغيرة فلكل ماء طعم ولون وخاصة (يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته)، وأهل الفرنج يصنعون من هذه المياه، الزجاج والصفير والنحاس الغليظ وهم يضعون كل ماء بما له من خاصية في جرار يرسلونها إلى مختلف البلاد وهذه المياه لا تصيبها الكدرة ولا يلحق بها تغير في يوم من الأيام، وكان معنا رفيق يركب وحيد القرن وهو درويش ولما مسح وجهه بالماء أبيض وجهه ولحيته ولما سأله عن سبب بياض لحيته، وكنت أنظر إلى اللحي لأرى، وقد توضأت، وتساءلت عن أثر الوضوء فقال إن مسح لحيتك بهذا الماء منظر عجب فإذا سرق اللصوص خيولاً أو أنعاماً وكان لونها أسود أو أحمر غسلوها بهذا الماء فأصبح لونها أبيض، وبذلك تمكنوا من بيعها دون ما خشية أن يفتضح أمر سرقتهم، وتلك خاصية لهذا الماء وكان عندي فلو غيرت لسونه إلى الأبيض بهذا الماء فغسلته به فصار لسونه كلون اللبن وفي ولاية الواحات سبع مدن بين كل مدينة وأخرى مسيرة يوم واحد وفيها حدائق وبساتين ومزارع، ولكن ولاية الواح الكبرى معمورة لأنها عاصمة الحاكم، وفيها قاض وأعيان، وسبب تسمية هذه الديار بالواحات أنه قد بناها كنعان بن نوح وله بنتان إحداهما تسمى كنسه والأخرى تسمى

حديه وقد وجدنا مع نوح في السفينة عند الطوفان، وكانت لهما النجاة إلا أن أباهما هلك فانطلقا إلى الجبال فنقلتا جثة أبيهما على ألواح ودفنتا جسده في غار فشعب السلوان قلبهما ولكن داما على حزنهما عليه ليل نهار وذهب بصرهما وتمثل لهما إبليس في هيئة شاب وسألهما قائلاً أنتما من بعد فراق أبيكما في بكاء ونحيب أتريدان أن تشاهدا أبكما في التو؟ وأخذ إبليس لوحاً من ألواح أبيهما وصور على تلك اللوح صورة لكنعان أبيهما، وكان كنعان حي وحملت البتان هذه الصورة إلى دارهما وكانتا إذا نظرتا إليه وجدتا الصبر والسلوان، ودامت حالهما على ذلك مدة مديدة حتى أدركهما الموت، أما أولادهما فقد عبدوا هذه الصورة التي على اللوح فأصبحوا من عبدة الصنم، ولذلك سميت عبدة الأصنام، باللوحية نسبة إلى عبادتهم هذا اللوح، ولذلك سميت هذه المدينة بالواح، وهذه اللوحة في كنيسة على شاطئ النيل في الضفة المقابلة في كنيسة لرهبان من القبط، وتسمى الكنيسة دير أم على وهم يعبدون هذه الصورة وأقاموا أصناماً مثل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وعبدوها فعبد الكفرة هذا اللوح إلى الآن، وقد رأينا إبان سياحتنا أن الكفار يعبدون الصورة وإذا ما سب الكفلر سب بأنه يؤمن باللوح، ولقد كانت عبادة الألواح هذه باغواء من إبليس، وفي جوانب مدينة ألواح الكبرى الأربعة قلاع، ولهم رؤساء وجنود ومدافع، إنها مدينة تقع في صحراء مستوية ويوتها جميعاً مكسوة سطوحها بالتراب والكلس وبها مساجد وجماعات لهما مثذنة، وليس فيها حَمَام ولا ملسومة ولا تكية ولا خراف ولا مبرة، ولكن فيها أسواق صغيرة ومقهى وحانة للبوذة، وليس فيها سوق للبخ ولقلاعها أبواب متينة وليس فيها أبنية مكسوة بالرصاص ولكن بها آثار لعمران قديم لا يعلم حصرها إلا الله؛ ولطيب جوها كان جمال أهلها، وأهلها يكرمون ويحبون الغرباء، وفي حدائقها طيور ذات تغريد يثير الطرب في النفوس، وفي بساتينها بطيخ أصفر وأخضر لذة للأكلين، إنها كثيرة الخيرات ومتكاثرة الكائنات، وأنهارها جارية، أما التمر فيها فمن مائة نوع وعشرة وإذا ما نضج التمر الأحمر كان في حلاوة التين وإذا ما اصفرت التمرة بلغت

التمر طول الساعد وطولها طول التمر المعروف بالخصطاوى فى بغداد وهو لذىذ الطعم، وما فى هذه الديار من رطب لا وجود لمثله فى البصرة ولا بغداد ولا الطائف ولا الحجاز ولا الإحساء ولكن فى المدينة المنورة التمر المعروف بجلبي فهو تمر لذىذ المذاق إلا أنه قليل وفى كل عام يحمل التمر من ألواح إلى الأقاليم السبعة حمل خمسمائة ألف بعير من التمر كما أن بها الخوخ والمشمش والكمثرى والعنب والتفاح والرمان والتين والتوت كثير طيب، كما أن الجميلات فيها كثير ولكن الفقراء فيها أكثر ولذلك لا عدالة فى هذه الديار كما أنه يكثر فيها ذوى البشرة السمراء، وأهلها يتجرون فى الغنم والمعز والمعجول والبساتين والتمر وهم بذلك يعيشون فى كفاف.

الخاتمة

والله نحمد أن كتابنا هذا بلغ نهايته هنا، كما نحمد الله ونثنى عليه الثناء كله على أننا أقمنا في ديار مصر القاهرة نادرة العصر وجعلنا أوراق كتاب رحلتنا هذه المتفرقة مثل خرقة الدرويش ذات ألوان.

وكانت ألفاظها من بدايتها إلى نهايتها في عصر وإلى مصر الباشا وأتمنا كتابنا في ظل خيره ورعايته وإن كان هذا الكتاب في رأى العقلاء والحكماء لا يخلو من نقص وعيب وذلك لكثرة تنقلنا بين البلاد ولم يهتم بكتابته بالفاظ جذلة والمرجو منهم أن يفضوا النظر عن السهو والغلط، ولعلهم يسترون عيبه وأن يحوا مواضع هذا الخطأ وأن يصلحوا ما فيه الحاجة إلى إصلاحه في عبارته، فلقد حملت مسودات هذا الكتاب وأنا أسيح في البلاد خمسين عاماً وكثرة سياحتى انزويت في ركن العزلة ولم يتيسر لى أن أتبع كل ما جاء فى التواريخ، ورأيت نهاية حادث من الأحداث، ولم أقيّد فى كتابى نهاية حدث بالذات، ولكن أستاذنا فى ديار مصر الشيخ على شمرلى ألقى إليّ السمع وأخذت عنه التفاسير الشريفة والأحاديث النبوية والآيات الكريمة فأثبتها فى مواضعها، وبذلك تجرأت على كتابة هذه الأوراق (والعذر عند كرام الناس مقبول)، وأنا أدعو الله له بالخير ولم أورد المثنويات فى خاتمة الكتاب وذكرت.

هذا التاريخ كتبه أضعف الكتّاب الحاج محمد المعروف بحافظ القرآن المجيد من تلاميذ محمد راسم كاتب السراير العامرة لسنة خمس وستين ومائة وألف من هجرة من له السعادة والمجد والشرف.

وإذا سأل من ينظر فى هذا الكتاب حين يفتح صفحات هذا الكتاب وجد وصفاً لما يريد من القرى والقصبات والمدن، ففي الصفحة الأولى من هذا الكتاب ديباجة خطبة باللغة العبرية بوزن مفتعلن مفتعلن، وذكر أوصاف البلاد القديمة والعظيمة التى فى مصر المحروسة نادرة العصر أى أم الدنيا وأسماء كتب التاريخ وعرفت بالملوك الذين قدّموا وحكموا مصر قبل وبعد الطوفان ومن بنوا مدن مصر بعد الطوفان، وعرفت بمائة

وخمسين خليفة، وعرفت بالعمالة والملك طوطيس وإبراهيم - عليه السلام - وزوجته ساره، كما ذكرت حكاية اعتناق سارة للإسلام وبينت أن بوسن الصديق نبى مدينة الفيوم كما عينت تاريخ وفاته وذكرت آل ريان والأنبياء الذين قدموا مصر وذكرت كذلك حكاية الإسكندر ذو القرنين، وعرفت بشط العرب وعرفت بموسى عليه السلام ورفيقه الخضر، أما الذين قدموا مصر من آل الرسول ﷺ والذين دخلوها من الحكماء آل الأشكانيين وآل الكيانيين وآل الساسانيين وعمرو بن العاص الذى فتح مصر فى عهد عمر بن الخطاب هؤلاء ذكرتهم الآيات الشريفة صريحة وكناية، وكذلك الآيات الكريمة والأحاديث كما ورد ذكر عن الحرب التى نشبت بين عمرو بن العاص وكفار الروم، وكذلك ما وقع بين المقوقس وجميع الملوك الذين ملكوا مصر من عهد عمرو بن العاص إلى عهد السلطان العثمانى محمد الرابع أولئك عرف بهم هذا الكتاب، كما تضمن الكتاب تاريخًا للعباسيين والفاطميين والطاهريين والصفاريين والسامانيين والزياريين والبهيين وآل سبكتكين، وكذلك الغوريين والحوارزميين والسلاجقة والقرامانيين، ودولة تاج الدولة والأتابكة، وآل العمرية وآل البكيان كبير وآل الصالحين والأيوبيين وشاد الكردي وآل البحرية، ودولة الشراكسة وممالك البحرية، والتركمانيان والأكراد والقراخطانيين وآل الأيوبيين اليمنيين، وآل الملاح وآل بنى أرتق ودولة آل مروان وآل مرداس الكلابى وآل بنى أسد وآل بنى همدان وآل بنى عقيل بن أبى طالب وأمراء آل التركمانيين وآل ماهان الدانشمنديه وآل قره يوسف وآل آق قيونليين وآل دانشمند سيواس وآل ملوك أصفهان وآل دربنديان وآل شامخاليان وآل الأوزبك وآل جنكيز وكلهم اثنتا عشرة فرقة وكذلك آل جنكيز القرم وآل جنكيز ما وراء النهر وآل جنكيز إيران وتوران والتموريين من آل جنكيز صاحب خروج وأولاد تيمور خان توركان، وممالك إيران وتوران وهمدان وآل تيمور خاقان الهند ودولة ملوك السند ودولة ملوك مولتان وذكر أحوال خاقان الصين وأحوال ملك الصين الفغفور وأحوال ملك الديلم وأحوال ملك بلخ وبخارى ودولة الأنجوليين ودولة المظفرين ودولة آل جوبانيين وآل الإيلخانيين ودولة

آل كرتباى ودولة السربدارين وآل العباسيين الأكراد وحاكم الجزيرة وسيد خان وصوران وأردلان والجزيرة وبناباش وحاكم محمودى وحاكم حكارى وحاكم هيزان وحاكم بتليس وحاكم خرو وحاكم بالو وآل الكيانيين والعجم وآل الإشكانيين وآل القروانيين وآل المامانيين وآل الماهاتيان الذين هم أسلاف آل عثمان وآل بنى رسول الله وآل الهاشميين فى مكة وآل بنى قتادة.

ذكر سلاطين مصر القاهرة

وبعد أمير المؤمنين جاء الأمويون والعباسيون والإخشيديون والفاطميون وبينهما آل البحرية وبعدهم دولة نور الدين الشهيد فى الشام، ودولة الشراكسة ودولة آل عثمان الذين فتحوا مصر القاهرة، وأبو الفتح السلطان محمد خان والسلطان با يزيد خان وسليم خان الأول وأبو الفتح ومحاصر استانبول، وفاتح قليون فى فرنسا وما أحدث الإمام الشافعى فى مصر من الصوباشية وأسماء ثمانية وأربعين سلطاناً فى جزيرة مصر وكذلك ذكر أعيان مصر ووجهائها من سلاطين مصر الأوائل آل الأدارسة وآل حمودة وسلاطين الموحدين وآل بنى طاس والملثمين وآل بنى حرين والشرفاء وآل الكماليين وآل بنى الأغلب وآل بنى كلب، وآل بادنيش وآل بنى حفص وسلاطين قاش ودولة مراکش وسلاطين السودان وسلاطين فونغجستان والمملك ققان ومملك بربرستان ومملك قرمانقه ومملك بغه نسكى ومملك حردقان وهم من عبدة النار وملوك ذى اليزن وآل بنى هلال وآل الأفاريقه ومملك ماوى بورنوا ومملك أفنو ودولة ديار الجزائر ودولة طونسى ودولة طرابلس والمغرب.

ملوك الجانب الشرقى فى جزيرة مصر

أولاً ملك دومبيه وآل حاييه وسلاطين الحبش فى إقليم الحبشة وفيها ثلاثمائة ملك وفى الفصل الثانى عشر بيان عدد ما على الأرض من قرى للمشركين، أولاد كيومرت وفريته من آل دادانيان أربع طبقات، ودولة كسرى وآل الدادانيين فى جورجيا، والجورجيين، وآل آجق باش وآل كوربل وآل شوشواد وآل مكرو وآل تاجدار ومملك دار

موسكو وملك له وملك جه وملك أردك المجرى وأورته المجر والملك أسفاج وملك هولندا ودولة الدانمارك ودولة دوتقارقيزه وملك جاسار انيره طورغسه ودولة ملك انجلترا ودولة المجر الصغيرة والهرسك ومنها زرین أوغلو ويكان أوغلو وندار أوغلو وكبان أوغلو وشوار أوغلو ودودوشقه أوغلو ودولة بلاى البندقية ودولة دوبره البندقية وولاية قزل الما ودولة اريم بابا وهى رأس الدولة المسيحية هذا كله ما ذكر بيانه، وملك فرنسا ودولة جنوه العتيقة ودولة العزاندوق ودولة البرتغال الضالة ودولة الافلاق ودولة بوغدان والدولة الأوربية التى دانت لآل عثمان وهى اسلون وقورول وطوت وكروات والصرب والبلغار واللاتين والهرسك ونبيق ولار وحيلار والقزاق العاق والروس المنحوسين والبانبا والموره وجقونه الموره ومانيه أرومى واللار الأوروميه وفى جزيرة كريد الاصفاقيه الروميه، وفى جزيرة القرم طاط إلى الروميه، هذه الدول كلها تدين بالطاعة لآل عثمان. أما فى الأناضول ولاية جرستان وفيها:

أولاً جزيرة طمان الشركسية وشغاكه الشركسية، وزانا الشركسية، وزانا الكبرى الشركسية، وحاتوتاي الشركسية، والأدمى الشركسية وبولتقاي الشركسية وبوزدوق الشركسية ومامشوخ الشركسية وولاية بنى الشركسية وتققو الشركسية وولاية قبارتى الشركسية وولاية طاوسطان الشركسية لقد كتب عن كل هذه الدول على وجه التفصيل.

بيان من سكن القبيجاق والقلمان

الذين سكنوا فى بقاع أخرى من الكفار

أولاً دولة طايسى شاه وموينجاق شاه وقويه قلماخ شاه وجاقان قلماخ وكوك دان قلماخ وأورميت قالمق والقرى التابعة لها كما فيه ذكر قوم أبازه الساكنين على ساحل البحر الأسود وفى الجبال والحدائق منهم أبازه جاجلر، وأبازه ارلان وأبازه جاناندالر وأبازه جاناندالر الكبرى وأبازه كجلر وأبازه أرتلر وقوم صدشه الذين ليسوا من الأبازه والشراكه، وأبازه قامش، وأبازه سوجه لر ومن يشبهون الشراكه وهم أبازه بوزدوق وعشيرة فوتا الأبازيه، وعشيرة بوسوخو وعشيرة أج جى وعشيرة بسلب وعشيرة ملكية

وعشيرة ايبغا وعشيرة الافريش وعشيرة حجاجقورش وعشيرة ماجا وعشيرة بانجارس،
وجميع الأباره يسكنون هذه الديار.

بيان عن الروس المنحوسين

أولاً: خطمان قرداش قزاق وخطمان دوروز وثقا وخطمان سرکه وخطمان أخملينج
وبرأباش واندریا وشره مت وزابوروشقه وخرستنا وأومان وكورلو وجهرك وكلها أتباع
ملك له وبالقرب من قلعة مز الخطمان وهم التابعون لملك موسكو:

أولاً: تن صوی خطمانی وشركس القرمان الخطمانيين وخروس کرمان الخطمانيين
وكرمن منجه وكرمن سو وكرمن أسود وكرمن نورق وقرمن توقای وكرمن براص والی
قلعة ازاهه على مسيرة ثلاثة أشهر مساكن سبعين من الخطمانيين.

أما دولة قياصرة الروم ودولة القبط في مصر وإحدى وعشرون قرية وعشيرة وخطمان
ذكرت في هذه المحلة. كما ذكرت دولة اليزان ودولة البطالسة وثلاثة وعشرون فصلاً
تعرف بنشأة الدولة العثمانية:

أولاً: جد آل عثمان أرطغرل خان وآل ذو القدرية وآل رمضان وآل دانشمنديه وآل
أماسيه في قسطنطيني وآل فرهاد وآل کوتاهيه وآل کرمان وفي انكرو آل سنجان وفي
صاروخان آل صارخان وآل عماد وفي صونقور صنقورباي وفي بلاد كسكن آل كسكن
باي وفي بلاد تکه آل تکه باي وفي بلاد حميد كذلك آية باي وفي منتشا آل منتشا باي
وفي بلاد ايدين آل ايدين باي وفي بلاد لارنده آل قرمان باي وفي يلق آباد وأرطغرل باي
وأسماء سلاطين هذه الدول السالف ذكرها.

كان علاء الدين بوى بكلىرى، وأرطغرل بك وعثمان بك وأورخان بك وشهيد مراد
بك ويلدرم بك وجلبي محمد بك ومراد بك الثانى والسلطان محمد الفاتح، وبا يزيد
خان وسليم خان الأول، وسليمان خان وسليم خان الثانى ومراد الثالث ومحمد الثالث
وأحمد خان ومصطفى خان وعثمان الثانى ومصطفى خان ومراد الرابع وإبراهيم خان
والى محمد خان الرابع ذكرت أسباب فتح السلطان سليم الأول لمصر، وسيرة سليم

الأول وكيف أنه مضى إلى بغداد ومنها إلى الكعبة والمدينة ومصر والشام وحلب ثم مضى إلى القرم ثم رأس عسكره إلى أبيه وسلم ثانية فى عام ٩١٨ واستقل بالسلطنة، وقد قتل أخوته وأبناءهم وحارب الشاه إسماعيل الصفوى وقد وصفت حربه معه تفصيلاً، كما ذكرت زيارته فى بورصه لأمير سلطان فلما قال السلام عليكم رد من القبر قائلاً السلام عليكم يا فاتح مصر، وقد حارب سليم فى زحفه على مصر السلطان الغورى فى مرج دابق، وألحق به هزيمة ساحقة فى مرج دابق ومكث فى الشام عاماً واحداً وفتح من البلاد مرعش وعين تاب وحلب وعزر وكلس وانطاكية وفتح مائة وسبعين قلعة وكم قبراً وجامعاً وحمماً وخان ومساجد فى الشام، وفى الكتاب كلام عن سليم خان وقول الحق جل وعلا، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ...﴾ [الأنبياء: ١٠٥] إلى آخر الآية الكريمة، وفتح قلعة غزة الهاشم وفيها أسماء جميع مشايخ العرب كما أنه فى أرض حاسان فى مدينة بلبيس حارب سليم خان الغورى حرباً ضروساً وقد هلك الغورى فيها كما أن كل جنود مصر حصدهم السيوف، وأصبح محمد شاه خليفة للغورى لكنه خلع وخلفه السلطان طومان باى واستشهد سنان باشا فى أرض الخانكة.

فتح قلعة مصر

ذكر فى الكتاب حرب سليم العظمى وتاريخ فتح نامه الذى كتبه كمال باشا زاده ووقوع السلطان طومان باى فى الأسر وعاقبت أمر طومان باى، والاسطول العثمانى المكون من سبعمائة سفينة فى الإسكندرية بقيادة مصطفى باشا ومضى السلطان سليم إلى قصر أم القياس، كما ذكر مضى السلطان سليم إلى رشيد والإسكندرية وعثوره على خزانة السلطان الغورى فى الإسكندرية، وبيان ما سَنَّ السلطان سليم من قانون فى مصر، ووصول السلطان سليم إلى استانبول، وذكر وفاته، وكذلك بيان ما ذكر كمال باشا زاده من تقسيم مصر إلى تسع أقاليم وذكر أسماء جميع القائمين بالأمر فى مصر ورؤساء الأقاليم، كما ذكرت أسماء جميع الكاشفين فى مصر وقانون نامه سليم خان، وكذلك مراسم ديوان مصر وقوانين الملزمين وما يجب من ضرائب، وعدد الأكياس فى

مصر وما ضرب من مسكوكات كما ذكر عدد ضباط الوجقات، وعدد ثلاثة وستين من كتاب الدواوين وغيرهم من الكتاب وذكر ما يجبى ويرسل إلى الخزانة فى مصر، وما قد يترتب من خسارة فى الأموال، كما ذكرت أنواع الحيوانات وكثرة الناس، وعدد جند الفرق السبع فى مصر وغيرهم من الجند وبيان الرواتب الصغيرة فى أول كل شهر والرواتب الكبرى كل ثلاثة أشهر وجميع القوانين التى يفرضها الديوان. وفى مصر بيان أن فى مصر ستة وسبعين قضاء كما ذكر كل ما فى مصر من أسماء العلوم وما دون كتبخدا إبراهيم باشا من أسماء الكاشفين والأمراء والكتاب والمترمين وما يجبى من ضرائب من المقاطعات وسبع بنادر وما ينفق من مصروفات ويجبى من إيرادات وبيان الإصلاحات ولغة أهل مصر وأوصاف علماء مصر وساداتها ونقيب الأشراف وذكر أول من بنى القلاع فى مصر ومن ملك مصر من القبط واليونان والروم والفرنجية سنة ٣١ وذكر حكايات لطيفة وبيان حدود مصر واسم جبابرة مصر وأوصاف بلدان مصر وما فى القلاع من كنوز والقلاع التى بنيت بعد الهجرة ٥٧٣.

والتعرف بخير باشا أول حاكم لمصر من قبل العثمانيين كما ذكرت قلعة تتألف من ثلاث طوابق وغرف الانكشارية وقلعة قره ميدان وحديقتها وقصر قره ميدان مع تعيين طوله وعرضه، وما فى داخل القلاع من طلاس وبيان بالقصور الشوامخ التى بناها الأسلاف وورد وصف لقصر الوالى ومائة وستين بيتاً وتاريخ القصور والقلاع المزينة وميدان السراى وديوان قايتباى وديوان الغورى مع تعيين طوله وعرضه وتاريخها وبيان ما فيها من خطوط عجيبة وغريبة وفى الهوامش تعيين محيط كل قلعة وفى داخل القلعة بشر يوسف العجيب وغيرها من الآبار فى المدينة وعدد من قناطر الماء فى البلاد والتعريف بمنشئها وبناتها كما ورد ذكر لعدد ما فى مصر من طرق وقصور ومحيط القلعة الذى هو بضعة آلاف من الخطوط وعدد الأبواب فى كل محلة، وكم فى مصر من عدد الجوامع التى أقامها أقطاب الدين والسلاطين منها جامع عمرو بن العاص فضلاً عن الجوامع التى أقامها السلاطين فى ماضى الزمان وأقام كل منهم جامعاً على طراز

خاص مع ذكر تاريخ وأبواب ومحيط وزخارف هذه الجوامع وقد جاءت مواصفات هذه الجوامع على وجه التفصيل وورد ذكر ووصف جميع المساجد ودور العلم والمدارس ودور الحديث ودور القرآن ودور القراءة، وجميع مكاتب الصبيان وجميع تكايا الدراويش وطرق مشايخ الطرق وأسمائهم وتفاصيل هذه التكايا كما ذكرت المبرات ودور الضيافة والحمامات والخانات والربوع والمستشفيات، وذكر من يصطادون الأفاعى لعمل الترياق وذكر ما لحساء فاروق من فوائد طيبة كما أنى ذكرت فيه سيرة أوليا جلبي الفقير الحقير كما سردت حكايات عجيبة وغريبة، كما ذكرت أنواع ترياق فاروق، كما ذكرت شتى أنواع الأدوية وخواصها كما وصفت السيول وتواريخها، وكذلك الآبار والسواقي والأحواض وأسماء ثمانية آلاف وتسعمائة طريق عام ومن شقوا الخلدجان التى تجرى وسط المدينة وأسماء ما عليها من جسور، وكذلك البرك واسم من أنشأها وذكر جوامع ومخازن ومبرات بولاق وترسانتها وحى قايتباى وقدم النبى ورؤيا السلطان أحمد خان فيما يتعلق بأثر قدم النبى وجوامع حى قايتباى وأوصاف مدينة القسطنطين وهى مصر القديمة وذكر حكامها وبناتها ومن فيها من الصوفية وسبب تسميتها وما حولها من مدن وأسماء من بنوها والجوامع فى مصر القديمة ومخازن السيد يوسف الصديق - عليه السلام - وسواقي السلطان الغورى فى مصر القديمة وذكر كسر الخليج ومقاييسه ومناقب الشيخ السادات وشيوخ جزيرة أم القياس وحكاية عمر الخاصة بالمقياس وأوصاف جزيرة أم القياس وحوضها وحضور السلطان سليم والولاية بما يعرف بكسر النيل أو كسر الخليج والموكب العظيم الذى كان يمضى فيه السلطان إلى جزيرة أم القياس وذكر موكب الوالى العظيم عند ركوبه النيل فى بولاق وما كان يطلق من ألعاب نارية فى ليلة كسر النيل احتفالاً به، وما كان يقيم الوالى من ولائم مرتين فى اليوم الواحد، كما أنه يعرف بمناسبة النيل وما جاء عنه فى كتاب الله المبين وما يمر به من بلدان كما يشير إلى أنه سبعة آلاف خليج وإحدى عشرة ترعة وجاء ذكر جبابرة مصر وكلمات باللغة القبطية تجرى على الألسنة وفيه وصف لما ترتب على فيضان النيل فى بعض البلاد من أضرار

وما فى النيل من حيوانات وما لها من خصائص كالتمساح وغيره من عجائب المخلوقات، وورد ذكر للطلاسم التى فى المقياس بجزيرة أم القياس وما حكى من حكايات عجيبة عن التمساح وما فى النيل من سمك رعاش وما يحدثه من أذى وخواص التمساح وما فى مدينة قليوب من بئر ماهان، وقد أحصيت كل من فى مصر من أهل الحرف كما أحصيت عدد الدكاكين فيها ووصفت موكب مشاهدة رؤية هلال رمضان كما وصفت العيد فى مصر، وما فيه من مواكب عظيمة والمواكب التى كان يمر فيها وإلى مصر، وديوان العادلية وما كان يقيم من ولائم عظيمة، وقد ورد وصف لثلاث ليالى بالقناديل وإطلاق بنادق كما تبعت نصائح وأوامر وزراء مصر وبينت كيف كان يحبس الأعيان وفى سجونهم يرقدون على الحصى، وبينت ما يتحصل فى إحدى وثمانين خزانة فى مصر وبينت مقادير العملات من دراهم ودنانير والمحاصيل الزراعية بأنواعها كما ذكرت المقابل والمثاقيل التى يوزن ويكال بها القمح ووصفت موكب الوالى والموكب الذى كانت تحمل فيه الخزانة لترسل إلى السلطان.

وذكرت أسماء مشايخ الطرق وعرفت المحمل الشريف وعدد المواكب التى حملت فيها أربع خزائن وأحصيت عدد الخزائن، وتصديت للموالد التى تقام فى مصر، وذكرت مناقب الشيخ اللبان ومناقب السادات أبو التخصيص وأشرت إلى ما فى مصر من طلاسم ومن عجائب وغرائب وبينت أنواع الحرف التى يتكسب بها، والنباتات والفواكه التى توجد فى مصر ولا توجد فى بلاد الترك، وعرفت بالصناعات والأطعمة والمعادن على اختلافها فى مصر، وذكرت الفلاحين وأسماء النسوة، ووصفت تاج فرعون وعادات الختان فى مصر وحفلات ختان الصبيان وذكر الملاماتية والمجازيب والمشايخ ومن تستجاب دعوتهم من الصالحين وذكرت الشيخ البكرى زاده ومحمد افندى، ونقيب الأشراف برهان افندى كما ذكرت مناقب كرامات الصبيان وعرفت بطول الليل والنهار فى مصر وكافة أقاليمها وتحدثت عن بلدانها العظيمة وأقاليمها المختلفة وضررائها، وعرفت بمناقب الشيخ محمد البكرى ومناقب الشيخ على الشمرلى ومناقب

الكلشنى زاده جلبى، وذكرت ما فى مصر من طرق كما وصفت مولد الشيخ أحمد البدوى وذكرت سفرى إلى مدينة دمياط وإلى مدينة رشيد، وذكرت قصبة التفاحية وقصبة رفته وقصبة ميت غمر ووصفت عاصمة مصر القديمة مدينة المنوفية ووصفت قصبة طنطا ووصفت تفصيلاً مولد السيد أحمد البدوى، وأوصاف ميدان السيد أحمد البدوى كما وصفت محلة مرحوم وقصبة ابيار ومدينة النهارية القديمة، ومحلة أبو على وقصبة إبراهيم الدسوقى ومولده ومدينة دمنهور القديمة، ومدينة حوش عيسى، وذكرت مدينة العقاب وقلعة الإسكندرية وقلعة أبو قير والعجائب فى أبو قير وقصبة إتفو ووصفت ميناء رشيد وقلعة رشيد ومرج البحرين، وذكرت محلة الأمير وقصبة برمبال وقصبة ديبى وقصبة ادفينه وقصبة مطويس ومحلة جمشير وقصبة فزاره ومحلة ديروط وقصبة سندیون ومحلة عاطف وقصبة فوره ومحلة شرفا وقصبة شوروم بك ومحلة سالمه، وقصبة مالك ومحلة سومخرات، ومحلة الرحمانية ومحلة دسوق ومحلة أبو على وبلدة مرقاص ومحلة ديبى الكبرى ومحلة شبراخيت ومحلة شبريش ومحلة ميت جناح ومحلة مالجسق ومحلة صاح ومحلة الكفر الجديد ومحلة نقل.

وذكرت محلة فرردق ومحلة اثلیمیه ومحلة طاهرية ومحلة كفر زياد ومحلة شابور ومحلة سليمان ومحلة كفر ناحه ومحلة الكفر الجديد الكبرى، ومحلة أبو أحمد ومحلة بحيرة ومحلة زعيه ومحلة طنوب ومحلة أمروز ومحلة طرّانه ومحلة علقمه أبو الجاوى ومحلة تماليه. ومحلة جزى وأوصاف محلة طرّانه والنطرون ومحلة الزاوية ومحلة أبو فشانه ومحلة أشمون جريس وكفر شركس ومحلة قطه ومحلة أم ديتار ومحلة شراوى ومحلة وراق، ومدينة بطن البقر ومحلة شبرا ومدينة امبابه وقلعة البرلس وقصبة بلطيم ومدينة الغافية ومدينة دمياط، وقلعة التينه ومدينة فرسكور وبلدة شرباز وميت غالب وبلد رأس الخيلج وميت أبو عبد الله وبلدة طهریه، وبلد بوشاط وبلد دنجى ومحلة موشاق ومحلة مدينة شربين، وأوصاف محلة برمبال وبلد دياسط وبلدة الخيارية وبلد شيرين قاش وولاية دقهل أى المنصورة، وجاء فى كتابى ذكر لمدينة المنزلة، ووصف

مدينة ممنوط والعاصمة الثانية للغربية كما ذكرت قصبة شنباط الكبرى ومدينة القليوبية.

بيان في منازل فونجستان

أولاً: قصبة ومدينة بنى سيف العظيمة وقصبة فشنة ووصفت شجرة عمجية ومدينة المنيا المعمورة، ومدينة أشمونيين، ومدينة ملوى وقصبة صنبو ومدينة منفلوط العظيمة ومدينة أسبوط القديمة وجبل الطليمون (جبل الطير) العجيب وقصبة أبو تيج وقصبة تيمه وقصبة تحته وسكوته الجزيرة وقصبة سوهاج وقصبة المنشية وتحت الصعيد العالي ودهليز جسر جد.

بيان مدن وقلاع فونجستان

أولاً: بيان حدود آل عثمان:

أولاً: قلعة ماغراق الواقعة على حدود فونجستان وقلعة تنارة وقلعة سه سه ووصف منجنيق غل ودلعين، وقلعة نارنارنته وقلعة سندي وصحراء دانقة وقلعة وإردان وصحراء هانقوج وقلعة طومبو وقلعة جلته شوكرأوى، وقلعة حفير فونجستان وقلعة مشو وقلعة طومبول وولاية خردقان وقلعة فردانية وقلعة دفنا وقلعة أرقو وقلعة بنى وقلعة أرند وقلعة أرش وقلعة جريه وقلعة حناق القديمة وقلعة الخندق وقلعة قولى وقلعة بقر وبلاد السودان وقلعة دنقلة وحيوان الزرافة ومدينة الزغاوة، وقلعة سورطوش وأشكال العقاريت العجبية وحصن الكنيسة وجامع سليمان وقلعة أنقور ورباط دفاوه وقلعة الملك إدريس وقلعة غرى وقلعة مدينة خلفاهى العظيمة ومدينة ايلغون القديمة ومدينة قوثرأى العظيمة ومدينة عدى وقلعة حلت الملك وقلعة نوجى وقلعة أرباجى وقلعة عطشان وذكر أوصاف وحيد القرن ودابة الأرض وقلعة بقيت وقلعة حلة الركاب، وقلعة حلة الجندى وقلعة سناره عاصمة فونجستان ومقابلة ملك فونجستان، وذكر اللغة العبرية وإقليم السودان وذكر خط وفيه ولاية رميليت الجمال وقلعة أسوقه بالسودان وعجائب وأصاحيك والدعاء الهندى ومدينة أبو تمر ومدينة بروش وقلعة بروشته وقلعة دنقده وجبل سندس العجيب ووادى سلجلاه وبيان العجائب فى مدينة رميليت الجمال وولاية

جرسينقه، وبيان ومنايع النيل وبيان منازل الحبش فى فونجستان ومدينة جلامه ومدينة جنجفه ومدينة سنارة عاصمة فونجستان ومدينة بقيت وأوطاف وادى قوز العريب وولاية دوميه ومدينة بورغه وأشكال هررة المسك وقلعة ناردى ووادى ابرائش وولاية ميمونستان ومنزل دنقلاب، وجزيرة لولو ومنزل أتله ومنزل أهل الميناء وجزيرة سواكن عاصمة الحبشة ومدينة ليف وجزيرة دهلك ومن العجائب والغرائب وقلعة موصل أووا وقلعة خرق أووا وقلعة هندية وبرج طورله ومدينة خراب بهلوله ومدينة زيلع أووا القديمة وزيارت بابا مندوب وقصبة سحرنا وقلعة أوقات ومدينة هدية ومدينة رازداق ومدينة مقدسوا العظيمة ومنزل قبيلة جنتله وعرضنا بالمنازل من الحبشة إلى مصر.

وتعرفت بالفاظ الحبشية ولغة عبدة النار ومنزل حاتند أووا واللغة السريانية الفصحى ومنزل قبيلة أوقوت، واللغة العبرية ومنزل شاجه ومنزل وادى جنتطة وقلعة ابريم. تلك سياحتى أنا الحقيق ومن إبريم قبائل كنوز وقلعة طومانس وبلدة حمام فرعون وقلعة ادفو وقبائل هجيزة وقبيلة جعفرى وقلعة إسنا ومدينة أرمن الكبرى ومدينة نقاده وقصبة به هو وقصبة فرشوط وقصبة سمنهوط ومن عجائب سمنهوط مغارة بذر الكتان، وقصبة برديس ومدينة جرجا وبيان بالواحات والأواح الكبرى ومدينة قليمون. وعتت كتابة فهرس هذا الكتاب فى هذه المدينة.



محتوى المجلد الثانى

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
١٦	مولد أم القياس		الفصل الثالث والخمسون:
١٦	المولد الثانى لام القياس		فى بيان مواكب مشايخ منبع الأسرار قطب
١٦	مولد المحمودية	٣	الأبرار القطب العلوى السيد أحمد البدوى
١٦	مولد أمير أخوريه		أوصاف موكب مولد الشيخ
١٧	مولد السادات	٤	إبراهيم الدسوقى
١٧	مولد السلطان قابتبای	٥	أوصاف مولد حضرة الشيخ البكرى
١٧	مولد إبراهيم الكلشنى	٦	مولد تكية الشيخ إبراهيم الكلشنى
١٧	مولد الشيخ الطشطوشى	٩	أوصاف مولد سيدى أحمد الرفاعى
١٧	مولد الشيخ الشعراوى	٩	أوصاف مولد سيدى عمر بن الفارض
١٧	مولد الشيخ الحنفى	٩	كرامات الشيخ محمد اللبثانى
١٧	مولد الشيخ الخلوتى	١١	مولد أبى السعود الجارحى
	مولد النبى المقام فى تكية الإمام	١١	مناقب الشيخ الفانى (بيرفانى)
١٧	الحسين - رضى الله عنه -	١٢	مولد الإمام الشافعى - رضى الله عنه -
١٨	قاعدة حسنيات القاهرة	١٢	مولد تكية سيدى الشيخ أبى الليث
	الفصل الرابع والخمسون:	١٣	مولد سيدى الشيخ عقبة الجهينى
	الاماكن التزهة التى يرتادها أهل	١٣	مولد الشيخ شاهين
١٩	القاهرة العام منها والخاص	١٤	مولد الشيخ الجوشى
٢١	منتزه قصر أبى العين الظاهر ببيرس	١٤	مولد أثر قدم النبى
	الفصل الخامس والخمسون:	١٤	مولد الشيخ السادات
	فى أغرب غرائب مصر وطلاسمها	١٥	ذكر مناقب الشيخ السادات
٢٨	وعجائبها وحرف أهلها	١٦	مولد الشيخ البكرى

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
أصل تسمية مصر بأم الدنيا	٣٠	ونباتات وثمار لا وجود لها في بلاد الترك	٥١
أرض مصر التي تثير العبرة	٣٥	الفصل السابع والخمسون:	
ذكر آصرة القرى بين الإنسان والنخل		ذكر النباتات المأكولة في أرض مصر	٥٨
وشجر الجوز الهندي الأسود	٣٧	ذكر الأشربة المصرية	٦٥
خاصية أرض مصر	٣٩	الفصل الثامن والخمسون:	
صناعة النشادر	٣٩	ذكر ما لا وجود له في مصر من	
عملية إنفجاج العنب	٣٩	حرف وأطعمة ونباتات وغلل	٦٧
عملية إنفجاج الشمام والبطيخ	٤٠	بدع حكّام مصر	٦٩
ذكر معدن الذهب	٤٠	الفصل التاسع والخمسون:	
مدينة عين شمس	٤٠	ذكر اعتدال جو مصر وبدع ومحاسن	
جبال الأهرام وهي من عجائب الغرائب	٤١	شعبها قدر المستطاع	٧٠
تمة الحديث عن الأهرام	٤٦	أسماء فلاحي مصر	٧٤
ذكر عجائب الأشكال الطلسمية لأبي		ذكر نساء مصر	٧٤
الهول والذي يسمى في العبرية (بلميب)	٤٦	أسماء نساء مصر	٧٥
طلسم أبي الهول	٤٨	وصف تاج العروس الفرعوني	٧٧
نعم الله على مصر	٤٨	أوصاف الاحتفال بختان البنات	٧٨
من خواص أحجار مصر	٥٠	وصف الاحتفال بختان الصبيان	٧٩
طلاسم أم القياس	٥٠	فضائل أهل القاهرة	٨٠
من تنبؤات المنجمين	٥٠	فضيلة أخرى لأهل القاهرة	٨١
طلاسم القلعة الداخلية	٥١	مصدر رزق فقراء القاهرة	٨١
ذكر ما في مصر من أطعمة وأشربة		وصف الملامين	٨٣

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
١٣٣	مشهد المقتصد بالله داود بن المتوكل	٨٤	المجاذيب الإلهيون
١٣٣	مشهد المستكنى بالله سليمان بن المتوكل		الفصل الستون:
١٣٣	مشهد المستنجد بالله يوسف بن المتوكل		العلماء المستجابة دعوتهم فى مصر
	مشهد المتوكل على الله عبد العزيز		وشيوخها وقضلاء الدهر فيها
١٣٤	ابن يعقوب	٨٥	وأئمتها وخطباؤها
١٣٥	مشهد المستمسك بالله		الفصل الحادى والستون:
١٣٥	مشهد الملك الكامل	٩٤	ذكر البكوات والأعيان سليلى الأسر العريقة
١٣٥	مشهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون		الفصل الثانى والستون:
١٣٦	قبر الأشرف الأيوبي	٩٧	ذكر أقاليم مصر
١٣٦	مشهد الملك الصالح نجم الدين أيوب	١٠٧	وصف الأقاليم السبعة من منظور آخر
١٣٦	مشهد الملك العظيم طوران شاه	١١٠	سرّ الهى فى مصر
	مشهد طومانباى والسلطان محمد		الفصل الثالث والستون:
١٣٨	ابن السلطان الغورى	١١١	أضرحة سلاطين السلف والعلماء
١٣٨	مزار الشيخ ذى النون المصرى	١١١	ذكر أضرحة أولياء الله والمشايخ والصلحاء
١٣٩	ضريح الشيخ أبى السعود الجارحى	١٢٩	مقام سيدنا موسى - عليه السلام -
١٣٩	مشهد رأس الإمام الحسين	١٢٩	ضريح الشيخ مرزوق كفافى
	مزار سلطان العاشقين سيدى الشيخ	١٣٠	مزار الشيخ الشعراوى
١٤٠	عمر بن الفارض الحموى المصرى	١٣٠	مزار السلطان أيبك التركمانى
	مزار الشيخ الجوشى فوق جبل	١٣١	قبر المستنصر بالله
١٤١	الجوشى	١٣٢	مشهد الحاكم بأمر الله
١٤٤	ذكر أوصاف مولد أبو هريرة	١٣٢	قبر الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكنى
١٤٥	عبرة	١٣٢	مشهد المقتصد بالله المتوكل

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
١٨٤	أوصاف مولد السيد أحمد البدوى بصحراء طنطا	١٥٥	فى بيان كرامات شيخ الشيوخ الشيخ على الشمرلى الفصل الرابع والستون:
١٨٦	فصل فى بيان اللاعبين وأصحاب المهارات فى مولد البدوى		فى بيان أسماء المحلات الموجودة على الطريق الرئيسى للسلطين وكل الأعيان فى مصر
١٨٧	عجبية أخرى	١٥٩	الفصل الخامس والستون:
١٩٦	مزار محلة المرحوم		فى بيان ذهابنا إلى مولد أحمد البدوى وزيارتنا دمياط ورشيد والإسكندرية
١٩٨	فى بيان أضرحة تلك المدينة	١٦١	أوصاف مدينة زفتى
١٩٨	أوصاف مدينة نهارية	١٦٧	فى بيان الأضرحة الموجودة بميت غمر
٢٠٢	أوصاف مزار الأولياء بمدينة النهارية	١٦٩	عجبية وغريبة
٢٠٦	فى بيان مولد النهارية	١٧٢	مزار منوف
٢٠٧	أوصاف قصبة إبراهيم الدسوقى	١٧٣	أوصاف قصبة طنطا مرقد قطب الانقصاب السيد أحمد البدوى
	النازل التى مررنا بها فى طريقنا إلى دمنهو	١٧٤	أوصاف ضريح أحمد البدوى
٢١٥	أوصاف المدينة القديمة دمنهور	١٧٦	أوصاف الخرقه الشريفة والشال
٢١٥	فى بيان الأولياء المدفونين داخل وخارج دمنهور	١٧٨	أوصاف ضريح الشيخ عبد العال
٢٢١	مناقب المجارب	١٧٩	فى بيان أولياء الله المدفونين بمدينة طنطا وهم على طريقة البدوى
٢٢٩	فى بيان مدينة العقاب	١٨٠	مناقب البدوى
٢٣٠	أوصاف قلعة الإسكندرية	١٨٢	
٢٣٥	فى بيان فتح قلعة الإسكندرية		
٢٤٠	فى بيان سبب دمار منارة الإسكندرية		
٢٤٠	أوصاف قلعة أبو قير		
٢٤٦			

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
٢٨٤	الشرقية	٢٤٩	أوصاف إدكو
	بيان الأولياء الذين عرفناهم في		بيان مَنْ دفن في أدكو من كبار
٢٨٥	زيارتنا في مقبرة دمياط	٢٥٠	الأولياء
٢٨٨	أوصاف قلعة تينة	٢٥١	أوصاف ميناء رشيد
	الفصل الثامن والستون:	٢٥٥	قبور الأولياء داخل وخارج المدينة
	أوصاف منزل فرسكور في مدينة	٢٥٥	أوصاف قلعة رشيد
٢٨٩	فارس القديمة	٢٥٦	أوصاف بوغاز رشيد
٢٨٩	كفر سليمان آغا		الفصل السادس والستون:
٢٩٦	أوصاف مدينة المنزلة القديمة		أوصاف القصبات والقرى على ضفتي
	الفصل التاسع والستون:	٢٥٩	النيل في السفر من رشيد إلى أم الدنيا
	ما أصدر والى مصر إبراهيم باشا	٢٦٧	بيان معادن النظرون الطبيعى
٣١٠	وما كتب من رسائل		أوصاف مدينة امبابه وهى عاصمة
٣٢٤	أوصاف مدينة أسيوط القديمة	٢٧١	كشوفية الجيزة
٣٣٢	أوصاف قصبة سوهاج	٢٧٢	بسولاق
	أوصاف مدينة جرجا - عاصمة		الفصل السابع والستون:
٣٣٣	الصعيد القديمة		بيان ما شاهدنا في طريقنا من مصر
٣٤٥	أوصاف مدينة قنا	٢٧٣	إلى قلاع دمياط والبرلس وتينة
٣٤٧	بيان ما في مدينة قنا من قبور الأولياء	٢٧٤	أوصاف قلعة البرلس القديمة
٣٤٨	أوصاف قلعة ميناء القصير	٢٧٨	أوصاف ميناء دمياط القديمة
٣٤٩	أوصاف مدينة قوص القديمة	٢٨٣	أوصاف قلعة دمياط العتيقة
٣٥١	أوصاف ولاية أشمون (الأقصر)		أوصاف القلعة الغربية المقابلة للقلعة

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
٤٢٦	أوصاف عجائب جبل سندس	٣٥٦	أوصاف قلعة أسوان
٤٣٠	وادي شلجلاه	٣٥٩	ولاية النوبة
	أوصاف مدينة رومية الجمال العظيمة	٣٦٨	أوصاف قلعة أبريم القديمة
٤٣٠	أوصاف مدينة رميله		الفصل الحادى والسبعون:
٤٣١	أوصاف ولاية مدينة جرسينقه وبيان منايع النيل	٣٧١	الرحلة من إبريم إلى فونغختان
٤٤١	الفصل الثالث والسبعون:		بيان بمنارل وقلاع وبلاد وقصبات فونغختان
	بيان المنازل من السودان من مدينة أرباجى إلى الحبشة	٣٧١	أوصاف ولاية فونغختان وقلعة
٤٤١	أوصاف جزيرة مدينة سواكن	٣٧٥	ماغرات راغستان
٤٤٧	أوصاف مدينة كيف القديمة	٣٩١	أوصاف بلاد السودان
٤٤٨	أوصاف جزيرة دهلك	٤٠٤	التعريف ببلدة الأرض
٤٤٩	أوصاف جزيرة قلعة موصل أووا	٤٠٧	وصف ولاية السودان وقلعة سنار
٤٥٠	أوصاف قلعة هنديه	٤٠٩	فى بيان حد السودان
٤٥٦	أوصاف مدينة زيلع القديمة	٤١٠	أوصاف قلعة مدينة سنار عاصمة السودان
٤٥٧	منزل وادى جانيج	٤١٢	اللغة العبرية
٤٦٠	بيان القرى والقصبات والمدن من إبريم إلى مصر	٤١٣	أسماء أهل فونغختان
٤٦١	الخاتمة	٤١٦	زيارة ضرائح سنار عاصمة فونغختان
٤٨٩	المحتوى		الفصل الثانى والسبعون:
		٤١٩	بيان العودة من مدينة سنار عاصمة فونغختان
		٤٢١	من العجائب والغرائب
		٤٢٢	من المضحك المعجب